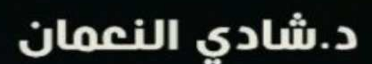
مصابيح الظلام



مصابيح الظلام

«قصة الدعوة النجدية وأئمتها كأنك تعيشها، وقراءة تقريراتهم العلمية في ضوئها»

بقلم

شادي النعمان

مركز النعمان للبحوث

من حديث الذكريات!

عشتُ أكثرَ سنوات عمري بعيدًا عن الوطن..

ولما عدتُ نزلتُ صنعاء..وبقيت فيها بضع سنين..

ولم يُكتب لي أن أعيش معها قصة حب..لا من طرفين .. ولا من طرفٍ واحد!

لطالما كانت صنعاء لي مدينةً أسكنُها ولا تسكُنُنِي!

أمشي على خطوط ذاكرتها دون انتباه..

وأدلف في أزقَّتها بلا أمل..

وأمشي على حافات تاريخها دون التفات..

ليلتَها[1]..كانت صنعاء كقبور لا تسكُنُهَا إلا أرواحنا..

وليس بها سوى صرخات..لا يسمعها إلا نحن..

يقول البردوني: ماذا أُحَدِّثُ عن صنعاء يا أبتي.. مليحة عاشقاها السل والجربُ..

ماتت بصندوق وضاح بلا ثمنٍ..

وفي تلك الليلة باعت صنعاء نفسها بلا ثمن أيضا! وتواطأت مع الغزاة القادمين من كهوف الشمال..

قديما قال عنترة: وإذا نزلتَ بدار ذُلٍّ فارحلِ..

وإن لم تكن صنعاء في تلك الليلة هي دار الذل هذه فلا أدري ما هي إذن!

رحلتُ..

وفارقتُ الحبيبَ بلا وداعٍ...وودَّعتُ البلادَ بلا سلامِ

وصلتُ في الليلة ذاتها إلى ثغر عدن وبَقيتُ هناك..

وهناك .. كانت الحياة غير الحياة..

---

[1] ليلة اجتياح عصابات الموت الحوثية.

فعلى ضفافها رُفِعت رايات الدفاع عن الدين والأرض والعرض..

وفي أزقتها تعالت الهتافات.. وبين حواريها خرجت الأمهات..

الجميع كان متأهبًا للدفاع عن دينه وأرضه ..

وقَفَت عدن ووقف أهلها يومها للإسلام والسنة والكرامة والإنسانية والعزة أيّ موقف..

أعادت لنا روحًا كانت قد سُلِبَت منَّا

وأحيت فينا شيئا كان قد مات!

وفي هذه الأجواء بدأتُ في كتابة شيءٍ كان لابد أن أكتبَه ..

عن الإمامين الكبيرين محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود..

فقد كانا رمزين لكل حُرٍّ يدافع عن دينه وكرامته وأرضه وأرض أجداده ..

ثم غادرتُ اليمن متنقلاً بين أكثر من ثلاثين بلدا..

من نيوغينيا على حدود أستراليا في أقصى الشرق..إلى حواري باريس في الغرب

ومن بحيرات النرويج في الشمال إلى أدغال أفريقيا في الجنوب..

وكلما سنحت لي الفرصة كتبتُ..

غادرت اليمن وبَقِيَت صنعاءُ تلاحقني..

غادرتُ ولم تغادرني صرخات أطفال اختطفوا.. في تلك الليلة..

وأنات أصدقاء اعتقلوا..وذكرى رفاق قُتِلوا فرحلوا..

صوت المدافع .. القذائف .. لا يزال يملأ أذني..

هل سننسى ..أم أن النسيان سينسانا؟!

الحربُ حربٌ..جراحُ أجسادِنا تذهب..ولكنّ الندوبَ في أرواحِنا..تبقى!

قد نخرج من الحروب بخير..إلا أن شيئا ما بداخلنا لا يعود بخير كما كان..

ولا أعرف ما هو!

ولا أدري أنا وغيري إن كنا سنعود إلى بيوتنا في صنعاء مرة أخرى..

لا أظن ذلك..ولم يعُد هذا يهمنا..

وبعد ما رأيناه في تلك الليلة .. الحياة بأسرها لم تعُد تهمنا!

الذي يهمنا الآن.. أن يتذكر أبناؤنا..أننا لم نرضَ ليلتَها الدنية في ديننا..

وأننا لم ننحني يومها لنقبل جبهة العار..!!

إهداء

إلى عمالقة الجنوب..هناك في عدن وما حولها..

إلى ملوك سبأ..على أرض مأرب الطاهرة..

إلى أحفاد عبد الرزاق والشوكاني الذين يتلألؤون في ليل صنعاء الدامس..

إلى كل من وقف في تلك الليلة يدافع عن دينه وأرضه بما يستطيع..

إلى كل من انتصر لمظلوم أو مكلوم بكلمة أو بنصف كلمة..

إلى ابتسامة طفل .. قتلها الغزاة في مهدها

إلى روح أم فقدت ولدها

إلى مَدَدِ جيران لنا.. كان لنا على الأرض كغيثٍ ساقَهُ الله من السماء

هذه قصة أسلاف لكم ..

تكالبت عليهم الأمم.. فثبتوا..

وأظلمت الدنيا من حولهم..فكانوا هم مصابيح الظلام..

وأناروها توحيدًا وعدلاً..

كتب:

شادي النعمان

حرًّا طليقًا كطيرِ السماء

مهاجرا بدينه في أرض الله الواسعة

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

فقد كنتُ أخرجت قبل سنة تقريبًا من وقت كتابة هذه السطور بحثًا علميًّا بعنوان «الانتصار للدرر السنية».

وكان موضوع البحث جمع النقولات والتقريرات والآراء التي نرى أنها تمثل قاعدة متينة نستطيع من خلالها بناء تصور واضح شامل منضبط لمنهج الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأئمة الدعوة النجدية في أبواب التكفير والقتال من خلال مدونة «الدرر السنية» فقط لكثرة اللغط حولها.

وقد طالبتُ في مقدمة ذلك العمل مَن يتفق معنا في الانتساب لعقيدة السلف ويتفق معنا في الأصول العلمية التي ننطلق منها في فهم تقريرات التكفير والقتال في خطاب الشارع وفي لغة العلماء سلفًا وخلفًا ولكنه يخالفنا فيما نتبناه من انضباط أئمة الدعوة في هذا الباب أن يقرأ الدرر السنية قراءة علمية مجرّدة ثم يبرز لنا النصوص التي تؤيد انحرافهم في هذا الباب عن طريق السلف ومحققي أهل العلم.

ولـم أطَّلع إلى الآن على شيء من ذلك.

وإلى أن تخرج نقولات هؤلاء الباحثين الأفاضل سنستمر فيما نحن فيه، وننتقل إلى خطوة جديدة في توضيح وجهة نظرنا ومعالجة ما قد يقع في قلوب وعقول بعض قرّاء «الدرر السنية» وتراث أئمة الدعوة من أوهام وخلل.

في هذا البحث سأبيِّن للقاريء الآلية التي أفهم بها التقريرات التي أوردناها في «الانتصار» وغيرها، وسأبيِّن له كيف أقرأ تراث الشيخ وأئمة الدعوة، وسأقوم بجمع عامة النصوص

التي يُساء فهمها في تراثهم، وأُبيّن كيف أفهم هذه النصوص التي قد يُظن أنها تخالف ما تقرره تلك النقول، سأوضح له الطريقة التي أَتَّبِعُها في تكوين بناء معرفي متكامل عن هذه القضية بالصورة التي أعتقد أنها منضبطة من الناحية العلمية ومنصفة من الناحية الخُلُقية.

ولهذا يُعَدّ هذا البحث مكمِّلا لبحث «الانتصار»، وسأكثر من العزو إلى نقولاته هنا اختصارًا.

القراءة الشخصية :

في هذا البحث، لا أقلد أحدا، بل أستفيد وأنتفع وأسترشد بالآخرين، لأنني إن أردتُ تكوين رأي شخصي لي في مسألة علمية فلابد أن تكون لي قراءتي الشخصية، ولهذا فالتصور والأحكام والنتائج المذكورة في هذا الكتاب ناتجة عن قراءتي الشخصية لأكثر تراث الشيخ وأئمة الدعوة الذي بين يدي وفهمي الشخصي له مع الاستضاءة والاسترشاد والانتفاع بالآخرين.

خصائص التراث المراد دراسته :

لديَّ شغفٌ بالقراءة وجرد المطوَّلات وقد تكوَّنَت عندي بالممارسة قواعد هامة في فنون القراءة وجرد المطولات، يهمني منها هنا قاعدة واحدة وهي أن (لكل تراث خصائصه التي تميزه عن غيره).

ومن أراد الانتفاع بقراءة مؤلفات مدرسة معينة والاستفادة منها وضبط فهمها عليه أولا تلمس خصائص مؤلَّفات هذه المدرسة، أو هذا المؤلِّف، أو ذاك الاتجاه.

فتراث السلف الصالح له خصائص تميزه عن كل ما سواه..

تراث ابن تيمية له خصائصه، تراث ابن القيم له خصائص تختلف عن تراث شيخه..تراث الذهبي.. تراث ابن حجر..خصائص تراث حنفية جيل محمد بن الحسن تختلف جذريا عن خصائص تراث جيل ابن عابدين.. مؤلفات المصطلح قبل ابن الصلاح تختلف عما

بعده..خصائص مدرسة التفسير الأثري ورائدها الطبري تختلف عن غيرها..خصائص مدرسة رسالة الشافعي الأصولية تختلف عن أصولية المتأخرين..إلخ.

ومدرسة الدعوة النجدية وتراثها لها خصائصها التي تميِّزها عن أية مدرسة تجديدية أخرى في تاريخ الإسلام، وهذه الخصائص هي التي سنسلط عليها بعض الضوء في هذا البحث.

التراث ابن زمانه ومكانه :

إن التراث ابن زمانه ومكانه، وأيّة محاولة لقراءة تراث إمام أو اتجاه أو مدرسة..قراءة جامدة مجرَّدة عن محيطها، تكون جناية لا قراءة..وهي محاولة محكوم عليها بالفشل قبل أن تبدأ..وهنا يكمن الخلل الرئيس في القراءة المختلة لتراث الشيخ وأئمة الدعوة.

فإن انضاف إلى ذلك عدم ضبط المسائل من رأسها، وعدم استيعاب القضايا من أصولها، وعدم الإلمام بالتقريرات من جذورها .. تضاعفت الجناية!

إن السياقات الزمانية والمكانية والموضوعية للتراث كالوعاء للماء، وأنّى يُحمل ماء بلا وعاء!

هذا فيما نرى هو مفتاح دراسة كل تراث وأية تراث، دراسة جادة تهدف لفهمه وإدراك مراميه، واستيعاب مضامينه المعرفية..

لابد من أن نستصحب الظروف، والأحوال، والملابسات، والحاجات والمقتضيات الواقعية العملية التي واكبت عملية (ولادة) هذه النصوص وتقرير تلك الآراء...

لا بد من هذا لإدراك وجهة النصوص التراثية وأبعاد مدلولاتها..

وكلّما كان ذلك التراث المدروس ألصق بالأرض وأكثر واقعية من غيره، تأكّدت دراسة تلك العوامل التي أحاطت به.

إن تراث الإمام محمد بن عبد الوهاب وأئمة الدعوة تراثٌ حيٌّ، يعمَل في وسطٍ صاخبٍ من الإنجاز والبناء..فلا بد إذن من قراءته بحيويته هذه..

تراث يُعالج واقعًا..فلابُد من قراءته بواقعيته تلك..

تراثٌ ظهر في زمان غير الزمان..فلابد من قراءته تحت مظلة زمانه..

ومكان غير المكان..فلابد من السفر معه إلى مكانه!

هذا كله ضروري لقراءة تراث الإمام وأئمة الدعوة وفهمه وتقييمه والانتفاع به..ثم الاستفادة منه عمليًّا وتطبيقيًّا متى ما تكررت تلك الظروف والملابسات التي واكبت ولادة وظهور هذا التراث.

مراجع البحث

تنقسم المعلومات الواردة في هذا البحث إلى ثلاثة أقسام رئيسة:

أ: تأريخ شخصي و زماني، كالحديث عن حياة الشيخ ومراحل الدعوة.

ب: تأريخ علمي كالحديث عن آراء أئمة الدعوة العلمية.

ج: تأريخ الصراع الديني والسياسي.

أما **التأريخ الشخصي والزماني** فقد كان عمدتي فيه المراجع الأصلية المعتمدة عند أئمة الدعوة أنفسهم في ترجمة الإمام وتاريخ دعوته، وأهمها تاريخ ابن غنام المسمى بـ«روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام»[1] وتاريخ ابن بشر المسمى بـ«عنوان المجد في تاريخ نجد»[2]، وما سطره أولاده وأحفاده في مؤلفاته عن قصته وتاريخ دعوته وعامتها مجموع في «الدرر السنية».

فقمتُ بتكوين صورة مختصرة متكاملة عن الخطوط الرئيسية في حياة الشيخ وقصة الدعوة التي تصب في خدمة موضوع البحث من خلال هذه المراجع.

---

(1) العزو للطبعة الأولى لدار الثلوثية.

(2) العزو للطبعة الرابعة لدارة الملك عبد العزيز.

وكل مَن يحاول أن يترجم للإمام أو أئمة الدعوة من خلال مراجع ثانوية أو يشغل نفسه بما سطره المعاصرون ابتداءً فقد تنكّب عن أصول البحث العلمي، ففي هذه المراجع الأصلية كفاية وغنية.

أما ما في كتابات المستشرقين من أخطاء وخرافات فحدّث ولا حرج.

أما **التأريخ العلمي** بمعنى تقرير الآراء والأقوال العلمية التي يتبناها الشيخ أو أئمة الدعوة في موضوع ما، فقد كان عمدتي فيه مؤلفات الشيخ ومؤلفات أئمة الدعوة وتقريراتهم ورسائلهم وأبحاثهم، وقد قرأت عامة ما يتصل بموضوع بحثي من تراثهم[1].

ولا توجد أية طريقة علمية أخرى –أصلا- لإثبات أقوال أئمة الدعوة وتقريراتهم إلا هذه، فأقوال الشافعية تؤخذ من المعتمد من كتبهم هم، وآراء الأشاعرة تُعرف من الموثوق من تراثهم هم، وتقريرات أية مدرسة علمية في الدنيا تؤخذ من تراث تلك المدرسة، أما المتحاملون على الإمام وتراثه فينسبون له ما في كتب خصومه، ويقوِّلون أئمة الدعوة ما قَوّلوهم، فلا يكلفون أنفسهم حتى عناء البحث عما في كتبهم هم.

بل يقوم بعض الباحثين اليوم بتجاهل ما في كتبهم وتقويلهم ما في كتب خصومهم!

أما **تأريخ الصراع الديني والسياسي** الذي حدث في نجد، فيندرج تحته أمران بصفة رئيسية:

الأول: الحالة السياسية والدينية التي كانت تعيش فيها نجد عندما ظهرت الدعوة.

الثاني: الصراع الديني والسياسي الذي حدث بين الدعوة ومؤيديها وبين المعسكر المخالف لهم.

---

[1] وإن كنت لا أدّعي الاستقصاء بل ولا صفاء الذهن حال كتابة هذا البحث فقد غادرت مكتبتي وخلّفت ورائي عامة مراجعي لبعض الظروف.

وتقتضي أصول البحث العلمي النزيه في هذا القسم -بخلاف سابقَيه- أن يتم استعراض رواية الدعوة النجدية ورواية أعدائها أيضا عن هذه الحالة وذلكم الصدام الذي حدث، للوصول إلى حقيقة ما حدث.

ولهذا فقد قمت بتقرير هذه المواضيع من خلال الرواية التي قدمها الشيخ وأئمة الدعوة ومؤرخوها، كما قمت بذكر رواية المخالفين للدعوة وبعض المحايدين.

إلا أنه لما كان الباحثون **المستهدفون بالنقاش في هذا البحث** من المنتسبين للسنة، وكانوا لا يُكَذِّبون الإمام المجدد وأئمة الدعوة -إلى الآن على الأقل- بل يقتصرون على التصريح بمخالفة بعض آرائهم في أبواب التكفير والقتال فحسب، فلم نتوسع الآن في إيراد كل اتهامات وأطروحات أعداء الدعوة من خارجها.

وبعد الخروج من دائرة الباحثين المنتسبين للسنة وأهلها، قد نقوم بإذن الله بتخصيص بحث خاص نجمع فيه مجمل ادعاءات أعداء الدعوة وخصومها ونتوسع في إيرادها ومناقشتها.

سياقات قراءة تراث الإمام المجدد وأئمة الدعوة

في هذا البحث سأقوم بتسليط الضوء على السياقات التي يجب أن يُقرأ تراث أئمة الدعوة في ضوئها فيما أرى لتجنب سوء القراءة وخلل النتائج.

وقد قسمت هذه السياقات إلى أربعة أقسام:

السياقات: (أ) الزمانية، (ب) والمكانية، (ج) والموضوعية، (د) وسياقات الأحوال.

أما السياقات الزمانية:

فالمقصود منها أهمية قراءة تراث أئمة الدعوة في ضوء سياقاته الزمانية المختلفة، فقد كانت تقريرات أئمة الدعوة تختلف وتتشكل بناء على التطورات الزمانية المرحلية التي تمر بها الدعوة.

والسياقات الزمانية الرئيسية التي يجب التنبه لها وفهم تقريرات أئمة الدعوة الخاصة بكل مرحلة منها في ضوئها وهي التي اعتمدتها في تقسيم العرض الزماني لتاريخ الدعوة في الكتاب هي:

أ:مرحلة الاستضعاف والدعوة والعلم.

ب: مرحلة السلطة مع الدعوة والعلم.

ج: مرحلة الإقصاء من السلطة.

د: مرحلة الدولة.

هـ: مرحلة القتال.

أما السياقات المكانية:

فالمقصود منها أن بعض تقريرات أئمة الدعوة لم تكن عامة لكل مكان بل كانت تقريرات محصورة بمكان دون مكان، فإذا ما خرجنا من الدائرة المكانية التي تختص بها تلك التقريرات اختلفت هذه التقريرات بشكل جذري في علاج الواقع، علما بأن هناك تداخلا بين السياقات الزمانية والمكانية.

وأهم السياقات المكانية هذه التي سلطت الضوء عليها في البحث هي:

مرحلة السلطة والتغيير باليد الزمانية ينبغي ملاحظة تقسيمها لقسمين مكانيين:

أ: ما كان تحت أيديهم وداخل دائرتهم.

ب: ما كان خارجا عن دائرتهم.

ومرحلة القتال وأدبياته وتقريراته ينبغي ملاحظة تقسيمها لقسمين مكانيين:

أ: المناطق الداخلة في دائرة الصراع .

ب: المناطق الخارجة عن دائرة الصراع.

السياقات الموضوعية:

أما السياقات الموضوعية فالمقصود بها أهمية فهم كل تقرير من تقريرات أئمة الدعوة تحت بابه الموضوعي، أي ما هو الموضوع العلمي الذي يناقشه هذا التقرير تحديدا؟

فتقريرات أئمة الدعوة طَرَقَت عشرات المواضيع العلمية، وقد لاحظت من كثيرٍ من الباحثين أن سبب الخلل القرائي لتراث أئمة الدعوة لديهم هو تداخل هذه المواضيع في أذهانهم، وبالتالي استشكال هذه التقريرات، ولو أنهم قرؤوا كل تقرير في سياقه الموضوعي الخاص به، لما وقعوا في هذا.

سياقات الأحوال:

أما سياقات الأحوال، فالمقصود بها التفريق بين الأحوال المختلفة والمتنوعة للأشخاص والطوائف والجهات الذين استهدفتهم تقريرات أئمة الدعوة ، وعملية الربط بين التقرير وبين حال الشخص أو الطائفة أو الجماعة التي استهدفها أئمة الدعوة بهذا التقرير.

وهناك سياقات الأحوال كثيرة سلطت الضوء عليها في هذا البحث منها:

أ: الفرق بين حال المنتسب للملة المتلبس بالشرك في بيئة تشبه زمن الفترة، فهذا له تقريرات خاصة عند أئمة الدعوة، وحال المنتسب للملة في بيئة أمر التوحيد فيها مشتهر منتشر فهذا له تقريرات مختلفة.

ب: الفرق بين حال المقاتلين الدينيين من أفراد أو طوائف أو مناطق أو حكام، وهم أولئك الذين أعلنوا قتال الموحدين قتالا دينيا لوأد دعوتهم وإطفاء حركتهم.

وحال الموادِعين من أفراد أو طوائف أو مناطق أو حكام، وهم أولئك الذين كانوا يختلفون مع الدعوة علميا وفكريا ولكنهم لم ينخرطوا في دائرة الصراع المسلح معها.

وهناك اختلاف جذري في التقريرات المتصلة بكلٍّ من هاتين الطائفتين، كما سيأتي معنا.

المقصود هنا أن الفكرة الرئيسة التي يقوم عليها هذا البحث، هو ملاحظة هذه السياقات والقوالب الزمانية والمكانية والموضوعية والحالية، لأني أرى أن هذا هو أهم أسباب خلل القراءة لتراث أئمة الدعوة، حيث يقوم كثير من المتعاملين مع نصوص أئمة الدعوة بغير بصيرة، بانتزاع النص من سياقه الزماني ليوضع في سياق زماني آخر لا علاقة له بخصائص الزمان الذي قُرِّرَت فيه تلك النصوص ، أو ينتزع النص من قالبه المكاني فيطبق في مكان آخر لا علاقة له بخصائص ذلك المكان، أو تختلط السياقات الموضوعية على القاريء فيقرأ نصًّا معينا يتحدث في سياق موضوعي معين ثم يقوم بخلطه بموضوع آخر لا علاقة للنص به، أو يطلع على تنزيل الدعوة لحكمٍ ما على شخص أو طائفة لها أحوال معينة، فيقوم بتنزيل نفس الحكم على طائفة أخرى تختلف أحوالها عن أحوال تلك وهكذا.

المختصر:

سأقوم بإذن الله باختصار الكتاب بحذف المباحث العلمية الدقيقة المناسبة للمتخصصين، والمسائل التي لا تنفع العامة، لنشر الكتاب بين طبقات القراء المختلفة وتعريفهم بقصة الدعوة النجدية على حقيقتها.

متى وأين بدأت القصة

الزمان : قبل أكثر من ثلاثة قرون

المكان : منطقة أهملها التاريخ لقرون اسمها (نجد)

(1)

ترجمة الشيخ

النشأة العلمية ومرحلة ما قبل الرحلة في طلب العلم

«هو محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن راشد بن بُريد بن محمد بن بُريد بن مشرّف [التميمي].

ولد سنة خمس عشرة بعد المائة والألف من الهجرة النبوية، في بلد العُيينة من البلدان النجدية.

نشأ الشيخ في أسرة علمية كان لها أكبر الأثر في تعلقه بالعلم منذ الصغر، **فجده** سليمان بن علي«كان أفقه من نزل نجدًا في وقته، فتخرَّجَ عليه خلقٌ كثير من أهل نجد، منهم ابناه عبد الوهاب وإبراهيم»[1].

وكان **عمه** يسافر إلى ما حولهم من البلاد، لحاجتهم إليه في الإفتاء، ، وكان عليه اعتمادهم فيما كتبه وأثبته[2].

ووالده كان «مفتي البلاد والمتولي للقضاء في العارض، وكانت آثاره وتصنيفه وفتواه تدل على علمه وفقهه»[1].

---

[1] «الدرر السنية» (12/ 6).

[2] «الدرر السنية» (12/ 6).

«فأنبته الله نباتًا حسنًا، وبقي بعد سن الطفولية زمنًا يتعلم القرآن، معتزلا في غالب الأوقات لعب الصبيان، حتى حفظ القرآن عن ظهر قلب قبل بلوغه العشر.

وكان حاد الفهم، وقَّاد الذهن، ذكيًّا، سريع الحفظ، فصيح اللفظ، ألمعي الفطنة، نبيه.

واشتغل في العلم على أبيه ، وجدّ في الطلب، وأدرك بعض الأرب، وهو في بلد العيينة في تلك الحال، قبل رحلته لطلب العلم والارتحال، وتطوافه له في كثير من البلاد، حتى نال منه المراد.

وكان والده يتعجّب من فهمه وإدراكه، قبل البلوغ ومناهزته الاحتلام، بشهادة أخيه سليمان، حتى كان يصرح الوالد بأنه يستفيد من ولده محمد في الأحكام، وأكثر من الثناء عليه في هذا الباب. وبعد بلوغه الاحتلام كان أبوه يقدمه للصلاة بالجماعة.

وأخذ في القراءة على والده في الفقه على مذهب أحمد.

ورزق مع الحفظ سرعة الكتابة فكان يحير أصحابه بحيث إنه يخط بالخط الفصيح في المجلس الواحد كراس من غير سآمة ولا نصب ولا التباس»[2].

بل صار الشيخ يناظر أباه وعمه في بعض المسائل بالدليل، على بعض الروايات عن الإمام أحمد، والوجوه عن الأصحاب، فتخرج عليهما في الفقه، وناظرهما في مسائل، قرأها في الشرح الكبير والمغني، والإنصاف، لما فيهما من مخالفة ما في متن المنتهى والإقناع[3].

التحليل الموضوعي:

نستطيع أن نطلق على هذه المرحلة في حياة الشيخ رحمه الله (النشأة العلمية، ومرحلة ما قبل الرحلة في طلب العلم)، وأهم ما نستفيده مما عرضناه:

---

[1] «الدرر السنية» (1/ 375) و12/ 6، و«تاريخ ابن بشر» (1/ 34).

[2] «الدرر السنية» (12/ 6).

[3] «تاريخ ابن غنام» » (1/ 208-209 بتصرف يسير).

أ: أن الشيخ رحمه الله نشأ في أسرة علمية وأنه اشتغل في العلم على أبيه، وعنه أخذ الفقه على مذهب الإمام أحمد.

ب: نبت نباتًا حسنا وهو جانب يتناول الأخلاق والانشغال بالخير.

ج: أنه أحب القرآن و العلم ولامس شغاف قلبه منذ الطفولة، حتى إنه حفظ القرآن في سنٍّ مبكرة، واشتغل بالعلم منذ طفولته.

د: ظهرت عليه ملامح الذكاء والتوقد الذهني وسرعة الحفظ من طفولته .

هـ: كان لديه تميُّز في سرعة الكتابة مع الإتقان.

فهي إذن تلك المرحلة التي اشترك فيها آلاف العلماء عبر تاريخ الإسلام ممن نشأ في بيوتات العلم والحفظ والحديث والفقه، والذين ينشغلون بالعلم منذ نعومة أظفارهم، وتظهر عليهم ملامح النبوغ والذكاء منذ الصغر في حقول العلم.

(2)

عناية خاصة بعلم التوحيد منذ نعومة أظفاره

اللافت للنظر في تلك المرحلة المبكرة جدًّا في حياة الشيخ، أن عنايته بالعلم لم تقتصر على تلقي القرآن الكريم وبعض أحكام الفقه، بل «كانت له عناية من صغره بكثرة المطالعة في كتب التفسير، والحديث، **وكلام العلماء في أصل الإسلام**»[1].

ولم تكن تلك المطالعة مطالعة جامدة ميتة، بل كانت آيات القرآن تقرع قلبه، فتحييه، لاسيّما تلك المتعلقة بأصل الإسلام، الإسلام الذي جاء به جميع الرسل، توحيد رب العالمين وإفراده وحده بالدعاء والتوكل والخضوع والذل والافتقار والاستغاثة والاستعانة، بل وبكل ذرة تعلُّق في قلب الإنسان.

---

[1] «تاريخ ابن بشر» (1/ 34)، وانظر «الدرر السنية» (12/ 13).

فإذا شرع في قراءة الحديث الشريف، وجده خير شاهد لتلكم الآيات، وأكبر دليل على معانيها.

فإذا انتقل لمطالعة كلام المفسرين وشراح الحديث من علماء الإسلام، رآهم مطبقين على التنبيه على هذا الأصل العظيم، الذي هو أصل الإسلام ورأس الأمر كله، والتحذير من الإخلال به.

لذلك كله نشط الشيخ في«مطالعة كلام العلماء في أصل الإسلام»[1]، التوحيد، منذ نعومة أظفاره.

وقد أنتجت هذه القراءات والمطالعات وإعمال الفهم والفقه والفطنة ثمرة حيّة في قلب الشيخ منذ نعومة أظفاره، حيث «تبين له من معاني الآيات المحكمات، والأحاديث الصحيحة أن هذا الذي وقع فيه الناس، من هذا الشرك: أنه الشرك الذي بعث الله رسله، وأنزل كتبه بالنهي عنه، وأنه الشرك الذي لا يغفره الله لمن لم يتب منه.

فبحث في هذا الأمر مع أهله، وغيرهم من طلبة العلم، فاستنار قلبه بتوحيد الله، الذي أرسل الله به رسله، وأنزل به كتبه»[2] و«شرح الله صدره في معرفة التوحيد وتحقيقه، ومعرفة نواقضه المضلة عن طريقه»[3].

ومن نشاط الشيخ في الخير وحرص أسرته على تنشئته تنشئة طيبة أنه توجَّه ليحج حجة الإسلام في سن مبكرة بُعيد بلوغه[4].

---

[1] السابق نفسه.

[2] «الدرر السنية» (12/ 13).

[3] السابق نفسه.

[4] «ابن غنام» (1/ 209).

(3)

الرحلة في طلب العلم

ومرحلة رسوخ الفكرة ووضوح المنهج

الرحلة في طلب العلم سُنَّة علمية سنها أهل الحديث في وقت مبكر من تاريخ الإسلام لغرض حفظ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وجمع ما تفرق منه في الأمصار، واستمرت تلك السُّنَّة تملأ آفاق الأرض سنة بعد سنة وقرنا بعد قرن، ولم يكن الشيخ رحمه الله بمعزل عن ذلك الركب، فقد قرر هو أيضا أن يرحل في طلب العلم، والتلقي عن شيوخ الأمصار.

«فرحل في العلم وسار، وجد في الطلب إلى ما يليه من الأمصار، وما يحاذيه من الأقطار، فزاحم فيه العلماء الكبار، فوطيء الحجاز، والبصرة مرارا، والأحساء»[1].

(4)

رحلات البصرة وأثرها في مسيرة الشيخ

تنبئنا المصادر الأصلية في ترجمة الشيخ بأنه «سافر إلى البصرة غير مرة، كل مرة يقيم بين من كان بها من العلماء»[2].

وأن «أكثر لبثه ومقامه لأخذ العلم [كان] بها، وقد سمع الحديث والفقه من جماعة بالبصرة كثيرة، وقرأ بها النحو وأتقن تحريره، وكتب كثير من اللغة والحديث في تلك الإقامة»[1].

---

[1] «ابن غنام» (1/ 210).

[2] «الدرر السنية» (12/ 7).

كما تنبئنا تلك المصادر بأن البصرة تحديدا كان لها أكبر الأثر في رسوخ عقيدة التوحيد في قلبه ولُبِّه، وفيها توسع في معرفة التوحيد، ورسخت الفكرة في رأسه، وفيها «أظهر الله له من أصول الدين، ما خفي على غيره، وكذلك ما كان عليه أهل السنة، في توحيد الأسماء والصفات والإيمان»[2].

ولهذا كانت البصرة من مراكز نشاط الشيخ في الدعوة للتوحيد كما سيأتي معنا بعد قليل.

(5)

رحلات الأحساء وأثرها في مسيرته العلمية

(التأثر بابن تيمية وابن القيم)

«ثم إن الشيخ رحمه الله تعالى، بعد رحلته إلى البصرة، وتحصيل ما حصل فيها وفي نجد ، رحل إلى الأحساء، وفيها فحول العلماء، منهم عبد الله بن فيروز، أبو محمد الكفيف، **ووجد عنده من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم ما سر به**، وأثنى على عبد الله هذا بمعرفته بعقيدة الإمام أحمد.. »[3].

وقد تأثر الشيخ تأثرا بالغًا بمؤلفات شيخ الإسلام وتلميذه، وطالعها وعكف عليها درسًا وتحصيلا وتفقها وتفكراً، «وأسام ثاقب فكره في رياض تلك المؤلفات، وورد من نمير معين تلك الحياض الصافيات، فازداد علما وإيمانا وتحقيقا وإتقانا»[4]

---

[1] «ابن غنام» » (1/ 210، 212)

[2] «الدرر السنية» (12/ 6).

[3] «الدرر السنية»(12 / 7).

[4] تبرئة الشيخين لسليمان بن سحمان (ص92).

ويبدو لنا أن ابن تيمية كان حاضرا في البيئة النجدية العلمية، إلا أن الظاهر أن حضوره كان حضورا هامشيًّا كفقيه عمدة من فقهاء الحنابلة، حَرَصَت بعض الموسوعات الفقهية الحنبلية على تقرير آرائه وترجيحاته.

أما الحضور الواسع لتراثه وكتبه وسائر مصنفاته، أو حضور شخصه العلمي ذلك الذي وصفه تلميذه ابن القيم بالبحر المحيط بسائر الخلجان، أو الحضور الواقعي لتقريراته وآرائه حيَّةً تمشي على الأرض، تلك الآراء التي ما تواجدت في مكان إلا وقلبته رأسا على عقب! فيبدو لنا أن هذا كله إنما بدأ على أيدي الشيخ ثم أئمة الدعوة النجدية من بعده واستمر إلى اليوم.

ومن أنعمَ النظر في مؤلفات الشيخ محمد، وتتبع كتب ابن تيمية وتلميذه المخطوطة الموجودة في المكتبات النجدية المختلفة، علم أن الشيخ ومدرسته على رأس المدارس العلمية التي أحيت تراث ابن تيمية وفهمته ووعته ونشرته، بل وترجمته واقعا حيًّا يمشي على الأرض.

«وبلغ من صيت الشيخ بالأحساء أن"حضر مشائخ الأحساء..وبحث معهم في مسائل وناظر»[1].

(6)

بيئة الشيخ وأثرها في اهتمامه بتعلم التوحيد ونشاطه الدعوي

للبيئة التي ينشأ فيها الإنسان أثر كبير في صَقْل أفكاره وآرائه وتوجهاته، بَيْد أن هذا التأثُّر قد يكون إيجابيًّا وقد يكون سلبيًّا.

---

[1] «الدرر السنية» (12/ 8).

فقد تكون البيئة سلبية بأفكار أهلها وممارساتهم ووعيهم ومعتقداتهم، فينشأ الناشيء فيهم متأثرًا بما هم فيه، فلا يكون سوى نسخة جديدة من آلاف النسخ حوله.

وقد ينشأ الناشيء وهو يعرف بطلان ما هم عليه إلا أنه تحت وطأة الوعي الجمعي المختل من حوله، وتحت حَمأة الرفض والانتقاد لأي ناصح، يُصاب باليأس، فيلقي سلاح النصح، ويتبخر لديه كل أمل للتغيير، ويجاري مَن هم حوله فيما هم فيه.

وقليلون هم –قليلون جدا– من تُنشِّط لديهم البيئةُ السلبية وممارسات أهلها الحاسةَ المتجرِّدة للبحث عن الصواب، وتمييز الحق ، وإقامة الأدلة عليه.

وأقل من هؤلاء القليل هم من يتحمل قرار الصدع بالحق الذي يعتقده في بيئات كتلك، ويشمر عن ساق الجد في حدائق الشوك، صابرًا على أعباء الطريق.

إنهم أولئك الذين يعتقدون أن الكلمات والتقريرات والأفكار والآراء الحَقَّة تموت إذا بقيت قابعة في ثنايا الكتب، وفي زوايا المساجد..

فإذا ما جعلناها واقعًا حيًّا يمشي على الأرض..دبَّت فيها الروح بإذن الله..

وهكذا كان الإمام..

وهذا الأخير هو الذي يميِّز المدارس العلمية الإصلاحية التجديدية عبر التاريخ، فهي مدارس يجري الله على أيديها نهضات علمية تجديدية، ولكنها لا تكتفي بالجانب النظري على أهميته وأصالته، بل تواكبه نهضات واقعية على الأرض، نهضات عقدية وتعبدية وأخلاقية..

ولا يشترط أن تكون الدائرة الواقعية تلك دائرة واسعة، كثيرة العدد، أوأن تغطي مساحة ضخمة على أرض الواقع، فالمقصود هو بذل ما في الوسع لترجمة الكلمات والأفكار على أرض الواقع، أما النتائج فهي بيد الله وحده..

ويوما ما سيُبعث النبي ومعه الرهط، ونبي آخر ليس معه أحد!

قلنا إن الإمام رحمه الله كان من تلك القلة المذكورة، فقد كان يلتفت يمينًا في بيئته فيرى هذا منطرحا عند قبر، وهذه تتضرع لضريح، وهذا يسبح بحمد ولي، وذاك يرتل بفضل صالح، وهذا معلقا بشجرة، وذاك آخذا بصخرة...

فكان أن قرر بذل جهده لتلمس نور الحق من تحت ركام الظلام..فوفقه ربه لمعرفة التوحيد الصحيح، واستيعاب وفهم دعوة الرسل كلهم..

ثم قرر العمل بما علم وتمثل القدوة في نفسه..

ولم يكتفِ بهذا بل قرر أن يصدع بالحق الذي أنعم الله عليه به..

وكان يعلم جيدا ما ينتظره، فوطّن نفسه منذ الصغر على الصبر في سبيل ذلك[1].

فلم تكن تلك المراحل المبكرة من حياته إذن مراحل علمية جامدة، بل «لما تحقق معرفة التوحيد ومعرفة نواقضه، وما وقع فيه كثير من الناس من هذه البدع المضلة، **صار ينكر هذه الأشياء**»[2]، و«**يصدع بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لما يراه من رؤساء البلدان وظلمتهم ممن لا يعرفون إلا ظلم الرعايا والجور والقتال لبعضهم البعض**»[3].

ومنذ تلك اللحظات و«الناس يستحسنون ما يقول»[4]، إلا أنهم لم يكونوا في همة الشيخ في السعي لتغيير الحال والواقع على الأرض «فلم ينهوا عما فعل الجاهلون، ولم يزيلوا ما أحدث المبتدعون»[1].

---

[1] نلاحظ أن الشيخ رحمه الله تجسدت في حياته العلمية والدعوية الكلمات التي رصّعّها في فاتحة كتابه الذي سارت به الركبان (الأصول الثلاثة) من أن الواجب على كل مسلم ومسلمة (العلم والعمل والدعوة والصبر على الأذى فيه).

[2] السابق.

[3] «ابن بشر» (1/ 35).

[4] السابق نفسه، وهذه القضية هامة جدا في تحرير بعض المباحث العلمية المهمة في تقريرات الشيخ، فكن منها على ذكر.

ولـم تكن جهود الشيخ الدعوية المبكرة هذه مقتصرة على دياره بل كانت البصرة أحد أهم مراكز نشاطه الدعوي أيضًا «فمن شأنه أثناء مقامه في البصرة، أنه كان يحث على طريق الهدى والاستقامة، وقد نَشَر للتوحيد فيها لدى بعض الناس أعلامه، وحقق لهم في ذلك الشأن إتقانه وإعلامه، وأوضح لهم سبيله وأحكامه.

وكان إذا ذَكر أحد بمجلسه شارات الطواغيت أو الصالحين الذين كانوا يعبدونهم مع رب العالمين نهاه عن ذلك وزجره، وبيّن له الصواب وحذره، وقال له: محبة الأولياء والصالحين إنما هي اتباع هديهم وآثارهم، والاستنارة بضياء أنوارهم..وقد وقع ذلك في مجلسه مرّة فأبدى للقائل نهيه وزجره، وأغلظ عليه إغلاظه ونكره، فتغيّر وجه القائل وجال، واستغرب ذلك المقال، وقال إن كان ما يقوله حق هذا الإنسان ، فالناس ليسوا على شيء من زمان.

وكان الناس من مشركي[2] البصرة يأتون إليه بشبهات يلقونها عليه فيقول وهم قعود لديه: لا تصلح العبادة كلها إلا لله، فيبهت كلٌّ منهم فلا ينطق فاه»[3].

(7)

أين كان علماء نجد

وفي هذا السياق يحسُن بنا أن نجيب على ما قد يطرؤ على ذهن البعض من سؤال (أين كان علماء نجد من انتشار الشركيات، وكيف يتصور أن تنتشر الشركيات في وجودهم)؟

وهو سؤال لا محل له من الإعراب، ولولا أنه سُئل لما كنا تكلفنا عناء الجواب.

---

[1] السابق نفسه.

[2] سيأتي معنا معنى هذا الوصف.

[3] «ابن غنام» (1/ 212).

فجزء كبير من الواقع الذي نعيشه اليوم في بلادنا الإسلامية هو في نفسه جواب عن هذا السؤال.

فنحن نشاهد حولنا –إلى جانب الخير الكبير الموجود بفضل الله– انتشارا كبيرا للمخالفات العقدية والشركيات والخرافيات والقصور التعبدي والضياع الأخلاقي وانتشار المحرمات وتضييع الواجبات..إلخ، فهل معنى هذا أن الديار الإسلامية خالية اليوم من العلماء؟!

بل هناك بفضل الله أعداد كبيرة من العلماء والدعاة والمصلحين والغيورين..إلخ.

فأين الإشكال إذن؟!

إن الإشكال يكمن في عدم واقعية التلازم الوارد في المقدمة الفكرية لهذا الطرح، المقدمة: (إذا وُجد العلماء اختفت المخالفات) النتيجة: (وبناء عليه فلا يتصور وجود مخالفات عقدية في نجد!!).

ما هذا؟! ما رأيك أن نقول بناء على نفس المقدمة:

(لو وُجد نوح عليه السلام لاختفى الشرك في زمانه، وبما أن الشرك كان هو الأغلب في ذلك الزمان إذن فنوح لم يوجَد).

(لو وُجد موسى في مصر لاختفى الكفر من قوم فرعون، وبما أن اكثرهم كانوا كافرين، فإن موسى لم يُوجد).

هل هذه مقدمة فكرية يقول بها عاقل؟!

نعم، يقول بها بعض المنتسبين للعلم والفكر والثقافة في زماننا!

إن وجود العلماء والدعاة والمصلحين في مكان ما وفي زمان ما لا يلزم منه انصلاح كل شيء:

أ: فقد يوجد علماء ولكنهم من النوع المذكور أولا، أي من الذين يجارون الناس فيما هم فيه.

ب: وقد يوجد علماء لا يجارون الناس فيما هم فيه ولكنهم من النوع المذكور سابقا أيضا أي ممن لا يعتني بدعوة الناس وإصلاحهم إما لضعف لديه في وازع الإيمان والقلب، أو لعدم تحمل ما ينتج عن ذلك.

ج: قد يوجد علماء أفاضل ولكن دائرة جهودهم اقتصرت على دائرة التأليف والتصنيف ولم تتجاوزها إلى دائرة التغيير.

د: قد يوجد عالم مؤهلاته ومهاراته العلمية تؤهله لتعليم الخاصة فقط، وليس لديه مهارات تؤهله ليكون رجل عامة فتتسع دائرة إصلاحه.

هـ: قد يوجد علماء مخلصون حقيقيون سعوا في الإصلاح قدر طاقتهم وبذلوا له جهودهم، إلا أنه لم يُكتب لهم التوفيق والنجاح على أرض الواقع، بينما أجرى الله سبحانه على يد غيرهم نتائج كبيرة على أرض الواقع، ولله حكمة في كلٍّ من الصورتين.

إلى غير ذلك من عوامل وأسباب.

وهذا الذي نقوله يشمل كل عصر ومصر، فكتب التراجم زاخرة في جميع القرون بمئات العلماء، ولكننا نشاهد أن بعض القرون – مع وجود هذا الكم من العلماء- كانت قرون انحطاط علمي وعقدي وخلقي، وتخريج ذلك على ما شرحناه لك هنا، والله أعلم بالصواب.

(8)

رحلة الحج

«إن هؤلاء مُتَبَّرٌ ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون»

لم يكُن موسم الحج لدى أهل العلم مجرد رحلة لأداء ذلكم الركن العظيم من أركان الإسلام فحسب، بل كان رحلة علمية دعوية متكاملة، ومؤتمرًا يجمع علماء الإسلام في كنف البيت الحرام، ولهذا كانوا يعتنون عناية بالغة بتلك الرحلة المباركة الميمونة.

ونجد أن نقاد الحديث كانت لديهم عناية كبيرة بإبراز هذا الجانب في سياق تقييم رواة الحديث، فيذكرون عدد حجاتهم، ومتى حجوا، وبمَن التقوا، وعمَّن أخذوا هناك.

ولهذا فإننا نرى أن قرار الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالرحلة للحج[1] بعد مرحلة بدء ممارسته لدعوة للتوحيد، لم يكن لمجرد أداء الحج فحسب، بل لانتهاز الفرصة للقاء بالعلماء ومناقشتهم في هذا الموضوع الخطير، والتلقي عنهم في العلوم المختلفة، بالإضافة إلى الاطلاع على أحوال العامة في البلد الحرام وقد فوجيء بأنها لا تختلف كثيرا عمّا ترك الناس عليه في نجد.

يقول ابن بشر[2]: «ولما رأى أنه لا يغني القول، ولم يتلق الرؤساء الحق بالقبول، تجهز من بلد العيينة إلى حج بيت الله الحرام».

«فلما قضى الحج وقف في الملتزم، وسأل الله تعالى أن يظهر هذا الدين بدعوته، وأن يرزقه القبول من الناس»[3].

«ولما قضى حجه سار إلى المدينة.. »[4]

ويحكي ابن بشر لقاءه هناك ببعض العلماء[1] فأخذ عنهم في علم الفرائض.

---

[1] نرى أنها غير الرحلة الأولى التي رحلها الشيخ في وقت مبكر بُعيد بلوغه التي ذكرها «ابن غنام» 1/ 209 فتلك تخللت طلبه للعلم على يد أبيه في أوائل حياته العلمية، أما هذه فظاهر الروايات أنها في وقت متأخر قبيل استقراره الأخير في نجد.

[2] (1/ 36)

[3] «الدرر السنية» (12/ 8).

[4] «ابن بشر» (1/ 36).

والتقى أيضا بالشيخ محمد حياة السندي[2] ، واستفاد منه، ويبدو أن الشيخ محمد حياة كان له أثر في تثبيت محمد بن عبد الوهاب على ما هو فيه، وفي مشاركته مشاعره وتألُّمه لحال المسلمين،

فقد وقف الشيخ محمد بن عبد الوهاب يومًا عند الحجرة النبوية فرأى أناساً يدعون ويستغيثون عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم، فرآه الشيخ محمد حياة، وكأنه لاحظ علامات الأسى والحزن على وجه ابن عبد الوهاب، فسأله: عن رأيه في هؤلاء؟ فأجاب الشيخ وكأني بنبرة صوته يملؤها الأسى: «إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون» ![3]

وفي تلك الإقامة كتب بيده كتاب زاد المعاد لابن القيم[4]، وهذا يعكس استمرارية احتفال الشيخ محمد بمؤلفات ابن تيمية وابن القيم في جميع مراحله العلمية.

(9)

رحلة البصرة الأخيرة

«أقام الشيخ في المدينة ما شاء الله، ثم خرج منها إلى نجد ليتجهز للرحلة..إلى البصرة»[5].

هذه الرحلة التي كانت خاتمة رحلات البصرة قبيل مرحلة الاستقرار بنجد.

ولعل خروج الشيخ إلى البصرة في تلك المرحلة بعد وقوفه على مدى انتشار الشرك في العالم الإسلامي من خلال رحلة الحج كان لدراسة إمكانية جعل البصرة مركزًا ثابتًا لدعوة

---

[1] هو الشيخ عبد الله بن إبراهيم آل سيف، وابنه إبراهيم هو صاحب كتاب (العذب الفائض في علم الفرائض).

[2] ترجمته في سلك الدرر 4/ 34، وأبجد العلوم 3/ 163.

[3] «القصة في تاريخ ابن بشر» (1/ 37).

[4] «الدرر السنية»(12/ 9)

[5] «ابن بشر» (1/ 37).

التوحيد، كونها المدينة التي كان لها الفضل في معرفته للتوحيد، والتي زارها مرارًا، وقام فيها ببعض الأنشطة الدعوية، فهذا كله يرشحها لأن تكون مركز الدعوة الثابت.

وفي تلك الرحلة «جلس يقرأ فيها عند عالم جليل من أهل المجموعة قرية من قرى البصرة، في مدرسة فيها..اسمه محمد المجموعي، فأقام مدة يقرأ عليه فيها».

وقد كانت لشخصية الشيخ تلك أثرها حتى على شيوخه، فقد «استحسن شيخه قوله»، بل واستفاد الشيخ المجموعي من تلميذه ابن عبد الوهاب حيث «قرر له التوحيد وانتفع به».

ولم يقتصر أثر ابن عبد الوهاب على شيخه فقط بل تجاوزه إلى أسرة شيخه الذين تأثروا بدعوته وكانوا من «أحسن أهل بلدهم بالصلاح ومعرفة التوحيد»[1].

(10)

طرد الشيخ من البصرة!
وقصة الحمار وأبي حميدان!

لم يكن للداعية الذي يجهر بالحق ولا يخاف في الله لومة لائم أن يسلم من الابتلاء في سبيل عقيدته ودينه، ومن الإيذاء في طريق الحق الطويل المليء بالصعاب، لاسيما إذا تأثر بدعوته الخاصة مع العامة كما حدث بالبصرة، وهذا ما قد قدره الله على الشيخ، فقد «اجتمع عليه أناس في البصرة من رؤسائها وغيرهم فآذوه أشد الأذى، وأخرجوه منها وقت الظهيرة، ولحق شيخه – أي المجموعي – منهم بعض الأذى»[2].

---

[1] ما بين علامات التنصيص في هذا المقطع والسابق، من ««تاريخ ابن بشر» (1/ 36)

[2] «ابن بشر» (1/ 36-37)

ثم مرّ برحلة شاقة ، تلفح وجهه شمس حارقة، في صحراء واسعة، يسير فيها وحده يصاحبه الهجير[1]، بل كاد الموت يكون ثالثهما!

«فلما خرج من البصرة وتوسط في الدرب بينها وبين بلد الزَّبير أدركه العطش وأشرف على الهلاك».

ثم قيض الله للشيخ أبا حميدان صاحب الحمار!

«وكان يمشي على رجليه وحده، فوافاه صاحب حمار يقال له أبو حميدان من أهل بلد الزبير، فرأى عليه الهيبة والوقار وهو مشرف على الهلاك، فسقاه وحمله على حماره حتى وصل الزبير».

رحم الله أبا حميدان، مضى يومها مع حماره! لشأنه، أما نحن فلا نزال نذكره –وحماره!– بخير إلى اليوم، ولا يزال اسمه يتردد في كتب التاريخ، ولا زلنا نحفظ له منّته على الشيخ بل وعلى الدعوة كلها !

لم تنكسر همة الشيخ بعد كل هذا البلاء، وهكذا فلتكن الهمم، فقد قرر الشيخ «الرحلة إلى الشام، لولا أنه ضاعت نفقته، فلم يجد بدًّا من أن يثني عزمه عن المسير إليها»، فرحل إلى الأحساء، وكانت هذه هي خاتمة رحلاته إليها أيضا كالبصرة، والتقى هناك ببعض علمائها[2]، ثم قرر العودة إلى أبيه في نجد[3].

مرحلة الاستقرار بنجد
والصدع بدعوة التوحيد فيها

---

[1] هجير النهار: نصفه الحار الشديد الحرارة.

[2] «ابن بشر» (1/ 38).

[3] ما بين علامات التنصيص من «تاريخ ابن بشر» (1/ 36-37)، مع تصرف يسير في النقل الأخير.

(١)

الحالة الدينية العقدية في نجد

يحسُن بنا قبل أن نتحدث عن النشاط الدعوي للشيخ في نجد وقبل الحديث عن مرحلة الصدع بالحق والدعوة إلى التوحيد وإفراد العبادة لله أن نبيِّن الحالة الدينية العقدية في نجد والتي ظهر الشيخ ودعوته في أوساطها.

فالدعوة تكتسب قيمتها من خطورة ما تعالجه، وتعرف أهميتها من ثمرتها وأثرها على أرض الواقع.

ولنترك ابن غنام يصف لنا واقع نجد بل وواقع العالم الإسلامي كأننا نراه بأعيننا، ونعيشه بأنفسنا.

يقول ابن غنام[1] :

كان غالب الناس في زمان [الشيخ] متضمخين بالأرجاس متلطخين بوضر الأنجاس، حتى انهمكوا في الشرك بعد حلول السنة المطهرة بالأرماس، وأطفيء نور الهدى بالانطماس، بذهاب ذوي الأبصار والبصيرة والألباب المضيئة المنيرة وغلبة الجهل والجهال، واستعلاء ذوي الأهواء والضلال، حتى نهجوا في تلك الطريق منهجا وعرا، ونبذوا كتاب الله تعالى وراءهم ظهريا، وأتوا زورا وبهتانا وهجرا...فعدلوا إلى عبادة الأولياء والصالحين، وخلعوا ربقة التوحيد والدين، **فجدوا في الاستغاثة بهم** في النوازل والحوادث، والخطوب المعضلة والكوارث، **وأقبلوا عليهم في طلب الحاجات، وتفريج الشدائد والكربات**، من الأحياء منهم والأموات، **وكثير يعتقد النفع والإضرار في الجمادات، كالأحجار والأشجار، وينتابون ذلك في أغلب الأزمان والأوقات**، ولم يكن

---

[1] (1/ 171-188).

لهم إلى غيرها إقبال ولا التفات، فهم على تلك الأوثان عاكفون، ولها في أكثر الأحايين ملازمون (نسوا الله فأنسهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون).

لعب بعقولهم الشيطان وأخذ بهم منهج الخسران، حتى ألقاهم في قعر الهوان، فلجوا في طغيانهم يعمهون..أحدثوا من الكفر والفجور، والإشراك بعبادة أهل القبور، وصرف الدعاء لهم والنذور (ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون).

شرع لهم شياطينهم من الدين ما لم يأذن به الله، وجعلوا لغيره ما لا يجوز صرفه إلى سواه، وزادوا على أهل الجاهلية، فقد كانوا لا يدعون إذا مسهم الضر إلا إياه، (فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون)، ملأوا قلوبهم له بالوجد والمحبة، وبذلوا أعمارهم وألسنتهم في دفع من أبدى لهم مسبة..

وقد حدث الغي والإضلال والإسراف، ووقع التغيير في الدين والاختلاف، من زمان قديم من غير خلاف، وجاء بعدهم من اعتقد أن الدين هو ذلك الضلال والإسراف، لأنهم وجدوا عليه الآباء والأسلاف..وقد نص عليه كثير من العلماء الأعلام، في كتبهم المصنفة فيما حدث من البدع والحوادث من الأنام، وما غُيِّر من منار الدين والإسلام..

وكان أكثر الناس على دعوة الأولياء والصالحين، الأحياء منهم والميتين، مجدين مجتهدين، وبالاعتقاد المحض فيهم مفتونين..فغدوا عليهم في قضاء الحاجات وراحوا، وابتهلوا لديهم في ذلك وباحوا، وأحلوا ما حرم الله واستباحوا..

وكان في بلدان نجد من ذلك أمر عظيم، والكل على تلك الأحوال مقيم..وقد مضوا قبل بدوّ نور الصواب، يأتون من الشرك بالعجاب..ويكثر ذلك عند قبر زيد بن الخطاب، فيدعونه لتفريج الكرب بفصيح الخطاب..

وكان ذلك في الجبيلة مشهورا وبقضاء الحوائج مذكورا، وكذلك قريوه في الدرعية يزعمون أن فيها قبورا، أصبح فيها بعض الصحابة مقبورا..فهم في سائر الأحوال عليها يعكفون..وكان أهل تلك التربة أعظم في صدورهم من الله خوفا ورهبة وأفخم عندهم رجاء ورغبة..

وفي (شعيب غبيرا) يفعل من الهُجْر والمنكر ما لا يُعهد مثله ولا يُتصوَّر، ويزعمون أن فيه قبر ضرار بن الأزور، وذلك كذب محض وبهتان مزوَّر..

وفي بليدة (الفدا) ذَكَر النخل المعروف بالفحَّال يأتون النساء والرجال، ويَفِدون بالبُكُر والآصال، ويفعلون عنده أقبح الأفعال، ويتبركون به ويعتقدون، وتأتيه المرأة إذا تأخرت عن الزواج، ولم تأتها لنكاحها الأزواج، فتضمه بيدها بحضور ورجاء الانفراج، وتقول: يا فحل الفحول، أريد زوجا قبل الحول.

وشجرة (الطرفية) تشبث بها الشيطان واعتلق، فكان ينتابها للتبرك طوائف وفِرق، ويعلقون فيها إذا ولدت المرأة ذكرا الخِرَق، لعلهم عن الموت يسلمون.

وفي أسفل الدرعية غار كبير، يزعمون أن الله تعالى خلقه في الجبل لامرأة تسمى بنت الأمير، أراد بعض الفسقة أن يظلمها فصاحت ودعت الله فانفلق لها الغار بإذن العلي الكبير..فكانوا يرسلون إلى ذلك الغار اللحم والخبز ويُهدون..

وعندهم رجل من الأولياء يسمى تاج، سلكوا فيه سبيل الطواغيت في الانتهاج، وصرفوا إليه النذر والدعاء، واعتقدوا فيه النفع والضر والإفراج، وكانوا يأتون إليه لشأنهم أفواج، ويأتي إليهم في الدرعية من بلده الخرج لتحصيل ما له من النذور والخراج..

وكان لجميع أهل تلك البلدان وسكان تلك الأماكن والأعطان، فيه من الاعتقاد أعظم شان، فيخافه كل حاكم وظالم وشيطان، ويهاب أعوانه وحاشيته كل إنسان، فلا يتعرضونهم بما يكرهون، ويدعون فيه دعاوى فظيعة، وينسبون إليه حكايات قبيحة شنيعة،

كانت ألسنتهم لها مذيعة، ولبهتانها مشيعة، وهم لمَينِها وزورها مصدقون، فيزعمون أنه أعمى ويأتي من بلده الخرج من غير قائد يقوده، وغير ذلك من الحكايات التي هي محط رحال المشركين، والاعتقادات التي ضلوا بسببها عن الصراط المستقيم، وأعرضوا بها عن إخلاص الدعاء لرب العالمين..وأما ما يُفعَل الآن في الحرم المكي الشريف، زاده الله رفع وتشريف، فهو يزيد على غيره وينيف، فيفعل في تلك البقاع المطهرة المكرمة، والمواضع المعظمة المحترمة، ما يحق أن تسفح عند رؤيته سحائب العيون والأجفان، وتُذال لأجله الدموع ولا تصان، وتلتهب في القلب لواعج الأحزان، إذا رأى ما يصدر في تلك الأماكن من أولئك العربان، من الفسوق والضلال والعصيان، وما عرا الدين فيه من الهوان، فلقد انتُهكت فيه المحرمات والحدود، وكان لأهل الباطل فيه قيام وقعود، كما هو الآن مشاهد موجود..ويشهد بذلك من رآه، ممن كان له قلب سليم..ولقد تظاهر بذلك فيهم جمّ غفير، وتجاهر به بين أظهرهم جمع كثير، **ولم يكن لأهل العلم إزالة ولا تغيير**، بل تألبوا على مصادمة الحق الشهير ، وراموا إطفاء مصباحه المنير..

فمن ذلك ما يفعل عند قبر المحجوب، وقبة أبي طالب، وهم يعلمون أنه شريف حاكم متعدّ غاصب، كان يخرج إلى بلاد نجد، ويضع عليهم من المال خراجا ومطالب، فإن أُعطي ما أراد انصرف، وإلا أصبح لهم معاديا محارب، فيأتون قبره بالسماعات والعلامات، للاستغاثة عند حلول المصائب، ونزول النُّوَب الكوارب.

وكذلك عند قبر المحجوب يطلبون الشفاعة لغفران الذنوب، لأنه عندهم المقرب المحبوب ، فلهذا كانوا من سره يحذرون وإن دخَل متعد أو سارق أو غاصب مال قبر أحدهما لم يتعرض له أحد من الرجال..

ومن ذلك ما يفعل عند قبر ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين رضي الله عنها، في(سَرِف) وعند قبر خديجة في (المعلّى) مما لا يسوغ لمسلم أن يطلق عليه إباحة وحلاًّ، فضلا عن

كونه يراه قربة يدرك بها أجرا وفضلا، من اختلاط النساء بالرجال، وفعل الفواحش والمنكرات ، وارتفاع الأصوات عندهم بالدعوات، وحصول الفدية وشهرة الاستغاثات.

وعند قبر عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في الطائف من الأمور التي تشمئز منها نفس الجاهل، فكيف بالعارف؟ فيقف عند قبره متضرعا مستغيثا كل مكروب وخائف، وينادي أكثر الباعة في الأسواق من غير نكير ولا زجر على الإطلاق، ويقول بلهجة قلب واحتراق كثير من أهل الشرك والإبلاس وذوي الفقر والإفلاس: اليوم على الله وعليك يابن عباس، ويسألونه الحاجات ويسترزقون..

وأما ما يفعل عند قبره عليه الصلاة والسلام من الأمور المحرمة العظام من تعفير الخدود والانحناء بالخضوع والسجود، واتخاذ القبر عيدا، وقد لعن عليه الصلاة والسلام فاعله وكفى بذلك زجرا ووعيدا، **فهو مما لا يخفى ولا ينكر، وأعظم من أن يُذكر فهو في الشهرة والانتشار كالشمس في رائعة النهار.**

ويَكِلُّ اللسان عما يُفعل عند قبر حمزة والبقيع وقباء من ذلك القبيل، ويعجز القلم عن بيانه على التفصيل..

وأما ما يفعل في (جدة) مما عمّت به البلوى، فقد بلغ من الضلال والفحش الغاية القصوى، وعندهم قبر طوله ستون ذراعا عليه قبة، يزعمون أنه قبر حوّى، وضعه بعض الشياطين من قديم وهيّأه وسوّى، يجبو عنده السدنة من الأموال، كل سنة ما لا يكاد يخطر على البال، ولا يدخل يسلم على أمه كل إنسان إلا مسلِّما دراهم عاجلا من غير توان، أيبخل أحد اللئام فضلا عن الكرام ببذل بعض الحطام، ويدع الدخول على أمه والسلام!

وعندهم معبد يُسمّى بـ(العلوي) وفاقوا في تعظيمه جميع الخلائق وأربوا في الغلو على تلك الطرائق، فلو دخل قبره قاتل نفس أو غاصب أو سارق، لم يعترض بمكروه من مؤمن ولا فاسق...

وأما ما في بلدان مصر وصعيدها من الأمور التي يُنَزَّه الإنسان عن ذكرها وتعديدها، خصوصا عند قبور الصلحاء والعبا من سادتها وعبيدها، كما ذكرها الثقات في نقل الأخبار وتوكيدها، فيأتون قبر أحمد البدوي، وكذا قبور غيره من العباد، وسائر تُرَب المشهورين بالخير والزهاد، فيستغيثون ويندبون ويعجلونهم بالأمداد، ويستحثونهم على زوال المصيبة عنهم والأنكاد، ويتداولون بينهم حكايات، وينسبون عنهم قضيات ، ويحكون في محافلهم ماجريات، من أفحش المنكر والضلالات، فيقولون: فلان استغاث بفلان فأُغيث فورا في الأوان، وفلان شكا ذلك لصاحب القبر حاله وأمره فأغاثه وكشف عنه ضره، وفلان شكا إليه حاجته فأزال عنه فقره، وأمثال هذا الهذيان، الذي هو زور وبهتان، **ويصدر هذا الكلام في تلك البلدان وهي مملوءة بالعلماء من أهل الزمان، وذوي التحقيق والعرفان، ولا يزال ذلك المحظور، ولا يُغار من صدور تلك الأمور، بل ربما تنشرح منهم له الصدور.**

وأما ما يُفعل في بلدان اليمن من الشرك والفتن قبل هذا الوقت في هذا الزمن، فأكثر من أن يُحسب أو يُحصى، أو يُعد أو يُستقصى، أو يُدرك له أقصى، فمن ذلك ما يفعله أهل شرقي صنعاء بقبر عندهم يسمى الهادي، والكل على دعوته والاستغاثة به رائح غادي، فتأتيه المرأة إذا تعسّر عليها الحمل أو كانت عقيمة، فتقول عنده كلمة قبيحة عظيمة، فسبحان من لا يعاجِل بالمعاقبة على الجريمة.

أما أهل بلدة (بُرَع) فعندهم البرعي رجل يرحل إلى دعوته، كل ناء محله وبلدته، ويؤتى إليه من غير إشكال..لطلب الإغاثة وشكاية الحال، ويقيمون عند قبره للزيارة، ويتقربون بالذبائح عنده كما حقق أخباره من شاهد حضره واحتضاره.

وأما أهل الحُجَرِيَّة ومن حذا حذوهم فعندهم قبر يسمونه ابن علوان، وقد أقبل عليه العامة من نوائب الزمان ، واستغاث به منهم كل لهفان..ويسميه غوغاؤهم منجِّي العارفين، كما حكاه بعض السامعين، وأغلب أهل البر منهم والبحر يطربون عند سماع ذكره، ويستغيثون

به وإن لم يصلوا إلى قبره، وينذر له في البحر والبر، وعند أهل بلده وتعظيمه ما يزيد عن الحصر، ويفعلون عند قبره السماعات والموالد، ويجتمع عنده أنواع من المعاصي والمفاسد، فليس في أقطار اليمن في هذا الزمن من يساويه في الاشتهار، بل ولا في سائر الأقطار، ولهم في حضرته أمور يفعلونها دينا..يطعنون أنفسهم بالسكاكين والدبابيس..ويقولون وهم يرقصون وبما يغنيه طربون قد ملأ الوجد منهم ألبابا وذهنا: يا سادتي قلبي بكم مُعَنَّى.

وأما حال حضرموت والشِّحْر ويافع وعدن فقد ثوى الغيُّ وقطن، وعندهم العيدروس، يفعل عند قبره من السفه والضلال الوبيل، ما يغني مجمله عن التفصيل، ويقول قائلهم: شيء لله يا عيدروس، شيءلله يا محيي النفوس.

وأما بلدان الساحل، فعندهم من ذلك مسائل، فعند اهل المخا علي بن عمر الشاذلي أكثرهم بدعوته والاستغاثة به قد ابتُلي، لا تفتر ألسنتهم عن ذكره قعودا وقياما، وينتابون تربته وحدانا وقياما.

وأما أهل الحُديدة فعندهم الزيلعي من غير لبس، واسمه عندهم الشمس، لأن قبره ليس عليه قبة بل مكشوف، وكان إليه جميع النذر مصروف، وهم فيه أظلم وأطغى، وفي تعظيمه ودعوته أضل وأبغى..

وقبر رابعة مشهور، لا يحلفون صدق اليمين إلا بها، وغير ذلك من الأمور.

وعندهم الطامة العظيمة والمعضلة الجسيمة وهي في أراضي نجران، وما يليها من البلدان ..وهو الرئيس المعروف عندهم السيد المتقدم في رياستهم وسياستهم[1]..فلقد أتوا من تعظيمه وتوقيره وتقديمه في جميع الأمور وتصديره وقبح الغلو فيه والاعتقاد ما أفضى بهم إلى طريقة الضلال والإلحاد، فصرفوا له من أنواع العبادة سهما، وجعلوا فيه للألوهية

---

[1] يريد رئيس طائفة الإسماعيلية البهرة في اليمن.

وسما، حتى كادوا أن يجعلوه لله ندًّا وقسما، وكان عندهم بذلك الحال شهيرا، فتعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا.

وأما ما في حلب ودمشق وأقصى الشام وأدناه، فهو مما لا يوقف له على حد، ولم يمكن ضبط أقصاه ولا يعرف قدره ومنتهاه، ولو استفرغ الإنسان في ذلك قصاره، بحسب ما يحكيه من يشاهد ذلك أو يراه، من العكوف على عبادة القبور وصرف القربان إليها والنذور، والمجاهر بالفسوق والفجور، وأخذ الأمكاس والدستور، ووضع الخراج على البغايا من تلك المهور.

وفي الموصل وبلدان الأكراد وما يليها من سائر البلاد وكذا في العراق خصوصا المشهد وبغداد ما لا يحتاج إلى حصر وتعداد، فيفعل عند قبر الإمام أبي حنيفة ومعروف الكرخي والشيخ عبد القادر، رضي الله عنهم، من الدعاء والاستغاثة بهم ومنهم في سائر الأوقات والأزمان، ما لا يُعرَف له صفة ولا شان، وتسفح عندهم العبرات والدموع، ويحصل من التعظيم والتذلل عندهم والخضوع، أعظم مما يصدر بين يدي الله في الصلاة في الحضور والخشوع بل كثير ممن فعل ذلك مرارا وجرّب هم لقضاء الحوائج ترياق مجرب.

وأما مشهد علي بن أبي طالب فقد صيرته الرافضة وثنا يُعبَد، ويدعى بخالص الدعاء دون من ذرأ الخلق وأوجد، ويصلى له في قبته ويركع ويسجد، وليس في صدور أولئك الضلال وغيرهم من الجهال، وذوي الفسق والضلال، من التعظيم والهيبة والإجلال لذي الفضل والنوّال معشار ما فيها لعلي رضي الله عنه، من غير إشكال ولا إسراف ولا إفراط في المقال، فتراهم يحلفون الأيمان الكاذبة بالله، ولا يخاف أحدهم مولاه، ولا يراقبه سرا وهرا ولا يخشاه، ولا يحلف بعلي كاذبا أبدا، يعظم بذلك حماه، فلا ينتهك ذلك ويتعداه، ويجزمون أن عنده مفاتيح الغيب، من غير شك، قبحهم الله، ولا ريب، ولهذا يقولون إن زيارته أفضل من سبعين حجة، وكفى بما ذكرناه وفي خروجهم عن الإسلام حُجَّة،

وإخراجهم عن واضح السنن والمحجة، ولقد غلوا فيه واتوا من الشرك القبيح أعظم مما فعل النصارى بالمسيح سوى دعوى الولدية فلم تصدر من هذه البرية وساووهم أو زادوا عليهم في غيرها من الخصائل الردية وزخرفوا على قبره الذي يدعونه قبة مذهبة وخالفوا هديه رضي الله عنه ومذهبه، ولقد كان في حياته حرّق ممن غلا فيه أناس فما أغناهم عن انتهاج الضلال والإبلاس.

ومثل ذلك ما يُفعل من الشرك والمنكر والشَّيْن عند مشهد الكاظم ومشهد الحسين فعندهم من التعظيم لهما والعبادة والوقار والملازمة لذلك بالعشي والإبكار ..أجل وأكثر مما عندهم لله الواحد القهار، ولقد شبّ فيهم على ذلك الكفر..الرعاع والأطفال..فلا يسمع في سائر الأحوال ..ذكر لرب العزة والجلال وإنما ديدنهم ذكر علي والحسين وبقية الآل.

وأما جميع قرى الشط والمجرة فقد لبسوا ثياب الشرك والضلال والمعرّة، بل كانوا أهله وأصله ومقرّه.

وكذلك ما حول البصرة وما توسط فيها، من تلك القبب والمشاهد، التي أصبح كلٌّ إليها مقبل وقاصد، ولاسيما قبر الحسن البصري والزبير، رضي الله عنهما، فقد طلبوا الفرج منهما وصرفوا لهما من العبادة والدعاء والاستغاثة عند الشدائد وطلبوا منهما جميع الفوائد وليس لهذا منكر ولا جاحد..

وأما ما في القطيف والبحرين من البدع الرفضية والأمور القبيحة الشركية والمشاهد المعظمة الوثنية، وما يفعله أولئك الضلال والأنجاس، من الضلال والغيّ والإبلاس، وما يأتونه من الشرك والأرجاس، فلا يكاد يخفى على أحد من الناس...

وإذا رأى أفعالهم كل عارف بالإيمان وشاهد بالرؤية والعيان تبين له غربة الدين في هذا الزمان..)).انتهى المقصود منه.

وينبغي التنبيه في هذا السياق على عدة ملاحظات:

أ: أُلفِت نظر القاريء الكريم إلى تأمل التوصيف الدقيق الذي يقدمه ابن غنام بذكر أسماء القبور المشهورة في كل مصر من الأمصار الإسلامية وبيان موضعه وشهرته، وجميع ما ذكره ابن غنام من الشهرة بمكان إلى اليوم في هذه الأمصار، فمثلا كل القبور التي ذكرها في ديارنا اليمنية موجودة مشهورة في المواضع المذكورة، يعرفها العامة قبل الخاصة، لا يشكك في وجودها عاقل، وقِس على ذلك ما ذكره عن مصر والشام والعراق.

ب: اعتقاد الناس في هذه القبور وما يمارس عندها لا نحتاج فيه لشهادة ابن غنام أو غيره بل الواقع أكبر شاهد عليه، وهو موثّق في شهادات المؤرخين والرحالة والمؤلفين والمصلحين الذين شهدوا عصور الانحطاط العقدي للأمة.

ج: اشترك في هذا التوصيف لانتشار القبور وممارسات القبورية في كل أقطار العالم الإسلامي عامة المصلحين والمجددين الذي عاصروا الشيخ، من أهمهم الصنعاني والشوكاني في اليمن، ولا يعرف عن أحد من المصلحين الذين عاصروا هذه الحقبة أنه اختلف مع المدرسة النجدية في هذه الجزئية (تقرير انتشار القبور المعبودة في نجد والعالم الإسلامي).

د: على كثرة المخالفين للدعوة المعادين لها ولمبادئها وآرائها، فإن الملاحظ أن هؤلاء الأعداء داخل نجد وخارجها ممن عاصر هذه الحقبة ومن خلال مطالعة مصنفاتهم لم يكن طعنهم في الدعوة متوجها إلى اتهامها بأنها بالغت في توصيف انتشار القبور والممارسات حولها، بل كان متوجها إلى نقد مقالاتهم وآرائهم وإلى تأويل ممارسات القبوريين عند تلك القبور، وهذا كله فرع عن تقرير صحة هذا

التوصيف وعدم الاختلاف عليه، وما أيسر أن يقوم هؤلاء بإسقاط الدعوة ومصداقيتها ببيان كذبها في ادعاء وجود قبور لا وجود لها في الواقع.

هـ: ولهذا فالمراسلات التي وقعت بين الشيخ ثم أئمة الدعوة حول هذه القبور والممارسات حولها مع رؤوس المناطق الأخرى، لا نجد أن أحدا من رؤوس تلك المناطق يرد فيقول نحن لا يوجد عندنا قبور ولا قبورية! بل يتوجه ردهم إلى أن هذه الممارسات مشروعة، وهذا في نفسه فرع عن تصحيح وجود هذه القبور والممارسات حولها.

و: الملاحظ أن المدارس الإصلاحية التجديدية التي وجدت في عصر متأخر لعصر الشيخ لاحظت الانتشار البالغ للقبور في عامة بلاد العالم الإسلامي باستثناء نجد، واستدلت من خلال دقة الدعوة في توصيف انتشار القبور في العالم الإسلامي على صحة توصيفهم الخاص بنجد، ومن أشهر هؤلاء المصلحين الأستاذ محمد رشيد رضا، وجمعية العلماء الجزائرية.

ز: من الصعب أن يتقبل العقل أن يقوم مؤرخ كابن غنام بتحديد هذه القبور في العالم الإسلامي عامة ونجد خاصة ، مع أنها قبور مخترعة لا وجود لها في الواقع، فأي مؤرخ عاقل هذا الذي سينادي على نفسه بالكذب بهذه الصورة!

وينبغي أن يُعلم أن مساحة تحريف التاريخ لها دوائر معينة فيحرف المؤرخ تفسير الأحداث مثلا وقد يختلق ضمنا بعض المزايدات في تلك الأحداث، أما أن يقوم مؤرخ باختراع مواضع لا وجود لها ويقوم بوصفها وتحديد مكانها بدقة ويخترع كمًّا من الأحداث والوقائع حولها لم تحدث قط، فهذا لا يفعله عاقل فضلا عن مؤرخ.

ح: من الصعب أن يتقبل العقل أن الشيخ ثم من جاء بعده صنفوا كل هذه المصنفات والتقريرات والمؤلفات وخاضوا كل هذا السجال حول شيء وهمي مختَرَع اخترعوه هم.

ط: الوقائع التي أرختها الدعوة لإزالة القبور والأضرحة ومنها خروج عثمان بن معمر ب600 جندي لهدم أحد الأضرحة المعظمة عند العامة، من الصعب أن يتصور العقل أنها ادعت ذلك ادعاءً على مرأى ومسمع من أهل نجد، ثم أهل نجد الذين عاصروا تلك الحقبة لم يكذبوا شيئا من هذه الوقائع.

ك: الدعوة النجدية نفسها استثنت بعض المواضع في نجد وذكرت أنه لا يوجد فيها قبور وأضرحة مثل القصيم وهذه من القرائن الهامة الدالة على عدم المبالغة في الوصف.

ل: صنف القبوريون وغير القبوريين والمؤرخون والرحالة والباحثون في العصور المتأخرة مجموعة ضخمة من الكتب والأبحاث التي توثق وجود القبور والأضرحة التي يعتقد فيها الناس وفي أصحابها، في عامة بقاع العالم الإسلامي، وأعدادها ، وما يمارس عندها، وما ينفق فيها.

فمن المراجع الهامة عن القبور والأضرحة **في العراق**:

- موسوعة العتبات المقدسة ، لجعفر الخليلي.
- دليل الزائر إلى العتبات المقدسة في العراق، لمحمد الشهيد.
- ترجمة الأولياء في الموصل الحدباء.

ومن المراجع في أضرحة **مصر**:

- موسوعة مصر وأولياؤها الصالحون.
- السيد البدوي ودولة الدراويش بمصر.
- خانقاوات الصوفية بمصر.

ومن المراجع لأضرحة **السودان**:

- القباب والأضرحة في السودان، لجمال مصطفى علي.

ومن المراجع في أضرحة **اليمن**:

- القبورية نشأتها وتطورها باليمن.
- الدر المنضود في أخبار قبر وزيارة النبي هود.
- الأضرحة في اليمن من القرن الرابع الهجري إلى نهاية القرن العاشر الهجري.

ومن المراجع في أضرحة **الشام**:

- نفحة البشام في رحلة الشام، محمد عبد الجواد.
- القول الحق في بيروت ودمشق، لعبد الرحمن سامي.
- نهر الذهب في تاريخ حلب لكامل الغزي.

ومن المراجع لأضرحة **الحجاز** قبل إزالتها على أيدي النجديين:

- الرحلة الحجازية لمحمد لبيب.

ومن المراجع لأضرحة **المغرب**:

- الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ، للسملالي.

ومن المراجع لأضرجة **تركيا:**

- دليل الأستانة، لمحمد شكري الناعمة.

ولولا أن سخر الله الدعوة النجدية في بلاد نجد لكنا نقرأ اليوم عن تاريخ العتبات المقدسة في نجد، وتاريخ دراويش الرياض!

ومن أهم المراجع الأصلية في الطقوس التي تمارس عند هذه الأضرحة ومعتقدات القبوريين فيها كتاب (الكشف عن حقيقة الصوفية لأول مرة في التاريخ) لمحمود عبد الرؤوف قاسم، وهو كتاب رائق أعجبني، فقد جمع خرافات الصوفية **من مراجعهم المعتمدة ومصادرهم الموثوقة، ولا يكاد ينقل إلا عن مراجعهم هم**، والمؤلف له إطلاع واسع عليها، ومراجعة هذا الكتاب تدل الباحث على عشرات المصادر في الموضوع.

والمقارن بين ما فيه وبين توصيف ابن غنام لتلك الطقوس ظهر له أن ابن غنام لم يذكر إلا قطرة من بحر خرافات القبورية المتلاطم[1].

ومن الكتب الجيدة التي أرخت لمرحلة الانحلال العقدي والعلمي والديني بعامة في العصور المتأخرة كتاب: الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، وفيه فصل خاص عن القبورية في العالم الإسلامي[2].

هذا وقد ذكر الباحثون أن القبور التي تزار في مصر تزيد عن الألف، وفي الشام ذكر مؤرخ واحد (القاياتي) أنه زار أكثر من 40 ضريحا، وذكروا في دمشق

---

[1] ويراجع أيضا تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي لمحمد أحمد لوح.

[2] 306-276/1

وحدها 194 ضريحا، وفي الأستانة 481 جامعا تضمن أضرحة، وفي الهند الأضرحة بالمئات وأشهرها 150 ضريحا، وفي بغداد 150 جامعا مع الأضرحة، وفي الموصل 76، وهي إحصاءات محدودة لا تفي بحقيقة الحال.

فمن العَجَب أن يأتي بعد ذلك من يدّعي النقد والتحقيق ليشكك في رواية أئمة الدعوة عن الحالة العقدية في نجد والعالم الإسلامي، فيحاول أن يقنع نفسه وقُرّاءه بأن هذه القبور والمشاهد المذكورة في نجد مختَرَعة وما يمارس عندها مختَرَع!

(11)

العودة إلى نجد ومرحلة الصدع بالدعوة داخل نجد

«فانْتَدَبَ هذا الإمام مناديًا على رؤوس العوالم بإخلاص العبادة لله»

ابن غنام

نعود لقصة الإمام بعد أن استحضرنا الواقع الذي عاش فيه..

« رجع الإمام بعد ذلك من السفر فإذا والده عبد الوهاب قد رفض سكنى العُيينة فهاجر منها واختار سُكنى حريملاء واستقر بها»[1].

[1] «ابن غنام» (1/ 212).

أما سبب انتقال أبيه من العيينة إلى حريملاء، فهو وقوع خلاف بينه وبين والي العيينة الجديد، فعزله الوالي عن القضاء، وكان هذا سنة تسع وثلاثين ومائة وألف[1].

وعليه فقد كان عُمر الشيخ أربعا وعشرين سنة عند انتقال أبيه من العيينة.

ونستنتج من هذا أن كل ما تقدم من قصة الشيخ في الرحلة والدعوة والنصح كان في ريعان الشباب ومقتبل العمر، واستحضار ذلك مهم فيما سيأتي معنا.

«أقام الشيخ في حريملاء مع أبيه»[2]، و«أخذ يقرأ عليه»[3].

وكما عرفنا من شخصية الشيخ في كل مراحله العلمية فإنه يرفض أن يكون الدين مجرد آيات تتلى أو دروس تتلقى، بل يسعى لجعل الدين واقعًا حياتيًّا في كل صغيرة وكبيرة.

فإذ به«**يعلن بالتوحيد ويُبديه** وينادي بإبطال دعوة غير الله، وينصح من عدل عن الحق والرشاد، ويسلك في ذلك سبيل السداد، ويزجر الناس عن الشرك والباطل والفساد، حتى رفع الله شأنه فَساد.

وجدّ في تعليم الواجب، وبذل المناصحة للخاص والعام، ونشر شرائع الإسلام، ومهد سنة محمد عليه الصلاة والسلام، وإزالة ما غطى القلوب من رين الشرك الذي هو أعظم الذنوب..ويحذرهم إن داموا على ما هم فيه وقوع النقمة والباس...

وترك ما كان علماء السوء قبله له سالكون..كما نطق القرآن (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات..الآية)

---

[1] «ابن بشر» (1/ 37).

[2] «ابن غنام» (1/ 212).

[3] «ابن بشر» (1/ 37).

فانتدب هذا الإمام مناديا على رؤوس العوالم بإخلاص العبادة لله وتنكير الإشراك بالله والمظالم، وإبطال دعوة غيره من نبي ووليّ حاكم»[1]

وكما هي سنة الله في خلقه، وكتابه المحتوم على مَن تصدى للباطل وأهله، فقد واجه الشيخ أذى المخالفين ورَفْضهم لما يدعو إليه، ويبدو أن أباه أشفق عليه من هذا الطريق «حتى وقع بينه وبين أبيه كلام، وكذلك وقع بينه وبين الناس في البلد»[2].

ويبدو أن الشيخ انصاع لأمر أبيه، لا بترك الدعوة وإنما بتخفيف نشاطه رحمةً بأبيه، نفهم هذا من قول ابن بشر[3]:«فأقام على ذلك مدة سنين حتى توفي أبوه..ثم أعلن بالدعوة..».

ويظهر لنا مما عرفناه من شخصية الشيخ أنه في سني هدوء الدعوة هذه كان ينشغل بالعلم والتحصيل والتأصيل العلمي.

ولم تكن هذه السنين مدة قصيرة بل كانت سنوات طويلة قد تكون أربت على السنوات العشر.

فقد توفي أبو الشيخ رحمه الله سنة ثلاث وخمسين ومائة وألف[4]، وعليه فيكون عمر الشيخ عند وفاة أبيه ثمان وثلاثين سنة، وقد قدمنا أن الأب انتقل إلى حريملاء سنة تسع وثلاثين، فيكون بقي فيها إلى حين وفاته أربع عشرة سنة تقريبًا[5].

ومهما يكن من أمر فإن المؤكد لنا أن الشيخ الآن عمره ثمان وثلاثون سنة، قضى أكثرها في التعلم والدعوة إلى التوحيد، والنصح والإرشاد.

---

[1] «ابن غنام» » (/ 212)، وانظر «ابن بشر» (1/ 37).

[2] «ابن بشر» (1/ 37).

[3] (1/ 37).

[4] «ابن بشر»(1/ 37).

[5] لا أجد الآن تصريحًا واضحا في المصادر عن السنة التي دخل فيها الشيخ حريملاء لكن سياق المؤرخين يدل على أنه دخلها بعد انتقال أبيه بمدة يسيرة إن لم يكن في نفس السنة.

ثم لما مات أبوه رأى أن الفرصة سانحة للنشاط مرة أخرى في دعوته، «فأعلن بالدعوة والإنكار والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[1] .

«ولم يخف في الله لومة لائم، حتى نال من مولاه المنح العظائم... وصار له بتلك الدعوة والقيام توكل على ربه واعتصام فلم يُبال بجميع الأنام وما رموه من الفوادح العظام وما فوّقوا له من تلك السهام..»[2]

(12)

وصف حال أتباعه وموقف المخالفين منه

«وكان الناس عند ذلك على حزبين وانقسموا فيه فريقين»

ابن غنام

أنتجت هذه الجهود الوافرة والهمة العالية ثمرتها الواقعية على الأرض بحول الله وحده وقوته، وكان من أهم ثمراتها شهرة الشيخ في بلاد العارض كلها، وكثرة أتباعه ومحبيه كثرة بالغة.

---

[1] «ابن بشر» (1/ 37).

[2] «ابن غنام» (1/ 212-213).

إلا أن الشيخ لم يكن في جميع مراحل دعوته وحياته ممن يحرص على تكثير الأعداد، إنما يهمه أن يكون أتباعه وأصحابه من أصحاب العقيدة الصحيحة، وعلى قدر من العدالة والثقة والعلم والدعوة، قلوا أم كثروا.

ولهذا كان لديه حرص عظيم على تعليم أتباعه وتأصيلهم علميًّا، وانتداب البارزين منهم للدعوة للتوحيد، والاجتهاد في ذلك، حتى كأن هذه المرحلة في حياته من الممكن أن نسميها «ابن عبد الوهاب المؤدِّب والمعلِّم».

ويحكي لنا ابن غنام[1] أحوال أتباع الشيخ والمتأثرين به في تلك المرحلة فيقول:

«فانتظم في سلك الإمام رجال، واتخذوه جليسًا وأنيسًا، واقتدوا به..وكانوا لطريقته المثلى متبعين..

لا يزالون معه في إخلاص الدعوة مشمّرين، وفي إدحاض الباطل وأهله مجتهدين ، وبإيضاح مناهج الشرك معلنين..ولقبح عقائدهم مبيّنين..

وكان هؤلاء الرجال ملازمين للشيخ في جميع الأحوال، وكان في تعليمهم وإرشادهم لا يزال، فقرؤوا عليه كتب الحديث والفقه والتفسير..

فاشتهر حاله في جميع بلدان العارض، في حريملاء، والعيينة، والدرعية، والرياض، ومنفوحة، فلم يكن لبعضهم عن اتباع ذلك الحق مندوحة..فأتى إليه ناس كثير ، وانحاز لدعوته جمّ غفير.

وكان الناس عند ذلك على حزبين وانقسموا فيه فريقين: فريق أحبه وما دعا إليه، فعاهده على ذلك وبايعه، وحذا حذوه وتابعه.

وفريق أنكر ذلك عليه وهم الأكثر..

---

[1] «ابن غنام» » (1/ 214-215)

فلم يزل رحمه الله دأبه القيام ونشر دعوة الملك العلاّم، على الاستمرار والدوام..**حتى لهج بالإنكار عليه كثير من ذوي العلم والأفهام..))**.

(13)

تصنيف كتاب التوحيد في حريملاء

ويبدو أن مرحلة التعليم والدعوة وانتظام الكثيرين في سلك الدعوة متعلمين وداعين، كانت من أهم الأسباب التي وجّهت الإمام لتصنيف كتاب يجمع فيه أدلة التوحيد وما يتعلق به من مسائل من الكتاب والسنة وأقوال السلف، ليكون نبراسًا للمتعلم، وسلاحًا للداعية، وذخيرة للموحِّد، فكان أن صنَّف كتابه العظيم، الذي سارت به الركبان، وأشرقت على ظلمات الأرض أنوار آياته: «كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد».

يقول ابن غنام[1]: «فأقام رحمه الله في بلد حريملاء **سنين ينشر أعلام التوحيد..وصنف في** تلك الإقامة كتاب التوحيد ونشر أعلامه».

وإن كنا نميل إلى أن الإبرازة الأولى لكتاب التوحيد إنما كانت في مرحلة قبل هذه، وذلك أثناء إقامة الشيخ بالبصرة وانشغاله الدعوي بها، حيث يقول عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ: «فصنف في البصرة كتاب التوحيد، الذي شهد له بفضله بتصنيفه القريب والبعيد، أخذه من الكتب التي في مدارس البصرة من كتب الحديث»[2].

والمتابع لمؤلفات الشيخ المطالع لنسخها المختلفة الناظر في ملابسات تصنيفها يعلم أن الشيخ كان يكرر كتابة رسائله ومصنفاته مرارًا لإرسالها للأمصار المختلفة خاصة تلك التي ذاعت وانتشرت بين الناس.

---

[1] «ابن غنام» (1/ 214-215)

[2] «الدرر السنية» (12/ 7).

فلعل ما كتبه بالبصرة كان الإبرازة الأولى للكتاب، وما كتبه في حريملاء كان إبرازة متأخرة لا يبعد أن تكون أكمل وأتم من تلك.

وقد أَوْلَى الإمام التصنيف والتأليف ونشر تراث الأئمة وآثار السلف، عناية خاصة في جميع مراحل حياته العلمية والدعوية، مما يعكس أهمية هذا الجانب عنده وعند أبناء دعوته إلى اليوم.

(14)

تلخيص نتائج مرحلة الصدع بالحق في نجد

«..حتى رفع الله شأنه فَسَاد»

ابن غنام

أنتجت هذه الجهود والهمة العالية ثمرتها الواقعية على الأرض بحول الله وحده وقوته، وكان من أهم **نتائجها**:

أ: أن كتب الله للإمام القبول بين الناس.

«حتى بدا له من أُفُق تلك البلاد طالع القبول..»[1].

ب: تابعه الناس على دعوته، ومالوا معه.

«وتبعه أناس من أهل البلد ومالوا معه واشتهر بذلك»[2].

ج: «وكثر بعد ذلك محبوه وجنده... »[3]

---

[1] «ابن غنام» » (1/ 212-213).

[2] «ابن بشر» (1/ 37).

[3] «ابن غنام» (1/ 213).

وفي مقابل هذا فإن مخالفيه كثروا ولهجوا بالإنكار عليه:

أ: و«رموه بالفوادح العظام، وما فوّقوا له من تلك السهام.. »[1]

ب: « لهج بالإنكار عليه كثير من ذوي العلم والأفهام.. »[2]

وخلاصة موقف الناس من دعوته: «كان الناس عند ذلك على حزبين وانقسموا فيه فريقين: فريق أحبه وما دعا إليه، فعاهده على ذلك وبايعه، وحذا حذوه وتابعه.

وفريق أنكر ذلك عليه وهم الأكثر.. »[3]

أما موقف الشيخ مع المخالفين:

فقد «توكل على ربه واعتصم، فلم يُبال بجميع الأنام، وما رموه من الفوادح العظام، وما فوّقوا له من تلك السهام.. »[4]

ومهما يكن من أمر فإن ثمة حقيقة كبرى جديدة في نجد اليوم، وهي أن ذلك الرجل الذي أوذي في البصرة، ثم طُرد منها، وكاد أن يهلك من العطش، والذي أوذي في حريملاء، قد تبدل حاله غير الحال وصار من شأنه غير الذي كان فقد دانت له في نجد رقاب العباد و ..

«رفع الله شأنه فَساد»[5]!

(15)

محاولة اغتيال الشيخ!
ومغادرته إلى العيينة

---

[1] «ابن غنام» (1/ 212-213).

[2] «ابن غنام» (1/ 215).

[3] «ابن غنام» (1/ 214).

[4] «ابن غنام» (1/ 213).

[5] «ابن غنام» (1/ 212).

«فَهَمَّ العبيد أن يفتكوا بالشيخ ويقتلوه بالليل سرًّا»

ابن بشر

كان رؤساء حريملاء قبيلتين أصلهما قبيلة واحدة، فتنازعت القبيلتان على السلطة، ولم يستطيعوا الوصول إلى حلول، فخلت حريملاء من سلطان يزع الناس، وكان في البلد عبيد لإحدى القبيلتين، كثُر تعديهم وفسقهم، فأراد الشيخ أن يُمنعوا من الفساد، فنشط في أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، فهمّ العبيد أن يفتكوا بالشيخ، ويقتلوه بالليل سرًّا، فلما تسوَّروا الجدار علم بهم أناس فصاحوا عليهم فهربوا، فقرر الشيخ الانتقال إلى بلد العيينة[1].

وقبل أن نغادر مع الشيخ إلى العيينة نريد أن نتوقف هنا عند لفتة مهمة في تقرير منهج الشيخ الدعوي على الأرض.

لقد كانت حريملاء بلا سلطان يزع الناس، واضطربت الأوضاع، وكان بإمكان الشيخ أن يستغل هذه الظروف وقد اجتمع لديه كثير من الأتباع في الانتقام من مخالفيه وهم كُثُر، ولكن هذا ليس هو منهجه وطريقته، بل منهجه هو العلم، وطريقته هي الدعوة بالحسنى، وسلاحه مع أعدائه إنما هو الصبر على الأذى.

ثم يمضي الشيخ في رحلة جديدة إلى العيينة ونمضي معه..

(16)

ما نستنتجه من المراحل السابقة

---

[1] «ابن بشر» (1/ 38).

نلاحظ في المراحل السابقة أن الشيخ وأتباعه شأنهم شأن أية دعوة إصلاحية علمية واقتداءً بطريقته صلى الله عليه وسلم اعتنوا بنشر الدعوة والعلم في كل طبقات المجتمع، بين الخاصة والعامة، بين الرؤساء والمرؤوسين، بين الغني والفقير...إلخ

وذلك لأن تأثُّر أية دائرة من تلك الدوائر المجتمعية المختلفة بالدعوة لاشك أنه سيكون إضافة حقيقية لها، حيث يقومون بتوجيهها وتوظيفها بما فيه خدمة الدعوة ونشر العلم.

في المرحلة السابقة كانت أكثر الطبقات تأثرًا بالدعوة هي طبقة العامة من أفراد المجتمع ، وليس هذا بالأمر الجديد على تاريخ الدعوة للحق، فباستعراض تاريخ الأنبياء إلى زمان النبي صلى الله عليه وسلم إلى زماننا، تبقى دائرة التأثير أوسع وأقوى في المجتمع لا في طبقة الرؤساء وأصحاب النفوذ، ففتنة الرئاسة والوجاهة تبقى عبر التاريخ من أكبر العوائق التي تحول دون قبول الحق والاقتداء بالغير.

وفي هذه الظروف لا ترى الدعوة بُدًّا من الاستمرار في طريق نشر العلم والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة في المجتمع.

وهي الطريقة النبوية في زمانها الأول، وطريقة العلماء المصلحين عبر التاريخ، وطريقة الإمام محمد بن عبد الوهاب ومدرسته، وطريقة أتباعه إلى هذا الزمان.

ونريد أن نركز هنا على قضية هامة وهي أننا من خلال التأمل في المراحل السابقة التي استمرت سنوات طوال في تاريخ الدعوة ، وشهدت وضع بذرة هذه الدعوة ومنهجها وطريقتها الإصلاحية الأصيلة، ومنهجها الثابت الذي لا يتغير، نستنتج أن دعوة الشيخ شأن الدعوات الإصلاحية السابقة لها والتالية، وشأن الدعوات الإصلاحية العلمية الحالية، هي دعوة إصلاح وتجديد وتعليم بالمقام الأول، ترى أن التعويل الأكبر والأهم إنما يكون على وعي المجتمعات، وإصلاحها وتعليمها، وأن هذا هو حجر الزاوية في أي عمل إصلاحي تجديدي للإسلام، وأنه هو ما ينبغي البدء به وإنفاق الجهود وبذل المهج فيه.

فنحن هنا أمام دعوة بقيت سنوات في الانتشار والتوسع على نَسَق واحد وإيقاع ثابت لا يتغير، وهو النصح والإرشاد والموعظة والتأليف والتصنيف ورد الشبهات، ومع انتشار الشركيات (التي هي كفر بإجماع) والمخالفات الشرعية في المجتمع النجدي وكثرة المخالفين والمهاجمين للدعوة وأبنائها، لم تنشغل الدعوة وأبناؤها بأكثر من بيان عظم أمر هذه المخالفات وخطرها في الإسلام والرد على شبهات المخالفين.

الدولة في فكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب

ولهذا فإننا نرى أن (الدولة) في فكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب إنما هي وسيلة لا غاية.

وأقصد بالغاية هنا أن تكون الدولة هي الغاية التي أنزل القرآن وأرسلت الرسل لتحقيقها، وأن يكون الواجب الأول على المسلم إيجادها.

وأعني بالوسيلة أن يكون الواجب الأول على المسلم هو تحقيق العبودية والتوحيد، أما الدولة فقد يسخر الله أسبابها في زمان دون زمان أو في مكان دون مكان ولا ضير على المسلم إذا لم تتيسر أسبابها، أما عند تسخيرها فتوظَّف كوسيلة من وسائل حفظ العبودية وحراسة العابدين ونشر مفهوم العبودية في الآفاق.

وقد انقسمت الاتجاهات المنتسبة للإسلام في الإجابة عن سؤال غائية الدولة أو وسيليتها في العصر الحاضر إلى ثلاثة اتجاهات رئيسة:

الأول: هو الاتجاه الذي يرى أن الإسلام ما هو إلا دعوة إلى إقامة دولة تحكم بالشرع، فالدولة هي الغاية الرئيسة في الإسلام عند هذا الاتجاه، وتميل أدبيات هذا الاتجاه إلى اختزال رسالة الإسلام في هذا المعنى أو تضخيمه على الأقل حتى يبدو وكأنه الإسلام كله.

وقد انقسمت الاتجاهات التي تتبنّى هذا الرأي إلى اتجاهين رئيسين في الإجابة عن آلية إقامة الدولة في الإسلام، فبينما مال اتجاه إلى الانخراط في العمل السياسي ، مال اتجاه آخر إلى العمل القتالي، كما تختلف أطروحات هذه الاتجاهات في مفهوم (الشرع) الذي تحكم به الدولة، وبينهم خلافات أصلية وفكرية كثيرة.

الثاني: أما الاتجاه الثاني فهو اتجاه يرى أن الغاية من رسالة الإسلام إنما هو تعبيد الفرد والمجتمع لله وحده من خلال الدعوة والتعليم والإصلاح، وأن الدولة ما هي إلا وسيلة من الوسائل التي قد تُسَخَّر في بعض الأزمنة والأمكنة في سبيل تيسير هذه الغاية، وغالبا ما يكون هذا التسخير سنة كونية كجزاء على الإخلاص والصبر على البلاء في الجانب الدعوي والعلمي والتربوي بين الأفراد والمجتمعات، كما هو حال المجتمع النبوي الذي ارتقى من مرحلة الدعوة في مكة إلى مرحلة الدولة في المدينة، فإن تيسرت الدولة فينبغي أن يُحسن توظيفها في خدمة الغاية الرئيسة من الإسلام.

أما في حالة عدم تيسُّر أسباب إقامة الدولة فيرى هذا الاتجاه بذل الجهود في أبواب التعليم والإصلاح والتربية في أوساط المجتمع ويقارِب حاله من حال المجتمع النبوي الأول الذي لم يُكلَّف بإقامة دولة ولا ضير في ذلك.

ونميل إلى أن الشيخ ودعوته تمثل هذا الاتجاه الثاني للأسباب التالية:

أ: إننا لا نجد في أدبيات الإمام في تلك السنوات الطوال التي تقارب ثلاثين سنة والتي وضع فيها منهجه التجديدي سوى الدعوة والإصلاح ولا شيء غير ذلك.

ب: لا نجد في أدبيات الدعوة في كل مراحلها تضخيما للجانب السياسي من الإسلام، أو حديث عن حاكمية مختزلة في صورة الدولة، أو حديث عن أن سبب كل هذا الفساد الموجود في نجد هو رؤساء القبائل والأسر النجدية، فأول طرق الإصلاح يكون بالسعي للوصول للسلطة السياسية.

ج: ولا نجد في أدبياتها الحديث عن أن رؤساء القبائل والأسر الحاكمة في نجد يجب الخروج المسلح عليهم وإزالتهم لتشريعهم الشرك، وأن من وقف معهم من أبناء المجتمعات المسلمة يلحق بهم كما نجده عند بعض الجماعات.

د: وما أسهل أن يدعو الشيخ أتباعه في كل منطقة وقد كانوا كثرة كثيرة أن يبدؤوا بالخروج المسلح على رؤسائهم الذين يشرِّعون الشرك الأكبر ويحمونه، والخروج عن مجتمعاتهم التي تمارس هذه المخالفات.

لا نجد شيئا من ذلك في أدبيات الشيخ الخاصة بالبيئة النجدية التي هي في دائرة تأثيره، فضلا عن أن تكون مثل هذه الدعوات عابرة للقارات أو للحدود، فتصير دعوة عامة للركض وراء السطلة أو للخروج المسلح على الحكومات والمجتمعات المسلمة بدعوى الإصلاح.

ولا يفوتنا هنا أن نتحدث عن اتجاه ثالث في العصر الحديث أجاب عن هذا السؤال بلسان المقال أو بلسان الحال، بأن الدولة ليست من الإسلام! لا غاية ولا وسيلة! وهو غلو في مقابل غلو الاتجاه الأول.

وهو اتجاه قد ينتسب للسنة، ولكننا نلاحظ من خلال النظر في أدبيات هذا الاتجاه أو قراءة ممارساته الواقعية أنه لا يفرق بين الانخراط في العمل السياسي بنسخته الغربية وهو ما يرفضه كثيرمن القطاعات العلمية في العصر الحاضر، حيث يرون أن السياسة التي صدّرها الغرب للمنطقة الإسلامية ما هي بالنسبة للأحزاب الإسلامية إلا كحوض الأسماك الذي قد تظنة السمكة للحظة بحرا فتشعر فيه بحريةٍ آنيةٍ وتجهد نفسها في السير حتى إذا ظنَّت أنها صارت قاب قوسين من تحقيق أهدافها ارتطم رأسها بزجاج الحوض فتعود أدراجها من جديد، وتبقى تدور في حوض الأسماك

هذا إلى ما شاء الله، ويبقى المشاهد – الغرب – يستمتع بمنظر أسماك الزينة هذه التي تظن مع كل دورة أنها ستطير هذه المرة في فضاء البحر الواسع إلى أن يرتطم رأسها بالزجاج من جديد.

أما سياسة الدولة سياسة شرعية منضبطة نابعة من الداخل الإسلامي لا من الخارج الغربي فهذا جزء لا يتجزأ من الإسلام.

ولا يفرق هذا الاتجاه بين صورة الهجوم على فكرة إيجاد الدولة ، وبين الانشغال بإصلاح المجتمعات والأفراد فإذا ما تكوّنت قاعدة شعبية واسعة وتأثرت مراكز القوى الرئيسية بالدعوة وتوافق أهل الحل والعقد على قيادة سياسية تسوسهم بالدين والعدل، فتيسرت بالتالي أسباب إقامة دولة تعتمد على السياسة الشرعية في منظومة الحكم أداروا الدولة وساسوها، وهذا أيضا جزء لا يتجزأ من الإسلام، بل هو الأصل في تصور مفهوم الدولة في الإسلام.

فهل تيسّر للشيخ محمد بن عبد الوهاب أسباب إقامة دولة أو إمارة مصغرة تسوس الناس بالشرع هذا ما تجيبنا عنه الفصول التالية.

مرحلة التمكين وتأثر الرؤوس بدعوة الشيخ وتبنيهم لها«« الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة.. »»

(17)

مرحلة تأثُّر الرؤوس بدعوة الشيخ وتبنيهم لها

«إني أرجو إن أنت قمت بنصر لا إله إلا الله أن يظهرك الله..! »

محمد بن عبد الوهاب لابن معمر

طرأ على دعوة الشيخ طاريء جديد، انتقلت معه الدعوة نقلة جديدة في حركتها على الأرض، ألا وهو تأثر الرؤوس بها، فقد «هدى الله الأمير عثمان بن معمر [أمير بلدة العيينة] لقبول هذا الدين، فدخل منه شيء في قلبه، وأعلن عند جماعته وصحبه، بتقريب الشيخ وحبه.

حينها عزم الشيخ رحمه الله على الارتحال من حريملاء ، والإقامة بالعيينة، فانتقل إليها»[1].

«فتلقاه ابن معمر بالقبول وأكرمه، وتزوّج فيها الجوهرة بنت عبد الله بن معمر، وعرض على عثمان ما قام به ودعى إليه وقرر له التوحيد، وحاوله [أي: حثَّه] على نصرته وقال له: **إني أرجو إن أنت قمت بنصر لا إله إلا الله أن يظهرك الله وتملك نجدًا وأعرابها**»[2].

«فكان أن قام معه عثمان وقعد، وساعده على ذلك واجتهد، وأمر الناس له بالاتباع، وعدم المشاققة له والنزاع، وألزم الخاصة والعامة، أن يمتثلوا أمره وكلامه، ويسلكوا سبل الاستقامة، ويظهروا توقيره وإكرامه.

فكان بعد ذلك الأمر والإلزام..تسمع أقواله وتطاع، وتملأ الصدور والأسماع..

وتبعه ناس من أهل العيينة»[3].

«فصار للزيغ ارتداع، وقمع وإقلاع، وللحق والهدى اتباع، **ففشا الدين في بلدان العارض المعروفة... **»[1]

---

[1] «ابن غنام» (1/ 215).

[2] «ابن بشر» (1/ 39).

[3] «ابن بشر» (1/ 39).

التحليل الموضوعي:

نلاحظ في هذه المرحلة أن الدعوة أخذت منحنى جديدًا هامًّا، وهو تأثُّر أحد الرؤوس بها، ووضع يده في يد إمامها، واستعداده لتقديم كل الدعم المتاح لها، وتمهيد السبُل لانتشارها.

وأهم ثمرات انقياد بعض الرؤوس للدعوة هو تهيئة بيئة جيدة آمنة للنشاط الدعوي والعلمي عبر وسائل مختلفة من أهمها كف المخالفين عن الإضرار بالدعوة والتشغيب عليها، واتساع دائرة التأثير على الأرض فالناس على دين ملوكهم، وقد قدم رئيس بلدة العيينة كل ذلك الدعم للدعوة وإمامها.

وهنا يوظِّف الداعية الناجح هذه الإضافة النوعية في السير بدعوته خطوة قوية جديدة إلى الأمام،ولهذا قرر الإمام عدم تفويت الفرصة وقرر الانتقال إلى العيينة.

وبعد هذا الاتحاد بين القاعدة الدعوية والرأس السياسي في العيينة، لم يتوجه الإمام لأي شيء جديد في خطته الإصلاحية على الأرض، بل هو هو المنهج، وهو هو الطريق، فاستمر فيما كان فيه في دعوته الإصلاحية و نشط في طريقته القائمة على الإصلاح الدعوي والعلمي في المجتمع، فلم يوظف هذا التحوّل الجديد إلا في الدعوة والدعوة فقط، لتأتي الثمرة المرجوة لكل هذه الجهود بانتشار الدعوة في بلاد العارض كلها، كما يحدثنا ابن غنام.

---

[1] «ابن غنام» (1/ 215).

قرار السلطة الحاكمة إزالة القبور والأضرحة

«وقد كان بدمشق كثير من هذه الأنصاب،

فيسر الله سبحانه كسرها على يد شيخ الإسلام

وحزب الله الموحدين»

ابن القيم

«وخرّ شامخ الأحجار.. »

ابن غنام

لاحظنا في المرحلة السابقة أن الإمام لم يفعل شيئا جديدا بل استمر في نشاطه الدعوي في المجتمع، ولمسنا ثمرة هذا النشاط المجتمعي من انتشار دعوة الحق وانقياد الناس لها وفشو التوحيد وانتشاره في بلاد العارض كلها لاجتماع سلطان العلم والحُكْم.

ومع نهاية هذه المرحلة نجد أنفسنا على أعتاب مرحلة جديدة وهامة للدعوة.

إن المرحلة السابقة عند الدعوات الإصلاحية نستطيع أن نطلق عليها مرحلة اكتمال العوامل الثلاثة!

فنحن أمام:

أ: إمام عالم يناضل عن الحق، ومعه طلابه ودعاته.

ب: وعي مجتمعي بالحق، وجاهزية للانقياد لتطبيقه.

ج: سلطة سياسية (ومراكز قوى) منقادة للحق، مستعدة لتنفيذه، وإلزام المخالِفين.

نريد أن نركز هنا على أن الإمام حتى بعد التحالف السياسي المهم مع رئيس بلدة العيينة لم يصنع شيئا سوى الانشغال بإكمال مسيرة إصلاح المجتمع.

ولم يكن هذا الأمر محض مصادفة، بل يعبّر عن مركزية المجتمع في دعوة الشيخ وفي الدعوات الإصلاحية عبر التاريخ الإسلامي، فتلك الدعوات ترى أن حجر الزاوية هو

المجتمع، وأن الانشغال بإصلاحه وتعليمه هو الضامن الحقيقي لحياة الدعوة واستمرارها، فالمجتمع إذا كانت تتنازعه أفكار مختلفة وتتقاذفه مشارب شتى لن يكون بيئة خصبة للانتقال إلى مرحلة جديدة بالدعوة، لأنه – أو قطاعات عريضة منه- ستقف حائلا دون حركتها على الأرض.

أما توحيد وعي المجتمع وهمومه ومشاربه وأفكاره على رسالة واحدة وتوجيهه نحو وجهة واحدة فهو وحده وقود هذه الحركة وروحها.

ولا نقصد أن المجتمع بأكمله يكون قد وصل إلى مرحلة الوعي فهذا لا سبيل إليه، إنما نقصد أن الوعي انتشر بين المجتمع بالقدر الكافي الذي يسهل الانتقال للمرحلة التالية، فهذا بالإضافة إلى انقياد مراكز القوى للدعوة وكسبها إلى صفّها يجعل نسبة احتمال وقوع انشقاقات مجتمعية تؤدي للفتن تكاد تكون منعدمة عند إعلان السلطة قرارها بتطبيق الشرع وإلزام المواطنين بها ، وهذا ما نهجه الشيخ هنا، وهو الطريق السديد فيما نرى.

والشيخ محمد بن عبد الوهاب من درس فكره السياسي ومنهجه في السياسة الشرعية وإدارة الدول لوجد – مع تواضع البيئة التي خرج منها- فكرًا عميقًا عجيبًا يفتقر إليه عامة كثير ممن يخوض في هذا الباب، نأمَل أن ييسر الله لنا إبرازه في عمل مستقل، ولا يمنع هذا من إلقاء الضوء على بعض آرائه ومواقفه فيما نحتاجه في هذا البحث.

على أية حال..لمّا تمت هذه العوامل الثلاثة المذكورة للشيخ انتقلت الدعوة إلى مرحلة جديدة..وهي مرحلة التنفيذ على الأرض، وإعلان السلطة السياسية تطبيق الشرع، ومن جملته إنكار المنكر باليد، تلك المرحلة التي لا تنتقل إليها الدعوات الإصلاحية العلمية إلا باكتمال هذه العوامل.

لأن الدعوات الإصلاحية العلمية تشترط للتغيير باليد أن تتولى السلطة الحاكمة بذراعها التنفيذية ذلك، فليس هذا الأمر مناطًا بآحاد الناس ولو كانوا علماء، إلا أن يأذن من بيده

السلطة التنفيذية لبعض العلماء بذلك، كما تشترط أن يكون ثمة وعي مجتمعي كاف لاستيعاب هذه المرحلة فلا يقف حائلا أمامها مما يؤدي إلى شق الصف المجتمعي وما قد ينتجه ذلك من فتن، وعلى هذه الخطى سار إمامنا، لتنتقل الدعوة لتلك المرحلة الهامة.

يقول ابن غنام[1]:

«ولكن لم يصبر الشيخ على المقام بذلك المكان مع مشاهدته فيه الأوثان، فعند ذلك أمر الشيخ محمدٌ الأميرَ عثمان بهدم القبب والمساجد المبنية في الجبيلة على قبور الصحابة، وقطع الأشجار التي كانت الخلق لها في كل ساعة منتابة»..

وهنا نلاحظ أن الشيخ إنما أمر الأمير عثمان بالقيام بهذه المهمة لأنها من اختصاص الجهات الحاكمة..

«فبادر عثمان لذلك وامتثل»

ونلاحظ هنا مباركة السلطة الحاكمة لهذه الخطوة والبدء في التنفيذ..

وإذا أوكلت السلطة الحاكمة لبعض العلماء التغيير باليد فلا مانع من ذلك:

ولهذا «خرج الشيخ وجماعته معه بالمعاول فهدموا تلك المساجد وأزالوا المشاهد وأزالوا جميع المحظور عن جميع تلك القبور وعُدِّلت على السَّنن المشروع.. وكان الشيخ رحمه الله تعالى هو الذي باشر قطع شجرة الذيب بيده[2] مع بعض أصحابه.. »

إلا أن المناطق التي قد ترفض الانقياد للعالم المخوّل من جهة السلطة للتغيير فمن الحكمة هنا أن تقوم السلطة نفسها بالتغيير، تجنبًا للفتنة، فقد أراد الشيخ «أن يهدم قبة زيد بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، فأتى بلد الجبيلة فقال لعثمان: دعْنا لنهدم هذه القبة التي وضعت على الباطل وضلّ الناس بها عن الهدى. فقال: دونكها فاهدمها، فقال الشيخ: إني

---

[1] «ابن غنام» (1/ 215-216).

[2] وانظر خبر الشجرة أيضا في «تاريخ ابن بشر» (1/ 39).

أخاف من أهل مدينة الجبيلة أن ينصروها، ويقعوا بنا، ولا أستطيع هدمها إلا وأنت معي، فسار معه عثمان بنحو ستمائة رجل، فأراد أهل الجبيلة أن يمنعوهم من هدمها، فلما رأوا عثمان وأنه قد عزم على حربهم إن لم يتركوه يهدمها كفوا وخلوا بينهم وبينها، فهدم فيها الشيخ بيده لما تهيب هدمها الذين معه».

ثم انظر معي إلى هذه الطرفة:

«فانتظر جهلة أهل البلد ما يحدث على الشيخ بسبب هدمها، فأصبح في أحسن حال»[1].

والتغيير باليد إضافة قوية إلى جانب التغيير العلمي والدعوي تؤتي ثمار مباركة يانعة:

فبعد هذه الخطوة «اندرس الأمر الممنوع، وبطل التعظيم والاعتناء بالقبور، وخرّ شامخ الأحجار، وما في العارض من معبّدات الأشجار، كشجرة قريوه وأبي دجانة والذيب، فلم يكن أحد للتبرك بها ينيب، ولم تسألها من لم تتزوج زوجا حبيب.. ».

وللمرة الأولى في ذلك العصر في ناحية من نواحي نجد: «لم يبق وثن».

ونتساءل هنا مرة أخرى هل دعوة الشيخ للتغيير باليد في هذه المرحلة كانت دعوة عابرة للقارات أو للحدود، هل وجه أتباعه –وهم كثر– في كل قرية وكل بلد وكل مكان للخروج بالمعاول وتهديم الأشجار وتسوية القبور وإزالة الأضرحة..

يأتينا هنا الجواب من ابن غنام فيقول:

«لم يبق وثن في البلدان التي **كانت تحت يد عثمان** ، وشاع ذلك واستبان.. ».

إذن فهذا التغيير الشامل كان أمرا خاصا بالبلدان التي كانت تحت سلطة عثمان بن معمر ولم تتجاوز تلك الدائرة، ولم تخرج عنها، ولم يدع الشيخ أحدا خارج تلك الدائرة للقيام بذلك.

[1] «تاريخ ابن بشر» (1/ 39).

وما هذا إلا للخطوات المتعقلة الهادئة التي تسير عليها الدعوات الإصلاحية، فليست هي دعوات تحميس وتهييج، ولا دعوات طائشة ترتكب حماقة شق الصف المجتمعي وزعزعة السلم الإجتماعي، في ديار الإسلام.

لما اكتملت عوامل التغيير باليد في دائرة عثمان توجه الشيخ لهذه المرحلة، ولما كانت باقي المناطق والديار والبلدان الإسلامية تفتقد لهذه العوامل فليس ثمة إلا إصلاح النفس ودعوة المجتمع بالحكمة والموعظة الحسنة، وفقط.

إقامة الحدود

بعد قطع دابر الشرك في العيينة، توجه الشيخ للسلطة الحاكمة بطلب الشروع في إقامة الحدود..

يقول ابن غنام[1]: «لم يزل الشيخ رحمه الله مقيمًا ببلد العيينة على الحالة الموصوفة، والطريقة المعروفة يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويميت ما قدر عليه من البدع، ويقيم الحدود، ويأمر الوالي بإقامتها».

وكان الشيخ كلما انتقل إلى مرحلة جديدة من إقامة الشرع ونشر الدعوة، وكلما ارتقى مرتقى جديدا في قوة نفوذه العلمي والدعوي وتأثيره في الناس، ترتفع أصوات مخالفيه بنشر أكاذيب ومفتريات حوله – كما سيأتي معنا– ثم حدثت حادثة وجدها أعداؤه فرصة سانحة لاستغلالها في التأليب عليه وعلى دعوته.

«ففي تلك الأيام جرت قضية استنكرها قلوب أهل الزيغ والجهل والرّدى..وهي أن إمراة من أهل العيينة زنت فأقرت على نفسها بالزنا، وتكرر ذلك منها أربعًا، فأعرض الشيخ عنها، ثم أقرت وعادت إلى الإقرار مراراً فسأل عن عقلها فأخبر بتمامه وصحته، فأمهلها أيامًا

---

[1] (2/ 670).

رجاء أن ترجع عن الإقرار إلى الإنكار، [فقال: لعلك مغصوبة][1]، فلم تزل مستمرة على إقرارها بذلك، فكانت أقرت أربع مرات في أيام متواليات ، فأمر الشيخ الوالي برجمها، لكونها قد أحصنت، وبذلك الإقرار قد صرّحت وأعلنت..فخرج الوالي عثمان وجماعة من المسلمين فرجموها حتى ماتت، وكان أول من رجمها عثمان..فلما ماتت أمر ان يغسلوها وأن تكفن وأن يصلى عليها»[2]

وهذه المرأة تعيد إلى ذاكرتنا قصة تلك الغامدية التي زنت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهي هي القصة، وهو هو ما فعله الشيخ اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم الذي أعرض عنها مرارًا رحمةً بها، وهو هو الإيمان الذي خالط كل ذرة من جسد الغامدية يعود فيختلط بدماء تلك النجدية!

إن قضية رجم الزانية المحصنة كانت ولا تزال تؤرق أعداء الإسلام وأعداء الإيمان وأعداء العفاف، ليس لما يظهرونه من الحديث عن وحشية هذا الحد، فكل عاقل يعلم جيِّدًا أن ما مِن امرأة متزوجة وقعت في الزنا، إلا وستُحكم إخفاء جريمتها عن أعين الخلق، ولن تسمح لنفسها بفضح نفسها على رؤوس الأشهاد، فضلا عن أن تتحمل العقوبة، وبالتالي فإن دائرة تطبيق هذا الحد على أرض الواقع تبقى ضيقة جدا تكاد تكون معدومة، إن ما يؤرق هؤلاء هو أن يصل الإيمان والعفاف في المجتمع المسلم إلى الحد الذي وصل إليه عند الغامدية رضي الله عنها والنجدية رحمها الله.

أن يصل الإيمان بالمرأة ويأخذها العفاف وحُب ما عند الله ورغبتها فيما عنده، إلى هذه الدرجة، أن تسلم نفسها بنفسها، وتصر على إقامة الحد عليها، وتتحمل ما سيتناولها الناس

---

[1] ما بين المعقوفين من «تاريخ ابن بشر»(1/ 39).

[2] النص لـ« ابن غنام» (2/ 670)، وانظرها أيضا في «ابن بشر» (1/ 39).

به، ثم تتحمل وطأة الحجارة على نواحي جسدها، كل هذا فقط لتطمئن أنَّ الله قد تابَ عليها قبل أن تُسَلِّم روحها له، ولتلقاه بعد ذلك مطمئنة البال طيِّبة الخاطر.

ثم أي مجتمع هذا الذي أنجب هذه النماذج الراقية وتلك الصور المتلألئة؟!

إذا كانت قصة الغامدية والنجدية في أعين ممسوخي الفطرة وحشية، فهما في نظرنا رمز للعفاف، وأيقونات للإيمان، وقدوة للناس سائر الأزمان.

كأني أستمع إلى صوت النبي صلى الله عليه وسلّم يملأ الأرجاء وهو يقول عن الغامدية: «لقد تابت توبة، لو قُسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى» وإنا لنرجو للنجدية أن تلحقها في جنات عرضها السموات والأرض.

(20)

عاقبة المرحلة السابقة من إقامة الشرع

يقول ابن بشر[1] في تلخيص الحال التي وصلت إليها دعوة الشيخ في هذه المرحلة الهامة من تاريخها: «فعظم أمره بعد ذلك وكبرت دولته وفشا التوحيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

نشاط أعداء الدعوة في وأد حركتها قبل توسعها باستهداف رمزها

(21)

[1] «تاريخ ابن بشر» (1/ 39).

مرحلة جديدة من معاداة الشيخ ودعوته

الوصول إلى مرحلة التغيير باليد وإزالة المنكرات وإقامة الحدود بأمر السلطة الحاكمة كان ولا يزال إلى يومنا هذا جريمة نكراء لدى مراكز القوى والنفوذ الرافضة لحكم الإسلام، تؤرق مضاجعهم وتفسد عليهم برامجهم، فيسعون حثيثاً للوقوف حائلا دونها.

وليس هذا إلا لما قدمناه من أن مرحلة إزالة السلطة للمنكرات دون نكير داخل المجتمع، يدل على اكتمال العوامل الثلاثة التي بها عزة الإسلام وأهله، وهي صلاح العلماء والأمراء والمجتمعات.

على الصعيد الديني لا تعرف نجد -ولا العالم الإسلامي!- في تلك العصور صورة مماثلة لهذا الذي يحدث أمامها اليوم، أن يكون الدين -متمثلا في أصله وهو توحيد العبادة- هو رابطة الوحدة بين أفراد من قبائل شتى، لا يزال غبار الحروب القديمة بينها متناثرًا على وجوهها، ولا تزال قطرات الدماء تسيل على سيوفهم.

هذه اللحمة بين العلماء والرؤساء والعامة التي تتجسد أمامهم اليوم كان شيئاً أسطوريًّا لا يسمعون به إلا في قصص الأولين.

على الصعيد السياسي لا تصل الدولة إلى مرحلة كهذه إلا وقد أحرزت نجاحًا سياسيا بالغاً قوامه اللحمة الاجتماعية والوحدة العضوية بين الرئيس والمرؤوسين وبين العلماء والعامة، وهذه القوّة السياسية تؤرق الخصوم السياسيين في كل زمان ومكان.

مِن هنا نفهم سبب تكالب الأعداء (السياسيين والدينيين) على الشيخ ودعوته بعد هذه المرحلة.

لقد تحوَّلت عداوة الشيخ ودعوته تحوُّلاً جذريًّا، فبعد أن كانت عداوته مجرد هجوم على أفكاره وأفكار أتباعه، وتخطئة لهم، ولطريقتهم..تحوّلت العداوة لما يُشبه حربًا إعلامية قذرة في زماننا، تلك الحروب الإعلامية التي تقوم على الكذب والبهتان والافتراء والرّمي

بكل نقيصة حتى وصل الأمر لتكفيره، ولم يكتفِ أعداؤه إلى هذا الحد بل كان هذا كله مجرد غطاء لمرحلة أخطر من العداء وهي مرحلة السعي في طرده وتشريده وإخراجه وإبعاده، بل وإلى...قتله!

ولم يستهدفوا الشيخ فحَسب بل حكموا بذلك على أصحابه وأتباعه.

يقول ابن غنام[1]:

«وشاع ذلك – أي إزالة الأضرحة والأشجار– واستبان.. ونعم بذلك أهل الإيمان..وانتشر الحق واشتهر الأمر وبان، وسارت بذلك الركبان، فأنكرت ذلك قلوب الذين حقت عليهم كلمة العذاب..فأخذوا في رده وإنكاره، وضجوا على كلمة الحق بالتكذيب والإكذاب، **وعجوا مطبقين على الشيخ بأنه ساحر مفتر كذاب، وحكموا بكفره واستحلال دمه وماله وجميع من له من الأصحاب..**»

ولم يكتفِ أعداؤه بأحكامهم الجائرة في حقه وحق أتباعه بتكفيرهم واستحلال دمائهم وأموالهم، بل توجهوا لتأليب أمراء الجهات عليه وعلى دعوته وأتباعه، وتحريضهم عليهم.

يقول ابن غنام[2]:

«وأشرّ الناس والعلماء إنكاراً عليه، وأعظمهم تشنيعًا وسعيًا بالشر إليه **سليمان بن سحيم وأبوه محمد**، فقد أتْهَمَ في ذلك وأنجد، وجد في التحريش عليه والتحريض، وأرسل بذلك إلى الأحساء والحرمين والبصرة..وكاد وشنع..وحشر علماء السوء..وبعث إلى علماء الأحساء والبصرة والحرمين.. ».

وقد نتج عن هذا الجد والاجتهاد في التأليب عليه والتحريض على أتباعه نتائج خطيرة، يحدثنا عنها ابن غنام فيقول[1]:

---

[1] (1 / 216).

[2] (1/ 216-217).

«فقاموا معه فوراً بالإنكار، **وأفتوا للحكام والسلاطين والأشرار بأن القائم بدعوة التوحيد..خارجي!** ليس له في الحق تثبت ولا قرار، وأنه من لظى الجحيم والنار على شفا جرف هار».

وإذا كان طائفة من أعدائه وصفته بالخارجي، فمنهم من تجاوز ذلك إلى أوصاف أخطر وأكبر، يقول ابن غنام[2]:

«بل جزم أكثر علماء الأمصار في تلك الأزمان والأعصار بأن هذا المبيِّن لآثار السلف الأخيار..**من أقبح الضلال والفساق والكفار، وأشر الخوارج الفجّار**».

ويبين ابن غنام أن هذه الحرب الإعلامية القذرة كانت تهدف إلى التخلص النهائي من الشيخ فيقول: «وحسبوا أنهم إذا حرّشوا عليه الحكام يجدون في **قتله** ويجتهدون فيفوزون حينئذ بما كانوا يؤملون».

ولم يكتف أعداء الشيخ بحرب إعلامية مرسلة بل «صنفوا المصنفات في تبديعه وتضليله، وتغييره للشرع النبوي وتبديله..وسطروا فيها الجزم بكفره وبطلان حجته ودليله.. ».

وقد انضم إلى معسكر ابن سحيم هذا مجموعة من أعداء الشيخ **كابن عفالق والمويس** «**وأخرجوه من دائرة الإسلام**، وأغروا به الخاص والعام، والسلاطين والحكام، وقطعوا لهم أنه رافض لشريعة الإسلام، وأنه مغير لمنار السنة والأحكام، فليس له ولا لأصحابه عهد ولا ذمام».

وإلى جانب كل هذه التهم اتهموه بالتهمة التاريخية المعلبة وهي السعي لقلب أنظمة الحُكم في نجد! فاتهموه بأنه «لم يكن له قصد إلا تنفير الخواص والعوام للمشاقة على الحكام والولاة وأن هذا غايته ومناه»[1].

---

(1) (1/ 217).

(2) (1/ 217).

وأقف في خاتمة هذا الفصل عند كلمة هامة لابن غنام[2] قال فيها عن أعداء الشيخ هؤلاء: «**ولقد عرفوا أن الذي جاء به الحق، ولكنهم لذلك كانوا يكتمون**»، وهي شهادة هامة سنستفيد منها في توصيف حقيقة العداء بين الشيخ وأعدائه فيما يأتي.

(22)

موقف الشيخ تجاه هذا العداء

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يُبتلى فيها الشيخ بأعداء دعوته، إلا أن الأمر الآن قد بلغ ذروته، ووصل إلى حد غير مسبوق.

إنه تكفير صريح وإخراج من الملة وتهديد ووعيد بالقتل والتشريد واستحلال للدماء والأموال، والإبعاد والإخراج.

وإن كنا قد بيَّنَّا أن الدعوة في مراحلها السابقة التي استمرت لسنوات طوال في العلم والدعوة والإصلاح لم تتجه إلى أدبيات التكفير ولم تظهر فيها ولم ينشغل بها الشيخ أصلاً، ولا وجَّه أتباعه للانشغال بها، بل انصبَّ كلّ اهتمامه على الجانب العلمي والدعوي.

إلا أنه ومع هذا التطور الخطير في عداوة الشيخ لعله من الطبيعي أن تبدأ أدبيات كهذه بالظهور على السطح، فإن كان كثير من أعداء الشيخ لم يكتفوا بإنكار التوحيد الذي هو أصل الدين الذي جاء به جميع الرسل، بل اتهموا من تبناه ودعا إليه بأنه خارج من الملَّة، وحرضوا عليه بالقتل والتشريد، فلعله من المنطقي تمامًا أن يبين الشيخ أحوال هؤلاء الأعداء.

---

[1] «ابن غنام» (1/ 217-218).

[2] «ابن غنام» (1/ 217).

إلا أن المفاجأة أنه إلى هذه اللحظة لم يتوجه -ولا أتباعه - إلى شيء من ذلك، بل واجه ذلك كله بالصبر على ما يقولون والاحتساب!

يقول ابن غنام[1]:

«وهو صابر على ما يقولون، محتسب الأجر فيما إليه ينسبون، متسلٍّ بما كابده وقاساه قبله الموحدون، وما لقيه من الابتلاء المؤمنون..وهذه سنة الله على عباده.. ».

(23)

بداية التحرك الفعلي لأعداء الشيخ وتنفيذ برنامجهم على الأرض وصدور الأوامر بقتله!

«إن سليمان أمرنا بقتلك..فشأنك ونفسك وخلّ لنا بلادنا»

ابن معمر للشيخ

كما قدمنا لم تكن الحرب الإعلامية القذرة التي شنها أعداء الشيخ عليه وعلى دعوته، والتحرّك الواسع في نجد وخارجها لتشويه صورته وصورة دعوته وأتباعه لدى القريب

[1] (1/ 219).

والبعيد، والمطالبة بمعاقبته وإخراجه وتشريده وقتله=سوى تمهيد للتنفيذ الفعلي لذلك كله.

يقول ابن غنام[1]: «فلما جرت هذه القضية [أي: رجم الزانية] كثر القيل والقال من أهل البدع والضلال، وطارت قلوبهم خوفًا وفزعًا..وذلك لما ألفوه من الشرك والضلال، وما عاشوا فيه من الفواحش..

فشكوه إلى شيخهم الظالم سليمان آل محمد رئيس بني خالد والحسا، وكان قبحه الله مغرما بالزنا مجاهرا به غير مختف بذلك، وحكاياته في ذلك مشهورة..فأغروه به وصاحوا عنده وقالوا إن هذا يريد أن يخرجكم من ملككم..ويحسم مادة الأمكاس والعشور، فلما خوّفوه بزوال محبوبه وتفويت مطلوبه كتب إلى عثمان [بن معمر] يأمر بقتله، أو إجلائه عن وطنه، وألزم عليه في ذلك غاية الإلزام..وصرح له في المكتوب بأنك إن لم تفعل المطلوب ما لك عندي مستباح وليس علينا في ذلك من جناح».

ومما يؤسف له أن عثمان بن معمر رحمه الله رضخ لهذه الأوامر، ومع ما كان له من يد وفضل على الدعوة وأهلها إلا أنه «آثر الدنيا على الدين.. وأمر الشيخ بالخروج..ولم يكن إلى قتله سُلّم أو عروج..».

وقال ابن بشر[2]: «فلما اشتهر أمره في الآفاق بذلك بلغ خبره سليمان بن محمد رئيس الأحساء وبني خالد، وقيل له: إن في بلد العيينة عالما فعل كذا وكذا، وقال كذا وكذا، فأرسل سليمان إلى عثمان كتابًا يتهدده فيه إن لم يقتل الشيخ أو يخرجه من بلده، وأنه إن لم يفعل به ذلك قطع خراجه عنده في الأحساء، وكان خراجا كثيرا جدا..فلما وصل إلى عثمان كتابه استعظم الأمر من المخلوق، وذهل عن أمر الخالق المعبود، فأرسل إلى الشيخ

---

(1) (2/ 670).

(2) (1/ 39-40)

وذكر له ذلك، فوعظه الشيخ بأن هذا دين الله ورسوله، ولابد لمن يقوم به من الامتحان، ثم يكون له التمكين والسلطة والغلبة والظهور لأولياء الرحمن، كما ورد في القرآن.

فاستحيا عثمان وأعرض عنه، ثم أعاد عليه جلساء السوء بالتخويف والإرجاف من صاحب الأحساء، فأرسل إلى الشيخ ثانيًا وقال: **إن سليمان أمرنا بقتلك، ولا نقدر على إغضابه ولا مخالفة أمره، لأنه لا طاقة لنا بحربه، وليس من الشيم أن نؤذيك في بلدنا مع علمك وقرابتك، فشأنك ونفسك وخل لنا بلادنا»**[1].

(24)

وقفة مهمة مع مبادرة الشيخ بالمغادرة
وتلخيص الدروس المنهجية والتربوية للدعوة من خلال موقف الشيخ

بعد صدور الأوامر للشيخ بالمغادرة من العيينة..

غادرها..!

نعم..هكذا بكل هدوء..بكل عقل .. وبكل حكمة..

ونريد أن نقف وقفة هامة للتأمل هنا: لقد قدمنا أن الشيخ رحمه الله في العيينة عَظُم شأنه جدا ورفع الله أمره فساد، وكثر أتباعه ومحبوه ومناصروه..

---

[1] قال «ابن بشر» بعد هذا النقل(1/ 40): «نقلت لي عن عثمان بن معمر وفرسانه أنه أمرهم بقتل الشيخ في الطريق وغير ذلك، ثم تحقق عندي أنه ليس لها أصلا بالكلية فطرحتها من هذه المبيضة». وفي هذا النقل ثقة ابن بشر وإنصافه حتى ولو كان المتكلم فيه ممن أخطأ في حق الدعوة.

كما نقف هنا على فائدة علمية هامة للمنشغل بتحقيق التراث وهي أهمية التعويل على الإبرازة الأخيرة في نشر الكتب التي لها أكثر من إبرازة.

ولـم يكن أتباعه من عامة الناس فقط بل كان معه عدد كبير من رؤساء المعامرة (من الأسـرة الحاكمة) وهم مراكز قوى في بلادهم..وقـد بقـوا علـى ولائهـم للشـيخ وهـاجروا لـه فيمـا بعد[1]..

وقدمنا أن الذي رفـع مـن شـأن ابـن معمـر وبلدتـه الدرعيـة إنمـا هـو حركـة الشـيخ الدعويـة والعلمية..

وقدمنا أن دعوة الشيخ ومناصريه تجاوزت حدود العيينة إلى بلاد العارض كلها..

والآن نسأل:

ألـم يكن من السهولة بمكان أن ينادي الشيخ بخروج مسلح على والي العيينة الذي ظلمه؟

ألـم يكن من السهولة بمكان أن يؤلب أتباعه ومناصريه في الداخل والخارج للخروج عليه؟

إذا كانت دعوة الشيخ من أسباب رفعة شأن ابن معمـر ومكانـه ألا يكـون الشـيخ هنـا حليفًـا سياسيا يحق له المطالبة بحصته من الحكم الذي أُقصيَ عنـه؟ والقتـال دونـه؟ كمـا هـو فـي آلاف الحالات المماثلة في دول العالم أجمع؟

ألـم يكن من السهولة بمكان أن يكفر والي العيينة ومَن معه ويعلن الحرب المقدسة عليهم؟

ألـم يكن..ألـم يكن.. ألـم يكن..

إن مواقف الشيخ هي هي..تتكرر بهدوئها ورتابتها..هي هي خطواته بحكمتها وتعقلها..

ما دام أن والي العيينة هو من أمره بالمغادرة..فليغادر إذن..وأرض الله واسعة.

أما أن يوقع الفتنة في مجتمع مسلم بين الوالي ومن حالفه وبين أنصاره ومن حالفهم فلـيس هذا هو منهج الشيخ..وليس هذا هو الدرب..ولا هكذا يكون الطريق.

---

[1] «ابن بشر» (1/ 43).

قد حدث ويحدث وسيحدث أن ظلَمَ بعضُ الحكام بعضَ العلماء والدعاة وأهل الصلاح والخير، ممن كانت لهم شعبية واسعة بين الناس، سواء بالتنكيل أو الضرب أو السجن أو الطرد أو غير ذلك، وسَل ابن حنبل وابن تيمية ثم الألباني والعشرات معهم ، يجيبوك!

بيد أنَّا نجد مواقفهم عبر الزمان واحدة لا تتغير..ومناهجهم الإصلاحية في ديار الإسلام واحدة لا تتبدل..

الصبر ..ثم الصبر..حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولاً..

فليست القضية هنا أن أنتقم من هذا الحاكم الذي ظلمني..وأؤلب الناس ضده..وأسعى في الخروج عليه..

الأمر أعمق وأخطر من هذا التصور السطحي الذي يعيش فيه المتحمسون في كل زمان ومكان..

هذا مجتمع مسلم آمن..ومهما بلغت جماهيريتي وشعبيتي..فلا شك أن ثمة قطاعات واسعة في هذا المجتمع المسلم توالي الحاكم الذي ظلمني..فتصورها يختلف عن تصوري..وتقييمها يختلف عن تقييمي ..ثم لا شك أن مراكز القوى أو أكثرها في دولته بيده هو وإلا ما كان استتب له الأمر!

فالانتقام إذن لن يؤول إلى مجرد الانتقام..

والخروج المسلح لا يمكن أن يكون مجرد نزهة؟!

وليس الأمر مجرد عصبة مسلمة مؤمنة ستواجه أحد الفراعنة وتنتصر عليه؟!

بل ما هو إلا سيف فتنة سيسلط بين طوائف واسعة في المجتمع المسلم، وسيذهب ضحيته الأبرياء تلو الأبرياء..

إن أدبيات أهل السنة والجماعة في الموقف من الحكام الظلمة في ديار الإسلام، وتحريم الخروج، والأمر بالصبر على جَور الحاكم، لم تكن تقريرات ارتجالية سطحية..بل لها

جذور عميقة في فهم الشرع أولا وفهم السياسة ثانيا وطبائع العمران وأنظمة الحُكم ثالثًا..بما لا يعيه ويفقهه أكثر من يلهج بالسياسة اليوم.

وهذا ما لا يتسع المجال لشرحه هنا، فلنرجئه إلى محل آخر..

(25)

حال الشيخ في الطريق بعد خروجه طريداً من العيينة

إننا وإن كنّا لم نرافق الشيخ في هذا الطريق، ولم نسر معه على ذلك الدرب، ولم نره رأي العين وهو يخرج من بلده العيينة طريدًا لا بلد له، وحيدا لا أهل له، شريدًا لا بيت له، فردًا لا ناصر له..

إلا أننا نجزم أنه كان متسلحًا بسلاحه الذي لم يدعه يوما.. الاعتصام بالله!

متمسكا بحربته التي لم يتخل عنها يوما.. الثقة بالله!

معتمدا على ركن شديد ما خاب مَن التجأ إليه..

منطرحًا على باب من بيده الأمر كله..

كأنّي بالشيخ في هذه اللحظات الشاقة وهو يستعرض شريط ذكرياته، بحلوه ومره، بلطفه وقساوته..

كأنّي به وهو يستعيد ذكرى خروجه من البصرة طريدًا، يكاد يهلك من العطش، ثم يتذكر أبا حميدان وحماره وكيف ساقهما الله إليه، فيتبسم.

ثم تمر بخاطره ذكرى تسور العبيد بيته في حريملاء ومحاولة قتله، فخروجه منها إلى العيينة، وما ساقه الله له من خير عميم هناك لم يكن يخطر بباله يومًا..

فلمَ يقلق اليومَ إذن، وعلامَ يحزن، وفيمَ يضطرب..

يقول ابن بشر[1]: «ذُكر لي أنه في طريقه –أي بعد طرده– لا يفتر لسانه من قول سبحان الله، والحمد لله ولا إله إلا الله، والله أكبر، ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتوكل على الله فهو حسبه».

هو هو الثبات..وهي هي الثقة..

إنَّ مَن نَجَّاهُ في كل مرةٍ من كيد الكائدين سينجيه اليوم..

وإن مَن رفع شأنه بعد كل مرة يخرج فيها طريدًا من دياره، لعله ادّخر له أمرا عظيمًا إلى ما بعد هذا الطرد!

أمرٌ لم يمر يومًا بخاطِره..ولم يسنح له على بال..

أمرٌ كالخيال!!

(26)

ونسدل الستار قليلا

ونسدل الستار هنا لنلتقط أنفاسنا قليلاً ، وقد عشنا مع الشيخ داعية ومعلمًا ومُصلحًا في مجتمعه، ثم عشنا معه طريدًا من البصرة وتألمنا له، ثم ارتفعنا معه وهو رجل دعوة و دولة يحمي حمى الدين بكل الوسائل المتاحة له، ثم عُدنا نتألّم له من جديد وهو يخرج طريدًا، خالي اليدين..بعد عزةٍ ومُلك..

فكانت قصته كمدٍّ وجزر..أو كموج يتلوه موج..

فلنلتقط أنفاسنا الآن قليلا..

ولنعِش معه لحظات ثقته..واعتصامه..ورجائه

---

[1] (1/ 40).

ولنردد معه: «ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتوكل على الله فهو حسبه»..

فإن بلغت الثقة في قلوبنا مبلغها..وعمل الرجاء فيها عمله..

وصغرت في أعيننا إمكانات أعدائنا وما أجلبوه علينا وما أعدوه لنا أمام عظمة ربنا الكريم وقدرته..

كنا حقيقين بالمُضي مع الشيخ قدمًا..جديرين بسلوك الدرب معه..

فلنستمر معه في طرق الباب..

ومن أدام طرق الباب وصل!

مرحلة الدرعية

(26)

الشيخ يصل إمارة الدرعية

فيتوجس أهلها!

«سيجعل الله لنا فرجًا ومخرجًا»

ابن عبد الوهاب

قدّمنا أن طلاب الشيخ وأتباعه ومحبوه كانوا كثيرين داخل العيينة وخارجها، وقد كان أحد طلابه القريبين من مكانه اسمه حمد بن سويلم وكان يسكن إمارة الدرعية، فقرر الشيخ بعد طرده من العيينة أن يتوجه إلى بيت هذا الطالب في الدرعية.

ولا يحفظ لنا التاريخ أية تفاصيل تدل على أن الشيخ كانت لديه خطة واضحة لحياته ودعوته في مرحلة ما بعد الطرد، بل نرجح أنه قرر النزول على ابن سويلم لالتقاط أنفاسه فقط بعد عناء السفر ومشقة الطرد إلى أن يحاول ترتيب شأنه من جديد، والبحث عن مكان يؤويه.

«فخرج الشيخ إلى بلد الدرعية ..فنزل على عبد الله بن سويلم..ثم انتقل إلى تلميذه حمد بن سويلم»[1].

استقبل ابنُ سويلم شيخَه على عادات العرب في إكرام الضيوف، إلا أنه في الوقت نفسه كان يعرف ما معنى أن يستضيف محمد بن عبد الوهاب في هذا التوقيت في بيته!

إنه الرجل المغضوب عليه من قِبَل بعض رؤوس نجد بتهمة التوحيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر!

ماذا لو وصل خبرٌ إلى رئيس الدرعية محمد بن سعود بأن أحد مواطني الدرعية! يستضيف ابن عبد الوهاب في بيته..

نعم محمد بن عبد الوهاب الذي طارت الأنباء بطلبه والأمر بقتله وطرده وتشريده..هو هو بشحمه ولحمه موجود الآن في الدرعية !!

---

[1] «ابن غنام» (2/ 670).

يقول ابن بشر[1]: «فلما دخل على ابن سويلم ضاقت عليه داره، خوفًا على نفسه من محمد بن سعود»

أحسّ الشيخ بالحرج والخوف الذي وقع على ابن سويلم «فوعظه وسكّن جأشه، وقال سيجعل الله لنا فرجًا ومخرجًا»[2].

وكأني بابن سويلم يحدث نفسه من أين سيأتي الفرج والمخرج وأنت شريد طريد مطلوب لرؤساء نجد..

ولا أظن أن لدى الشيخ جوابًا عن سؤال كهذا..

فقط..سيجعل الله لنا فَرَجًا ومخرجًا..

وكفى!

(27)

زيارات سِرِّيَّة!

«علم بالشيخ خصائص من أهل الدرعية فزاروه **خفيةً!!**»[3].

إلى هذا الحد يتوجسون خيفةً من أن يعلم أحدٌ بوجوده..إلى هذا الحد طارت الأنباء في شرق نجد وغربها وشمالها وجنوبها بخطورة هذا الرجل! وعِظَم تبِعات إيوائه!!

---

[1] (1/ 41).

[2] «ابن بشر» (1/ 41).

[3] «ابن بشر»(1/ 41).

وهنا نقف مع لفتة هامة نأخذها من قول ابن بشر: «فزاروه خفيةً، فقرر لهم التوحيد»!

يقرر لهم التوحيد؟! هل هذا وقته؟ وهل الزمان زمانه؟ أو المكان مكانه؟

إن أئمة الدعوة والإصلاح في كل زمان ومكان يمثل التوحيد شغلهم الشاغل وقضيتهم الرئيسة..

فيوسف في السجن يقرر لصاحبيه التوحيد: يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله..؟

ويعقوب على فراش الموت يقرر لبنيه التوحيد: يا بنيَّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون.

ونبينا صلى الله عليه وسلم وهو ينازع سكرات الموت يقرر لأمته التوحيد : لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد..

وعلى هذا المنوال يأتي أتباعهم من الصالحين المصلحين..

ثم نعود إلى ما كنا فيه..

أراد هؤلاء الخواص أن يقوموا بمبادرة فيها نوع مخاطرة، ولكن لما كانت السبل قد انقطعت عن الشيخ لم يجدوا غيرها..

«أرادوا أن يخبروا محمد بن سعود رئيس الدرعية عنه ويثيروا عليه –أي يتوسطون عنده ويحثونه– بنزوله عنده –أي السماح للشيخ بالبقاء– ونصرته»[1].

ولكنهم «هابوه»[2] ! فليس الأمر بهذه السهولة..!!

كيف يقبل ابن سعود ببقائه وينصره، و من رؤوس نجد من يطلبه ..!

---

[1] «ابن بشر» (1/ 41).

[2] «ابن بشر» (1/ 41).

نَجْد أمام الدرعية! وما الدرعية؟ وما إمارتها ، إن إمارة الدرعية في ذلك الوقت ما هي سوى منطقة صغيرة لا يكاد يرفع لها ذكر..ولا يعرف لها رسم..

إلا أنهم اهتدوا إلى حلٍّ وسط..فلا أنهم سيحدثون ابن سعود عن شأنه ولا أنهم سيسلمون أيديهم لليأس..

فبقيَ مسلك لا بأس أن يسلكوه..

وبقي حل لا مانع من أن يجربوه..

ونقول نحن في قصتنا هنا: بقي عنصر لابد أن يحضروه!

فهذا العنصر على ضعفه جُرِّدت من أجله في التاريخ سيوف ورماح..

وحُركت بواسطته جيوش وأساطيل..

وله حبُكت قصص وروايات..وفيه نظمت قصائد وأشعار..

كيف وهو العنصر الذي أنشد فيه وله امرؤ القيس «قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل»!

إنه العنصر النسائي..يحضر بيننا الآن..بضعفه وقوته معًا..

(28)

المرأة الصالحة وفضلها على الإمام ودعوته

«إن هذا الرجل..ساقه الله إليك وهو غنيمة فاغتنم ما خصّك الله به!»

موضى زوجة ابن سعود

عندما يحضر العنصر النسائي في أي مكان وزمان يحضر معه قول المتنبي:

بأبي الشُّمُوسُ الجانِحاتُ غوارِبا[1] ... اللابسات من الحرير جلاببا

المُنْهِبَات قلوبَنا وعقولَنا ... وَجَنَاتِهن[2] الناهِبات الناهِبا

الناعمات القاتلات المحييات ... المبديات من الدَّلال غرائبا

إلى أن قال:

وبَسَمْنَ عَنْ بَرَدٍ[3] خَشِيْتُ أُذِيبَه... مِن حرِّ أنفاسي، فَكُنْتُ الذَّائِبا[4]

بَيْد أن هؤلاء الناعمات القاتلات المنهبات عقولنا وقلوبنا.. قد تستخدمن أسلحتهن تلك في سبيل الشر، وقد يجري الله على أيديهن خيرًا عميمًا..

ومن هذا الصنف الثاني كانت هذه المرأة الصالحة.

قرر خواص الشيخ المذكورون أن يعرضوا الأمر على زوجة محمد بن سعود (موضى)[5]

لعل الله أن يفتح قلبها وعقلها لأمر الشيخ.

يقول ابن بشر[6]: «وأتوا إلى زوجته –أي زوجة محمد بن سعود– وأخيه ثنيان الضرير، وكانت المرأة ذات عقل ودين ومعرفة، فأخبروهما بمكان الشيخ وصفة ما يأمر به وينهى عنه، فوقر في قلوبهما معرفة التوحيد، وقذف الله في قلوبهم محبة

---

[1] يشبههن بالشموس تميل للغروب..فيتمنى أن لو مَكَثْن.

[2] الوجنات: الخدود.

[3] يشبه أسنانهن بالبرد.

[4] مطلع قصيدة المتنبي المدحية الشهيرة لعلي بن منصور.

[5] موضى بنت سلطان أبو وهطان، وورد في حاشية تحقيق ابن بشر: أبو وطبان، غير أن بعض المتخصصين خطّأ هذا الوجه.

[6] (1/ 42-43).

الشيخ، فلما دخل محمد بن سعود على زوجته أخبرته بمكان الشيخ وقالت له: **إن هذا الرجل ساقه الله إليك وهو غنيمة فاغتنم ما خصك الله به، فقبل قولها**».

وهكذا التوحيد إذا خالط شغاف القلب واتخذ مكانه في جَنَبات الروح..

أجزم بأن هذه المرأة الصالحة لم يكن لديها خطة واضحة للمرحلة التالية..

فقط قرّ التوحيد في قلبها..وأرادت أن يكون لها ولزوجها شرف نصرة العقيدة وتعظيم أمر الإسلام..

أما ما الذي ينتظرهم ..

فالله يتولى الصالحين!

وبعد أن قامت هذه المرأة الصالحة بدورها الكبير..حيث مهدت الطريق وفتحت الأبواب وذللتها للشيخ..وصار لها منة عليه وعلى دعوته لا ننساها لها رحمها الله وجعل نصيحتها لزوجها في موازينها..يأتي دور أخويه مشاري وثنيان ابنَي سعود «فأشاروا عليه بمساعدة الشيخ ونصرته»[1].

فإلى جانب عاطفة النساء وأساليبهن في الإقناع يحتاج الأمير إلى أفهام وألباب الرجال والوزراء ومشورتهم ليجتمع العقل والعاطفة والحنكة والخبرة والدراية، قبل إصدار أي قرار بهذا الشأن الخطير.

وكانت النتيجة أن:

«قذف الله في قلب محمد بن سعود محبة الشيخ ومحبة ما دعى إليه»[2].

---

[1] (1/ 42).

[2] السابق نفسه.

ومِن هذه اللحظة أرادت هذه الأسرة إظهار توقير التوحيد وأهله وعلمائه، ليقتدي العامة بهم، فقال الأخوان لمحمد بن سعود «لو تسير إلى الشيخ برجلك وتظهر تعظيمه وتوقيره، ليسلم من أذى الناس ويعلمون أنه عندك مكرم»[1].

(29)

محمد بن سعود في حضرة الشيخ وعقد الدرعية التاريخي

«أبشر ببلاد خيرٍ من بلادك، وبالعز والمَنعة...

وأنا أبشرك بالعز والتمكين والنصر...»

من حوار ابن سعود والشيخ

«سار محمد بن سعود أمير الدرعية إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب في بيت ابن سويلم فرحّب به»[2]، «وسلم عليه وبادره بالقبول والتقبيل، وأبدى له غاية الإكرام والتبجيل، وأخبره بأنه يمنعه بما يمنع به نساءه وأولاده من جميع من عاداه وكاده»[3].

وكان لفظ العهد كالتالي:

«ابن سعود: أبشر ببلاد خير من بلادك، وبالعز والمنعة.

الشيخ: وأنا أبشرك بالعز والتمكين والنصر المبين»[4].

وهنا نتوقف عند هذا الحوار القصير، القصير جدا!

---

[1] السابق نفسه.

[2] السابق نفسه.

[3] «ابن غنام» (2/ 670).

[4] «ابن بشر» (1/ 42).

فقد أبدى بعض الغربيين ممن تناول هذا الموقف التاريخي بين الشيخ ومحمد بن سعود استغرابه من هذا العهد والوعد القليل الكلمات .. كيف يكون ممهدًا لكل الأحداث التاريخية الكبرى التي أتت بعده؟!

يظن هو أن عهود عرب الصحراء كعهود الغرب، مؤتمراتٌ ومحافل وأجهزةُ إعلام وكَذِب سياسي ودَجَل إعلامي ثم معاهدات فارغة لا تساوي الحبر الذي كُتبت به..

دَعْك الآن من صُلحكم في وستفاليا[1] الذي انقلبتم عليه مع أول سانحة ، ودَعك من معاهدتكم في قصر فيرساي الفرنسي بين الحلفاء المنتصرين وخصومهم والتي أسدلت الستار على الحرب العالمية الأولى لتكون هي نفسها بوابة الحرب العالمية الثانية[2]!

بل دعك من وعودكم الإجرامية في حق أمتنا كوعد بلفور، ومعاهداتكم البائسة في حق بلادنا كمعاهدة كامب ديفيد..

دعك من ذلك كله..

فأنت الآن في صحراء نجد..في حاضرة العرب وباديتها..

أنت الآن بين الخيل والليل والبيداء..

أنت في حَضْرةِ السيف والرمح والقرطاس والقلم..

---

[1] صلح وستفاليا، أول اتفاقي دبلوماسي غربي في العصر الحديث، وقعت عليه الامبراطورية الرومانية وممالك فرنسا وأسبانيا والسويد وهولندا سنة 1648م.

[2] رأى الألمان أن معاهدة فيرساي تضمنت عقوبات وشروط مجحفة في حقهم، وكان هذا هو السبب الرئيس لامتعاض الألمان الذي أنتج التعصب لجنسهم في مقابل باقي الأجناس الأوروبية، ثم ظهر هتلروحزبه النازي، ليوحد هذا الشعورالألماني، فكانت الحرب العالمية الثانية...

إن عرب الصحراء ليسوا بحاجة في عهودهم إلى أجهزة إعلام بائسة، ولا مراسيم سخيفة، ولا توقيعات على أوراق ترمى في أقرب مزبلة.

هذه معاهداتكم أنتم هناك، أما هنا:

فأبشر ببلاد خيرٍ من بلادك، وبالعز والمَنعة...وكفى

وأنا أبشرك بالعز والتمكين والنصر...وفقط!!

أما ما بعد هذا ..

فهو ما ترى لا ما تسمع..

والسلام...

(30)

شروط العهد: أ: البيعة على التوحيد، وإلا فلا بيعة ولا عهد

«وهذه كلمة التوحيد التي دعت لها الرسل كلهم،

فمن تمسك بها وعمل بها ونصرها

ملك بها البلاد والعباد»

الشيخ

قبل أن يتبايع الرجلان وينفُذُ العهد والوعد، طرح محمد بن عبد الوهاب بكل صراحة وبكل وضوح ما الذي يقبل التعاهد عليه، حتى يزيل أية شبهة أو سوء فهم عن مواقفه المستقبلية فيما لو تم العهد.

قال الشيخ: «وأنا أبشرك بالعز والتمكين والنصرة، وهذه كلمة التوحيد التي دعت لها الرسل كلهم، فمن تمسك بها وعمل بها ونصرها ملك بها البلاد والعباد»[1].

---

[1] «ابن بشر» (1/ 42).

إذن فهذا رأس الأمر كله، وأصله وشرطه، البيعة على التوحيد، والتوحيد فقط..

يحدد الشيخ وجهته ومنهجه وطريقته من هذه اللحظة، فإن قبلها ابن سعود وإلا فهو وشأنه.

يحددها وهو يعلم جيِّدًا أنها قد تؤول بهذا الاجتماع إلى الفشل..

تأمل معي :

أ: رجل طريد شريد لا مأوى له..

ب: مطلوب من بعض رؤوس نجد ونواحيها.

ج: صدرت أوامر بقتله والتخلص منه.

د: له أتباع ولكنهم في مقابل خصومهم في الموازين الدنيوية كلا شيء.

مَن كان هذا حاله فهو في دائرة الضعف لا القوة، ومن شأن من كان كذلك أن يتنازل عن بعض مبادئه وثوابته حتى يتسنى له التحالف مع من يؤويه ويرعاه..والشيخ لا مجال عنده للتنازل عن عقيدته.

هـ: ابن سعود وهو رجل سياسة يعرف جيّدا ما معنى أن تقتصر تحالفاته القادمة في حالة وقوع صدام في نجد على الجهات التي تبايع على التوحيد فقط، فالشيخ يرفض أي تحالف سياسي أو عسكري أو أي شيء آخر لا يُبنى على التوحيد..

لا مجال لديه لشعارات الغاية تبرر الوسيلة، وتنازلات المرحلة، وتقديم المصلحة، إلى آخر هذه الشعارات البائسة التي تصب في نفس المعنى!

مَن أراد التحالف معهم فليبايع على التوحيد ونشر العقيدة الصحيحة، وإلا فلا حلف ولا بيعة، وهذا من شأنه تضييق دائرة التحالفات السياسية عليهم جدًا ..

قد مضى إذن عهد القبليات والعصبيات..

وولى زمن التعصب للألوان والأجناس والقوميات..

وغاب عن صحراء نجد قول دريد:

وما أنا إلا من غُزَيَّة إن غَوَت...غَوَيْتُ! وإن ترشُدُ غزية أرشُدُ

2 - دعوة ودولة، نظرية الدولة في فكر ابن عبد الوهاب

ذكرنا من قبل أن الإمام محمد بن عبد الوهاب لديه فكر سياسي عميق في بناء الدول واجتماع الناس وظهور العمران.

فكر عميق ، يستحق الوقوف عنده طويلا.

لا ننسى أننا الآن في القرن الثامن عشر بالتأريخ الغربي، وهو قرن حافل في أوروبا حيث لا يتوقف مفكروها هناك عن صياغة أفكار جديدة ونظريات حديثة في بناء الدول والمجتمعات..

إنه القرن الذي شهد أطروحات آدم سميث في الاقتصاد السياسي، وهناك في اسكتلندا كان ديفيد هيوم يقدم نظرية شاملة في الفلسفة الطبيعية، وفي فرنسا كان فولتير يقدم أطروحاته عن الإصلاح الاجتماعي، وفيه كان روسو يضع نظرياته في نقد السياسة والمجتمع، وكان مونتيسكيو يضع نظرياته عن فصل السلطات..

بل هو القرن الذي شهد ثورة إيمانويل كانت على الفلسفة التقليدية بنقد العقل المجرد.

في نفس هذا الوقت كان ابن عبد الوهاب ينسج نظريته هو في إقامة الدول وتوحيد المجتمعات..

كان ينسجها بسهولتها وعمقها في آن..

ونحن وإن كنّا نقرأ في كتابنا هذا قصة الإمام والدعوة النجدية في سياقها التاريخي من الجانب الذي يعيننا في فهم تقريراته العلمية والعملية في أبواب التكفير والقتال، فإن ثمة سياقا تاريخيا آخر يحتاج تسليط الضوء عليه في بحوث مستقلة يكشف لنا عن سر العداء التاريخي لتجربة الشيخ من جهة الغرب ومفكريه وأتباعهم الفكريين من العلمانيين والليبراليين اليوم.

فقد كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب ينسج نظريةً مصادمةً لنظريات الغرب فيما أسموه بعصر التنوير..والذي زعموا أنه كان خاتمة لعصور الظلام الأوروبية[1]..ونجحت نظريته على أرض الواقع بما يشهد لها بالجودة والعمق، ويشهد على النظريات الغربية بالقصور في هذا الجانب على الأقل..

أراد كثير من مفكري الغرب في ذلك القرن التأكيد على أن نهضة الدول والمجتمعات والأمم لا تكون إلا بالانقطاع عن السماء، والتنكر للوحي والرسالات..

على النقيض من ذلك كان الشيخ يقدم نظرية مبنية على أن النهضة الحقيقة لا تكون إلا عن طريق التمسك بالوحي..

فالأمة المسلمة حسب الشيخ تختلف عن أي مجتمع آخر بأنها أمة متصلة بالسماء..

فإذا وحدنا قبلتها وقلوبها وأفعالها وحركاتها وسكناتها وكل ذرة في حياتها نحو السماء..

---

[1] للكاتب مات هيج matt haig في كتابه الشهير the humans (البشر) عبارة أعجبتني قال فيها: the dark ages never ended = عصور الظلام لم تنتهِ قط، ص276.

توحدت -تلقائيًّا- قلوبهم وأجسادهم على الأرض..

وبهذا تستقر الدول ويظهر العمران..شريطة الاتحاد على الدين الحق..والإسلام الصافي..وتحري الحق الأول..

وهذا ما قد كان فعليًّا على الأرض..

أما وهذا منطرح لدى قبر..وذلك عند ضريح..وهذا مول وجهه قِبل الغرب..وذاك يستقي فكره من فلاسفة الأرض..وهذا مؤول..وذاك محرف .. وهذا متعد على مقام الصحابة..وذاك وذاك وذاك

فلو اجتمعت نظريات الأرض كلها على توحيد المسلمين وهم على هذا الحال لكان ضربا من وهم أو نسجا في خيال..

وليس هذا مقام التوسع في هذه النقطة وحسبنا الإشارة لأهميتها لعل بعض الباحثين يتوجه لإثارتها وبحثها.

ونعود لعهد الشيخ مع محمد بن سعود..

يُكْمِل ابنُ عبد الوهاب شرحَ نظريتِهِ لابنِ سعود مبيِّنا النتيجة المرجوة إذا نشطوا في نشر التوحيد في نجد ولم يقبلوا البيعة إلا عليه، موضِّحًا عمق فكرته وأنه لا يبايع إلا وقد أخذ بالأسباب ورَسَم الخطة للدولة الجديدة..

فيقول:

«وأنت ترى نجدا كلها وأقطارها أطبقت على الشرك والجهل، والفرقة، والاختلاف والقتال لبعضهم البعض، فأرجو أن تكون إماما يجتمع عليه المسلمون وذريتك من بعدك»[1].

ثم نتوقف ثانيًا عند النص المنقول هنا، لنرى فيه توصيفا للحالة السياسية والعقدية في نجد ومدى الحزن والأسى الذي يحمله الشيخ وهو يرى دياره وما هي عليه من فرقة واختلاف لا ينتهي..فيَحْلم بأن تتوحَّد يومًا ما.

ثم نتأمل في تأثره من تلك الدماء التي تسفك كل يوم في قتال لا ينتهي على أتفه الأسباب بين الأُسر والقبائل والمناطق..فيأمل أن يتوقف نزيف الدم يومًا ما.

ويجعل هذا من أهم أهداف المرحلة القادمة في حالة ما إذا وافق ابن سعود على البيعة على التوحيد والتوحيد فقط.

ولابن خلدون في مقدمته حديث ماتع مستفيض عن قضية امتناع وحدة العرب من أهل الإسلام وقيام دولة لهم إلا بطريق واحد وهو اجتماعهم على الدين الحق، من ذلك قوله[2]:

«إن العرب لا يحصل لهم الملك إلاَّ بصبغة دينية من نبوَةٍ أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة، والسبب في ذلك أنهم لخلق التوحش الذي فيهم أصعب الأمم انقيادا بعضهم لبعض، للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرئاسة، فقلما تجتمع أهواؤهم، فإذا كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم فسهل انقيادهم واجتماعهم وذلك بما يشملهم من الدين

---

[1] «ابن بشر» (1/ 42).

[2] المقدمة ص189 ط.الفكر.

المذهِب للغلظة والأنفة، الوازع عن التحاسد والتنافس، فإذا كان فيهم النبي أو الولي الذي يبعثهم على القيام بأمر الله يذهب منهم مذمومات الأخلاق ويأخذهم بمحمودها ويؤلف كلمتهم لإِظهار الحق تم إجتماعهم وحصل لهم الملك والتغلب».

وقال أيضا[1]: "إن الدولة العامة الاستيلاء، العظيمة الملك أصلها الدين إما من نبوة أودعوة حق، وذلك لأن الملك إنما يحصل بالتغلب، والتغلب إنما يكون بالعصبية واتفاق القلوب وتأليفها إنما يكون بمعونة من الله في إقامة دينه قال تعالى: {لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ} وسره أن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدنيا حصل التنافس وفشا الخلاف، وإذا انصرفت إلى الحق ورفضت الدنيا والباطل وأقبلت على الله اتحدت وجهتها فذهب التنافس وقلَّ الخلاف، وحسن التعاون والتعاضد واتسع نطاق الكلمة لذلك فعظمت الدولة".

وقد تجسدت نظرية توحيد العرب على وازع ديني بصورتها الواقعية على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود، حيث نجحا في توحيد نجد بعد قرون من الشتات والتيه على عقيدة التوحيد، وفي هذا يقول عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ:

«ومن عجيب ما اتفق لأهل هذه الدعوة أن محمد بن سعود - عفا الله عنه - لما وفقه الله لقبول هذا الدين ابتداء، مع تخلف الأسباب، وعدم الناصر، شمر في نصرته، ولم يبال بمن خالفه من قريب أو بعيد، حتى إن بعض الناس ممن له قرابة به، عذله عن هذا المقام الذي

---

[1] المقدمة ص197.

شمر إليه، فلم يلتفت إلى عذل عاذل، ولا لوم لائم، ولا رأي مرتاب، بل جد في نصرة هذا الدين، فملكه الله تعالى كل من استولى عليه في حياته من أهل القرى.

ثم بعد وفاته صار الأمر في ذريته، يسوسون الناس بهذا الدين، ويجاهدون فيه كما جاهدوا في الابتداء، فزادت دولتهم، وعظمت صولتهم على الناس بهذا الدين، الذي لا إشكال فيه، ولا التباس، فصار الأمر في ذريته لا ينازعهم فيه منازع، ولا يدافعهم عنه مدافع؛ فأعطاهم الله القبول والمهابة، وجمع الله عليهم من أهل نجد وغيرهم، ممن لا يمكن اجتماعهم على إمام واحد، إلا بهذا الدين.

وظهرت آثار الإسلام في كثير من الأقاليم النجدية وغيره.. وأصلح الله بهم ما أفسدت تلك الدول، التي حاربتهم، ودافعتهم عن هذا الدين، ليطفئوه، فأبى الله ذلك، وجعل لهم العز والظهور، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك.

فنسأل الله أن يديم ذلك، وأن يجعلهم أئمة هدى، وأن يوفقهم لما وفق له الخلفاء الراشدين، الذين لهم التقدم في نصرة هذا الدين؛ وعلينا وعلى المسلمين أن ندعو لمن ولاه الله أمرنا من هذه الذرية، أن يصرف عنا وعنهم كل محنة وبلية، ويحيي الله بهم ما درس من الشريعة المحمدية، ويصلح الله لنا ولهم القلوب، ويغفر لنا ولهم الذنوب»[1].

3 - مسؤوليات شرعية وعلمية وأخلاقية للدولة الجديدة

بعد أن طرح ابن عبد الوهاب ركنَي نظريته لبناء دولة التوحيد الجديدة، (توحيد العقيدة وتوحيد المجتمع)، يشرع في وضع خطة بقاء هذه الدولة وديمومتها واستمراريتها.

---

[1] «الدرر السنية» (12/ 40).

فإن الدول تبدأ يوم تبدأ نشيطة فتيّة تملؤ الحيوية أركانها..ثم ما تلبث أن تسكُن ويدب الموت في جنباتها، فتؤول إلى الزوال.

ووقود بقاء هذه الدولة هو ضمان بقاء الأصل الذي قامت عليه يوم قامت والحفاظ على روحه وحيويته الدائمة فلا تنقطع، ألا وهو الالتزام بالشرع وحماية حمى الدين والعقيدة والسير على خطا الصدر الأول والسلف الصالحين، ولا يكون هذا إلا بالعلم ونشره، بين الصغير والكبير، الغني والفقير، الرئيس والمرؤوس، الراعي والرعية، فكل فرد في المجتمع اليوم عليه أن يُثني ركبتيه للعلم، ومهما علا شأنه وارتفع، فهو في حَضرة العلم طالب صغير.

وليكن ابن سعود نفسه هو الطالب الأول في مدرسة الدولة الجديدة! فيقتدي به العامة من جهة، ومِن جهة أخرى ليعلم من سيتحالف مع الدولة الجديدة في المستقبل القريب أن التحالف معها ليس تحالفًا كأي تحالف سبق، بل مَن سعى إليه عليه أولاً أن يحمل قلمه وقرطاسه ويلتحق بالمدرسة!

يقول ابن بشر:

«وجعل [الشيخ] يشرح [لابن سعود] الإسلام وشرائعه، وما يحل وما يحرم، وما عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من الدعوة إلى التوحيد والقيام في نصره والقتال عليه»[1].

---

[1] «ابن بشر» (1/ 42).

(31)

(ابن سعود يوافق على الشروط ويعلن قيام إمارة الدرعية على التوحيد والسنة وتحالُف بعض قوى نجد معها)

«فلما شرح الله صدر محمد بن سعود لذلك، وتقرر عنده، طلب من الشيخ المبايعة على ذلك فبايع الشيخ على ذلك، وأن الدم بالدم والهدم بالهدم، وعلى أن الشيخ لا يرغب عنه إن أظهره الله»[1].

إلا أنه طلب من الشيخ العهد والميثاق ألا يرحل عن بلده إلى سائر الآفاق..

ولاشتهار محمد بن سعود بحسن السيرة والوفاء وحسن المعاملة..«أعطاه الشيخ العقد ألا يخرج عنه إلى البلاد»[2].

«إلا أن محمد بن سعود شرط على الشيخ في مبايعته للشيخ أن لا يتعرضه فيما يأخذه من أهل الدرعية مثل الذي كان يأخذه رؤساء البلدان على رعاياهم، فأجابه الشيخ على ذلك رجاء أن يُخلف الله عليه من الغنيمة أكثر من ذلك، فيتركه رغبة فيما عند الله سبحانه»[3].

ونستفيد من هذه النقطة :

---

[1] السابق نفسه.

[2] «ابن غنام» (2/ 670).

[3] «ابن بشر» (1/ 42-43).

أ: أن رؤية الشيخ الإصلاحية في بناء الدول فيها مرونة **فيما دون أصول الإسلام** الكبرى وثوابته العامة التي لا يقبل التفاوض عليها.

ب: أن المرونة التي قد يُضطر لقبولها فيما دون أصول الإسلام وثوابته هي قبول **تقصير عملي فردي أو جزئي** انشغالا بإصلاح ما هو أهم، لا اختراع تأصيلات نظرية تسوغ المحرمات الشرعية وتميع حدوده، فنحن نلاحظ أن ابن سعود هنا لم يشترط هذا إلا لأنه قد علم من الشيخ حرمة هذه الأموال أو بعضها.

ب: أن هذا التنازل يكون مرحليا فقط، وهذا ما حدث على أرض الواقع لاسيما في حكم عبد العزيز بن محمد بن سعود الذي كان يوكل الشيخ بتقسيم الأموال بالصورة الشرعية ولا يتصرف في شيء دون إذنه.

(32)

إمارة الدرعية قِبلة التوحيد في نجد

«وهاجر إلى الشيخ أصحابه الذين بايعوه في العيينة، منهم من هو [من] رؤساء المعامرة معاكسين لعثمان بن معمر، فتزايد المهاجرون إليه مِن كل بلد لما علموا استقراره وأنه في دار مَنَعَة»[1].

إن الدرعية اليوم ليست إمارة خاصة بأسرة معينة أو قبائل محددة بل هي وِجهة الموحدين من كل مكان، بغض النظر عن النسب والحسب، وعن العرق واللون، وقد كانت هذه اللحمة الاجتماعية في الدرعية على هذه الصورة جديدة على نجد ونواحيها، تمثل خطوة جديدة في بناء المجتمعات ووحدتها.

---

[1] «ابن بشر» (1/ 43) وانظر مثله في «ابن غنام» (2/ 673).

(33)

الخطة المالية والاقتصادية للدرعية الجديدة

لم تكن الدرعية قبل ذلك سوى منطقة مغمورة في نجد، ولما طرأت هذه التطورات الجديدة، صارت مركزًا علميًّا وعاصمة سياسيةً لدعوة التوحيد، وبدأت الوفود تتوجه من أرجاء نجد لتلقي العلم على الشيخ، و كان لابد من وضع خطة مالية للدولة الجديدة.

أما في السنوات الأولى في الدرعية فلم يكن ثمة موارد مالية للدولة، فكانت الخطط تتلخص في:

أولاً: تشجيع المحتاجين لاسيما من طلبة العلم على الاحتراف والعمل كيلا يكونوا عالة على مجتمعهم، مع الجمع بين العمل وبين طلب العلم الشرعي.

يقول ابن بشر[1]: «ولما كثر المهاجرون عند الشيخ ضاق بهم العيش وشدة الحاجة وابتلوا في ذلك أشد البلاء فكانوا بالليل يحترفون ويأخذون الأجرة وفي النهار يجلسون عند الشيخ في درس الحديث والمذاكرة، إلى أن أتاه الله بالرزق الواسع بعد الشدة والامتحان».

ثانيًا: كفالة طلبة العلم والدعاة والمحتاجين، عن طريق الاستدانة:

---

[1] (1/ 45).

فقد كان الشيخ رحمه الله «لما هاجر إليه المهاجرون يتحمل الدَّين الكثير في ذمته لمؤنتهم وما يحتاجون إليه» كما كان يتحمل هذه الديون لسداد «حوائج الناس وجوائز الوفود إليه من أهل البلدان والعربان»[1].

ثالثًا: الصبر على شظف الحياة، والتأقلم مع الوضع.

بَيْد أن الصبر هنا يشمل الحاكم والمحكوم والراعي والرعية فأنت ترى هنا أن الشيخ كان هو مَن يتحمل الديون في ذمته، فليس الأمر كما نشاهده في بعض الدول اليوم التي تطالب شعوبها بالتقشف في الوقت الذي نرى فيه موارد الدولة وناتجها القومي واستثماراتها ووو تتوجه كلها إلى جيوب هؤلاء الآمرين بالتقشف!

أما بعد أن توسعت الدرعية وصارت لها موارد مالية مختلفة، فتحولت الخطط إلى التالي:

أولاً: لم يتغير شيء من خطة كفالة المحتاجين وطلبة العلم.

ثانيًا: لا تُمسك الدولة ومسؤولوها درهمًا ولا دينارًا ابتداءً، بل تبدأ بتوزيع الموارد على المواطنين في أوانها.

يقول ابن بشر[2]: «وكان [الشيخ] لا يمسك على درهم ولا دينار..وما أتى إليه من الأخماس والزكاة يفرقه في أوانه، وكان يُعطي العطاء الجزيل..»

ثالثًا: يُمنع على المسؤولين في الدولة الاستقلال بالسلطة المالية بل تمر الأموال أولاً على جهاز للتوجيه والمراقبة، ثم يتم تحديد ما الذي يستحقه المسؤولون وما الذي يستحقه المواطنون وفقًا للشرع.

---

[1] «ابن بشر» (1/ 46).

[2] (1/ 46).

وكان الشيخ هو المسؤول عن المراقبة والتوجيه ثم هو الذي يباشر التنفيذ والتوزيع بنفسه.

يقول ابن بشر[1]: «فكانت الأخماس والزكاة وما يُجبى إلى الدرعية من دقيق الأشياء وجليلها كلها تدفع للشيخ يضعها حيث يشاء، ولا يأخذ عبد العزيز [بن محمد بن سعود] من ذلك شيئاً إلا عن أمر [الشيخ]، فبيده الحل والعقد، والأخذ والعطاء والتقديم والتأخير..ولا يصدر رأي من محمد [بن سعود] ولا عبد العزيز إلا عن قوله ورأيه».

وبعد أن استقر الأمر وقرر الشيخ الطرق الشرعية في توزيع الأموال وطرق التعامل مع الموارد المالية، ترك توزيع الأموال لعبد العزيز بن محمد بن سعود لانشغاله بالدعوة والعلم، ولكن بقيت له سلطة المراقبة والتوجيه فلا يتم التعامل بالأموال ولا توزيع شيء إلا بأمره هو[2].

رابعًا: تستغل الدولة مواردها الجديدة في تنشيط الحالة الاقتصادية في الدرعية بتنشيط حركة التجارة التي هي عمود الاقتصاد في ذلك الوقت.

وقد أنتجت هذه الخطط المالية والاقتصادية ثمرتها على الأرض، حيثي يقول ابن بشر متعجبًا من تغير الحالة الاقتصادية للدرعية في فترة قصيرة بعد أن تحدث عن مدى الشدة والبلاء الذي واجه الشيخ وأهلها والطلاب الوافدين في أول الأمر:

«ولقد رأينا الدرعية بعد ذلك في زمن سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود رحمهم الله تعالى، وما فيه أهلها من الأموال وكثرة الرجال والسلاح المحلى

---

[1] (1/ 46).

[2] السابق نفسه.

بالذهب والفضة وعندهم الخيل الجياد والنجايب العمانيات، والملابس الفاخرة والرفاهيات، ما يعجز عن عده اللسان ويكل عن حصره الجنان والبنان، ولقد نظرت إلى موسمها[1] يومًا، وأنا في مكان مرتفع وهو في الموضع المعروف بالباطن، بين منازلها الغربية التي فيها آل سعود..وبين منازلها الشرقية..التي فيها أبناء الشيخ، ورأيت موسم الرجال في جانب وموسم النساء في جانب[2] وما فيه من الذهب والفضة والسلاح والإبل والأغنام وكثرة ما يتعاطونه من صفقة البيع والشراء والأخذ والعطاء وغير ذلك، وهو مدّ البصر، لا تسمع فيه إلا دوي النحل من النجناح وقول بعت واشتريت والدكاكين على جانبيه..وفيه من الهدم والقماش والسلاح ما لا يوصف، فسبحان مَن لا يزول سلطانه وملكه»[3].

(34)

عودة إلى الانشغال بالعمل الدعوي

بعد أن تمت البيعة **وقامت للتوحيد دولة** هي الأولى من نوعها في العصور المتأخرة، وصارت الدرعية مركزاً علميًّا يرحل إليه طلبة العلم من أقطار نجد، وتم ترتيب الخطط السياسية والاقتصادية للدولة الفتية الجديدة، لم ينشغل الشيخ رحمه الله وأصحابه بغير طريقتهم ومنهجهم، وهو الانشغال بالعلم والدعوة والإصلاح.

---

[1] يعني موسم التجارة حيث يقيمون ما هو أشبه بالمعارض التجارية اليوم.

[2] هو- إذن- موقف مبكر من الاختلاط غير المنضبط في المملكة، أدام الله عليهم نعمَه.

[3] «ابن بشر» (1/ 45).

فلا أنهم اصطدموا بأعدائهم وهم كثر، ولا قرر الشيخ الانتقام من خصوم الأمس، ولا تأليب أتباعه في باقي المناطق للانتقام له، بل لم يتوجه لشيء غير التعليم والدعوة.

وكما هي عادة الشيخ في حكمته الدعوية فإنه بدأ بالأقرب، أي بإصلاح أهل الدرعية أنفسهم، ليكونوا عُدّة للدعوة في دعوة الأبعد بعد ذلك.

يقول ابن غنام[1]:

«وبعد ذلك قام يدعو الناس إلى ما خُلقوا لأجله، ويحث على ذلك بخيله ورجله، حسب الاستطاعة لا يفتر عن ذلك ساعة، وكذلك قام معه وزراؤه وأعوانه وأنصاره، من أهل الدرعية وإخوانه..فجردوا للدعوة أمضى سنان، وأرخوا في ذلك العنان، من غير تراخ ولا توان..وبقي الشيخ **قريبا من سنتين يناصح الناس**».

ويقول ابن بشر[2]: «ولما استوطن الشيخ الدرعية وكان أهلها في غاية الجهالة ورأى ما وقعوا فيه من الشرك الأكبر والأصغر والتهاون بالصلوات والزكاة ورفض شعائر الإسلام، جعل **يتخولهم بالتعليم والموعظة الحسنة**، ويفهمهم معنى لا إله إلا الله ويشرح لهم معنى الألوهية، وأن الإله هو الذي تألهه القلوب محبةً وخوفًا ورجاءً، وأن الإسلام الاستسلام لأمر الله والانقياد له، والاذعان بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل ، ويعلمهم أصول الدين، والإسلام وقواعده ومعرفة نبيهم صلى الله عليه وسلم ونسبه ومبعثه وما دعا إليه وهي لا إله إلا الله وما تضمنته، وأنهم مبعوثون

---

[1] (2/ 670).

[2] (1/ 44-45).

بعد الموت، فلما استقر في قلوبهم معرفة التوحيد وضده بعد الجهالة، أُشرب حب الشيخ قلوبهم وأحبوا المهاجرين إليهم وآوواهم».

ونريد أن نتوقف هنا للتأمل في أسلوب الشيخ في تعليم أهل الدرعية ودعوتهم، لقد كانت للشيخ سلطات مطلقة على أهل الدرعية، وصار رأسًا للدولة، وكان بإمكانه فَوْر وصوله إلى السلطة أن يصدر مرسومًا بالعقيدة التي يجب على المواطنين تبنيها وإلا فالعقاب والتشريد والتنكيل.

ولكن ما هكذا تورد الإبل ولا بهذا يكون الإصلاح الحقيقي، إن وازع القهر والسلطان له إيجابياته في بعض الأزمنة والأمكنة، إلا أنه يبقى وسيلة ثانوية في الإصلاح الحقيقي، أما الإصلاح العميق، الطويل المدى، الذي يتجاوز حدود الزمان والمكان، فهذا لا سبيل إليه إلا بأن يختار العاقل لنفسه الطريق، ثم يتشرب حبّه وحبّ أهله، ثم يختار لنفسه الصبر على الأذى فيه، وبهذا فقط يمضي دون توقف، ويسير دون التفات.

أما الإصلاح بوازع السلطان – وحده–، فإن أثره يموت مع موت السلطان ، وكأن شيئا من الإصلاح لم يكن، وشيئا من التغيير لم يحدُث.

ولهذا نرى الشيخ لم يستخدم وازع السلطان من البداية بل عوَّل على التعليم والدعوة وبالحسنى والحكمة، ومع تخوّل الناس بالموعظة لئلا يسأموا من هذه التوجيهات الجديدة، وقد أتت هذه الطريقة أكلها وطَرَحت ثمارها، فأشرب أهل الدرعية حب الشيخ وحب ما هو عليه، وبهذا الحب يكون التمكين في الأرض للدعوة والدعاة، لا بشيء آخر.

كما نتوقف ثانياً عند هذا الأسلوب الحَسَن المهذب الجميل من الشيخ في دعوة حتى من هو متلبس بالشرك الأكبر إلى التوحيد الصحيح.

لم يذكر لنا الشيخ ولا تلامذته المؤرخون ولا أتباعه تكفيرا ولا تنفيرا ولا غلظةً ولا شيئا من ذلك، ثم رأينا ثمرة هذا الأسلوب ونتائجه على الأرض.

وهذا الأسلوب هو الذي استمر عليه الشيخ طوال مراحل حياته الدعوية..كما مضى وكما سيأتي معنا.

(35)

دعوة البلدان المجاورة

لم يكتف الشيخ بدعوة أهل الدرعية بل بدأ بنشر دعوة التوحيد في آفاق نجد، فالدرعية اليوم عاصمة للتوحيد وطلبة العلم وحملته.

وكان هذا هو برنامج الشيخ الأصلي وخطته الرئيسة فيما نرى في توحيد نجد، ذلك الحُلْم الذي كان يراوده، وهو النشاط في دعوة الجهات النجدية المختلفة ومراسلتهم بأمر التوحيد، فإن كتب الله له النجاح في توحيد قلوب النجديين نحو السماء توحدت قبائلهم تلقائيا في الأرض، وتوقفت حمامات الدماء التي كانت تُسال بغير حق.

يقول ابن بشر[1] :«ثم إن الشيخ كاتب أهل البلدان بذلك **رؤساؤهم وقضاتهم**».

ونتوقف هنا لنتساءل: تُرى ما هو الأسلوب الذي سلكه الشيخ في دعوة البلدان المجاورة؟

---

[1] (1/ 45).

إن كان الشيخ سلك مع مَن هم تحت ولايته في الدرعية ومَن بيده لو أراد أن يقهرهم لدعوته قهراً، إن كان قد سلك معهم مسلك الترغيب والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، فكيف بمَن هم خارج ولايته.

إن كان الشيخ سلك هذا المسلك مع أهل الدرعية وهم يتلقون العلم والدعوة منه، فكيف بمن وصلته الدعوة في البلدان المجاورة مشوهة على غير صورتها الصحيحة، إنَّ هذا أَدْعَى للتلطُّفِ والتَّخَوُّلِ والأسلوبِ الحَسَنِ في دعوةِ أولئك الآخَرين.

إننا نجزم بأن الشيخ في دعوته للبلدان المجاورة لم يسلك إلا مسلكه المعروف من الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة من خلال:

أ: أسلوب الرسائل التي أرسلها الشيخ للبلدان المجاورة وحفظها لنا الشيخ وتلامذته وأبناء دعوته، وستأتي نماذج منها.

ب: أسلوب الشيخ في الجواب على ما يأتيه من أسئلة واستشكالات واستفسارات واستيضاحات من المناطق الأخرى عنه أو عن دعوته، وستأتي نماذج منها.

ج: قياس الأولى وهو ما شرحناه من أنه سلك هذا الطريق في دعوة من هم تحت ولايته فبالأحرى أن يسلكه مع الآخرين.

(36)

نتيجة دعوة البلدان المجاورة

قال ابن بشر[1] عن رؤساء وقضاة المناطق التي راسلها الشيخ:

---

[1] (1/ 45).

«فمنهم من قبل واتبع الحق، ومنهم من اتخذه سخريًّا واستهزؤوا به ونسبوه إلى الجهل وعدم المعرفة، ومنهم من نسبه إلى السحر، ومنهم مَن رماه بأشياء هو بريء منها ، وحاشاه عما يقول الكاذبون، ولكنهم يريدون أن يصدوا بها الناس عنه..».

أما عامة الناس في المناطق النجدية المختلفة فسيأتي أن عامتهم تأثروا بالدعوة وانقادوا لها وعرفوا أنها الحق الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، والإشكالية الرئيسية كانت في بعض الرؤوس السياسيين والدينيين، وهذه النقطة لها أثر في فهم سير الأحداث التالية.

(37)

تأريخ هذه التحولات الجديدة

ويؤرخ لنا ابن غنام سنة هذا التحول الجديد في حياة الدعوة بعقد الدرعية وما تلاها فيقول[1]: «وكانت هذه الأمور المذكورة والأفعال المقررة المسطورة في حدود سنة سبع وخمسين بعد المائة والألف من الهجرة النبوية»[2].

وعليه يكون الشيخ قد بلغ من العمر (42) عامًا،وإذا أضفنا إليها سنتي الدعوة في الدرعية يكون عمره (44) عاما، أمضى أكثر من 34 سنة في العلم ودراسة العقيدة والتوحيد، فقد بدأ في الطلب قبل البلوغ كما تقدم، كما أمضى أكثرها في الدعوة للتوحيد كما قدمناه، ولم يخض بَعْدُ في أبواب القتال أو التكفير ، كما صرّح به هو بنفسه وشهد عليه صاحبنا ابن غنام وتلامذته وأئمة دعوته كما سيأتي معنا.

---

[1] (2/ 672).

[2] وانظر «ابن بشر» (1/ 43).

(38)

محاولة ابن معمر إعادة الشيخ للعيينة

بدأ الناس في التوافد على الشيخ في الدرعية ولما علم عثمان بن معمر ببزوغ نجم الشيخ من جديد في الدرعية، ولعله لمعرفته الشخصية بالشيخ تنبأ بأنه سيكون له شأن كبير في المستقبل، أقبل عليه في الدرعية وطلب منه العودة للعيينة، فأحال الشيخ الأمر على محمد بن سعود، فرفض ذلك[1].

(39)

تقريرات الشيخ العلمية في هذه المرحلة بما يخص الحكم على الناس

اعتنى ابن غنام رحمه الله بتقرير ما قد بيّنّاه وقررناه من خلال تتبع تاريخ دعوة الشيخ منذ نشأتها إلى الآن، من أن الشيخ – بسبب اندثار معالم الدين وشيوع الفساد والمعاصي بشتى أنواعها وولع الناس بها وغير ذلك- لم يُقدم على **تنزيل الأحكام**

[1] ابن غنام (2/ 673)، ويرى ابن غنام أن هذا الموقف هو ما غير قلب ابن معمر على الشيخ فأضمر له العداوة والشر، ومهما يكن من أمر تغير عثمان بن معمر رحمه الله ثم ما آل إليه الأمر بينه وبين الدعوة، فقد وقف مع الشيخ وقفة لا تنسى له في أول أمره، والقارىء لقصته يتمنى أن لو لم يتخلّ عن الشيخ خوفاً من زوال الحطام الدنيوي، فغفر الله له وتجاوز عنه.

علـى المجتمـع أو النـاس، بـل انشـغل فـي كـل المراحـل السـابقة بـالتعليم والـدعوة والإرشاد والإصلاح فحسب.

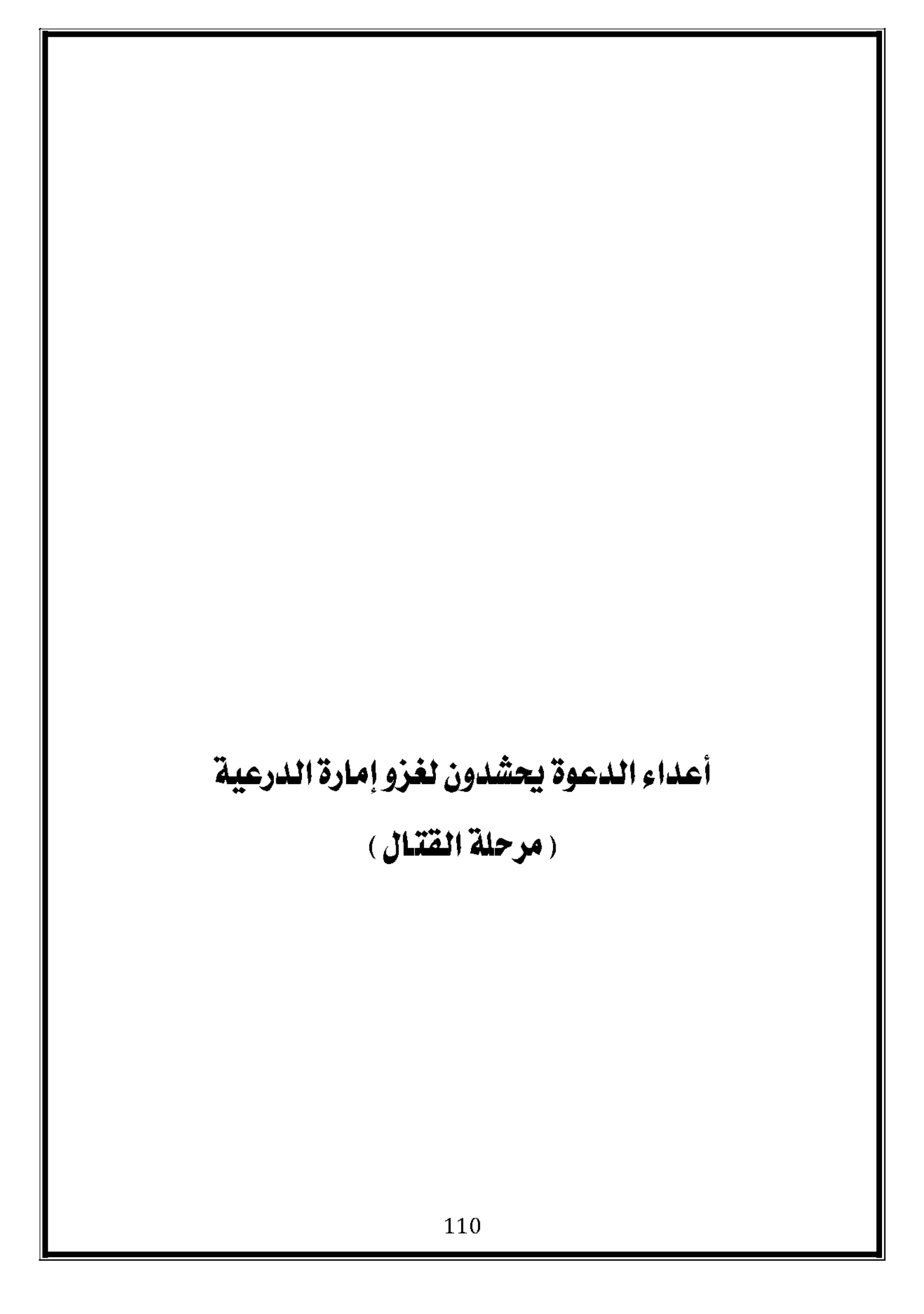
يقول ابن غنام[1]:

«لما تظاهر الشيخ رحمه الله بذلك الأمر والشأن في تلك الأوقات والأزمان، والناس قد أشـربت مـنهم القلـوب بمحبـة المعاصـي والـذنوب، وتولعـوا بمـا كـانوا عليـه مـن العصيان، وقبائح الأهواء الغالبية على كل إنسان، **لم يسرع لها لسان، ولم يصـمم منـه لبٌّ ولا جنـان، علـى تكفيـر أولئـك العربـان، بـل توقـف تورعـا عـن الإقـدام فـي ذلـك الـميدان**».

وسيأتي معنا في الفصول التالية مزيد إيضاح.

---

(1) (1/ 220).



أعداء الدعوة يحشدون لغزو إمارة الدرعية

(مرحلة القتال)

(أ)

مرحلة القتال

لضبط وفهم أدبيات وتقريرات أئمة الدعوة في هذه المرحلة الهامة مرحلة ظهور أدبيات وتقريرات القتال ثم ظهور أدبيات التكفير، يجب أن نقسم أولا المرحلة نفسها إلى قسمين، وذلك للاختلاف الجذري في تلك الأدبيات أسلوبًا وتقريرًا باختلاف القسمين.

وهذان القسمان هما:

أ: تقريرات أئمة الدعوة الخاصة بالقتال والتكفير **داخل** دائرة الصراع والقتال.

ب: تقريراتهم الخاصة بالقتال والتكفير **خارج** دائرة الصراع والقتال.

وسنقوم بدراسة تقريراتهم الخاصة بكل قسم على حدة لنضبط الأمر على وجهه الصحيح فيما نرى.

فسنبدأ بتقريراتهم الخاصة بمن هم داخل دائرة الصراع ثم بالقسم الثاني.

وعليه فأرجو من الأخ القاريء أن يستحضر معنا أن الفصول التالية نتحدث فيها عن تلكم التقريرات في دائرة القتال والصراع فقط، ثم سيأتي معنا بعد ذلك بيان تقريراتهم خارج تلك الدائرة.

(2)

أولا : دائرة القتال والصراع وأدبياتها

أخبار إمارة الدرعية الجديدة تصل إلى أعداء الدعوة

كم قد قُتِلتُ وكم قد مُتُّ عِنْدَكُمُ

ثم انتفضتُ فزال القبرُ والكفنُ!

المتنبي

قد قدّمت لك معنى أن تقوم للتوحيد دولة عند أعداء الدين في القديم والحديث، وذكرت لك لماذا تكالب الأعداء على الشيخ لما تحالف مع عثمان بن معمر أمير العيينة، وبدأ بتطبيق الشرع في بلاده، وقرروا التخلص منه بالقتل لولا أن عثمان بن معمر لم يرغب بقتله في دياره حفاظًا على أعراف العرب مع الضيوف...

ظنَّت مراكز القوى المعادية للشيخ في نجد بعد أن أصدرت الأوامر بالتخلص منه أن أمره قد انتهى، انتهى بلا رجعة، وقد ذهب توحيده هذا معه بلا عودة!

ثم استيقظت نجد فجأة على الأخبار التالية تتصدر الصحف! السيارة، أو قنوات الأخبار المحلية! متمثلة بصورتها البدائية وقتها في نقلة الأخبار والأحداث:

الخبر الأول: ابن عبد الوهاب على قيد الحياة.

الخبر الثاني: ابن عبد الوهاب تحالف مع أمير الدرعية محمد بن سعود.

الخبر الثالث: تحالفه لم يكن سياسياً فحسب بل هو تحالف على نصرة العقيدة والتوحيد والدعوة.

الخبر الرابع: طلاب العلم بدؤوا بالوفود إليه في الدرعية.

وخبر رابع وخامس وسادس....

ولسان حال الشيخ:

كم قد قُتِلتُ وكم قد مُتُّ عِنْدَكُمُ.... ثم انتفضتُ فزال القبرُ والكفنُ!

ماذا سيكون موقف أعداء الشيخ والدعوة..

لقد اكتفوا في العيينة بإصدار أوامر بقتله والتخلص منه، ولكنه عاد مرة أخرى إلى واجهة الأحداث والأخبار، عاد مرة أخرى أكثر تصميما للمضي في طريقه، عاد مرة أخرى وهذه المرة بحلف جديد يبدو من صيغته أنه يختلف عن حلفه القديم، وأن أمير الدرعية وأهلها هذه المرة لن يقبلوا أية أوامر من أحد كائنا من كان بالتخلص من الشيخ فضلا عن أن يقبلوا أن يُمس بأذى وهو بينهم..

مع إصرار الشيخ وهمته كَثُرَ محبوه وانتشر أمره وذاع صيطه في بلاد العارض كلها، بدأ طلاب العلم والأتباع والمحبون يتوافدون عليه من كل حدب وصوب..

إن دعوته تنتشر سريعا بين العامة ومحبوه يزدادون يوما بعد يوم...

ما العمل؟ كيف يتم القضاء على هذا الأمر واستئصاله من جذوره هذه المرة حتى نطمئن ألا يظهر لنا من جديد..؟

كانت هذه التطورات كافية لتزمع مراكز القوى المعادية للشيخ في نجد الحشد وتجهيز المقاتلين لغزو الدرعية، وإنهاء هذا الأمر كله.

واتبعوا في أول الأمر الخطة الحربية المعروفة قديمًا وحديثًا التي تقضي بقصقصة أجنحة العدو متمثلة في حلفائه حتى لا يُشكل وجودهم عبئًا عليهم إذا تمت مواجهة العدو الأصلي، وبناء عليه فإن أعداء الدعوة **قرروا غزو بلدة المنفوحة أولاً حلفاء الدرعية.**

(3)

أعداء الدعوة يحشدون لغزو الدرعية ويبدؤون بغزو بلدة منفوحة المحالفة لها بقيادة دهام بن دواس أمير الرياض

يجب أن نتعرف أولا على هذه الشخصية المهمة التي تمثل أول من بدأ بمحاربة الدعوة وجاهر بقتالها وقتال المتسببين لها، ويعد من أكبر وألد أعداء الدعوة على الإطلاق، وقد استمر القتال بينه وبين الدعوة زهاء الثلاثين سنة**!**

دهام بن دواس ماض أسود[1]:

دهام بن دواس هذا كان أبوه رئيسا في بلد منفوحة القريبة من الرياض متغلبًا عليها، وتلطخت يداه ببعض الدماء ظلما وعدوانا، ولما مات تولى ابنه محمد والذي قتله

[1] «ابن غنام» (2/ 673-674).

ابن عمه بالاشتراك مع أهل البلدة (أنفسهم) لكراهيتهم لتلك الأسرة، وبعد أن قتلوا محمدا أجلوا إخوانه من المنفوحة وكان دهام من جملتهم.

فاستوطن الرياض، وكان واليها اسمه زيد بن موسى، والذي قتله أحد بني عمه، ليقتل ابنَ العم هذا أحدُ عبيده واسمه خميس! والذي تغلب على الرياض لمدة ثلاث سنين ، ثم هرب خوفا من أهلها لأمور جرت منه، ليقتله أحدهم بعد ذلك!

غدر وخيانة:

الذي يهمنا من سلسلة الدماء السوداوية هذه أن الرياض خلت من رئيس فاستغل دهام هذا الوضع ليتغلب على الرياض، ويُجلي ابن زيد بن موسى المذكور أولا، فيكرهه أهل الرياض ويسعون في عزله وقتله، حتى أحاطوا بقصره وحاصروه فيه، فأرسل لمحمد بن سعود يطلب منه النجدة والنصرة، وبالفعل يقوم له محمد بن سعود بالنصرة..وكان سببًا في قرار الملك في الرياض لدهام هذا..ويرى ابن غنام أن ابن سعود لم يكن يعرف ما يضمره دهام للرعية من ظلم وجور وفظائع يرتكبها في حق الرعية، فتلك امرأة غضب عليها فأمر فمها أن يُخاط! وذلك رجل غضب عليه دهام يومًا فقطع من فخذه قطعة فشواها..وذلك رجل فكّ أسنانه بالحديد وآخر قطع لسانه، ويرى ابن غنام أن هذه الوقائع اشتهرت وانتشرت.

وفي أثناء تلك المدة ناصح الشيخ والأمير محمد بن سعود دهامَ بن دواس، رئيس البلدة المعروفة بالرياض، فاجتهدوا في ذلك غاية الاجتهاد، فلم يكن له قبول، بل أعرض عن دعوتهم، مع أنه كان أقر بأن هذا هو الدين، وقد صح النقل عنه والنطق بذلك منه..

وكان التوحيد قد فشا في بلده ودخل فيه كثير منهم فإذا رأى مِن جماعته مَن يحب التوحيد ويفشيه، أخذ يصده ويؤذيه، وإذا رأى عدوا للدعوة إذ به يقربه ويؤيه، وجعل يتزايد في العداوة، ويتظاهر بقمع الحق، ويعلن بالقبائح..

حال دهام بعد عقد الدرعية[1]:

لم يزل دهام على هذا الحال ولما جَدَّ الجديد في الدرعية مِن عقد الشيخ ابن عبد الوهاب مع ابن سعود، حاولا مناصحته وملاطفته كما تقدم لعله ينصاع أو ينقاد للحق، إلا أنه «أبى ونفر، وأعرض واستكبر» ولم يكتف بخاصة نفسه بل «صد الخلق عن الدخول في التوحيد وأخذ يسعى لأهله بالمكائد، ويترصد في عداوتهم المراصد»..

غزو دهام لمنفوحة وخطته في ذلك:

ولم يكتف دهام بهذا التخويف والتهديد والوعيد لمن تأثر بدعوة الشيخ ابن عبد الوهاب بل بدأ بالتحرك العملي على الأرض ومهاجمة أتباعه وغزوهم في عقر دارهم والإغارة عليهم غدرًا..فبدأ بأهل منفوحة البلد القريب من الرياض وكان أهلها قد أقروا بالتوحيد وأذعنوا لدعوة الشيخ وانقادوا للحق غير مكرهين، فما كان من دهّام إلا أن أعد عدته لغزوهم، وأحكم خطته للسيطرة على ديارهم.

أما خطته فكانت أن يقوم بزيارة المنفوحة صباحًا ومعه بعض المقاتِلة من البوادي، على أنها زيارة ودية فحسب، ولم يكن دهام إلى هذه اللحظة قد أظهر التحرك الفعلي

[1] ابن غنام (2/ 675).

على الأرض لمحاربة دعوة الشيخ، فنزل في المنفوحة آمنًا، وكَمَنَ في أحد الدور ليلًا، ثم أمر البوادي الذين خرجوا معه بالإغارة على بعض زروع ونخيل أهل المنفوحة حتى يخرج أهل منفوحة من ديارهم لصدهم فإذا خلت الديار من أهلها، تأتي الخطوة التالية في الخطة وهي الاستيلاء على الدور الخالية وإحكام السيطرة على قصر الإمارة في المنفوحة.

وقد تمت الخطة بنجاح، وأحكم دهام السيطرة على قصر الإمارة.

إلا أن أهل المنفوحة لما وصلت أنباء الغدر لأسماعهم عادوا لاستعادة القصر، وكانت خطة الاستعادة تتلخص في الصعود على البيوت التي تشرف على قصر الإمارة ليكون القصر تحت مرمى أسلحتهم، ثم استهداف رجال دهام بالرّمي، ونجحت خطة الاستعادة فانسحب رجال دهام خاسئين، وقُتل من أشرارهم عدد.

(2)

موقف الدعوة من هذا التطور الخطير

نحن الآن على أعتاب مرحلة جديدة من قصة هذه الدعوة المباركة، إن إمام هذه الدعوة بقي سنوات يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ولا همَّ له إلا تصحيح عقائد الناس ودينهم، فكان أن عوديَ.

سخّر الله له أميرا في العيينة يقوم معه بأمر الدعوة، فاستمر الإمام في برنامجه الدعوي الإصلاحي التجديدي، فطُرد بأمر أعدائه وشرِّد .

خرج طريدا شريداً إلى الدرعية فسخر الله له أميرها يتحالف معه، ويدفع عنه وعن دعوته.

فاستمر الشيخ في برنامجه الدعوي لا همَّ له إلا تصحيح عقائد الناس، وبقي يتلطف لأشرس أعدائه ويعظهم بالحسنى، ويدعو لهم، ولم يفكر في الاعتداء على أحد.

إلا أن الشيخ لما أبدى بعد كل هذه الأحداث أن روحه لا تنكسر، وأن عزيمته لا تنثني، وأنه ماض في طريقه لا يلتفت، صار على رأس قائمة المطلوبين للعدالة في نجد! وإذ بأتباعه يطلبونه للعدالة بتهمة التوحيد!

على المستوى الداخلي قام أعداء الشيخ بالتضييق على أتباعه في بلادهم وديارهم، وعلى المستوى الخارجي جيّشت الجيوش وجُهزت الفرسان والرجالة وبدأ أعداؤه كما قصصناه عليك بمهاجمة الجهات الموالية للشيخ في عقر دارهم، وهي خطوة مشهورة معروفة في أعراف الحروب مِن مهاجمة الأقرب وبعد الانتهاء منه يتوجه للأبعد وهي الدرعية معقل دعوة الشيخ.

يبدو كما هو واضح أن غزو دهام للمنفوحة وتهديده ووعيده لأتباع الدعوة لم يكن سوى جس نبض وتمهيد فقط وإنذار من أعداء الدعوة لمرحلة أكبر من العداء والقتال إن لم تخضع إمارة الدرعية لأوامرهم...

في هذه الظروف والملابسات التي فُرضت فرضًا على الشيخ ودعوته وأتباعه، كان أمامه خياران لا ثالث لهما:

إما أن يُذبح وتُذبح معه دعوته وأتباعه، وأن يُقدّم هو وأصحابه قرابين على أعتاب القبور والأضرحة!

وإما..المواجهة..

وهذا ما قد كان!

إمارة الدرعية تعلن القتال دون النفس والحرمة

(١)

إعلان إمارة الدرعية القتال دون النفس والحرمة

(وأما القتال فلم نقاتل أحدا إلى اليوم، إلا دون النفس والحرمة..

وهم الذين أتونا في ديارنا; ولا أبقوا ممكنا)

الشيخ

إن كان أعداء الدعوة بنجد قد بقوا زمنًا يتحدثون عن شيخ هذه الدعوة على أنه شريد طريد، وعلى أتباعه على أنهم شرذمة قليلون، فإن نجدا كلها تصحو اليوم على وقع العاديات ضبحا، وعلى صورة الموريات قدحًا..

إن كانت نجد بقيت زمنًا لا تعرف القتال إلا تهالكًا على فتنة الملك أوالجاه أو في سبيل المرعى والمأكل ، فإنها تصحو اليوم على شيء جديد، لم تسمع به من قرون..

إنها جيوش الموحدين..

وهكذا فليكن الموحدون!

أعلنت إمارة الدرعية والشيخ محمد بن عبد الوهاب القتال دون النفس والرحمة والدفاع عن الدين والعقيدة والأرض والعرض، **وأُعلنت الحرب في الدرعية على دهام بن دواس الذي بدأ بالاعتداء، وعلى الباغي تدور الدوائر.**

نعم بدأ القتال، ورُفعت الرايات ، وأُعلن رسميًّا عن تحرك جيوش الموحِّدين..

(2)

((وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله ...))

إن الستار يسدل الآن على مشهد مهيب لم تعشه نجد لقرون خَلَت، هما معسكران، أحدهما سيحدد اتجاه عقارب الساعة التالية، ويسطر تاريخ نجد في صفحاته القادمة..

تختلط الأصوات والأنفاس..

هذا ساجد لربه منطرح بين يديه..وذاك ساجد على أعتاب قبر..

هذا يتضرع لمولاه خاضعا ذليلا..وذاك يستغيث بضريح ولي..

هذا يذبح باسم الله..وذاك باسم تاج وشمسان..

هنا تختلط أصوات حملة كتاب الله وحفظة سنته..وهناك تختلط ترانيم وتراتيل الأولياء..

هنا تتناول الأيدي كتب السلف وأتباعهم..وهناك يقلب أحدهم كتب السحر والشعوذة والخرافة..

ثم يسود السكون ليرتفع الستار من جديد وقد تأبّط هذا سيفه مستعينًا بربه وحده، متضرعًا لمولاه، متوسلا بعمله الصالح، معتصما بمَن بيده الضر والنفع، وتأبط ذاك سيفه مستعينا بمن ليس له من الأمر شيء، ولا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا.. بل وبمن لا يستطيعون نصرهم ولا أنفسهم ينصرون!

ثم كان النزال..

والحرب سجال..

(5)

واقع جديد

إن تاريخ بناء الأمم وسقوطها، و تاريخ قيام الدول واندثارها، لا يتغير ولا يتبدل مع مرور الزمان، كل ما يتغير إنما هو الأسماء والأشكال!

إن ظهور مركز من مراكز القوى في أي بقعة على سطح الأرض، يقابله على مر التاريخ ظهور مركز قوى آخر مناهض له، هذه هي سنة الحياة وطبيعة الإنسان.

أما الجهات الأضعف فتبدأ في تشكيل تحالفات جديدة بالانضمام إلى أحد المعسكرين الكبيرين المتصارعين بناء على طموحاتها المستقبلية والوعود المقطوعة لها.

في العصر الحديث عاش العالم مع صراع المعسكر الشرقي الشيوعي مع المعسكر الغربي الرأسمالي، ورأى تحالفات الفريقين، وقبله كان الصراع النازي الأوروبي.

وقديما اقتسمت فارس والروم جزءا كبيرا من العالم قبل أن يبدأ فجر الإسلام بالبزوغ ليقلب موازين القوى رأسا على عقب.

واليوم فوجئنا بتشكُّل تحالفات عالمية واسعة تتدخل في شامِنا وعراقنا.

هذا على المستوى الأممي العالمي، وهو هو الأمر نفسه على مستوى الدول كبيرة كانت أم صغيرة، مراكز قوى تتصارع على الحكم أو غيره وتتشكل تحالفات تتلوها تحالفات إلى أن تتغلب إحدى تلك الجهات وتؤول إليها مقاليد الأمر.

في نجد كانت مراكز القوى المختلفة متمثلة في الأسر القوية والإمارات التي تتقاسم حكم نجد تتصارع فيما بينها على أمر الملك والجاه، إلى أن طرأ واقع جديد على يد الإمام محمد بن عبد الوهاب!

لم تكن دعوة الإمام قائمة على العصبية لأسرة أو جنس أو لون أو شكل أو مستوى اجتماعي أو أو أو، بل كانت الآصرة التي يدعو للاجتماع عليها هي آصرة التوحيد ، والتوحيد فقط.

ويكأن الزمان يستدير كهيئته عند بعثة النبي صلى الله عليه وسلم والجزيرة تتنازعها الأواصر القبلية والعصبية والأسرية، فجعل كل ذلك من أمر الجاهلية! بل وتحت قدمه الشريفة.

إنها دعوة عالمية لا تتوقف عند حدود مرسومة أو تصنيفات موضوعة، فالموحّد أخي وله عليّ حق نصرتي، هنديا كان أم صينيا شريفًا كان في قومه أو وضيعًا.

عندما تجاوزت دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب هذه العصبيات التعيسة والتصنيفات البائسة، انضم لها رجال من أفخاذ شتى وبطون مختلفة، ورحل إليه الناس من كل صوب وحدب، فالوجهة اليوم غير الوجهة، ونجد اليوم غير نجد، والحياة برمتها غير الحياة!

وجدت مراكز النفوذ في نجد نفسها أمام واقع جديد..

قوة عسكرية تتمثل في جيوش التوحيد التي قررت أن تدافع عن نفسها بعد سنوات من التشريد والتنكيل..وعن حقها في عبادة ربها وحده لا شريك له..

وقوة سياسية متمثلة في حنكة محمد بن سعود ودولته..

وقائد يقود الناس بالكتاب والسنة والعلم..

وقبل ذلك كله قوة الاعتصام بالله، وكفى بالله وكيلاً..

هي –إذن– قوة قادرة على مقارعة نفوذ باقي القوى وإخضاع أعدائها، والعلو بالتوحيد في أرض نجد.

فلماذا إذن نرضى الدنيَّة في ديننا؟!

(6)

تحالفات نجد الجديدة وتجييش الجيوش لغزو الموحدين

عندما أبدى الشيخ ومحمد بن سعود الاستعداد للدفاع عن أنفسهم وعقيدتهم وأبناء دعوتهم، سرعان ما بدأت التحالفات الجديدة بالتشكل، انقسمت نجد إلى معسكرين كبيرين، معسكر الإمام محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود في الدرعية، ومعهما المناطق والقرى النجدية التي بايعته على العقيدة والتوحيد، وعلى رأسها العيينة وحريملاء ومنفوحة وسدير والوشم والمجمعة[1]، ومعسكر أعدائه الذين تكاتفوا وتكالبوا واتحدوا على إسقاطه وإسقاط دعوته.

ومن أهم وأقوى تحالفات أعدائه داخل نجد:

تحالف الرياض بقيادة دهام بن دواس:

التحالف الذي شكّله دهام بن دواس أمير الرياض والذي كان هو من بدأ بمهاجمة الدعوة وأتباعها وغزوها كما قدمناه، وقد بقيت الحرب سجال بينهما قرابة ثلاثين سنة كما ذكرنا!

ومن أهمها خارج نجد: تحالف المنطقة الشرقية بقيادة عريعر ومهاجمته الدرعية والنزول قريبا منها:

وهناك في الشرق، في الأحساء، بلاد سليمان بن محمد الذي كان قد تبيّن في معاداة الشيخ ودعوته من وقت مبكر فهو من أمر بقتله في العيينة، اليوم تُشَكِّل المنطقة الشرقية تحالفات جديدة واسعة لغزو الدرعية ووأد الدعوة وإمامها.

فقد شَكَّل عريعر من أكبر أعداء الدعوة تحالفا واسعًا من (أهل الأحساء-وكافة بني خالد-وأهل السدير-والوشم-والمحمل..)

[1] مع تبدل في مواقف بعض هذه المناطق كما سيأتي.

يقول ابن غنام[1]: وفي السنة الثانية والسبعون بعد المائة والألف أتى الخبر الشيخ ومحمد الأمير **أن عريعر يريد الخروج على نجد والتسيير،** فأمروا جميع بلدان المسلمين بالبناء والاستعداد والتحصين...ثم خرج بعد ذلك عريعر مع أهل الحسا وكافة بني خالد وأهل سدير والوشم والمحمل...وتحرك عريعر[2] يطلب الدرعية وأناخ بجيوشه قريبا منها ثم رده الله خائبا.

وتحالف نجران اليمن[3]:

أغار غزوٌ من اليمن على مناطق تحت سيطرة الدعوة لأسباب دنيوية محضة كالنَّهب والسلب ، فردتهم جيوش الدعوة بعد قتال عنيف وأسرت منهم، فما كان منهم إلا أن طلبوا المدد من صاحب نجران ورئيسها الحسن بن هبة الله، فشكَّل تحالفا قبليًّا من الحضر والبدو وعدد من القبائل اليمانية لغزو نجد، وتمّ له ما أراد وكتبت الهزيمة على جيوش الموحدين في لقائهم الأول، ثم ردوهم على أعقابهم خائبين.

اجتماع التحالفات الثلاثة:

لمّا علم تحالف الرياض بقيادة دهام بقصة صاحب نجران وانتصاره في اللقاء الأول مع جيوش الدعوة، أهدى له الهدايا وأوعز له الاستمرار في القتال، ووعده بمناصب في نجد وولايات، وهكذا صار التحالف النجراني جزءًا من الصراع، كما أرسل دهام لعريعر في

---

[1] (2/ 751).

[2] «ابن غنام» (2/ 772).

[3] «ابن غنام» 2/ 765-770

الشرق بالخبر، وأوعز إليه استغلال فرصة تقهقر جيوش الدعوة بعد تلقي الهزيمة من حلف نجران.

وهكذا بدأت التحالفات الثلاثة تكوّن ما يسمى بالكماشة على الدعوة من الجنوب والشرق والشمال والغرب بتنسيق تام بينها.

تحالفات الطابور الخامس!:

لم يكن الخطر الذي يهدد الدعوة خطرًا خارجيا فحسب، بل كانت هناك خيانات من داخل الصف، وخطط يديرها الطابور الخامس من الداخل.

فقد كانت هناك جهات حالفت الدرعية على التوحيد كما هو شرط الدعوة، فأمنت الدرعية جانبها، وأرسلوا لهم الدعاة والأئمة والخطباء، ونشروا التوحيد في أوساطهم، إلا أنه يبدو أن تحالف بعض رؤوس هؤلاء وإقرارهم بالتوحيد والتزامهم به كان مجرد خطة تكتيكية للانقضاض عليها من الداخل بمجرد طروء الضعف أو تكالب أعدائها عليها.

فمن صور تحالفات هذا الطابور الخامس:

تحالف سدير والوشم والمجمعة :

كان مبيريك بن عدوان قد بايع الشيخ والأمير على التوحيد وأمّراه على حريملاء، ثم عزلاه لأمور ظهرت منه، فاستأذن في الخروج من حريملاء ونكث عهده وبيعته وقام بتشكيل حلف لقتال الموحدين في حريملاء[1].

يقول ابن غنام[2] في أحداث السنة الحادية والسبعين:

وفيها حزّب مبيريك بن عدوان وجمع من أهل سدير والوشم والمجمعة، وقصده بذلك حريملاء الموالية للشيخ...

---

[1] «ابن غنام» (2/ 749).

[2] «ابن غنام» (2/ 750).

ولهم تحالفات أخرى سيأتي معنا بعض صورها وقد كانوا من أخطر ما يهدد الدعوة.

صورة أخرى:

قال ابن غنام[1]: وفي سنة خمس وستين بعد المائة والألف وقعت من أهل حريملاء الردة والافتتان، واجتمع على ذلك كل إنسان من أهل الفساد والعصيان، وتمالأوا على قتل مَن عندهم من أهل التوحيد والإيمان، وحملهم على ذلك الشيطان، وزين لهم ما كانوا عليه سابقًا في غابر الزمان... ثم عدو على الدرعية وغزوها سنة ست وستين بعد المائة والألف[2]

التحالفات الإقليمية:

ثم تشكلت بعد ذلك تحالفات إقليمية كبرى تجاوزت رقعة نجد لمحاولة إخضاع الدرعية سيأتي الحديث عنها في آخر البحث.

وقفة مع التفسير المادي للتاريخ

وقفت على بعض الآراء في الساحة التي تستشكل أن تقام كل هذه التحالفات والحروب لنزاع عقدي، وهذا الرأي يرجع في أصوله إلى ما يسمى بالتفسير السياسي أو المادي للتاريخ، وهو تفسير مختل نابع من الفكر الغربي أصالةً، يجعل كل حدث تاريخي وكل نزاع مرده إلى البحث عن المادة من مال وثروات وملك وغير ذلك، ولهذا يفسرون غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم وفتوحاته بأنها كانت حروب توسع للملك وبحثا عن

---

(1) (692 /2)

(2) (693 /2)

الموارد الاقتصادية! وليس بحثنا هنا محلا للنقاش مع هذه المدرسة الفكرية ، لكني أريد أن أشير إلى أننا نعيش في اليمن الآن شيئا مما كان، فالحرب الدائرة في اليمن من سنوات ، وخروج الجماعة الحوثية على اليمن وأهله مرده إلى أن أهل اليمن نازعوهم على أصل عقدي واحد عندهم وهو إمامة البطنين (أن تنحصر الإمامة في ذرية الحسن والحسين)، فخرجوا تحت راية هذا الأصل ودمروا اليمن عن بكرة أبيه من شرقه لغربه، ومن شماله لجنوبه، والمقصود أن هذه الجماعات المؤدلجة بأصول دينية تُنسَب للدين بطلانا وزورا لا تقبل المنازعة على أصولهم العقدية هذه، فإن ترتب على النزاع العقدي تدافع سياسي، هنا تكون الحروب أشد كارثية، وهذا في قراءتنا هو عين ما حدث في زمن الشيخ، أن الخلاف في أصله والحروب في نشأتها كانت منازعة لعقائد هؤلاء في الأولياء والصالحين، وليس في البطنين فحسب! ولما كان سقوط هؤلاء دينيا في نظر العامة سيتلوه سقوطهم سياسيا – كأصحاب البطنين عندنا – حيث لم يترأسوا الناس إلا بناء على أنهم هم من يرتب العلاقة بينهم وبين المقبورين!! وهم حلقة الصلة بينهم وبين الأولياء والصالحين، وهم من تصلهم النذور والأموال وهم من له الجاه والملك بين الجهال، تنتقل هنا الحروب إلى مرحلة أشد دموية، وهذا يفسر شيئا مما حدث من التكالب على الشيخ ودعوة التوحيد.

(3)

الحرب سجال بين الدرعية والرياض

بقيت الحرب سجال بين الدرعية والرياض، ووقعت بين المعسكرين وقائع عدة في مناطق قريبة كوقعة الشياب[1] ، ووقعة العبيد[2]، **إلى أن أغار دهام على الدرعية عقر دار الإمام ودعوته**[3] **ليشمر بعدها محمد بن سعود للحرب ساعده، ويقرر غزو الرياض عقر دار العداة**، وأرخ لنا ابن غنام هذه المواجهات بسنة تسع وخمسين بعد المائة والألف.

وقد استمرت هذه الحروب بين الدعوة ودهام زهاء الثلاثين سنة!

نعم ثلاثين سنة من الحرب بين الدرعية ودهام أمير الرياض، في تلك المنطقة الصحراوية الصغيرة المهملة من العالم، فتنشغل الدرعية بالتعليم والدعوة ونشر التوحيد مع صد دهام وحلفائه.

ويكون الشيخ محمد قد تجاوز الآن عمره قرابة السبعين ، منشغلا بنشر التوحيد والعلم مدافعا عن أرضه في الوقت نفسه.

(4)

وإن جنحوا للسلم

---

[1] «ابن غنام» (2/ 677).

[2] «ابن غنام» (2/ 678).

[3] السابق نفسه.

ومع نشوب الحرب بين الدعوة وأعدائها إلا أن الشيخ وأتباعه كانوا حريصين على إقامة معاهدات السلام ما وجدوا إلى ذلك سبيلا، غير أن أعداء الدعوة كانوا ينكثون ويخونون.

قال ابن غنام[1] : ثم دخلت السنة السابعة والسبعون بعد المائة والألف وفيها كاتب دهام بن دواس الشيخ والأمير محمد بن سعود على أنه يريد الدخول في المنهج المحمود ويلتزم القيام بجميع شرائع الإسلام، ويحافظ على الوفاء بالعهود، فوافقوه على ما طلب وأراد...ثم تحدث عن نقضه للعهد كما هي عادته.

(5)

إخضاع الرياض وتوحيد نجد على التوحيد!

بعد قرابة ثلاثين سنة من الكر والفر والقتال والنزال، وبعد وفاة محمد بن سعود، وتولي ولده عبد العزيز استطاعت جيوش الدعوة إخضاع الرياض، وبعد سقوط الرياض انقلبت موازين القوى والتحالفات في نجد، وتساقطت سريعا أحجار الدومينو إلى آخر قطعة، فاستطاعت جيوش الدعوة إخضاع عامة المناطق التي تحالفت ضد الدعوة وقاتلت أبناءها، وقامت بتوحيد نجد تحت إمرتها، وكان لعبد العزيز بن محمد بن سعود ثم لسعود بن عبد العزيز أعظم الأثر في توطيد أركان الدولة الجديدة، وأرسلت الدولة طلاب العلم والخطباء والوعاظ إلى عامة الأنحاء والمناطق والمساجد النجدية يدرسون الناس الأصول الثلاثة وكتاب التوحيد، فتغير الواقع النجدي رأسا على العقب على المستوى السياسي والديني جميعا، فعلى المستوى السياسي شهدت نجد لأول مرة في تاريخها من زمن الدولة العباسية سلطة

---

[1] (2/ 764).

مركزية تحكمها توحدت نجد كلها تحت قيادتها ، وعلى المستوى الديني انتشر أمر التوحيد بين الصغير والكبير وصارت نجد عاصمة التوحيد والموحدين، ومنارة منيرة في ظلمات الشرك التي تحيطها من كل جهة.

تقريرات علمية هامة تعين على فهم هذه المرحلة الخطيرة من قصة الدعوة في ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة ومنهجهم

نحتاج أن نتوقف هنا ونحن ونتكلم على هذه المرحلة المهمة من تاريخ الدعوة النجدية، مرحلة الدفاع والمواجهة والقتال، ثم ما تلا ذلك من إخضاع نجد، وتوحيدها تحت قيادة واحدة، وعلى منهج عقدي واحد، نحتاج أن نتوقف لتحرير بعض القضايا العلمية الهامة، وعامتها يتعلق بمنهج أهل السنة والجماعة ونظرتهم لإقامة الدول ونُظُم الحكم والتعامل معها، فقد لاحظت أن عدم تصور هذه القضايا تصورا صحيحا كان ولا يزال وسيبقى من أهم أسباب الخلط في الكلام على الدعوة النجدية وقرارها الشهير بمواجهة أعدائها ثم توحيد نجد.

وضبط تصوّر هذه القضايا أرجو أن يكون فاتحة خيرٍ لمن أراد أن يفهم حقيقة تلك المرحلة الخطيرة في حياة الدعوة، ومن ثَم يحكم عليها بإنصاف وتجرُّد.

وسألخص هذه القضايا في مقدمات تكون مدخلا مهما لفهم هذه المرحلة:

المقدمة الأولى:

منذ أن انفرط عقد الخلافة الراشدة وانحرفت سفينة الحكم شيئًا فشيئًا في الديار الإسلامية، وجد المسلمون أنفسهم أمام واقع سلطوي جديد، جديد في كل شيء، في طريقة الاستيلاء على الحكم الذي آل إلى التغلب والقهر، وفي طريقة قمع المخالف والمعارض، وفي طريقة توارث السلطة..إلخ

تمخضت تلك التحولات الجديدة وما نتج عنها من واقع دموي عن أدبيات مختلفة للاتجاهات الإسلامية في التعامل مع الواقع الجديد.

وكان اختيار أهل السنة والجماعة واقعًا على النهي عن الخروج المسلح على تلك الحكومات **ما استقر لها الأمر وصحّ لها التغلب واشتد نفوذها على الأرض**، والصبر على جور الجائر منها، وعدم شقّ الصف المجتمعي باعتزال مصالح المسلمين ومساجدهم وحياتهم في ظل هذه الحكومات، بل الطاعة في المعروف من ذلك كله، وما كان يعود بالمصلحة لأهل الإسلام عامة من شرائع الإسلام كالجهاد في سبيل الله فهم ماضون فيه تحت راية الحاكم برّا كان أم فاجرًا، والانشغال بإصلاح المجتمع وتعليمه ودعوته، والسعي في إصلاح الوضع السياسي عن طريق المناصحة المتعقلة للحكام ووكلائهم حينًا وإلا فاعتزال السلطان وقصوره وحواشيه بل ورفض تقلّد مناصب في الدولة ليعلم هو وتعلم العامة أنه لا تلازم بين أدبيات السمع والطاعة وإقرار المنكر الموجود.

وقد سلك السلف المسلكين بناء على اختلاف الأوضاع السياسية.

وليس الصبر في هذا السياق رضًا بالواقع بل هو تجنب لواقع أسوأ ومنكر أعظم..

في جملة من التقريرات التي تدل على فقه عميق للشرع والسياسة ونُظُم الحكم عند أهل السنة والجماعة ليس هنا مجال التوسع في شرحها.

الذي يهمنا هنا أن نركز على أن هذه الأدبيات كلها لأهل السنة تتحدث عن منهجية تعامل الرعية مع السلطة المركزية الجائرة التي تحكمها.

ونقصد بالسلطة المركزية: السلطة الحاكمة التي تبسط نفوذها العسكري وبالتالي السياسي و الاقتصادي[1] على مكان ما، في زمان ما، فتكون هي مركز الحكم وثقله في ذلك المكان، تضرب بجذورها فيه، فالخروج المسلح في البلاد المسلمة ومع وجود مجتمع مسلم في هذه الصورة يُنتج منكرا أعظم من المنكر القائم في الأغلب الأعم...وفي هذا السياق تأتي تقريرات أهل السنة المتقدمة.

وهي تقريرات مستمرة إلى يومنا هذا لا تنقطع ولا تتوقف، حيث يرى العلماء المنتسبون لأهل السنة في زماننا حرمة الخروج المسلح على السلطات المركزية التي تحكم دول المسلمين اليوم من الشرق إلى الغرب، ما دامت قد تغلبت وقهرت المناطق التي تحكمها واشتدت سلطتها فيها وخضعت لها مراكز القوى (كالجيوش اليوم) وخضع لها الناس طوعا أوكرها، فيقررون حرمة الخروج المسلح عليها وحرمة تكوين كيانات مسلحة داخل حدود الدولة المركزية، لما ينتجه ذلك من فتن ودماء وانتهاكات تفوق كل ما هو موجود من مفاسد بأضعاف، ويرون وجوب الصبر

---

[1] هذا هو الأغلب في التاريخ الإسلامي، بله تاريخ العالم، أن تبدأ الدول نفوذها بتغلب عسكري على بعض الجهات ، ثم يترتب عليه إدارة سياسية واقتصادية لتلك الجهات، وفي بعض الصور القليلة يتم التوافق على سلطة سياسية معينة ثم تعطى الصلاحيات الاقتصادية والعسكرية.

على جور الجائرين، والسمع والطاعة في المعروف من أمور الدين والدنيا، وإنكار المنكر بحكمة، إلخ تلك التقريرات.

بل ترى بعض هذه الاتجاهات أيضا كالاتجاه الديني الرسمي في السعودية **الذي يمثل الوارث العلمي والعقدي للدعوة النجدية** إلحاق الخروج السلمي بالخروج المسلح على السلطة القائمة، وهو ما يعرف بالمظاهرات السلمية، فيرون أنه يؤدي إلى فتن كالفتن التي تنتج عن الخروج المسلح سواء بسواء، وفتاوى الجهات الدينية الرسمية في السعودية في حكم المظاهرات السلمية التي خرجت في بعض الدول المسلمة في السنوات الأخيرة وتوصيفها بالفتنة وتحريمها ونهي الناس عن المشاركة فيها مشهورة متداولة.

المقدمة الثانية:

نجد وتاريخ بلا تاريخ:

ننتقل الآن إلى واقع الديار النجدية ونظم الحكم فيها في ظل الظروف الزمانية والمكانية التي نتحدث عنها.

يظن كثير من الناس أن حالة تلك الصحراء المترامية الأطراف في وسط الجزيرة المعروفة بنجد في القرن الثاني عشر الهجري هي هي حالة الدول القائمة اليوم، فيتصورون وجود سلطة سياسية مركزية تحكم نجدا، تدير الموارد الاقتصادية للدولة، وتسيطر على الدولة بثقلها العسكري و أجهزتها السيادية من جيش وشرطة، وربما جنح الخيال العلمي ببعضهم فتصور لنجد في ذلك الزمان وزارات وسفراء وشوارع وإشارات مرور ربما!

وقد يسترسل البعض في خياله – وهذا موجود في أطروحات كثير ممن يسمون بالمثقفين!– فيتصور ويصور قصة الدعوة على أن محمد بن عبد الوهاب هذا كان في مثل هذه البيئة يقرأ في كتب ابن تيمية، فاقتنع بتقريراته، ثم تقلَّد سيفه وخرج من بيته فَمَن وافقه على رأيه انضم له، ومن خالفه كفّره وقتَلَه!

وهذه القصة أقرب إلى القصص الخيالية للأطفال كقصة آليس في بلاد العجائب، وسنووايت والأقزام السبعة، وشخصياتها أقرب لشخصيات الخرافات الشعبية كشخصية أُمَّنَا الغولة أو أبو رجل مسلوخة!

عودة للواقع:

ونحتاج هنا بعد هذه الرحلة الخيالية أن نعود إلى الواقع ونتصور حقيقته في نجد في زمن الشيخ رحمه الله، للجواب عن سؤالين رئيسين:

هل كانت هناك سلطة مركزية في نجد في القرن الثاني عشر الهجري؟ وإن لم يكن فكيف كانت تُحكَم نجد؟

وما هي صورة المجتمع النجدي في ذلك القرن من جهة التعايش المجتمعي؟

فنقول:

هناك إجماع بين المؤرخين المعتبرين للديار النجدية على غياب السلطة المركزية (العامة) عنها منذ العصر العباسي الأول إلى العصر الذي ظهر فيه الشيخ محمد بن عبد الوهاب[1]، وأنها كانت طوال هذه القرون تُحكم بطريقة الأسر وشيوخ القبائل[1]،

---

[1] يعلل المؤرخون هذا الإهمال لوسط الجزيرة عبر التاريخ بتعليلات كثيرة من أهمها عامل البيئة الصحراوية التي لا تقدم ولا تؤخر لهم شيئا، والبنية المجتمعية القائمة على العصبيات القبلية والأسرية التي استعصت على الذوبان في العصبيات الأخرى التي صارت عماد الدول الإسلامية ، حيث آل مفهوم الدولة من أثناء زمن الأمويين إلى عصبيات الأعراق والأنساب لا إلى

فكل أسرة تحكم منطقة ما، وتحكم أسرة أخرى أو قبيلة أخرى المنطقة المجاورة، وهكذا، فتمثل كل أسرة أو قبيلة السلطة المركزية بصورتها البدائية في منطقتها.

هذا من جهة طريقة الحكم، أما من جهة التعايش المجتمعي بين هذه القبائل والأسر: فقد اتفق المؤرخون أيضا على أنها طوال تاريخها أسر وقبائل متحاربة متناحرة لأتفه الأسباب، يتسع نفوذ إحداها تارة ويضيق تارة أخرى.

"وبسبب ضعف الموارد الطبيعية في نجد وشدة حاجة السكان لها كانت الحروب والنزاعات لا تنقطع بين أهل البلدان النجدية للسيطرة على تلك الموارد، وكانت تلك الحروب والنزاعات تثور بين أهل البلد الواحدة، كما كانت تثور بين البلدان المتجاورة، وقد حفلت التواريخ النجدية التي سجلت بعض حوادث الفترة الواقعة بين القرنين التاسع والثاني عشر الهجريين مثل تواريخ: المنقور، وابن ربيعة، وابن عباد، وابن يوسف، والفاخري، وسوابق ابن بشر، وابن عيسى، والبسام في تحفة المشتاق، بالكثير من تلك الحروب والنزاعات."[2]

بل كانت مادة الصراع والقتال الدائر بين الأسر والقبائل هي المادة الأغلب على جملة من تواريخ نجد أو بعض مناطقها، فالمتصفح لتاريخ ابن يوسف مثلا يجد

آصرة الدين والعقيدة، وأيضا الطبيعة غير المستقرة لهذه البيئة، وغير هذه من عوامل دفعت الدول الإسلامية المتعاقبة على إهمالها وإيكالها إلى نفسها.

[1] كقبائل بني عامر وفروعها في وسط الجزيرة، وبني عصفور شيوخ بني عامر، ثم أسرة بني جبر في الشرق واليمامة، ثم فروع بني لام الطائيين في اليمامة، وقبائل الدواسر وقحطان في جنوب عالية نجد، وقبائل الظفير وعنزة ومطير من شرق الحجاز إلى وسط نجد. (راجع مقدمة الأستاذ عويضة الجهني على تاريخ ابن يوسف ص 13)

[2] مقدمة تحقيق تاريخ ابن يوسف ص18-19.

عامة أحداثه تؤرخ لقتال أو صراع أو هوشة أو نزاع بين القبيلة الواحدة أو بينها وبين قبائل أخرى.

فليست هذه الأسر والقبائل إذن منضوية تحت لواء سلطة مركزية كبرى تشملها[1]، بل كل قبيلة وكل أسرة حاكمة هي في نفسها دولة بصورتها البدائية.

ثم هذه القبائل أو الدول البدائية تتقاتل وتتناحر أبدا لأتفه الأسباب.

ولعل هذين العاملين – غياب السلطة المركزية والواقع الدموي – من أهم عوامل نسيان تاريخ نجد! فقد كانت نجد بلا تاريخ، أو كان التاريخ بلا نجد[2]!

المقدمة الثالثة:

لا تُستثنى الدولة العثمانية مما تقدم شرحه من انعدام السلطة المركزية الجامعة في نجد لقرون خلت ، وقد كانت الدولة العثمانية تحكم أجزاء من العالم الإسلامي في زمن الشيخ رحمه الله، إلا أن المراجع التاريخية والخرائط الموثوقة بما فيها الخرائط العثمانية التركية والتي توثق أقصى توسع بلغته الدولة العثمانية في تاريخها والمراجع الموثوقة في ذكر الولايات التي اندرجت تحت حكم الدولة العثمانية لا تتضمن الجزء الأكبر من الجزيرة العربية بما في ذلك منطقة نجد بل أجزاء كبيرة من الرقعة

---

[1] حاول آل حميد شيوخ بني خالد المسيطرين على الأحساء المنتزعين حكمها من العثمانيين شرق الجزيرة فرض نفوذهم في نجد وفشلوا، كما حاول أشراف الحجاز ولكنهم انشغلوا بالصراع الداخلي بينهم لاسيما في مطلع القرن الثاني عشرففشلوا، فلم ينتج عن هذه الحملات أي تغيير سياسي أو إداري في نجد، فلم يستطيعوا إقامة نواب لهم أو إدارات محلية تمثلهم، بل أقصى ما توصلوا إليه هو فرض الإتاوات على النجديين.(راجع مقدمة "معارك الملك عبدالعزيز" لعبد الله العثيمين ص12، 13)، و(راجع في دموية الصراع على الحكم بين الأشراف طوال تاريخهم تاريخ مكة للسباعي ط. ثانية، ج2ص61).

[2] راجع دراسة د. عبد الله بن يوسف الشبل لمخطوطة تاريخ الفاخري الأخبار النجدية ص19-22، بواسطة مقدمة تاريخ ابن يوسف.

العربية والإسلامية اليوم لم تكن للدولة العثمانية سلطة عليها[1]، بل كانت تتقاسمها دول مختلفة.

هذا في أوج قوتها فكيف بالقرن الثاني عشر الهجري الذي شهد تآكلاً وضعفا واضمحلالا للدولة العثمانية وتراجعا لحدودها، استمرارا للضعف الذي طرأ عليها في القرن الحادي عشر الذي تراجعت فيه الدولة بصورة عامة وبصورة أخص في شرق الجزيرة العربية فانسحبت منها لحساب زعيم بني خالد، كما انسحبت من جنوب الجزيرة في اليمن.

بل نظرة عقلية متأنية في الوضع الذي كانت عليه نجد مما قدمنا شرحه من واقع دموي كفيلة بإثبات انعدام السلطة المركزية فيها لأية دولة[2].

فأي سلطة وأي دولة هذه التي تركت رعاياها في نجد يقاتل بعضهم بعضا وينهب بعضهم بعضا، وأين كانت هذه السلطة من الدماء التي سالت في مثل هذه الحروب، أين كانت من الموارد التي تتقاتل عليها الأسر والقبائل النجدية، لماذا لم تسيطر على تلك الموارد وتقوم بتقسيمها قسمة عادلة تجنب أهل النجد التقاتل والتطاحن، أين معالم الدولة في نجد، أين كانت الوحدة السياسية، وأين كانت الإدارة الاقتصادية، وأين هو الوجود الأمني العسكري!

ولنفهم الطريقة التي كانت تتوسع بها الدول التي قامت في تاريخ الإسلام وكيف كانت تثبت لها السلطة في منطقة ما باختصار، ينبغي علينا أن نعود إلى زمن الخلافة الراشدة، التي انضوى تحتها كل أهل الإسلام بطريقة الاختيار، حيث أجمع

---

[1] تراجع الخرائط في الفصل التالي.

[2] يراجع أيضا تاريخ المملكة العربية السعودية لعبد الله العثيمين 1/ 37 ، 40 وما بعدها مكتبة العبيكان ط.13)

المسلمون على أفضلية الخلفاء الراشدين وأحقيتهم بالخلافة، وقامت دولتهم على ركني إقامة الدين وسياسة الدنيا بالدين ، وهذه الصورة تمثل الأصل في التصور الشرعي لقيام الدولة المسلمة من جهة توحدها تحت راية واحدة، شريطة أن تكون هذه الراية هي راية إقامة الدين الحق وسياسة الدنيا بالدين والعدل.

ثم حدثت فرقة بين الإخوة الباحثين عن الحق في أواخر زمن الخلفاء، ليجتمع أهل الإسلام بعد ذلك مرة أخرى على الصحابي الجليل معاوية بن أبي سفيان أعظم ملوك الإسلام، فيعيد للدين مجده وللدولة المسلمة عزها وتنشط عجلة الفتوحات ويؤسس لأوسع خلافة إسلامية عرفها التاريخ، بل وإحدى أوسع الامبراطوريات في التاريخ.

ثم تطرؤ تغيرات هامة على نظم الحكم فيتولى بعض من لا يرتضي الناس دينه، ويدب خلل كبير في جسد الدولة المسلمة لم يكن معهودا في زمن الخلافة الراشدة، ومع هذا تبقى الدولة جامعة لأهل الإسلام قائمة بشرائعه الكبرى مجاهدة للكفر وأهله، حاضنة للعلم ومعاقله، ويبقى أهل العلم على منهجهم الثابت بالسمع والطاعة في المعروف والصبر على هذا الطاريء الجديد في أنظمة الحكم وعلى جور الجائرين للحفاظ على المصلحة الأكبر من اجتماع أهل الإسلام وحقن دمائهم.

ثم تضعف قبضة الأمويين وتتآكل قوتهم في المشرق والمغرب لتسقط الخلافة الأموية على أيدي العباسيين وغيرهم ، فيرث العباسيون الخلافة في الشرق بالقهر والغلبة، ولا يستطيعون إخضاع إفريقية والمغرب إخضاعا حقيقيا وكان قد بدأ خروج

إفريقية والمغرب عن السيطرة الحقيقية من أواخر زمن الأمويين، وينجو بعض الأمويين من بطش العباسيين فينتقل إلى الأندلس التي تتمتع بالحكم الأموي الذاتي، فيحكم العالم الإسلامي دولتان إحداهما في المشرق والأخرى في أقصى المغرب، وتبقى مناطق خارج نطاق هؤلاء وهؤلاء.

فيقرر أهل العلم صحة خلافة العباسيين في الشرق وصحة خلافة الأمويين في الغرب وأن لكل منهم حكم الوالي في جهته.

ويطرؤ الضعف السياسي والعسكري على الدولة العباسية فتتآكل أطرافها تلقائيا في القرن الثالث وأواخر الثاني لعجزها عن فرض سلطتها على تلك المناطق، لاسيما في جهة المغرب، فتستقل تلك المناطق بحكم نفسها وتقوم الدول إثر الدول في غرب الدولة العباسية كدولة الأدارسة والأغالبة وبني رستم، وفي شرقها كدولة بني طاهر والصفاريين، وقد تبدي بعض هذه الدول الجديدة الاحترام والتقدير للخليفة العباسي عن طريق الدعاء إبقاءً لذكرى ورمزية الخلافة العباسية.

ثم تنحسر الخلافة العباسية في حدود العراق في القرن الرابع، وتتقاسم دول مختلفة العالم الإسلامي كالأدارسة والفاطميين في ليبيا والغرب، والإخشيديين في مصر، ثم ينتزعها الفاطميون، والقرامطة في الجزيرة، والسامانيون في منطقة أفغانستان اليوم، وغيرهم.

إلى أن تسقط الخلافة العباسية في عقر دارها **فيتقاسم العالم الإسلامي مجموعة كبيرة من الدول** منها ما تقدم ذكره وتظهر دول جديدة في الساحة الإسلامية كدول الغزنويين والسلاجقة في الشرق والصنهاجيين والمرابطين والموحدين في الغرب.

ويستمر الأمر في القرن السادس فتظهر دول جديدة من أشهرها دولة الأيوبيين في أجزاء من مصر والشام، ثم يخلفهم المماليك في تلك المنطقة.

وهكذا استمر العالم الإسلامي في فرقة من قرون، ولم يعرف الانضواء تحت سلطة واحدة من وقت مبكر من تاريخه، **بخلاف ما قد يكون تربى عليه كثير من الناشئة من كون المسلمين كانوا متحدين إلى زمن سقوط الخلافة في أوائل القرن العشرين، فهذا طرح عاطفي لا علاقة له بالواقع التاريخي.**

بعض هذه الدول اشتهر بإقامة الدين والعدل وبعضها عرف بالجور والظلم وعرف بعضها بالزندقة!

أهل العلم لواقعيتهم تعاملوا مع هذا الواقع الجديد لتاريخ وجغرافية العالم الإسلامي بواقعية، فقرروا لكل دولة من هذه الدول حكم الدولة المسلمة المستقلة ولكل حاكم تغلب على منطقة ما واشتدت سلطته فيها حكم الوالي في تلك الجهة.

وفي تقرير هذه القضية المهمة، يقول علامة ديارنا الإمام الشوكاني رحمه الله:

((أما بعد انتشار الإسلام واتساع رقعته وتباعد أطرافه فمعلوم أنه قد صار في كل قطر أو أقطار الولاية إلى إمام أو سلطان وفي القطر الآخر أو الأقطار كذلك، **ولا ينفذ لبعضهم أمر ولا نهي في قطر الآخر وأقطاره التي رجعت إلى ولايته**، فلا بأس بتعدد الأئمة والسلاطين، ويجب الطاعة لكل واحد منهم بعد البيعة له على أهل القطر الذي ينفذ فيه أوامره ونواهيه، وكذلك صاحب القطر الآخر، فإذا قام من ينازعه في القطر الذي قد ثبتت فيه ولايته وبايعه أهله كان الحكم فيه أن يقتل إذا لم يتب، **ولا تجب على أهل القطر الآخر طاعته ولا الدخول تحت ولايته**..)) إلى أن قال:

((فاعرف هذا فإنه المناسب للقواعد الشرعية والمطابق لما تدل عليه الأدلة ودع عنك ما يقال في مخالفته، **فإن الفرق بين ما كانت عليه الولاية الإسلامية في أول الإسلام وما هي عليه الآن أوضح من شمس النهار، ومن أنكر هذا فهو مباهت لا يستحق أن يخاطب بالحجة لأنه لا يعقلها**))[1].

وقال علامة ديارنا أيضا الإمام الصنعاني:

في شرح حديث أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عَنْ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ – قَالَ: «مَنْ خَرَجَ عَنْ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ وَمَاتَ فَمِيتَتُهُ مِيتَةٌ بِكَسْرِ الْمِيمِ مَصْدَرٌ نَوْعِيٌّ جَاهِلِيَّةٌ» قال الصنعاني: ((قَوْلُهُ عَنْ الطَّاعَةِ أَيْ طَاعَةِ الْخَلِيفَةِ الَّذِي وَقَعَ الِاجْتِمَاعُ عَلَيْهِ، وَكَأَنَّ الْمُرَادَ خَلِيفَةُ أَيِّ قُطْرٍ مِنْ الْأَقْطَارِ، **إذْ لَمْ يُجْمِعْ النَّاسُ عَلَى خَلِيفَةٍ فِي جَمِيعِ الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنْ أَثْنَاءِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ، بَلْ اسْتَقَلَّ أَهْلُ كُلِّ إقْلِيمٍ بِقَائِمٍ بِأُمُورِهِمْ**، إذْ لَوْ حُمِلَ الْحَدِيثُ عَلَى خَلِيفَةٍ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْإِسْلَامِ لَقَلَّتْ فَائِدَتُهُ))[2].

وقال الجويني في غياث الأمم[3]:

(([إن] خَلَا الدَّهْرُ عَنْ إِمَامٍ[4] فِي زَمَنِ فَتْرَةٍ، وَانْفَصَلَ شَطْرٌ مِنَ الْخِطَّةِ عَنْ شَطْرٍ، وَعَزَّ نَصْبُ إِمَامٍ وَاحِدٍ، يَشْمَلُ رَأْيُهُ الْبِلَادَ وَالْعِبَادَ، فَنُصِبَ أَمِيرٌ فِي أَحَدِ الشَّطْرَيْنِ لِلضَّرُورَةِ

---

[1] السيل الجرار ص 941 دار ابن حزم، وانظر مثله في الروضة الندية 2/ 362 دار المعرفة.

[2] سبل السلام 3/ 499 ط.الجامعة الإسلامية.

[3] ص177، ط.مكتبة إمام الحرمين.

[4] أي عن إمام لجميع المسلمين.

فِي هَذِهِ الصُّورَةِ، وَنُصِبَ أَمِيرٌ فِي الْقُطْرِ الْآخَرِ مَنْصُوبٌ، وَلَمْ يَقَعِ الْعَقْدُ الْوَاحِدُ عَلَى حُكْمِ الْعُمُومِ، إِذَا كَانَ يَتَأَتَّى ذَلِكَ، فَالْحَقُّ الْمُتَّبَعُ فِي ذَلِكَ أَنَّ وَاحِدًا مِنْهُمَا لَيْسَ إِمَامًا[1]، إِذِ الْإِمَامُ هُوَ الْوَاحِدُ الَّذِي بِهِ ارْتِبَاطُ الْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ)).

وقال ابن الأزرق المالكي:

((إن شرط وحدة الإمام بحيث لا يكون هناك غيره لا يلزم مع تعذر الإمكان.قال ابن عرفة فيما حكاه الأُبّي عنه: فلو بعُد موضع الإمام حتى لا ينفذ حكمه في بعض الأقطار البعيدة جاز نصب غيره في ذلك القطر.وللشيخ علم الدين من علماء العصر بالديار المصرية : يجوز ذلك للضرورة))[2].

وقال ابن كثير:

((وحكى إمام الحرمين عن الأستاذ أبي إسحاق أنه جوَّز نصب إمامين فأكثر إذا تباعدت الأقطار، واتسعت الأقاليم بينهما، وتردد إمام الحرمين في ذلك.

وهذا يشبه حال الخلفاء من بني العباس بالعراق والفاطميين بمصر والأمويين بالمغرب))[3].

وقال المازري في المعلم:

((أشار بعض المتأخرين من أهل الأصول إلى أن ديار المسلمين إذا اتسعت وتباعدت وكان بعض الأطراف لا يصل إليه خبر الإمام ولا تدبيره حتى يضطروا إلى إقامة إمام يدبرهم فإن ذلك يسوغ لهم))[1].

---

[1] أي أن كلا منهما لا يكون إماما عاما للمسلمين، بل يكون كل منهما أميرا مسموعا في منطقته هو.

[2] بدائع السلك في طبائع الملك 1/ 76-77 ط.العراق.

[3] تفسير ابن كثير 1/ 222 ط. دار طيبة.

وأثنى أهل العلم على الدول التي قامت على الدين والعدل، وحرصوا على بقائها ونصرتها ، وأمروا بالصبر على الدول المسلمة الجائرة وعدم نزع اليد من طاعة، وسعوا في إزالة دول الزنادقة والكفر كدولة القرامطة و العبيديين.

ولا يعني هذا التعاطي مع الواقع غياب حلم توحد المسلمين تحت راية إسلامية واحدة، شريطة أن يكون هذا التوحد على إقامة الدين وسياسة الدنيا به، لا على هدم الدين أو البغي في الدنيا، ولهذا استمر العلماء في مشروعهم الديني الإصلاحي.

في هذه المرحلة التي تقاسم العالم الإسلامي فيها عدد كبير من الدول، كانت الطريقة الأغلب التي توسِّع بها الدول المسلمة حدودها وسلطتها هي طريقة الغزو العسكري لدولة مجاورة وبسط نفوذها عليها بالقوة، **وتنتهي حدودها حيث انتهى تثبيت سلطتها.**

الذي يهمنا هنا أن سلطنة المماليك الإسلامية التي كان لها مواقف كبيرة في أول أمرها في نصرة الإسلام وأهله لاسيما في قتال التتار والصليبيين، كانت تحكم مناطق واسعة من الشام ومصر و الحجاز في قلب العالم الإسلامي، خلفا للأيوبيين، أما ما وراء ذلك وهو أكثر مساحة العالم الإسلامي فلم يكن تحت حكمهم وسلطتهم، في نفس هذا الوقت كان للمغول حروب في مناطق كبيرة في غرب آسيا، فانسحبت مجموعة من قبائل بلاد التركستان أمامهم في أواخر القرن السابع ، من جملتها قبيلة قايي، بقيادة سليمان شاه، إلى الحدود الشرقية لآسيا الصغري، وتكاثر أبناء

---

[1] المعلم بفوائد مسلم 3/ 35-36

قبيلته في تلك المنطقة ولما مات خلفه ابنه أورخان، وهو أبو الأتراك العثمانيين، فهو أخو أرطغرل وابن الأخير اسمه عثمان.

وكان عثمان فارسا باسلا يجاهد البيزنطيين في حدود آسيا الصغرى، ونشطت حركة الجهاد في زمانه نشاطا كبيرا، وقام بتوحيد الإمارات التركية في آسيا الصغرى تحت إمرته، ليقيم دولته هناك.

بعد ذلك إلى جانب جهاد البيزنطيين أراد العثمانيون التوسع داخل العالم الإسلامي نفسه، وكانت أهم السلطنات الإسلامية القائمة في ذلك الوقت هي سلطنة المماليك كما تقدم، وكانت تسعى في تثبيت أقدامها في منطقة الثغور الشامية، ولاشك أن العثمانيين الأتراك عندما قرروا التوسع داخل العمق الإسلامي كانت سلطنة المماليك الإسلامية هي العائق الأكبر أمامهم، فحاربت الدولةُ العثمانية دولةَ المماليك عدة حروب لمحاولة التقدم في حدود الثانية، بين سنتي 1485م و1491م، ولكنها لم تستطع في هذه الفترة التقدم في مناطق المماليك.

في عهد سليم الأول، استطاع العثمانيون الاستيلاء على منطقة حدودية مهمة في سفوح جبال طوروس.

اتجه سلطان المماليك قنصوه الغوري بقواته إلى الشام في صيف 1516هـ، واستطاع العثمانيون اجتياح مناطق المماليك وانتصروا عليهم انتصارا حاسمة في معركة مرج دابق الشهيرة سنة 1516هـ، وقتل هناك سلطانهم، لينسحب

المماليك بعدها إلى غزة، لينهزموا فيها مرة ثانية وتتراجع حدود دولتهم على حساب العثمانيين مرة أخرى، فانسحبوا إلى القاهرة لينهزموا للمرة الثالثة في الريدانية (منطقة العباسية اليوم) ليدخل الأتراك القاهرة ويقبضوا على سلطان المماليك طومان باي، ويعدموه على باب زويلة!

بإسقاط سلطنة المماليك انتقل ما كان تحت سلطتهم من الشام ومصر تلقائيا إلى سلطة العثمانيين وانتقل ولاء الحرمين تلقائيا إلى الدولة العثمانية بعد أن كان للمماليك.

وبهذا ثبتت الدولة العثمانية سلطتها على آسيا الصغرى وأجزاء من شرق أوروبا حاليا بالإضافة إلى العراق وأجزاء واسعة من الشام ومصروجزء من اليمن مع ولاء الحجاز لها، كما أمنت ساحل البحر المتوسط إلى ما قبل المغرب اليوم.

أما ما وراء ذلك من جهة الغرب الإسلامي والشرق الإسلامي ومن جهة العمق الإسلامي في الجزيرة العربية ومنها منطقة نجد وعمان وأكثر اليمن اليوم والعمق الإسلامي في إفريقيا -وهذه المناطق والدول الإسلامية كان حجمها الجغرافي أوسع بكثير من حدود الدولة العثمانية في أقصى توسع لها- فهذا كله لم يكن للماليك سلطة عليه ولا للعثمانيين بعد إسقاطهم.

وسيأتي توضيح حدود الدولة العثمانية وتآكلها وتوثيق ذلك من الخرائط العثمانية التركية نفسها في فصل مستقل بالخرائط.

الإيالات العثمانية:

قسمت الدولة العثمانية الأراضي التي مدّت سلطتها عليها إلى إيالات وهي كلمة فارسية الأصل، وكان الخطاب الرسمي العثماني يسميها بالتركية العثمانية: (إيالات ممالك محروسه)، ثم استبدل نظام الإيالات بنظام الولايات.

وبمراجعة المصادر الموثوقة التي سمَّت ووصفت الإيالات العثمانية فإننا لا نجد فيها ذكرا لمنطقة العارض التي شهدت نواة الدولة والدعوة، ولا لمنطقة نجد، بل لا يذكر في هذه المراجع من مناطق الجزيرة العربية إلا (حجاز شريف إيالتي: إيالة الحجاز الشريف)، و (يمن إيالتي: إيالة اليمن) وتشتمل على جزء من المناطق الشمالية والساحل الغربي باليمن، و(احسا إيالتي: إيالة الإحساء)[1].

هذا في أوج قوة الدولة العثمانية في مرحلتها الأولى، أما في مرحلة الضعف فلم يعد لها سلطة حقيقية حسب المؤرخين على كثير من ذلك أيضا كالمناطق التي كانت تحكمها غرب مصر كليبيا وما يليها، حيث كانت تتمتع تلك المناطق بسيادة ذاتية مستقلة ، كما يرى بعض المؤرخين أن الحجاز أيضا لم يكن للعثمانيين سلطة حقيقية عليه بل ولاء صوري وإجراءات رسمية في ترتيب الحج، وفرض الضرائب، ومنطقة شرق الجزيرة أيضا (الأحساء) استطاع العثمانيون إخضاعها بالقوة لمدة قصيرة ثم أُجلوا عنها.

---

[1] راجع: the three eras of ottoman history, a political essay on the late reforms of turkey.
وفيه سرد للإيالات العثمانية من (ص73- 77).
Encyclopedia of ottoman empire.
ويستطيع الباحث أن يبحث فيه عن الإيالات من خلال الترتيب المعجمي.
وللتوسع حول إيالة الإحسا كونها أقرب الإيالات لنجد راجع: the ottoman province of al hasa in the sixteenth and seventeenth century.

فقد استمرت الدولة العثمانية في مرحلة القوة إلى نهاية حكم سليمان القانوني 974هـ-1566م تقريبا، ليبدأ الضعف يدب في أركانها.

وكان لمجموعة من المعاهدات التي أقامها العثمانيون في القرن الحادي عشر أثر سلبي على دولتهم لتبدأ تدفع ثمنها بشدة منذ مطلع القرن الثاني عشر، وفي مطلع القرن الثالث عشر كانت الدولة العثمانية قد تآكلت من الداخل ووقعت في تلك الفترة صلح كتشك كينارجي، ويرى المؤرخون أنه أسوأ صلح في تاريخهم، وكان هو المؤشر الواضح للسقوط التام.

(وهكذا انهار المارد التركي دفعة واحدة ولكن الحقيقة أنه كان يتدهور من زمن طويل، لأن الإدارة العثمانية في بلاد الدولة وولاياتها كانت مضطربة وفاسدة وكان الموظفون يفقدون شيئا فشيئا شعور الاحترام لسمعة الدولة أو حقوق الناس، وكان الجيش العثماني قد تضخم إلى درجة تجاوزت الحد، كما أن نوعية الجندي العثماني كانت تدهور يوما بعد يوم حتى أصبح الجنود أنفسهم من أكبر مشاكل الدولة ، وكان الحكام الإقطاعيون في كل ناحية من نواحي الدولة تقريبا قد استولوا على السلطة في مقابل أداء مال معين، وفي الجزائر وطرابلس كان الولاة المحليون مستقلون تقريبا، وفي مصر عاد المماليك فقبضوا على السلطة، وفي خلال القلانين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين عندما كانت الصناعة الأوروبية في سبيل النهوض تدهورت التجارة والصناعة،

وتوقفت في بلاد الدولة العثمانية عند أشكالها وأحوالها في العصور الوسطى)[1].

تآكل حدود الدولة العثمانية قبل زمن الأحداث النجدية[2] :

بعد وفاة سليمان القانوني 1566م كما قدمنا دخلت الدولة العثمانية مرحلة الضعف ولكنها بقيت متماسكة إلى آخر القرن السادس عشر وشيء من السابع عشر أما القرن الثامن عشر، وهو القرن الذي شهد حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الدعوية وشهد أحداث القتال بدءا من منتصفه تقريبا، فقد بدأ فيه الاضمحلال الحقيقي للدولة العثمانية.

تونس:

فالمناطق الشمالية من تونس اليوم التي كانت تحت الحكم العثماني غادرت العباءة العثمانية قبل أن يولد محمد بن عبد الوهاب، حيث شهدت تونس في نهايات القرن السادس عشر انقلابا عسكريا قام به الانكشاريون، أفضى في نهاية المطاف إلى انتهاء الحكم العثماني الفعلي وانفراد **الدايات**[3] بالسلطة فيها[4].

الجزائر:

---

[1] أطلس تاريخ العالم الإسلامي ص362.

[2] The rise and fall of ottoman empire by alan palmer.

[3] الداي هو القائد العسكري، وتعني بالتركية: الخال.

[4] خلاصة تاريخ تونس لعبد الوهاب الحسني ص160-161، العلاقات الجزائرية التونسية خلال عهد الدايات لكوثر العايب ص21-22، وراجع العثمانيون في المغارب من خلال الأرشيفات المحلية والمتوسطية لعبد الرحمن المؤذن وعبد الرحيم بنحادة.

أما إيالة الجزائر التابعة للدولة العثمانية فكانت هي أيضا قد خلعت عباءة الدولة العثمانية واستقلت تدريجيا عنها، وقد عاشت قبل ذلك في فوضى واضطرابات سياسية في عهد الباشوات الذين ولتهم الدولة العثمانية ، مما أدى إلى انفلات الأمر من أيديهم لصالح الإنكشارية، ثم شهدت البلاد مجموعة من الانتفاضات الشعبية، لتمر بعدة مراحل سياسية، ثم لينتهي الأمر في الأخير إلى استقلال الدايات بحكمها فعليا سنة 1671م[1]، وتعامل معها العالم على أنها دولة مستقلة[2].

ليبيا:

أما المناطق الشمالية من ليبيا اليوم التي كانت تحت الحكم العثماني فهي أيضا كانت قد خلعت عباءة الدولة العثمانية سنة 1711 م عبر حركة أحمد القره مانلي وكان ضابطا في الجيش العثماني حيث خلع الوالي العثماني وأقام **الدولة القره مانلية.**

المغرب:

أما منطقة المغرب وما يليها اليوم فلم تدخل تحت السلطة العثمانية أصلا.

---

[1] الجزائر خلال الحكم التركي لصالح عباد، ط. الثالثة ص207، الجزائر في عهد الأغوات ص53-54، عصر الدول والإمارات لشوقي ضيف ص47، فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة ص50-53، الجزائر منطلقات وآفاق ص170، تاريخ بايات وهران ص17، العلاقات الجزائرية التونسية خلال عهد الدايات لكوثر العايب ص9-12.

[2] قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصر والحديث لجمال قنان ص39.

العراق:

أما العراق فقد ضمته الدولة العثمانية لحدودها سنة 1534م بعد طرد الصفويين ثم ضعفت سلطة الدولة العثمانية فيه فاستعادها الصفويون 1623-1638م وتوالت الصراعات بين الطرفين في العراق إلى أن استطاع بعض ضباط المماليك حكمها ذاتيا 1747م وحصلوا على شبه استقلال سياسي عن الدولة العثمانية سنة 1751م[1]، واستطاعت الدولة العثمانية أن تعيد سلطتها عليه سنة 1831م، ويرى كثير من المؤرخين العراقيين تسمية هذه المرحلة بالتاريخ العثماني المظلم لكثرة ما شهدته من فساد واستبداد.

وقد دخلت **إمارة المنتفق** التي أسسها حسن بن مانع سنة 1530م و التي كانت تشمل معظم جنوب ووسط العراق اليوم صراعا طويلا مع الدولة العثمانية استمر أربعة قرون، وانتزعوا العديد من المدن التي كانت تحت سلطة العثمانيون كالبصرة في عهد الامير مانع بن شبيب 1694م والأمير مغامس بن مانع 1705هـ والأمير ثويني بن عبد الله 1787م، وبغداد في عهد الأمير حمود بن ثامر 1813م.

الشام:

أما الشام فقد شهدت عدة محاولات استقلالية عن الدولة العثمانية في القرن الثامن عشر إلى أن حكمها محمد علي وأخرجها من عباءة الدولة العثمانية.

---

[1] التوسع العثماني في العراق لعبد العظيم نصار، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق من بداية العهد العثماني إلى منتصف القرن التاسع عشر لعلي الوردي، العراق في الوثائق العثمانية لنهاد الموسى.

الحجاز:

أما الحجاز فمع استمرار الولاء الاسمي للدولة العثمانية إلا أن أشراف الحجاز بذلوا جهودا كبيرة لمحاولة كسب الحكم الذاتي للحجاز وتقليص سيادة الدولة العثمانية في القرن الثامن عشر، وكانوا ينجحون أحيانا ويفشلون أحيانا أخرى، وفي وقت متأخر عن هذه الأحداث سيستقل أشراف الحجاز نهائيا ويسعون لإسقاط الخلافة في دارها، بتحالف مباشر معلن مع الغرب، فيما سمي بالثورة العربية الكبرى في بدايات القرن العشرين.

اليمن:

أما المناطق التي أخضعتها الدولة العثمانية في اليمن في القرن السادس عشر فلم تشهد استقرارا قط ولم تشهد حكما هادئا مطمئنا من أول أمرها لكثرة قتال الأئمة الزيدية لها.

الأحساء:

أما الأحساء فكان بنو خالد قد طردوا الحاميات العثمانية منها سنة 1670م وبسط الخوالد نفوذهم عليها، وعانوا بعد ذلك من الاقتتال الداخلي.

الكويت:

أما الكويت فلم تدخل أصلا تحت الحكم العثماني في تاريخها مع محاذاتها للعراق، وكانت علاقتها بالعثمانيين تتراوح مع المصالح، هذا بشهادة العثمانيين أنفسهم،

جاء في مذكرات مدحت باشا وكان والي بغداد للعثمانيين قريبا من الحقبة التي نتحدث فيها

((تبعد الكويت عن البصرة 60 ميلا في البحر وهي كائنة على الساحل بالقرب من نجد وأهلها كلهم مسلمون..**وليست بتابعة لأية حكومة**.. ونسل هؤلاء العرب من الحجاز، وكانوا قبل 500 سنة قد حضروا إلى هذه البقعة وهم وجماعة من قبيلة مطير وواضع أول حجر لتلك البلدة رجل اسمه صباح وقد كثر عدد أهلها على تمادي الأيام وشيخها اليوم اسمه عبد الله بن صباح وهو من هذه القبيلة...**وحاكمهم وقاضيهم منهم فهم يعيشون شبه جمهورية** وموقعهم يساعدهم على الاحتفاظ بحالتهم الحاضرة..))[1].

مصر:

أما مصر فلم يستقر حكمها للعثمانيين في تلك الفترة بل اتسمت بالصراع الدائم مع بقايا المماليك، ولما تولى حكمها محمد علي كان هو الحاكم الفعلي وليس للعثمانيين إلا سيادة شكلية، وبعد الصدام الذي سيأتي شرحه بين محمد علي والنجديين انشق محمد علي عن الدولة العثمانية وحاربها وأجبرها 1831هـ على الاعتراف به واليا على الشام بعد غزوها، ثم استمر في قتال العثمانيين وهزمهم في معركة قونية ، ليبسط محمد علي دولته على أراضي مصر والشام

[1] مذكرات مدحت باشا ، الدار العربية للعلوم، (ص238).

والسودان وعسير والحجاز حتى جبال طوروس، واستمرت دولته 10 سنوات حتى انسحب بعد معاهدة لندن إلى حدود مصر مع ما معه من السودان[1].

ليزاحم المحتل الغربي أثناء هذه الأحداث وبعدها في أجزاء واسعة من المناطق التي كانت تحت ولاية العثمانيين.

سوريا والشام:

أما سوريا والشام فقد شهدت منذ القرن الثامن عشر عدة حركات لمحاولة الحكم الذاتي إلا أن قبضة الدولة العثمانية كانت هي الغالبة فتأخر استقلالها إلى أن انتزعها محمد علي بعد ذلك.

خلاصة ما تقدم:

خلاصة ما تقدم أن الدولة العثمانية لم يكن لها أية سلطة مطلقا على منطقة نجد، وأنه في زمن الحركة النجدية لم يكن لها سلطة حقيقية على عامة مناطق العالم الإسلامي.

أسباب هذا التآكل:

أرجع المؤرخون -من خلال المراجع المذكورة- أسباب تآكل حدود الدولة العثمانية إلى أسباب كثيرة لعلها تعود إلى ثلاثة أسباب رئيسة:

---

[1] للتوسع في انقلاب محمد علي على الدولة العثمانية وضمه للسودان والشام يراجع: تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة لطقوش خاصة ص350 وما بعدها، تاريخ الدولة العثمانية العلية للمحامي ص406 وما بعدها، موسوعة تاريخ مصر الفصل الثامن عشر ص 912-919، عصر محمد علي ص107 -120، و159-191، كتاب فاروق مصر فصل فتوحات الجيش المصري في عهد محمد علي.

أ: ضعف السلطة المركزية للعثمانيين فلم يعد لدى الدولة قدرة على بسط نفوذها السياسي والإداري في تلك الأنحاء البعيدة عن المركز.

ب: انشغال الجيوش العثمانية في حروب متفرقة لاسيما في المناطق الشمالية والشرقية لتركيا فلم يعد لديها قدرة على تقديم الحماية العسكرية لتلك المناطق.

ج: الجانب الاقتصادي حيث يرى كثير من المؤرخين أن حكم الدولة في تلك المناطق كان يميل إلى الاستئثار بالثروات وجمع الإتاوات، ولم يكن لديهم مشاريع اقتصادية نهضوية تخدم أبناء تلك المناطق، وهذا هو السبب الأهم لكثرة الانتفاضات والتمردات عليهم وعلى باشاواتهم.

بالإضافة إلى وجود مشاريع استقلالية تميل إلى تقديم مشروعا خاصا بها، كمشروع محمد علي.

الانحطاط الديني والأخلاقي:

إلى جانب هذا التدهور السياسي والاقتصادي المريع الذي أصاب الدولة العثمانية، فإن ثمة تدهورا لا ينبغي أن نغفله هنا لأثره البالغ في ضياع الأمم وسقوط الدول، وهو التدهور الديني في شتى المناحي، في الجهة العقدية بانتشار القبورية والخرافات والسحر والشعوذة والدروشة وعقائد غلاة الصوفية، وفي الجهة الفقهية بانتشار البدع والمحدثات وعلى المستوى التعبدي والأخلاقي أيضا بل وعلى مستوى الثقافة والفكر والهوية حيث بدأ

الفكر الغربي يتغلل في الأوساط الثقافية المجتمعية داخل الدولة العثمانية وبدأت الدولة والمجتمع بالتخلي عن الهوية الإسلامية في مناحي حياتية شتى[1].

وفي مرحلة ضعف الدولة العثمانية هذه وبدء انهيارها التدريجي وانكماش سلطتها الفعلية حتى على المناطق التي كانت تحت سيطرتها بدأت الأحداث المذكورة في نجد من دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ثم قتاله وغزو الدرعية ثم إخضاعه لأعدائه و إقامة نواة دولته الجديدة في منطقة نجد والتي لم تحكمها أية سلطة مركزية كما كما كررناه من أثناء الدولة العباسية إلى ذلك الوقت.

القيمة الرمزية للدولة العثمانية:

بقي أنه قد يقال: نعم، اتفق المؤرخون على أن الدولة العثمانية لم تبسط سلطتها على الديار النجدية، ونعم، سلطتها كانت قد اضمحلت عن كثير من المناطق الإسلامية التي كانت تحت سيطرتها، ولكن ينبغي أن يكون لها قيمة رمزية وسلطة روحية وشكلية عند جميع المسلمين، كونها الدولة التي قارعت الغرب في ابتداء أمرها، وكونها أخضعت قلب العالم الإسلامي لها، وكونها وحدت مساحة واسعة من بلاد المسلمين، وكونها أسقطت دولة المماليك التي قدمت ولاء صوريا للخليفة العباسي

[1] وقفت على رسالة مخطوطة لعلماء الدولة العثمانية يبينون فيه أهم صور التدهور الديني والأخلاقي للسلطان، ويجعلون ذلك هو السبب الرئيس في ضعف الدولة وانحلالها، وسنثبته في الملحق، ويراجع في تركة الانحطاط العقدي التي تركها العثمانيون في عصرهم الأخير كتاب (الانحرافات العقدية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر).

المجرد من أية صلاحيات في ذلك الوقت فصارت وريثة للمماليك ورثة العباسيين، فينبغي على أية دولة ناشئة في زمانها أن تعرف حقها.

ولكننا نرى أن هذا النوع من القِيَم الرمزية إذا سلمنا به على إطلاقه -ونحن نتحفظ على هذا الإطلاق - لا علاقة له بأدبيات السمع والطاعة، بل بأدبيات التواصل والتكامل.

فينبغي أن تحرص الكيانات الإسلامية المستقلة أن تفتح قنوات التواصل مع بعضها وتسعى للتكامل فيما بينها، وكلما كان هناك كيان إسلامي له عراقة وقيمة تاريخية وثقل جغرافي كان التواصل والتكامل معه أحرى.

إلا أن الخضوع الكامل و الاندماج التام بين هذا الكيان وذاك ، أعني الاندماج السياسي والعقدي والثقافي والاقتصادي والعسكري وغير ذلك، لا ينبغي أن يطلق فيه رأي واحد، بل هو خاضع للمصالح والمفاسد الشرعية يدور معها، فلو كان هذا الاندماج قائم على حفظ الدين الحق وسياسة الدنيا بالعدل، فيتعين على تلك الكيانات التوحد بينها على ذلك، أو الانضواء الكامل تحت الدولة الأكبر، **فهذا هو الأصل -كما قدمنا- في تصور الإسلام عن الدولة**، أما إن كان في هذا الاندماج تضييع للدين وبغي وظلم في الدنيا وكان في استقلالية هذا الكيان أو ذلك حفظ للدين والدنيا، فيتعين أن يبقى على هذه الاستقلالية.

ولا أظن أن اهل السنة يختلفون في أنه لو قام كيان شيعي مثلا اليوم وانضوت تحته الدول الموالية للشيعة وكونت دولة شيعية كبرى وطالبت باقي الدول السنية

بالانضواء تحتها في أنه يتعين رفض مثل هذا الاندماج القائم على باطل، ولو كانت تلك الدول الشيعية الكبرى تقارع الغرب.

وهكذا لو قامت دولة ليبرالية ضمت الدول التي تُحكَم بأنظمة غربية وطالبت دولة إسلامية صغيرة بالانضواء تحتها، فهو الجواب ذاته.

وكذا لو قامت أية دولة مسلمة اليوم باجتياح تركيا وإسقاطها وإدعاء أنها بهذا تكون وريثة الخلافة العثمانية التي هي وريثة المماليك وهم ورثة العباسيين، فيجب مبايعتها من جميع الدول المسلمة بالخلافة، وأن من بقي مستقلا عنها فهو خارجي!

لا أظن أنه سيختلف أحد في أن هذا الكلام .. لا معنى له!

ونعود لموضوعنا..

ينبغي أن نُذَكِّر أوَّلا بما قدمناه من أن دعوة الشيخ بدأت في زمن ضعف الدولة العثمانية، وقد تغيَّر حالُها جذريا عن حالها في أول امرها، فإن كانت في أول أمرها جاهدت الكفار وهذا حق، فإنها في آخر أمرها فتحت لهم أبوابها وعقدت معهم اتفاقات تعطيهم سيادة كاملة داخل الدولة العثمانية أو دولة داخل دولة كما يقال، نعم بقت الدولة من جانب آخر تقاتل بعض الدول الكافرة لكن يُعرَف من مجمل حالها أنه كان صراع سلطان وملك لا انتصار لدين الله، كما بدأت سلطتها تضعف وتتآكل عن المناطق التي كانت تحت سلطتها، كما انحطت انحطاطا بالغا في كل المستويات الدينية والأخلاقية والسياسية والاقتصادية وغيرها.

مع هذا كله فإن الشيخ محمد بن عبد الوهاب وتلامذته لم يُغفلوا القيمة الرمزية المذكورة للدولة العثمانية، والتاريخ يشهد أن الدولة النجدية حاولت أن تقوم بدور

التكامل والدعم والتصحيح الديني والعقدي وأن تضع يدها في أيدي العثمانيين ولكنهم هم من رفض وأبى إلا الصدام.

يشهد لهذا أمور:

أ: عبارات المدح والثناء التي أطلقها بعض علماء الدعوة على بعض مواقف الدولة المشرفة، وستأتي معنا في آخر البحث.

ب: الرسائل التي أرسلها الشيخ محمد بن عبد الوهاب لعلماء مكة وهم ممثلوا الدولة العثمانية في الحجاز، وهي رسائل تقطر أدبًا وحكمة، ليس فيها استعداء ولا طلب صدام بل دعوة تصحيحية للدين والعقيدة على أن يقوم بها علماء الحجاز في مناطقهم، وستأتي نماذج من هذه المراسلات في فصل مراسلات الشيخ من هذا البحث.

ج: تقريرات الشيخ محمد وأئمة الدعوة في السمع والطاعة لولاة الأمور في زمانهم وعدم نزع اليد من الطاعة، ولم يستثنوا أحدا من هذه الأدبيات مع أن كثيرا من الدول الإسلامية كانت تحت حكم العثمانيين أو موالية لها، ومع أن العثمانيين كانوا يجرّمون التوحيد! وسيأتي إثراء هذه المسألة في باب أدبيات السمع والطاعة عند أئمة من هذا البحث.

وسنضيف إلى هذه الشواهد شواهد أخرى في آخر البحث.

فالقيمة الرمزية المذكورة حاضرة في أدبيات أئمة الدعوة وأطروحاتهم، أما إن أُريد بهذه القيمة الرمزية أنه كان ينبغي لدولة النجديين أو غيرها من الدول القائمة في وقتها أن تمحي الدين من حياتها وتلغي التوحيد من دعوتها أو أن تسوس الدنيا

بالظلم والجور الذي عرف به باشوات العثمانيين وقتها، أو غير ذلك من مفاسد، **فتلغي الإسلام من حياتها لتنضم للخلافة الإسلامية!! فلا !**

المقدمة الرابعة:

ينبغي أن يُعلم أن ديار المسلمين وبلدانهم ومناطقهم هي ديار عصمة، لا يجوز الاعتداء فيها على أنفس أو أموال أو أعراض، بل و لا يجوز فيها الإخافة أو الترويع، ولا يجوز ارتكاب أدنى ما قد ينتج عنه زعزعة الأمن المجتمعي أو خلخلة السِّلْم الاجتماعي، وكل ما هذا شأنه في بلاد المسلمين وبين أفراد المجتمع المسلم فإنه مرفوض في الشريعة الإسلامية.

بل ينبغي أن توجه مثل هذه الأفعال والجهود إلى جهاد الكفار المحاربين ودفعهم عن ديار أهل الإسلام.

إلا إن هذا لا يمنع من أنه في حالة ظهور بعض النتوءات في جسد المجتمع المسلم، والتي لو تُرِكَت لتسببت في موت هذا الجسد، فإن الشريعة توجه المسلمين إلى استئصال مثل هذه النتوءات من جسدهم ليحيى المجتمع المسلم بعدها سليما آمنا ويكون قادرا على مقارعة أعداء الخارج.

ولهذا فقد أسقطت الشريعة بعض صور العصمة في بعض الحالات عن بعض الأفراد وبعض الطوائف والجماعات داخل الديار الإسلامية وداخل المجتمع المسلم نفسه، لأن هذه الحالات لو تُرِكت لكانت نكايتها في الإسلام وأهله أعظم من نكاية الكفار المحاربين أنفسهم.

فمن أهم الصور الفردية أن الشريعة أسقطت عصمة دم المرتد، وعصمة ماله، ولا يقتصر حكم سقوط عصمة الدم في الشريعة الإسلامية على من نقض عقد الشهادتين وفارق الملة، بل يلحق هذا الحكم أصنافا من أهل الملة لمنزع آخر غير الكفر منها سقوط عصمة دم الزاني المحصن مع إسلامه، ومنها سقوط عصمة دم الصائل أو الصائلين في بعض الحالات.

أما على مستوى الطوائف والجماعات التي تظهر داخل المجتمع المسلم وداخل دار الإسلام، فهناك ثلاث طوائف رئيسية تدخل عند أهل العلم في هذا الباب، وهم: أهل البغي، والخوارج، والممتنعون عن الشرائع.

أهل البغي:

وأهل البغي أو البغاة هم الطائفة المسلمة التي تعتدي على طائفة مسلمة أخرى بغير وجه حق، فتكون ظالمة باغية في اعتدائها هذا، وقد أمرت الشريعة في هذه الحالة أهل الإسلام بمحاولة الإصلاح قدر الطاقة بين الطائفتين وإلا فقتال الطائفة الباغية، حتى ترد إلى جادة الصواب.

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ).

ويتأكد هذا الحكم فيما لو تجمع أقوام لهم مَنَعة وشوكة داخل دولة مسلمة وامتنعوا عن طاعة الإمام والدخول تحت قبضته وولايته، وصار كيانهم كيانا موازيا للكيان المجتمعي الآخر الذي يسمع ويطيع للإمام، وكان خروجهم بتأويل كاتهامه بالظلم مما يقتضي الامتناع عن طاعته عندهم.

ففي هذه الصورة يجب على الإمام الاستجابة لمطالبهم وإعادة الحقوق إلى أهلها أولا ثم إن لم يمتنعوا قاتلهم.

ومِن هذا التعريف نفهم أن أهل البغي هؤلاء لا يلزم أن يكونوا متهمين في عقيدتهم ولا في دينهم بل قد يكون بعض أعيانهم أفضل من كثير من أعيان الطائفة المقابلة التي يسميها الفقهاء أهل العدل.

كما نلاحظ أن مطالبهم ابتداء تقتصر على رد المظالم لأهلها ومواجهة الوالي بذلك بصفة مخصوصة، ولكنهم يمتنعون وتصير لهم شوكة وقدرة حربية، حتى يحمل الإمام مطالبهم على محمل الجد، ولا تضيع جهودهم في الإصلاح – حسب وجهة نظرهم – بسهولة، حتى إذا قرر الإمام مواجهتهم القتالية كانوا جاهزين لذلك.

الخوارج:

فإن استخدم هؤلاء الخارجون عن طاعة الإمام أو عن جماعة المسلمين أداة التكفير بغير حق، لاسيما إن تجاوز هذا التكفير غيره من الحاشية أو من الرعية، أو وصلوا إلى حد تكفير كل من لم يدخل تحت طاعتهم هم، أو كفروا أهل الإسلام بالكبائر، ثم ما يترتب على الخلل في التكفير من استحلال الدماء بغير حق، وصار لهم منعة وشوكة، وبالتالي نكاية في أهل الإسلام، قاتلهم الإمام والمسلمون وانتقل حكمهم من حكم قتال أهل البغي إلى أحكام قتال الخوارج.

وإن كان جملة من الفقهاء عمموا بعد ذلك وصف البغي على الجميع، أو الخروج على الجميع، إلا أن الفصل بين الوصفين أولى لمن أراد التدقيق في اختلاف أحكام هاتين الطائفتين واختلاف الفقهاء فيهما.

ونلاحظ هنا أن الخوارج متهمون في أنفسهم من جهة عقائدهم التي تتبنى تكفير المسلمين بغير حق، ومتهمون في حق غيرهم من جهة استحلال دماء المسلمين بغير حق، ولكنهم غير متهمين من جهة التزامهم بالشرائع العملية الكبرى في الإسلام بل قد يفوقون غيرهم في الاجتهاد في هذه الأبواب.

الطوائف الممتنعة عن الشريعة:

فإن خرج قوم عن طاعة الإمام أو عن جماعة المسلمين لا من جهة اتهامه بالظلم مع عدالتهم ولا من جهة تكفير المسلمين بل من جهة امتناعهم عن الشرائع الإسلامية الكبرى مع عدم الجحود، كامتناعهم عن الصلاة أو الصيام أو الزكاة أو الشعائر الظاهرة التي يحكم للدار بها كشعيرة الآذان والجمع والجماعات، وكانت لهم منعة وشوكة يردون بها قوة الوالي إن أراد حملهم على الالتزام بالشرائع، أو يعيثون بها في الأرض فسادا بالهجوم على أهل الإسلام الملتزمين بشرائعه، ينتقل حكمهم إلى حكم الطوائف الممتنعة عن الشريعة، ويقاتلون بإجماع العلماء.

إذن يتلخص لدينا مما تقدم نقاط في غاية الأهمية:

أ: انعدام السلطة المركزية في نجد منذ أثناء العصر العباسي إلى زمن الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

ب: طريقة الحكم كانت طريقة قبلية أو أسرية، فكل قبيلة أو أسرة كانت هي الحاكم الفعلي وتمثل السلطة المركزية في منطقتها، فكانت الأسرة أو القبيلة هي الدولة في صورتها البدائية.

ج: العلاقة بين هذه الأسر والقبائل كانت علاقة عدائية في الأغلب، وكان الواقع النجدي واقعا دمويا، يتسم بالصراعات الدموية التي لا تنتهي لأتفه الأسباب.

د: إذا وقع صراع مسلح بين طائفتين داخل الرقعة الإسلامية ينبغي أولا توصيف هذا الصراع توصيفا علميا للحكم عليه والحكم على المتصارعين.

بناء على هذه المقدمات:

ونستطيع أن نبني على هذه المقدمات مجموعة من النتائج المهمة:

أ: إذا قدَّرنا أن هذه القبائل والأسر النجدية أو غير النجدية في منطقة أخرى من العالم الإسلامي والتي لا توجد سلطة مركزية في منطقتها قامت بالتوحد فيما بينها تحت مظلة سياسية واحدة مكوِّنة دولة بالمعنى الأوسع لا بالمعنى البدائي الذي كانت عليه فتقوم بإدارة شؤون أبنائها وتوفير الأمن والحماية لهم وإدارة حياتهم من جميع النواحي فإننا لا نجد إشكالا في هذا لا من الجهة الشرعية ولا من الجهة العقلية، بل هذا في نفسه مطلب شرعي قد يتعين ويجب إذا كانت هذه الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة وحقن الدماء وترتيب الأمور الحياتية في تلك الجهة.

ولهذا فإن فكرة الدولة التي طرأت في مشروع الشيخ محمد عبد الوهاب وتوحيد القبائل النجدية تحت راية التوحيد لولا العداء الأيديولوجي الذي تحمله بعض الاتجاهات له ولدعوته إلا أنها ستجد نفسها مدفوعة للإقرار بأن هذه هي الصورة الطبيعية لإقامة الدول عبر التاريخ والتي لا يدفعها شرع ولا عقل، وستجد هذه الاتجاهات تمتدح وتثني على مشاريع تاريخية أخرى في توحيد القبايل والأسر

تحت راية دولة واحدة من الصين إلى روسيا إلى أوروبا إلى الشرق الإسلامي فإذا جاءت إلى دولة الشيخ محمد بن عبد الوهاب توقفت وأحجمت.

ولهذا فإن هذا التقرير عن نجد لا يقتصر على دولة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فحسب، بل لو رفعت راية توحيد نجد أية قبيلة أخرى أو أسرة أخرى داخل نجد وأقامت دولة شاملة لأبناء نجد لكان الموقف واحدا من مشروعية ذلك، وسيبقى الحديث فقط عن المضمون ، هل نجحت هذه الدولة دينيا وسياسيا أم لا ، هل وسيلة التوحيد كانت موفقة أم لا، أما من جهة الفكرة أعني فكرة إقامة دولة في تلك الجهة فلا إشكال فيها.

وقد قدمنا أن أهل السنة قالوا بمشروعية عشرات الدول في القديم والحديث وتحريم الخروج على ولاتها ولو كانت دولا جائرة وظالمة ولو تبنت بدعًا مغلظة، فليس مثل هذا التقرير عند أهل السنة مقتصرا على دولة النجديين.

ب: لاحظنا أيضا أن الواقع النجدي كان واقعا دمويا لقرون، يتسم بالصراع الدائم والقتال المستمر لأتفه الأسباب، فلا يُقال إنه ولو لم توجد سلطة مركزية ولا يوجد والي ولا حاكم في نجد إلا أنه حفاظا على أمن المجتمع ووحدته وتماسكه كان الأولى ترك الجهر بدعوة التوحيد وما ترتب على ذلك من قتال الموحدين ثم رد الموحدين الاعتداء.. فلا وجود هنا لمجتمع آمن ولا مجتمع موحد ولا وجود لدماء معصومة ولا لأموال محفوظة، بل كان الواقع النجدي تحكمه الصراعات والقتالات والفتن والدماء.

وفي مثل هذه البيئة الدموية لا يمنع الشرع ولا العقل من رد الاعتداء المسلح بالسلاح، بل قد يتعين ويجب إذا انعدمت وسيلة أخرى للدفاع عن النفس أو الأسرة أو القبيلة، وإذا اضطر المعتدى عليه - ليوقف تكرار الاعتداء عليه مرة أخرى من جهة ما- أن يخضع تلك الجهة بالقوة لما دفع هذا أيضا شرع ولا عقل، فإذا قامت الجهات المنتصرة بإخضاع الجهات المعادية وتوحيد الجميع تحت راية دولة واحدة تسوس الناس وتحافظ على دنياهم وتسوس الدنيا بالدين وتحفظ أمر الشريعة، وتعمم الأمن والسلام والاستقرار داخل حدودها بين تلك القبائل المتناحرة قديما لما دفع هذا أيضا شرع ولا عقل، بل قد يكون مثل هذا من أعظم مقاصد الشريعة إذا لم يكن هناك وسيلة لحقن الدماء بين تلك القبايل إلا بتوحيدهم بهذه الصورة.

وهذه هي الخطوات العملية التي مرّت بها دولة الشيخ رحمه الله.

ج: **كما نلاحظ بالتأمل** في أحكام الطوائف التي قاتلت دولة محمد بن سعود و قاتلت الشيخ وأبناء دعوته وحاولت غزو الدرعية نجد أن فيها من صفات أهل البغي الاعتداء على المسلمين بغير حق، ومن صفات الخوارج تكفير المسلمين بغير حق، فقد كانت بعض الطوائف التي تقاتل الشيخ تكفره وتكفر أبناء دعوته، بدعوى أنهم جاؤوا بدين جديد غير دين الإسلام واستحلت دماءهم بناء على ذلك، إلا أن أهم ما يميز هذه الطوائف لا نقول الامتناع عن الشرائع الإسلامية مع الإقرار بها، بل الامتناع عن أصل الإسلام جاحدة له ولم تكتف بهذا بل هي تغزو الإمارات الملتزمة بأصل الدين كالدرعية وتقاتل على منع الناس منه!!

كما ينبغي أن نركز هنا على أن هذا التصور لواقع نجد من جهة غياب السلطة المركزية عنها والحاكم العام، ومن جهة دموية الواقع والتاريخ، ومن جهة التفريق بين التحرك الدفاعي، والتحرك الهجومي، ليس هو التصور المطابق للواقع فيما نعتقد فحسب، بل هو التصور المركّب في ذهن الشيخ محمد بن عبد الوهاب نفسه، وهذا الأمر له أثر مهم في فهم قرارات الشيخ في التعامل مع الواقع وسير الأحداث، والحكم عليها.

الحكم والسيادة في نجد في تصور الشيخ:

أما من جهة الحكم والسيادة على نجد فمن النصوص المهمة التي تبيّن لنا تصور الشيخ عنها قوله[1] في معرض الحديث عن دعوته: «هذا الذي أنكروا عليّ، وأبغضوني وعادوني من أجله، إذا سألوا عنه كل عالم في الشام واليمن أو غيرهم، يقول: هذا هو الحق، وهو دين الله ورسوله، ولكن ما أقدر أن أظهره في مكاني، **لأجل أن الدولة [أي التركية] ما يرضون. وابن عبد الوهاب أظهره لأن الحاكم في بلده ما أنكره، بل لما عرف الحق اتبعه**».

ففي هذا النص بيان لتصور الشيخ في التفريق بين سيادة الدولة التركية التي تتناول مناطق كالشام وأجزاء من اليمن، وبين سيادة نجد والتي يتقاسمها رؤساء القبائل والأسر فهم حكامها.

---

[1] الرسائل الشخصية (ص32).

كما أن النص نفسه يحمل في طياته منهج الشيخ الدعوي الذي ينبني على هذا التفريق، إلى جانب التطبيق العملي من الشيخ، أعني التفريق بين حالة ما إذا كانت السلطة المركزية تعادي دعوة ما، وما إذا لم تكن تعاديها.

فالشيخ في العيينة عندما اتبع الحاكم دعوته وانقاد للحق، نشط الشيخ في دعوته، وفي تغيير المنكر باليد كما تقدم عبر السلطة السياسية القائمة في العيينة، وكانت دعوته اشتهرت بالعارض كله وكثر أتباعه في نواحي كثيرة، ومع ذلك لما انقلب الحال و طردته سلطة العيينة المركزية ولم تعد متبنية لدعوته، خرج ولم يؤلّب أحدا عليها ولا أمر أتباعه بالتجهز للخروج المسلح على صاحب العيينة، ولا شيء من ذلك، بل خرج متوكلا على ربه لعله يفتح له بابا آخر للدعوة.

وإذا كان هذا حاله في الداخل النجدي فكيف بما هو خارج نجد، لقد كانت عبادة القبور في تلك الأزمنة منتشرة في جميع بقاع العالم الإسلامي، تُعبد بتصريح مباشر أو غير مباشر من السلطات القائمة في العالم الإسلامي كله، لماذا لم يأمر الشيخ أتباعه في العالم الإسلامي بالخروج المسلح على حكوماتهم ، لماذا لا نجد في تراثه وتراث أتباعه توجيهات عامة لعموم الموحدين في العالم بالخروج على المجتمعات المسلمة تكفيرا وتقتيلا.

صرح الشيخ في غير موضع بأن علماء البلدان التي ترضخ تحت سلطة الدولة التركية يعترفون بأن ما يدعو إليه هو الحق ولكنهم يعتذرون عن الجهر به لأن الدولة التركية لا تقبل بهذا، كما قدمناه.

ومع موقف الدولة التركية المبكر من معاداة الدعوة للتوحيد لا نجد في تراث الشيخ تهييجا أو تحميسا للبلدان التي تقع تحت سلطانها ضدها، بل سيأتي معنا بعد قليل أسلوب الشيخ

وتلامذته في مراسلة الجهات التي تقع تحت سلطتها ومدى الأدب والاحترام الـذي يقطر من تلك المراسلات، وسيأتي معك أيضا أن الصدام مع العثمانيين فيما بعد هم مَن حشد له وابتدأه من عدة جهات.

حكم تعدد الأئمة في العصر الواحد في رأي الشيخ محمد بن عبد الوهاب:

من الأهمية بمكان أيضا أن نعرف رأي الشيخ في قضية تعدد الأئمة في عصر واحد:

قال الشيخ: ((الأئمة مجمعون من كل مذهب، على أن من تغلب على بلد أو بلدان له حكم الإمام في جميع الأشياء، ولولا هذا ما استقامت الدنيا، لأن الناس من زمن طويل قبل الإمام أحمد إلى يومنا هذا، ما اجتمعوا على إمام واحد، ولا يعرفون أحدا من العلماء ذكر أن شيئا من الأحكام، لا يصح إلا بالإمام الأعظم))[1].

دموية الواقع النجدي في تصور الشيخ وأبناء دعوته:

كما حرص الشيخ ومؤرخو الدعوة على بيان دموية التاريخ النجدي وكثرة الصراعات والقتال بين الأسر والقبايل في نجد.

ومن هذه النصوص ما تقدم من قول الشيخ لمحمد بن سعود:

«وأنت ترى نجدا كلها وأقطارها أطبقت على الشرك والجهل، والفرقة، والاختلاف والقتال لبعضهم البعض..»[2].

ومنها قول حفيده عبد الرحمن بن حسن:

---

[1] الدرر السنية 9/ 5.

[2] «ابن بشر» (1/ 42).

«اعلم وفقك الله أن أهل نجد، كانوا قبل ظهور هذه الدعوة الإسلامية فيهم، بأسوأ حال; أما الأعراب: فلا يلتفت أحد منهم لشريعة الإسلام، لا في العبادات ولا في غيرها من الأحكام، ولا في الدماء ولا في الأموال، ولا في النكاح ولا في الطلاق، والمواريث وغير ذلك; وكانوا في شر عظيم فيما بينهم من الحروب، كل طائفة تقاتل الأخرى وتستحل دماءها وأموالها، والحضر عندهم في غاية الذل، يأخذون المال منهم كرها»[1].

وسيأتي النقل عن مؤرخي الدعوة في ذلك، وهذا أمر لا أعرف من يختلف فيه، سواء كان موافقا للدعوة أو مخالفا لها، فهو أمر متفق عليه بين المؤرخين.

لكننا نريد التركيز هنا على الغرض من استحضار الشيخ ومؤرخي الدعوة لمثل هذه القضية، ومن أهم أغراضهم في هذا بيان أنهم باقتحامهم للصراع والقتال داخل نجد لم يوجدوا واقعا جديدا لم يكن موجودا، أو صراعا لم يكن معروفا، بل القتال والصراع جزء لا يتجزأ من الواقع النجدي، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى أرادوا من هذا الاستحضار لهذه الحقيقة التفريق بين خوضهم هم للقتال والذي كان دفاعا عن العقيدة والدين، وخوض غيرهم والذي يكون في الغالب لصراعات دنيوية.

والأهم من ذلك كله أرادوا بيان أن عاقبة خوضهم للصراع كان توحيد نجد لأول مرة في تاريخها عبر قرون خلت وتأمين الديار النجدية وحقن الدماء والأموال وإقامة دولة شهد لها التاريخ وشهد لها الأعداء.

---

[1] «الدرر السنية» (6/ 422).

التفريق بين حالة الدفاع وحالة الهجوم في تصور الشيخ:

من جهة أخرى فإن من منهج الشيخ أنه ليس بمجرد أن تقوم للموحدين دولة فمعنى هذا أنه من حقهم التدخل لمحاربة دولة أخرى فيها مجتمع مسلم آمن بعذر أن فيها شركا أكبر لما قد ينتجه ذلك من مفاسد..ولهذا السبب يكرر الشيخ دائما **أنهم لم يبتدؤوا أحدا بقتال ولا عداء بل غزاهم الأعداء في ديارهم ولم يبقوا ممكناً**...

وقد ذكرنا النقول عن الشيخ وأئمة الدعوة حول بدء الأعداء بالقتال والغزو في الانتصار للدرر السنية وسيأتي بعض ذلك بعد قليل.

والسؤال هنا لماذا حرص الشيخ حرصا بالغا في بيان البادىء بالقتال، وأنه وأتباعه كانوا مدافعين لا مهاجمين، والذي يظهر لنا في الجواب عن هذا السؤال من مجمل تقريرات الشيخ وتطبيقاته أنه يفرق بين الصورتين، فالأصل في الدعوة هو التحرك العلمي والدعوي والمناصحة والمراسلة، ولا شيء غير ذلك.

ولهذا السبب نجد أن الشيخ لما قامت له دولة في العيينة لم يعتد على أحد، ولما قامت له دولة في الدرعية لم يعتد على أحد ابتداء بل انشغل بالدعوة والمراسلة والمناصحة، أما إذا هوجمت الدعوة وكيانها السياسي عسكريا في عقر دارها فلكل مقام مقال!

وبناء على ما قدمنا فإن الشيخ هنا **لا يقوم بحركة مسلحة بجهد فردي كمواطن داخل المجتمع قد ينشأ عنها مفاسد ومنكرات أعظم، بل يتحرك اليوم كدولة مركزية بقيادة رئيسها محمد بن سعود ومجتمعها الذي كان على قلب رجل واحد.**

ثم هذه الدولة لم تبدأ أحدا بالعداء بل انشغلت بإرسال السفراء وطلب المعاهدات والمناصحة فحسب.

ثم هذا التحرك من الشيخ لم يقلق سكينة مجتمع مسلم! فالمجتمع النجدي لم يكن آمنا قط!، ولا أثار فتنة في أوساط المجتمع ، فمراكز القوى في نجد لم تتوقف يوما عن خوض الحروب والمعارك لأسباب دنيوية تافهة، بل بشهادة الرحالة الغربيين والمؤرخين المحايدين[1] لم تشهد نجد لقرون أمنا كالأمن الذي شهدته بعد اتساع دعوة الشيخ وأتباعه، ولا طمأنينة وسكينة كتلك التي عرفتها في زمانهم، وسَل الديار السعودية اليوم بعد قرون مما حدث تنبيك عن ذلك، نسأل الله أن يديم على المملكة الأمن والأمان.

ومن هنا نفهم التناغم التام بين واقع الدعوة النجدية على الأرض وبين تقريراتهم الكثيرة المتضافرة على وجوب السمع والطاعة في المعروف والصبرعلى أئمة الجور والجهاد مع كل بر وفاجر، وغير ذلك مما نقلنا بعضه في كتابنا «الانتصار للدرر السنية»[2] وسيأتي فصل خاص به.

ونفهم أيضًا لماذا لم تعمم الدعوة النجدية قديما وحديثا تجربتها تلك وتصدرها للبلدان الإسلامية الأخرى، فهي تجربة مناطة بظروف وملابسات مخصوصة كما شرحناه.

تصور العلماء الذين يمثلون امتدادا للدعوة النجدية في العصر الحديث حول مرحلة القتال في نجد

[1] ستأتي معنا بإذن الله في أبحاث خاصة في هذه السلسلة يسر الله ذلك.

[2] (ص157 – 176).

يحسُن بنا أن نعرِّج على قضية استمرارية هذا التصور المذكور عن علاقة دولة النجديين بالدولة العثمانية، فقد استمر هذا التقرير بين أبناء هذه الدعوة إلى اليوم، حيث يقرر العلماء المعاصرون ما قرره المؤرخون قبلهم من أن الدولة العثمانية لم يكن لها سلطة على نجد.

وسنختار نقلين عن عالمين من العلماء الذين لهم قيمة علمية بين الاتجاه السلفي في العصر الحديث ويمثلان امتدادا للمدرسة النجدية، وهما الشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ صالح الفوزان.

يقول الشيخ ابن باز:

(إن الشيخ محمد فيما أعتقد وفيما أعلم لم يخرج على الدولة العثمانية فما كان هناك دولة ولا إمارة ولا رئاسة ولا حركة في الجزيرة، كانت الجزيرة مهملة ما فيها إلا أمراء يقتل بعضهم بعضا ويأكل بعضهم بعضا و(يعتدي)[1] بعضهم على بعض..كانت نجد كلها خالية من ولاية، كانت إمارات متعددة، الدرعية فيها أمير، العيينة فيها أمير يحكمها كأنه ملك، في الرياض أمير، في المجمعة أمير، في حريملاء أمير..في القصيم حاكم مستقل، في حائل أمير مستقل، يحكم وينفذ، كلهم أمراء مستقلون ، ما كان لسلطان الأتراك للخلافة وجود في شبه الجزيرة... فهو خرج على الأوضاع الموجودة ودعا الناس إلى توحيد الله وترك تحكيم عادات الآباء والأجداد، وإلى ترك الشرك وعبادة القبور والأشجار ونحو ذلك فهو خرج على الأوضاع لا على

[1] الكلمة غير واضحة في المادة الصوتية.

دولة قائمة، هذا الموجود المعروف الذي لاشك فيه، خرج على أوضاع فاسدة في الدرعية وما حولها ..)[1]

ويقول الفوزان:

(إن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله والإمام محمد بن سعود لم يخرجوا على ولي الأمر في وقتهم، لأن الدولة العثمانية ليس لها سلطة على نجد وإنما كانت نجد بيد أمرائها، كل بلدة عليها أمير مستقل بها، كل بلدة من بلاد نجد عليها أمير مستقل بها يحكمها وإذا مات يخلفه أحد أبنائه أو أقاربه، فليس للعثمانيين سلطة على بلاد نجد ولا يهتمون بها، الدولة العثمانية لا تهتم بنجد لأن ما فيها إنتاج في وقتها، فما يهتمون بها، وإنما حاربوا الدولة السعودية[2] لا لأنهم خرجوا عليهم ، بل حاربوها خوفا منها ، حاربوا الدولة السعودية خوفا منها لما عظُم شأنها وظهر أمرها خافوا منها فحاربوها خشية أن الدولة السعودية تغزوهم في بلادهم، وإلا هم ليس لهم سلطة على نجد، وإنما كانت نجد بأيدي أمرائها وحكامها جيلا بعد جيل، حتى جاء الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله بالدعوة وناصره محمد بن سعود فبسطوا سلطتهم على بلاد نجد كلها وغيرها من بلاد الجزيرة، مكنهم الله سبحانه وتعالى لأنهم قاموا بدعوة محمد صلى الله عليه وسلم ونشرالإسلام فدخلت الإمارات كلها التي كانت من قبل موزعة في نجد دخلت تحت سلطة واحدة، فحينئذ خشيت الدولة العثمانية أنهم يصلونهم في بلادهم في بلاد العراق والشام خشوا على أنفسهم، وأيضا عندهم خرافات وعندهم أضرحة فخشوا على ما هم عليه، عندهم

---

[1] راجع المقطع المسموع على الشبكة موقع يوتيوب بعنوان (هل خرجت الحركة الوهابية على الدولة العثمانية) للشيخ ابن باز.

[2] سيأتي الحديث عن الصدام بين الدعوة النجدية ووكلاء العثمانيين فيما بعد.

تصوُّف وبدع، فخشوا على ما هم عليه من هذه الأمور أن دعوة الشيخ تغيرها فلهذا حاربوا الدولة السعودية)[1].

تصور رموز الدعوة السلفية خارج الدائرة النجدية في العصر الحديث عن مرحلة القتال

ونلاحظ أن رموز الدعوة السلفية في العصر الحديث خارج دائرة المدرسة النجدية يتفقون مع هذه المدرسة في تصنيف حركة الشيخ القتالية بالدفاع عن النفس بالسيف ثم توحيد نجد بالقتال على أنها حركة إصلاحية لا علاقة لها بأدبيات الخروج والسمع والطاعة، وأشهر هؤلاء الرموز هو الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، وهو من أشهر من قعَّد ونظّر لأدبيات السمع والطاعة في المعروف والصبر على جور الجائرين ومن أشهر من دخل في نقاشات مع جماعات القتال والمفاصلة والتكفير ولهذا فهو مصنف عندهم من رؤوس المرجئة بله الجهمية.

بل كان لا يرى الانخراط في العمل السياسي في نسخته الحالية وكان لا يرى المظاهرات وما يسمى بالحركات السلمية.

ومع ذلك فكان يرى أن حركة الشيخ كانت حركة إصلاحية تجديدية وكان يثني على انضمام السيف إلى العلم في هذه الدعوة، وكثيرا ما كان يلقب الشيخ محمدا بمجدد دعوة التوحيد وشيخ الإسلام، وهذا مما يدل على أن الشيخ كان يقرأ هذه الأحداث في سياقها الحقيقي الواقعي زمانا ومكانا، الذي يختلف اختلافا جوهريا عن عصر الدول الحديثة.

فقد سئل الألباني عن مصطلح الوهابية وحقيقته فأجاب:

---

[1] راجع مقطع مسموع على الشبكة موقع (يوتيوب) بعنوان هل خرج الشيخ محمد بن عبد الوهاب على الدولة العثمانية للفوزان)

(الحقيقة أن هذا السؤال مع الأسف الشديد راسخ أثره في كثير من المسلمين، والوازع عليه قديماً هي السياسة، لكن هذه السياسة قد مضى زمنها وانقضى؛ لأنها كانت سياسة من دولة الأتراك، ولا أطيل في هذا إنما هي لفتة نظر فقط كانت سياسة من دول الأتراك يوم خرج رجل من أهل العلم والإصلاح وهو المسمى بمحمد بن عبد الوهاب في بعض البلاد النجدية، يدعو من حوله إلى الإخلاص الذي أشرنا إليه آنفاً في عبادة الله وحده، فلا يشرك معه غيره، ومن ذلك مثلاً مما هو لا يزال مع الأسف الشديد آثاره لا تزال قائمة في بعض البلاد الإسلامية خلافاً لذلك الإقليم الذي خرج فيه ذلك المصلح محمد بن عبد الوهاب، هذا الإقليم إلى الآن والحمد لله لا يوجد فيه نوع من الشرك بينما ذلك يوجد في كثير من البلاد الإسلامية المصرية الأردنية السورية، فضلاً عن البلاد الأعجمية، فضلاً عن إيران وما خبر الخميني ووفاته والإعلان عن اتخاذ قبره كعبة يحج إليها الإيرانيون ما ذلك الخبر عنكم ببعيد، **هذا الرجل لما خرج ودعا إلى عبادة الله عز وجل وحده اتفق لحكمة يريدها الله عز وجل أنه كان هناك أمير من أمراء نجد وهو سعود[1] جد العائلة القائمة الآن، فتعاون الشيخ مع الأمير تعاون العلم مع السيف**، وأخذوا ينشرون التوحيد دعوة التوحيد في بلاد نجد، فيدعون الناس تارة بالكلام وتارة بالسنان...)[2].

وقال في موضع آخر:

((كلمة الوهابية هذه الحقيقة سياسة تركية أفشتها في زمن انحراف الأتراك عن الحكم بالإسلام، في زمن كان ابن بلدنا في مصر، محمد علي باشا، هذا ألباني

---

[1] الصواب محمد بن سعود.

[2] جامع تراث الألباني في المنهج (2/ 201).

الأصل، فهو كان حاكم مصر في زمانه وكان بطبيعة الحال يعني يزعم أنه عائش تحت سلطنة الدولة العثمانية، خرج في بلاد نجد رجل من أهل العلم اسمه محمد بن عبد الوهاب، مش عبد الوهاب، محمد بن عبد الوهاب وطاف في البلاد الإسلامية يومئذ المعروفة بالعلم مثل مصر ومثل القاهرة والشام[1]، طاف البلاد وحصل ما حصل من العلم، رجع إلى بلده، اللي كان اسمها الدرعية[2] فبطبيعة الحال لما الرجل يتعلم وجد قومه في جاهلية جهلاء يعبدون القبور كما هو لا يزال في كثير من البلاد الشامية بلدي والمصرية بلاد إخواننا هؤلاء ، البلاء عم وطم يعني كل البلاد.

فالرجل بدأ يعلم الناس ويحذرهم من الشركيات الوثنيات، ودعوته أفادت وتقوت بسبب السلطان الملك السعودي يومئذ الأول، الجد الأول كان ربنا هداه واتبع هذا الشيخ **فاقترن السيف والعلم مع بعض، هؤلاء إذا اقترنوا يفيدوا كما روي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال: إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن .**

ونمت الحركة ونمت بسبب قوة السلطان وانتشرت الدعوة وبدؤوا الجماعة يشكلوا جيش إسلامي لأول مرة، وبدؤوا يدعو القرى اللي حولها إلى عبادة الله وحده لا شريك له، واستجاب من استجاب ووصلت دعوتهم إلى العراق..)[3]

---

[1] لعل الشيخ الألباني رحمه الله اعتمد على بعض المصادر المتأخرة التي تتوسع في ذكر رحلات للشيخ، أما المراجع التاريخية الأصلية فليس فيها أنه رحل لمصر، أما الشام فقد كان يعزم الرحلة إليها ثم انقطعت عنه المؤنة.

[2] كانت الدرعية آخر محطات الشيخ وليست بلده كما تقدم معنا، وعذر الشيخ الألباني أن جوابه كان مرتجلا من حافظته.

[3] جامع تراث الألباني في المنهج 2/ 205.

حرص الشيخ وأئمة الدعوة على توثيق أسباب ظهور أدبيات القتال لديهم وأنه كان دفاعا عن النفس والأهل والمال وأنهم لم يبدؤوا أحداً بقتال

ذكرنا قبل قليل تأريخ ابن غنام لبدء أعداء الدعوة غزو البلاد الموالية للدرعية بسنة تسع وخمسين ومائة وألف، وعليه يكون عُمر الشيخ أربعا وأربعين سنة، أمضى أكثرها في تلقي العلم ودراسة العقيدة والتوحيد، ثم الدعوة إلى الله ونشر التوحيد، ومرّت دعوته بمنعطفات وابتلاءات كثيرة كما شرحناه.

خلال تلك السنوات الطوال في العلم والدعوة لم يخض الشيخ في مسائل القتال ولا نجد في تقريراته ومصنفاته ورسائله ومنهجه على الأرض أنها خطرت له ببال، لا في سنوات استضعافه، ولا في سنوات تحالفه مع رئيس العيينة، ولا بعد طرده منها، ولا عند تحالفه مع الدرعية مع كثرة أتباعه في بعض تلك المراحل، بل لم تظهر هذه الأدبيات في تراث الدعوة النجدية إلا عندما بدأ أعداؤها بقتالهم وقتال أبناء الدعوة.

فأول تقرير لهم في أبواب القتال كان **إعلان قتال من يقاتلهم...!**

وقد حرص الشيخ نفسه على بيان هذه الملابسات التاريخية التي دفعتهم للخوض في هذا الباب، وتقرير المسائل العلمية المتعلقة به لتطبيقها على الأرض، وأن هذا كله لم يكن إلا بعد أن قاتلهم أعداء الدعوة وغزوهم في ديارهم.

بل يحرص الشيخ على بيان أن الأعداء **(لم يُبْقُوا ممكنًا)** مما يوحي أنه حرص حتى بعد أن بدؤوهم بالقتال على تجنب قرار القتال قدر الطاقة.

ولا نفهم من ذلك كله إلا أنه أراد أن يترك لنا شهادات تاريخية على أنه لم يكن من منهجه ولا منهج دعوته أن يبتدئوا أحدًا بقتال أو اعتداء، ولا حتى التسرع في قتال مَن قاتلهم.

وقد نقلت في كتابي «الانتصار للدرر السنية»[1] عددًا كبيرًا من تقريرات الشيخ لهذه الحقيقة التاريخية الهامة، ثم أئمة الدعوة مِن بعدَه فقد حرصوا كل الحرص خلال تاريخ دعوتهم المباركة على تقرير هذه الحقيقة، مما يدُلُّك على أنهم جميعا لم يكن من منهجهم أو طريقتهم أن يبتدؤوا أحداً بقتال أو اعتداء.

فيرجى مراجعة التقريرات في الكتاب المذكور، ولا بأس أن نُذَكِّر هنا بنقلين منها:

يقول الشيخ: «وأما القتال فلم نقاتل أحدا إلى اليوم، إلا دون النفس والحرمة; **وهم الذين أتونا في ديارنا; ولا أبقوا ممكنا**»[2].

ويقول: «فهذا [أي الدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك] هو الذي أوجب الاختلاف، بيننا وبين الناس، حتى آل بهم الأمر، إلى أن **كفرونا، وقاتلونا، واستحلوا دماءنا، وأموالنا**، حتى نصرنا الله عليهم، وظفرنا بهم...»[3].

وإلى جانب تقريرات أئمة الدعوة، فقد حرص مؤرخو الدعوة أيضًا على تأريخ هذا الأمر لخطورته، فيقول ابن غنام[4] مثلاً: «ولم يأمر رحمه الله بسفك دم ولا قتال، على أكثر أهل الأهواء والضلال، **حتى بدأوه بالحكم عليه وأصحابه بالقتل والتكفير**».

كما اعتنى أئمة الدعوة عناية بالغة في سياق الرد على مَن يتهم الدعوة بأنها لجأت إلى السيف ببيان هذه القضية وإبراز ملابسات بداية القتال في نجد، ليبرؤوا ساحتهم من هذه الأكاذيب.

---

[1] (ص127-139).

[2] «الدرر السنية» (1/ 73).

[3] «الدرر السنية» (1/ 87).

[4] (1/ 220).

بل لما قام أحد مخالفي الشيخ ودعوته وهو عثمان بن منصور بنسبة الدعوة إلى التوسع في القتال وإنكار ذلك عليها ، رد عليه العالم المؤرخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ في رسالة أسماها «المقامات»[1] خصصها للحديث عن هذه القضية الهامة، وهي أن الأعداء هم من بدؤوا بالحشد والغزو لقتال الدعوة وأهلها لا العكس.

يقول عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ[2] مؤرخًا وموثقًا لما ذكرناه من أن تلك التحالفات المذكورة هي من بدأت الدعوة بالقتال: «إن شيخنا شيخ الإسلام، محمد بن عبد الوهاب، رحمه الله تعالى، لما ألهمه الله رشده وفتح بصيرته في تمييز الحق من الضلال، وأنكر ما عليه الناس من الشرك فبادروه بالعداوة والإنكار لمخالفتهم ما قد اعتادوه ونشؤوا عليه هم وأسلافهم من الشرك والبدع؛ وأعظم من عاداه ونفر الناس من دعوته العلماء والرؤساء... ثم إن أهل الأحساء، لما استصرخوا شيخهم سليمان آل محمد، شيخ بني خالد، وأرسل إلى ابن معمر شيخ العيينة، بأن يقتله، فهاجر إلى الدرعية بلد محمد بن سعود، فتلقاه هو وأولاده بالقبول، وتابعهم على ذلك أكثر أهل بلده وقبيلته، على قلة منهم، وضعف، كما قدمناه.

فأول من عاداهم: أقرب الناس إليهم بلدا، وأقواه كثرة ومالا، بلاد دهام بن داوس.

وهو أول من شن الغارة عليهم على غفلة وغرة، وعدم الاحتساب منهم، فخرجوا إليه على فشل، فقتل منهم رجالا، منهم فيصل بن سعود، وسعود بن محمد بن سعود، فسبحان من قوى جأش هذا الرجل على نصرة هذا الدين، حين قتل ابناه؛ ثم سطا عليهم مرة ثانية، فقتل كثيرا ممن سطا بهم، فأخذ المسلمون الثأر منهم. ثم بعد ذلك استمر الحرب بينهم وبينه،

---

[1] طبعت مستقلة، وضمن«الدرر السنية»، وضمن «عيون الرسائل».

[2] «الدرر السنية» (12/ 14-20)، والمقامات (ص85-87، 89-102ط. دارة الملك عبد العزيز).

أكثر من ثلاثين سنة، وفي تلك الثلاثين السنة أو أكثر، أعانه على حربهم أهل نجران، وابن حميد شيخ بني خالد، مرارا، فيأتونهم بأنواع الكيد والكثرة، فينصرهم الله عليهم، وفي ذلك أعظم عبرة..

فرموهم عن قوس العداوة، من أهل نجد: دهام بن داوس المتقدم ذكره، وابن زامل، وآل بجاد أهل الخرج، ومحمد بن راشد صاحب الحوطة، وتركي الهزاني، وزيد، ومن والاهم من الأعراب والبوادي، كذلك العنقري في الوشم ومن تبعه، وشيوخ قرى سدير والقصيم، وبوادي نجد، وابن حميد ملك الأحساء، ومن تبعه من حاضر وباد.

كلهم مجمعون لحرب المسلمين، مرارا عديدة مع عريعر، وأولاده.

وأما وزير العراق، فسار مرارا عديدة بما يقدر عليه من الجنود والكيد الشديد، وأجرى الله عليهم من الذل ما لا يخطر ببال، قبل أن يقع بهم ما وقع.

من ذلك: أن ثويني في مرة من المرار، مشى بجنوده إلى الأحساء... ثم جددوا أسبابا لحرب المسلمين، وساروا بدول عظيمة يتبع بعضها بعضا، وكيد عظيم، فنَزلوا الأحساء، وقائدهم (علي كيخيا) ... تم قام علي كيخيا فصار هو الباشا، فأخذ يجدد آلة الحرب، فجمع من الكيد والأسباب، أعظم مما كان معه في تلك الكرة. فلما كملت أسبابه، وجمع الجموع، فلم يبق إلا خروجه لحرب المسلمين، لينتقم من أهل هذا الدين، سلط الله عليه صبيين مملوكين عنده يبيتونه، فقتلوه آخر الليل؛ فخمدت تلك النيران، وتفرقت تلك الأعوان، فما قام لهم قائمة حتى الآن.

[أما] ما جرى من العبر في حرب أشراف مكة، لهذه الدعوة الإسلامية، والطريقة المحمدية، **وذلك أنهم من أول من بدأ المسلمين بالعداوة، فحبسوا حاجهم، فمات في الحبس منهم عدد كثير، ومنعوا المسلمين من الحج أكثر من ستين سنة؛** وفي هذه المدة سار إليهم غالب الشريف، بعسكر كثيف، وكيد عنيف، فقدم أخاه عبد العزيز قبله

بالخروج، فنَزل على قصر بسام، فأقام مدة يضرب بالمدافع والقنابل، وجر عليه الزحافات؛ فأبطل الله كيده على هذا القصر، الضعيف بناؤه، القليل رجاله، فرحل منه.

ووافى غالبا ومعه أكثر الجنود، ومعه من الكيد مثل ما كان مع أخيه أو يزيد، فنَزلوا جميعا بـ(الشعرى)، فأخذ في حربهم بكل كيد، فأعجزه الله، هو ومن معه، عن ذلك البناء الضعيف، الذي لم يتأهب أهله للحرب بالبناء، ولا بالسلاح، فأبطل الله كيده، ورده عنهم بعد الإياس والإفلاس...

وأما الدول التركية المصرية، فابتلى الله بهم المسلمين لما ردوا حاج الشام عن الحج، بسبب أمور كانوا يفعلونها في المشاعر، فطلبوا منهم أن يتركوها، وأن يقيموا الصلاة جماعة، فما حصل منهم ذلك، فردهم سعود رحمه الله تدينا؛ فغضبت تلك الدولة التركية، وجرى عندهم أمور يطول عدها، ولا فائدة في ذكرها.

فأمروا محمد علي، صاحب مصر أن يسير إليهم بعسكره، وبكل ما يقدر عليه من القوة والكيد...».

و يقول ابنه عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن[1]: «**وبادأهم دهام بن دواس؛ فهجم إلى** الدرعية على غرة من أهلها، وقتل أولاد محمد فيصلا وسعودا؛ فما زاد محمد إلا قوة وصلابة في دينه -رحمه الله- على ضعف منه، وقلة في العدد والعدد وكثرة من عدوهم، وذلك من نعمة الله وآياته علينا وعليكم. فرحم الله هذا الشيخ الذي أقامه الله مقام رسله وأنبيائه في الدعوة إلى دينه، ورحم الله من آواه ونصره، فلله الحمد على ذلك. وفيما جرى من ابن سعود شبه لما جرى من الأنصار في بيعة العقبة. **ثم إن أهل نجد وبني خالد وأهل العراق والأشراف والبوادي وغيرهم تجردوا لعداوة هذا الشيخ،** ومن آواه ونصره، وأقبلوا على حربهم بحدهم وحديدهم، وكثرة جنودهم، وكيدهم؛ فأبطل الله كيد كل من عاداهم،

[1] «مجموعة الرسائل النجدية» (3/ 341).

وكل من رام من هؤلاء الملوك وأعوانهم أن يطفئ هذا النور، أطفأ الله ناره، وجعلها رمادا..».

ويقول عبد اللطيف أيضا[1]:

«ثم اعلم أن شيخنا رحمه الله من أعظم الناس وأكثرهم رفقًا وحلمًا، ووقوفًا مع الحجَّة والدليل، **ولم يبدأ أحدًا بقتال حتى بدأوه وكَفَّروه**، فالحمد لله الذي ألهمه رشده، وسدَّد أمره، ولم يجعله على طريق هؤلاء الحيارى الضالين، والجهلة الظالمين».

ثم رأيت أن أذكر باقي النصوص عن الشيخ وأئمة الدعوة التي تؤرخ للباديء بالتكفير والقتال والغزو واستحلال الدماء والأعراض والأموال التي ذكرتها في الانتصار لترابط الأفكار، وقد كنت أسميت الفصل الخاص بهذه النقول (مَن قاتَل مَن، ومَن كفَّر مَن..الجانب المسكوت عنه من تاريخ الدعوة عند أعدائها).

النصوص:

«الذين أنكروا على هذا الأمر، وادعوا أنهم من أهل العلم، ملتبسون بالشرك الأكبر، ويدعون إليه، ولو يسمعون إنسانا يجرد التوحيد، لرموه بالكفر والفسوق».[1/ 54 الإمام].

❍ «والذي قلب الناس علينا: الذي قلبهم على سيد ولد آدم ﷺ، وقلبهم على الرسل من قبله: ﴿**كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ**﴾ ، [سورة المؤمنون آية: 44] ومثل ما قال ورقة للنبي ﷺ: «والله ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عودي».[1/ 59 الامام].

❍ «الذي نكفر، الذي يشهد أن التوحيد دين الله، ودين رسوله، وأن دعوة غير الله باطلة، ثم بعد هذا يكفر أهل التوحيد، ويسميهم الخوارج، ويتبين مع أهل القبب على أهل التوحيد». [1/ 63 الامام].

---

[1] في «مصباح الظلام» (ص520).

❍ «بينت للناس إخلاص الدين لله، ونهيتهم عن دعوة الأنبياء والأموات، من الصالحين، وغيرهم، وعن إشراكهم فيما يعبد الله به، من الذبح، والنذر، والتوكل، والسجود، وغير ذلك مما هو حق الله، الذي لا يشركه فيه ملك مقرب، ولا نبي مرسل; وهو الذي دعت إليه الرسل، من أولهم إلى آخرهم; وهو الذي عليه أهل السنة والجماعة.

وأنا صاحب منصب في قريتي، مسموع الكلمة، فأنكر هذا بعض الرؤساء، لكونه خالف عادة نشأوا عليها.

وأيضاً: ألزمت من تحت يدي بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وغير ذلك من فرائض الله; ونهيتهم عن الربا، وشرب المسكر، وأنواع من المنكرات، فلم يمكن الرؤساء القدح في هذا وعيبه، لكونه مستحسنا عند العوام، فجعلوا قدحهم وعداوتهم فيما آمر به من التوحيد، وما نهيتهم عنه من الشرك، ولبسوا على العوام أن هذا خلاف ما عليه الناس، وكبرت الفتنة جدا، وأجلبوا علينا بخيل الشيطان، ورجله».[1/64-65 الامام].

❍ «وأما القتال فلم نقاتل أحدا إلى اليوم، إلا دون النفس والحرمة; وهم الذين أتونا في ديارنا; ولا أبقوا ممكنا».[1/73 الامام].

❍ «أنا صاحب منصب في قريتي، مسموع الكلمة، فأنكر هذا بعض الرؤساء، لكونه خالف عادة نشؤوا عليها».[1/80 الامام].

❍ «فهذا [أي الدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك] هو الذي أوجب الاختلاف، بيننا وبين الناس، حتى آل بهم الأمر، إلى أن كفرونا، وقاتلونا، واستحلوا دماءنا، وأموالنا، حتى نصرنا الله عليهم، وظفرنا بهم; وهو الذي ندعو الناس إليه، ونقاتلهم عليه، بعدما نقيم عليهم الحجة، من كتاب الله وسنة رسوله، وإجماع السلف الصالح من الأئمة».[1/87 الإمام].

❍ «نحن ما جئناكم في التكفير والقتال، لكن ننصحكم بهذا الذي قطعتم، أنه دين الله ورسوله، أن تعلموه وتعملوا به، إن كنتم من أتباع محمد باطنا وظاهرا». [1/ 92 الإمام].

❍ «فإذا عرف الإنسان أن ترك الشرك لا ينفع إلا إذا لبس ثوب الإخلاص، وفهم الإخلاص فهما جيدا، وعرف ما عليه كثير من الناس من ظنهم أن الإخلاص وترك دعوة الصالحين نقص لهم، كما قال النصارى: إن محمدا يشتم عيسى، لما ذكر أنه عبد الله ورسوله، ليس يعبد مع الله تعالى.

فمن فهم هذا عرف غربة الإسلام، خصوصا إن أحضر بقلبه، ما فعل الذين يدعون أنهم من العلماء، من معاداة أهل هذه المسألة، وتكفيرهم من دان بها، وجاهدهم، مع عباد قبة أبي طالب، وأمثالها، وقبة الكواز، وأمثالها، وفتواهم لهم بحل دمائنا، وأموالنا، لتركنا ما هم عليه، ويقولون: إنهم ينكرون دينكم. فلا تعرف هذه، والتي قبلها، إلا بإحضارك في ذهنك، ما علمت أنهم فعلوا مع أهل هذه المسألة، وما فعلوا مع المشركين، فحينئذ تعرف أن دين الإسلام، ليس بمجرد المعرفة، فإن إبليس وفرعون، يعرفونه، وكذلك اليهود يعرفونه كما يعرفون أبناءهم؛ وإنما الإسلام هو: العمل بذلك والحب والبغض، وترك موالاة الآباء والأبناء في هذا». [1/ 120-121 الإمام].

❍ «فأما من أقر بالمسألتين [أي أن التوحيد هو دين الرسل وأن المسلم ملزم به] ثم صرح أن من اتبعه في التوحيد خرج من دينه، وحل دمه وماله، ومن صدقه في إنذاره وأطاعه وانتذر، خرج من دينه، وحل ماله ودمه. فهذا مع كونه أبلغ من الجنون، فهو من أعظم آيات الله، وعجائب قدرته، على تقليبه للقلوب، كيف يجتمع في قلب رجل يشهد أن التوحيد هو دين الله، ويعاديه، ويشهد أن الشرك هو الكفر ويواليه، ويذب عن أهله باللسان، والسنان، والمال». [1/ 166 الإمام].

❍ «فلأجل ذلك رمونا بالعظائم، وحاربونا، ونقلونا عند السلاطين والحكام، وأجلبوا علينا بخيل الشيطان ورجله، فنصرنا الله عليهم، وأورثنا أرضهم وديارهم وأموالهم، وذلك سنة الله وعادته مع المرسلين، وأتباعهم إلى يوم القيامة.[1/262].

فلما أنكر عليهم الشيخ- عفا الله عنه- الشرك بدّعوه، وخرّجوه، ورموه بالعظائم».[1/276].

❍ «وبين الله لنا التوحيد في آخر هذا الزمان، على يدي ابن عبد الوهاب، وقمنا معه، وقام علينا الناس بالعدوان والإنكار لما خالف دين الآباء والأجداد، وقال الناس مثل ما قال الذين من قبلهم: ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [سورة الشعراء آية: 74] وقالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [سورة الزخرف آية: 23]» .[1/279].

❍ «فإن مبتدأ الأمر: رجل حاقدينه الناس، ومعادينه، واليوم دولته ما تقصر عن ألف مبندق وعشرة آلاف فارس، وكل من تبين على هذا الحق بعداوة، كسره الله، وأزال دولته، وأرى فيه العجائب».[1/283].

❍ «فكيف بمن كفر بمعنى لا إله إلا الله؟ وصار الشرك وعبادة غير الله هو دينه، وهو المشهور في بلده، ومن أنكر ذلك عليهم كفروه، وبدعوه، وقاتلوه».[1/324].

[وزعم أعداء الشيخ أن] الأمر الذي جاء به الشيخ محمد بن عبد الوهاب، رحمه الله تعالى، مذهب خامس، وغش للأمة. [1/439].

❍ «فنصبوا العداوة لمن دعاهم إلى توحيد ربهم وطاعته». [1/442].

❍ «فتراهم عند تجريد التوحيد يقولون: هذا مذهب خامس; لأنهم لا يعرفون غير ما نشأُوا عليه واعتادوه». [1/492].

❍ «وصار بعض الناس يسمع بنا معاشر الوهابية، ولا يعرف حقيقة ما نحن عليه، وينسب إلينا، ويضيف إلى ديننا ما لا ندعو إليه، فبعضهم يتقول علينا وينسب إلينا السفاسف والأباطيل، تنفيرا للناس عن قبول هذا الدين، وصدا لهم عن توحيد رب العالمين، فأوجب لنا تسويد هذه العجالة، بيانا لما نعتقده وندين الله به، وندعو إليه ونجاهد الناس عليه» . [566/1].

❍ «ولا يخفاك أن الذي عادانا في هذا الأمر هم الخاصة، ليسوا بالعامة; هذا ابن إسماعيل، والمويس، وابن عبيد، جاءتنا كتبهم في إنكار دين الإسلام الذي حكى في الإقناع، في باب حكم المرتد الإجماع من كل المذاهب، أن من لم يدن به فهو كافر; وكاتبناهم، ونقلنا لهم العبارات، وخاطبناهم بالتي هي أحسن، وما زادهم ذلك إلا نفورا. وزعموا أن أهل العارض، ارتدوا لما عرفوا شيئا من التوحيد! وأنت تفهم أن هذا لا يسعك، الاكتفاء بغيرك فيه، فالواجب عليك نصر أخيك، ظالما أو مظلوما».[62/2 الإمام].

❍ «حتى اشتهر ذلك [أي الشرك وصوره] في كثير من البلاد، وصار عند غالب الناس هو غاية تعظيم الصالحين ومحبتهم، ومن أنكره عليهم كفروه وخرجوه».[171/2].

❍ «فلما فعلنا ذلك، وأزلنا جميع الأوثان والقباب التي في بلداننا، أنكر الناس ذلك، وكفرونا، وخرجونا، وبدعونا، ورمونا بعداوتهم عن قوس واحد». [172/2].

❍ «بسبب ذلك عادونا، وبالعظائم والكبائر والجرائم الغزار رمونا، ونسبوا كل قبيح إلينا، ونفروا الناس عنا وعما ندعو إليه، ووالوا أهل الشرك وظاهروهم علينا، وزعموا أنهم أولياء الله، وأنصار دينه ورسوله وكتابه».[200/2].

❍ «فدعا الناس من أهل قريته وما قرب منها أن يتركوا عبادة أرباب القبور والطواغيت، وعبادة الأشجار والأحجار، والذبح للجن، ونحو ذلك; وكل هذا قد

وقع في قرى نجد وغيرها كالبوادي؛ فلما أنكر ذلك كرهوا ذلك منه، وطرده أهل قريته عنها، وهي: حريملا، وصار في العيينة يدعو إلى دين الإسلام، وينهى عن الشرك وعبادة الأوثان، وقبل ذلك طائفة منهم ومن أهل الدرعية; ثم بعد ذلك ضاق نطاق أمير العيينة لما رآه قد أنكر قوله الخلق الكثير والجم الغفير، وقد نصب له العداوة أهل القرى والأمصار، والبادي والحاضر، فأمره أن ينتقل من بلده عنه.

وصار في الدرعية عند محمد بن سعود وأولاده وإخوانه، وبعض الأعيان من جماعته؛ فصار لهم قبول لهذه الدعوة، فصبروا على عداوة الناس قريبهم وبعيدهم، وكل قصدهم بالحرب، فثبتهم الله على قلتهم وكثرة من خالقهم، وقتل من قتل من أعيانهم، فصبروا، وصارت الحرب بينهم سجالا، والله يحميهم ويقوي قلوبهم؛ وما جرى بينهم وبين عدوهم، مذكور في التاريخ.

فأظهر الله هذا الدين في نجد، والبادية، حتى لم يكن فيهم من ينازع ويجادل، لأن الله أبطل كل شبهة، بما أبداه هذا الشيخ ببيانه، ومصنفاته التي صارت في أيدي المسلمين; وانتشرت دعوته في الأمصار، وقبلها القليل منهم ممن له التفات إلى ما ينفعه، بخلاف من لم يرفع بذلك رأسا، ولم يقبل هدى الله، وهم الأكثرون، فلله الحمد على هذه النعمة العظيمة، فيا سعادة من هدي إلى معرفة حقيقة دين الإسلام واتبعه». [2/221].

❍ «وأكثر الناس بدعونا، وخرجونا، وعادونا عنده، وقاتلونا، واستحلوا دماءنا وأموالنا، ولم يكن لنا ذنب سوى تجريد التوحيد، والنهي عن دعوة غير الله، والاستغاثة بغيره، وما أحدث من البدع والمنكرات، حتى غلبوا وقهروا، فعند ذلك أذعنوا، وأقروا بعد الإنكار». [10/274].

❍ «فصاحوا به منكرين لما دعاهم إليه، واستنجدوا بالملوك من كل جانب، حتى أخرجوه من بلده العيينة، فهاجر إلى الدرعية. فتلقاه شيخ البلد محمد بن سعود

رحمه الله، هو وأولاده، وقرابته، وأعيان أهل بلده، فقابلوا دعوته بالقبول، وجدوا في نصرته على ضعفهم وقلتهم، وكثرة عدوهم.

واستصرخ أعداؤهم الملوك عليهم، فما زالوا يرمونهم بقوس العداوة، وحزبوا عليهم مرارا كثيرة من كل جهة، فأظهرهم الله على من عاداهم، على ضعفهم وقلتهم، وأوقع بأسه بكل من عاداهم في الملوك، وأهلكهم الله، وأباد خضراهم؛ وفي ذلك آيات لمن كان واعيا..»[11/ 408].

❍ «وأما استدلاله[1] بأحاديث الخوارج، وتنْزيله المسلمين منْزلتهم، فهم أبعد الناس شبها بالخوارج؛ بل رأيهم في الخوارج هو رأي الصحابة رضي الله عنهم؛ وأما ابن منصور[2] وشيعته: فهم أقرب الناس شبها بالخوارج، بل هم أعظم، لتكفيرهم المسلمين بالتوحيد، وهو إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له؛ فمن كفر المسلمين بالتوحيد، فهو أعظم بدعة من الخوارج».[11/ 576].

❍ «فصاح به الأكثرون، وحذروا منه الملوك، وأغروهم بعداوته، حتى إن ابن حميد ملك الأحساء والقطيف والبادية، أرسل إلى ابن معمر أمير العيينة أن يقتله، أو ينفيه، فنفاه إلى الدرعية. وتلقاه محمد بن سعود رحمه الله، وأولاده، وإخوته، فصبروا على حرب القريب والبعيد، حتى أظهر الله هذا الدين، فنجا بدعوته من أنجاه الله من الشرك والضلال، وهلك بدعوته من هلك ممن بغى وطغى، واستكبر وحسد؛ وكل من دعا إلى ما دعت إليه الرسل، لا بد أن يقع له من الناس ما وقع لهم».[12/ 9].

❍ «فأشبه أمر هذا الشيخ، رحمه الله تعالى ما جرى لخاتم النبيين، حتى في مهاجره، وأنصاره، وكثرة من عاداه وناوأه في الابتداء، كما هو حال الحق في

---

(1) يعني أحد أعداء الدعوة.
(2) من أعداء الدعوة.

المبادي، يرده الكثير وينكرونه، ويقبله القليل وينصرونه؛ فأول من عاداهم: أقرب الناس إليهم بلدا، وأقواه كثرة ومالا، بلاد دهام بن داوس.

وهو أول من شن الغارة عليهم على غفلة وغرة، وعدم الاحتساب منهم، فخرجوا إليه على فشل، فقتل منهم رجالا، منهم فيصل بن سعود، وسعود بن محمد بن سعود، فسبحان من قوى جأش هذا الرجل على نصرة هذا الدين، حين قتل ابناه؛ ثم سطا عليهم مرة ثانية، فقتل كثيرا ممن سطا بهم، فأخذ المسلمون الثأر منهم. ثم بعد ذلك استمر الحرب بينهم وبينه، أكثر من ثلاثين سنة، وفي تلك الثلاثين السنة أو أكثر، أعانه على حربهم أهل نجران، وابن حميد شيخ بني خالد، مرارا، فيأتونهم بأنواع الكيد والكثرة، فينصرهم الله عليهم، وفي ذلك أعظم عبرة.

وبعد هذه المدة وقع بينه وبين المسلمين وقعة بين البلدين، فقتل فيها ابناه (دواس) و(سعدون) فانتهى أمره، فخرج من بلده هاربا في يوم صيف شديد الحر، وتبعه من تبعه؛ فصارت بلده فيئا للمسلمين، ولم يبق لآل دواس بعد ذلك عين تطرف...»[12/15].

❍ «وذلك أن الذين أنكروا هذه الدعوة، من الدول الكبار، والشيوخ وأتباعهم من أهل القرى والأمصار، أجلبوا على عداوة هذا العدد القليل، في حال تخلف الأسباب عنهم وفقرهم، فرموهم عن قوس العداوة.

من أهل نجد: دهام بن داوس المتقدم ذكره، وابن زامل، وآل بجاد أهل الخرج، ومحمد بن راشد صاحب الحوطة، وتركي الهزاني، وزيد، ومن والاهم من الأعراب والبوادي، كذلك العنقري في الوشم ومن تبعه، وشيوخ قرى سدير والقصيم، وبوادي نجد، وابن حميد ملك الأحساء، ومن تبعه من حاضر وباد.

كلهم مجمعون لحرب المسلمين، مرارا عديدة مع عريعر، وأولاده، منها: نزولهم على الدرعية، وهي شعاب لا يمكن تحصينها بالأبواب والبناء؛ وقد أشار إلى

ذلك العلامة: حسين بن غنام رحمه الله، حيث يقول شعرا:

وجاؤوا بأسباب من الكيد مزعج   مدافعهم يزجي الوحوش رنينها

فنَزلوا البلاد، واجتمع من أهل نجد حتى من يدعي أنه من العلماء؛ ولما قيل لرجل منهم، وهو من أمثل علمائهم وعقلائهم: كيف أشكل عليكم عريعر وفساده، وظلمه، وأنتم تعينونه وتقاتلون معه؟ فقال: لو أن الذي حربكم إبليس لكنا معه.

والمقصود: أن الله تعالى ردهم بغيظهم لم ينالوا خيرا، وكفى الله المؤمنين القتال، وحمى الله تلك القرية، فلم يشربوا من آبارها.

وأما وزير العراق، فسار مرارا عديدة بما يقدر عليه من الجنود والكيد الشديد، وأجرى الله عليهم من الذل ما لا يخطر ببال، قبل أن يقع بهم ما وقع... ثم جددوا أسبابا لحرب المسلمين، وساروا بدول عظيمة يتبع بعضها بعضا، وكيد عظيم... ثم قام علي كيخيا فصار هو الباشا، فأخذ يجدد آلة الحرب، فجمع من الكيد والأسباب، أعظم مما كان معه في تلك الكرة. فلما كملت أسبابه، وجمع الجموع، فلم يبق إلا خروجه لحرب المسلمين، لينتقم من أهل هذا الدين، سلط الله عليه صبيين مملوكين عنده يبيتونه، فقتلوه آخر الليل؛ فخمدت تلك النيران، وتفرقت تلك الأعوان، فما قام لهم قائمة حتى الآن.

فيا لها من عبرة ما أظهرها لمن له أدنى بصيرة! فاعتبروا يا أولي الأبصار! فأين ذهب عقل من أنكر هذا الدين وجادل، وكابر في دفع الأدلة على التوحيد وماحل؟!

[و] ما جرى من العبر في حرب أشراف مكة، لهذه الدعوة الإسلامية، والطريقة المحمدية، وذلك أنهم من أول من بدأ المسلمين بالعداوة، فحبسوا حاجهم، فمات في الحبس منهم عدد كثير، ومنعوا المسلمين من الحج أكثر من ستين سنة؛ وفي هذه المدة سار إليهم غالب الشريف، بعسكر كثيف، وكيد عنيف، فقدم أخاه عبد العزيز قبله بالخروج، فنَزل على قصر بسام، فأقام مدة يضرب بالمدافع والقنابل، وجر عليه

الزحافات؛ فأبطل الله كيده على هذا القصر، الضعيف بناؤه، القليل رجاله، فرحل منه... وبعد ما ذكرناه، جد غالب في الحرب، واجتهد، لكن صار حربه للأعراب، ولم يتعد النير، فيعدو على من استضعف ويغير، فأعطى الله أعراب المسلمين الظفر عليه في عدة وقعات... وأما الدول التركية المصرية، فابتلى الله بهم المسلمين لما ردوا حاج الشام عن الحج، بسبب أمور كانوا يفعلونها في المشاعر، فطلبوا منهم أن يتركوها، وأن يقيموا الصلاة جماعة، فما حصل منهم ذلك، فردهم سعود رحمه الله تدينا؛ فغضبت تلك الدولة التركية، وجرى عندهم أمور يطول عدها، ولا فائدة في ذكرها.

فأمروا محمد علي، صاحب مصر أن يسير إليهم بعسكره، وبكل ما يقدر عليه من القوة والكيد...[1]». [12/ 17-42].

❍ «والمخلص الداعي إلى توحيد الله، وإخلاص العبادة له، عندهم خارجي مبتدع...وأكثر هؤلاء لا يقتصرون على نسبة أهل التوحيد إلى الخوارج والمبتدعة، بل يصرحون بتكفيرهم، واستحلال دمائهم وأموالهم، والله المستعان». [12/ 189].

❍ «ثم إن أهل الأحساء – وهم خاصة العلماء – أنكروا دعوته، وكتبوا شبهات تنبئ عن جهلهم وضلالهم، وأغروا به شيخ بني خالد، وكتبوا لابن معمر أنه يقتل هذا الشيخ أو يطرده، فما تحمل مخالفته فنفاه من بلده إلى الدرعية.

فتلقاه محمد بن سعود، رحمه الله، بالقبول وبايعه على أن يمنعه مما يمنع منه أهله وولده، وهذه أيضا نعمة عظيمة، كون الله أتاح له من ينصره ويؤويه، والذي أقوى من ابن سعود وأكثر لم يحصل منه ذلك، وصبر محمد على عداوة الأدنى والأقصى، أهل نجد والملوك من كل جهة.

---

(1) في المجلد 12/ 17-42 من الدرر السنية تجد قصة الدعوة وأعدائها وافية، وقد اختصرت منها هنا ما يناسب المقام.

وبادأهم دهام ابن دواس بالحرب، فهجم على الدرعية على غرة من أهلها، وقتل أولاد محمد، فيصل وسعود، فما زاد محمد إلا قوة وصلابة في دينه، رحمه الله، على ضعف منه وقلة في العدد والعدة، وكثرة من عددهم، وذلك من نعمة الله وآياته علينا وعليكم; فرحم الله هذا الشيخ، الذي أقامه الله مقام رسله وأنبيائه، في الدعوة إلى دينه، ورحم الله من آواه ونصره، فلله الحمد على ذلك.

وفيما جرى من ابن سعود، شبه بما جرى من الأنصار في بيعة العقبة; ثم إن أهل نجد وبني خالد وأهل العراق والأشراف، والبوادي والقرى، تجردوا لعداوة هذا الشيخ، ومن آواه ونصره، وأقبلوا على حربهم بحدهم وحديدهم، وكثرة جنودهم وكيدهم.

فأبطل الله كيد كل من عاداهم، وكل من رام من هؤلاء الملوك أن يطفئ هذا النور، أطفأ الله ناره وجعلها رمادا، وجعل كثيرا من أموالهم فيئا للمسلمين، وهذه عبرة عظيمة ونعمة جسيمة.

ثم إن الله بفضله وإحسانه: أظهر هذا الدين في نجد، وأذل من عاداه، فعمت النعمة أهل نجد، ومن والاهم شرقا وغربا، وحفظ الله عليكم نعمة الإسلام، التي رضيها سبحانه لعباده دينا، فلم يقدر أحد أن يغيرها بقوته وقدرته.

فاشكروا ربكم سبحانه، الذي حفظ عليكم دينكم، ورد لكم الكرة على من خرج عنه، وذلك بالإقبال على التوحيد، تعلما وتعليما، والأمر بما يحبه الله من طاعته، والنهي عما نهى الله عنه من المعاصي». [163/12].

❍ «**الشيخ لم يبدأ أحداً بالقتال بل أعداؤهم الذين ابتدأه بذلك، وقتاله كان من باب الدفع والمجازاة على السيئة بمثلها**، وما حدث بعده أو في وقته من خطأ أو تعد فلا يجوز نسبته إليه، وأنه أمر به ورضيه، أقد جرى لأسامة بن زيد في دم الجهني، وجرى لخالد بن الوليد في دماء بني جذيمة وأموالهم ما يجهله أهل العلم والإيمان.

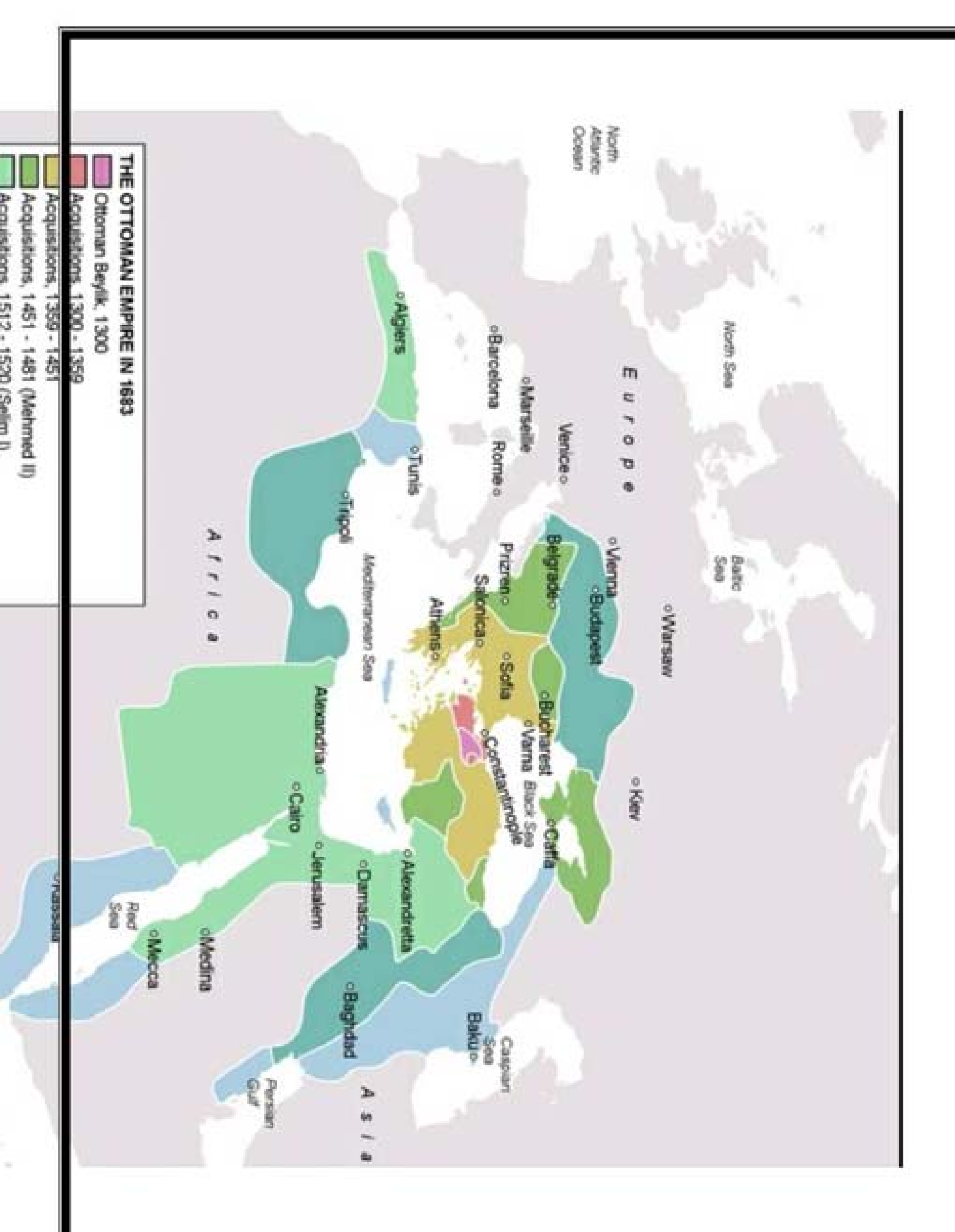
وذلك في عهده ﷺ وقد برئ منه وأنكره، فقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صصنع خالد» وقال لأسامة: «أقتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله؟ كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة» ومن أشكل عليه أمر القتال في زمن الشيخ وعلى دعوته فهو إما جاهل بحال الأعداء وما قالوه في الإسلام، وما بدلوه من الدين، وما كانت عليه البوادي والأعراب من الكفر بآيات الله، ورد أحكام القرآن والاستهزاء بذلك، والرجوع إلى سوالف البادية، وما كانت عليه من العادات والأحكام الجاهلية، وأمثلهم حالاً من عرف أن كتاب الله وأحاديث رسوله عند الحضر، فلم يرفع بذلك رأساً ولم يبال بشيء مما هنالك، أو هو جاهل بما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب، لا شعور له بشيء من ذلك، ولا يدري ما الناس فيه من أمر دينهم.

وبالجملة: فالواجب أن يتكلم الإنسان بعلم وعدل، ومن فاته العلم فحسبه السكوت إن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ومن خلع ربقة الدين من عنقه فليقل ما شاء الله، والله بما يعملون بصير. [منهاج التأسيس ص28].

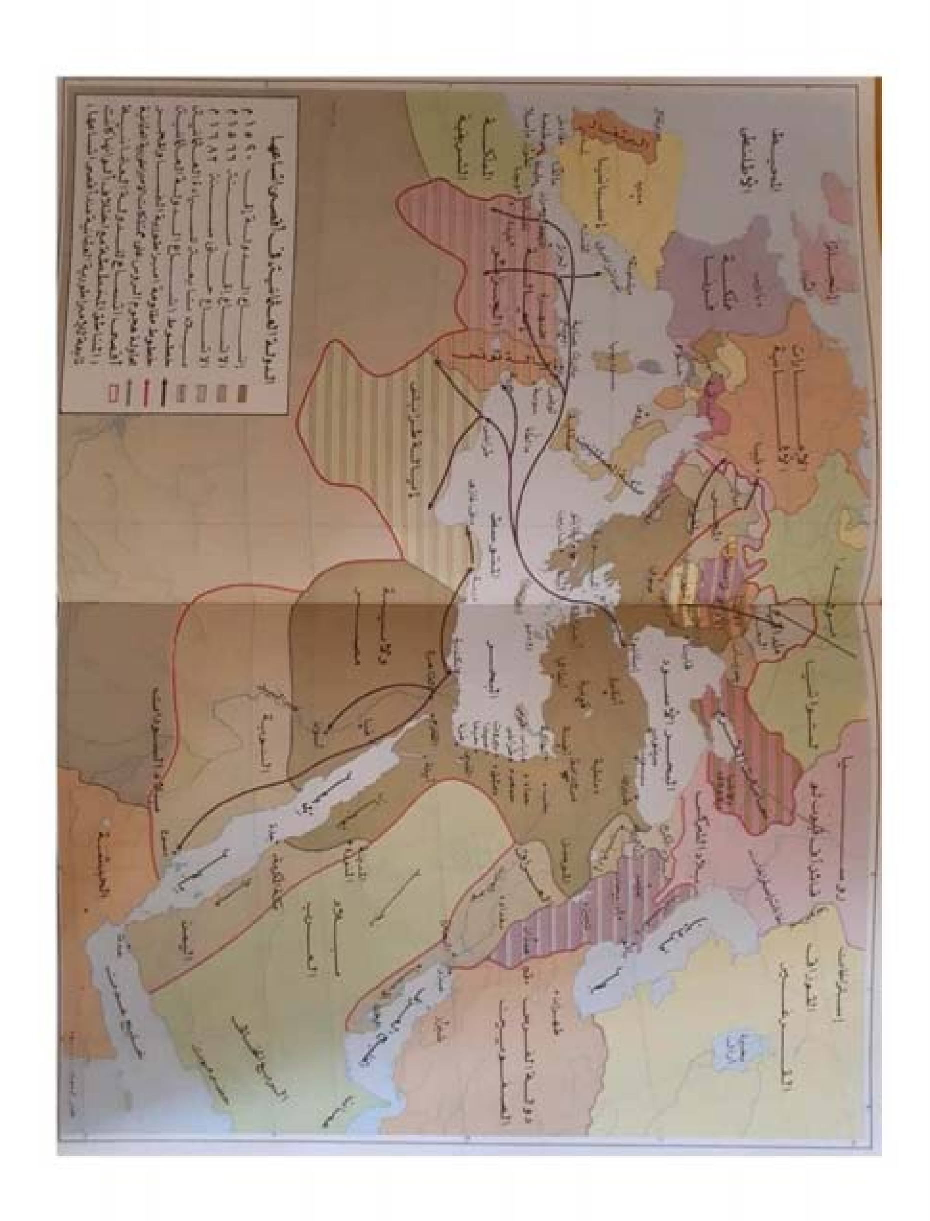
ولنا عودة

ولنا عودة في آخر البحث نتحدث فيها عن تطور القتال وتوسعه.

الخرائط



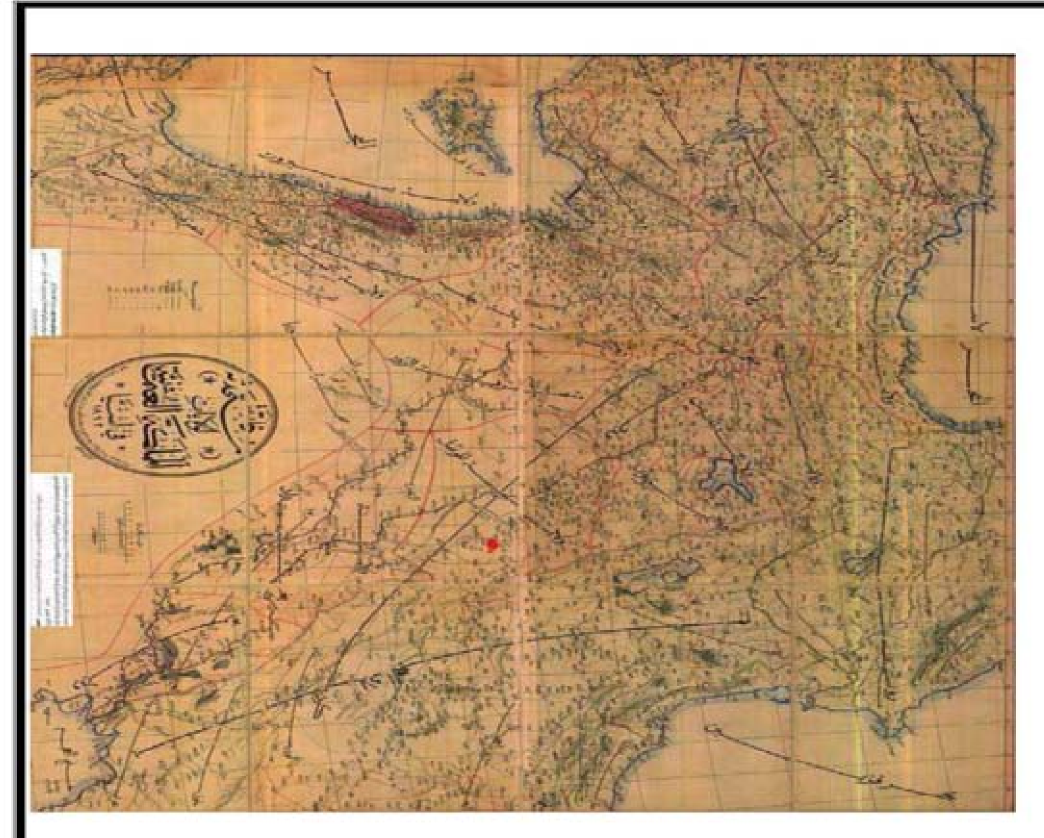
خارطة تبيّن حدود أقصى توسع بلغته الدولة العثمانية ونلاحظ أن قلب الجزيرة العربية ليس ضمن سلطاتها، ويلاحظ أن أكثر هذه الحدود بلغتها الدولة في عهد سليمان القانوني الذي حكم إلى سنة 1566 م، ثم انضافت بعد المناطق وبقيت على هذا التوسع إلى سنة 1683 م، قبل عقد الدرعية ب61 سنة ، ثم بدات بالتآكل تدريجيا.



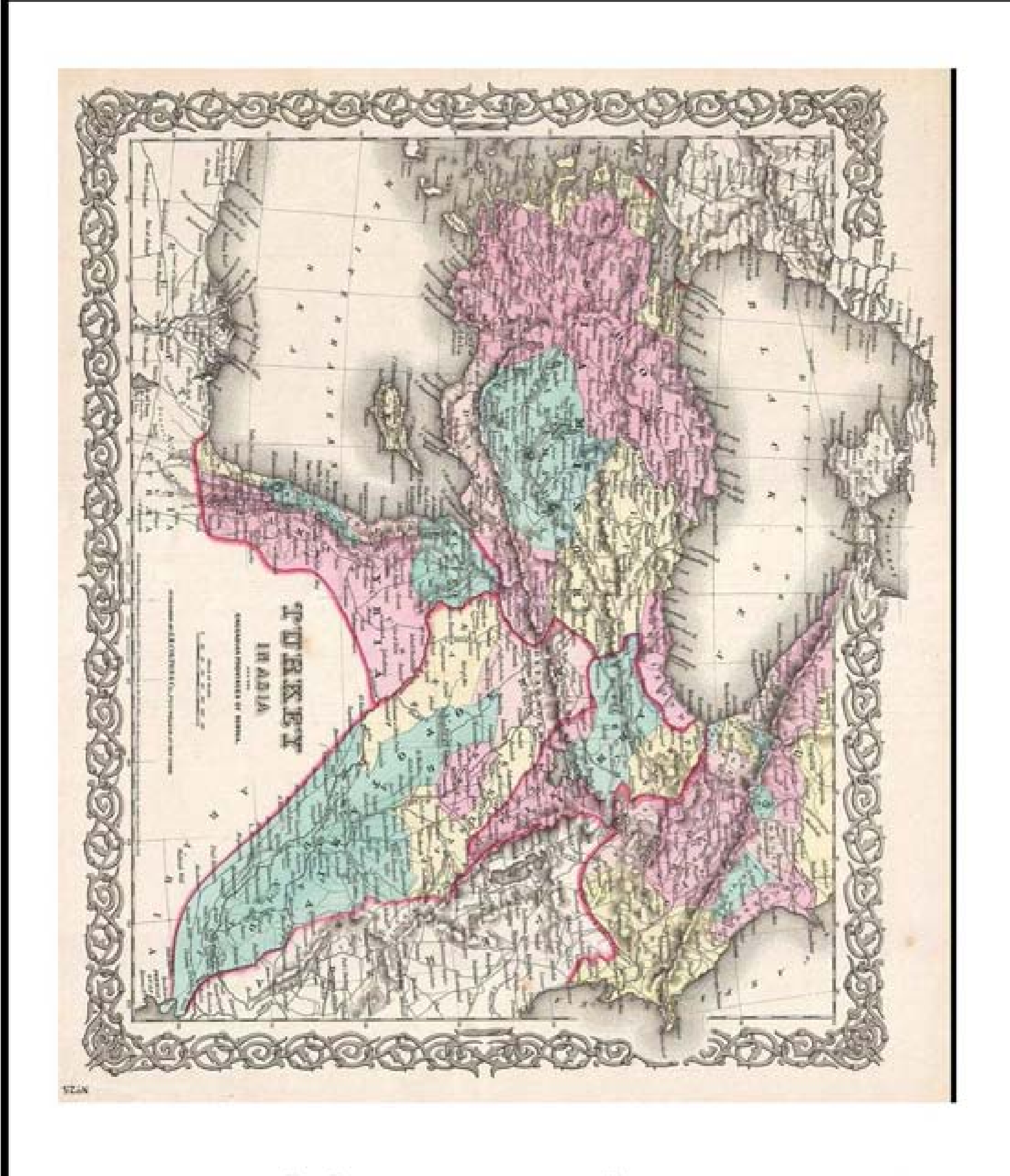
خارطة أخرى لأقصى توسع بلغته الدولة العثمانية، وحدود الدولة باللون الأحمر، ويلاحظ أن منطقة نجد لم تدخل في حدودها. المرجع: أطلس تاريخ الإسلام



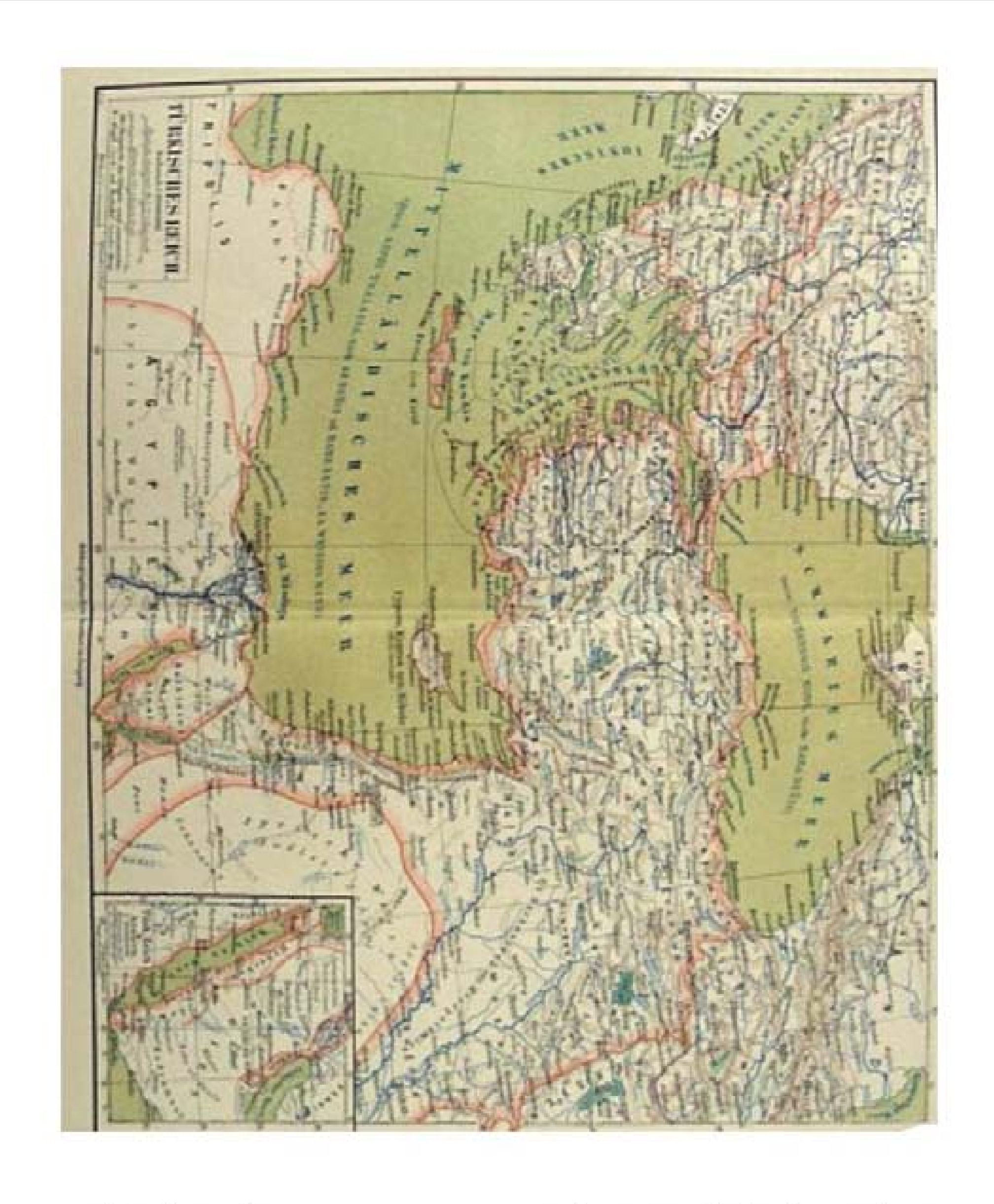
خريطة عثمانية عتيقة، يعود تاريخها لسنة 1803م، يظهر ختم الدولة العلية عليها أعلى اليمين، تظهر إيالات الدولة العثمانية ملوّنةً فيها، ويلاحظ انتهاء حدودها في منطقة العراق والشام اليوم، ويلاحظ أن بادية العرب ومنها نجد ليست داخلة ضمن حدودها.



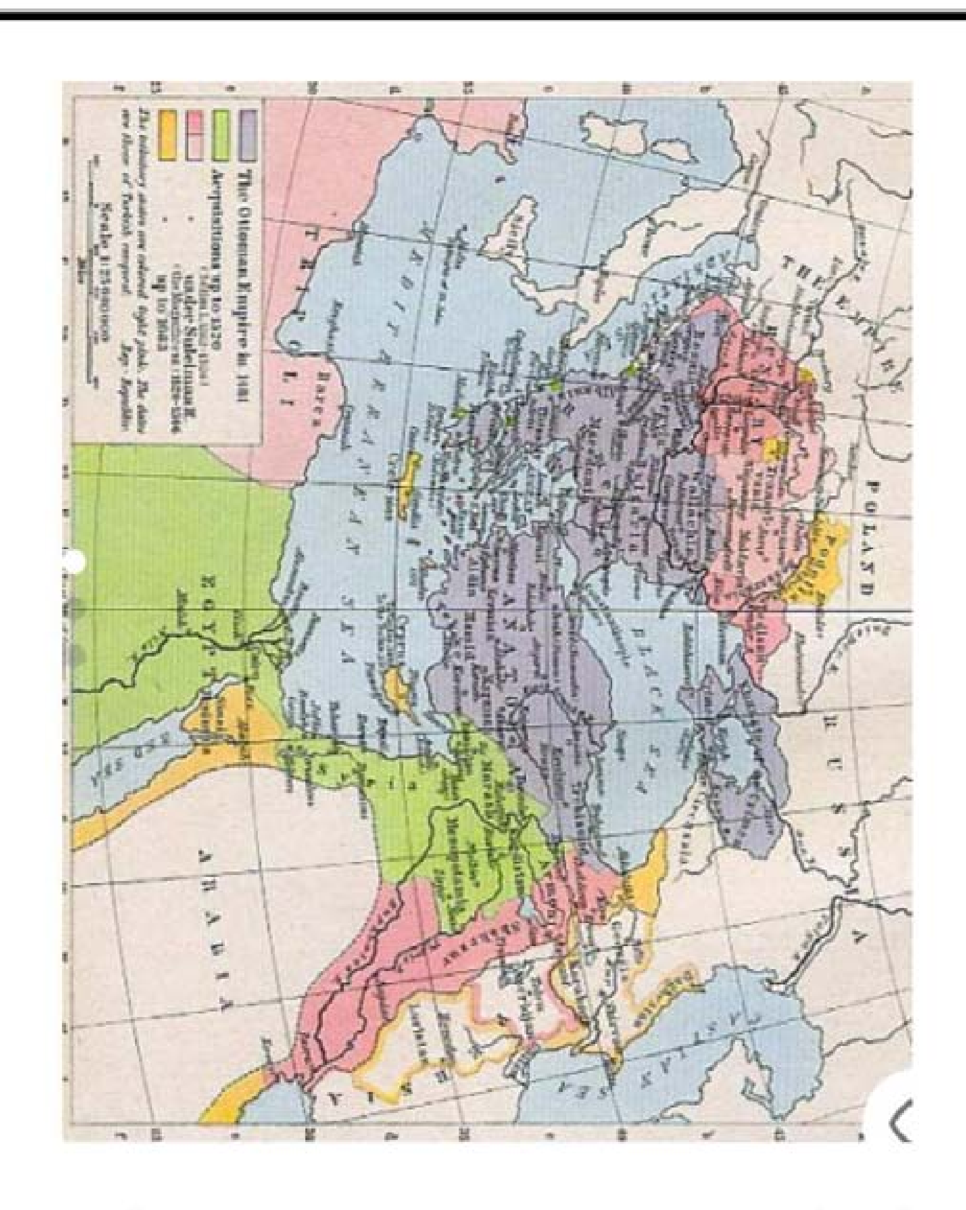
خريطة عثمانية عتيقة أخرى لولايات الدولة العثمانية في آسيا، يعود تاريخها لأكثر من مئة سنة، يلاحظ فيها أيضا أن حدود الدولة وهي بالخط الأحمر في الصورة تنتهي في منطقة العراق والشام اليوم.



خريطة قديمة لحدود الدولة العثمانية في آسيا تعود لسنة 1855م ويلاحظ أيضا أن حدودها تنتهي في منطقة العراق والشام.



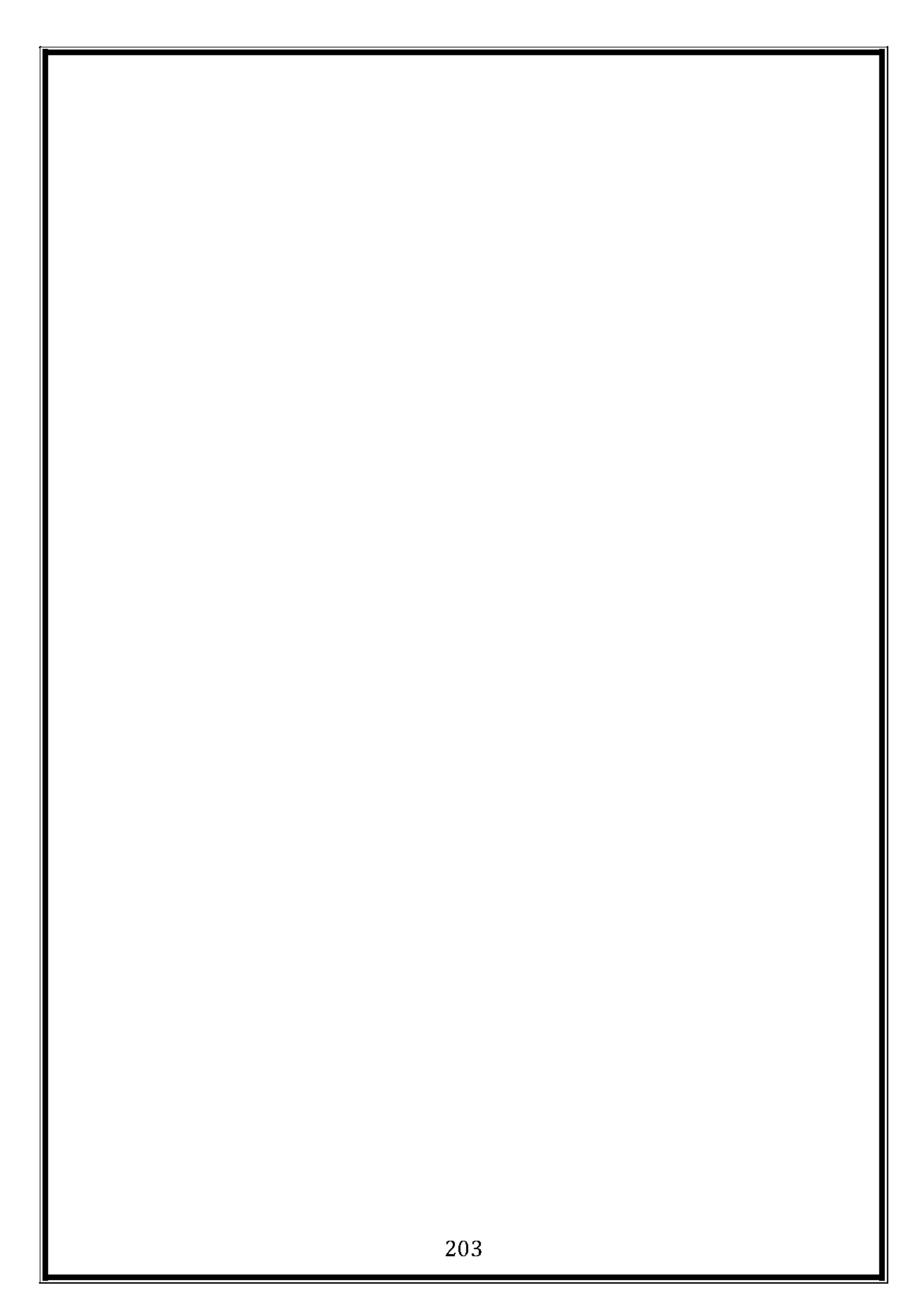
خريطة قديمة للدولة العثمانية تعود لسنة 1892 م، رسمها مايرس، يظهر فيها أيضا أن حدود الدولة وهي باللون الأحمر تنتهي في منطقة العراق والشام.

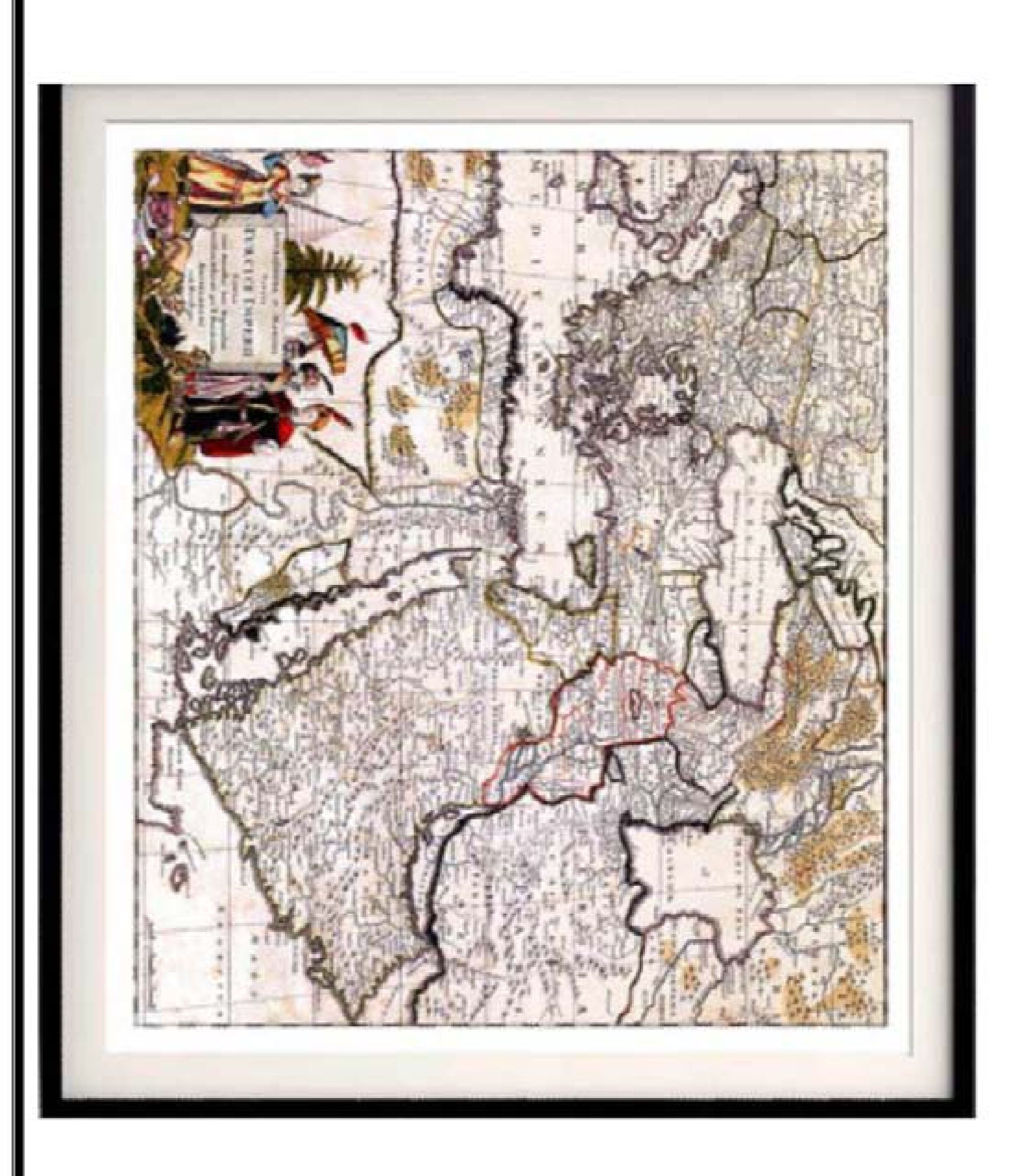


خريطة أجنبية لأقصى توسع بلغته الدولة العثمانية وقد تم تلوين ولاياتها ، ويلاحظ أن الجزء الأكبر من الجزيرة العربية لم يكن تحت ولايتها.



خريطة عتيقة لحدود الدولة العثمانية في منطقة آسيا، رسمت سنة 1896 م، رسمها فيلهاجن وكلاسينج، ويلاحظ انتهاء حدودها وهي باللون الأحمر في الصورة في منطقة العراق والشام.

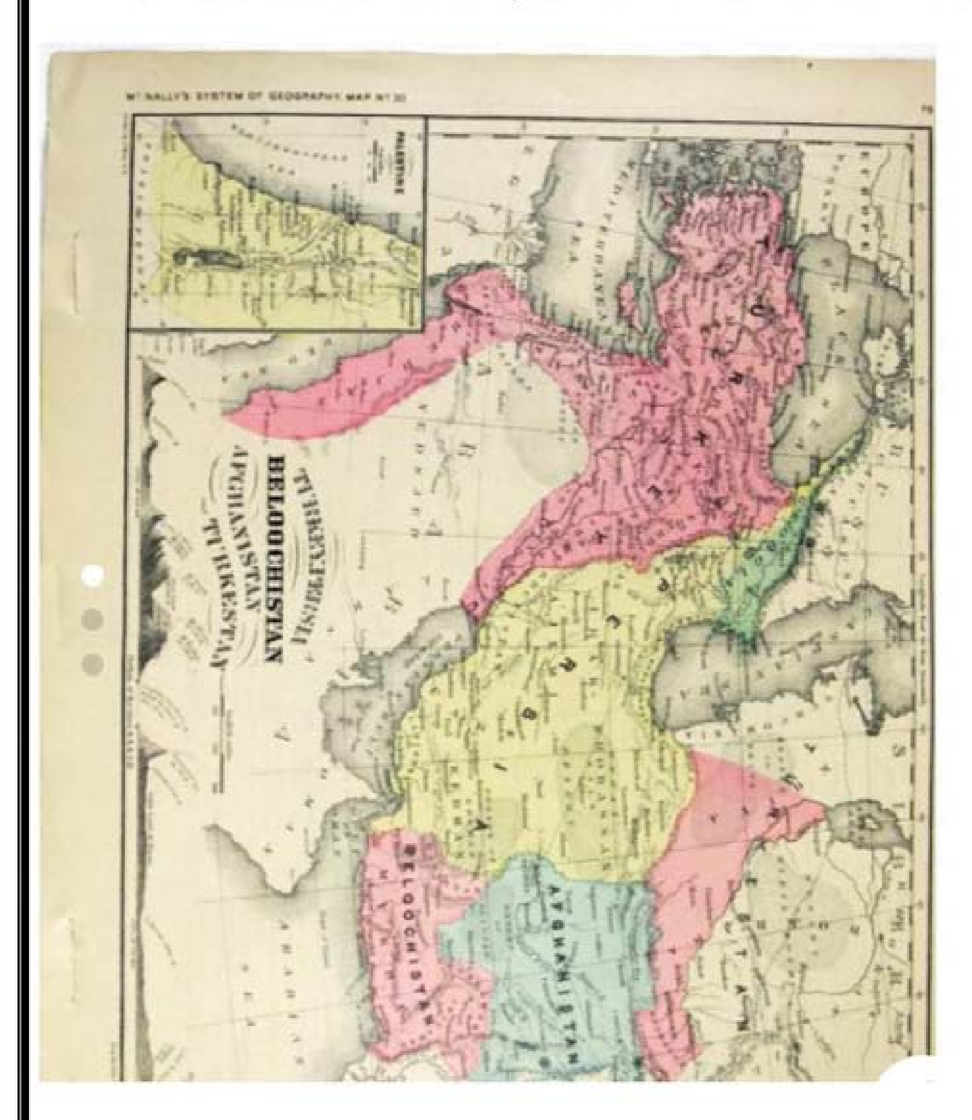




خريطة عتيقة لحدود الدولة العثمانية تعود للقرن الثامن عشر، وقد تم تلوين حدودها ويلاحظ أن حدودها في العراق ملونة بالأحمر وفي الشام بالأصفر، ويلاحظ عدم وجود حدود لها في منطقة جزيرة العرب.



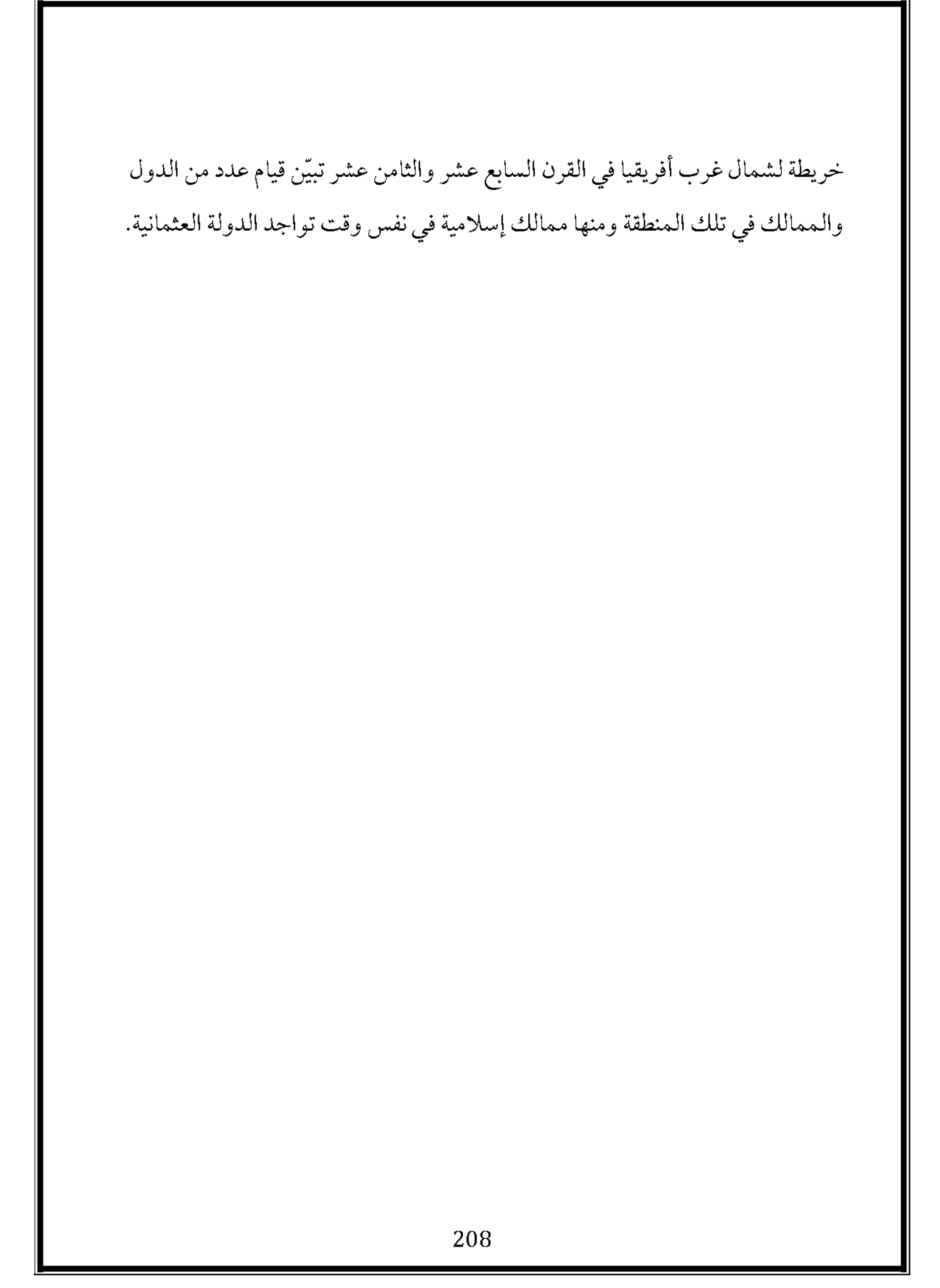
خريطة عتيقة للدولة العثمانية تعود لسنة 1753م ، ولها أهمية بالغة فهي تمثل مرحلة عقد الدرعية وتكوين الدولة النجدية، تم تلوين حدودها فيها باللون الأحمر وقد ضمت أجزاء من العراق والشام ومصر، واستخدمت ألوان أخرى للدول المجاورة، ويلاحظ فيها تحديد الدولة الصفوية في الشرق بلون أصفر، والجزيرة العربية بالأخضر.



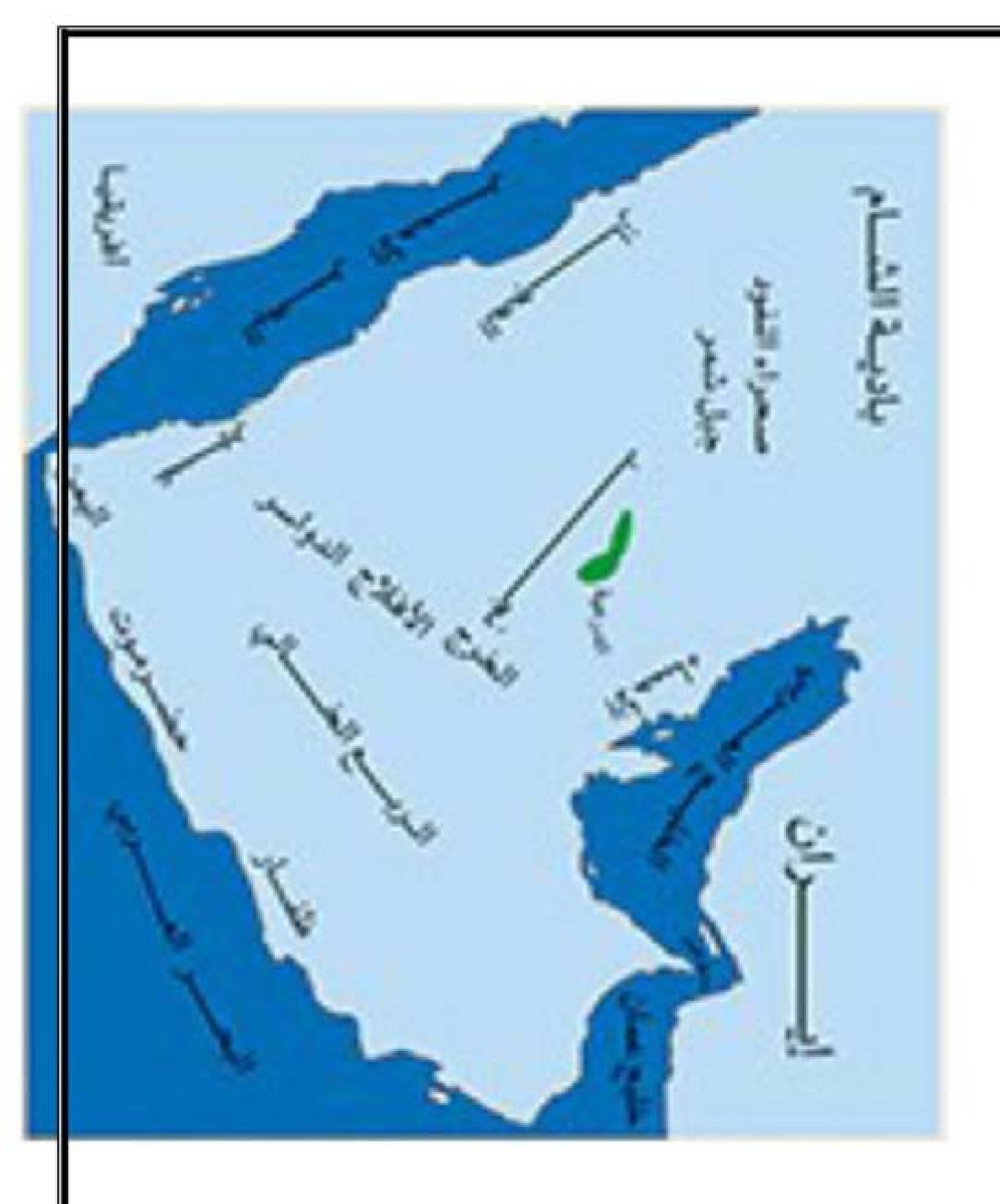
خريطة قديمة تعود لسنة 1866م، تبيّن حدود الدولة العثمانية في آسيا والدول المجاورة لها ومنها دول إسلامية في

نفس الوقت، فتظهر دولة فارس وكان يحكمها الصفويون ودولة بلوشستان وبلاد الأفغان وتركستان وغيرها، ويلاحظ أن حدود الدولة العثمانية تنتهي عند العراق والشام ومناطق من الحجاز ، أما سائر الجزيرة العربية فليست من حدودها.

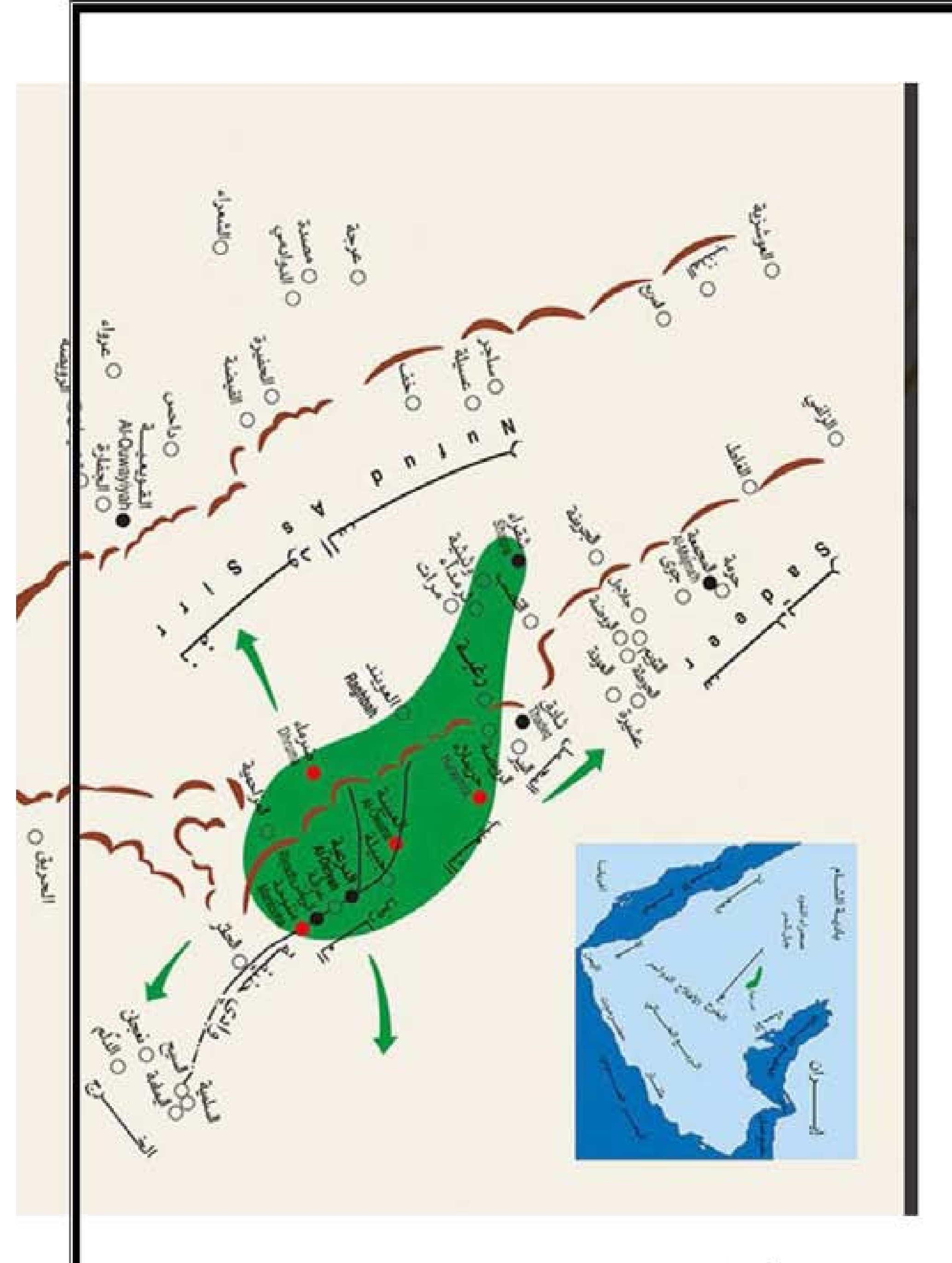




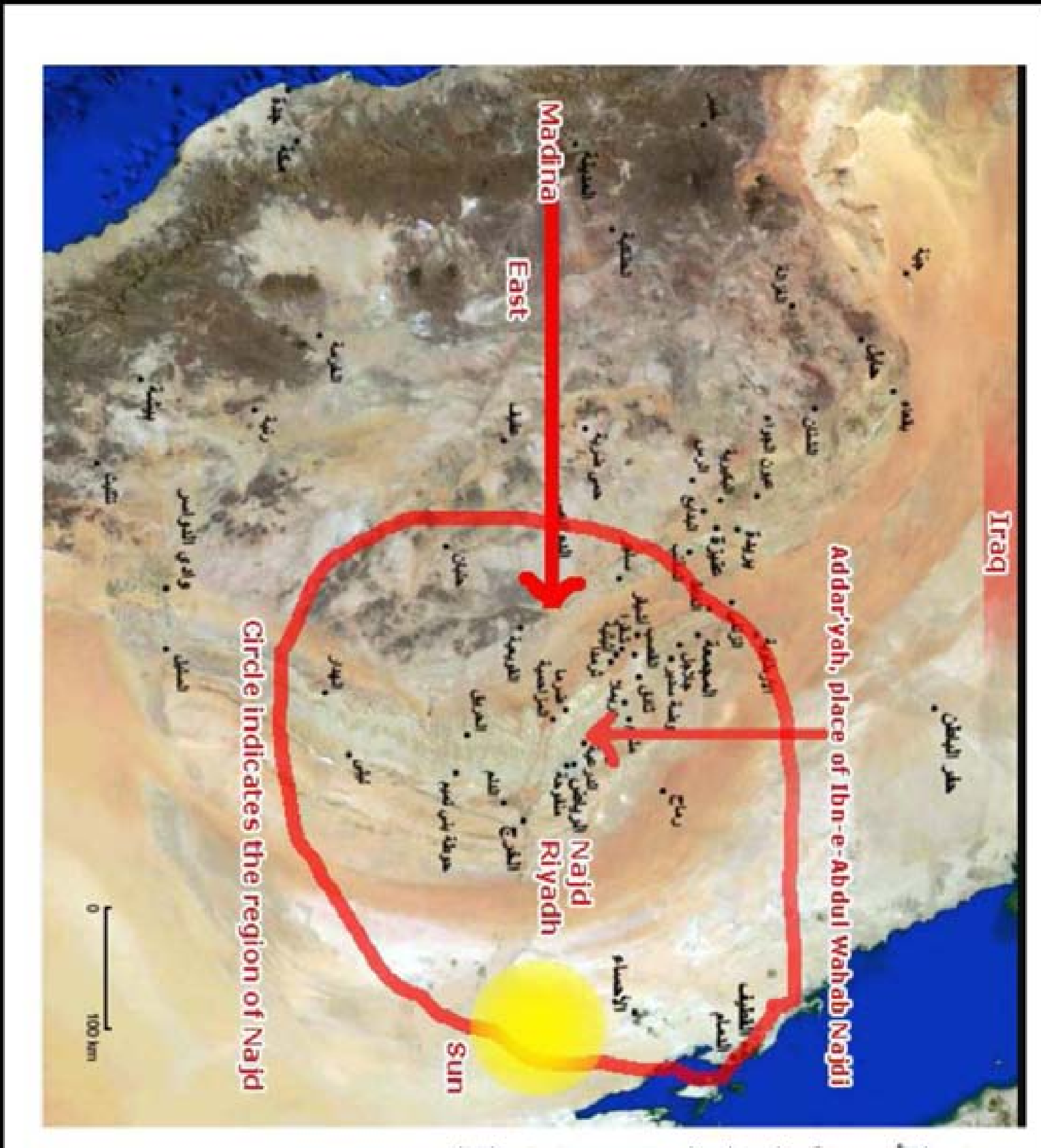
خريطة لشمال غرب أفريقيا في القرن السابع عشر والثامن عشر تبيّن قيام عدد من الدول والممالك في تلك المنطقة ومنها ممالك إسلامية في نفس وقت تواجد الدولة العثمانية.



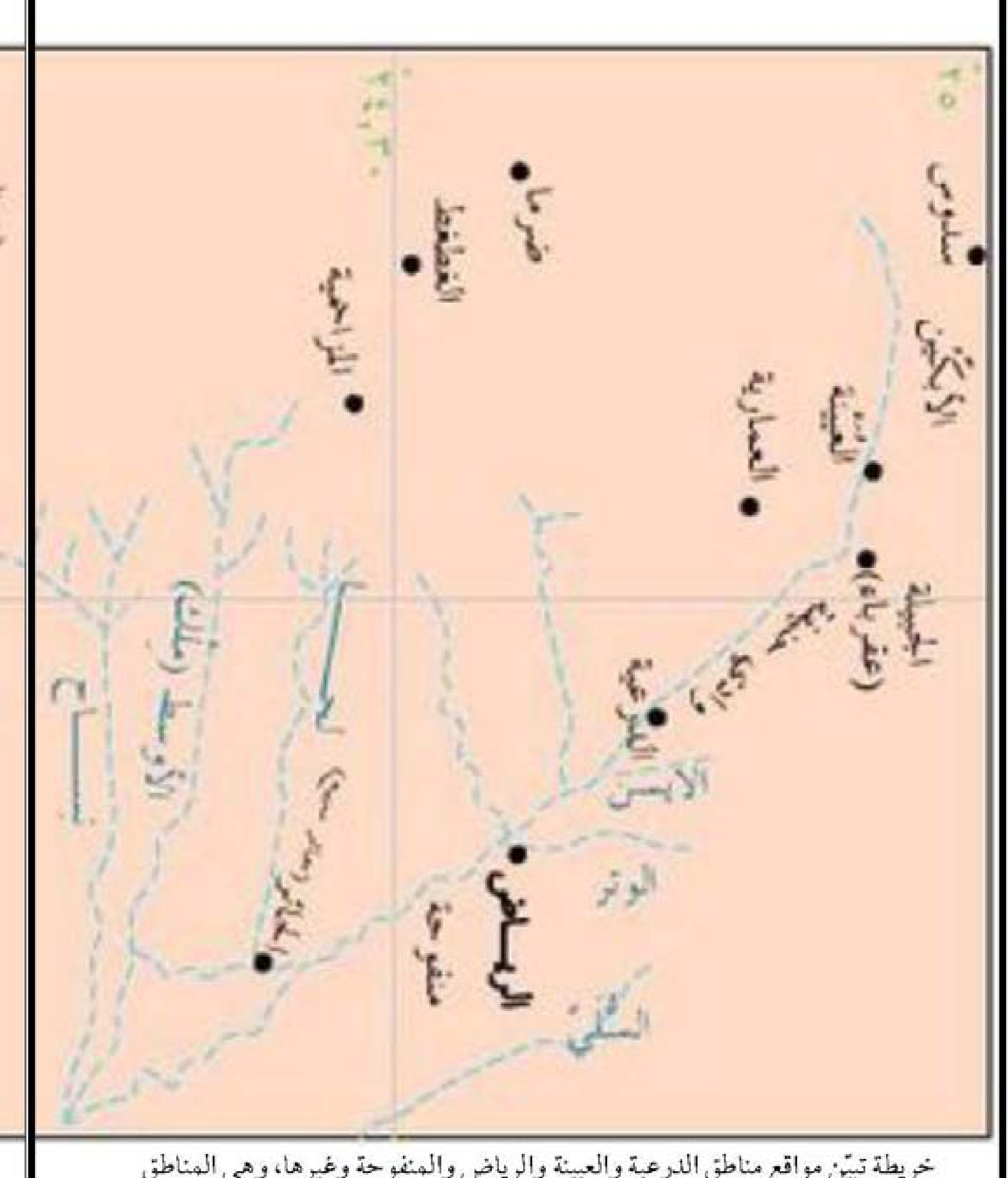
خريطة تبيِّن موضع منطقة الدرعية والنواة الأولى للدولة النجدية في قلب الجزيرة بعيدا عن حدود الدولة العثمانية.



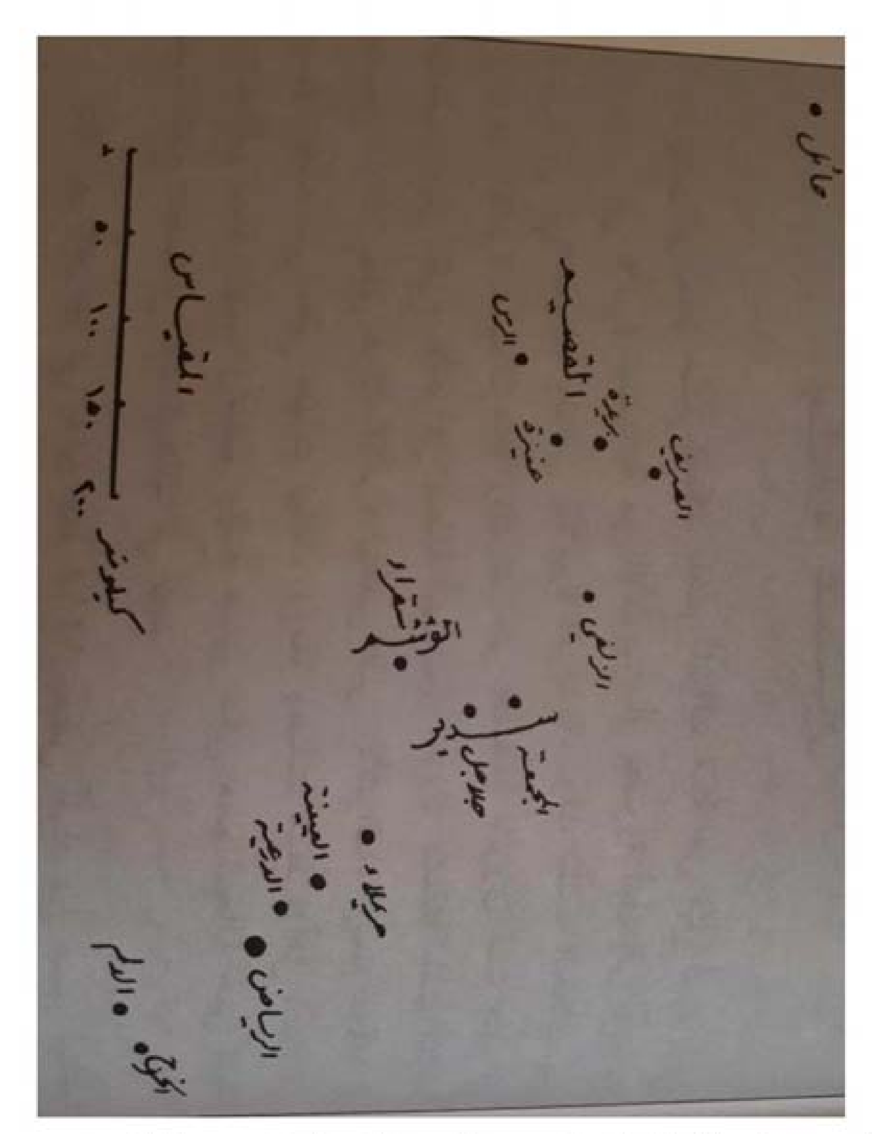
خريطة تبين النواة الأولى لإمارة النجديين وتظهر فيها مناطق العيينة وحريملاء والدرعية وغيرها.



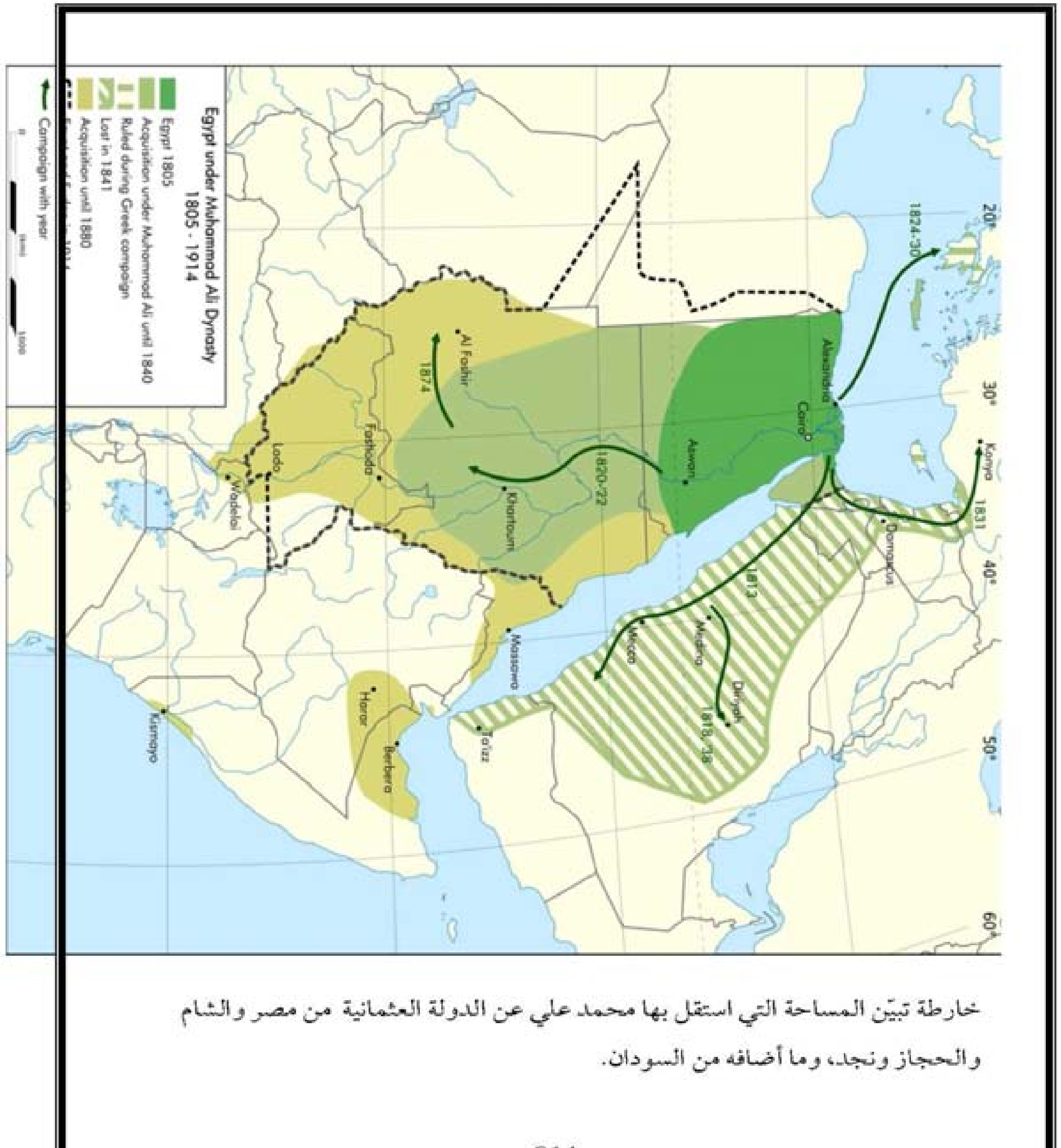
خريطة أخرى تبيّن المناطق التي توسعت فيها دولة النجديين.



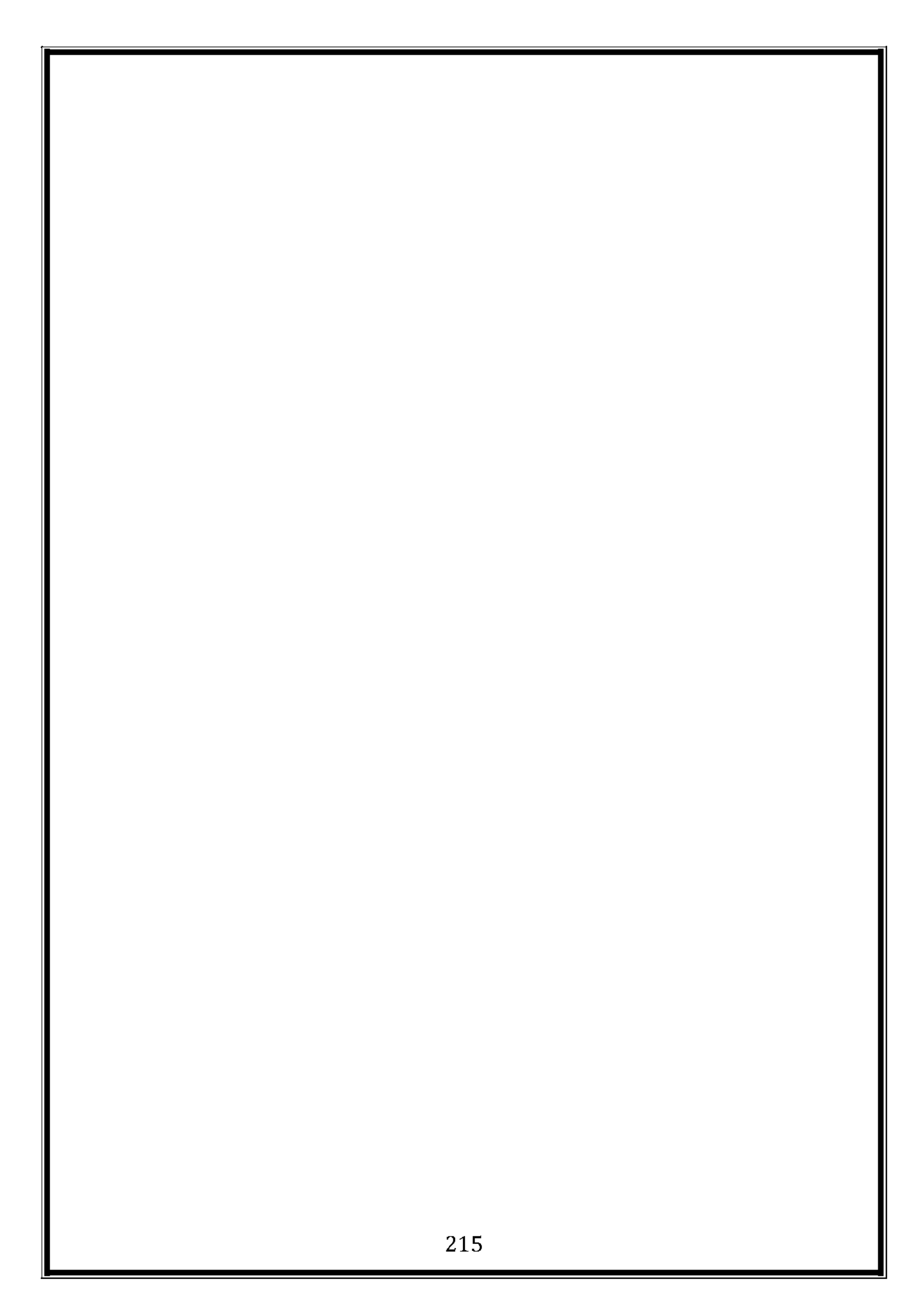
خريطة تبيّن مواقع مناطق الدرعية والعيينة والرياض والمنفوحة وغيرها، وهي المناطق التي شهدت النواة الأولى لحركة الشيخ الدعوية ودولة النجديين



خريطة أخرى تبين أهم المناطق التي شهدت بداية دعوة الشيخ في نجد ، ودولة النجديين.



خارطة تبيّن المساحة التي استقل بها محمد علي عن الدولة العثمانية من مصر والشام والحجاز ونجد، وما أضافه من السودان.





أدبيات التكفير في تراث أئمة الدعوة

(1)

مرحلة ظهور أدبيات التكفير التطبيقي في تراث الدعوة

بعد أن قررنا أن أدبيات القتال وترجمتها واقعيًا على الأرض في تراث الشيخ وأئمة الدعوة جاءت دفاعًا عن النفس وعن الدعوة وأبنائها، وأنهم لم يبدؤوا أحدًا بقتال.

ننتقل للحديث عن ظهور أدبيات التكفير لدى أئمة الدعوة، وأُذكِّر القاريء مرة أخرى أننا لا نزال نتحدث داخل دائرة الصراع فقط.

ونقصد بأدبيات التكفير هنا:

أ: التوسع في التقريرات والتحريرات العلمية النظرية لمسائل شتى متعلقة بأصول التكفير لاسيما الحديث عن **تنزيل الأحكام على المعينين** وشروطه وضوابط تطبيقه على أرض الواقع.

ب:ما بنوه على تلك التقريرات النظرية من أحكام التكفير التي **طبقوها على أرض الواقع**، وسنطلق عليه في بحثنا هنا: (التكفير التطبيقي) أو (التنزيلي).

وأريد أن أُخْرِجَ بذلك التقريرات العامة الكبرى في أبواب الشرك الأكبر وشرح صوره ومناقضته للتوحيد إلخ، فهذه مصاحبة للدعوة من أول ظهورها بل هي أصل رسالتها.

فنقول: إلى حين بدء مرحلة القتال بين الدعوة وأعدائها لم يخض الإمام وأتباعه في أبواب التكفير (بالمعنى المشروح) ولا برزت أدبياته في تقريراته وتقريراتهم خلال تلك السنوات الطوال التي مرّت على الدعوة وإمامها إلا أن يكون شيئًا في الهامش.

وليس هذا استنباط أو تخمين بل هو نص الشيخ ومؤرخي الدعوة وأبنائها على أن القتال والتكفير إنما بدأ به الأعداء وليس هم.

فعامة تقريرات الشيخ التي مرَّت معنا والتي يقرر فيها أن الأعداء هم من بدأ بالقتال، نجده يقرن بين ذلك وبين بَدئهم هم أيضا بتكفيره وتكفير أتباعه، ولا نفهم من هذا إلا أن أداة التكفير إنما بدأ بها أيضا أعداء الدعوة، أما الشيخ فإنه قبل مرحلة شروعهم في القتال والتكفير له ولدعوته لم تظهر عنده ولا عند أتباعه أدبيات للقتال ولا للتكفير.

مثل قول الشيخ:

«فهذا [أي الدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك] هو الذي أوجب الاختلاف، بيننا وبين الناس، حتى آل بهم الأمر، إلى أن **كفرونا، وقاتلونا، واستحلوا دماءنا، وأموالنا**، حتى نصرنا الله عليهم، وظفرنا بهم; وهو الذي ندعو الناس إليه، ونقاتلهم عليه، بعدما نقيم عليهم الحجة، من كتاب الله وسنة رسوله، وإجماع السلف الصالح من الأئمة»[1].

فانظر كيف ربط الشيخ بين بدئهم هم بالقتال والتكفير.

ومثله أيضا قول الشيخ:

«**نحن ما جئناكم في التكفير والقتال**، لكن ننصحكم بهذا الذي قطعتم أنه دين الله ورسوله، أن تعلموه وتعملوا به، إن كنتم من أتباع محمد باطنا وظاهرا»[2].

ومعناه واضح في أنه لم يخرج عليهم لا بقتال ولا بتكفير بل بالنصح والتعليم والدعوة والإرشاد، وأنهم هم من بدأ في ذلك.

وتراجَع باقي النصوص فيما تقدم.

---

[1] «الدرر السنية» (1/ 87).

[2] «الدرر السنية» (1/ 92).

وإذا استعرضنا تاريخ الشيخ والدعوة نجد مصداق هذا، ونلخصه في النقاط التالية:

أولا: في مراحل بداية الشيخ الدعوية وهو مستضعف في العراق ثم في نَجْد لا نَجِد للشيخ تقريرات في التكفير التنزيلي، بل كانت طريقة الشيخ تتلخص في إعذار الناس بالجهل[1] لغلبته في زمانه وعدم مَن يناضل عن التوحيد ويكشف الشبهات فيه، وتقرير أن الجاهل لا يكفر إلا بعد إقامة الحجة عليه.

وقد حرص الشيخ نفسه على بيان موقفه من تكفير المنتسب للملة الواقع في الشرك الأكبر في أزمنة الجهل واندراس معالم الإسلام وعدم من يناضل عن الحق، وأنه لا يرى تكفيره ابتداءً بل الانشغال بإقامة الحجج ونشر العلم في المجتمع.

وقد نقلت في «الانتصار للدرر السنية»[2] عددا كبيرًا من تقريرات الشيخ الصريحة الواضحة في هذه المرحلة، فلتُراجع...

وقد استمر هذا المنهج للشيخ وكل أئمة الدعوة في حال وجود شرطه وتحققه كما سنشرحه قريبا.

ثانيا: لما تيسر للشيخ الدخول في حلف سياسي في العيينة اكتفي بتوظيف تحالفاته في نشر الدعوة والعلم فقط، ثم في تطبيق الشرع على الأرض، وقد أعلن الشيخ

---

[1] عندما نعبر بالإعذار بالجهل عند الشيخ إنما نريد ما سنقرره في هذا الكتاب من معنى لهذه القاعدة، لا ما يطرحه كثير من الباحثين حول المسألة مما لا نوافقهم عليه.

[2] (ص 57-65).

قراره بهدم القبور وتطبيق الشرع، ولكننا لا نجد له أيضا في تلك المرحلة تقريرات في تكفير أحد[1].

ثالثا: كذلك لما طُرد من العيينة لا نجد له تقريرات من النوع المذكور وإطلاقها على أعدائه مثلا، مع ما ارتكبوه في حقه.

رابعا: لما تحالف مع أمير الدرعية لا نجد له انشغالا إلا بنشر العلم والدعوة أما علاقته مع الآخرين خارج الدرعية فعلاقة مناصحة.

خامسا: بدراسة عامة الرسائل والتقريرات التي احتوت على الحديث عن التكفير (بالمعنى المذكور)، ونقد هذه الرسائل نقدًا داخليا يلاحظ الباحث وجود قرائن صريحة واضحة تدل على المرحلة التي ظهرت فيها عامة هذه التقريرات وأنها لم تظهر إلا بعد مرحلة القتال، أو بعد مرحلة الإشاعات والافتراءات التي واكبت القتال..فمثلا عندما نقف على مثل هذا التقريرات:

«ولا نكفر إلا من بلغته دعوتنا للحق، ووضحت له المحجة، وقامت عليه الحجة، وأصر مستكبرا معاندا، **كغالب من نقاتلهم اليوم**، يصرون على ذلك الإشراك، ويمتنعون من فعل الواجبات، ويتظاهرون بأفعال الكبائر والمحرمات»[2].

«وإنما نكفّر من أشرك بالله في إلهيته، بعدما نبين له الحجة، على بطلان الشرك،

---

[1] وجدت له رسالة كتبها في العيينة –حسب ابن غنام– ولكنها خارج ما نحن فيه، فقد تناول فيها الشيخ الطواغيت الذين يأمرون الناس بتقديم النذور والقرابين لهم فيتوجه لهم الناس ببعض صور العبادة، ويغلب على ظني أن يكون هذا أيضا بعد الهجمة التي واجهته في العيينة عندما طبق الشرع.

وهؤلاء الطواغيت الأحياء هم كالذين يطلق عليهم الجهال إلى اليوم لقب(صاحب كتاب)، ويعتقد الجهلة أن لهم تدبيرا في الكون، فيتقربون لهم ببعض صور العبادات لئلا يغضب عليهم صاحب الكتاب هذا فيمنع عنهم المطر!!

[2] «الدرر السنية» (1/ 234-235).

وكذلك نكفر من حسنه للناس، أو أقام الشبه الباطلة على إباحته، وكذلك من قام بسيفه، دون هذه المشاهد، التي يشرك بالله عندها، **وقاتل من أنكرها**، وسعى في إزالتها؛ والله المستعان»[1].

فمثل هذه القرائن الداخلية في النص توضح لنا في أي مرحلة ظهرت هذه التقريرات، وأنها ظهرت بعد مرحلة القتال.

سادسا: مؤرخو الدعوة حرصوا على توضيح هذا الأمر، فنجد ابن غنام مثلا عندما بدأ بالتأريخ لمرحلة القتال في كتابه يفرق بين هذه المرحلة وما قبلها، وينص على أنه قبل أن يبدأ أعداء الدعوة بقتال الموحدين لم يكن لدى الدعوة وشيخها أي خوض ولا إقدام في ميدان التكفير.

يقول ابن غنام[2]:

«لما تظاهر الشيخ رحمه الله بذلك الأمر والشأن في تلك الأوقات والأزمان، والناس قد أشربت منهم القلوب بمحبة المعاصي والذنوب، وتولعوا بما كانوا عليه من العصيان، وقبائح الأهواء الغالبية على كل إنسان، لم يسرع لها لسان، **ولم يصمم منه لبٌّ ولا جنان، على تكفير أولئك العربان، بل توقف تورعا عن الإقدام في ذلك الميدان**».

سابعا: سيأتي معنا في الفصول التالية أدلة أخرى كثيرة تُثري الموضوع، أرجأتها إلى مواضعها.

---

[1] «الدرر السنية» (10/ 128).

[2] (1/ 220).

ولهذا كله – وما سيأتي- فإننا نرى من خلال شهادات شيخ الدعوة نفسه وأئمتها ومؤرخيها أن ظهور أدبيات التكفير (بالمعنى المشروح) على السطح في تاريخ الدعوة جاء في مرحلة متأخرة وهي مرحلة ما بعد بدء القتال ...

وفي الأبواب التالية سنتوسع في تفسير سبب تبني الشيخ للانشغال الدعوي والعلمي في المراحل الأولى من الدعوة وعدم الخوض في التكفير التطبيقي، كما سنفسر أثر مرحلة القتال في ظهور أدبيات التكفير تفسيرًا علميًّا.

(2)

الحرب الإعلامية على الشيخ والدعوة

حتى نفهم جيدًا أبواب التكفير وضوابطه عند الشيخ وأئمة الدعوة يجب أن نبدأ أولا من المكان الصحيح، ونعود إلى جذور المسألة وملابساتها.

أ: ذكرنا فيما سبق قصة الشيخ في النصف الأول –تقريبًا– من دعوته والتي أسميناها بمرحلة الدعوة والعلم والنصح والإرشاد، وقررنا أن هذه المرحلة بشهادة الشيخ وأبناء الدعوة ومؤرخيها لم تشهد تكفيرا على الأرض لأسباب تقدم شرحها، على كثرة ما لقي من ابتلاء.

ب: ذكرنا فيما سبق أن الشيخ في العيينة لما بدأ بتطبيق الشرع بدأت الأصوات تتعالى أكثر في الإنكار عليه، وعلى دعوته.

ج: ذكرنا أنه بعد عقد الدرعية تعالت الأصوات المطالِبة بقتاله وبدأ الأعداء بالحشد للقتال .

د: كما هي العادة قديما وحديثا دائمًا ما تُسبَق الحملات العسكرية الغاشمة بحملات إعلامية آثمة تلجأ إلى شيطنة العدو في أعين الناس لإيجاد مبرر لمهاجمته وغزوه وقتاله.

وهذا ما كان في نجد، فقد شنّ أعداء الشيخ حملات من الافتراء والتشويه قامت على ساق الكذب والدَّجل وتقويله ما لم يقل ولم يخطر له ببال، بتقصُّد وتعمُّد للكذب في الأغلب، وبجهل من بعضهم أحيانًا.

وهذه الحملات وإن كانت بدأت من قبل إلا أنها بلغت ذروتها في هذه المرحلة مواكَبةً لمرحلة قتال الشيخ ودعوته كما بينَّا.

ثم استمرت هذه الحملات في حياة الشيخ وفي تاريخ الدعوة كلها إلى الآن.

(3)

قائمة الاتهامات والافتراءات التي بثّها أعداؤه في نجد

تمخَّضت الحرب الإعلامية تلك عن عدد كبير من الاتهامات والافتراءات والأكاذيب، وقد لخصتُ أهم ما يهمنا هنا في القائمة التالية، والطريف أن عامة أعداء الدعوة بما فيهم المنتسبون الجُدُد للسُّنَّةِ اليوم ممن يطعن فيها، كل اتهاماتهم للدعوة لاتخرج عن هذه القائمة إلى اليوم!!

قائمة بأهم الاتهامات والافتراءات:

1 –أن الشيخ كفَّر جميع هذه الأمة من المبعث النبوي إلى قيام الساعة[1].

2 – أنه يكفر بالعموم[2].

3 – أنه يرى أن مَن اتبع دين الرسول لا يكفيه حتى يأتي عنده[3].

4 – أنه يكفر من لم يدخل تحت طاعته[4].

5 – أنه يكفر من حلف بغير الله[5].

6 – أنه يُكفّر بالتوسل بالصالحين[6].

7 – أنه يكفر بعض المصنفين السابقين لوقوعه فيما هو عنده شرك أكبر كالبوصيري[7].

8 – أنه يكفر بكل صور الموالاة[8].

9 – أنه يزعم ان أنكحة الناس ليست بصحيحة[9].

10 – أن ما جاء به ليس هو دين الإسلام بل هو دين ابن تيمية[1].

---

[1] مصباح الظلام ص51

[2] الرسائل الشخصية ص 48، 58

[3] السابق نفسه ص58.

[4] الرسائل الشخصية ص60

[5] الرسائل الشخصية ص64

[6] الرسائل الشخصية ص12، 64

[7] الرسائل الشخصية ص12، 64

[8] الرسائل الشخصية

[9] الرسائل الشخصية ص37

11 – أن الدين الذي جاء به ليس هو دين الإسلام، بل دين آخر جاء به من خراسان[2].

12 – أنه دين خاص بأهل العارض[3].

13 – أن أهل العارض ارتدّوا لما عرفوا شيئاً من التوحيد[4].

14 – أنه جعل طاعته ركنا سادسا لأركان الإسلام[5].

15 – أنه يبطل كتب المذاهب الأربعة[6].

16 – أنه يقول أن الناس من ستمائة سنة ليسوا على شيء[7].

17 – أنه يدعي الاجتهاد[8]

18 – أنه خرج عن مذاهب المسلمين الأربعة المعتمدة، وجاء بمذهب خامسي جديد.

19 – أنه لو قدر لهدم القبة النبوية[9] .

---

[1] الرسائل الشخصية ص20

[2] «الرسائل الشخصية» ص137

[3] ابن غنام (1/ 167)

[4] «الرسائل الشخصية» (ص300)

[5] مصباح الظلام (ص173)

[6] «الرسائل الشخصية» (ص12، 64)

[7] «الرسائل الشخصية» (ص12، 64)

[8] «الرسائل الشخصية» (ص12، 64)

[9] «الرسائل الشخصية» (ص12، 52).

20- أنه لو قدر لهدم الحجرة النبوية[1].

21- أنه لو قدر على الكعبة لأخذ منها ميزابها وجعل لها ميزابًا من خشب[2].

22- أنه ينكر زيارة قبر الرسول[3].

23- أنه ينكر مشروعية زيارة الإنسان لقبر والديه[4].

24- أنه ينكر شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم[5].

25- أنه ينهى عن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم[6].

26- أنه يطعن في الصالحين وينهى عن محبتهم[7].

(4)

الطليعة الأولى من أدبيات التكفير:
أدبيات تدفع تهم التكفير!

---

[1] «الرسائل الشخصية» (ص64).

[2] «الرسائل الشخصية» (ص64).

[3] «الرسائل الشخصية» (ص64).

[4] «الرسائل الشخصية» (ص64).

[5] «الرسائل الشخصية» (ص48).

[6] «الرسائل الشخصية» (ص52).

[7] «الرسائل الشخصية» (ص52).

أدَّت هذه الحرب الإعلامية في نجد التي شنّها أعداء الدعوة على الدعوة وإمامها خاصة تلك المتعلقة باتهامهم بتكفير المسلمين، أدّت إلى ظهور الطليعة الأولى من أدبيات وتقريرات الدعوة في مسائل التكفير.

وكانت هذه الطليعة تتركز حول مسألتين:

أ: دفع تهمة التكفير عن أنفسهم، وبيان كذب مخالفيهم عليهم.

ب: الإطناب في تقرير منهجهم وأصولهم وضوابطهم في أبواب التكفير.

أما النقطة الأولى فتمثلت في ردّ الشيخ ثم أئمة الدعوة عن أنفسهم هذه الافتراءات والاتهامات إجمالا وتفصيلا..حتى قرر الشيخ أن هذا الذي يفترونه عليه يستحي الإنسان من ذكره.

أما الإجمال فمثل قوله: «فكل هذا كذب وبهتان، افتراه علي الشياطين»[1].

أما التفصيل فما من تهمة من هذه الاتهامات إلا وردّها الشيخ وأئمة الدعوة بتفصيل وإطناب وتحرير وتقرير وقام الشيخ بفضح كذبهم ودجلهم وتقويله ما لم يقله ولم يخطر له ببال.

أما النقطة الثانية، فقد دفعت هذه الأكاذيب والافتراءات الشيخَ ثم أئمة الدعوة للخوض في تحرير وتقرير منهجهم في التكفير وضوابطه وشروطه عندهم كما قلنا، وبهذا انتقلت أدبيات الدعوة من مرحلة التأصيل العلمي لمسألة الشرك وصوره وأنواعه والتحذير منه والدعوة للتوحيد ..إلخ، **إلى مرحلة ظهور أدبياتهم المتعلقة**

[1] «الرسائل الشخصية» (ص52) ، وانظر(37) وهو كثير في كلام الشيخ وأئمة الدعوة.

بأصول التكفير وضوابطه بعامة وأحكام المتلبسين بالشرك خاصة وأحكامهم وضوابط تنزيل تلك الأحكام عليهم.

(5)

هل في ظهور أدبيات التكفير عيب؟

قبل أن نبدأ بتلخيص أصول الشيخ وأئمة الدعوة في أبواب التكفير نلفت النظر إلى قضية هامة وهي أن عامة من يتحدث عن وجود ألفاظ الشرك والكفر والمشركين ...إلخ في كتب السلف، وابن تيمية تحديداً، ثم ابن عبد الوهاب وأئمة الدعوة ممن ليست له خلفية شرعية أصلا أو من أشباه المتعلمين، بل ومِن بعض مَن يسمون بالإسلاميين! يتحدث عن وجود هذه الألفاظ وكأنه عيب قادح فيها وفي رسالة علمائها، ودليل على الإرهاب والتطرف، وتغذية للعنف!

وكأن المتحدث بمثل هذا الكلام لم يقرأ القرآن يومًا ولا مرّ حديث من السنة النبوية ساعةً تحت نظره!

فلو أنك ذهبت تجمع هذه الألفاظ وأمثالها من القرآن والسنة لوجدتها أضعافًا مضاعفةً مما في كتب السلف والمدارس العلمية المذكورة.

فألفاظ الكفر والشرك والمشركين ...وغيرها من ألفاظ هي ألفاظ شرعية مبثوثة في الكتاب والسنة ثم آثار السلف ثم آثار العلماء ومؤلفاتهم ومصنفاتهم، في كل جيل وفي كل عصر، ومنها تراث الشيخ وأئمة الدعوة.

فليس هذا الأمر في نفسه قادحًا وإلا لقدحنا في القرآن والسنة، إنما يجب أن نُحرِّر أولاً هل هذه الألفاظ والأسماء والأحكام منضبطة في كتاب العالم الفلاني، أو المدرسة الفلانية أم لا، هل هي مؤطرة بأُطُر علمية وشرعية أم لا، هل إطلاقاتها منسجمة وإطلاقات القرآن والسنة أم لا، هل هناك خلل علمي في هذه الإطلاقات أم لا، هل استخدمت هذه الألفاظ في محل غير محلها أم لا...إلخ

ولهذا بعد أن قررنا أولاً فيما سبق المرحلة التي بدأ معها ظهور أدبيات التكفير وتطبيقها على الأرض لأهمية هذا الأمر وخطورته في تصور هذا الباب، يجب أن نحقق ثانياً ضوابط هذه التقريرات وحدودها وأطرها، لتقييمها تقييما منضبطا منصفا، وعرضها على الكتاب والسنة، فما كان منسجماً معهما قبلناه وإلا فهو مردود على صاحبه كائنًا من كان.

وفي الفصول التالية سنتناول هذا الباب ونحققه بصورة منهجية مُيَسَّرة، وبطريقةِ التَّدَرُّج في العَرْضِ ليكون الأمر قريبًا لعموم القراء.

(6)

الصورة الكاملة لمنهج الشيخ وأئمة الدعوة في التكفير كيف تُقْرأ؟

مَنّ الله عليّ بقراءة أكثر تراث الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأكثر تراث أئمة الدعوة، وبعضه قرأته مراراً ودرّسته، وتكوّن لدي فيما أزعم تصور مكتمل (حسب فهمي وقراءتي) لمنهج الشيخ ثم أئمة الدعوة في أبواب التكفير بما سأضع عصارته باختصار هنا.

فلنبدأ إذن بالبناء..فنبين كيف ينبغي أن نبني تصورا كاملا لمنهج الشيخ في أبواب التكفير وآلية تطبيق هذا المنهج على الأرض، فنمشي مع الشيخ خطوة خطوة.

وحبذا لو يمسك القاريء ورقة وقلما ويرسم دائرة كبيرة وكلما انتهينا من خطوة رسم دائرة أصغر داخلها فهذا سيعين جدا على فهم واستيعاب الدائرة التي تناولتها أدبيات التكفير عند أئمة الدعوة بشكل محدد واضح.

الخطوة الأولى: (قام بتحديد المسألة أو المسائل التي يرى أنها شرك أكبر مخرج من الملة بوضوح لا لبس فيه)

عندما افترى أعداء الشيخ عليه أنه كفر المسلمين قاطبة وأنه يكفر بكذا وكذا ، حرص على الرد على ذلك كله بتحديد المسألة الوحيدة التي يناضل عليها **على الأرض** ويقرر أنها شرك أكبر مخرج من الملة، ألا وهي مسألة التوجه بأية صورة من صور العبادات لغير الله من قبر أو ضريح أو شجر أو حجر أو كاهن أو ولي [1]...إلخ، وبيان أن هذا الحكم مجمع عليه بين العلماء من كل المذاهب لا خلاف بينهم أبدا، وقد عاش الشيخ يناضل عن هذه المسألة طوال حياته.

---

[1] راجع «الانتصار للدرر السنية» (ص51-54).

وبهذا وضع الشيخ إطارا واضحا حول الدائرة التي يتناولها بأدبيات التكفير، ويصرح بأن كل ما افتري عليه مما هو خارج هذه الدائرة كاتهامه بأنه يكفر المسلمين عامة، أوأنه يكفر بالتوسل، أو أنه يكفر بمطلق الموالاة، أو أنه يكفر بالذنوب، وأنه على دين الخوارج أو أنه يكفر مَن لم يلحق به أو يدخل دائرته لمجرد ذلك، أو أو أو..إلخ، فهذا كله كذب وافتراء عليه.

الخطوة الثانية (عدم تكفير عموم من يقع في الشرك الأكبر):

كنا رسمنا دائرة كبيرة مع الخطوة الأولى تعبر عن المسلمين عامة، وقررنا أن تناول هؤلاء بأدبيات التكفير كذب وافتراء على الشيخ والدعوة.

الآن نرسم دائرة أصغر نعبر بها عن دائرة المتلبسين بالشرك الأكبر من أهل الإسلام، فقد صرح لنا الشيخ أن هذا الباب هو الذي يناضل عليه ويتناوله بأدبيات التكفير.

هنا يأتي سؤال : اتفقنا على أن الشيخ لا يكفر كل المسلمين وانتهينا من هذه المسألة، ولكن بقي أنه صرح بأن المسألة التي يكفر بها هي الشرك الأكبر بعبادة القبور في زمانه[1]، فلزم أن كل المسلمين **المتلبسين بهذا الشرك الأكبر** كفار عنده.

هنا تأتي أدبيات الشيخ وأئمة الدعوة التي يقررون فيها أنهم لا يكفرون المتلبسين بشرك القبور من أهل الشهادتين **بالعموم**، ومعنى **العموم** كما شرحوه هم ألا يفرقوا في الحكم على المنتسبين للملة من المتلبسين بالشرك بين الجاهل (الجهل الذي يعذر به) وغيره في تنزيل التكفير على أعيانهم، بل يجعلونهم كلهم في سلة واحدة.

---

[1] عندما نطلق الشرك الأكبر في هذا الباب إنما نريد به صورة عبادة القبور والاستغاثة بالأموات وما إلى ذلك، فهذه هي الصورة التي كانت منتشرة في زمن الشيخ.

وقد نقلت عددًا كبيرا من هذه التقريرات في «الانتصار للدرر السنية»[1] وستأتي بعضها.

وقد استفتحناها بقول الشيخ[2]: «فإن قال قائلهم: إنهم **يكفرون بالعموم**؛ فنقول: سبحانك هذا بهتان عظيم...».

الخطوة الثالثة (التفريق بين أدبيات التكفير التي تتناول النوع وتلك التي تتناول المعينين):

الآن نسأل السؤال التالي: هذا تقرير جيد واضح في أنهم لا يكفرون كل من تلبس بالشرك الأكبر، ولكن كيف نفهم إذاً نصوصهم التي يصرحون فيها بأن دعاء غير الله شرك أكبر، وأن مَن دعا غير الله فهو مشرك شركا أكبر، ومَن استغاث بغيره فهو مشرك، ألا يلزم من هذا أنهم يكفرونهم ويكفرون القرى والجهات التي تمارس الشرك الأكبر؟

وقد استشكل بعضهم ذلك حقا في زمن الشيخ فبيّن الشيخ ثم أئمة الدعوة حقيقة الأمر، وهنا تأتي تقريراتهم في التفريق بين تكفير الفعل وتكفير النوع على الإطلاق، وبين تكفير المعين.

فيقررون أنه لا يلزم من قولنا الفعل الفلاني شرك أو من فعل كذا فهو مشرك، من فعل كذا فقد كفر..أننا نكفر شخص الفاعل بعينه، وإنما المقصود بيان أن فعله شرك أكبر والتحذير من الوقوع في مثل فعله ببيان عظم جرمه في الشريعة وأنه أعظم من الذنوب والمعاصي.

---

[1] (ص74-75).

[2] «الدرر السنية» (1/ 63).

وقد حرص الشيخ وأئمة الدعوة على توضيح هذه القضية الهامة، وقد نقلنا بعض نصوصهم في الموضوع في «الانتصار للدرر السنية»[1] .

الخطوة الرابعة (ضوابط تكفير المعينين/ ثبوت شروط التكفير وانتفاء موانعه):

الآن نرسم دائرة ثالثة أصغر من السابقتين، وهي الخاصة بالأشخاص المعينين المتلبسين بالشرك الأكبر.

ونطرح السؤال: فهمنا بوضوح أنهم لا يكفرون **كل** من وقع في الشرك الأكبر بعينه، فما هي ضوابط تنزيل التكفير على المعينين عندهم إذن؟

هنا تأتي تقريرات الشيخ وأئمة الدعوة الخاصة بضوابط تكفير المعين لديهم، وأهم ما في هذا الباب هو اشتراط قيام الحجة على المعين وانتفاء الجهل الذي يعذر بمثله عنه وفق ما يأتي من تفصيل.

وقد نبّه علماء الدعوة على سائر الموانع المعروفة عند العلماء في أبواب التكفير كمانع الإكراه والخطأ والشبهة والتأويل، وقد نقلنا نصوصهم في كتاب الانتصار[2].

وسنتحدث هنا عن أهم باب يتعلق بشروط وموانع التكفير في موضوعنا هذا، باب اشتراط الحجة من عدمه.

منهج الإمام محمد بن عبد الوهاب وأئمة الدعوة في اشتراط قيام الحجة على المعين من المنتسبين للملة المتلبسين بالشرك الاكبر وضوابطه :

---

[1] (ص79-83).

[2] ص65-66.

وسنعرض رأينا هنا باختصار تام لأن هذا البحث لم يخصص لهذه المسألة، وسأضعه في نقاط لتيسير الفهم والاستيعاب:

أولا: بالنظر إلى المسألة في نفسها فإن اتخاذ وسائط يُتَوَجَّه إليها بأي صنف من أصناف العبادات هو الشرك الأكبر الذي بعثت الرسل وأنزلت الكتب للنهي عنه، **وهذا الباب هو أظهر مسائل الإسلام بل هو أصل الإسلام كله.**

ثانيا: بناء على ما تقدم فإن المتلبس بشرك القبور من أهل الشهادتين إن كان يعيش ويتواجد في زمان أو مكان أو مجتمع أو بيئة..معالم الإسلام فيه ظاهرة وأمر الدين فيه على استقامة ، ومسائل التوحيد والشرك فيه منضبطة منتشرة خاصة تلك المتعلقة بحكم دعاء الأموات وعبادتهم، وثمة من يُعلّم ويناضل ويكشف الشبهات في تلك الجهة، فشرط قيام الحجة في هذه الصورة **الأصل** أنه متحقق على أفراد هذه المجتمعات أو البيئات أو الأزمنة أو الأمكنة بأبلغ ما يكون التحقق، ولا يتصور قيام الجهل الذي يعذر به في أبناء تلك المجتمعات إلا أن يكون شيئا شاذا لا يؤثر على القاعدة العامة.

وهذا يفسر لنا لماذا لم تظهر عبادة القبور في القرون الأولى ولماذا تأخر ظهورها إلى القرن الرابع، مع أنه قد ظهرت في القرون الأولى أنواع كثيرة من البدع الكفرية، والبدع المغلظة، ووقعت كثير من كبائر الذنوب من القتل بغير حق إلى الزنا إلى غير ذلك.

وما هذا إلا لوضوح هذه المسألة في تلك القرون من أن عبادة القبور والاستغاثة بها هو شرك أكبر مخرج من الملة، فكانت من الوضوح بمكان عند الصغير والكبير،

والعالم والجاهل، والسني والجهمي، بحيث تجرأ كثير من الناس على الكبائر، وتجرأ كثير على الخوض في ذات الله وفي القدر وفي غير ذلك من أركان الدين، ولم يتجرأ أحد على دعاء ميت أو الاستغاثة بولي!

ولو قُدِّر أن وقع بعض أفراد هذه المجتمعات بشيء من ذلك فيعامل معاملة حاسمة بالاستتابة أو السيف، ولهذا لم يسجل لنا التاريخ وقوع شيء من ذلك في تلك القرون على المستوى الفردي فضلا عن أن يصل إلى المستوى الجماعي.

ومن خلال هذا التأمل نستطيع أن نحرر منهج السلف في هذا الباب من الناحية العملية.

ثالثا: قد يعرض لأحد المنتسبين للملة **العارفين بأصل الدين بصورة إجمالية** المقرين بأنه قائم على توحيد الله في عبادته ونبذ الشرك بجميع أنواعه، ما يشوّش في ذهنه حكم **بعض** الممارسات عند القبور أو في حق من يعتقد أنهم من الأولياء والصالحين، فيتلبَّس بها جهلاً منه بأن ما يفعله داخل دخولا أصيلاً في عبادة غير الله وأنه صورة من صور الشرك الأكبر مع إقراراه بتوحيد الله بالعبادة وتبرئه من الشرك الأكبر إجمالا.

هذا التشويش قد يعود إلى **عوامل شخصية** أو **عوامل خارجية**.

الشخصية كأن يكون هذا الشخص مغرقا في أفعال الشرك قبل أن يدخل في الإسلام فلم تتحرر له في حالة حداثة عهده بالشرك بعض الصور المندرجة في الشرك الأكبر

الذي تبرأ منه بالشهادة فيقع فيها جاهلا، وهذا من يعبر عنه العلماء بحديث عهد بشرك.

عوامل **خارجية**: كأن ينشأ الرجل في بيئة تظهر عليها الشركيات ولم يتيسر له من يبلغه النصوص الشرعية أويعرفه بما يشتبه عليه منها.

وسبب ظهور الشرك على هذه البيئات يعود إما **لعامل مكاني** أو **لعامل زماني**.

عامل مكاني: كأن تكون هذه البيئة بعيدة عن الديار الإسلامية في أطراف الأرض مثلا.

عامل زماني: أن تكون هذه البيئة في قلب العالم الإسلامي إلا أن الزمان زمان فترة وجهل واندراس لآثار الرسالات.

عند وجود هذه العوامل أو بعضها من الوارد أن يقع لبعض المنتسبين للملة المحبين لله ورسوله **العارفين بأصل الدين بصورة إجمالية** المقرين بأنه قائم على توحيد الله في عبادته ونبذ الشرك بجميع أنواعه الملتزمين بكل ما استقام لديهم تصوره مما يدخل في ذلك، ما يشوّش في ذهنه حكم **بعض** الممارسات عند القبور أو في حق من يعتقد أنهم من الأولياء والصالحين، فيتلبَّس بها جهلاً منه بأن ما يفعله داخل دخولا أصيلاً في عبادة غير الله وأنه صورة من صور الشرك الأكبر مع إقراراه بتوحيد الله بالعبادة وتبرئه من الشرك الأكبر إجمالا.

فيُلَقَّن مثلا أن هذا من باب الاحترام والتقدير للصالحين لا العبادة، فإن تساءل كيف يكون احتراما وهو يطلب من القبر عين ما يطلب من الله تعالى، لن يعدم من يشبه عليه بأن ذاك دعاء على الحقيقة و هذا على المجاز! وذاك ذبح لله وهذا ذبح كالذبح

للضيوف! وذاك قيام لله وهذا قيام كما تقوم للمعظَّم في قومك! ولا يتفطن أن لازم هذه التقريرات أنه لا يوجد شرك ولا مشركون في الدنيا، وأن عباد الأصنام والأحجار والأشجار والأفلاك والكواكب والنجوم والمسيح...كان يكفيهم أن يعتذروا للأنبياء والرسل بأن ما يفعلونه عند معبوداتهم على وجه المجاز والاحترام والتقدير ليُحكَم لهم بأنهم مسلمون موحدون، بل ما كان يصح أصلا وصف هؤلاء بالمشركين إلا بعد التأكد هل يتوجهون للوسائط حقيقة أم مجازا، عبادة أم احتراما!!

فإذا توجَّه هذا الشخص للقرآن حُرِّفت له نصوص القرآن والسنة ممن يشار إليه بالعلم والفهم، فإذا طلب الحق في الكتب وجد بعض متأخري المذاهب يقرر شيئا من ذلك، ووجد من يجتزء من نصوص العلماء المنضبطين ويشرحها على هواه، وهكذا.

بناء على ذلك فإنه في مثل هذه البيئات يكون المتلبسون بالشرك الأكبر (المتمثل في عبادة القبور) من أهل الملة على أصناف:

أ: فمنهم الجاهل الذي يعرف أصل الدين إجمالا ويقر به **ويحب الله ورسوله ويحرص على تعلم دينه وتصحيح إسلامه، ولم يخطر بباله أن هذا من الشرك الأكبر المنافي للتوحيد وبقي متحفزا مريدا من يعلمه ويكشف شبهته ولو نُبِّه أو تنبَّه لأقرّ والتزم.**

ب: ومنهم من هو قريب من الأول من جهة حبه لله ورسوله وحرصه على تصحيح إسلامه وقد يكون تنامى إلى سمعه ما قد يفهم منه أن ما هو عليه شرك من أدلة

شرعية، ولكنه لديه عارض من شبهات أو سوء فهم ولم يجد من يُعَرِّفُه و يكشف عنه ذلك.

ج: ومنهم المعرض المتهاون في أمر دينه.

د: ومنهم مَن دينه دين آبائه ومجتمعه ولا يهمه غير ذلك.

هـ: ومنهم مَن قد عرف الحق وأقر بلسانه، ولكنه تركه عنادا.

و: ومنهم من عرف الحق ولم يقر به ولم يلتزم به.

الشيخ ثم أئمة الدعوة يفرقون بين النوعين الأولين من الجهل (فيجعلونه عذرا في **عدم المبادرة إلى تكفير المعين** في هذه الأبواب وفي ظل الضوابط المشروحة فقط أي كأن يكون حديث عهد، أو في بلد بعيد، أو في زمان فترة) وبين باقي الأنواع (فلا يجعلونها عذرا).

ولكن لما كان هؤلاء جميعا تجمعهم صفة أنهم **من أهل الشهادتين** في الظاهر ومن المتلبسين بالشرك الأكبر، ولكننا **لا نعرف أسباب وقوع كل واحد** منهم في الشرك الأكبر ولا يتحرر لنا نوع جهله وبالتالي من أي الأصناف هو.

ولما كانت العوامل الشخصية أو المكانية والزمانية **تُغَلِّب على الظن قيام الجهل الذي هو من الصنف الأول والثاني على كثير من أمثال هؤلاء أو أكثرهم أحيانا.**

ولما كانت الشريعة إنما تَلْزَم ببلوغ الحجة الرسالية والعقاب في الآخرة يترتب عليه.

ولما كانت الصفة الجامعة التي تجمع هؤلاء الأخلاط أننا لم نتيقن من بلوغ الحجة لكل معين معين منهم بعد.

استنادا إلى نصوص شرعية مبثوثة في مظانها فإن أهل العلم ومنهم ابن تيمية وابن عبد الوهاب وأئمة الدعوة **كلهم** يقررون في أمثال هؤلاء وفي ظل الظروف المشروحة:

أ: عدم تكفيرهم ابتداءً قبل إقامة الحجة: فلا يكفرون مَن وقع منهم في شرك القبور ابتداءً لجواز أن يكون وقوعه في الشرك ليس عن عناد أومخالفة للنصوص أو عن تفريط أو إعراض أو محض تقليد للآباء، بل يشترطون تحقق قيام الحجة أولا على المعين حتى يكونوا على بينة من حاله.

ب: وبناء على السابق فإنهم لا يبادرون بالحكم بحبوط إيمانه بالله ورسوله وشرعه ولا يتوقفون عن إمضاء عقد الشهادتين لهم ابتداءً فلهم ما لأهل الإسلام، وأهم ذلك عصمة الدم والمال ، وإنفاذ عباداتهم ، وأنكحتهم، ومعاملاتهم، وحل ذبائحهم في الجملة[1]، وغير ذلك من أحكام.

فلا يحكمون ابتداء على عباداتهم بالحبوط ، ولا على أنكحتهم بالبطلان، ولا على تملكاتهم ومعاملاتهم بالسقوط، ولا على ذبائحهم بالحرمة وغير ذلك من أحكام المرتد، بل يقرونهم على ذلك كله ويمضونه على ما هو عليه.

ج: يقومون بإقامة الحجة على المعين، وقيام الحجة معناه عند أئمة الدعوة في أزمنة الجهل واندراس الرسالات وانقلاب الموازين: تبليغ نصوص القرآن والسنة **مع تعريفها للجاهل الذي لا يفهمها ببيانها وكشف الشبهات عنه**، ومجرد بلوغ النص

---

[1] نقول في الجملة لأن في بعض الحالات والصور قد تتغير بعض هذه الأحكام كما سيأتي.

القرآني لمن لا يفهمه أو لمن لديه عارض شبهة ليس كاف عندهم للمبادرة إلى تكفير المعين **في أزمنة كتلك.**

وفي أزمنة الفترات واندراس الرسالات **يكون حال المجتمع ككل قريب من حال الفرد الحديث عهد بشرك، وكما انشغلنا بتعليم الفرد ولم نبادر إلى تكفيره، كذلك ننشغل بنشر التوحيد في تلك المجتمعات ابتداء ونشر الحجج وتبليغ الأدلة والنضال عن التوحيد وكشف الشبهات عنه قبل الخوض في التكفير وتنزيله على المعينين.**

د: بعد إقامة الحجة على المعين أو نشر العلم والتوحيد في بيئة ما، سيظهر من أي الأصناف هو أعني المتلبس بالشرك الأكبر، فإن كان ممن يحب الله ورسوله ويحرص على تصحيح إسلامه سيبادر للالتزام والتوبة، وعامة أهل نجد من المتلبسين بالشرك الأكبر كانوا من هذا الصنف بنص الشيخ كما سيأتي، وكذا عامة المتلبسين بالشرك في زمن ابن تيمية كما نص عليه وسيأتي ، **وهذا مما يؤكد أهمية إعمال هذه القاعدة في أهل الشهادتين المقرين بأصل الدين إجمالا في ظل الضوابط المشروحة بدلا من سد باب الرحمة في وجوههم.**

وإن كان من الصنف الثاني ممن قامت لديه شبهات في الباب مع حرصه على الحق ففي أزمنة غلبة الجهل لا يلزم من تبليغ الحجة المبادرة إلى تكفير مثل هذا ممن لم يظهر منه العناد أو التهاون والإعراض بل يُصبر عليه ويُعلَّم، نستفيد هذا من أن الشيخ بقي سنوات طوال يدعو أهل نجد للتوحيد دون الخوض في تكفير أحد، وحتى عندما أوقع التكفير على بعض المعينين اقتصر على تكفير بعض الرؤوس **المعاندين**

خاصة ممن بقي سنوات يتلطف لهم وعامتهم أقر بأن التوحيد حق، كما سيأتي شرح حالهم.

وهذان الصنفان يؤول حالهم في الأغلب الأعم إلى التوبة مما كانوا فيه.

هـ: فإن تاب أحدهم نمضي له بعد التوبة عقد الإسلام في نفس الأمر ونجزم بصحة عباداته ومعاملاته وتملكاته وحل ذبائحه وصحة نكاحه..إلخ، وإن مات على هذا نعتقد أنه مات على الإسلام المنجي (التوحيد)، ونجزم بأن جهله الذي كان أوقعه فيما وقع فيه بأنه جهل معذور، ونعبر عن هذا المعين بأنه: كان **معذورا بجهله حال تلبسه بالشرك الأكبر**.

و: وينبغي أن يعلم أن ثمة فرقا بين هذا الإمضاء لأحكام أهل الملة بعد تبليغه الحجة وتيقُنا أنه مؤمن يحب الله ورسوله وعندما عُلّم تعلم والتزم ، وبين الإمضاء الذي يكون قبل تبليغ الحجة في أزمنة الجهل والفترات حال تلبسه بالشرك، فالإمضاء قبل تبليغ الحجة يكون مؤقتاً إلى حين تبليغها وتمييز حال الرجل ونوعية جهله والباعث له للوقوع في الشرك، فهو إمضاء يلاحظ فيه احتمال كونه مؤمنا في نفس الأمر، وخطورة المبادرة لتكفير أهل الملة، بخلاف الإمضاء بعد التيقن والجزم فهو إمضاء ليس على وجه التوقيت ولا على وجه الاحتمال[1].

بتعبير آخر أدق: نحن نلحقة بحكم المؤمن المخطيء المعذور قبل إقامة الحجة في أزمنة كتلك احتياطا، لخطورة شأن التكفير وأهمية الاحتياط فيه، لا لأننا نشهد أنه مخطيء معذور في نفس الأمر، وبتبليغ الحجة فقط يُتاح لنا أن نشهد له بأنه كان

[1] وهذا التنبيه الأخير يغفل عنه كثير ممن يكتب في هذه المسائل وهو من الأهمية بمكان.

مخطئًا معذورا في نفس الأمر إذا التزم بمقتضى الحجة، أو نشهد أنه لم يكن مخطئا ولا معذورا في نفس الأمر إذا أبى واستكبر.

و: إن كان المتلبس بالشرك ممن أكدت القرائن عناده أي أنه أقر ثم كفر، أو لم يظهر عناده ولكننا أقمنا عليه الحجة المستكملة لأركانها وضوابطها من جودة التقرير والاستدلال وتحرير الشبه والرد عليها والتفاعل التام مع إيرادات الرجل، مع أهلية من يقيم الحجة علميا وأسلوبيا، وإمهاله حسب حاله، في هذه الصورة إذا لم ينقَد الرجل للحق، فقال لنا بعد استكمال إقامة الحجة على الصورة المنضبطة: أنا لا أقر لكم، أو أنا لم أفهم ولم أقتنع، أو كان في بيئة للموحدين وأمر التوحيد مشتهر منتشر..فاعتذر بأنه لم يسمع عن شيء اسمه توحيد وتحققنا أنه لم يقم به مانع، فلا يُصنّف هذا من الجهل الذي يعذر به في الشريعة، بل يصنف من جهل المعاند أو المعرض، ونفيه لفهمه للحجة لا يُصنف من نفي الفهم الذي يعذر به في الشريعة بل يكون من جنس نفي المشركين الفهم عن أنفسهم لأدلة القرآن.

وهذا يكفَّر بعينه، ونعبر عن جهلهم الذي كانوا عليه من قبل بأنه جهل ناتج عن عناد أو إعراض أو جهل من جنس جهل المشركين الذين هم كالأنعام، وأنه جهل لا يُعذر به.

ويتوقف في حقه الإمضاء المؤقت لأحكام أهل الملة الذي كنا قررناه له، بعد أن تيقنا من حاله ونوعية جهله والباعث له، وتنزل عليه أحكام المرتد الخارج عن الملة.

ز: وعليه فإن هذا يجتمع حكمه مع الصنف السابق في مسألة ويفترقان في أخرى:

يجتمعان في عدم المبادرة إلى تكفيرهم ابتداءً وإمضاء عقد الشهادتين لهم **استصحابا لحال الزمان من اندراس الرسالة** وبالتالي جواز أن يكون كثير منهم ممن قام به الجهل الذي يعذر به في أزمنة الفترات وممن لم تبلغه الحجة.

ويفترقان في أن هذا الثاني لا يعبّر عنه بأنه كان معذورا بجهله، لأننا قد تحققنا من نوعية جهله وعلمنا أن جهله لا يعذر به.

فليس منزع إمضاء عقد الملة لهم ابتداء – كما أومأنا إليه قبل سطور–هو الجزم بأن كل واحد واحد منهم معذور بجهله كما يظنه البعض ويطرحه، بل منزعه أن **كثيرا** من أهل الزمان قام بهم الجهل الذي يعذر به، ولما كنا لا نعرف هؤلاء (الكثير) على التعيين، وجب استصحاب حال الزمان والأغلب في أحوال أهله وملاحظة إمكانية أن يكون كل منهم مؤمنا في نفس الأمر وملاحظة خطورة أمر التكفير والشهادة لمعين بلحوق الوعيد فناسب إمضاء عقد الملة لهم جميعا **إلى حين التمييز**، والتركيز على هذه النقطة مهم جدا لأننا سنبني عليها مسألة هامة فيما يأتي.

ح: فإذا لم يتيسر لنا تبليغ الحجة لهذا الذي لم نبادر إلى تكفيره في الدنيا، ومات على ما هو عليه، يقرر أئمة الدعوة عدم الشهادة على عينه بأنه مات كافرا مستحقا للنار أيضا من جهتنا، مع تفويض حقيقة حاله إلى الله ويقربون حاله في الآخرة من حال أهل الفترة.

ط: من مات على عقيدة عبادة القبور في القرون الخالية والأجيال الماضية ممن لم نخالطهم ولم نشهدهم ولم نعرف حقيقة حالهم أو زمانهم ومكانهم، وماتوا على ذلك يرى أئمة الدعوة أنهم لم يكلفوا بالخوض في كل معين معين منهم بحكم الكفر

أو الإسلام، فيتورعون عن تكفير كل معين منهم، وفي الوقت نفسه لا يحكمون على كل معين منهم بأنه مسلم له حكم المسلمين في الدنيا والآخرة، بل يربطون أحكامهم بالأوصاف، ويفوضون أمر المعينين رأسًا إلى الله سبحانه، فمن علم الله أنه بلغته الحجة ولم يلتزم فهو الكافر في كل زمان ومكان، ومن علم أنها بلغته والتزم فهو المسلم في كل زمان ومكان، ومن لم تبلغه الحجة وأفضى إلى ربه لم يبق إلا الحديث عن أمره في الحكم الأخروي، فيقربون حكمه من حكم أهل الفترة في الآخرة.

ك: **كلما اتسع نطاق انتشار الدعوة للتوحيد** وارتفاع معالم الإسلام وشعائره والنضال عنه وظهور التوحيد كوعي جمعي في مجتمع ما، ويتأكد هذا إذا قامت دولة له، فإن حكم (عدم المبادرة إلى التكفير قبل الحجة) يخفت تدريجيا لعدم تصور الجهل الذي يعذر به في مجتمعات كتلك إلا أن يكون صورة شاذة.

نستفيد هذا الأخير بخصوص الدعوة النجدية من مبادرة الدعوة بعد قيام دولة لها ونشرها للتوحيد في كل دار وإظهار معالم الإسلام وشعائره بالمبادرة بالحكم بالردة على رعاياها الذين كانوا أعلنوا التوحيد ثم انقلبوا على أعقابهم.

كما نستفيده من السجالات العلمية التي خاضتها الدعوة في مرحلة الذيوع والانتشار وفي حدود دائرتها في بيان كفر من بلغته النصوص وبُيِّنت له وكشفت الشبهات عنه وادعى أنه لم يفهمها وبالتالي لم يقتنع ويلتزم بها لأن كفر عامة الجاهليين هو من جنس هذا الكفر، فلا يلزم أن يعاند فيقر أن التوحيد حق أولا ثم يكفر.

وهذا يفسر لك سبب انتشار تقريرات (عدم التكفير قبل الحجة) في الجيل الأول الذي عاصر زمان الفترة والجهل خاصة في تقريرات الشيخ فهو رائد تلك الفترة ، ثم خفوتها في أواخر حياة الشيخ وفي الجيل الثاني والثالث من أئمة الدعوة، لتحل محلها الأدبيات التي تقرر أن الجهل **في مناطقهم وجهاتهم** بعد انتشار أمر التوحيد لا يتصور أن يكون من الجهل الذي يعذر به وبالتالي فلا قيمة لاشتراط الحجة قبل التكفير لأنها قائمة أصلا بأبلغ صورة.

وهذا المقام من أكثر المقامات التي يخلط فيها الباحثون ممن كتب في مسائل الإعذار بالجهل في الشرك الأكبر فمنهم من يأخذ تقريرات الشيخ في مرحلة الفترة واندراس الرسالة ويعممها في كل زمان ومكان، فيعذر بالجهل حتى ولو كان الرجل في بلد أمر التوحيد فيه على استقامة، ويعيش بين ظهراني الموحدين يراهم صباح مساء لا يعبدون إلا الله، ثم هو يغرد خارج السرب وينطرح متعبدا لضريح، فيأتي هؤلاء الباحثون ليقولوا معذور بجهله، لم تقم عليه الحجة!!

ونجد منهم من يصنف اليوم في السعودية في الإعذار بالجهل في حق المتلبس بالشرك الأكبر ويجعله أصلا عاما في كل زمان ومكان وفي حق كل متلبس به، بعد ما يقارب من ثلاثة قرون من الدعوة للتوحيد في منطقة نجد والنهي عن الشرك وما قام بسبب ذلك من نزاعات وحروب تاريخية، مع تبني الدولة (السعودية) للتوحيد رسميا، وانتشار الخطباء والوعاظ في أرجاء الدولة، وثورة الفضائيات ووسائل التواصل، وبعد ذلك كله يحاول الباحث من هؤلاء أن يقنع نفسه وقراءه أن من تلبس بالشرك في هذه الأجواء معذور بجهله وينسب هذا للدعوة وإمامها!

وفي المقابل : منهم من يأخذ تقريرات أئمة الدعوة في مرحلة الذيوع والانتشار ويعممها حتى في أزمنة الفترة واندراس الرسالة، مع الفرق الواضح والبون الواسع بين الصورتين.

والحق وسط بين هؤلاء، وهو ما بيناه من منهجهم.

ولأهمية هذه المسألة (أعني التفريق بين مرحلتي الفترة والذيوع في فهم تقريرات أئمة الدعوة) وضعت هنا بعض النقولات التي توضح حضور هذا التفريق في أدبيات الدعوة وما يترتب عليه من آثار تبين الفرق بين الحالتين عندهم بجلاء:

قال بعض أئمة الدعوة:«اعلم يا أخي وفقني الله وإياك للصواب أن أهل نجد وباديتهم وحاضرتهم قبل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في جاهلية جهلاء وضلالة عمياء قد اشتدت غربة الإسلام فيما بينهم واستحكمت وعم الشر وطم وفشا الشرك وشاع الكفر وذاع في القرى والأمصار والبادية والحضار وصارت عبادة الطواغيت دينا يدينون به ويعتقدون في الأولياء أنهم ينفعون ويضرون وأنهم يعلمون الغيب ..ولم يوجد من ينكر ذلك نشأ عليه الصغير وهرم عليه الكبير.

فشرح الله صدر إمام الدعوة..فدعا الخلق إلى دين الله وعرفهم حقيقة العبادة..فقاموا له على ساق العداوة فعارضوه وصادموه..فعند ذلك ثبته الله وصبر..فأظهرهم الله عليهم وخذل جميع من ناواهم فدخل كافة أهل نجد من البادية والحاضرة تحت ولايتهم والتزموا ما دعوا إليه ودانوا به ولم يوجد في نجد من

البادية والحاضرة مَن لم يدخل في هذا الدين ولم يلتزم شعائره بل شملتهم الدعوة الإسلامية والتزموا أحكام الإسلام وواجباته ..»[1].

وقال بعضهم: «وفي أوقاتنا بَعُد العهد بآثار النبوة وطال الزمن وكاد يشبه زمن الفترة لغلبة الجهل وشدة الغربة »[2].

وقال بعضهم: «لأنه خرج في زمن فترة من أهل العلم، تشبه **الفترة** التي بين الرسل»[3].

وقال بعضهم: «من المعلوم عند العامة والخاصة أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى لما تبين في إظهار هذا الدين والدعوة إليه قد كان أهل عصره ومصره في تلك الأزمان قد اشتدت غربة الإسلام بينهم وعفت آثار الدين لديهم وانهدت قواعد الملة الحنيفية وغلب على الأكثرين ما كان عليه أهل الجاهلية وانطمست أعلام الشريعة في ذلك الزمان وغلب الجهل والتقليد والإعراض عن السنة والقرآن، وشب الصغير وهو لا يعرف من الدين إلا ما كان عليه أهل تلك البلدان وهرم الكبير على ما تلقاه عن الآباء والأجداد وأعلام الشريعة مطموسة ونصوص التنزيل وأصول السنة فيما بينهم مدروسة وطريقة الآباء والأسلاف مرفوعة الأعلام وأحاديث الكهان والطواغيت مقبولة غير مردودة ولا مدفوعة..»[4].

أقول: ولا شك أن من تلبس بالشرك الأكبر في زمن الجهالة الجهلاء تلك لا يكون حكمه من قريب أو بعيد كالمتلبس بالشرك في زمن الظهور والذيوع والانتشار.

---

[1] «الفتاوى النجدية» (2/ 1/ 137).

[2] «الفتاوى النجدية» (2/ 2/ 4).

[3] «الدرر السنية» (14/ 317).

[4] «سليمان بن سحمان، تبرئة الشيخين» (ص100).

وبعد أن امتلأت تقريرات الشيخ في زمن الجهالة ذلك بوجوب البلاغ قبل التكفير، امتلأت تقريرات الجيل الثاني والثالث الذي واكب توسع الدعوة توسعا كبيرا بأنه لم يعد يتصور جهل يعذر به **في المناطق التي دخلت تحت ولايتهم** كما سيأتي في النقول عنهم.

ل: الأحكام السابقة تخضع لعوامل وقرائن مخصوصة زمانيا ومكانيا، وبالتالي فإن الدعوة لا تقوم بتطبيق الأحكام التي رأتها مناسبة لمنطقة نجد في زمانها في باقي الديار الإسلامية، **فلا تمارس تصديرا أو تعميما للأحكام**، ومن صور ذلك أنه بعد مرحلة الشيوع والذيوع للتوحيد في نجد ونواحيها وإيقاع الكفر على بعض المعينين ممن هم تحت ولايتهم أو في دائرة الصراع، لم تتجاوز الدعوة محيطها الجغرافي إلى باقي الديار الإسلامية فتمارس أي نوع من أدبيات التكفير التنزيلي على أحد، **بل كانوا يعاملون باقي الأقطار الإسلامية معاملة نجد في زمن الفترة**، كما ستراه فيما يأتي من فصول.

وكما لا تعمم الأحكام على المستوى المكاني، فلا تعممها على المستوى الزماني، فكونهم عاشوا في زمن جهل واندراس للرسالة فطبقوا بعض الأحكام المناسبة لزمانهم، لا يلزم منه أن يكون كل زمن سابق وكل زمن يأتي عندهم هو زمن جهل واندراس للرسالة تطبق فيه نفس الأحكام! والعكس صحيح كونهم طبقوا أحكاما مختلفة عند المرحلة الزمنية التي انتشر فيها التوحيد في نجد لا يلزم منه أن كل زمن سبق وسيأتي هو زمن علم وانتشار للتوحيد عندهم.

ك: في حالات معينة تقوم الحجة على طائفة ما و لا تستطيع الدعوة التحقق من إقامة الحجج على الأفراد والمعينين من هذه الطائفة، وتقع هذه الطائفة فيما يستوجب تنزيل بعض أحكام المشركين عليها، ففي هذه الحالة تلجأ الدعوة إلى إجراء أحكام المشركين على الطائفة مع التنصيص على عدم تكفير كل واحد واحد بعينه.

وقد وقع لهم هذا في مسألة الطوائف المقاتِلة تحت راية الشرك وسيأتي حكمهم عند أئمة الدعوة وخلاصته من عدم التزام تكفير كل المعينين مع إجراء أحكام المشركين عليهم كطائفة في القتال.

هذه بعض الخطوط العريضة لتوضيح معنى الإعذار بالجهل في مسائل الشرك الأكبر عند أئمة الدعوة والتي احتلت مساحة واسعة من تقريرات أئمة الدعوة تنظيرا وتطبيقا على أرض الواقع، ولا أعرف مَن شَذَّ عنها في حدود اطلاعي.

وفيما يأتي سنتكلم بالتفصيل على أهم هذه المحاور السابقة ونسرد نصوص إمام الدعوة وأتباعه فيها.

نصوصهم في تقرير عدم المبادرة لتكفير المعين ممن وقع في شرك القبور من المنتسبين للملة بالضوابط المشروحة

نُذَكِّر هنا بالنصوص التي تبيّن هذه المسألة وقد كنا أوردنا كثيرا منها في «الانتصار» وأضفت هنا نصوصا كثيرة مما وقع خارج (الدرر السنية) من نقول في تراث أئمة الدعوة:

وحتى تترتب الأفكار في ذهن القاريء بصورة جيدة، أبدأ بنص هام من أحد أئمة الدعوة وهو عبد اللطيف آل الشيخ يخطيء فيه الرأي المنسوب لبعض

العلماء من أن المنتسب للملة الواقع في الشرك الأكبر في صورة عبادة القبور والأولياء كافر كفرا أصليا، بمعنى أن عقد الشهادتين لم ينعقد له أصلا، ويبين أن النجديين لا يقولون بهذه المقالة[1]، يقول الشيخ:

(إنما تكلَّم الناس في بلاد المشركين، الذين يعبدون الأنبياء والملائكة والصالحين، ويجعلونهم أندادًا لله ربِّ العالمين، أو يسندون إليهم التصرف والتدبير كغلاة القبوريين، فهؤلاء تكلم الناس في كفرهم وشركهم وضلالهم، والمعروف المتفق عليه عند أهل العلم: **أن من فعل ذلك ممن يأتي بالشهادتين يحكم عليه بعد بلوغ الحجة بالكفر والردَّة ولم يجعلوه كافرًا أصليًّا، وما رأيت ذلك لأحد سوى محمد بن إسماعيل في رسالته تجريد التوحيد المسمى: " بتطهير الاعتقاد " وعلَّل هذا القول: بأنهم لم يعرفوا ما دلَّت عليه كلمة الإخلاص، فلم يدخلوا بها في الإسلام مع عدم العلم بمدلولها، وشيخنا لا يوافقه على ذلك**).[منهاج التأسيس ص53].

إذا تقرر أن إمام الدعوة وجميع أعلامها يقولون بانعقاد الشهادتين للمنتسب للملة الواقع في عبادة القبور ممن قامت بحقه قرائن تدل على عدم بلوغه الحجة ، انتقل البحث إلى الحديث عن الردة والتكفير بمعنى الإخراج من الملة والحكم بانتقاض هذا العقد، فهل يبادرون إلى تكفيرهم (فيحكمون عليهم بالردة والخروج من الملة) بمجرد ما صدر منهم دون اشتراط تبليغ الحجة في الصورة المشروحة (أزمنة الجهل والفترة)، وهذه المسألة هي التي قامت عليها السجالات بين أئمة الدعوة ومخالفيهم الذين شنعوا عليهم بأنهم يبادرون بالحكم عليهم بالردة دون ضوابط.

---

[1] وفي هذا النص بيان خطأ من ينسب هذه المقالة في العصر الحاضر لأئمة الدعوة.

تأتي هنا نصوص الشيخ وأئمة الدعوة[1] على أن منهجهم عدم تكفير أهل الشهادتين (الحكم بالردة والخروج من الملة) في الصورة المذكورة قبل قيام الحجة:

□ «فهذا [أي الدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك] هو الذي أوجب الاختلاف، بيننا وبين الناس، حتى آل بهم الأمر، إلى أن كفرونا، وقاتلونا، واستحلوا دماءنا، وأموالنا، حتى نصرنا الله عليهم، وظفرنا بهم; وهو الذي ندعو الناس إليه، ونقاتلهم عليه، **بعدما نقيم عليهم الحجة، من كتاب الله وسنة رسوله، وإجماع السلف الصالح من الأئمة**».[1/ 87 الإمام].

□ «**ولا نكفر إلا من بلغته دعوتنا للحق، ووضحت له المحجة، وقامت عليه الحجة، وأصر مستكبرا معاندا**، كغالب من نقاتلهم اليوم، يصرون على ذلك الإشراك، ويمتنعون من فعل الواجبات، ويتظاهرون بأفعال الكبائر والمحرمات».[1/ 234-235].

□ «**ونحن لا نكفر إلا من عرف التوحيد وسبه**، وسماه دين الخوارج، وعرف الشرك وأحبه، وأهله، ودعى إليه، وحض الناس عليه بعدما قامت عليه الحجة».[1/ 264].

□ «**فجنس** هؤلاء المشركين وأمثالهم، ممن يعبد الأولياء والصالحين، **نحكم بأنهم مشركون; ونرى كفرهم، إذا قامت عليهم الحجة الرسالية;** وما عدا هذا من الذنوب، التي هي دونه في المرتبة والمفسدة، لا نكفر بها».[1/ 522].

□ «التوحيد يقتضي نفي الشرك، والبراءة منه، ومعاداة أهله، وتكفيرهم، **مع قيام الحجة عليهم**».[2/ 209].

□ «بقي مسألة حدثت، تكلم بها شيخ الإسلام ابن تيمية، وهو: **عدم تكفير**

---

[1] العزو في آخر كل نص للدرر السنية، ما لم ننص على الكتاب المعزو إليه.

المعين ابتداء لسبب ذكره رحمه الله تعالى، أوجب له **التوقف في تكفيره** قبل إقامة الحجة عليه، قال رحمه الله تعالى: ونحن نعلم بالضرورة، أن النبي لم يشرع لأحد أن يدعو أحدا من الأموات، لا الأنبياء، ولا الصالحين، ولا غيرهم، لا بلفظ الاستغاثة، ولا بغيرها؛ كما أنه لم يشرع لأمته السجود لميت، ولا إلى ميت، ونحو ذلك، بل نعلم أنه نهى عن هذه الأمور كلها، وأن ذلك من الشرك الذي حرمه الله ورسوله، ولكن لغلبة الجهل، وقلة العلم بآثار الرسالة في كثير من المتأخرين، لم يمكن تكفيرهم بذلك حتى يبين ما جاء به الرسول مما يخالفه، انتهى.

قلت: فذكر رحمه الله تعالى ما أوجب له **عدم إطلاق الكفر عليهم، على التعيين خاصة، إلا بعد البيان والإصرار** فإنه قد صار أمة وحده; لأن من العلماء من كفّره بنهيه لهم عن الشرك في العبادة، فلا يمكن أن يعاملهم بمثل ما قال، كما جرى لشيخنا محمد بن عبد الوهاب، رحمه الله تعالى، في ابتداء دعوته، **فإنه إذا سمعهم يدعون زيدا بن الخطاب، قال: الله خير من زيد، تمرينا لهم على نفي الشرك، بلين الكلام، نظرا إلى المصلحة، وعدم النفرة**». [2/211].

□ «ومن قال: لا إله إلا الله، ومع ذلك يفعل الشرك الأكبر، كدعاء الموتى والغائبين، وسؤالهم قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، والتقرب إليهم بالنذور، والذبائح، فهذا مشرك، شاء أم أبى، **(إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ)** [سورة النساء آية: 48] **(وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ)** [سورة المائدة آية: 72] ومع هذا فهو شرك، ومن فعله فهو كافر.

ولكن كما قال الشيخ: لا يقال فلان كافر، حتى يبين له ما جاء به الرسول ﷺ؛ فإن أصر بعد البيان، حكم بكفره...فإذا كان في بلد وثن يعبد من دون الله، قوتلوا لأجل هذا الوثن، أي لإزالته، وهدمه، وترك الشرك، حتى يكون الدين كله لله».

[2/313].

□ «وقال الإمام: وأما ما ذكر الأعداء عني، أني أُكَفِّر بالظن وبالموالاة، أو أكفّر الجاهل الذي لم تقم عليه الحجة، فهذا بهتان عظيم، يريدون به تنفير الناس عن دين الله ورسوله».[10/ 113].

□ «وكذلك تمويهه على الطغام: بأن ابن عبد الوهاب يقول: الذي ما يدخل تحت طاعتي كافر، ونقول: سبحانك هذا بهتان عظيم! بل نشهد الله على ما يعلمه من قلوبنا، بأن من عمل بالتوحيد، وتبرأ من الشرك وأهله، فهو المسلم في أي زمان، وأي مكان.

وإنما نكفّر من أشرك بالله في إلهيته، **بعدما نبين له الحجة**، على بطلان الشرك، وكذلك نكفر من حسنه للناس، أو أقام الشبه الباطلة على إباحته، وكذلك من قام بسيفه، دون هذه المشاهد، التي يشرك بالله عندها، وقاتل من أنكرها، وسعى في إزالتها؛ والله المستعان».[10/ 128 الإمام].

□ «وسئل أبناء الشيخ، وحمد بن ناصر، رحمهم الله: هل تعتقدون كفر أهل الأرض على الإطلاق؟ أم لا؟

فأجابوا: الذي نعتقده دينا، ونرضاه لإخواننا مذهبا، أن من أنكر ما هو معلوم من الدين بالضرورة، **وقامت عليه الحجة**، فإنه يكفر بذلك، ولو ادعى الإسلام؛ وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء.

ويكفر أيضا: من أنكر وجوب الصلاة، ودُعي إليها وأبى عن فعلها جحدا، يُقتل عندنا كفرا؛ وهو مذهب الإمام أحمد، وإسحاق، وغيرهما من السلف والخلف، وهو الذي تدل عليه الأدلة، من الكتاب والسنة; وفي المسألة قول آخر: أنه يقتل حداً، وهو القول المشهور في مذهب الإمام مالك، والشافعي، وأبي حنيفة.

ونكفر أيضاً: من أنكر وجوب الزكاة، وامتنع من أدائها، وقاتل الإمام عليها; ونكفر أيضاً: من أبغض شيئاً من دين الرسول ﷺ وسبه.

وقد ذكر بعض العلماء، رحمهم الله: أن الكفر والردة أنواع كثيرة... وأما تكفير أهل الأرض كلهم، فنحن نبرأ إلى الله من هذا، بل نعتقد أن أمة محمد ﷺ لا تجتمع على ضلالة، بل قد أجارها الله عن ذلك، على لسان نبيه محمد ﷺ، ولا تزال طائفة منها على الحق منصورين، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم، إلى أن تقوم الساعة...» [10/131-133].

 «ونقلوا لشيخ الإسلام ابن تيمية مقررين:

فلهذا كان أهل العلم والسنة، لا يكفرون من خالفهم، وإن كان ذلك المخالف يكفرهم، لأن الكفر حكم شرعي، فليس للإنسان أن يعاقب بمثله، كمن كذب عليك، وزنى بأهلك، ليس لك أن تكذب عليه، وتزني بأهله، لأن الكذب والزنى حرام لحق الله، وكذلك التكفير حق لله، فلا يكفر إلا من كفره الله ورسوله.

وأيضاً: **فإن تكفير الشخص المعين وجواز قتله، موقوف على أن تبلغه الحجة النبوية، التي يكفر من خالفها؛ فليس كل من جهل شيئا من الدين يكفر** ولهذا لما استحل طائفة، من الصحابة والتابعين- كقدامة بن مظعون وأصحابه- الخمر، وظنوا أنها تباح لمن عمل صالحا، على ما فهموه من آية المائدة، اتفق علماء الصحابة، كعمر وعلي وغيرهما، على أنهم يستتابون، فإن أصروا على الاستحلال كفروا، وإن أقروا به جلدوا، فلم يكفروهم بالاستحلال **ابتداء**، لأجل الشبهة التي عرضت لهم، حتى يتبين لهم الحق، فإذا أصروا على الجحود كفروا».[10/224].

 «وسئل الشيخ عبد الله بن الشيخ -رحمهما الله تعالى- عن حال من صدر منه كفر من غير قصد منه بل هو جاهل، هل يعذر، سواء كان قولا، أو فعلا، أو توسلا؟

فأجاب: إذا فعل الإنسان الذي يؤمن **بالله ورسوله**، ما يكون فعله كفرا، أو اعتقاده كفرا، **جهلا منه** بما بعث الله به رسوله ﷺ، **فهذا لا يكون عندنا كافرا**، ولا

نحكم عليه بالكفر حتى تقوم عليه الحجة الرسالية، التي يكفر من خالفها.

فإذا قامت عليه الحجة، وبين له ما جاء به الرسول ﷺ، وأصر على فعل ذلك بعد قيام الحجة عليه، فهذا هو الذي يكفر، وذلك لأن الكفر: إما يكون بمخالفة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وهذا مجمع عليه بين العلماء في الجملة.

واستدلوا بقوله تعالى: **(وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً)** ، وبقوله: **(وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً)** إلى قوله: **(بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ)**.

واستدلوا أيضاً: بما ثبت في الصحيحين والسنن، وغيرها من كتب الإسلام، من حديث حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن رجلا ممن كان قبلكم، قال لبنيه: إذا أنا مت فأحرقوني، ثم ذروا نصفي في البر، ونصفي في البحر؛ فوالله لئن قدر الله علي، ليعذبني عذابا لا يعذبه أحدا من العالمين. فأمر الله البحر فجمع ما فيه، وأمر الله البر فجمع ما فيه، ثم قال له: كن، فإذا الرجل قائم. قال الله: ما حملك على ذلك؟ قال خشيتك ومخافتك، فما تلافاه أن رحمه».

فهذا الرجل اعتقد أنه إذا فعل به ذلك، لا يقدر الله على بعثه، جهلا منه لا كفرا ولا عنادا، فشك في قدرة الله على بعثه، ومع هذا غفر له ورحمه، وكل من بلغه القرآن، فقد قامت عليه الحجة بالرسول ﷺ، ولكن **الجاهل يحتاج إلى من يعرفه بذلك من أهل العلم**، والله أعلم». [10/ 239].

 «فتكفير المعين من هؤلاء الجهال وأمثالهم، بحيث يحكم عليه بأنه مع الكفار، لا يجوز الإقدام عليه، **إلا بعد أن تقوم على أحدهم الحجة بالرسالة**، التي يتبين بها لهم أنهم مخالفون للرسول ﷺ، وإن كانت مقالتهم هذه لا ريب أنها كفر، فإن نفي الصفات كفر، والتكذيب بأن الله لا يرى في الآخرة كفر، وإنكار أن يكون الله على العرش كفر، وإنكار القدر كفر؛ وبعض هذه البدع أشد من بعض، والله

أعلم». [10/ 248].

 «**ولكن في أزمنة الفترات وغلبة الجهل، لا يكفر الشخص المعين بذلك، حتى تقوم عليه الحجة بالرسالة، ويبين له، ويعرف أن هذا هو الشرك الأكبر الذي حرمه الله ورسوله**؛ فإذا بلغته الحجة، وتليت عليه الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، ثم أصر على شركه فهو كافر، بخلاف من فعل ذلك جهالة منه، ولم ينبه على ذلك؛ فالجاهل فعله كفر، ولكن لا يحكم بكفره إلا بعد بلوغ الحجة إليه، فإذا قامت عليه الحجة ثم أصر على شركه فقد كفر، ولو كان يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، ويصلي ويزكي، ويؤمن بالأصول الستة». [10/ 274].

 «وأما قول من يقول: إن النبي ﷺ أو غيره ينجي من عذاب الله، أو يغني من الله شيئا، فهذا كفر، يحكم بكفر صاحبه **بعد تعريفه إن كان جاهلا**». [10/ 419].

 «ولا نكفر إلا من كفره الله ورسوله، **بعد قيام الحجة عليه**». [10/ 471].

ومن تقريرات عبد اللطيف آل الشيخ من أساطين الدعوة وأئمتها في مرحلتها الثانية:

 «وشيخنا رحمه الله قد قرَّر هذا وبينه وفاقًا لعلماء الأمة واقتداءً بهم، **ولم يكفِّر إلاَّ بعد قيام الحجة وظهور الدليل، حتى إنه رحمه الله توقف في تكفير الجاهل من عُبَّاد القبور إذا لم يتيسَّر له من ينبِّهه**». [مصباح الظلام ص325].

 «والشيخ محمد - رحمه الله - من أعظم الناس توقفًا وإحجامًا عن إطلاق الكفر **حتى أنه لم يجزم بتكفير الجاهل الذي يدعو غير الله من أهل القبور أو غيرهم إذا لم يتيسر له من ينصحه ويبلغه الحجة التي يكفر مرتكبها**». [منهاج التأسيس ص98].

 «ولا يُكَفِّر [أي الشيخ] إلا على هذا الأصل **بعد قيام الحجة المعتبرة، فهو في ذلك** على صراط مستقيم متبع لا مبتدع». [مصباح الظلام ص51].

□ « وأما قوله [أي أحد أعداء الدعوة]: (وجَعَل [أي الشيخ] بلاد المسلمين كفارًا أصليين) .

فهذا كذب وبهت، ما صدر ولا قيل، ولا أعرفه عن أحد من المسلمين فضلًا عن أهل العلم والدين؛ بل كلهم مجمعون على أن بلاد المسلمين لها حكم الإسلام في كل زمان ومكان.

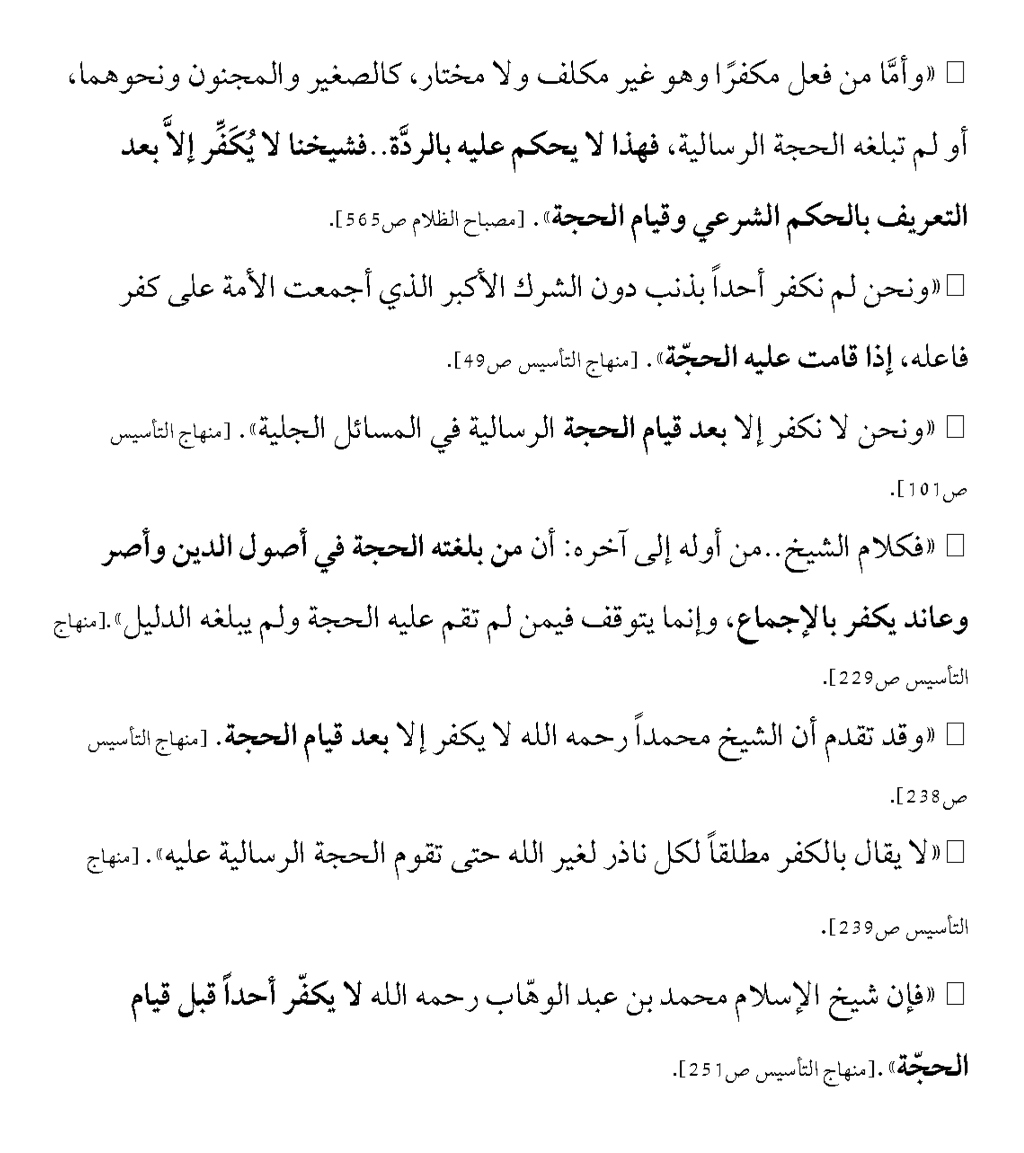
وإنما تكلَّم الناس في بلاد المشركين، الذين يعبدون الأنبياء والملائكة والصالحين، ويجعلونهم أندادًا لله ربِّ العالمين، أو يسندون إليهم التصرف والتدبير كغلاة القبوريين، فهؤلاء تكلم الناس في كفرهم وشركهم وضلالهم، والمعروف المتفق عليه عند أهل العلم: أن من فعل ذلك ممن يأتي بالشهادتين يحكم عليه **بعد بلوغ الحجة بالكفر والردَّة** ولم يجعلوه كافرًا أصليًّا.. » [مصباح الظلام ص52-53].

□ «ما قرَّره الشيخ وبيَّنه هو توحيد رب العالمين الذي جاءت به الرسل ونزلت به الكتب، وأنهم قاموا أشد القيام في رده وإطفائه، وقاتلوا على ذلك **بعد قيام الحجة**». [مصباح الظلام ص 58].

□ «مع أن هذا الشيخ لم يُكفِّر من أهل نجد إلا من قام وجدَّ في إطفاء نور الله، وإنكاره توحيده، ومن جحد البعث من بواديهم وأعرابهم، **ولم يُكفّر إلا بعد قيام الحجة** وظهور الدليل على الإيمان بالله ورسله، ووجوب الكفر بما عبد من دونه، فالخصومة في الأصل الأصيل، وحسبنا الله ونعم الوكيل».[مصباح الظلام ص119].

□ «ولم يكفِّر إلاَّ **بعد قيام الحجة** وظهور الدليل». [مصباح الظلام ص499].

□ «وشيخنا رحمه الله **لم يكفر أحدًا ابتداءً بمجرد فعله وشركه، بل يتوقَّف في ذلك حتى يعلم قيام الحجة التي يكفر تاركها**، وهذا صريح في كلامه في غير موضع، ورسائله في **ذلك معروفة**». [مصباح الظلام ص516].



 «وأمَّا من فعل مكفرًا وهو غير مكلف ولا مختار، كالصغير والمجنون ونحوهما، أو لم تبلغه الحجة الرسالية، **فهذا لا يحكم عليه بالردَّة..فشيخنا لا يُكَفِّر إلاَّ بعد التعريف بالحكم الشرعي وقيام الحجة**». [مصباح الظلام ص565].

«ونحن لم نكفر أحداً بذنب دون الشرك الأكبر الذي أجمعت الأمة على كفر فاعله، **إذا قامت عليه الحجّة**». [منهاج التأسيس ص49].

 «ونحن لا نكفر إلا **بعد قيام الحجة** الرسالية في المسائل الجلية». [منهاج التأسيس ص101].

 «فكلام الشيخ..من أوله إلى آخره: أن **من بلغته الحجة في أصول الدين وأصر وعاند يكفر بالإجماع**، وإنما يتوقف فيمن لم تقم عليه الحجة ولم يبلغه الدليل».[منهاج التأسيس ص229].

 «وقد تقدم أن الشيخ محمداً رحمه الله لا يكفر إلا **بعد قيام الحجة**. [منهاج التأسيس ص238].

«لا يقال بالكفر مطلقاً لكل ناذر لغير الله حتى تقوم الحجة الرسالية عليه». [منهاج التأسيس ص239].

 «فإن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهّاب رحمه الله **لا يكفّر أحداً قبل قيام الحجّة**».[منهاج التأسيس ص251].

ونتأمل في النقل التالي عن عبد اللطيف آل الشيخ في معرض رده على داود بن جرجيس العراقي من أشهر أعداء الدعوة:

قال العراقي: "النقل السابع عشر: "قال في الفتاوى أيضاً، وفي جوابه له: "وأما هؤلاء القلندرية المحلقين اللحى فمن أهل الضلالة، وأكثرهم كافر بالله ورسوله، لا يرون وجوب الصلاة ولا الصيام، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق، بل كثير منهم أكفر من اليهود والنصارى، ليسوا من أهل الملة، ولا من أهل السنة. وقد يكون فيهم من هو مسلم، ولكنه مبتدع ضال، أو فاجر فاسق.

إلى أن قال : ويجب عقوبتهم جميعهم، ومنعهم من هذا الشعار الملعون، كما يجب ذلك في كل معلن ببدعة وفجور.

وليس ذلك مختصاً بهم، بل كل من كان من المتفقهة، والمتعبدة، والمتفلسفة، ومن وافقهم من أهل الديوان والملوك، والأغنياء، والكتاب، والأطباء، والعامة خارجا عن الهدى ودين الحق الذي بعث الله به رسوله، لا يقر بجميع ما أخبر الله به على لسان رسوله، ولا يوجب ما أوجب الله ورسوله، ولا يحرم ما حرم الله ورسوله، أو يدين بدين يخالف الدين الذي بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلّم ظاهراً وباطنًا؛ مثل أن يعتقد أن شيخه يرزقه، أو ينصره أو يهديه، أو يغيثه، أو كان يعبد شيخه أو يدعوه ويسجد له، أو يفضله على النبي صلى الله عليه وسلم تفضيلا مطلقا، أو مقيدا في شيء من الفضل الذي يقرب إلى الله تعالى، وكان يرى نفسه هو أو شيخه مستغنيا عن متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم، فكل هؤلاء كفار إن أظهروا، ومنافقون إن لم أبطنوا.

وهؤلاء الأجناس، وإن كانوا قد كثروا في هذا الزمان، فلقلة دعاة العلم والإيمان، وفتور آثار الرسالة في أكثر البلدان، وأكثر هؤلاء ليس عندهم من آثار الرسالة

وميراث النبوة ما يعرفون به الهدى، وكثير منهم لم يبلغهم ذلك. وفي أوقات الفترات، وأمكنة الفترات: يثاب الرجل على ما معه من العلم، ويغفر له لم تقم الحجة عليه ما لا يغفر لمن قامت عليه الحجة، كما في الحديث المعروف: " يأتي على الناس زمان لا يعرفون فيه صلاة، ولا صيامًا، ولا حجًا، ولا عمرة، إلا الشيخ الكبير، والعجوز الكبيرة. ويقولون: أدركنا آباءنا يقولون: لا إله إلا الله فقيل لحذيفة بن اليمان: ما تغني عنهم لا إله إلا الله؟ فقال: تنجيهم من النار، تنجيهم من النار، تنجيهم من النار".

وأصل ذلك: أن المقالة التي هي كفر بالكتاب والسنة والإجماع، يقال: هي كفر قولا مطلقاً، كما دل على ذلك الدليل الشرعي؛ فإن الإيمان والتكفير من الأحكام المتلقاة عن الله ورسوله، ليس ذلك مما يحكم فيه الناس بظنونهم وأهوائهم. ولا يجب أن يحكى في كل شخص قال ذلك بأنه كافر حتى يثبت في حقه شروط التكفير، وتنتفى موانعه، مثل من قال: شرب الخمر أو الربا حلال؛ لقرب عهده بالإسلام، والنشأة ببلاد بعيدة، أو سمع كلاما أنكره ولا يعتقد أنه من القرآن ولا من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، كما كان بعض السلف ينكر أشياء حيث لم يثبت عنده أن النبي صلى الله عليه وسلم قالها، وكان الصحابة يشكون في أشياء مثل رؤية الله وغير ذلك، ومثل الذي قال لأهله: " إذا أنا مِتُّ فاسحقوني، ثم ذروني في اليم؛ فلعلي أضل الله" ونحو ذلك؛ فإن هؤلاء لا يكفرون حتى تقوم عليهم الحجة الرسالية، وقد عفى الله لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان. وقد أشبعنا الكلام عليها في أماكنها، والفتوى لا تحتمل البسط أكثر من هذا. والله أعلم ". انتهى.

قال العراقي بعد نقله لهذا ـ: "فتأمل كلام شيخ الإسلام في هذه الطائفة القلندرية وأشباههم، مع قوله: "إن أكثرهم لا يؤمن بالله ورسوله، وقوله: لا يرون وجوب الصلاة والصيام، ولا يحرمون ما حرّم الله ورسوله، وكثير منهم أكفر من اليهود والنصارى، وأنهم يخالفون الدين الذي بعث الله به رسوله باطنا وظاهراً، وأنهم يعتقدون أن شيخهم يرزقهم وينصرهم ويهديهم ويغيثهم، ويعبدون شيوخهم ويسجدون لهم، ويفضلون شيوخهم على النبي صلى الله عليه وسلّم وكل واحدة من هذه الخصال مكفرة إذا اعتقدوا أن الرزق والنصرة والإغاثة من شيوخهم استقلالا من دون الله من غير تأويل أنها بشفاعتهم، وهذا كله عندهم لفتور آثار الرسالة، وكثير منهم لم يبلغهم ذلك وأنهم مثابون مغفور لهم على ما معهم من الإيمان. وإن كلمة لا إله إلا الله تنجيهم من النار حتى كررها الصحابي الجليل صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلّم مع عدم إيجابهم الصلاة والصيام والزكاة والحج والعمرة وأن حال هؤلاء كحال بعض الصحابة وبعض السلف الشاكين في ثبوت بعض الآيات، أو بعض الأحاديث، ولم تبلغهم أو بلغتهم أولوها ومثل الذي أمر أهله بإحراقه وذره في الهواء واعتقد أن الله لا يقدر عليه وعلى بعثه وصرّح رحمه الله أن الكفر لا يثبت على معين، إن أطلق عليه الكفر بالكتاب والسنة والإجماع، حتى تبثت شروط التكفير، وتنتفي موانعه. ومن جملة موانعه كما صرّح به غير مرّة: الاجتهاد في مسألة، ولو مخطئاً والتقليد لمجتهد في هذه المسألة أو تأويلاً يعذره الله فيه، أو شبهة أو جهلاً وحسن قصد، وانظر إلى قوله: فإن الإيمان والتكفير من الأمور المتلقاة عن الله ورسوله وليس ذلك مما يحكم الناس فيه بظنونهم وأهوائهم، فانصف يا أخي ولا

تتجاسر على من يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ومع ذلك يوجب ما أوجبه الله ورسوله ويصلي ويصوم ويزكي ويحج ويحب الله ورسوله، ويؤمن بكتبه وملائكته ورسله، والله يصلنا وإياك.

قال الشيخ عبد اللطيف : والجواب أن يقال:

هذا العراقي يتكثر بما ليس له، ويخرج عن محل النزاع، ويوهم الجهال أنه قد أفاد وأجاد، وهو في ظلمات لا تنقشع ولا تكاد، وهذا الكلام الذي حكاه عن الشيخ صريح في تكفير من خرج عن الهدى ودين الحق الذي بعث الله به رسوله، ولا يقر بجميع ما أخبر الله به على لسان رسوله، أو لا يوجب ما أوجب الله ورسوله أو لا يحرم ما حرم الله ورسوله، أو كان يدين بدين يخالف ما بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلّم ظاهراً وباطناً، مثل أن يعتقد أن شيخه يرزقه أو ينصره أو يهيديه، أو يغيثه، أو كان يعبد شيخه أو يسجد له أو يفضله على النبي صلى الله عليه وسلّم تفضيلاً مطلقاً أو مقيداً، أو كان يرى أنه هو أو شيخه مستغيثاً عن متابعة الرسول صلى الله عليه وسلّم، قال: "فكل هؤلاء كفار إن أظهروا ومنافقون إن أبطنوا" فجزم بكفرهم وقرره، وهذا عين كلامنا، ولم نزد على الشيخ حرفاً واحداً، بل كلامه أبلغ، ويدخل تحته من التكفير بالجزئيات ما دون مسألة النزاع بكثير.

وأما قوله: "وإن كانوا قد كثروا في هذه الأزمنة فلقلة دعاة العلم وفتور آثار الرسالة في أكثر البلدان وأكثر هؤلاء ليس عندهم من آثار الرسالة وميراث النبوة ما يعرفون به الهدى، أكثير منهم لم يبلغهم ذلك، وفي أوقات الفترات وأمكنة الفترات يثاب الرجل

على ما معه من العلم، ويغفر له ما لم تقم الحجة عليه، ما لا يغفر لمن قامت عليه الحجة" إلى آخر كلامه.

فهذا هو الذي تمسك به العراقي، أعني على هذا الكلام الأخير، وظن أنه له لا عليه، وهذا غلط ظاهر وجهل مستبين؛ **فإن النزاع فيمن قامت عليه الحجة، وعرف التوحيد، ثم تبين في عداوته ومسبته ورده كما فعل هذا العراقي، أو أعرض عنه فلم يرفع به رأساً، كحال جمهور عباد القبور ولم يعلم، ولكن تمكن من العلم ومعرفة الهدى، فأخلد إلى الأرض واتبع هواه، ولم يلتفت إلى ما جاءت به الرسل ولا اهتم به. وكان شيخنا محمد بن عبد الوهاب يقرر في مجالسه ورسائله أنه لا يكفر إلا من قامت عليه الحجة الرسالية، وإلا من عرف دين الرسول وبعد معرفته تبين في عداوته ومسبته، وتارة يقول: وإذا كنا لا نكفر من يعبد الكواز ونحوه ونقاتلهم حتى نبين لهم وندعوهم فكيف نكفر من لم يهاجر إلينا؟ ويقول في بعضها: وأما من أخلد إلى الأرض واتبع هواه، فلا أدري ما حاله؟ وإذا كان هذا كلام شيخنا، وهذه طريقته فكيف يلزمه العراقي وينسب إليه التكفير بالعموم، ويحتج عليه بقول الشيخ: إن أهل الفترات ومن لم تبلغهم الدعوة يغفر لهم ما لا يغفر لغيرهم؟.**

والعراقي لبس الحق بالباطل، وافترى على الشيخ، ونسب إليه ما ليس من مذهبه وما لم يقل، وألزمه ما هو بريء منه، ثم أخذ في رد ما افتراه وبهت الشيخ به، وبهذا تعرف أنه مخلط ملبس. [منهاج التأسيس ص219-222].

ومن تقريرات سليمان بن سحمان من أئمة الدعوة في مرحلتها الثالثة (الدولة السعودية الثالثة):

«كذلك من دعى غير الله وحج لغير الله هو أيضا مشرك، والذي فعله كفر، لكن قد لا يكون عالما بأن هذا شرك محرم كما أن كثيرا من الناس دخلوا في الإسلام من التتار وغيرهم وعندهم أصنام لهم صغار من لبد وغيره وهم يتقربون إليها ويعظمونها ولا يعلمون أن ذلك محرم في دين الإسلام ويتقربون إلى النار أيضا ولا يعلمون أن ذلك محرم، فكثير من أنواع الشرك قد يخفى على بعض من دخل في الإسلام ولا يعلم أنه شرك فهذا ضال علمه وعمله الذي أشرك فيه باطل لكن لا يستحق العقوبة حتى تقوم عليه الحجة». [كشف غياهب الظلام ص187 ط.أضواء السلف].

«ونحن لم نكفر أحدا بذنب دون الشرك الأكبر الذي أجمعت الأمة على كفر فاعله، إذا قامت عليه الحجة». [الضياء الشارق ص86].

وقال أيضا:

«ولا يكفِّر [الشيخ] إلا على هذا الأصل [أي صرف العبادة لغير الله] بعد قيام الحجة المعتبرة». [الضياء الشارق ص166].

وقال:

«إنهم [أي النجديين] لا يكفرون المسلمين وإنما يكفرون من كفّره الله ورسوله وأهل العلم من غلاة القبور..بعد قيام الحجة». [الضياء الشارق ص215].

وقال أيضا تعليقا على عبارة ابن تيمية الشهيرة:

«ولكن لغلبة الجهل وقلة العلم بآثار الرسالة في كثير من المتأخرين لم يمكن تكفيرهم بذلك حتى يبين لهم ما جاء به الرسول مما يخالفه».

قال سليمان بن سحمان: «ومراد شيخ الإسلام بهذا الاستدراك أن الحجة إنما

تقوم على المكلفين ويترتب حكمها بعد بلوغ ما جاءت به الرسل من الهدى ودين الحق وزبدة الرسالة ومقصودها الذي هو توحيد الله وإسلام الوجه له وإنابة القلوب إليه قال الله تعالى: (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) ، وقد مَثَّل العلماء هذا الصنف بمن نشأ ببادية أو ولد في بلاد الكفار ولم تبلغه الحجة الرسالية، ولذلك قال الشيخ: لغلبة الجهل وقلة العلم بآثار الرسالة في كثير من المتأخرين.

وقد صنف رسالة مستقلة في أن الشرائع لا تلزم قبل بلوغها، وأكثر العلماء يسلمون هذا في الجملة ويرتبون عليه أحكاما كثيرة في العبادات والمعاملات وغيرها **فمن بلغته دعوة الرسل** إلى توحيد الله ووجوب الإسلام له وفَقِهَ أن الرسل جاءت بهذا لم يكن له عذر في مخالفتهم وترك عبادة الله، وهذا هو الذي **يُجزَم** بتكفيره إذا عبد غير الله وجعل معه الأنداد والآلهة، والشيخ وغيره من المسلمين لا يتوقفون في هذا، **وشيخنا رحمه الله قد قرر هذا وبينه وفاقا لعلماء الأمة واقتداء بهم ولم يكفر إلا بعد قيام الحجة وظهور الدليل، حتى إنه رحمه الله توقف في تكفير الجاهل من عباد القبور إذا لم يتيسر له من ينبهه**». [الأسنة الحداد ص156-157]

بعض نصوص الشيخ وأئمة الدعوة التي يقررون فيها اعتبار عارض الجهل (بالصورة المشروحة) مانعا من المبادرة لتكفير أهل الشهادتين:

 «كلامنا مع رجل **يؤمن بالله واليوم الآخر، ويحب ما أحب الله ورسوله، ويبغض ما أبغض الله ورسوله، لكنه جاهل**، قد لبست عليه الشياطين دينه; ويظن أن الاعتقاد في الصالحين حق؛ ولو يدري أنه كفر يدخل صاحبه في النار، ما فعله; ونحن نبين لهذا ما يوضح له الأمر».[1/ 75 الإمام].

 «وإذا كنا لا نكفر من عبد الصنم، الذي على عبد القادر، والصنم الذي على قبر أحمد البدوي، وأمثالهما، لأجل جهلهم، وعدم من ينبههم، فكيف نكفر من لم يشرك بالله إذا لم يهاجر إلينا، أو لم يكفر ويقاتل؟: (**سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ**) [سورة

النور آية: 16] ».[1/ 104الإمام].

 «ولكن أنبهك منه [أي من كتاب فيه طعن في دعوة الشيخ]على كلمتين: الأولى: قوله: إنهما نسبا من قبلهما إلى **الخروج من الإسلام**، والشرك الأكبر، أفيظن أن قوم موسى لما قالوا: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، **خرجوا من الإسلام**؟ أفيظن أن أصحاب رسول الله ﷺ لما قالوا: اجعل لنا ذات أنواط فحلف لهم أن هذا مثل قول قوم موسى: اجعل لنا إلها، **أنهم خرجوا من الإسلام**؟ أيظن: أن النبي ﷺ لما سمعهم يحلفون بآبائهم فنهاهم وقال: «من حلف بغير الله فقد أشرك» أنهم خرجوا من الإسلام؟ إلى غير ذلك من الأدلة التي لا تحصر، **فلم يُفرق بين الشرك المخرج عن الملة، من غيره، ولم يُفرق بين الجاهل والمعاند**».[2/ 44 الإمام].

 «وأما قوله: «ما من مسلم يصيبه أذى» فهو عام، وأما عطف: (الأذى) على الوصب، والنصب، والهم: فمن عطف العام على الخاص، وهو كثير جداً في كلام العرب، وفي كلامنا.

وأما سؤالكم: هل هذا في المسلم الذي لم يصدر منه شرك بالكلية؟

فنقول: أما الشرك الذي يصدر من المؤمن وهو لا يدري، مع كونه مجتهدا في اتباع أمر الله ورسوله، فأرجو أن لا يخرجه هذا من الوعد.

وقد صدر من الصحابة أشياء من هذا الباب، كحلفهم بآبائهم، وحلفهم بالكعبة، وقولهم: ما شاء الله وشاء محمد، وقولهم: اجعل لنا ذات أنواط: ولكن إذا بان لهم الحق اتبعوه، ولم يجادلوا فيه حمية الجاهلية لمذهب الآباء والعادات.

وأما الذي يدعي الإسلام، وهو يفعل من الشرك الأمور العظام، فإذا تليت عليه آيات الله استكبر عنها، فليس هذا بالمسلم». [1/ 150 الإمام].

كما نلاحظ حضور تقرير الشيخ في عدم تكفير الجاهل الذي يعبد قبر عبد

القادر وغيره في أدبيات أئمة الدعوة التي رامت الدفاع عن الشيخ وإنكار تهمة توسعه غير المنضبط في أبواب التكفير، ومن أهمها أدبيات العالم عبد اللطيف آل الشيخ في كتابيه مصباح الظلام (ص84) ومنهاج التأسيس (ص89).

من كلام أئمة الدعوة في الجاهل المعرض:

قال سليمان بن سحمان:

«مسألة الجاهل المعرض: ذكر أهل العلم أن الإعراض نوعان ، **نوع يخرج من الملة**، فأما الذي يخرج من الملة فهو الإعراض عن دين الله لا يتعلمه ولا يعمل به ، وهذا المعرض هو الذي لا إرادة له في تعلم الدين، ولا يحدث نفسه بغير ما هو عليه بل هو راض بما هو عليه من **الكفر بالله والإشراك به** لا يؤثر غيره، ولا تطلب نفسه سواه.

وأما الذي لا يخرج من الملة فهو المعرض العاجز عن السؤال والعلم الذي يتمكن به من العلم والمعرفة مع إرادته للهدى وإيثاره له، ومحبته له، ولكن غير قادر عليه ولا على طلبه لعدم المرشد». [كشف غياهب الظلام ص 316-317]

نص عن أئمة الدعوة في التفريق بين صورتي انتشار التوحيد وعدمه وأثر ذلك في المسألة

 «وأما قوله – عن الشيخ محمد [بن عبد الوهاب]، رحمه الله –: إنه لا يكفر من كان على قبة الكواز، ونحوه، ولا يكفر الوثني حتى يدعوه، وتبلغه الحجة، فيقال: نعم; فإن الشيخ محمدا رحمه الله، لم يكفر الناس ابتداء، إلا بعد قيام الحجة والدعوة، لأنهم إذ ذاك في زمن فترة، وعدم علم بآثار الرسالة، ولذلك قال: لجهلهم

وعدم من ينبههم، فأما إذا قامت الحجة، فلا مانع من تكفيرهم وإن لم يفهموها.

وفي هذه الأزمان، خصوصا في جهتكم، قد قامت الحجة على من هناك، واتضحت لهم المحجة، ولم يزل في تلك البلاد من يدعو إلى توحيد الله، ويقرره، ويناضل عنه، ويقرر مذهب السلف، وما دلت عليه النصوص من الصفات العلية، والأسماء القدسية، ويرد ما يشبه به بعض أتباع الجهمية، ومن على طريقتهم، حتى صار الأمر في هذه المسائل،؛ في تلك البلاد، أظهر منه في غيرها، ولا تخفى النصوص والأدلة، حتى على العوام؛ فلا إشكال - والحالة هذه - في قيام الحجة وبلوغها، على من في جهتكم من المبتدعة، والزنادقة الضلال.

ولا يجادل في هذه المسألة، ويشبه بها، إلا من غلب جانب الهوى، ومال إلى المطامع الدنيوية، واشترى بآيات الله ثمنا قليلا، والله أعلم». [10/ 434-435].

نص يبين أن إقامة الحجة لديهم تكون ببلوغ القرآن مع اشتراط التعريف للجاهل:

□ «وكل من بلغه القرآن، فقد قامت عليه الحجة بالرسول ﷺ، ولكن الجاهل يحتاج إلى من يعرفه بذلك من أهل العلم، والله أعلم». [10/ 240].

وسيأتي مزيد توضيح لمعنى قيام الحجة لديهم في أبواب الشرك الأكبر.

مسألة إخراج الجهل الذي هو من جنس جهل المشركين (كما تقدم شرحه) مما يعذر به:

وفي هذا السياق تحديدا (سياق التفريق بين الجهل الذي يعذر به وما لا يعذر به) خاض أئمة الدعوة كما قدمنا سجالات علمية مع من يقول فيمن استكملنا شروط إقامة الحجة عليه : لعله لم يفهم، لعله لم يقتنع، لعله لا يزال جاهلا فكيف نكفره؟

فكثر في كلامهم التدقيق على قضية الفرق بين القيام والفهم، والفرق بين الجهل الذي يعذر به والذي يزول بالبلاغ وكشف الشبهات إن وجدت، وبين جهل العناد والإعراض أو الجهل الذي هو من جنس جهل المشركين.

ونكرر للفائدة أن هذا النوع من التقريرات وجوده في الجيل التالي (جيل تلامذة الشيخ وتلامذتهم) أكثر من وجوده في تقريرات الشيخ، للتوسع الكبير الذي طرأ على المساحات التي أخضعتها الدرعية بعد وفاة الشيخ وبالتالي اتساع الدائرة التي نشروا فيها التوحيد واتساع مساحة قيام الحجج على أهل نجد.

وسيأتي مزيد تفصيل عن هذا في باب السجالات العلمية التي خاضتها الدعوة من هذا الكتاب.

ومن نصوص أئمة الدعوة في هذا السياق:

 «فإن كان المعين لا يكفر إلا إذا قامت عليه الحجة، فمن المعلوم أن قيامها ليس معناه: أن يفهم كلام الله ورسوله، **مثل فهم أبي بكر رضي الله عنه**، بل إذا بلغه كلام الله ورسوله، **وخلا من شيء يعذر به**، فهو كافر، كما كان الكفار كلهم تقوم عليهم الحجة بالقرآن، مع قول الله: (**وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أكنةأن يفقهوه**) الأنعام 25، وقوله: (**إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ**)».[10/69].

وسئل الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبا بطين، رحمه الله: عمن ارتكب شيئا من المكفرات جهلا، يكفر إذا كان جاهلا بكون ما ارتكبه كفر، أم لا؟

فأجاب: قال تعالى: (**إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ**

نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً).

فلا عذر لأحد بعد بعثة محمد ﷺ في عدم الإيمان به وبما جاء به، بكونه لم يفهم حجج الله وبيناته لأن الله سبحانه أخبر عن الكفار بعدم الفهم، فقال تعالى: (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً). وقال: (إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ) وقال: (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ).

والآيات في وصفهم بغاية الجهل، كثيرة معلومة، فلم يعذرهم تعالى بكونهم لم يفهموا، بل صرح بتكفير هذا الجنس، وأنهم من أهل النار، كما في قوله تعالى: (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً) ، وقوله: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْأِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ).... وأما قول الشيخ رحمه الله، لما ذكر شيئا من أنواع الشرك الحادث في هذه الأمة، قال: لكن لغلبة الجهل، وقلة العلم بآثار الرسالة في كثير من المتأخرين، لم يمكن تكفيرهم بذلك، حتى يبين لهم ما جاء به الرسول ﷺ، لم يقل: حتى يتبين، فتحقق منهم العناد بعد المعرفة». [352/10].

 « فقد بين أنه لا عذر لأحد في الجهل بهذه الأمور ونحوها [أي من المعلوم من الدين بالضرورة]، بعد بعثته ﷺ وبلوغ حجج الله وبيناته، وإن لم يفهمها من بلغته، فحجة الله قائمة على عباده ببلوغ الحجة، لا بفهمها، فبلوغ الحجة شيء وفهمها شيء آخر؛ ولهذا لم يعذر الله الكفار بعدم فهمهم، بعد أن بلغتهم حجته وبيناته، وهذا ظاهر بحمد الله». [360/10].

 «فلو كان هذا الحكم موقوفا على فهم الحجة، لم نكفر ونقتل إلا من علمنا

أنه معاند خاصة، وهذا بين البطلان؛ بل آخر كلامه رحمه الله، يدل على أنه يعتبر فهم الحجة، في الأمور التي تخفى على كثير من الناس، وليس فيها مناقضة للتوحيد والرسالة، كالجهل ببعض الصفات». [10/ 368].

 «ومما يبين أن الجهل ليس بعذر في الجملة، قوله ﷺ في الخوارج ما قال، مع عبادتهم العظيمة؛ ومن المعلوم: أنه لم يوقعهم ما وقعوا فيه إلا الجهل، وهل صار الجهل عذرا لهم؟»[10/ 391].

ومن تقريراتهم في ذلك قول حمد بن ناصر بن معمر في «النبذة الشريفة»[1]:

«وليس المراد بقيام الحجة أن يفهمها الإنسان فهما جليًّا **كما يفهمها من هداه الله ووفقه وانقاد لأمره.**

فإن الكفار قد قامت عليهم حجة الله مع إخباره بأنه جعل على قلوبهم أكنة أن يفقهوا كلامه.

فقال: (وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي ءاذانهم وقرا) ، وقال: (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في ءاذانهم وقر وهو عليهم عمى)، وقال تعالى: (إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون)، وقال: (هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا. الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا).

والآيات في هذا المعنى كثيرة، يخبر سبحانه أنهم لم يفهموا القرآن، ولم يفقهوه، وأنه عاقبهم بجعل الأكنة على قلوبهم والوقر في آذانهم، وأنه ختم على قلوبهم، وأسماعهم، وأبصارهم فلم يعذرهم مع هذا كله بل حكم بكفرهم وأمر بقتالهم فقاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكم بكفرهم.

---

[1] (ص117 ط. العاصمة).

فهذا يبين أن بلوغ الحجة نوع وفهمها نوع آخر».

ومن نفس الباب قول الشيخ محمد:

«ولكن أصل الإشكال، أنكم لم تفرقوا بين قيام الحجة، وبين فهم الحجة، فإن أكثر الكفار والمنافقين من المسلمين، لم يفهموا حجة الله مع قيامها عليهم، كما قال تعالى: {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً}.

وقيام الحجة نوع، وبلوغها نوع، وقد قامت عليهم، وفهمهم إياها نوع آخر; وكفرهم ببلوغها إياهم، وإن لم يفهموها. إن أشكل عليكم ذلك، فانظروا قوله صلى الله عليه وسلم في الخوارج: " أينما لقيتموهم فاقتلوهم " ،وقوله: " شر قتلى تحت أديم السماء " ، مع كونهم في عصر الصحابة، ويحقر الإنسان عمل الصحابة معهم، ومع إجماع الناس أن الذي أخرجهم من الدين هو التشدد والغلو والاجتهاد؛ وهم يظنون أنهم يطيعون الله، وقد بلغتهم الحجة، ولكن لم يفهموها.

وكذلك قتل علي رضي الله عنه الذين اعتقدوا فيه، وتحريقهم بالنار، مع كونهم تلاميذ الصحابة، ومع عبادتهم وصلاتهم وصيامهم، وهم يظنون أنهم على حق.

وكذلك إجماع السلف: على تكفير غلاة القدرية وغيرهم، مع علمهم وشدة عبادتهم، وكونهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا؛ ولم يتوقف أحد من السلف في تكفيرهم لأجل كونهم لم يفهموا، فإن هؤلاء كلهم لم يفهموا». [10/ 94].

ومنه قول عبد اللطيف آل الشيخ:

«وينبغي أن يعلم الفرق بين قيام الحجة وفهم الحجة، فإن من بلغته دعوة الرسل فقد قامت عليه الحجة؛ **إذا كان على وجه يمكن معه العلم، ولا يشترط في قيام**

الحجة أن يفهم عن الله ورسوله ما يفهمه أهل الإيمان والقبول والانقياد لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، ففافهم هذا يكشف عنك شبهات كثيرة في مسألة قيام الحجّة، قال تعالى: {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً} [الفرقان:44] ، وقال تعالى: {خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ} {البقرة: من الآية7]». [منهاج التأسيس ص251-252].

وقال سليمان بن سحمان:

«وقد أخبر الله سبحانه بجهل كثير من الكفار مع تصريحه بكفرهم، ووصف النصارى بالجهل مع أنه لا يشك مسلم في كفرهم، ونقطع أن أكثر اليهود والنصارى اليوم جهال مقلدون ونعتقد كفرهم وكفر من شك في كفرهم، وقد دل القرآن على أن الشك في أصول الدين كفر، والشك هو التردد بين شيئين كالذي لا يجزم بوقوع البعث ولا عدم وقوعه، ونحو ذلك كالذي لا يعتقد وجوب الصلاة ولا عدم وجوبها أو لا يعتقد تحريم الزنا ولا عدم تحريمه، وهذا كفر بإجماع العلماء، ولا عذر لمن كان حاله هكذا لكونه لم يفهم حجج الله وبيناته لأنه لا عذر له بعد بلوغها وإن لم يفهمها، وقد أخبر الله تعالى عن الكفار أنهم لم يفهموا فقال: (وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي ءاذانهم وقرا)، وقال (إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون)، فبيَّن سبحانه أنهم لم يفقهوا، فلم يعذرهم لكونهم لم يفقهموا، بل صرح القرآن بكفر هذا الجنس من الكفار كما في قوله تعالى : (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا. الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا. أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا). [كشف غياهب الظلام ص92-93]. [وانظر الضياء الشارق له ص379 و655].

وقال أيضا وقد نقلنا بعضه فيما تقدم وننقله هنا بتمامه، وجاء كلامه تعليقا على

عبارة ابن تيمية الشهيرة:

«ولكن لغلبة الجهل وقلة العلم بآثار الرسالة في كثير من المتأخرين لم يمكن تكفيرهم بذلك حتى يبين لهم ما جاء به الرسول مما يخالفه إلى آخر كلامه رحمه الله...قال سليمان بن سحمان: ومراد شيخ الإسلام بهذا الاستدراك أن الحجة إنما تقوم على المكلفين ويترتب حكمها بعد بلوغ ما جاءت به الرسل من الهدى ودين الحق وزبدة الرسالة ومقصودها الذي هو توحيد الله وإسلام الوجه له وإنابة القلوب إليه قال الله تعالى: (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) ، وقد مثل العلماء هذا الصنف بمن نشأ ببادية أو ولد في بلاد الكفار ولم تبلغه الحجة الرسالية ولذلك قال الشيخ: لغلبة الجهل وقلة العلم بآثار الرسالة في كثير من المتأخرين.

وقد صنف رسالة مستقلة في أن الشرائع لا تلزم قبل بلوغها وأكثر العلماء يسلمون هذا في الجملة ويرتبون عليه أحكاما كثيرة في العبادات والمعاملات وغيرها فمن بلغته دعوة الرسل إلى توحيد الله ووجوب الإسلام له وفقه أن الرسل جاءت بهذا لم يكن له عذر في مخالفتهم وترك عبادة الله، وهذا هو الذي يُجزَم بتكفيره إذا عبد غير الله وجعل معه الأنداد والآلهة، والشيخ وغيره من المسلمين لا يتوقفون في هذا، وشيخنا رحمه الله قد قرر هذا وبينه وفاقا لعلماء الأمة واقتداء بهم ولم يكفر إلا بعد قيام الحجة وظهور الدليل، [و] أنه رحمه الله توقف في تكفير الجاهل من عباد القبور إذا لم يتيسر له من ينبهه، هذا هو المراد بقول الشيخ: حتى يبين لهم ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، فإذا حصل البيان الذي يفهمه المخاطب ويعقله فقد تبين له وليس بين بيّن وتبيّن فرق بهذا الاعتبار لأن كل من بُيِّن له ما جاء به الرسول وأصرّ وعاند فهو غير مستجيب والحجة قائمة عليه سواء كان إصراره لشبهة عرضت كما وقع للنصارى وبعض المشركين من العرب، أو كان ذلك عن عناد وجحود واستكبار، كما جرى لفرعون وقومه وكثير من مشركي العرب، فالصنفان يحكم بكفرهم إذا قامت الحجة التي يجب اتباعها، ولا يلزم أن يعرف

الحق في نفس الأمر كما عرفته اليهود وأمثالهم، بل يكفي في التكفير الحجة وعدم قبول ما جاءت به الرسل، قال تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا) إلى قوله: (ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور)، وقال تعالى: (وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا) الآية، وقال تعالى: (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا)، وقال تعالى: (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها)، إلى قوله: (أولئك هم الغافلون)، وقال تعالى: (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا)، وقال تعالى: (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا)، وقال تعالى: (فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون) ونحو ذلك من الآيات، وإذا بلغ النصراني ما جاء به الرسول ولم ينقد له لظنه أنه الرسول الأمين فقط فهو كافر، وإن لم يتبين له الصواب في نفس الأمر، **وكذلك كل من بلغته دعوة الرسل بلوغا يعرف منه المراد والمقصود** فرد ذلك لشبهة أو نحوها فهو كافر، وإن التبس عليه الأمر وهذا لا خلاف فيه.

وهذا المعترض من أجهل الناس بأحكام الشرع وسبل الهدى وأظنه لا يحفظ كتاب الله ولا يدري ما فيه من النصوص.

قال الله تعالى: (وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون)، ولم يقل حتى يتبين، وقال تعالى (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) الآية، وقد نص شيخنا رحمه الله في جوابه لمن سأله عن هذه المسألة قال رحمه الله : أصل الإشكال أنكم لم تفرقوا بين بلوغ الحجة وفهم الحجة، وبلوغ الحجة لابد فيه من الحكم بما تقتضيه الحجة والدليل، وأما فهم الحجة فلا يشترط، قال الله تعالى (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون او يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا) انتهى معناه، وقال تعالى (وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي

آذانهم وقرا) فتبين بهذا أن فهم الحجة غيربلوغها وأن هذا لا يشترط في بلوغ الحجة». [الأسنة الحداد ص156 – 158]

وتأكيدا من الشيخ وأئمة الدعوة على أنهم لم يكفروا أحدا من أهل الملة في زمن الجهل ولو تلبس بشرك القبور ما لم تقم عليه الحجة، وردّا على خصومهم الذين اتهموهم باطلا وزورا بأنهم كفروا من هذا حاله بالعموم، ظهرت لدى الدعوة أدبيات التبرؤ من التكفير بالعموم في هذه المسألة[1]، ونعيد هنا النصوص التي ذكرناها في «الانتصار»:

 «فإن قال قائلهم: إنهم يكفرون بالعموم؛ فنقول: سبحانك هذا بهتان عظيم، الذي نكفر، الذي يشهد أن التوحيد دين الله، ودين رسوله، وأن دعوة غير الله باطلة، ثم بعد هذا يكفر أهل التوحيد، ويسميهم الخوارج، ويتبين مع أهل القبب على أهل التوحيد». [1/ 63 الامام].

 «وأما القول: أنا نكفر بالعموم، فذلك من بهتان الأعداء، الذين يصدون به عن هذا الدين، ونقول: (**سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ**)[سورة النور آية: 16][1/ 100 الإمام].

 «وأما الكذب والبهتان، فمثل قولهم: إنا نكفر بالعموم، ونوجب الهجرة إلينا على من قدر على إظهار دينه، وإنا نكفر من لم يكفر، ومن لم يقاتل، ومثل هذا وأضعاف أضعافه، فكل هذا من الكذب والبهتان، الذي يصدون به الناس عن دين الله ورسوله».[1/ 104 الإمام].

 «وأما ما يكذب علينا – سترا للحق، وتلبيسا على الخلق أنا نكفر الناس على الإطلاق أهل زماننا، ومن بعد الستمائة، إلا من هو على ما نحن عليه.

---

[1] التكفير بالعموم معناه تكفير كل معين معين دون تفريق بين جاهل وغيره كما سيأتي شرحه.

ومن فروع ذلك: أنا لا نقبل بيعة أحد إلا بعد التقرير عليه بأنه كان مشركا، وأن أبويه ماتا على الإشراك بالله... فجميع هذه الخرافات. وأشباهها لما استفهمنا عنها من ذكر أولا، كان جوابنا في كل مسألة من ذلك: سبحانك هذا بهتان عظيم، فمن روى عنا شيئا من ذلك، أو نسبه إلينا، فقد كذب علينا وافترى». [1/ 229].

 «ويرموننا عندكم بالعظائم، حتى يقولوا: إنهم يسبون النبي ﷺ، ويكفرون الناس بالعموم».[1/ 263].

 «من محمد بن عبد الوهاب، إلى من يصل إليه من المسلمين، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد: ما ذكر لكم عني: أني أكفر بالعموم، فهذا من بهتان الأعداء، وكذلك قولهم: إني أقول من تبع دين الله ورسوله، وهو ساكن في بلده، أنه ما يكفيه حتى يجيء عندي، فهذا أيضا من البهتان؛ إنما المراد اتباع دين الله ورسوله، في أي أرض كانت.

ولكن نكفر من أقر بدين الله ورسوله، ثم عاداه وصد الناس عنه ; وكذلك من عبد الأوثان، بعدما عرف أنها دين المشركين، وزينه للناس، فهذا الذي أكفره؛ وكل عالم على وجه الأرض يكفر هؤلاء، إلا رجل معاند، أو جاهل؛ والله أعلم، والسلام».[10/ 131].

توضيح معنى التكفير بالعموم الذي أنكر الإمام وأئمة الدعوة نسبته إليهم:

 والسامعون كلام الشيخ، في قوله: إنا لا نكفر بالعموم، فالفرق بين العموم والخصوص ظاهر.

«فالتكفير بالعموم: أن يكفر الناس كلهم عالمهم وجاهلهم، ومن قامت عليه الحجة ومن لم تقم عليه; وأما التكفير بالخصوص، فهو: أن لا يكفر إلا من قامت عليه الحجة بالرسالة، التي يكفر من خالفها».[10/ 144-145].

بعض أهم الأحكام المترتبة على تبني الشيخ وأئمة الدعوة لشرط قيام الحجة في تكفير المعينين في حال تحقق جهل المكان أو فترة الزمان(1)

الاعتذار بالجهل يتناول حتى من وقف على الأدلة وتحررت لديه ما دام لم يكن هناك من يناضل عن المسألة فلعله لم تتضح له الحجة:

 «ونعتذر عمن مضى بأنهم مخطئون معذورون، لعدم عصمتهم من الخطأ، والإجماع في ذلك ممنوع قطعا...فإن قلت: هذا فيمن ذهل، فلما نبه انتبه، فما القول فيمن حرر الأدلة، واطلع على كلام الأئمة القدوة، واستمر مصرا على ذلك حتى مات؟ قلت: ولا مانع أن نعتذر لمن ذكر، ولا نقول: إنه كافر، ولا لما تقدم أنه مخطئ، وإن استمر على خطئه، **لعدم من يناضل عن هذه المسألة في وقته، بلسانه وسيفه وسنانه، فلم تقم عليه الحجة، ولا وضحت له المحجة**؛ بل الغالب على زمن المؤلفين المذكورين التواطؤ على هجر كلام أئمة السنة في ذلك رأسا، ومن اطلع عليه أعرض عنه، قبل أن يتمكن في قلبه، ولم يزل أكابرهم تنهى أصاغرهم عن مطلق النظر في ذلك، وصولة الملوك قاهرة لمن وقر في قلبه شيء من ذلك إلا من شاء الله منهم».[1/ 236].

---

(1) مستفاد من النقول التي نقلناها في كتاب «الانتصار».

عدم تكفير من مات على عقائد الشرك في تلك الأزمنة ولم تبلغه الحجة وتبين له المحجة:

 «ولا نكفر إلا من بلغته دعوتنا للحق، ووضحت له المحجة، وقامت عليه الحجة....ونعتذر عمن مضى بأنهم مخطئون معذورون، لعدم عصمتهم من الخطأ».[1/ 234-235].

عدم تكفير المصنفين الذين تبنوا بعض الشركيات:

 «صاحب البردة وغيره، ممن يوجد الشرك في كلامه، والغلو في الدين، وماتوا، لا يحكم بكفرهم، وإنما الواجب إنكار هذا الكلام، وبيان أن من اعتقد هذا على الظاهر، فهو مشرك كافر; وأما القائل: فيرد أمره إلى الله سبحانه، ولا ينبغي التعرض للأموات، لأنه لا يعلم هل تابوا أم لا». [10/ 147-148].

من صحت ديانته واشتهر صلاحه وأخطأ في هذا الباب:

 «ونحن كذلك لا نقول بكفر من صحت ديانته، وشهر صلاحه، وعلم ورعه وزهده، وحسنت سيرته، وبلغ من نصحه الأمة، ببذل نفسه لتدريس العلوم النافعة، والتآليف فيها، وإن كان مخطئا في هذه المسألة أو غيرها، كابن حجر الهيتمي، فإنا نعرف كلامه في الدر المنظم، ولا ننكر سمة علمه، ولهذا نعتني بكتبه، كشرح الأربعين، والزواجر، وغيرها، ونعتمد على نقله إذا نقل لأنه من جملة علماء المسلمين». [1/ 236].

حكم المناطق البعيدة الخارجة عن نطاق دعوة الشيخ وأئمة الدعوة والتي لم تُستهدف بتقريراتهم وما كان خارج أياديهم:

أية جهة أو منطقة خارج نطاق دعوة الشيخ ويده فإنها لا تدخل في دائرة أدبيات التكفير (التنزيلي) عند الشيخ ولا أتباعه ولا أئمة الدعوة، و لا يوجد في تراث الشيخ وأئمة الدعوة أي تناول لمن هم خارج دائرة دعوتهم بأي أدبيات تكفير (تنزيلي) أو ما يتصل به. وسيأتي تقرير هذا في الباب الخاص بمن كان خارج دائرة الدعوة ودائرة الصراع.

حكم الطوائف المقاتلة:

واجهت الدعوة في تاريخها الحافل بعض الصور الملتبسة المتداخلة فكانت لهم تقريرات رائقة خاصة بها، ومنها هذه المسألة وصورتها: طائفة قاتلت الموحدين لدينهم تحت راية الشرك، وأقام عليهم الموحدون الحجة كطائفة مع تعسر إقامة الحجة على المعينين، وهذه الصورة سنفردها في الفصل التالي بالبحث، وخلاصة حكم أئمة الدعوة فيها هو إجراء أحكام المشركين عليهم كطائفة **مع عدم تكفير كل واحد واحد من الطائفة بعينه.**

تطبيق هذه القواعد على أرض الواقع

بخصوص الإمام محمد بن عبد الوهاب وأئمة الدعوة فتطبيقًا لهذه الأصول كان منهجهم على الأرض كالتالي:

مرّت الدعوة بمراحل مختلفة من جهة أحوال الأفراد والمجتمع في نجد، فلم يطلقوا حكما واحدا جامدا على كل الصور بل نزلوا في كل مرحلة الحكم الذي يناسبها:

مرت الدعوة بثلاث مراحل رئيسة:

الأولى: مرحلة انتشار الجهل واندثار معالم الديانة وهي مرحلة بداية دعوة الشيخ ابن عبد الوهاب، وفي هذه المرحلة أعمل قاعدة اشتراط بلوغ الحجة، ولم يكفر ولم ينشغل أصلا بقضية التكفير زمنًا، بل وجه كل همه للتعليم برفق ولطف ونشر التوحيد وتعليم الناس وتصنيف المصنفات في تقرير التوحيد وكشف الشبهات، ولم يكن لدى الشيخ أي توجه غير هذا، لأن حال المجتمعات في تلك الأزمنة تكون قريبة من حال القريب عهد بشرك كما ذكرنا، فالمنهج الحق هنا هو الانشغال بالدعوة والتعليم ونشر التوحيد، وهذا هو منهج الدعوات الإصلاحية كلها عبر التاريخ إلى زماننا.

وقد بقي الشيخ على هذا المنهج سنوات طوال قد تتجاوز الثلاثين سنة ولم يحكم بتنزيل الكفر على معين من أهل الملة من المتلبسين بالشرك بالجهل في نجد، وبقي إلى أن مات لا يخوض في حال أحد من المنتسبين للملة المتلبسين بالشرك خارج الدائرة النجدية، واستمر أبناء دعوته لا يمارسون تصديرا وتعميما لأحكام كتلك خارج نجد.

الثانية: مرحلة العيينة وقيام دولة للشيخ في نطاق ضيق.

مع أن دعوة الشيخ كانت قد دخلت بعد ذلك في مرحلة قوة ومنعة في العيينة ثم في السنتين الأولتين في الدرعية إلا أن الشيخ أيضا لم يخض في تلك الأبواب مع المخالفين، ونرجيء أسباب ذلك إلى:

أ: أن الدعوة فُتحت لها القلوب وخضعت لها الأعناق، وانقاد الناس للخير بإرادتهم، وبدأ بعض الرؤساء بالتأثر بالدعوة، فهي إذن تمشي بخطى ثابتة، وتحقق أهدافها المنشودة على الأرض وهذا هو المطلوب ، فالسير على هذه الخطى –إذن- أولى من الانشغال بالخوض في أبواب التكفير فالمخالفون للدعوة مع كل ما ارتكبوه في حقها وحق أبنائها ليس لنا معهم إلا الصبر والدعاء لهم ومناصحتهم.

ب: إصلاح قلوب الناس هو الذي يبقى ويستمر أما وازع السلطان فقط فيموت بموته.

ج: يكون هذا هو الأصل ثم الشذوذات في مجتمع دولة التوحيد هذه يقوم القضاء الشرعي بالواجب تجاهها.

ثالثًا: بسبب العوامل المتقدمة هذه لم يجد الشيخ فائدة كبيرة من استخدام أدبيات التكفير التنزيلي على الأرض والانشغال به إلا بقدر في الهامش، فقد كانت الدعوة تتحرك على قدم وساق، أما أعداؤه وخصومه العلميين فكان يستمر في محاجحتهم ومناقشتهم سنوات وسنوات ويكتفي بهذا.

المرحلة الثالثة: مرحلة انتشار الدعوة وذيوعها والتي واكبت مرحلة القتال واتسعت مع اتساع المعارك (مرحلة ما بعد عقد الدرعية).

في هذه المرحلة انقسم المجتمع النجدي معسكرين، معسكر حلفاء الشيخ وهؤلاء كانوا يبايعونه على التوحيد، ثم يرسل لهم طلاب علم وخطباء وأئمة ووعاظا، فيلقنون هذه الجهات التوحيد وينشرونه بين الصغير والكبير، وكانت

هذه الجهات تتبع سلطات الدرعية بموجب الحلف سياسيا وقضائيا ، فظهر أمر التوحيد وانتشر واستقر فيها، وكانت هذه المناطق تتسع جغرافيا مع اتساع المعارك وإخضاع بعض الجهات فيها وإرسال العلماء والوعاظ والدعاة إليها، وبعد مدة من تتابع الحروب والكر والفر كتب الله الغلبة لجيوش الموحدين وانتشرت دعوة التوحيد ورفعت راياتها في مساحات واسعة من الديار النجدية وأمن الناس، فصار حال الأفراد داخل **دائرة الدعوة أقرب للصورة الأخرى،** بمعنى أنه لم يعد يتصور أنه بعد هذه القوة والانتشار وبعد كل هذه الحروب المتتابعة على موضوع واحد، لم يعد يتصور أن يكون هناك شخص **في دائرتهم** لا يزال قائما على الشرك ولم يسمع عن التوحيد وأدلته، إلا إذا كان معاندا أو معرضا –والا لكان بحث عمن يكشف له شبهاته– وهذه المرحلة هي التي مات في أثنائها الشيخ وظهر الجيل التالي له، وفي هذه المرحلة نجد فتاوى الشيخ ثم بعض أئمة الدعوة في هؤلاء تحديدا تأخذ المنحنى الآخر، بمعنى أنهم أفتوا أو حكموا عمليا بأن الأصل أن من كان تحت دائرتهم قد بلغته الدعوة وقامت عليه الحجة ولم يعد هناك مجالا للجهل الذي يعذر به صاحبه.

وبالتالي فهذه الجهات يطبق فيها الشيخ ثم أئمة الدعوة الصورة الأخرى فيمَن انقلب حاله في تلك المناطق وخلع ربقة التوحيد من عنقه ، وقد حدث في تلك المناطق في خضم المعارك شيء من ذلك فانقلبت بعض هذه الجهات وخلعت التوحيد وناصرت عقيدة المعسكر الآخر، وهؤلاء لا يقبل الشيخ ثم أئمة

الدعوة اعتذارهم بالجهل ، وهؤلاء هم من يغلب إطلاق مصطلح (**المرتدين**) عليهم في أدبيات الدعوة لتمييزهم عن المعسكر الآخر أعني من لم يقر بالتوحيد رأسا، ونذكر هنا بشيء من جنايتهم على أهل التوحيد وقتلهم للأئمة والوعاظ، وخطورة دورهم، وعظم جرائمهم، ليفهم القاريء صفة من أطلقت عليهم الدعوة وصف الردة.

يقول ابن غنام[1]: «وفيها –السنة السادسة والتسعون بعد المئة والألف– جرى ذلك الأمر العظيم..وهو ارتداد أهل القصيم..فقد اجتمعوا على الغدر بأهل الدين، وقتل مَن عندهم من أهل التوحيد، وخصوصا المعلِّمين، فحضر كافة رؤسائهم وكبرائهم وقدمائهم فتفاوضوا على الأمر وأبرموه وتعاطوا بينهم الأيمان والعهود على قتل أهل كل بلد مَن عندهم من المسلمين موجود، في يوم معين».

وبعد أن بيَّتوا خطتهم بأن يتولى كبير كل منطقة قتل الموحدين والمعلمين في منطقته، قاموا بالتواصل مع أعداء الدعوة لإعانتهم فيما هم فيه، فاتصلوا بسعدون بن عريعر، فتحرك بحلفائه من البوادي وبني خالد، ودخلت الخطة حيز التنفيذ، فقتل أهل (الخبراء) إمامهم في الصلاة! يوم الجمعة!، وقتل آل جناح رجلا من اهل الدين مكفوف البصر وصلبوه بعصبة رجله وفيه رمق من الحياة! وقتل آل شماس أميرهم، وفعل باقي البلدان مثل هذا الفعل.

---

[1] (2/ 838-839)

وقال ابن غنام[1] عن مثلهم أيضا: «وقتلوا كثيرا من أهل التوحيد والرشاد، الذين مكثوا عندهم للتعليم والإرشاد..».

ما هو حال الأغلبية من المتلبسين بالشرك الأكبر في نجد في أزمنة الفترة من جهة قبول الحجة من عدمه

بعد أن قررنا أن وصف الأفعال باب، وتنزيل الأحكام على الفاعل باب آخر عند الشيخ وأئمة الدعوة، يتطلب النظر في جوانب كثيرة والتوقف عند مراحل عديدة أهمها تبليغ الحجة الرسالية في أزمنة الفترة واندراس الرسالة، نريد أن نتوقف هنا عند مسألة غاية في الأهمية تضعنا أمام حقيقة هامة، وتوضح لنا قيمة المبالغات التي حفّت قضايا التكفير عند الشيخ وأئمة الدعوة، نريد أن نجيب عن سؤال مهم: هل غالب المتلبسين بشرك القبور في نجد خاصة وفي بلاد الإسلام عامة في زمن الشيخ كانوا ممن إذا بلغته الحجة أقر والتزم بها أم ممن يرفض ويعاند ويعادي؟

الشيخ نفسه أراحنا من البحث عن جواب لهذا السؤال المهم الذي ينبني عليه تصور مستقيم عن مساحة تنزيل الأحكام هذه عند الشيخ وأئمة الدعوة هل كانت **مساحة ضيقة أم واسعة.**

يقول الشيخ: «وأما التكفير فأنا أكفر من عرف دين الرسول، ثم بعد ما عرفه سَبَّه، ونهى الناس عنه، وعادى من فعله، فهذا هو الذي أكفر. **وأكثر الأمة - ولله الحمد - ليسوا كذلك**»[2].

---

[1] (2/ 912)

[2] «الدرر السنية» (1/ 73-74).

ها هو الشيخ ينص على أن الأكثر ولله الحمد ليسوا من هذا النوع ولا من تلك البابة، ومقتضى كلامه أنهم كانوا إذا عُرِّفوا عرَفوا.

ويذكرني هذا النص بقول شيخ الإسلام ابن تيمية في نفس السياق والباب[1]:

« ولهذا ما بيّنت هذه المسألة قط **لمن يعرف أصل الدين** إلا تفطن؛ وقال هذا أصل دين الإسلام، وكان بعض الأكابر من الشيوخ العارفين من أصحابنا يقول هذا أعظم ما بيّنته لنا لعلمه بأنّ هذا أصل الدين».

فهذا النص فيه أن غالب المتلبسين بعبادة القبور في زمن ابن تيمية كان إذا عُرِّف عَرَف، شريطة أن يكون مقرًّا بأصل الدين إجمالا عارفا بأن الدين قائم على التوحيد ونفي الشرك، فلم يبقَ إلا إلحاق هذه الصورة (عبادة القبور) بالأصل، وهذا المنزع في الحقيقة هو الذي جعل ابن عبد الوهاب وابن تيمية قبله لا يبادرون إلى التكفير قبل الشرح والبيان.

أما مَن نطق الشهادتين ولا يعرف أصل الدين ولا يُقِرُّ به فمقتضى كلام ابن تيمية أن هؤلاء هم في الغالب الذين لا ينقادون للحق.

ومَن تأمل في توسع الدعوة النجدية بصورة عجيبة في سنوات يسيرة حيث وصلت إلى الشام والعراق شمالا واليمن جنوبا في مدة تاريخية لا تكاد تذكر بعد إزالة الرؤوس الذين كفّروا الشيخ وقاتلوه، علم يقينا أن إشكالية الدعوة الرئيسة لم تكن مع عامة أهل البلاد ولو كانوا من المتلبسين بالشرك، فهؤلاء كانوا إذا تبيَّن لهم الأمر وزالت من أمامهم العوائق أذعنوا للحق وأهله، بل كانت إشكاليتهم الكبرى مع رؤوس تلك المناطق السياسيين والدينيين.

---

[1] «الاستغاثة» (ص412 ط.المنهاج).

بل كان أهالي بعض تلك المناطق من أهم أسباب توسع الدعوة النجدية حيث كانوا يعرفون أن الحق مع النجديين فلم يعينوا عليهم ولم يشاركوا في قتالهم مع رؤسائهم بل مهَّدوا لهم السبل ويسَّروا لهم الطريق.

وقد قرر الشيخ هذا الذي نقوله من أن الذي عاداه ونفَّر الناس عنه وعن دعوته هم الخاصة وليسوا العامة فقال مخاطبا أحد العلماء: «ولا يخفاك أن **الذي عادانا في هذا الأمر هم الخاصة ليسوا بالعامة**..وكاتبناهم ونقلنا لهم العبارات وخاطبناهم بالتي هي أحسن، وما زادهم ذلك إلا نفورا، وزعموا أن اهل العارض ارتدوا لما عرفوا شيئا من التوحيد»[1]!

ومَن تأمل في أتباع الدعوة النجدية والمدرسة التيمية المتأثرين بهم الذين سلكوا مسلكهم الدعوي في العصر الحديث مِن ترك الانشغال بالحكم على المعينين والتركيز على تبليغ الحجج والبينات وكشف الشبهات، رأى مصداق ذلك، فقد كانت القبورية طاغية في العالم الإسلامي في بداية القرن العشرين، جرّاء عوامل كثيرة من أهمها تشويه صورة الموحدين ومنع كتبهم ودعوتهم من الوصول للناس، وفي النصف الثاني من القرن العشرين عندما بدأت حركات الإصلاح والتجديد العقدي بالنشاط الدعوي والعلمي وانشغلوا بالدعوة والتبيين ونشر العلم واستطاعوا الوصول للناس عبر قنوات مختلفة انقلب الوضع رأسا على عقب فصارت اليوم القبورية وأهلها في غربة في عامة بقاع العالم الإسلامي، وصار أهلها منبوذين، وانتشر التوحيد وعمّ بين الناس، دون الحاجة للخوض في تكفير المعينين ابتداء.

---

[1] ابن غنام 1/ 442.

مسألة الأخلاط الذين ماتوا على الشرك الأكبر من المنتسبين للملة في الأزمنة المتطاولة

ظهر في الجيل التالي للشيخ محمد بن عبد الوهاب والذي برّز فيه أبناؤه وكان أبرزهم وأعلمهم ابنه عبد الله، كما برّز إلى جانبهم أحد أهم الشخصيات العلمية في الدعوة النجدية وممن له ثِقَل علمي في هذا الجيل –بله في كل الأجيال وعندي إعجاب شديد بشخصيته العلمية ومناظراته– وهو حمد بن ناصر بن معمر، ظهر استشكال علمي هام أبدى فيه هؤلاء العلماء خاصة عبد الله ابن الشيخ وحمد بن ناصر رأيهم فيه ووضعوا تقريراتهم عليه.

هذا الاستشكال فيما يبدو لي نتج عن التقرير السابق و المساحة الواسعة لتقريرات عدم تكفير المنتسب للملة في أزمنة الفترات قبل إقامة الحجة والتي انتشرت واشتهرت في أطروحات الشيخ محمد بن عبد الوهاب ثم في أطروحاتهم تنظيرا وتطبيقا كما قدمنا كثيرا منه.

وهذا الاستشكال هو:

هل معنى كلامكم أن من مات من أهل الشهادتين حال تلبسه بشرك القبور، في الأزمنة المتطاولة التي انتشرت فيها القبورية من أثناء القرن الرابع إلى القرن الثاني عشر الذي ظهرت فيه الدعوة النجدية، تحكمون لكل معين معين من هؤلاء بإسلامه في الدنيا والنجاة في الآخرة لجهله، بناء على أصلكم في عدم المبادرة لتكفير من تحققنا قيام عارض الجهل المعذور به؟

من العلماء الذين طرحوا رأيهم في هذه القضية الهامة حمد بن ناصر بن معمر وعبد الله بن الشيخ محمد، وهما مع باقي أبناء الشيخ كانت فتاواهم متطابقة في هذا الباب تصدر تارة عنهم جميعا وتارة عن بعضهم، وخلاصة رأيهم: أن عدم المبادرة لتكفير المعين المنتسب للملة المتلبس بالشرك هذا متفرع عن تيقن عدم بلوغ الحجة لهذا المعين أو غلبة الظن من خلال القرائن الحالية أو الزمانية والمكانية، أما من لم يكن لدينا إطلاع على حقيقة حاله من المتلبسين بالشرك **فنحن لا نعرف حاله من جهة الجهل وعدمه، ولا نعرف هل أقيمت عليه الحجة أم لا، هل قصر أو أعرض في طلب الحجة أم لا، هل كان يعيش في بيئة علمية أم لا، هل خالط علماء أم لا، ولو كان جاهلا لا نعرف نوع جهله هل هو الجهل المعذور أم لا، وجميع الاحتمالات قائمة بحقه، وبالتالي فقد يكون جاهلا الجهل الذي يعذر به، وقد يكون معرضا أو معاندا..،** وهذا يصدق على من مات على شرك القبور في الأزمنة المتطاولة، فهؤلاء منهم جزما المعاند والمعرض والمفرط ممن بلغتهم الحجج وخالطوا العلماء واطلعوا على كلام الأئمة، ومنهم من تفرع شرك القبور عنده على منظومة عقدية مختلة في أصل الدين كله كالعبيديين الذين حكموا كثيرا من أجزاء العالم الإسلامي ومنها الحجاز فترة والقرامطة الذين حكموا منطقة نجد زمنا، والباطنية والإسماعيلية وغيرهم، فهؤلاء جميعا ممن انتشرت عبادة القبور بينهم، وفي المقابل فمن المتلبسين بشرك القبور جزما الجاهل المحب لله ورسوله ممن لم يخطر بباله أن ما هو عليه شرك...إلخ.

مثل هؤلاء (**الأخلاط**) يرى هؤلاء العلماء أنهم لم يُكَلَّفوا أن يحكموا على كل معين معين منهم بشيء، بل يطلقون عليهم حكما (**وصفيا**) لا (**عينيا**).

فلا أنهم يكفرون كل معين معين منهم بالجملة هكذا، لجواز أن يكون فيهم من هو جاهل جهلا معذورا، وخشية الوقوع في تكفير معين منتسب للملة بغير حق، وفي المقابل لا يحكمون بأن كل معين معين منهم مسلم في الدنيا والآخرة ، بل يطلقون أحكاما وصفية عامة.

فيقال في هؤلاء الأخلاط الذين ماتوا متلبسين بالشرك الأكبر من المنتسبين للملة في الأزمنة المختلفة والمتطاولة لا نحكم لكل معينيهم بالكفر ولا نحكم لهم بالإسلام بل نقول أن من علم الله من حاله أنه قد بلغته الحجة وأقيمت عليه ومات على الشرك فهؤلاء هم الكفار في كل زمان ومكان، ومن بلغته الحجة فالتزم بها فهؤلاء هم المسلمون في كل زمان ومكان، ومن كان منهم مؤمن يحب الله ورسوله ووقع في شرك القبور لعدم قيام الحجة والبيان لا نعتقد أنه بعينه مات كافرا مستحقا للنار ونفوض حقيقة أمره في الآخرة لله، ومن كنا لا نعرف حقيقة حاله أو من كان حاله فيه إشكال فإننا لم نكلف بالخوض فيه والحكم على عينه بشيء فنفوض أمره لله رأسا.

وهذه كما ترى أحكام مطلقة معلقة بالأوصاف، أما تعيين كل المعينيين الداخلين في كل قسم فهذا ليس لنا ولم نكلف به لأنه خارج محيط علمنا.

وهم في ذلك يقربون حال من مات على الشرك من هؤلاء من حكم من مات في الفترة، فكما أن من مات في الفترات لا يطلق فيهم حكم واحد، بل تربط أحكامهم بالأوصاف، فيقال أن كل من اهتدى منهم إلى التوحيد فهو من أهل الجنة، وكل من

بلغه الحق من أي طريق كان ولم يلتزم به فهو من أهل النار، وكل من مات على الشرك ولم تبلغه الحجة بحال ففيهم الخلاف المعروف.

وهذه الصورة هي التي يعبر عنها حمد بن ناصر وطبقة أبناء الشيخ محمد بأنهم لا يكفرون كل معيني هؤلاء ممن مات على الشرك في الأعصر الخالية وفي الوقت ذاته لا يحكمون لكل معينيهم بأنهم من المسلمين الناجين، بل يربطون أحكامهم بالأوصاف.

ويطرح حمد بن ناصر هذا الرأي ردًّا على رأي يراه خاطئا متفرعا عن تصور خاطيء للمسألة، فقد طُرح عليه رأي من يرى أن كل من مات من المنتسبين للملة المتلبسين بالشرك خلال القرون السابقة يحكم له بأنه مسلم في الدنيا والنجاة في الآخرة ويحمل حال الجميع على الجهل[1].

وهذا الرأي مبني على تصور خاطيء عند أصحاب هذا الرأي وهو أن عدم تكفير المعين من عباد القبور مبني على إثبات أمر واحد، وهو أنه منتسب للملة، فصارت القاعدة عندهم (كل منتسب للملة متلبس بعبادة القبور مسلم في الدنيا والآخرة لأن هذا لا يصدر إلا عن جهل).

أما حمد بن ناصر وغيره فيرون أن حكم عدم تكفير المعين من عباد القبور في الظاهر مبني على ركنين (أنه منتسب للملة) (وقيام القرائن في حقه التي تُعَيِّن أو تغلب على الظن أنه لم تبلغه الحجة)، فمتى لم يكن تحقيق هذين الشرطين في متناولهم ومحيط علمهم فوضوا أمر المعينين لله وربطوا الأحكام بالأوصاف.

---

[1] رسالة الرد على القبوريين ص115.

ولا يرى حمد بن ناصر وعبد الله بن الشيخ أن تفريع هذا التقرير على انتشار الجهل في الأمة خلال القرون المتطاولة دقيق، لأنه لا يقول أحد أن الحق انقطع في الأمة خلال كل هذه القرون انقطاعا تاما بحيث أنه لم يصل لأحد أو أن طالبه لا يجده، بل القرآن منتشر بين الناس والسنة منتشرة وكتب الفقهاء وفتاواهم وعلومهم، كما ظهرت مدارس علمية متكاثرة في تلك الحقب في العالم الإسلامي، وأعلام معروفون، ومصنفون مشهورون، وكون الأمة مرت بجهل مدقع في زمن ما ومكان ما لا يلزم منه أن هذا حال الأمة في كل زمان زمان وكل مكان مكان، فكان الأصوب هو التورع عن تكفير الجميع وفي الوقت ذاته عدم الشهادة للجميع بالنجاة، بل تقريب حكمهم من حكم أهل الفترات.

وهو تقرير علمي دقيق أرى أنه من أجود أطروحات أئمة الدعوة النجدية، ولا بأس أن يناقشه من شاء لكن بعد فهم حقيقة مقالتهم وتصورها وهو ما يفتقر إليه كثير ممن يخوض في ذلك.

ونستطيع أن نخرِّج على تقريرهم هذا بعض الصور العلمية الهامة في الباب، فمثلا إذا سئلنا عن من مات على عقائد الشيعة من جهة التكفير وعدمه، والتشيع وصف يتناول عقائد شتى فمنهم من هو مغرق في الكفر الذي لا يتوقف فيه كمؤلهة علي أو واصفي الأئمة بأوصاف الربوبية وغير ذلك من الكفر الصراح الذي لا يعذر فيه بدعوى الجهل، ومنهم من هو واقع في مقالات كفرية لكن تكفير المعين بها متوقف على البيان، ومنهم من ليس بواقع في مقالات كفرية كبعض الشيعة الأوائل ممن انحصر

تشيعه لعلي رضي الله عنه في باب تقديمه في الإمامة واعتقاد أولويته بها مع الاعتراف بفضل الشيخين وسائر الصحابة..إلخ.

فعندما يُسأل المستفتَى عنهم، إما أن يُسأل عن أقوام بأعيانهم له اطلاع على مقالاتهم وأحوالهم فهنا يستطيع أن ينزل على كل معين منهم الحكم المناسب له، وإما أن يسأل سؤالا عاما مجملا أو على أقوام ليس له اطلاع على حقيقة حالهم، ففي هذه الصورة الأدق ألا يخوض في حكم كل معين معين ، فلا يكفِّر الجميع ليسلم من الوقوع في تكفير من ليس حقه التكفير في الشرع، ولا يجزم للجميع بالإسلام ليسلم من الوقوع في إعطاء وصف الإسلام وأحكامه لمن لا يستحقه، بل يربط الأحكام بالأوصاف، فيقول من كان منهم يعتقد كذا فحكمه كذا، أما حقيقة حال كل معين منهم فأمره إلى الله.

ومن هذا الباب فيما أرى ما نسأل عنه أحيانا من حكم المجتمعات المسلمة بالاسم فقط في حين أنها لا تعتقد وجوب صلاة ولا زكاة ولا حرمة زنا ولا خمر ومات أهلها على ذلك! كبعض المجتمعات في الدول التي كانت في جنوب الاتحاد السوفيتي، يقال أنه في حقبة من الحقب قام السوفيت بعمليات إبادة لكل من يصلي أو يظهر أيًّا من شعائر الإسلام، فاختفت، وظهر جيل لا يعرف حرام من حلال، ولكنه ينطق الشهادتين وينتسب للملة، وفي المقابل نسمع من يقول هذا من المبالغة بل هؤلاء كانوا من المعرضين المفرطين، ففي مثل هذه المجتمعات المشكل حالها والتي لم نخالطها فنطلع على حقيقة حال أفرادها، فتوى هؤلاء العلماء تكون مخرجا جيدا، فلا يُنشغل بالبحث في حكم كل معين معين منهم، بل تطلق أحكام عامة

مرتبطة بالأوصاف، فيقال من نطق الشهادتين منهم صادقا مخلصا ولم يبلغه قط أمر صلاة ولا صيام فحكمه كذا، ومن فرط وقصر فحكمه كذا، ومن عَلم وجحد فحكمه كذا..إلخ.

توهم التعارض:

إذا تقرر هذا عرف القاريء الكريم لماذا لا نجد تعارضا بين هذا التقرير وباقي تقريرات أئمة الدعوة كما يستشكله كثير من الباحثين.

فكثير من الباحثين يقف على مقالات أئمة الدعوة المتكاثرة في إطلاق عدم تكفير من لم تبلغه الحجة من هؤلاء، وإثبات أوصاف الإيمان والإسلام لهم كالمؤمن الذي يحب الله ورسوله ووقع في الشرك جهلا لا نكفره، ومن صحت ديانته واشتهر صلاحه لا نكفره، ومن غلب على ظننا أنه لم تبلغه الحجة ولم تبن له المحجة ممن مضى فنعتذر لهم ولا نكفرهم، والمؤمن الذي وقع في هذا الباب خطأ لا نكفره، ومن صحت ديانته ووقع في زلة في الباب لا نكفره، إلخ التقريرات التي نقلنا بعضها في الباب السابق، فيتوهم التعارض، كيف حكموا بإيمان هؤلاء ولم ينقضوا عقد الملة في حقهم وهم يقولون هنا لا نحكم بإسلام من مات على شرك القبور.

وفي المقابل منهم من يقف على نصوصهم فيمن كفروا أعيانهم ولم يروا إعذارهم لأن القرائن الحالية أو غيرها دلت على أنهم لا يقبل في حقهم الاعتذار بالجهل، فيتوهم التعارض أيضا، كيف يقولون هنا من مات على شرك القبور لا نكفره بعينه، وهم قد كفروا هؤلاء بأعيانهم جزما.

وهذا تعارض متوهَّم ينشأ عن عدم فهم تقريرهم، فكونهم لا يحكمون على الجميع بالكفر أو لا يحكمون على من لم يطلعوا على حقيقة حاله بالكفر لا يلزم منه أنهم لم يحكموا على أحد من الأشخاص أو الأقوام بالكفر بأعيانهم ، وكونهم لا يحكمون للجميع بالإسلام لا يلزم منه أنهم لم يحكموا على البعض بالإسلام وعذروه لعدم بلوغ الحجة.

بل تقريرهم نفسه يحمل هذا المعنى داخله، فهم لم يطلقوا تكفير الجميع لأن بينهم مسلمين مؤمنين جزما، ولم يطلقوا إسلام الجميع لأن بينهم كفارا جزما.

فالمتعين أن من قامت في حقه القرائن التي تحكم بكفره بعينه كفروه بعينه كمن دخل في التوحيد ثم نقضه في زمانهم أو من عاش في زمان العلم والتوحيد في دولتهم إلخ، ومن قامت في حقه القرائن التي تحكم بأنه لا يبادر إلى إخراجه من الملة بل يعلم أولاً كقومهم في نجد، أو من كان في مثل حالهم، أو من عرف بصحة الديانة ، أو بأنه مؤمن يحب الله ورسوله..إلخ حكموا بأنه معذور بعينه لا ينقض في حقه عقد الملة ابتداء، ولا يحكم بحبوط إيمانه، **أما من عاش في أيام وسنوات وقرون خلت وماتوا على ذلك فليسوا مكلفين بالخوض في أعيانهم بتكفير ولا بإسلام، بل يربطون أحكامهم بالأوصاف كما كررناه.**

مسألة متفرعة (حكم الترحم والاستغفار على هؤلاء الأخلاط ممن مات على ظاهر الشرك):

تفرع عن هذا التقرير المهم تقرير آخر أبدى هؤلاء العلماء رأيهم فيه، وهو حكم الترحم والاستغفار لمن مات في هذه القرون المتطاولة من آباء أو أجداد أو أقارب منتسبا للملة متلبسا بشرك القبور، ويلحق بهذا التصدق عنهم والتضحية عنهم وما يلحق بهذا الباب.

وخلاصة الرأي الذي مال إليه هؤلاء العلماء أن حكم الترحم والاستغفار وإن كان مرتبطا في الأصل بتكفير المعين من عدمه، إلا أنه في الصور التي لا يعطى فيها كل المعينين حكما واحدا كالصورة المشروحة آنفا، يلجؤون في هذه الحالة إلى ربط هذا الباب بالقدر المشترك بين الجميع وهو ظاهر العمل الذي ماتوا عليه وأن حقيقة حالهم في الآخرة إلى الله، فيتوقف عن الترحم والاستغفار على الجميع لجهة العمل الظاهر، لا من جهة تكفير جميع المعينين والشهادة عليهم بأنهم ليسوا من أهل الملة أو الشهادة بحبوط إيمان الجميع بالرسالة المحمدية، فهذا الأخير هو ما تجنبه هؤلاء العلماء عندما تركوا الخوض في حال كل معين معين في هذه الصورة وأطلقوا أحكاما وصفية عامة.

مسألة أخرى:

ومن نفس الباب السؤال عن حكم قبول أعمال البر لهؤلاء الذين ماتوا على الشرك من عدمه، فيكون الجواب من نفس الجنس، أن نقول من صحح إسلامه منهم شهدنا بقبول عمله الصالح، ومن بلغته الحجة وكذب حكمنا ببطلان عمله، ومن لم تبلغه الحجة فأمره وأمر أعماله إلى الله والرجل قد أفضى إلى ربه.

نصوص هذه الطبقة من أئمة الدعوة في المسألة :

من نصوص عبد الله ابن الشيخ محمد في هذا السياق قوله:

«من **مات** من أهل الشرك قبل بلوغ هذه الدعوة، فالذي يحكم عليه: أنه إذا كان معروفاً بفعل الشرك، ويدين به، ومات على ذلك، فهذا ظاهره أنه مات على الكفر، فلا يدعى له، ولا يضحى عنه، ولا يتصدق عنه، وأما **حقيقة أمره فإلى الله**»[1]

وقال الشيخ عبد الله أيضاً: «الذي **مات قبل ظهور الإسلام** في هذه الأوطان، فإن كان قد مات على التوحيد وإخلاص العبادة لله، والتزام طاعة الله ورسوله، فإنه يدعى له، ويتصدق عنه; وإن كان قد تلطخ بالشرك، ويفعل ما يفعل غالب الناس، **فلا ينبغي الدعاء له، ويترك ويوكل أمره إلى الله**»[2].

وقال عبد الله بن الشيخ أيضا:

« من مات من أهل الشرك قبل بلوغ هذه الدعوة، فالذي يحكم عليه: أنه إذا كان معروفاً بفعل الشرك، ويدين به، ومات على ذلك، فهذا ظاهره أنه مات على الكفر، فلا يدعى له، ولا يضحى عنه، ولا يتصدق عنه، وأما حقيقة أمره فإلى الله: **فإن كان قد قامت عليه الحجة في حياته وعاند، فهذا كافر في الظاهر والباطن، وإن كان لم تقم عليه الحجة، فأمره إلى الله،** وأما سبه ولعنه فلا يجوز، بل لا يجوز سب الأموات مطلقاً..»[3]. إلخ

ومن نفس الباب فتوى لبعض أئمة الدعوة* قال فيها:

«وأما قوله [أي أحد المخالفين]: إنا نلزم الناس أن يكفروا آباءهم وأجدادهم، وهذا أيضا..من الكذب والبهتان، والذي نقوله أن من **مات** من أهل الشرك قبل بلوغ هذه

---

[1] «الدرر السنية» (5/ و154و10/ 142)، و«مجموع الرسائل النجدية» (1/ 40).

[2] «الدرر السنية» (5/ 155).

[3] «الدرر السنية» (5/ 154و10/ 142)، و«مجموع الرسائل النجدية» (1/ 40).

* لم يُسَم في هذا الموضع، إلا أنه لن يخرج في الأغلب عن نفس هذه الطبقة.

الدعوة إليه فالذي يحكم عليه إذا كان معروفا بفعل الشرك ويدين به ومات على ذلك فهذا ظاهره أنه مات على الكفر فلا يدعى له ولا يضحى ولا يتصدق عنه.

وأما حقيقة أمره فإلى الله تعالى فإن كان قد قامت عليه الحجة في حياته وعاند فهذا كافر في الظاهر والباطن وإن لم تقم عليه الحجة فأمره إلى الله ..فمن نسب إلينا غير هذا فقد كذب علينا وافترى»[1]

يقول حمد بن ناصر:

«وأما **من مات منهم** مجهول الحال، فهذا **لا نتعرض له، ولا نحكم بكفره ولا بإسلامه، وليس ذلك مما كلفنا به،** {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}. **فمن كان منهم مسلما أدخله الله الجنة، ومن كان كافرا أدخله الله النار، ومن كان منهم لم تبلغه الدعوة، فأمره إلى الله؛ وقد علمت الخلاف في أهل الفترات، ومن لم تبلغهم الحجة الرسالية**»[2].

ومن تقريراته في نفس الباب:

«هؤلاء الذين ماتوا قبل ظهور هذه الدعوة الإسلامية وظاهر حالهم الشرك بالله **لا نتعرض لهم، ولا نحكم بكفرهم ولا بإسلامهم.**

بل نقول من بلغته الدعوة المحمدية وانقاد لها ووحد الله وعبده وحده لا شريك له والتزم شعائر الإسلام وعمل بما أمره الله به وتجنب ما نهاه عنه، فهذا من المسلمين الموعودين بالجنة في كل زمان وفي كل مكان.

---

[1] «مجموعة الرسائل والمسائل النجدية» (5/ 835).

[2] «الدرر السنية» (10/ 336).

وأما من كانت حاله حال أهل الجاهلية لا يعرف التوحيد الذي بعث الله به رسوله يدعو إليه ولا الشرك الشرك الذي بعث الله رسوله ينهى عنه ويقاتل عليه، فهذا لا يقال إنه مسلم لجهله ، بل من كان **ظاهر عمله الشرك بالله** فظاهره الكفر **فلا يستغفر له ولا يتصدق عنه، ونكل حاله إلى الله الذي يبلو السرائر، ويعلم ما تخفي الصدور.**

ولا نقول فلان مات كافرا ، لأنا نفرق بين المعين وغيره، فلا نحكم على معين بكفر، لأنا لا نعلم حقيقة حاله، وباطن أمره، بل نكل ذلك إلى الله، ولا نسب الأموات بل نقول أفضوا إلى ما قدموا، وليس هذا من الدين الذي أمرنا الله به، بل الذي أمرنا به أن نعبد الله ولا نشرك به ونقاتل من أبى عن ذلك **بعد ما ندعوه** إلى ما دعاه إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم **فإن أصر وعاند كفرناه وقاتلناه.**

فينبغي للطالب **أن يفهم الفرق بين المعين وغيره، فنكفر من دان بغير الإسلام جملة، ولا نحكم على معين بنار**»[1].

وهي الصورة التي يقول فيها حمد بن ناصر وأبناء الشيخ: «لا يقال: إن لم يكن كافرا، فهو مسلم، بل نقول عمله عمل الكفار، **وإطلاق** الحكم على هذا الشخص بعينه، متوقف على بلوغ الحجة الرسالية وقد ذكر **أهل العلم: أن أصحاب الفترات، يمتحنون يوم القيامة في العرصات، ولم يجعلوا حكمه حكم الكفار، ولا حكم الأبرار**»[2].

وعن أعمال البر هل تنفع من مات على الشرك الأكبر نقرأ فتوى حمد بن ناصر وأبناء الشيخ:

---

[1] رسالة الرد على القبوريين (ص119-120)

[2] «الدرر السنية» (10/ 136).

«وأما قولكم: وهل ينفع هذا المؤمن المذكور، ما معه من أعمال البر، وأفعال الخير، قبل تحقيق التوحيد؟

فيقال: لا **يطلق** على الرجل المذكور اسم الإسلام، فضلا عن الإيمان[1]؛ بل يقال: الرجل الذي يفعل الكفر، أو يعتقده في حال جهله، وعدم من ينبهه، إذا فعل شيئا من أفعال البر، وأفعال الخير، أثابه الله على ذلك، إذا صحح إسلامه وحقق توحيده، كما يدل عليه حديث حكيم بن حزام: "أسلمت على ما أسلفت من خير"..».

ومن نصوصهم كذلك في حكم من مات في الفترات قول (أبا بطين):

«واسم الفترة لا يختص بأمة دون أمة كما قال الإمام أحمد في خطبة: الرد على الزنادقة والجهمية: الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل، بقايا من أهل العلم. ويروى هذا اللفظ عن عمر رضي الله عنه. والكلام في حكم أهل الفترة لسنا مكلفين به، والخلاف في المسألة معروف»[2].

ويشرح الشيخ عبد الله بن الشيخ وجهة نظره فيما لو قيل : لماذا لا نحكم لجميع من خلا ومات على الشرك الأكبر من المنتسبين للملة بأنهم مسلمون؟

بما خلاصته أنه مهما استحكم الجهل في نجد وسائر الديار الإسلامية خلال القرون المتطاولة فإن القرآن لا يزال يتلى بين ظهرانيهم وآيات التوحيد تقرع أسماعهم وكتب السنة وتراث الفقهاء منتشرة متداولة، ولا تزال ديار الإسلام زاخرة بالموحدين، ولن يعدم عباد القبور من مخالطة بعض الموحدين في مجتمعاتهم وبيئاتهم، ولو شاء أحدهم لسأل واسترشد ولن يعدم من يرشده، وبالتالي فيبقى هناك قدر من البلاغ حاضر موجود في نجد

---

[1] انظر ما سيأتي في باب الأسماء والأوصاف والأحكام عند أئمة الدعوة.

[2] الدرر 1/ 368

وغيرها حتى في أزمنة الجهل والفترة، ولا يعرف في تاريخ الإسلام من زمن البعثة النبوية أن استحكم انعدام بلوغ الحجة الرسالية استحكامه في أزمنة الفترة الأصلية بين بعثة الرسل.

وبالتالي فتعميم الجزم بأن الجميع مسلمون والجزم بأن ما أوقعهم فيما وقعوا فيه هو الجهل وعدم بلوغ الحكم لا سبيل إليه.

وفي المقابل الجزم بتكفير الجميع لا يستقيم، فكان أحسن الأجوبة أن يترك الخوض في حال كل معين مات وأفضى إلى ربه، وربط حكم الترحم والاستغفار بالظاهر المشترك بين الجميع وهو الشرك.

يقول:

«وأما من يفعل ذلك **جهلا لا عنادا** وماتوا عليه قبل أن **يبلغهم** أنه شرك **هل يحكم بإسلامهم ويرجى لهم العفو من الله والمغفرة وينفعهم استغفار الأحياء لهم** فهذه المسألة **أحسن الأجوبة** فيها أن يقال: الله أعلم بهم كما قال موسى عليه السلام لما قيل له (ما بال القرون الأولى قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى) وذلك لأن من بلغه القرآن فقد قامت عليه الحجة (لأنذركم به ومن بلغ) وقال (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وأكثر الناس في هذه الأزمنة وغيرها من أزمنة الفترات والجهل معرضون عن السؤال عن التوحيد والشرك ودينه ما عليه أهل بلده ولا يبحث ولا يسأل عما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله وما كان عليه السلف الصالح والتابعون لهم بإحسان، ومن بحث وسأل فحص عن ذلك وجد من يعلمه بذلك لأنه لا يزال في هذه الأمة طائفة على الحق منصورون لا

يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة وهي معصومة من الاجتماع على الضلالة والشرك والله سبحانه وتعالى أعلم»[1].

فإذا أضفنا إلى ما تقدم أن الأمم الخالية والأجيال الماضية قد أفضت إلى ربها وصار أمرها بين يديه تعالى، ولم يعد للحديث عن كيف كنًّا لنحكم عليهم لو كنا عايشناهم وخالطناهم كبير ثمرة، بل انتقل الحديث إلى ما بعد الموت وهوأمر الآخرة والمصير الأخروي تأكد هذا الجواب وهو تفويض حقيقة حال الجميع إلى الله وتقرير أن من لم تبلغه الدعوة بحال منهم حكمه حكم أهل الفترة.

فائدة: **هل يلحق بالترحم والاستغفار جميع أحكام ما بعد الموت؟**

يربط هؤلاء العلماء الأحكام اللصيقة بالمصير الأخروي فقط بالعمل الظاهر الذي مات عليه الشخص في صورة الأخلاط المذكورة، أما الأحكام الأخرى كتلك التي تتعلق بالأموال والتملكات والأنكحة وغيرها مما يدخل في أبواب العقوبات فيجرون عليها أحكام أهل الملة.

فقد نص علماء الدعوة على أن بعض أحكام ما بعد الموت كالمواريث لم يقطعها علماء الدعوة بين من مات على التوحيد ومن مات على أعمال الشرك في أزمنة الجهل في نجد أو مات في سواد هؤلاء، فقد بيّن الشيخ سعد بن حمد بن عتيق أن الشيخ لم يقطع التوارث بين من كان في بلدان الموحدين ومن كان في البلاد التي

---

[1] «مجموعة الرسائل والمسائل النجدية» (1/ 201-202).

رفعت راية الشرك وقاتلت الموحدين عليه وكان عامة أهلها من المتلبسين بالشرك، فقال الشيخ سعد بن الشيخ حمد بن عتيق، رحمهما الله:

(اعلم: أن الذي علمناه من حال أهل هذه الدعوة الإسلامية، وعلمائهم، رحمهم الله: أنهم لم يقطعوا التوارث بين أهل نجد، وبين من كان في تلك البلدان ممن وصفنا، من المنتسبين إلى الإسلام. وقد حدثني أبي، رحمه الله، أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأولاده وأتباعهم، رحمهم الله، ما قطعوا التوارث بين أهل نجد، وبين من كان في تلك البلدان)[1].

وقد اتُّهم الشيخ أنه أبطل أنكحة أهل نجد فأجاب: وهل يقول بهذا إلا مجنون!

مسألة علمية دقيقة في باب المواريث:

أحتاج أن أنبه هنا على مسألة علمية أخيرة حتى نكون أتينا على عامة مقالات أئمة الدعوة في الباب.

وهي مسألة متعلقة بباب المواريث، وصورة المسألة: حكم ما وقع من التوارث بين المتلبسين بالشرك **ممن أدركتهم دعوة التوحيد فبلغتهم الحجة** في نجد واستمروا على ما هم فيه من شرك وجرى بينهم ما جرى من توارث، ثم صححوا إسلامهم بعد ذلك أو أسلم الأبناء أو أبناء الأبناء..هل يصح التوارث الذي وقع حال شركهم بعد بلوغ الحجة أم لا[2].

من العلماء الذين أدلوا برأيهم في المسألة العالم حمد بن ناصر أيضا ورأى أن يقال: لو أن هؤلاء بعد أن بلغتهم الدعوة صححوا إسلامهم ووحدوا الله ثم رجعوا إلى ما

---

[1] الدرر السنية 7/ 148، 6/ 433

[2] الدرر السنية 7/ 145-146، و10/ 335.

كانوا فيه من شرك، فهؤلاء يكون حكمهم حكم المرتدين، ولا يصح ما جرى بينهم من توارث، لأن مال المرتد فيء.

أما في حالة ما إذا بلغتهم الدعوة والحجة وبقوا مستمرين على ما هم عليه جيلا بعد جيل ثم صححوا إسلامهم بعد ذلك، واستشكلوا حكم ما جرى بينهم من مواريث وعقود قبل التوحيد، يرى حمد بن ناصر أن يُقال لهم: حكمكم حكم من بلغته الدعوة الإسلامية من الكفار الأصليين الذين استمروا على ما هم عليه بعد بلوغهم الدعوة، ثم دخلوا في الإسلام، فلم ينظر الرسول صلى الله عليه وسلم في ما مضى منهم في مواريثهم وعقودهم وأقرهم على ما هم عليه.

وقد ظهرت هذه المسألة في زمن حمد بن ناصر لأن الدولة السعودية بلغت أوج توسعها وقتها، فكان كثير من الناس في البوادي قد بلغتهم دعوة التوحيد، ونشرت بينهم الحجج والبينات ، ولكنهم بقوا زمنا على ما هم فيه، ووقع بينهم ما وقع من توارث، وعقود وأنكحة وغير ذلك، ثم صححوا دينهم، فوقع لهم هذا الإشكال، وكثر السؤال جدا عن هذه الصورة وما يتعلق بها.

وهو رأي جيد أيضا يستطيع المتخصصون إثارته علميا، وصورته في العصر الحاضر كأن تأتي أسرة في السعودية اليوم وقد دخل التوحيد كل بيت، فيقولون أنهم وآباؤهم وآباء آبائهم كانوا يعرفون التوحيد وأعرضوا عنه وأقاموا على الشرك وجرى بينهم ما جرى من توارث فما حكم ذلك؟ هل هو باطل والمفترض أن يكون المال فيئا لبيت المال؟ إن أراد العلماء تخريج صورتهم على فتوى حمد بن ناصر يقولون بل تُقَرُّون على كل ما جرى منكم من عقود ومواريث، وعفى الله عما سلف.

وهذه الصورة هي التي قال فيها حمد بن ناصر:

((فإنه لا يمكن أن نحكم في كفار زماننا – ويتكلم على من أدركته دعوة التوحيد وبقي على ما هو عليه كما في مطلع التقرير- بما حكم به الفقهاء في المرتد، أنه لا يرث ولا يورث، لأن من قال: لا يرث ولا يورث، يجعل ماله فيئاً لبيت مال المسلمين؛ وطرد هذا القول أن يقال: جميع أملاك الكفار اليوم بيت مال، لأنهم ورثوها عن أهليهم، وأهلوهم مرتدون لا يورثون، وكذلك الورثة مرتدون لا يرثون، لأن المرتد لا يرث ولا يورث. **وأما إذا حكمنا فيهم بحكم الكفار الأصليين، لم يلزم شيء من ذلك، بل يتوارثون، فإذا أسلموا، فمن أسلم على شيء فهو له، ولا نتعرض لما مضى منهم في جاهليتهم، لا المواريث ولا غيرها))**[1].

وجعل هذا هو أصل الفتيا عنده في كل ما يتعلق بصورة هؤلاء الأقوام ممن أدركته الدعوة وبقي مقيما على الشرك ثم أسلم فقال:

((فالذي عليه الفتوى في هذه المسائل، أعني: عقود الجاهلية، من نكاح وبياعات، وعقود الربا والغصوب، ومنع المواريث أهلها ونحو ذلك: **من أسلم على شيء من ذلك لم نتعرض له..))**[2].

---

[1] الدرر السنية 7/ 145-146.

[2] الدرر السنية 7/ 142.

المصير الأخروي

رأيت من بعض المتوسعين في هذه الأبواب وفهمت من كثير من الأطروحات فيه أنهم يظنون أن التوقف عن تكفير من لم تبلغه الحجة من المتلبسين بالشرك المنتسبين للملة في الدنيا يلزم منه أن يكون مصيره في الآخرة مصير الموحدين، لا أهل الفترة.

فيجعلونه مسلما في الدنيا والآخرة، وهذا خطأ.

ومسألة المصير الأخروي لمن هذا حاله، وكونه يختلف عن الموحدين وعن المشركين، وله حكم ثالث، لا أظن في حدود نظري أن هناك من يختلف فيه من أهل العلم المحققين.

فلا يوجد من أهل العلم المحققين من يقول أن الشرك الأكبر يُغفر في الآخرة بالجهل! وإلا لكان الجهل أعظم نعمة إذن، وإن كان مثل هذا الرأي يتبناه كثير ممن ينتسب إلى السنة في العصر الحالي! حيث تصب تقريراتهم في أن كل منتسب للملة واقع في الشرك الأكبر لا يصدر هذا إلا عن جهله، وبما أنه جاهل فإن شركه مغفور، وهذا شيء لا يقوله أحد بهذه الصورة من أهل العلم فيما نفهم من كلامهم.

لا من العلماء المتقدمين ولا من العلماء المعتبرين المعاصرين كما سيأتي معنا.

إنما ينفعه الجهل المعذور عندنا في عدم المبادرة لتكفيره بل تعليمه أولًا و عدم الشهادة لعينه بأنه مات مستحقا للنار في الدنيا ثم تفويض أمره في الآخرة لله وتقريب حكمه من حكم أهل الفترة، لا الشهادة له بالنجاة.

ولم يظهر لي من أين أخذ المتوسعون في مسائل الإعذار قديما وحديثا من المتسببين للسنة فكرة الشهادة لمن مات على الشرك الأكبر من المتسببين للملة ممن لم تبلغه الحجة بالنجاة كالموحدين.

إلا أن يكون هذا تخريجا على مذهب من حكم بالنجاة لجميع من مات قبل البعثة مشركا، وهي طريقة باطلة فيما نعتقد لأن هذا القول ليس من مقالات أهل السنة فيما نقله عنهم محققوهم كابن القيم، حيث ذكر الخلاف الشهير في أولاد المشركين إلى **أن قال**: الْمَذْهَبُ الْعَاشِرُ: ((أَنَّهُمْ يُمْتَحَنُونَ فِي الْآخِرَةِ، وَيُرْسِلُ إِلَيْهِمُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَسُولًا، **وَإِلَى كُلِّ مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ الدَّعْوَةُ**: فَمَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ.

وَعَلَى هَذَا، **فَيَكُونُ بَعْضُهُمْ فِي الْجَنَّةِ وَبَعْضُهُمْ فِي النَّارِ**.

وَهَذَا **قَوْلُ جَمِيعِ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَالْحَدِيثِ**، حَكَاهُ الْأَشْعَرِيُّ عَنْهُمْ))[1].

أما القول بالنجاة للجميع فإنما يتخرج على بعض أصول المتكلمين، ولهذا نسبه السيوطي لهم[2].

والمسألة مرتبطة بأبواب الأفعال هل يعرف حسنها وقبحها بالعقل وحده أم الشرع وحده أم بهما جميعا، ثم ربط ذلك باستحقاق العذاب الأخروي من عدمه، وليس

---

[1] أحكام أهل الذمة (2/ 1138 ط. رمادي)

[2] الحاوي (2/ 191 ط. العلمية).

المحل هنا مناسبا لبسط ذلك، إنما أردنا التنبيه لمن أراد التخريج على أصول أهل السنة.

وقد يفهم بعض المتوسعين الشهادة لجميع من هذا حاله بالنجاة في الآخرة، من النقول المعروفة عن شيخ الإسلام ابن تيمية في سياق الحديث عن بعض المعينين المنتسبين للملة الواقعين في مكفرات في أنه ((فِي أَوْقَاتِ الْفَتَرَاتِ وَأَمْكِنَةِ الْفَتَرَاتِ: يُثَابُ الرَّجُلُ عَلَى مَا مَعَهُ مِنْ الْإِيمَانِ الْقَلِيلِ وَيَغْفِرُ اللَّهُ فِيهِ لِمَنْ لَمْ تَقُمْ الْحُجَّةُ عَلَيْهِ مَا لَا يَغْفِرُ بِهِ لِمَنْ قَامَتْ الْحُجَّةُ عَلَيْهِ..)) إلى أن ذكر تقريره الشهير حول التكفير المطلق وتكفير المعين: ((وَأَصْلُ ذَلِكَ أَنَّ الْمَقَالَةَ الَّتِي هِيَ كُفْرٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ يُقَالُ هِيَ كُفْرٌ قَوْلًا يُطْلَقُ..))[1] إلخ.

ولا نوافقهم على هذا الفهم أيضا، ولا أريد أن أخوض هنا السجال المعروف في نوعية الأفعال والمعتقدات الكفرية التي تدخل في مثل هذه التقريرات لابن تيمية وإن كان من الواضح أن أصل الدين لا يقال فيه مثل هذا، إنما أريد أن أنبه إلى خلل الفهم، وبيان عدم التعارض ، فغاية ما في مثل هذه التقريرات لابن تيمية أننا لا نشهد لجميع هؤلاء المعينين بالنار لأن فيهم من قد ينجو وهذا هو منزع التوقف عن تكفير بعض المعينين في الفترات، وليس في مثل هذه النصوص الشهادة لجميع الواقعين في مكفرات بالمغفرة والنجاة، فضلا عن الواقعين في الشرك الأكبر نفسه، وإلا لما أجمع العلماء وابن تيمية معهم على أن مثل هذا المعين نفسه يُعلّم ويبلغ الحجة وإلا فيقتل ردة ونشهد عليه بالنار وعدم النجاة.

---

[1] مجموع الفتاوي 35/ 165.

وإلا فلو كنا شهدنا له بالنجاة مقدَّمًا أثناء جهله فلماذا نقيم عليه الحجة إذًا، ومَن تأمل هذا التقرير فهم مبلغ الخلل الواقع في مثل ذلكم الفهم، ونسبته لمثل ابن تيمية.

فعادت المسألة إذن واحدة (من وقع في هذه الكفريات في زمن الفترات لا نبادر للحكم عليه بالنار وعدم النجاة لأنه قد ينجو، بل نبلغه الحجة فإن التزم شهدنا له بالنجاة، وإلا فيقتل ردة ويشهد له بعدم النجاة، فإن مات قبل أن نبلغه الحجة ونعرف من أي الحزبين هو، كان أمره إلى الله وحكمه وحكم اهل الفترة).

ولهذا ابن تيمية رحمه الله يقرر أن العاجز عن العلم ببعض الدين كالعاجز عن العلم بجميع الدين[1]، فعاد الأمر إلى حكم اهل الفترة.

وكما أننا لا نشهد لجميع أهل الفترة بالنار لأن منهم من سيختبر فيُغفر له وينجو، فيقال هنا بنفس ذلك.

فائدة:

من العلماء المتأخرين الذين تنبهوا ونبهوا بنص مباشر لهذه القضية الهامة مفخرة ديارنا وذهبي عصرنا العلامة المعلمي اليماني في كتابه الماتع (رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله)[2] حيث قال عن المنتسب للملة المتلبس بالشرك الأكبر وهو قريب عهد بكفر: (ولو فُرض أن قريب العهد بالكفر أصر على قوله وفعله بعد أن بُيِّن له مخالفته للشهادة فإنه يصير مرتدًّا جزما. **أما لو مات قبل أن يُبَيَّن له** فالذي يقتضيه النظر أنه وإن حكمنا عليه في الظاهر بأنه لم يخرج عن الإسلام، **هو في نفس الأمر**

[1] مجموع الفتاوي 20/ 95

[2] ص170 ط. العاصمة.

مفوّض إلى علم الله فإن علم الله عز وجل منه أنه لو بُيِّنَ له رَجَع، فهو ناج، وإن علم منه أنه لو بُيِّنَ له لأصر عليه فلا، والله أعلم).

فانظر كيف تنبه ونبّه إلى أن عدم مبادرتنا لتكفير من هذا حاله في الظاهر لا يعني الشهادة له بأن مصيره مصير الموحدين في الآخرة بل على التفصيل الذي ذكره، وهو ما يقوله أئمة الدعوة هؤلاء.

نظير هؤلاء في الشريعة:

ونظير هذه المسألة في الشريعة مسألة أقوام منتسبين لملة وشريعة رسالية ملتزمين بقدر مما وصلهم منها، ولكنهم عاشوا في زمن فترة أوجهل فيتصور جهل بعضهم ببعض مسائل الدين التي يتصور فيها الجهل، فتلبسوا ببعض المعتقدات الكفرية، ولم تبلغهم الحجة الرسالية في مثل هذه المسائل، فهؤلاء لهم حكم (إلحاقي) في الدنيا، فيلحقون بأهل هذه الملة الرسالية ، ويفوض مصيرهم الأخروي إلى الله.

وهؤلاء مثل من آمن برسالة المسيح وعاش في زمن الفترة بين المسيح ومحمد صلى الله عليهما وسلم، ولم يدرك إلا شريعة مبدّلة، فالتزم بما بلغته فيه الحجة من رسالة المسيح، وجهل جملة من مسائل الدين التي يتصور فيها الجهل مما هو دون الأصول الكبرى التي بدلت في شريعة النصرانية ولا يعذر فيها، ولم تبلغه الحجة الرسالية ، ومات على ذلك، **فهؤلاء لا يحكم عليهم في الدنيا بحبوط إيمانهم بالمسيح وخروجهم من ملة الإسلام العام**، وفي المصير الأخروي لا يعتقد فيهم أنهم من أهل

الإسلام (العام)، ولا يعتقد فيهم في المقابل أنهم من أهل الكفر، بل يفوض مصيرهم في الآخرة إلى الله[1].

موقف الشيخ محمد إمام الدعوة من هذه المسائل

لم أقف في حدود إطلاعي على رأي للشيخ محمد بن عبد الوهاب في هذه المسائل الأخيرة بنص واضح.

والسؤال: لماذا أثيرت هذه المسائل في الطبقة الثانية من طبقات أئمة الدعوة وليس في حياة الشيخ، ويظهر لي أن هذا يعود إلى:

أن أكثر حياة الشيخ قضاها في تعليم البيئة الجاهلة التي كانت تكثر فيها الشركيات من حوله، فالبيئة كانت تحتاج أولا إلى تصحيح شامل للمعتقدات الباطلة، أما المسائل العلمية الدقيقة، فليس لها كبير فائدة ولا ثمرة في هذه البيئة.

فكيف نشغل الشخص بمسائل كالترحم والاستغفار أو المواريث، وهو لم يصحح توحيده بعد!

والملاحظ في تراث الشيخ محمد بن عبد الوهاب أنه تراث تفاعلي – إن صح التعبير – يتفاعل مع الواقع ويبحث المسائل المحتاج إليها في الواقع التطبيقي.

أما في الطبقة التالية له فقد حدث استقرار علمي في نجد بعد توسع دولة النجديين، وقد بلغت أوج توسعها في ذلك الوقت، وفي مثل هذه الأجواء تظهر مسائل علمية

---

[1] راجع لزاما تحرير ابن تيمية لهذا القسم في الجواب الصحيح (2/ 291-306 ط.العاصمة)

دقيقة أنتجها جو السجال العلمي والمحاججات والردود فتطرقت هذه الطبقة لهذه المسائل.

كما أنه مع التوسع الكبير لدولة النجديين حيث بلغت أكبر توسع لها في هذه الطبقة والطبقة التالية ، وكانت حدود الدولة وقتها أكبر من حدود السعودية في الوقت الحالي! وبالتالي ظهرت عشرات المسائل الفقهية الدقيقة التي لها تعلق بالباب، فكانت هذه الطبقة تجتهد فيما تراه فيها.

وهذه المسائل الفرعية يستطيع أي باحث أن يُبدي وجهة نظره فيها بعيدا عن التشنُّج والتوتر والتحامل، فهي مسائل علمية تجمع بين الصناعة الفقهية والبُعد العقدي، وفيها دقة وتستحق أن تُثرَى ويستفاد من آرائهم فيها.

مسألة الأسماء والأوصاف والأحكام

«إذا عرفت مراد الشيخ رحمه الله

فهو يطلق الكلام حيث أطلقه الكتاب والسنة ويقيده حيث قيداه،

فالمعترض لم يفهم كلام الشيخ، ولا عرف معاني النصوص

ومن وقف على كلامه من أهل العلم عرف ما قلناه،

وأنه حيران لا يدري السبيل!»

عبد اللطيف آل الشيخ[1]

أبواب الأسماء والأوصاف والأحكام الشرعية الدينية من أدق وأعمق الأبواب العلمية التي يكثر فيها اللغط، وتصور هذه الأبواب على وجه صحيح يُبنى أولا على فهم أصول الإمام أو المدرسة المراد تحرير هذا الباب لديها في أصول التكفير، وعامة الباحثين الذين لم يوفقوا في نقدنا في فهم هذا الباب عند أئمة الدعوة أتوا في الأغلب الأعم من عدم التوفيق في فهم أصولهم العامة في الباب.

وبعد أن سلطنا الضوء على أصول الإمام وأئمة الدعوة في أبواب التكفير بناء على قراءتنا وفهمنا لتراثهم، نستطيع أن نشرح الآن بوضوح منهجهم في الأسماء والأوصاف والأحكام.

المسألة الأولى:

المسألة الأولى: هل ينزع الشيخ ثم أئمة الدعوة أوصاف الإسلام والإيمان عن المنتسب للملة الواقع في الشرك الأكبر الذي قامت قرائن في حقه تغلب على الظن

[1] من كلام العالم الجليل عبد اللطيف آل الشيخ في كتابه الحافل «مصباح الظلام» (ص115) متحدثا عن إطلاقات إمام الدعوة في أبواب الأسماء والأحكام.

أن الحجة لم تبلغه بمجرد وقوعه في الشرك؟

الذي أفهمه من كلام الشيخ وعلماء الدعوة أنهم يبقون تلك الأوصاف والأحكام إلى حين تبليغه وتعليمه وكشف شبهته.

وأنا وإن كنت أرى أن إطلاق عدم التكفير إلا بعد الحجة كما سبق نقله في عشرات النصوص عن الشيخ ثم أئمة الدعوة لا ينصرف في كلام أحد من أهل العلم إلا على ذلك، لكن لا بأس أن أذكر بعض النصوص التي تضمنت هذه الأوصاف باللفظ، وسأذكر النصوص عن إمام الدعوة ثم عن ابنه عبد الله الذي يمثل الطبقة الثانية مع باقي أبناء الشيخ وحمد بن ناصر، لأن هذه الطبقة يستشكل البعض رأيها.

وهذه بعض نصوص إمام الدعوة التي تبين هذا:

قال الإمام:

«كلامنا مع رجل يؤمن **بالله واليوم الآخر، ويحب ما أحب الله ورسوله، ويبغض ما أبغض الله ورسوله، لكنه جاهل**، قد لبست عليه الشياطين دينه; ويظن أن الاعتقاد في الصالحين حق؛ ولو يدري أنه كفر يدخل صاحبه في النار، ما فعله; ونحن نبين لهذا ما يوضح له الأمر». الدرر[1/ 75].

قلت: وهذا نص لا يحتاج إلى كثير تعليق، ويعتبر كأصل في معرفة منهج إمام الدعوة في الباب.

وقال الإمام:

«وأما سؤالكم: هل هذا في المسلم الذي لم يصدر منه شرك بالكلية؟

فنقول: أما الشرك الذي يصدر **من المؤمن** وهو لا يدري، مع كونه مجتهدا في اتباع أمر الله ورسوله، فأرجو أن لا يخرجه هذا من الوعد.

وقد صدر من الصحابة أشياء من هذا الباب، كحلفهم بآبائهم، وحلفهم بالكعبة،

وقولهم: ما شاء الله وشاء محمد، **وقولهم: اجعل لنا ذات أنواط؛ ولكن إذا بان لهم الحق اتبعوه، ولم يجادلوا فيه حمية الجاهلية لمذهب الآباء والعادات.**

وأما الذي يدعي الإسلام، وهو يفعل من الشرك الأمور العظام، فإذا تليت عليه آيات الله استكبر عنها، فليس هذا بالمسلم»[1].

الذي أفهمه من مثل هذا النص أن الرجل المنتسب للملة من أهل الشهادتين الذي صدر منه شرك وهو لا يدري ولم يخطر بباله أنه شرك، مع كونه محبا لله ورسوله، فإن وصف (المسلم) - مقيدا- و(المؤمن) -مقيدا- ثابت له، ويرجى له الخير.

وأفهم من آخر النص أنه لا ينزع عنه هذا الوصف إلا بعد بلوغ الحجة وظهور عناده أو استكباره أو رفضه الانقياد للنصوص، فهنا ينزع عنه الوصف ونقول (ليس هذا بالمسلم).

وقال الإمام:

«مسألة **المسلم** إذا أشرك بالله **بعد بلوغ الحجة**، أو المسلم الذي يفضل هذا على الموحدين أو يزعم أنه على حق، أو غير ذلك من الكفر الصريح الظاهر الذي بينه الله ورسوله وبينه علماء الأمة، أنا نؤمن بما جاءنا عن الله وعن رسوله من تكفيره، ولو غلط، من غلط فكيف والحمد لله ونحن لا نعلم عن واحد من العلماء خلافا في هذه المسألة؟»[2].

---

[1] «الدرر السنية» (1/ 150).

[2] «مفيد المستفيد» (ص66).

والذي أفهمه من قوله (المسلم إذا أشرك بالله) أن مجرد وقوع المنتسب للإسلام في الشرك لا ينزع عنه وصف الإسلام بإطلاق في ظل ما شرحناه سابقا، ومِن ربط تكفيره بأن يصدر هذا الشرك (بعد بلوغ الحجة) أن بلوغ الحجة هو مناط نزع الوصف عنه إن لم يلتزم بها.

أما ابنه عبد الله فقد قال:

«ونحن كذلك لا نقول بكفر **من صحت ديانته، وشهر صلاحه، وعلم ورعه وزهده، وحسنت سيرته، وبلغ من نصحه الأمة**، ببذل نفسه لتدريس العلوم النافعة، والتآليف فيها، وإن كان مخطئا في هذه المسألة أو غيرها، كابن حجر الهيتمي، فإنا نعرف كلامه في الدر المنظم، ولا ننكر سمة علمه، ولهذا نعتني بكتبه، كشرح الأربعين، والزواجر، وغيرها، ونعتمد على نقله إذا نقل لأنه من جملة علماء المسلمين». الدرر[1/ 236].

أقول وهذا نص ظاهر في أن بعض المعينين من المنتسبين للملة المجوّزين لبعض المقالات الشركية قد يوصف ليس بمجرد أنه من (المسلمين) بل من علمائهم، ولا نبقي عليه اسم الدين وحكمه فحسب بل نثبت له صحة الديانة وشهرة الصلاح والورع والزهد وحسن السيرة ونصح الأمة..إلخ

و **سئل الشيخ عبد الله بن الشيخ، رحمهما الله تعالى**، عن حال من صدر منه كفر من غير قصد منه بل هو جاهل، هل يعذر، سواء كان قولا، أو فعلا، أو توسلا؟

فأجاب: «إذا فعل الإنسان **الذي يؤمن بالله ورسوله**، ما يكون فعله كفرا، أو اعتقاده كفرا، جهلا منه بما بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم، **فهذا لا يكون عندنا كافرا، ولا نحكم عليه بالكفر حتى تقوم عليه الحجة الرسالية، التي يكفر من خالفها.**

فإذا قامت عليه الحجة، وبين له ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وأصر على فعل ذلك بعد قيام الحجة عليه، فهذا هو الذي يكفر، وذلك لأن الكفر: إما يكون بمخالفة كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وهذا مجمع عليه بين العلماء في الجملة.

واستدلوا بقوله تعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً} ، وبقوله: {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً} إلى قوله: {بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ}

واستدلوا أيضا: بما ثبت في الصحيحين والسنن، وغيرها من كتب الإسلام، من حديث حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن رجلا ممن كان قبلكم، قال لبنيه: إذا أنا مت فأحرقوني، ثم ذروا نصفي في البر، ونصفي في البحر؛ فوالله لئن قدر الله علي، ليعذبني عذابا لا يعذبه أحدا من العالمين. فأمر الله البحر فجمع ما فيه، وأمر الله البر فجمع ما فيه، ثم قال له: كن، فإذا الرجل قائم. قال الله: ما حملك على ذلك؟ قال خشيتك ومخافتك، فما تلافاه أن رحمه ".

فهذا الرجل اعتقد أنه إذا فعل به ذلك، لا يقدر الله على بعثه، جهلا منه لا كفرا ولا عنادا، فشك في قدرة الله على بعثه، ومع هذا غفر له ورحمه، وكل من بلغه القرآن،

فقد قامت عليه الحجة بالرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن الجاهل يحتاج إلى من يعرفه بذلك من أهل العلم، والله أعلم»[1].

وقد سُئل عبد الله بن الشيخ أيضا عن من يقول أن لازم مذهبهم: ((أن يقال بكفر غالب الأمة، ولا سيما المتأخرين، لتصريح علمائهم المعتبرين أن ذلك [أي الاستغاثة] مندوب، وشنوا الغارة على من خالف في ذلك.

فأجاب:بـ ((قلت: لا يلزم، لأن لازم المذهب ليس بمذهب، كما هو مقرر، ومثل ذلك لا يلزم أن نكون مجسمة، وإن قلنا بجهة العلو، كما ورد الحديث بذلك.

ونحن نقول فيمن مات: تلك أمة قد خلت، **ولا نكفر إلا** من بلغته دعوتنا للحق، ووضحت له المحجة، وقامت عليه الحجة، وأصر مستكبرا معاندا، كغالب من نقاتلهم اليوم، يصرون على ذلك الإشراك، ويمتنعون من فعل الواجبات، ويتظاهرون بأفعال الكبائر والمحرمات ; وغير الغالب إنما نقاتله لمناصرته من هذه حاله، ورضاه به، ولتكثير سواد من ذكر، والتأليب معه، فله حينئذ حكمه في قتاله.

ونعتذر عمن مضى بأنهم مخطئون معذورون، لعدم عصمتهم من الخطأ، والإجماع في ذلك ممنوع قطعا، ومن شن الغارة فقط غلط، ولا بدع أن يغلط، فقد غلط من هو خير منه، كمثل عمر بن الخطاب رضي الله عنه فلما نبهته المرأة رجع في مسألة المهر، وفي غير ذلك، يعرف ذلك في سيرته، **بل غلط الصحابة وهم جمع، ونبينا صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم، سار فيهم نوره، فقالوا: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط.**

---

[1] «الدرر السنية» (10/ 240)، و«مجموعة الرسائل والمسائل النجدية» (1/ 248).

فإن قلت: هذا فيمن ذهل، فلما نبه انتبه، فما القول فيمن حرر الأدلة، واطلع على كلام الأئمة القدوة، واستمر مصرا على ذلك حتى مات؟ قلت: ولا مانع أن نعتذر لمن ذكر، ولا نقول: إنه كافر، ولا لما تقدم أنه مخطئ، وإن استمر على خطئه، لعدم من يناضل عن هذه المسألة في وقته، بلسانه وسيفه وسنانه، فلم تقم عليه الحجة، ولا وضحت له المحجة؛ بل الغالب على زمن المؤلفين المذكورين التواطؤ على هجر كلام أئمة السنة في ذلك رأسا، ومن اطلع عليه أعرض عنه، قبل أن يتمكن في قلبه، ولم يزل أكابرهم تنهى أصاغرهم عن مطلق النظر في ذلك، وصولة الملوك قاهرة لمن وقر في قلبه شيء من ذلك إلا من شاء الله منهم.

ونحن كذلك لا نقول بكفر من **صحت ديانته، وشهر صلاحه، وعلم ورعه وزهده، وحسنت سيرته**، وبلغ من نصحه الأمة، ببذل نفسه لتدريس العلوم النافعة، والتآليف فيها، وإن كان مخطئا في هذه المسألة أو غيرها، كابن حجر الهيتمي، فإنا نعرف كلامه في الدر المنظم، ولا ننكر سمة علمه، ولهذا نعتني بكتبه، كشرح الأربعين، والزواجر، وغيرها، ونعتمد على نقله إذا نقل لأنه من جملة علماء المسلمين.

هذا ما نحن عليه، مخاطبين من له عقل وعلم، وهو متصف بالإنصاف، خال عن الميل إلى التعصب والاعتساف، ينظر إلى ما يقال، لا إلى من قال، وأما من شأنه لزوم مألوفه وعادته، سواء كان حقا، أو غير حق، فقلد من قال الله فيهم: {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ}))[1]

---

[1] «الدرر السنية» (1/ 236).

وهو الذي أفتى بأن:

«صاحب البردة وغيره، ممن يوجد الشرك في كلامه، والغلو في الدين، وماتوا، لا يحكم بكفرهم، وإنما الواجب إنكار هذا الكلام، وبيان أن من اعتقد هذا على الظاهر، فهو مشرك كافر; وأما القائل: فيرد أمره إلى الله سبحانه، ولا ينبغي التعرض للأموات، لأنه لا يعلم هل تابوا أم لا»[1].

وقال عبد الله أيضا:

«قد قدمنا الكلام على سؤال الميت والاستغاثة به، وبينا الفرق بينه وبين التوسل به في الدعاء، وأن سؤال الميت والاستغاثة به في قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، من الشرك الأكبر الذي حرمه الله ورسوله، واتفقت الكتب الإلهية، والدعوات النبوية، على تحريمه وتكفير فاعله، والبراءة منه ومعاداته.

ولكن في أزمنة الفترات وغلبة الجهل، **لا يكفر الشخص المعين بذلك**، حتى تقوم عليه الحجة بالرسالة، ويبين له، ويعرف أن هذا هو الشرك الأكبر الذي حرمه الله ورسوله؛ فإذا بلغته الحجة، وتليت عليه الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، ثم أصر على شركه فهو كافر، بخلاف من فعل ذلك جهالة منه، ولم ينبه على ذلك؛ فالجاهل فعله كفر، ولكن لا يحكم بكفره إلا بعد بلوغ الحجة إليه، فإذا قامت عليه الحجة ثم

---

(1) «الدرر السنية» (10/ 148)، و«الفتاوى النجدية» (1/ 47).

أصر على شركه فقد كفر، ولو كان يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، ويصلي ويزكي، ويؤمن بالأصول الستة»[1].

وقال مستطردا في جواب عمن كان يحلف بغير الله ولم يبلغه الحكم:

«وأما كونه يعذر بالجهل فالظاهر أن الذي يجهل مثل ذلك يعذر بالجهل لأن الشرائع لا تلزم إلا بعد بلوغ الرسالة ولا يعذب الله أحدا إلا بعد بلوغ الرسالة كما قال تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وأما سبق لسانه بذلك بعد بلوغه أنه شرك فهذا لا يضره إن شاء الله تعالى إذا تاب واستغفر وقال لا إله إلا الله ..

وكذلك إذا فعل شيئا من الشرك غير الحلف جهلا منه وخطأ فإذا نبه على ذلك تنبه وتاب ونزع كما جرى لقوم موسى عليه السلام وكما جرى للصحابة الذين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم اجعل لنا ذات أنواط..»[2]

أقول: وهذه النصوص لا أفهم منها إلا ما قدمته، ولم يحبب الله لي أن أخوض في سجال كلامي في مثل هذه الأمور الواضحات.

المسألة الثانية: تنزيل توصيف (المشركين) على من وقع في الشرك من المنتسبين للملة.

لا يرى الشيخ وأئمة الدعوة من بعده إشكالا في تنزيل وصف (المشركين) على **وجه التعميم** على كل من وقع في الشرك الأكبر ، وهو توصيف لا يلزم منه تكفير كل معين معين شمله الوصف ، وهذا في مثل قول الشيخ (مشركي

---

[1] «الدرر السنية» (10/ 275)، و«مجموعة الرسائل والمسائل النجدية» (1/ 79).

[2] «مجموعة الرسائل والمسائل النجدية» (1/ 201-202).

زماننا)، وأيضا في مثل ما استخدمته بعض أدبيات مؤرخي الدعوة من توصيف عباد القبور في نجد ومن قاتل تحت هذه الراية بالمشركين.

ولا نرى ضيرا معهم في ذلك فهذه هي لغة القرآن وخطاب الشارع.

ومن هذا الباب إطلاق وصف (الذين كفروا) في القرآن الكريم، على كل من اعتقد العقائد المحرفة المبدلة في دين النصارى، من جهة ملاحظة اشتراك الجميع في كونهم في الظاهر على معتقدات أو أعمال كفرية وماتوا عليها، لا من جهة ملاحظة أحوال كل معين معين منهم، لأنه قد يكون فيهم مَن لا يُحكَم بحبوط إيمانه بالمسيح وخروجه من ملة الإسلام العام كما يكون فيهم من خرج عن ملة المسيح ببلوغ الحجة أو باعتقاد ما لا يتصور فيه الجهل، ولكن الجميع مشتركون في الظاهر.

ولهذا لما تكلم شيخ الإسلام ابن تيمية على عقائد النصارى فرَّق بين عقائدهم المبدلة في أصل الدين كالقول بألوهية المسيح أو أنه ابن الله وغير ذلك مما لا يتوقف في تكفير معتقدها بعينه والحكم بحبوط إيمانه بالمسيح، وبين ما دون ذلك من عقائد كفرية في الشريعة المبدلة على أيدي الأحبار والرهبان، والتي من اعتقد شيئا منها ممن بَعُدَ عهده بالمسيح لا يلزم الحكوم على إيمانه بالحبوط وإخراجه من ملة المسيح عليه السلام وهي ملة الإسلام العام، وضرب مثاله بعقيدة صلب المسيح، فقال:

((وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَنَحْنُ نَشْهَدُ لِمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا بِمُوسَى مُتَّبِعًا لَهُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ مُسْلِمٌ مُسْتَحِقٌّ لِلثَّوَابِ.

وَكَذَلِكَ مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا بِالْمَسِيحِ مُتَّبِعًا لَهُ.

وَنَشْهَدُ لِمَنْ قَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ بِمُوسَى فَلَمْ يَتَّبِعْهُ كَآلِ فِرْعَوْنَ أَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ.

وَكَذَلِكَ مَنْ قَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ بِالْمَسِيحِ...

وَأَمَّا مَنْ بَعُدَ عَهْدُهُ بِالْمَسِيحِ وَبَلَغَتْهُ بَعْضُ أَخْبَارِهِ دُونَ بَعْضٍ أَوْ بِمُوسَى وَبَلَغَهُ أَخْبَارُهُ دُونَ بَعْضٍ، فَهَؤُلَاءِ قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ بِمَا بَلَغَهُمْ مِنْ أَخْبَارِهِمْ دُونَ مَا لَمْ يَبْلُغْهُمْ مِنْ أَخْبَارِهِمْ..

وَعَلَى هَذَا فَإِذَا قِيلَ: أَنَّ الْحَوَارِيِّينَ أَوْ بَعْضَهُمْ أَوْ كَثِيرًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَوْ أَكْثَرَهُمْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْمَسِيحَ نَفْسَهُ صُلِبَ كَانُوا مُخْطِئِينَ فِي ذَلِكَ وَلَمْ يَكُنْ هَذَا الْخَطَأُ مِمَّا يَقْدَحُ فِي إِيمَانِهِمْ بِالْمَسِيحِ إِذَا آمَنُوا بِمَا جَاءَ بِهِ وَلَا يُوجِبُ لَهُمُ النَّارَ..))[1]

ثم بحث حال هؤلاء المعتقدين للعقائد الكفرية بالصورة المذكورة وبيّن أننا لا نشهد لهم بعذاب الدنيا ولا الآخرة إلا بعد بلوغ الحجة.

ثم قال في آخر البحث عن هؤلاء: ((لا يعذبون حتى يُبعَث إليهم رسول كما دل عليه الكتاب والسنة، لكن أفعالهم تكون مذمومة ممقوتة يذمها الله ويبغضها

---

[1] الجواب الصحيح (2/ 301 - 302). ط.العاصمة.

ويوصفون بالكفر الذي يذمه الله ويبغضه وإن كان لا يعذبهم حتى يبعث إليهم رسولا))[1].

وهو تقرير واضح في أنهم يدخلون في خطاب (الذين كفروا) من اليهود والنصارى، مع أننا لا نشهد بحبوط إيمانهم بالمسيح، بل نجوِّز نجاة بعضهم في الآخرة، فهو وصف يلاحظ فيه الاشترك في ظاهر الحال لا حال كل معين.

إذن فمعنى وصفهم بالكفر أن ما هم عليه هو الكفر الذي يمقته الله، لا الحكم عليهم بأنهم من أهل النار بل حكمهم حكم أهل الفترة.

ومن نفس الباب قول ابن تيمية فيمن وقع في الكفر قبل الحجة وهو يضرب المثل بالنصارى المبدِّلين، فقال في حكمهم نقلا عن أهل الحديث:

((لَا يُعَذَّبُونَ حَتَّى يُبْعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولٌ ; كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ. **لَكِنَّ أَفْعَالَهُمْ تَكُونُ مَذْمُومَةً مَمْقُوتَةً يَذُمُّهَا اللَّهُ وَيُبْغِضُهَا وَيُوصَفُونَ بِالْكُفْرِ الَّذِي يَذُمُّهُ اللَّهُ وَيُبْغِضُهُ وَإِنْ كَانَ لَا يُعَذِّبُهُمْ حَتَّى يَبْعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا** ; كَمَا قَالَ: النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ ; كَمَا تَقَدَّمَ «إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ»))[2].

وقوله:

---

[1] الجواب الصحيح (2/ 311) ط. العاصمة.

[2] الجواب الصحيح 2/ 311.

((وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ».

فَأَخْبَرَ أَنَّهُ مَقَتَهُمْ إِلَّا هَؤُلَاءِ الْبَقَايَا، **وَالْمَقْتُ هُوَ الْبُغْضُ بَلْ أَشَدُّ الْبُغْضِ وَمَعَ هَذَا فَقَدَ أَخْبَرَ فِي الْقُرْآنِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيُعَذِّبَهُمْ حَتَّى يَبْعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا** فَقَالَ: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا}. وَقَالَ: {وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى} [طه: 134] فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْمُقْتَضِيَ لِعَذَابِهِمْ قَائِمٌ، وَلَكِنَّ شَرْطَ الْعَذَابِ هُوَ بُلُوغُ الرِّسَالَةِ))[1].

وعلى هذا نفهم ما مراد ابن تيمية بوصفه للطوائف المتلبسة بعبادة القبور ودعاء الأولياء من المنتسبين للملة بالمشركين كما هو مبثوث في كتاب الاستغاثة والإخنائية وغيره، كقوله: ((وجمهور هؤلاء **المشركين بالقبور** يجدون عند عبادة القبور من الرقة والخشوع والدعاء وحضور القلب، ما لا يجده أحدهم في مساجد الله التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه)) وهذا كثير في الاستغاثة[2]، مع أنه في نفس الكتاب يصرح بأنه في أزمنة الجهل لا يكفر كل المعينين بل ينبغي تبليغ الحجة، فمأخذ ابن تيمية في هذا الإطلاق هو ما قدمناه.

---

[1] الجواب الصحيح 2/ 306.

[2] الاستغاثة ص305، وراجع ص221-222، 246، 326، 327، 382 من نفس الكتاب.

ومنه قوله أيضا: (وكذلك الغالية في الأنبياء وأهل البيت والمشايخ **تجدهم مشركين بهم** لا متبعين لهم في خبرهم وأمرهم)[1].

وهذه الإطلاقات وما هو من جنسها كثير عند ابن تيمية.

وكذا أكثر تلميذه ابن القيم من وصف عباد القبور بالمشركين[2].

ومن نفس الباب بعض إطلاقات الشيخ محمد بن عبد الوهاب كما قدمنا كقوله (مشركي زماننا) وتقييده بسياق بيان خطورة الأفعال والمعتقدات التي هم عليها، فليس هناك أي تعارض بين مثل هذا الوصف وبين تنصيصه على أنه لا يكفر كل أعيان مشركي زمانه إلا بشروط كابن تيمية ، ولا تعارض أيضا بين هذا التقرير وبين ما سبق من إبقاء وصف الإيمان على المعين إلى حين البلاغ، لأن هذا إطلاق يلاحظ فيه المشاركة الظاهرية لا تكفير المعينين.

ومثله استخدام ابن غنام لمصطلح المشركين في الطوائف التي قاتلت الموحدين لتوحيدهم، تحت راية الشرك، مع عدم تكفير كل معين معين من هذه الطوائف.

وإذا جاز هذا في الأعيان والطوائف فجوازه في الدول والدور أولى، فمثلا عندما أطلق العلماء على مصر في زمن العبيديين بأنها دار ردة ونفاق، فإنهم لا يريدون بهذا الوصف أنها دار ردة وكفر من كل وجه، فيجعلون ديارهم دار

---

[1] درء التعارض 5/ 285.

[2] راجع مدارج السالكين (2/ 911- 923 ط. الصميعي)، وهو مبحث عقده ابن القيم للكلام عن الشرك وتعرض فيه إلى عباد القبور وأكثر من وصفهم بالمشركين، وزاد المعاد 1/ 507 ط. الرسالة.

حرب مستباحة، ويسقطون عصمة دماء وأموال أهل مصر، بل يريدون أنها دار ردة من جهة حال حكامها العبيديين، لبيان جواز قتالهم، بل ولا يلزم من هذا الوصف أنهم يكفرون كل أعيان من قاتل تحت راية العبيديين، بل كل بحسبه، فمن كان يعرف حقيقة مقالتهم ويعتقدها فهو معهم في التكفير، ومن والاهم على عقائدهم ودينهم فهو منهم، ومن كان لا يعرف إلا ما يظهرونه من بعض المقالات البدعية فهو معهم في الضلال لا الكفر، ومن كان يقاتل معهم لأغراض دنيوية فهو معهم في أحكام القتال لا التكفير وهكذا.

ومن نفس الباب وصف الشيخ محمد لبعض الجهات في نجد بأنها بلد شرك ويريد أعمال أهلها أو رؤوسها أعمال المشركين، أو أنها تقاتل الموحدين دينيا، لا أنه جعل ديارهم ديار كفر وحرب وأسقط عصمة أهلها وأخرجها وأهلها من الملة!

ولا أتفق مع ما يطرحه البعض من أنه لا يصح تنزيل مثل هذه الأوصاف قبل بلوغ الحجة بحال لأن آثارها لا تترتب عليها، فلا نقول في المشرك مشرك ولا في الكفار أنهم كفار ولا في الزناة زناة إلخ! ولا نتفق مع هذا الطرح، فتنزيل الوصف إما أن يراد به التعميم وإما أن يراد به التخصيص، ثم التنزيل على وجه التخصيص إما أن يكون مطلقا أو مقيدا.

أما التنزيل على وجه التعميم فلا يلزم منه تكفير كل معين معين دخل في الوصف فضلا عن ترتب آثار الوصف عليه من كل وجه. وهذا في مثل ما قدمناه

من أمثلة في الخطاب القرآني وكلام العلماء، ونرى أن رفض مثل هذا هو الخطأ.

ومعنى هذا التنزيل للوصف في الشريعة أن ما هم عليه هو الكفر أو الشرك أو الظلم أو الزنا أو أو...الذي يمقته الله ويكرهه وأنزل الكتب وأرسل الرسل للنهي عنه، ولو لم تبلغهم الرسالة، ولم يُشهد لهم بالنار، فالزناة مثلا زناة قبل ورود الشرع وبعده وكذا الظالمون والمشركون ومرتكبو الفواحش ..إلخ، إلا أنهم قبل بلوغ الشرع زناة لا نشهد باستحقاقهم الوعيد لعدم بلوغ الشرع فإذا بلغ الشرع كانوا زناة داخلين تحت الوعيد..، فالوصف ثابت في الحالتين ولكن مقتضاه هو الذي يتسع ويضيق باختلافهما، لا أنه ينفى قبل الشرع ويثبت بعده، وهكذا.

وتخصيص الوصف بمعين مع التقييد، كأن نقول إن فلانا مشرك بعبادة القبور يجب أن نعلمه فإن تاب وإلا فهو مشرك شركا أكبر مخرجا من الملة.

فهذا أيضا لا إشكال فيه لأنه سيق **مع الصلة والتقييد** التي توضح معناه والمراد به،

وقد لا تكون الصلة والتقييد في نفس النص، ولكن تُعرَف من مجمل أطروحات العالِم أو المدرسة.

أما تنزيل الوصف على معين على وجه الإطلاق: (فلان المشرك)، (فلان مشرك) ونسكت، ولا نقيِّد بحال، لا داخل النص، ولا خارجه، فهذا هو الذي لا يصح تنزيله على المعين الذي لم نحكم عليه بالخروج من الملة[1].

ومما وقفت عليه أيضا أن بعض من صحح تنزيل هذه الأوصاف قبل الرسالة استدل بأن الله قد ركز في عقول الخلق مقت وبغض الكفر والشرك والظلم إلخ، فاستحق الواقعون في ذلك تنزيل أوصاف المقت والبغض عليهم، والتنصيص على أنهم ممقوتون عند الله من جهة أفعالهم، وتنزيل شيء من الأحكام الدنيوية عليهم كترك الترحم عليهم، وهو كلام مستقيم، **ما دمنا متفقين على أن العذاب هو الذي يشترط له الرسالة، وأنه ليس وصفا مطلقا من كل وجه.**

فجاء بعض من يرفض تنزيل الأوصاف بحال قبل الرسالة بكلام غريب للرد على هذا التقرير حيث نفى أن يكون الشرك قبيح في نفسه والتوحيد حسن في نفسه، ونفى أن يكون الله تعالى فطر العقول على الحنيفية السمحة! بل يرى أن الحسن والقبح في هذا الباب إنما يُعرف بالتجربة ولما كانت تجارب الأمم تختلف اختلفت نظرتهم للتوحيد والشرك، وهذا من أغرب ما رأيناه، والحق

---

[1] وهذا تبسيط للمسألة ، وإلا فهي ترجع إلى مبحث مهم في الألفاظ والمعاني يعرف بالمشترك اللفظي والمتواطيء، يكثر ابن تيمية من إثرائه ومناقشته ، مَن أتقنه زال عنه كثير من اللغط في الباب، ومن أوضح المواضع التي أثار فيها هذا المبحث مما ينفع هنا ما نقله عنه ابن عبد الهادي في العقود الدرية (ص149-156 ط.المجمع) في مناقشته لابن المرحّل فيرجى مراجعته، ولتلميذه ابن القيم أيضا في الصلاة وحكم تاركها مبحثا مهما يثري الباب عندما تكلم على مسألة كفر العمل وكفر الاعتقاد.

الذي هو صريح كلام العلماء أن التوحيد حسن في نفسه والشرك قبيح في نفسه وأن الله فطر عقول الخليقة على استحسان هذا واستقباح ذلك، لكن العقول والفِطر قد يعرض لها من العوامل ما يمسخها ويغيرها فاقتضت سعة رحمة الله وحكمته ألا يُعذِّب أحدا على وقوعه في الشرك إلا بعد بلوغ الحجة والشرع.

منزع إمساك من أمسك عن إطلاق وصف الإسلام مع عدم الجزم بالتكفير وحبوط الإيمان:

إذا تقرر أن الشيخ وأئمة الدعوة قد يطلقون وصف الإسلام على من تلبس بشرك القبور من أهل الملة ويريدون به بيان أنهم لا يخرجونه من الملة ابتداء، فإن بعض أئمة الدعوة الذين حرصوا على بيان الأحكام التي يختلف فيها المتلبس بالشرك المنتسب للملة عن الموحدين إذا كانوا في صدد الحديث عن هذه الأحكام وأهمها (المصير الأخروي) الذي يكون حكمه فيه حكم أهل الفترة لا الموحدين ، فإنهم في هذا السياق يُمسِكون عن إطلاق وصف (الإسلام) على المعين، مع التنصيص في نفس الوقت على عدم تكفيره وعدم إطلاق وصف (كافر عليه).

ومنزع هذا الإمساك في هذا السياق، هو رفع الإشكال الذي قد يقع من إطلاق وصف الإسلام له، لأن الأوصاف تتعلق بها أحكام، وعندما يُطلق الوصف تثبت الأحكام، ولما كان السياق سياق الحديث عن بعض الأحكام التي تثبت في حق هذا المعين والتي تختلف عن أحكام المسلمين، ناسب التوقف عن إطلاق الوصف لتخلف الأحكام.

ومن جهة ثانية فإن الإمساك عن وصف (الإسلام) في هذا السياق فيه بيان سبب إثبات بعض الأحكام التي تخالف أحكام المسلمين على هؤلاء المعينين، وهو بيان أن ظاهرهم هو المعتقد والعمل الشركي، بخلاف إثبات وصف الإسلام في هذا السياق فإنه يُحدث لبس وإشكال وتنافر، لأن المتبادر من هذا الوصف هو إسلام القلب و الوجه والعمل والمعتقد لله وحده.

ولهذا فإنهم يفضلون التعبير بمقتضى المصطلح فيعبرون بأن فلانا من المنتسبين للملة لا يكفر بعينه، فبدلا من التعبير بالمسلم أو المؤمن لبيان عدم خروجه من الملة يعبرون تعبيرا أدق وأبعد عن الإشكال.

ومن فهم هذا المقام فهم سبب إمساك حمد بن ناصر بن معمر عن إطلاق وصف الإسلام على من هذا حاله خاصة في سياق الحديث عن المصير الأخروي وما ربطوه به من أحكام، ومثله عبد الله بن الشيخ محمد، وقد شرحنا هذا سابقا.

وهذا مسلك دقيق وأسلم من إشكالات المصطلح، وإن كان لا يخالف المسلك الآخر إلا من الناحية الاصطلاحية وطريقة التعبير عن الحكم فقط، ولا مشاحة في ذلك، فهذا الفريق يميل في هذه السياقات إلى الحديث عن أحكام الشخص تفصيليا ويتجنب إطلاق الأوصاف المشكلة، أما حقيقة المسألة فلا خلاف فيها عندهم كما شرحناه .

فائدة أخرى:

واجَهَت الدعوة من خصومها من يرى رفع الأسماء الشرعية في أبواب الشرك والكفر رأسا حتى عن الأفعال والأقوال ما دام الفاعل جاهلا أو مخطئا!

يقول عبد اللطيف آل الشيخ في الرد على العراقي داود بن جرجيس[1] من أعداء الدعوة:

«والعراقي لم يفقه هذا، لغلظ فهمه وعدم علمه، بل هو يعتقد أن كلام أهل العلم وتقييدهم بقيام الحجة وبلوغ الدعوة، ينفي اسم الكفر والشرك والفجور ونحو ذلك من الأفعال والأقوال، التي سمّاها الشارع بتلك الأسماء، بل ويعتقد أن من لم تقم عليه الحجة يثاب على خطئه مطلقاً. وهذه من الأعاجيب التي يضحك منها اللبيب **فعدم قيام الحجة لا يغير الأسماء الشرعية، بل يسمي ما سماه الشارع كفراً أو شركاً أو فسقاً باسمه الشرعي. ولا ينفيه عنه وإن لم يعاقب**

---

[1] منهاج التأسيس ص316.

فاعله إذا لم تقم عليه الحجة، ولم تبلغه الدعوة، وفرق بين كون الذنب كفراً وبين تكفير فاعله.

فافهم هذا فإن العراقي خلط فيما مرّ، وخبط خبط عشواء، وسيأتيك في كلامه ما فيه عبرة لأولي الألباب».

ويظهر لي أن الباحثين المتسبين للسنة اليوم ممن يحكم بإسلام كل من وقع في الشرك الأكبر من المتسبين للملة في الدنيا والآخرة ومن كل وجه ورفض تنزيل أي وصف أو أثر عليهم، تحت دعوى عذره بالجهل، كلامهم في حقيقته بغض النظر عن التقريرات النظرية يصُب في هذا المعنى الذي طرحه العراقي، من أن الشرك في حق الجاهل لا يكون شركًا بل ولا بدعة ولا معصية ولا شيء**!** وسيأتي الحديث عن هذا الاتجاه بشيء من التفصيل.

تلخيص ما تقدم

نلخص هنا رأينا في منهج الشيخ وأئمة الدعوة في مسألة تكفير المعين المنتسب للملة المتلبس بشرك القبور في أزمنة الجهل بعبارة مختصرة فنقول:

الواقعون في شرك القبور من المنتسبين للملة على قسمين: أقوام خالطناهم وعايشناهم فعرفنا حقيقة حالهم، وأجيال مضت وأفضت إلى ربها.

أما القسم الأول: فالأقوام الذين عايشهم الشيخ محمد وأئمة الدعوة بعده وخبروا حالهم هم على صورتين :

أ: من قامت في حقه قرائن تدل على أنه قد لا تكون بلغته الحجة، أو لم يجد من يبين له، أو من يكشف عنه الشبهة، وكانت هذه صفة عامة أهل نجد في تصورهم في أول أمر الدعوة:

- فهو عندهم من أهل الملة إلى حين تبليغه الحجة، ولا يخرجونه من الملة في الظاهر إلا بعد تيقن تبليغه الحجة وتبيينها وكشف الشبهة عنه، وبالتالي فأول واجب يرونه في حقه أو حق المجتمع الذي على هذه الصفة هو الانشغال بالدعوة والتعليم ونشر الأدلة وكشف الشبهات ، لا تنزيل التكفير، وقد استمر إمام الدعوة على هذا المنهج لعقود من تاريخ الدعوة.

- فإن مات على الشرك الأكبر قبل أن يتيسر تبليغه، لم يشهدوا له بأنه بعينه مات كافرا مستحقا للعذاب الأخروي.

- وقرر حمد بن ناصر وطبقة أبناء الشيخ أنه ليس معنى هذا أن يشهد له في المقابل بأنه مع الموحدين، بل يكون أمر ظاهره الشركي في الآخرة إلى الله، ويفوَّض مصيره الأخروي لله، وقرَّب حاله من حال أهل الفترة.

ب: **أما الصورة الثانية** ممن خالطوه وعرفوا حقيقة حاله، فمَن تيقنوا من بلوغه الحجة وكشف الشبهة عنه وهؤلاء يكفرونهم بأعيانهم ويحكمون عليهم بالردة، وظهرت

هذه الصورة بعد زمن طويل من الدعوة في آخر حياة الشيخ وحياة أبنائه، عندما بلغت الدولة النجدية أقصى حدودها وانتشر أمر التوحيد وعم بين العامة والخاصة ودخل كل بيت.

أما القسم الثاني وهم الأمم الخالية والأجيال الماضية ممن مات على شرك القبور، فهم على قسمين أيضا:

الأول: من لا تعرف حقيقة حاله، وقد قررت طبقة حمد بن ناصر وأبناء الشيخ أن أسلم الأقوال ربط أحكامهم بالأوصاف، وعدم الخوض في جميع معينيهم بكفر ولا بإسلام وتفويض حقيقة أمرهم لله تعالى رأسًا.

الثاني: من اطلعوا على حقيقة حاله من خلال مصنفاته مثلا التي تشهد له بصحة الديانة أو من خلال ما وصلهم من وصف بيئته بأنه لم يوجد فيها من ينافح عن الأدلة ويكشف الشبهة أو غير ذلك من قرائن فهؤلاء يطلقون إعذارهم كما عذروا مجتمعهم.

مثال عملي:

نحن في مجال دعوتنا لغير المسلمين – وقد منَّ الله عليَّ بالعمل في هذا المجال لسنوات في إفريقيا وأوروبا وآسيا- نواجه كثيرا من هذه الصور، لاسيما في أفريقيا بما يخص باب الاعتقاد الشركي في الأشياء لأن العقائد الوثنية منتشرة بينهم، فكثيرا ما يحدث لنا أن ندعو قبيلة للإسلام ونشرحه لهم قدر الطاقة فيدخلون في دين الله وينطقون الشهادة فنعتقد بأنهم مسلمون لهم ما لنا وعليهم ما علينا، وكلَّما علمناهم شيئا من الشرائع لا نجد إشكالا في تقبلهم له، ثم يظهر من بعضهم أعمال ومعتقدات

من بقايا ما كانوا عليه من الوثنية، فالذي يعلمه لنا ابن تيمية وإمام الدعوة أننا في مثل هذه الحالات لا نبادر إلى إخراجهم من الملة أو نقض الشهادة في حقهم بحقوقها، بل نبيِّن له أولا ونعرِّفه، وكثير من هؤلاء يتوب من ذلك ويعتذر بأنه لم يفهم هذه الجزئية، ونبقى نصحح له دينه، فهذا هو المؤمن الذي يحب الله ورسوله وإذا عُلِّمَ تعلم الذي يتكلم عنه إمام الدعوة، ومنهم من نجد منه ترددا ويحتاج نوعا من الإقناع فهذا نكشف شبهته أولا، ومنهم من يصر ويستكبر ويريد أن نُفَصِّل له الإسلام بما يتفق مع معتقداته في الأحجار أو غيرها فهذا هو المصر المستكبر الذي قال عنه إمام الدعوة فليس هذا بمسلم.

وهل ننزع وصف (المسلم) وحكمه عنه قبل أن نبيِّن لمن هذا حاله، الذي فهمناه من كلامهم أنهم يبينون أولا ويقيمون الحجة ويعلمون ثم ينزعون الوصف والأحكام أو لا ينزعون.

ولا ينافي هذا أن نقول له أنت بصنيعك هذا مشرك بتلك الحجرة أو الشجرة ويجب عليك التوبة وعدم العودة وإلا صرت مشركا بإطلاق (خارج الملة).

فإن ماتوا قبل أن نعلمهم فلم نكلف بالتنقيب عن كل معين منهم هل هو من هذا الصنف أو ذاك فنقول أمرهم إلى الله، وهذا ما بيَّنه أئمة الدعوة.

وهذه خلاصة تطبيقية ميسرة لما أفهمه من مقالة ابن تيمية وابن عبد الوهاب.

نصيحة حول السجال العلمي الدائر في الساحة

وقع في الساحة العلمية المعاصرة سجال علمي حول هذه المسائل بين بعض الاتجاهات نتج عنه كثير من التراشق اللفظي عند بعض أبناء هذه الاتجاهات وتطور إلى شيء من التسفيه والتجهيل ثم إلى تضليل وتبديع ثم إلى تلميح بالتكفير!! فبعض المتوسعين وصف من يتبنى التضييق في الباب بأنهم خوارج وبعض من يتبنى هذا الرأي وصف المتوسعين بالإرجاء والتجهم ، والذي نعتقده أن الشخص إذا كان منضبطا في أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة عامة وأصولهم في التكفير خاصة متزنًا في ضوابط التنزيل والتعيين، ثم تبنى في بعض المسائل التفصيلية الدقيقة رأيا نرى فيه شيئا من التوسع الزائد أو التضييق الزائد فمثل هذا يناقش نقاشا علميا إثرائيا هادئا.

ومن عدل أهل السنة والجماعة أنهم وضعوا القواعد والضوابط التي يُفرّق بها بين المقالات التي ليست من مقالات أهل السنة والجماعة بحال، والمقالات التي اتفق عليها أهل السنة والجماعة، والمقالات الدقيقة التي قد يقع فيها اختلاف وتجاذب فتناقش من جنس الخلاف الفقهي ، فيخطأ فيها الرأي الخاطيء بالأدلة العلمية والبراهين.

ثم فرقوا بين تبني المرء لأصول فرقة من فرق الأهواء ، وبين تبنيه لأصول أهل السنة والجماعة مع خطئه في بعض الآراء التي يظنها من مقالات أهل السنة وهماً وليست كذلك، فمثل هذا تبيّن له أخطاؤه ولا يلزم إخراجه من دائرة أهل السنة ورميه بأوصاف أهل البدع.

وعلى هذا النسق وصف الشخص بأنه خارجي أو مرجئي أو جهمي، هذه الأوصاف لا تدور مع الأهواء فيرمى بها كل مخالف، بل هي أوصاف وضع لها علماء أهل السنة ضوابط وقواعد ومناطات واضحة، وقد يحدث للمرء نوع توسع في مقالة من المقالات في هذا الباب ولا يلزم من هذا أن يكون لها علاقة بأصول الإرجاء من قريب أو بعيد، والعكس صحيح، قد يحدث عند بعضهم نوع تضييق لا نتفق معه ولا يلزم من هذا أن تكون من مقالات الخوارج من قريب أو بعيد.

وقد يتبنى البعض مقالة نجزم بأن فيها خللا واضحا على أصول أهل السنة ولا تتسق معها بحال، لكن لا يلزم وصف القائل بهذه الأوصاف.

ويذكرني هذا بعدل ابن تيمية وهو يناقش بعض مسائل التكفير التي تنازع فيها المنتسبون للسنة من المتأخرين كمسألة تكفير أهل البدع ، فيذكر أن منهم من توسع فلم ير أن مقالات أهل البدع تدخل في باب التكفير بل كلها من جنس المعاصي والذنوب، ومنهم من ضيَّق فكفر الجميع وخلدهم في النار، وكل فريق فيه جملة من المنتسبين للحديث وللأئمة الأربعة، ثم ينص ابن تيمية على رأيه ويبين أن الرأيين خطأ على الشريعة والسلف وعلى الأئمة، وأن الصواب التفصيل، فيبين تفصيله المعروف، ثم يتحدث عن ضوابط تنزيل التكفير[1]، والشاهد أنه لم يرم الطائفة المتوسعة بالإرجاء والتجهم ، والطائفة المخالفة بالخروج، لدقة المبحث، مع الجزم بخطئهم على الشريعة والسلف.

---

[1] انظر مثلا مجموع الفتاوى (3/ 351 - 352).

معسكر أعداء الدعوة

سنتحدث في هذا الفصل بصورة أكثر تركيزا على مخالفي الدعوة النجدية من جهة قتالهم للدعوة من عدمه، وأنواعهم وأقسامهم فتصور هذا الباب على الوجه الصحيح له أثر كبير في فهم تقريراتهم في حق مخالفيهم.

فقد كان موقف المخالفين لدعوة التوحيد في نجد من قتال الموحدين على قسمين :

القسم الأول: المقاتلون للدعوة ، ومعهم المحرضون على القتال من رؤوس سياسيين أو علميين أو فكريين..إلخ.

القسم الثاني: المتوقفون، ونريد بهم من لم ينضم للصراع في هذه الجهات فلم ينضم لمعسكر المقاتلين ولم ينضم لمعسكر الشيخ، بل توقف، ويكون سبب ذلك في الغالب أنه لم يستوضح حقيقة الدعوة بعدُ.

المقاتلون للدعوة وأحكامهم عند الشيخ وأئمة الدعوة

المقاتلون للدعوة ورؤوسهم **اتخذ الشيخ ثم أئمة الدعوة من بعده معهم إجراءات علمية دقيقة وعميقة، وهي مِن أجود ما تَخْرُج به من تراث الشيخ وأئمة الدعوة إن وُفِّقْتَ لفهمه.**

وتلخيصها كالتالي:

يقسمهم الشيخ أولا إلى أربعة أقسام:

الأول: من قرر قتال الشيخ لعقيدته وتوحيده ودينه، فوازع القتال عنده وازع ديني، ويعرف هذا بتقريراتهم كأن يصرحوا بأن دعوة الصالحين والقبور هي الحق، ويسبوا دين التوحيد والموحدين لدينهم، ويكفروا الشيخ ومَن معه لتوحيدهم..إلخ.

الثاني: مَن قرر قتال الشيخ لوازع دنيوي في الأصل، ولكنه كي يكسب تحالف القسم الأول معه لجأ إلى طريقتهم بسب دين التوحيد وارتكب تلك المكفرات...إلخ.

الثالث: مَن كان يصرح بأن ما يدعو إليه الشيخ حق إلى أن وقع القتال فانحاز لمعسكر الشرك وصحح ما هم عليه وزينه للناس وبغّض لهم التوحيد وأهله[1]..إلخ

الرابع: من قرر قتاله لدوافع سياسية أو دنيوية محض، فوازع القتال وازع دنيوي، كمن يصرح بسبب العداوة ويتبرأ من العداوة الدينية ولم يتلبس بأية شركيات، ولكنه كوّن تحالفات سياسية عسكرية مع المقاتلين الدينيين.

تقرير الشيخ بما يخص هذه الأقسام مع بيان رأيه في التكفير بالموالاة:

أما القسم الرابع وهو من يقاتل لدوافع دنيوية محض ووالى الأعداء الدينيين موالاة دنيوية، فالشيخ يصرح بأنه لا يقاتله إلا دون النفس والمال، ولا يُدخله في أدبيات التكفير.

وهذا القسم اتُّهم الشيخ في زمانه زورًا بأنه يكفره بالموالاة، فظهرت تقريرات الشيخ ثم أئمة الدعوة بأنه لا يكفر بهذا النوع من الموالاة، كقوله: «ويقولون أني اكفر بالموالاة وحاشا وكلا»[2].

وقوله:

«وأما ما ذكر الأعداء عني: أني أكفّر بالظن، **وبالموالاة**، أو أكفّر الجاهل الذي لم تقم عليه الحجة، فهذا بهتان عظيم، يريدون به تنفير الناس عن دين الله ورسوله»[3].

---

[1] سيأتي بيان سبب هذا الانقلاب في باب السجالات العلمية.

[2] «الدرر السنية» (10/ 116).

[3] «الرسائل الشخصية» (ص24).

وفصّل المسألة تفصيلا علميا لا مزيد عليه كما في قوله: « إن كانت الموالاة لهم [للكفار] في ديار الإسلام إذا قدموا إليهم، ونحو ذلك، **فهذا عاص آثم متعرض للوعيد، وإن كان موالاتهم لأجل دنياهم، يجب عليه من التعزير بالهجر والأدب ونحوه ما يزجر أمثاله. وإن كانت الموالاة لأجل دينهم، فهو مثلهم، ومن أحب قوماً حشر معهم**»[1].

وهو القسم الذي حرص الشيخ على استثنائه من أدبيات التكفير لمن يقاتل الدعوة والموحدين لتوحيدهم في قوله مثلا : «**وغير الغالب إنما نقاتله لمناصرته من هذه حاله، ورضاه به، ولتكثير سواد من ذُكِرَ، والتأليب معه، فله حينئذ حكمه في قتاله**»[2].

وحرصًا على تبرئة أئمة الدعوة لساحتهم وساحة الشيخ من هذه التهمة الباطلة كثرت لديهم التقريرات التفصيلية لمراتب الموالاة وأنواعها، وأقسام الحب الذي هو أصل الموالاة وأحكامه، كما نقلناه في «الانتصار»[3].

أما القسم الثاني فيلحقه بالأول ويجعله من نفس النوع – لأن الأحكام الشرعية تُبنى على الظاهر– بعد انتفاء عارض الإكراه.

وهذا القسم الذي والى موالاة دينية أشكل على البعض تكفيره في زمن الشيخ وظن أن الصواب إلحاقه بالموالاة الدنيوية فلا يكفر بها.

فحرص الشيخ على بيان الفرق بين الصنفين، وأن الصنف الأول لم يرفع راية شركية، ولم يصرح بقتال الموحدين لتوحيدهم، بل هم مصرحون بأن اختلافهم مع توسع الدرعية سياسي وصدامهم لأغراض دنيوية.

---

[1] «الدرر السنية» (8/ 160).

[2] «الدرر السنية» (1/ 234-235).

[3] (ص143-148).

أما القسم الثاني فلم تكن موالاتهم موالاة دنيوية مجردة بل تبينوا في سب دين التوحيد والموحدين وأظهروا الشرك أو امتدحوه وامتدحوا أهله فظهر من قرائن المقال والحال أن موالاتهم لم تكن دنيوية.

وفي نفس هذا السياق أشكل على البعض في زمن الشيخ أن بعض هؤلاء الموالين كان خلافهم مع الشيخ والدرعية في الأصل خلافا دنيويا سياسيا لا دينيًّا مما يدل على أنهم في الباطن قد يكونون ليسوا مقتنعين بالشرك، ولكن لكسب التحالفات ارتكبوا الشركيات.

وهؤلاء حرص الشيخ على إزالة الإشكال لديهم وتقرير أنه حتى ولو كان أصل الخلاف سياسيا مادام أنهم اختاروا لتقوية تحالفاتهم الخوض في سب الدين والموحدين لتوحيدهم وتزيين أمر الشرك وأهله فلا فرق، ويحرر أنه لا يُتَصَوَّر أن تدخل صورة ما كان عليه هؤلاء في باب الإكراه.

وفي هذا السياق يأتي التقرير الرائق التالي للشيخ في الرد على من استشكل حال هؤلاء:

«وأنا أمثل لك مثالاً، لعل الله أن ينفعك به، لعلمي أن الفتنة كبيرة، وأنهم يحتجون بما تعرفون: منها ما ذكر في الأوراق **أنهم لم يقصدوا بحربكم ردّ التوحيد وإحياء الشرك، وإنما قصدوا دفع الشر عن أنفسهم خوف البغي عليهم**.

فنقول: لو نقدّر أن السلطان ظلم أهل المغرب ظلماً عظيماً في أموالهم وبلادهم، ومع هذا خافوا استيلاءهم على بلادهم ظلماً وعدواناً، ورأوا أنهم لا

يدفعونهم إلا باستنجاد الفرنج، **وعلموا أن الفرنج لا يوافقونهم إلا أن يقولوا: نحن معكم على دينكم ودنياكم، ودينكم هو الحق ودين السلطان هو الباطل، وتظاهروا بذلك ليلاً ونهاراً، مع أنهم لم يدخلوا في دين الفرنج ولم يتركوا الإسلام بالفعل، لكن لما تظاهروا بما ذكرنا، ومرادهم دفع الظلم عنهم، هل يشك أحد أنهم مرتدون في أكبر ما يكون من الكفر والردة، إذا صرحوا أن دين السلطان هو الباطل، مع علمهم أنه حق، وصرحوا أن دين الفرنج هو الصواب،** وأنه لا يتصور أنهم لا يتيهون لأنهم أكثر من المسلمين، ولأن الله أعطاهم من الدنيا شيئاً كثيراً، ولأنهم أهل الزهد والرهبانية..فتأمل هذا تأملاً جيداً»[1].

و **القسم الثالث** كذلك يلحقه الشيخ بالأول، وهذا القسم أيضا البعض في زمن الشيخ أُشكل عليه حاله ، ورأوا من مجمل حالهم أنهم في باطنهم مؤمنون بالتوحيد يعلمون أنه الحق، ولكنهم في الظاهر أظهروا في مرحلة الصراع تزيين الشرك وتحسينه للناس بل وتلبسوا هم أنفسهم بالشرك، وبغّضوا أمر التوحيد والموحدين ليس لكفرهم في الباطن بل مجاراةً للرؤساء والأهواء والمجتمعات والعادات، فظن هؤلاء أنه ينبغي استثناؤهم من تقريرات التكفير بسبب ذلك!

[1] «الرسائل الشخصية» (ص27-28)

فحرص الشيخ على تقرير أن هذه الصورة تدخل أول ما تدخل في الموالاة الكفرية، ولا يمكن أن يتصور فيها عارض إكراه بالصورة التي كانوا عليها.

وهذان القسمان (الثاني والثالث) هما اللذان يتناولهما الشيخ ثم أئمة الدعوة بالتكفير بالموالاة، ويحرصون على إزالة الإشكال ببيان قرائن أحوالهم ومقالاتهم التي تدل دلالة واضحة على موالاتهم الدينية بغير عارض إكراه، وكل ردود الشيخ ثم أئمة الدعوة على من لا يكفر بالموالاة جاءت في الرد على الفريق الذي ظن أنه لو كانت القرائن تدل على اعتقاد الباطن بالحق فلا يكفر الموالي ولو أظهر الشرك وزينه وحسّنه ودعا له وبغض التوحيد وأهله للناس وأعان على قتالهم بعذر إقامة تحالفات عسكرية أو بعذر سطوة الجماهير والعادات، ولهذا يحرص الشيخ جدا في سياق الرد على من لا يكفر بهذه الموالاة أن يسوق دلائل حال ومقال هؤلاء مع نفي تصور عارض الإكراه عنهم، كما نقلناه في «الانتصار للدرر السنية»[1].

أحكام المقاتلين الدينيين

بعد أن أخرجنا من أدبيات التكفير عند الشيخ وأئمة الدعوة كل من قاتل أو والى أو تحالف لأسباب دنيوية سياسية، وقررنا أنهم يدخلون عنده في أدبيات القتال لا التكفير، بقي أن نذكر حكم الباقين (المقاتلين الدينين، ومن والاهم على القتال الديني).

---

[1] (ص143-148).

هؤلاء تتخذ الدعوة في حقهم الإجراءات التالية:

أولا: التحقق من إقامة الحجة عليهم بالصورة التي تتيسر.

ولا يخفاك أن أية طائفة إذا قررت قتال الموحدين ابتداء فهذا في نفسه إعلان رفض صريح لسماع الحجة فضلًا عن التفاعل العلمي معها لو بلغتهم، ومع ذلك فقد حرص الشيخ على التنصيص على أنه لا يقاتل أحدا إلا بعد إقامة الحجة، كما في قوله:

«ولا نكفر إلا من بلغته دعوتنا للحق، ووضحت له المحجة، وقامت عليه الحجة، وأصر مستكبرا معاندا، كغالب من نقاتلهم اليوم..»[1].

فهذا نص ظاهر في أنهم لا يقاتلون إلا من بلغته الحجة.

ثم لا يخفاك أن أية طائفة عندما تنهض للقتال وترفض استقبال الحجة فضلا عن التفاعل معها فإنه من المتعذر والمستحيل أن يستطيع الموحدون إقامة الحجة على أعيان هذه الطائفة لأنها لا تقبل بوجود الموحدين بينها فضلا عن أن تتيح لهم إقامة الحجج!

فغاية ما يستطيعه الموحدون والحالة هذه أن يستفرغوا وسعهم في مراسلة الرؤوس، فالعامة -خاصة في المكونات القبلية والأسرية- تبع لرؤوسها، مع الاعتماد على بلوغ عام لأفراد هذه الطائفة عن التوحيد الذي هو سبب كل هذه المعارك.

وعلى هذا فنحن أمام **صورة مركبة** فيها نوع تداخل، فهذه الطائفة **من جهة كونها طائفة** أقمنا عليها الحجة قدر ما أتيح لنا.

---

[1] (1/ 234-235).

ومن جهة الأفراد المعينين لم يتح لنا إقامة الحجج عليهم واحدا واحدا بالصورة الشرعية المنضبطة من بيان التوحيد ثم التعاطي مع الشبهات والإجابة عنها إلخ.

وفي هذه الحالة فإن الشيخ ثم أئمة الدعوة لهم تقريرات خاصة رائقة في هذه الصورة ومَن فهمها ووعاها فقد حاز خيرا عظيما.

وهذا الباب الذي أشرحه لك هنا والنصوص التي ترد فيه هو من أكبر ساحات الخلط والخبط بين الباحثين المعاصرين من المتخصصين في العقيدة أنفسهم.

هذه الطوائف المقاتِلة بالصورة المشروحة:

أ: في سياق الحديث عن **أحكام** مقاتلة هذه الطوائف التي غزت الدعوة قد تُطلق بعض أدبيات الدعوة[1] عليهم كطائفة وصف المشركين، لأربعة أسباب رئيسة:

الأول: أن هذه الطوائف غزت الدعوة وأبناءها على أنهم يغزون الكفار والزنادقة وأهل الإلحاد كما سيأتي توثيقه من كلام الأعداء، والراية التي رُفِعت لقتالهم، هي راية غزو الكفار، ومن راياتهم التي رفعت راية قتال مدعي النبوة وأتباعه، فيرى مَن أطلق هذا الوصف من مؤرخي الدعوة أن الحق توصيف الواقع كما هو وأنهم هم من يقاتل تحت راية التوحيد وأعداؤهم هم من يقاتل تحت راية الشرك لا العكس.

الثاني: أن الحجة قامت عليهم قدر الطاقة كطائفة.

الثالث: تلبس أكثرهم بأفعال الشرك الأكبر.

الرابع: ما قدمناه من أنه يمتنع في العادة أن يخرج الإنسان يَقتُل أو يُقتَل في سبيل فكرة إلا وقد تشربها قلبه ورفض حتى الاستماع لأية حجج تخالفه.

---

[1] كابن غنام في بعض المواضع من تاريخه.

وقد قدمنا في باب الأسماء والأحكام أن التنزيل التعميمي لهذا الوصف هو لغة الشارع واصطلاح العلماء.

ب: ثم ينبني على السابق التصريح بإجراء أحكام الشرك **الدنيوية في القتال** عليهم كطائفة، فيتناول هذا جواز قتالهم دفاعا عن النفس وجواز طلبهم في بلدهم وقتلهم، لإنهاء خطرهم كما هو في أعراف الحروب على مر التاريخ، ويتناول جواز غنيمة أموال عسكرهم، ويتناول عدم الصلاة على قتلاهم، وعدم دفنهم في مقابر المسلمين...وغير ذلك من أحكام القتال.

ج: مع إطلاق الوصف وجملة من الأحكام عليهم **كطائفة** فالشيخ وأئمة الدعوة من بعده **لا يقولون بتنزيل التكفير (الخروج من الملة والشهادة بأن مصيره مصير الكفار) على كل واحد واحد بعينه من الطائفة**، وهذا من عمق فقههم وعلمهم وورعهم، فلا يقولون أن كل معين معين من الطائفة كافر الكفر الأكبر المخرج من الملة المستحق عليه الخلود في النار، ويصرحون دائما بأن **مسألة القتال لا تستلزم تكفيرًا**[1] .

أما أسباب عدم تكفير كل أعيان من يقاتلونهم فهي:

أ: إمكانية خروج البعض للقتال معهم مكرهًا.

ب: إمكانية ألا تكون وَصَلَت الدعوة لبعضهم على الوجه الصحيح، مع عدم القدرة على إيصال الرسالة إلى تلك النواحي لتعنت رؤسائها، ولهذا استعجل في القتال.

ج: احتمال أن يكون بعضهم خرَج وهو ملبَّس عليه ولا يعرف حقيقة ما يحارب من أجله كما هو حال كثير من العصبيات القبلية...إلخ

---

[1] مصباح الظلام ص 549– 550

إلى أسباب أخرى كثيرة تعود إلى ما شرحناه من أن التحقق من إقامة الحجة على كل واحد واحد منهم متعذر، ثم الاستفصال عن حال كل واحد واحد منهم لنعرف سبب خروجه متعذر.

وفي هؤلاء يأتي مثل هذا التقرير لأئمة الدعوة:

« وقد يحكم بأن أهل هذه القرية كفار، **حكمهم حكم الكفار، ولا يحكم بأن كل فرد منهم كافر بعينه،** لأنه يحتمل أن يكون منهم من هو على الإسلام، معذور في ترك الهجرة، أو يظهر دينه ولا يعلمه المسلمون»[1].

ومن نفس الباب قولهم:

«إن من عجز عن الخروج من بين ظهراني المشركين وأخرجوه معهم كرها فحكمه حكمهم في القتل وأخذ المال لا في الكفر»[2] .

ففي مثل هذه التقريرات أجوبة على ما قد يُشكِل على إجراء أحكام المشركين على هذه الطوائف المقاتِلة قتالا دينيا، فإن أورد أحدهم أننا لا نعرف أحوال كل واحد واحد من هؤلاء المقاتلين، أجاب أئمة الدعوة بأن إجراء الأحكام على الطائفة لا يلزم منه أصلا تكفير الأفراد واحدا واحدا والحكم عليهم بالخروج من الملة.

وإن أورد أحدهم أن بعض أبناء هذه الطوائف ممن أظهر العمل بالشرك الأكبر قد يكون جاهلا حقًّا بالتوحيد في أزمنة كتلك، أجاب أئمة الدعوة بأن الأحكام تجري على العمل الظاهر مع عدم الحكم على كل واحد واحد بأنه خرج من الملة لجواز أن يكون بعضهم قد تحقق فيه عارض الجهل حقًّا.

---

[1] «الدرر السنية» (10/ 145).

[2] "مجموع الرسائل والمسائل النجدية» (2/ 1/ 134)

وإجراء أحكام المشركين على طائفة ما وإطلاق أوصاف الكفر عليها مع عدم القول بتكفير كل واحد واحد من أعيانها أمر مطروق في تقريرات العلماء من لدن الصحابة فمَن بعدهم، لاسيما في الطوائف المختلطة التي تجمع بين المرتدين وغيرهم في قتال المسلمين، أو حتى في الطوائف المميَّزة التي لا يُحكَم بكفرها ولكنها قاتلت المسلمين في جانب المرتدين، فيقاتلون كقتال المرتدين في أحكام النّفس على الأقل من جهة زوال عصمة دمائهم وترك الصلاة عليهم وعدم دفنهم في مقابر المسلمين، ومن أشهر أمثلة ذلك قتال أبي بكر والصحابة لمانعي الزكاة الذين لم يجحدوا حكمها قتال المرتدين وتنزيل جملة من أحكام المرتدين عليهم وإطلاق وصف المرتدين على الجميع بجامع الامتناع العملي وتشاركهم في جملة من أحكام القتال مع عدم تكفير أعيانهم جزما، فقد كان الصحابة يعرفون الجهات والقبايل التي امتنعت من غير جحود ولم يكفروا أعيانهم مع دخولهم في ذلط الوصف وفي أحكام القتال على الأقل، ولهذا نُقِل خلافهم في أحكام هؤلاء في المال والذرية.

وإذا كان هذا هدي الصحابة في الممتنعين عن الزكاة فكيف بالممتنعين عن التوحيد.

ومن هذا الباب قول ابن تيمية:

((وقد يكون في بلاد الكفر من هو مؤمن في الباطن يكتم إيمانه من لا يعلم المسلمون حاله، إذا قاتلوا الكفار، **فيقتلونه ولا يغسل ولا يصلى عليه ويدفن مع المشركين**، وهو في الآخرة من المؤمنين أهل الجنة، كما أن المنافقين تجري عليهم في الدنيا أحكام المسلمين وهم في الآخرة في الدرك الأسفل من النار، فحكم الدار الآخرة غير حكم الدار الدنيا)).

بل قرر ابن تيمية إجراء تلك الأحكام على المسلمين من قطاع الطريق إذا التحقوا بمعسكر طائفة خارجة عن الشريعة، فقد قرر ابن تيمية أن قتال قطاع الطريق من أهل الإسلام لا تكون أحكامه كقتال الكفار فلا يجهز على جريحهم ولا تغنم أموالهم، ثم قال في آخر البحث[1]: ((فَأَمَّا إذَا تَحَيَّزُوا إلَى مَمْلَكَةِ طَائِفَةٍ خَارِجَةٍ عَنْ شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ وَأَعَانُوهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ **قُوتِلُوا كَقِتَالِهِمْ**))[2].

وقوله تعالى: (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم..) الآية، من أصول هذا الباب، يقول عبد الرحمن بن حسن :

{إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ} الآية ، ظاهرها أنهم نهوا عن الاستغفار والدعاء، لمن قد مات مع سواد المشركين، ولو كان مسلماً. فما أعز من يتفطن لهذه المسألة! بل ما أعز من يعتقدها ديناً[3]!

ومن هذا الباب إطلاقات أهل الحديث على بعض أهل المقالات أنهم كفار مع عدم التزام تكفير كل معينيهم، كما تواتر عنهم من الإطلاق بأن الجهمية كفار، وأن الجهمية ليسوا من ملة محمد، مع عدم تكفيرهم لكثير من المعينين الداخلين في سواد هؤلاء، وإنما أطلقوا هذه الأوصاف بجامع تبني المقالة الكفرية لا من جهة تكفير كل معين معين.

وخلاصة ما تقدم بعبارة ميسرة أنهم ينظرون لـمَن قاتلهم مِن جهتين:

---

(1) «مجموع الفتاوى» (28/ 319).

2 درء التعارض 8/ 433

3 الدرر السنية (8/ 280)، وراجع في صحة هذا الاستنباط من الآية تفسير الطبري (9/ 103 ط.الرسالة).

الأولى: من جهة كونهم (طائفة) أقيمت عليها الحجة ثم خرجت لقتال الموحدين تحت راية شركية، وأكثر أتباعها في الظاهر يتبنون الشرك، فيطلقون عليها الأوصاف والأحكام (كطائفة).

الثاني: من جهة كونهم (أفرادا) فلا يحكمون على كل فرد فرد منهم بالخروج عن دائرة الإسلام لجواز وجود بعض الموانع.

أدبيات الدور المتعلقة بالأحكام السابقة

أما منهج الشيخ ثم أئمة الدعوة في وصف الدور والجهات والمناطق التي أعلنت قتال الموحدين لدينهم، فمنهجهم كالتالي:

أ: إذا كان أهل الدار يشهدون الشهادتين وينتسبون للإسلام العام ويعلنون الأذان ويقيمون الجمع والجماعات كما هو حال عامة بلاد المسلمين وديار نجد فدارهم دار إسلام.

ب: وبالتالي يقررون لها ما يتبع ذلك من أحكام الأمان والعصمة لأهلها المسلمين وهذا مشهور معلوم في سيرهم في القتال والمعارك وسيأتي بعضه قريبا، وبتأمل عقلي يسير في انتشار الأمان في نجد على إثر دعوة الشيخ وقتاله يُعلمَ هذا.

ولهذا لما ظهرت هذه التهمة في وقت مبكر من تاريخ الدعوة، أعني أنهم حكموا على بلاد أعدائهم بأنها ديار كفر، تبرأ أئمة الدعوة من هذه المقالة وبينوا أن مَن اتهمهم بهذا فقد غلط أو كذب عليهم، ولهم مسالك في ردها من أهمها التصريح برأيهم في المسألة بصورة قاطعة لا تحتمل شبهة، ومنها تقرير أنهم لم يكفروا

المتلبسين بالشرك الأكبر من خصومهم بالعموم أصلا، فمن باب أولى ما يترتب على هذا من إطلاق وصف الكفر على ديارهم وبلادهم ثم ما ينبني عليه من زوال عصمة الدم والمال عن أبناء تلك البلدان بالعموم، هذه السلسلة كلها لا يقولون بالأصل الذي تبنى عليه.

يقول عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب آل الشيخ (المتوفى: 1293هـ) في كتابه الرائق[1] مصباح الظلام[2] في سياق رد هذه التهمة على من اتهم الإمام محمد بن عبد الوهاب بها، وننقل هنا التهمة ثم الرد:

قال المعترض: «وذلك لجعله [أي الإمام] بلاد الحرمين من بلاد الكفار، يوضِّح ما قلنا عمن سمعنا ورأينا وأدركنا، أن من جاءهم من الحرمين سموه مهاجرًا، جاء رجل من مكة يقال له: عبد الرزاق، فسموه مهاجرًا، ومن المدينة جعفر سموه: مهاجرًا، ومن العراق كذلك، ومن كل ناحية من بلاد الإسلام، فهذا الكلام على تأصيل كلامه على الكفار والمشركين..» .

قال عبد اللطيف آل الشيخ:

«والجواب أن يقال: **هذه كتب الشيخ، وهذه تصانيفه ورسائله: أي كتاب، وأي فتوى، وأي ناقل يعتدّ به نقل عنه أن بلاد الحرمين بلاد كفر؟** .

---

[1] وعامة كتبه وتقريراته رائقة نفيسة، سواء تلك التي دافع فيها عن الدعوة وشيخها وتاريخها، أو تلك التي رد فيها على شبهات المخالفين والقبوريين، وهو ممن تستحق شخصيته وتراثه الإفراد بالعناية والدراسة.

[2] (ص83-85).

قال الشيخ رحمه الله تعالى في رسالته إلى السويدي البغدادي: «وما ذكرت أني أكفر جميع الناس إلا من اتبعني وأَزْعمُ أنَّ أنْكِحَتَهم غير صحيحة، فيا عجبًا كيف يدخل هذا في عقل عاقل؟ هل يقول هذا مسلم أو كافر أو عارف أو مجنون؟» إلى أن قال: «وأما التكفير فأنا أكفر من عرف دين الرسل، ثم بعد ما عرفه سبَّه، ونهى الناس عنه وعادى من فعله، فهذا هو الذي أكفِّره، وأكثر الأمة ولله الحمد ليسوا كذلك» .

قال رحمه الله في رسالته للشريف : «وأما الكذب والبهتان مثل قولهم: أنا نكفر بالعموم، ونوجب الهجرة إلينا على من قدر على إظهار دينه، وأنا نكفر من لم يكفر ومن لم يقاتل، ومثل هذا وأضعاف أضعافه، وكل هذا من الكذب والبهتان الذي يصدون به الناس عن دين الله ورسوله.

وإذا كنا لا نُكَفِّر من عَبَدَ الصنم الذي على " عبد القادر "، والصنم الذي على قبر أحمد البدوي وأمثالهما؛ لأجل جهلهم، وعدم من ينبههم فكيف نكفر من لم يشرك بالله إذا لم يهاجر إلينا، ولم يكفر ويقاتل؟ سبحانك هذا بهتان عظيم» .

فإذا كان هذا كلام الشيخ رحمه الله فيمن عبد الصنم الذي على القبور إذا لم يتيسر له من يعلمه ويبلغه الحجة، فكيف يطلق على الحرمين: إنها بلاد كفر؟! **والشيخ على منهاج نبوي وصراط مستقيم ، يعطي كل مقام ما يناسبه من الإجمال والتفصيل.**

وأما تسمية عبد الرزاق وجعفر مهاجرين، فقدوم هذين الرجلين بعد الشيخ بعدة سنوات فلا يجوز نسبة هذا إليه؛ بل هو كذب ونقض لعهده الذي جعل على نفسه، ويل أمه!! ما أكثر غدره، وما أقلَّ وفاءه.

على أن هذا لا يعاب به الشيخ، وهو جارٍ على قانون العلم وأصوله، فمن ترك بلدًا يظهر فيها الشرك أو البدع أو الفسوق وهجرها لذلك فهو مهاجر، شاء الشيطان أم أبى، وقد خرج من المدينة خلق لما حصر عثمان ووقعت الفتنة، والفقهاء ذكروا وجوب الهجرة على من لم يقدر على إظهار دينه أو خاف الفتنة، وقد سئل بعض الصحابة فقيل له: أين أنت أيام الفتنة - يعني فتنة مقتل عثمان وما بعده - فأنشد:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى وصوَّت إنسان فكدت أطير))انتهي الجواب.

وقال أيضا في نفس الكتاب[1]:

«وأما قول [المعترض]: (وجعل بلاد المسلمين كفارًا أصليين) .

فهذا كذب وبهت، ما صدر ولا قيل، ولا أعرفه عن أحد من المسلمين فضلًا عن أهل العلم والدين؛ **بل كلهم مجمعون على أن بلاد المسلمين لها حكم الإسلام في كل زمان ومكان.**

[1] (ص54).

وإنما تكلَّم الناس في بلاد المشركين، الذين يعبدون الأنبياء والملائكة والصالحين، ويجعلونهم أندادًا لله ربِّ العالمين، أو يسندون إليهم التصرف والتدبير كغلاة القبوريين، فهؤلاء تكلم الناس في كفرهم وشركهم وضلالهم، والمعروف المتفق عليه عند أهل العلم: أن من فعل ذلك ممن يأتي بالشهادتين يحكم عليه **بعد بلوغ الحجة** بالكفر والردَّة ولم يجعلوه كافرًا أصليًّا.... **وما رأيت شيخ الإسلام (أطلق) على بلد من بلاد المنتسبين إلى الإسلام إنها بلد كفر**، ولكنه قرر أن دعاء الصالحين وعبادتهم بالاستعانة والاستغاثة والذبح والنذر والتوكل، على أنهم وسائط بين العباد وبين الله في الحاجات والمهمات، هو دين المشركين وفعل الجاهلية الضالين من الأميين والكتابيين، **فظنَّ هذا أن لازم قوله أنه يحكم على هذه البلاد أنها بلاد كفر، وهذا ليس بلازم، ولو لزم، فلازم المذهب ليس بمذهب، ونحن نطالب الناقل بتصحيح نقله.**

نعم؛ ذكر الحنابلة وغيرهم أن البلدة التي تجرى عليها أحكام الكفر، ولا تظهر فيها أحكام الإسلام بلدة كفر؛ وما ظهر فيها هذا وهذا فقد أفتى فيها شيخ الإسلام ابن تيمية بأنه يراعى فيها الجانبان فلا تعطى حكم الإسلام من كل وجه، ولا حكم الكفر من كل وجه، كما نقله عنه ابن مفلح وغيره.

وقول [المعترض]: (فلا تؤكل ذبائحهم عنده ولا تحل نساؤهم) .

فهذا من نمط ما قبله، والشيخ لا يمنع من ذبيحة الشخص المعين إذا شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ودخل في الإسلام، ما لم يأتِ بمانع يمنع من حل

ذبحه، وكذا حكم النساء، **فكيف يقول ذلك في أهل بلد وأهل قرية لا يعلم تفاصيل أحوالهم وما يجري منهم من النواقص إلا الله عالم الغيب والشهادة**».

وقال أيضا في نفس الكتاب[1]:

«هذه الدعوى التي ادعاها المعترض على شيخنا من جعله الحرمين بلاد كفر دعوى كاذبة ضالة؛ وأن الشيخ رحمه الله تعالى من أعلم الناس وأعدلهم في قوله وفعله، على منهاج مستقيم، ولا يمكن أحد إثبات هذه الدعوى وتصحيحها بوجه من الوجوه، والكلام في هذه المواضع يجب أن يكون بعدل وعلم ...». انتهى.

ويجيب (أبا بطين) عن استشكال جواز إطلاق وصف دار الإسلام على البلد مع ظهور الشرك والشركيات عليها وعدم تحقيق كثير من أهلها لحقيقة الشهادتين، بأن مناط هذا الإطلاق هو انتساب أهل الدار للشهادتين مع ظهور شرائع الإسلام كالأذان والجمع والجماعات، ويجيب من يستشكل هذا أنه في بعض الصور حتى دار اليهود والنصارى قد يطلق عليها دار إسلام إذا أدوا الجزية للمسلمين فكيف بأهل الشهادتين.

يقول أبو بطين: «المسألة عن البلدة التي فيها شيء من مشاهد الشرك، والشرك فيها ظاهر، مع كونهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله مع عدم القيام بحقيقتهما ويؤذنون ويصلون الجمعة والجماعة مع التقصير في ذلك.

فهذه المسألة يؤخذ جوابها مما ذكره الفقهاء في بلدة كل أهلها يهود أو نصارى أنهم إذا كانوا يقولون في المسيح أنه الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة وأنهم إذا بذلوا الجزية

---

[1] (ص378).

سميت بلادهم بلاد إسلام فبالأولى فيما أرى أن البلاد التي سألتم عنها وذكرتم حال أهلها اولى بهذا الاسم»[1].

وبعد أن قرر (أبا بطين) أن الدار دار إسلام وأهم ما يندرج تحت هذا الوصف من عصمة دماء وأموال أهلها بعقد الشهادتين، يبين أمرا مهما وهو أن هذا الوصف لا يمنع من التالي:

يقول أبو بطين مستطردا: «ومع هذا يقاتلون لإزالة مشاهد الشرك والإقرار بالتوحيد والعمل به بل لو أن طائفة امتنعت من شريعة الإسلام قوتلوا وإن لم يكونوا كفارا ولا مشركين ودارهم دار إسلام.

قال الشيخ تقي الدين رحمه الله : أجمع العلماء أن كل طائفة امتنعت من شريعة الإسلام تقاتل حتى يكون الدين كله لله كالمحاربين انتهى.

وما ذكرناه عن العلماء أنهم يسمون البلد التي أهلها يهود أو نصارى يسمونها دار إسلام يذكرون ذلك في باب اللقيط وغيره»[2].

وفتوى (أبا بطين) هذه من أهم الفتاوى التي يجب استحضارها في هذا الباب، لأنها تقدم الصورة المكتملة لمنهجهم في الباب.

وهي أنك إن أردت حكما مطلقا عاما على تلك الديار قلنا هي دار إسلام ، وإن ظهر فيها الشرك فعلى الإمام قتال المتلبسين بالشرك وإلزامهم بالتوحيد.

هذا من جهة التنظير أما من جهة التطبيق، فلك أن تتأمل في الطريقة التي تعاملت بها الدعوة النجدية مع أهل مكة بعد دخولها ، وقد كانت مكة من أكثر الجهات التي

---

[1] مجموع الرسائل والمسائل النجدية (2/ القسم الثالث 254-255).

[2] السابق نفسه.

اتُّهِمَت الدعوة بأنها جعلتها ديار كفر بإطلاق للتشنيع عليها، فانظر إلى طريقة التعامل مع دار الكفر هذه!:

يقول ابن بشر مؤرخا دخول مكة:

«ودخل سعود مكة واستولى عليها وأعطى أهلها الأمان وبذل فيها من الصدقات والعطاء لأهلها شيئا كثيرا»[1].

وقد يقول قائل من الطبيعي أن تقوم الدعوة بعملية تلميع تاريخي! لمثل هذه الأحداث، إلا أن الإشكالية أن هذه المعاملة قد شهد بها المؤرخون الغربيون، ونضرب مثالا هنا من كلام بركهاردت[2] (burckhardet) في القسم الثاني من مذكراته التي سماها notes on the baduins and Wahhabis: (تقييدات عن البدو والوهابيين):

The mekkas still remember with gratitude the excellent police observed by sauds troops during his frequent visits to mekka, especially on his first taking the town. With the same vigilance the watches over his soldiers on an expedition, and whoever receives from him the word aman or safe conduct may be perfectly secure from any misconduct of the troops.

«لا يزال أهل مكة يذكرون بامتنان قيام قوات سعود بتوفير الأمان لهم بشكل تام، وذلك في زياراته المتكررة لمكة، **وخاصة في دخوله الأول لمكة**، وقد كان سعود

---

[1] (1/ 122).

[2] ممن عاصر أحداث صراع الدعوة مع جيوش محمد علي، ومذكراته لها قيمة علمية خاصة ستتعرض لها فيما نستقبل من هذه السلسلة بإذن الله.

نفسه يشرف على طريقة تعامل القوات مع المواطنين أثناء حملاته، وكان كل من حظى بكلمة (أمان) من سعود، لا يحق لهذه القوات التعامل معه بسوء»[1].

ثم استطرد المؤلف في الحديث عن تأمين أهل مكة في ممتلكاتهم وتجاراتهم، مما سيأتي استعراضه بإذن الله في بحث خاص بشهادات الغربيين عن الدعوة في هذه السلسلة.

هذا هو منهج علماء الدعوة النجدية الواضح في توصيف ديار مخالفيهم نظريًّا وتطبيقيا.

ويخلط كثيرون بين إطلاق وصف عام للدار، وهو ما بينَّاه هنا، وأن الوصف العام عندهم لديار مخالفيهم أنها ديار إسلام، وبين توصيف حال بعض ساكني الدار، فهذا الثاني مثل ما يقع في أدبيات بعض أئمة الدعوة من عبارات من نوعية يجب عليك الهجرة من بلد الشرك، فمثل هذا توصيف لحال بعض ساكني الدار ممن لهم أحكام مختلفة وليس هو بوصف مطلق للدار.

وهو أمر مطروق في كلام أهل العلم ممن قرر أن الدار الواحدة قد يكون لها حكمان باعتبارين، ولذلك نجد بعض أهل العلم يطلقون على الديار المصرية أثناء حكم العبيديين أنها ديار كفر ونعرف أن المقصود باعتبار حكامها، لا باعتبار حال أهلها.

ولابن تيمية فتوى شهيرة في بلد ماردين هل هي دار إسلام أم دار كفر[2] افتتحها بقوله:

---

[1] (2/ 149).

[2] «مجموع الفتاوى»(28/ 240-241).

«دِمَاءُ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالُهُمْ مُحَرَّمَةٌ حَيْثُ كَانُوا فِي " مَارِدِينَ " أَوْ غَيْرِهَا».

أقول: وهذه هي عقيدة أئمة الدعوة في أهل الإسلام حيث كانوا.

ثم قال ابن تيمية: «وَأَمَّا كَوْنُهَا دَارَ حَرْبٍ أَوْ سِلْمٍ فَهِيَ مُرَكَّبَةٌ: فِيهَا الْمَعْنَيَانِ؛ لَيْسَتْ " بِمَنْزِلَةِ دَارِ السِّلْمِ الَّتِي تَجْرِي عَلَيْهَا أَحْكَامُ الْإِسْلَامِ؛ لِكَوْنِ جُنْدِهَا مُسْلِمِينَ؛ وَلَا بِمَنْزِلَةِ دَارِ الْحَرْبِ الَّتِي أَهْلُهَا كُفَّارٌ؛ بَلْ هِيَ قِسْمٌ ثَالِثٌ يُعَامَلُ الْمُسْلِمُ فِيهَا بِمَا يَسْتَحِقُّهُ وَيُقَاتَلُ الْخَارِجُ عَنْ شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ».

قلت: فكيف إذا كان الخارج عن الشريعة غزا الدعوة وأهلها وابتدأهم بالقتال.

وهذا هو المقصود من تعبيرات الشيخ أو بعض أئمة الدعوة بعد أن انقسمت نجد عسكريا بين الموالين للتوحيد والمقاتلين تحت راية الشرك في مثل قول أحدهم: وأنت لا تريد أن تترك بلد الشرك خوفا على جاهك، وأنت تدافع عن بلد المشركين لكذا، فالمقصود أن تلك البلد من البلدان التي رفعت راية الشرك وقاتلت في سبيله، أو أن أهلها يمارسون الشركيات، وليس المقصود إعطائها حكم دار الكفر بإطلاق.

ومهما يكن من أمر أوصاف الدور في كلام الشيخ وأئمة الدعوة التي قد يستشكل بعضها من لا دراية له بالسياقات العلمية المختلفة ومواضع الخطاب فإن إطلاق وصف الكفر على جهة معينة من بلاد المسلمين (بمعنى جعلها دار حرب و إسقاط عصمة الدم والمال عن أهلها وتنزيل غير ذلك من أحكام الكفار على أهلها) كما يدعيه أعداء الدعوة ويشنعون به **فهو كذب محض لا وجود له في شيء من تراث الشيخ وأئمة الدعوة**، ولا في الواقع التطبيقي على الأرض، ولم يطلقه الشيخ ولا أحد من أئمة الدعوة بالوجه الذي بيناه على شيء من بلاد المسلمين.

فإن رؤساءهم كانوا منافقين زنادقة

ابن تيمية

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية عن رؤساء فرقتين من الفرق المنتسبة للإسلام ممن بدعتهم دون الشرك: «فأهل البدع فيهم المنافق الزنديق فهذا كافر، ويكثر مثل هذا في الرافضة والجهمية، فإن رؤساءهم كانوا منافقين زنادقة»[1].

ومما يحسن التذكير به هنا أيضا من بديع تقريرات ابن تيمية كلامه في بيان ارتباط بابَي القتال والتكفير في الشرع.

يقول ابن تيمية رحمه الله[2]: «فرض متأخرو الفقهاء مسألة يمتنع وقوعها وهو أن الرجل إذا كان مُقرًّا بوجوب الصلاة فَدُعي إليها وامتنع واستتيب ثلاثًا مع تهديده بالقتل فلم يُصل حتى قُتل، هل يموت كافرًا أو فاسقًا؟على قولين. وهذا الفرض باطل، **فإنه يمتنع في الفطرة** أن يكون الرجل يعتقد أن الله فرضها عليه، وأنه يعاقبه على تركها، **ويصبر على القتل**، ولا يسجد لله سجدة من غير عذر له في ذلك هذا لا يفعله بشر قط...وسبب ذلك **أن القتل ضرر عظيم لا يصبر عليه الإنسان إلا لأمر عظيم مثل لزومه لدين يعتقد أنه إن فارقه هلك فيصبر عليه حتى يُقتل وسواء كان الدين حقًّا أم باطلاً...**».

---

[1] «مجموع الفتاوى» (3/ 353).

[2] (الفتاوى 7/ 219)

وهذا الذي قرره ابن تيمية من الوضوح بمكان لكل ذي عقل، ومن تأمل أحكام الشريعة في الجهاد والقتال وما ينبني عليها فَهِمَ هذا الباب مما ليس هنا محل بسطه.

ونقول بناء على كلام ابن تيمية: والأشد امتناعا من الصورة التي ذكرها أن يُشْهِرَ الإنسانُ سيفَه ويقرِّر قَتْلَ مسلمٍ آخر لخلافٍ معه في عقيدته، مع استعداده التام للموتِ في سبيل ما يعتقده هو، هذا يمتنع عادة إلا في حق من تشرّب عقيدته وأعتقد أنه إن فارقها هلك وأنه لا استعداد لديه لقبول عقيدة الآخر.

وهذا أمر عام في كل زمان ومكان، مهما تكن عقيدة الشخص الذي يقاتل، ومهما كان دينه، ومهما كان فكره.

الآن نعود إلى زمن الدعوة..

قررنا أن الشيخ وأتباعه بقوا سنوات طويلة مكتفين بالدعوة والعلم والنصح والإرشاد...إلخ.

إلا أن بعض الرؤساء في نجد كفروه وقرروا قتاله وقتال أتباعه لدينهم وتوحيدهم.

السؤال هل يستوي الأول، مَن يتقبل النصح والبيان، ثم يقوم بالرد عليك، ثم ترد عليه وتدور بينكم سجالات علمية محضة، طال وقتها أم قَصر...

هل يستوي هذا مع مَن قاتلك لدينك وتوحيدك؟

إن كان الأول يعذر ، فهل يتصور من حال الآخر أنه خرج يقتلني إلا وقد عرف وفهم ما أنا عليه ورفضه.

إن كان الأول تُكْشَف شبهاته وتقام عليه الحجج وتستمر الردود العلمية بيننا، فهل ترك الآخر لي الفرصة أصلا لأن أقيم عليه الحجج.

إن كان الأول تُرجى له الهداية مهما طال الوقت، فهل يتصور من الآخر الذي خرج ليُقتَل في سبيل عقيدته أن يتخلى عنها؟

إن ارتباط أرضية القتال ودائرة الصراع على التوحيد بأدبيات التكفير وإجراء أحكام المشركين وغير ذلك من أبواب في منهج الشيخ وأئمة الدعوة كما سبق تقرير بعضه وسيأتي في الفصول التالية إثباته وتوكيده، من أهم ما ينبغي استيعابه وفهمه، فهو باب كاشف لكثير من الإشكالات التي تطرؤ على الأفهام، وموضح لشيء كثير من الخبط والخلط في قراءة فكر الشيخ ومنهج أئمة الدعوة في هذه الأبواب.

ولا نقصد هنا أن الشيخ وأئمة الدعوة كفروا كل من كفرهم وقاتلهم فليس من منهج أهل السنة معصية الله فيمن عصى الله فيهم وسيأتي بيانه، إنما نقصد لفت النظر إلى أن هذه النقطة كان لها أثر هام على أدبيات الشيخ وأئمة الدعوة في هذا الباب، خاصة في ظهور طليعة تقريرات التكفير التنزيلي عنده، بتكفير بعض رؤوس المقاتلين الدينيين هؤلاء، كما سيأتي شرحه.

فنعود الآن لما نحن فيه:

بعد أن قررنا أن الشيخ لم يكفر أعيان الطوائف المقاتلة قتالا دينيا، بل أجرى عليهم الأحكام، لما فصلناه قبل قليل، بقي أن نتحدث عن رؤوس تلك الطوائف.

قدمنا قبل قليل أن إشكالية الدعوة النجدية الحقيقية إنما هي مع الرؤوس وليست مع عامة المجتمع النجدي، ومن النصوص التي توثق هذه القضية قوله في سياق توضيحه لدعوته وأنه لم يقم إلا بتنبيه الناس إلى حقيقة التوحيد :

فأنكر هذا **بعض الرؤساء** لكونه خالف عادة نشؤوا عليها ..ولبسوا على العوام أن هذا خلاف ما عليه الناس وكبرت الفتنة جدا وأجلبوا علينا بخيل الشيطان ورجله[1].

كما نستوحي هذا من كثير من نصوص الشيخ ثم أئمة الدعوة التي يقررون فيها أن أكثر المتلبسين بالشرك في نجد بله في سائر المجتمعات المسلمة كانوا ممن إذا بُيِّن لهم حقيقة الإسلام عرفوا حقيقة ما هم عليه وأقلعوا عنه، كما في قول الشيخ مثلا: «وأما التكفير فأنا أكفر من عرف دين الرسول، ثم بعد ما عرفه سَبَّه، ونهى الناس عنه، وعادى من فعله، فهذا هو الذي أكفر. وأكثر الأمة - ولله الحمد - ليسوا كذلك»[2].

فهذا نص واضح من الشيخ نستفيد منه أمر في غاية الأهمية وهو تنصيصه على أن مساحة أدبيات التكفير في دعوته تتناول أقلية لا أغلبية، لأن أغلب المتلبسين بالشرك من الناس إذا عُرِّفوا عرفوا فخرجوا عن هذه الأدبيات.

أما هذه الأقلية التي تتناولها أدبيات التكفير، فيصفها الشيخ بأنهم الذين يعرفون ويقرون أن ما دعا إليه هو التوحيد الحق ومع ذلك فهم ساعون في محاربته، متبينون في عداوته وعداوة أهله، مصرون على الشرك ومعاقرته، وبعضهم استمرت محاججة الشيخ لهم سنوات طوال أربت على العشرين، وقد كانت هذه هي حال الرؤوس بالدرجة الأولى لخوفهم من أن يسحب بساط النفوذ السياسي أو الديني من تحت أقدامهم لصالح الدعوة وأهلها.

ولهذا نقول: رؤوس هذه الطوائف التي قاتلت الشيخ ودعوته لدينهم وتوحيدهم، وزعماؤها، العلميون والفكريون وهم المنظرون الرئيسيون لهم،- وهم في الأغلب

---

[1] «مجموعة الرسائل والمسائل النجدية» (4/ 2).

[2] «الدرر السنية» (1/ 73-74).

يكفرون الشيخ وأتباعه- فإنَّ (بعض) مَن جَرَت بينهم وبين الدعوة متمثلة في الشيخ أو نوابه محاجات علمية ومراسلات وردود، وظهر للشيخ عنادهم، أو أنه قد استوعب أركان إقامة الحجة الشرعية عليهم، فإنه يكفِّر أعيانهم.

وقلت (بعض) لأني أفردت أسماء رؤوس هؤلاء وهم كثر، ولم أجد في كثير منهم أوصاف لأعيانهم من جهة الشيخ بالتكفير مِن عدمه، بل أرى أن التكفير في الأغلب يتناول مَن أكثر الشيخ من محاجتهم وكشف شبهاتهم ومراسلتهم والرد عليهم وفجروا في خصومتهم وتبيّنوا في قتال الموحدين والتنكيل بهم، بناء على منهج الشيخ الذي يميل للتورع في تنزيل التكفير.

وقلت: "ظهر للشيخ عنادهم" لأني لاحظت أن عامة الرؤوس الذين حكم عليهم الشيخ بالكفر هم ممن كان أقر قديما بأن ما يدعو إليه الشيخ هو الحق وهو التوحيد الذي جاءت به الرسل وأن الشرك المنتشر في نجد هو الشرك الذي يناقض هذا التوحيد، ولكنهم بعد بدء مرحلة القتال تغيرت مواقفهم ورجعوا عن قولهم وسبوا التوحيد وأهله وزينوا الشرك وأهله، وسيأتي معنا عند الحديث حول السجالات العلمية التي دارت بين الشيخ ومخالفيه سبب تبدل مواقف هؤلاء.

صفة الرؤوس الذين كفرهم الشيخ:

أنكر البعض في زمن الشيخ عليه تكفيره لبعض هؤلاء الرؤوس المعينين، فحرص الشيخ على بيان أحوالهم وما كانوا عليه وأنهم لم يكونوا مجرد أشخاص تلبسوا بالشرك واختلفوا معه فكريا أو علميا بل كان الأمر أبعد من هذا بكثير.

وبعد اطلاعي على عامة النصوص التي يستفاد منها تكفير الشيخ لبعض رؤوس هؤلاء اتضح لي أن الشيخ لم يكفرهم لمجرد أن أحدهم متلبس بالشرك وبلغته الحجة الرسالية

فقط، بل هؤلاء جمعوا – حسب الشيخ – عدة بوائق ومصائب جعلت الشيخ يقدم على تكفيرهم ويحرص على بيان المبلغ الذي وصلوا له من معاداة التوحيد وأهله، نلخص أهمها في التالي:

أ: عرفوا الحق وأقروا أن ما جاء به ابن عبد الوهاب هو التوحيد.

ب: لم يتركوا ما هم عليه من شركيات.

ج: مع إقرارهم بصورة فردية وفي مجالس خاصة أن التوحيد هو الحق، كان لديهم خطاب رسمي آخر موجه للرؤساء والمجتمعات وهو تزيين ما عليه الناس من أمر الشرك والتصنيف في ذلك.

د: سب التوحيد وأهله، وتكفير الموحدين أحيانا، واستحلال دمائهم وأموالهم.

هـ: التأليب القتالي على الشيخ وأبناء الدعوة وقد كانوا هم أبواق وقيادات القتال الديني الفكريين.

و: بقي الشيخ يتلطف لهم وينصحهم سنوات طوال وبعضهم استمرت مناصحته عشرين سنة.

نماذج من توضيح الشيخ لأحوال الرؤوس الذين كفَّرهم:

«أرسل أحمد بن إبراهيم، مطوع مرات من بلدان الوشم للشيخ رسالة يخالفه فيها في بعض المعينين، فأجابه الشيخ بهذه:

بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الوهاب، إلى أحمد بن إبراهيم هدانا الله وإياه.

وبعد، ما ذكرت من مسألة التكفير، وقولك أبسط الكلام فيها، فلو بيننا اختلاف أمكنني أن أبسط الكلام أو أمتنع، وأما إذا اتفقنا على الحكم الشرعي: لا أنت بمنكر الكلام الذي كتبت إليك، ولا أنا بمنكر العبارات التي كتبت إلي، **وصار الخلاف في أناس معينين** أقروا

أن التوحيد الذي ندعو إليه دين الله ورسوله، وأن الذي ننهى عنه في الحرمين والبصرة والحسا هو: الشرك بالله، ولكن هؤلاء المعينون هل تركوا التوحيد بعد معرفته وصدوا الناس عنه؟ أم فرحوا به وأحبوه ودانوا به وتبرؤوا من الشرك وأهله؟ فهذه ليس مرجعها إلى طالب العلم، بل مرجعها إلى علم الخاص والعام. مثال ذلك: إذا صح أن أهل الحسا والبصرة يشهدون أن التوحيد الذي نقول دين الله ورسوله، وأن هذا المفعول عندهم في الأحياء والأموات هو الشرك بالله، ولكن أنكروا علينا التكفير والقتال خاصة.

والمرجع في المسألة إلى الحضر والبدو والنساء والرجال. هل أهل قبة الزبير وقبة الكواز تابوا من دينهم وتبعوا ما أقروا به من التوحيد، أو هم على دينهم؟ ولو يتكلم الإنسان بالتوحيد فسلامته على أخذ ماله. فإن كنت تزعم أن الكواوزة، وأهل الزبير تابوا من دينهم وعادوا من لم يتب، فتبعوا ما أقروا به، وعادوا من خالفه، هذا مكابرة. وإن أقررتم أنهم بعد الإقرار أشد عداوة ومسبة للمؤمنين والمؤمنات، كما يعرفه الخاص والعام، وصار الكلام في أتباع المويس، وصالح بن عبد الله، هل هم مع أهل التوحيد؟ أم هم مع أهل الأوثان؟ بل أهل الأوثان معهم وهم حزبة العدو وحاملو الراية؛ فالكلام في هذا نحيله على الخاص والعام.

فودي أنك تسرع بالنفور فتتوجه إلى الله، وتنظر نظر من يؤمن بالجنة والخلود فيها، ويؤمن بالنار والخلود فيها، وتسأله بقلب حاضر أن يهديك الصراط المستقيم. هذا مع أنك تعلم ما جرى من ابن إسماعيل، وولد ابن ربيعة سنة الحبس، لما شكونا عند أهل قبة أبي طالب يوم يكسيه صاية، وجميع من معك من خاص وعام معهم إلى الآن، وتعرف روحة المويس وأتباعه لأهل قبة الكواز.. ويقول لهم: طالع الناس ينكرون قببكم، وقد كفروا وحل دمهم ومالهم، وصار هذا عندك، وعند أهل الوشم، وعند أهل سدير والقصيم، من فضائل المويس ومناقبه، وهم على دينه إلى الآن مع أن المكاتيب التي أرسلها علماء الحرمين مع

المزيودي سنة الحبس عندنا إلى الآن..، **وقد صرحوا فيها أن من أقر بالتوحيد كفر حل ماله ودمه، وقتل في الحل والحرم، ويذكرون دلائل على دعاء الأولياء في قبورهم**، منها قوله تعالى: {لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ}. فإن كانت ليست عندك، ولا صبرت إلى أن تجيء، فأرسل إلى ولد محمد بن سليمان في وشيقر، ولسيف العتيقي يرسلونها إليك، ويجيبون عن قوله: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ}، أنهم يدعون على أنهم المعطون المانعون بالأصالة، وأما دعوتهم على أنهم شفعاء فهو الدين الصحيح، ومن أنكره قتل في الحل والحرم؟

وأيضاً، جاءنا بعض المجلد الذي صنفه القباني، واستكتبوه أهل الحسا وأهل نجد، وفيه نقل الإجماع على تحسين قبة الكواز وأمثالها، وعبادتها، وعبادة سية طالب، ويقول في تصنيفه: إنه لم يخالف في تصنيفه إلا ابن تيمية وابن القيم، وعشرة أنا عاشرهم، فالجميع اثنا عشر، فإذا كان يوم القيامة، اعتزلوا وحدهم عن جميع الأمة. وأنتم إلى الآن على ما تعلم، مع شهادتكم أن التوحيد دين الله ورسوله، وأن الشرك باطل، وأيضاً مكاتيب أهل الحسا موجودة، فأما ابن عبد اللطيف وابن عفالق، وابن مطلق فحشوا بالزبيل أعني: سبابة التوحيد واستحلال دم من صدق به، أو أنكر الشرك، ولكن تعرف ابن فيروز أنه أقربهم إلى الإسلام وهو رجل من الحنابلة، وينتحل كلام الشيخ وابن القيم خاصة، ومع هذا صنف مصنفاً أرسله إلينا **قرر فيه أن هذا الذي يفعل عند قبر يوسف وأمثاله هو الدين الصحيح**، واستدل في تصنيفه بقول النابغة:

أيا قبر النبي وصاحبيه ... ووا مصيبتنا لو تعلمونا

وفي مصنف ابن مطلق الاستدلال بقول الشاعر:

وكن لي شفيعاً يوم لا ذو شفاعة ... سواك بمغن عن سواد بن قارب

ولكن الكلام الأول أبلغ من هذا كله، وهو شهادة البدو والحضر والنساء والرجال، أن هؤلاء الذين يقولون: التوحيد دين الله ورسوله، ويبغضونه أكثر من بغض اليهود والنصارى، ويسبونهن ويصدون الناس عنه، ويجاهدون في زواله وتثبيت الشرك بالنفس والمال، خلاف ما عليه الرسل وأتباعهم، فإنهم يجاهدون حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

وأما قولك: أبغي أشاور إبراهيم، فلا ودي تصير ثالثاً لابن عباد وابن عيد؛ أما ابن عباد فيقول: أي شيء أفعل بالعناقر، وإلا فالحق واضح ونصحتهم وبينت لهم. وابن عيد أنت خابره، حاول إبراهيم في الدخول في الدين، وتعذر من الناس أن إبراهيم ممتنع. يا سبحان الله! إذا كان أهل الوشم وأهل سدير وغيرهم يقطعون أن كل مطوع في قرية لو ينقاد شيخها ما منهم أحد يتوقف، كيف يكون قدر الدين عندكم؟ كيف قدر رضى الله والجنة؟ كيف قدر النار وغضب الله؟ ولكن ودي تفكر فيما تعلم لما اختلف الناس بعد مقتل عثمان، وبإجماع أهل العلم أنهم لا يقال فيهم إلا الحسنى مع أنهم عثوا في دمائهم. ومعلوم أن كلاً من الطائفتين: أهل العراق وأهل الشام، معتقدة أنها على الحق والأخرى ظالمة؛ ونبغ من أصحاب علي من أشرك بعلي، وأجمع الصحابة على كفرهم وردتهم وقتلهم، لكن حرقهم علي، وابن عباس يرى قتلهم بالسيف. أترى أهل الشام لو حملهم مخالفة علي على الاجتماع بهم، والاعتذار عنهم والمقاتلة معهم لو امتنعوا، أترى أحداً من الصحابة يشك في كفر من التجأ إليهم، ولو أظهر البراءة من اعتقادهم، وإنما التجأ إليهم وزين مذهبهم لأجل الاقتصاص من قتلة عثمان؟ فتفكر في هذه القضية فإنها لا تبقى شبهة إلا على من أراد الله فتنته.

وغير ذلك: قولك أريد أماناً على كذا وكذا، فأنت مخالف؛ والخاص والعام يفرحون بجيتك مثل ما فرحوا بجية ابن غنام، والمنقور، وابن عضيب، مع أن ابن عضيب أكثر الناس

سباً لهذا الدين إلى الآن، وراحوا موقرين محشومين. كيف لو تجيء أنت كيف تظن أن يجيئك ما تكره؟ فإن أردت تجديد الأمان على ما بغيت فاكتب لي، ولكن تعرف حرصي على الكتب، فإن عزمت على الراضة وعجلتها علي قبلك فتراها على بنو الخير، وإن ما جاز عندك كلها فبعضها، ولو مجموع ابن رجب ترى ما جاءنا، فهو عارية مؤداة وإن لم تأتنا.

قال ابن القيم في النونية:

يا فرقة جهلت نصوص نبيها ... وقصوده وحقائق الإيمان

فسطوا على أتباعه وجنوده ... بالبغي والتكفير والطغيان

لله حق لا يكون لغيره ... ولعبده حق هما حقان

لا تجعلوا الحقين حقا واحداً ... من غير تمييز ولا فرقان

المراد: تعريفك لما صدقتك، وأن لك نظراً في الحق أن في ذلك الزمان من يكفر العلماء إذا ذكروا التوحيد، ويظنونه تنقيصاً للنبي صلى الله عليه وسلم، فما ظنك بزمانك هذا؟ وإذا كان المكفرون ممن يعدون من علمائهم، فما ظنك بولد المويس وفاسد وأمثالهما، يوضحه تسجيلهم على جواب علماء مكة، ونشره وقراءته على جماعتهم ودعوتهم إليه.

ذكر ابن عبد الهادي في مناقب الشيخ، لما ذكر المحنة التي نالته بسبب الجواب في شد الرحل، فالجواب الذي كفّروه بسببه ذكر أن كلامه في هذا الكتاب أبلغ منه. فالعجب إذا كان هذا الكتاب عندك، والعلماء في زمن الشيخ كفّروه بكلام دونه، فكيف بالمويس وأمثاله لا يكفروننا بمحض التوحيد؟ وذكر ابن القيم في النونية ما يصدق هذا الكلام لما قالوا له: إنك مثل الخوارج، رد عليهم بقوله: من لي بمثل خوارج قد كفّروا ... بالذنب تأويلاً بلا إحسانِ

ثم ذكر في البيت الثاني أن هؤلاء لا يكفّروننا بمحض الإيمان، والخوارج يكفرون بالذنوب. وكلامي هذا تنبيه أن إنكار التوحيد متقدم، وكذلك التكفير لمن اتبعه، وأنت لا تعتقد أن الزمان صلح بعدهم، ولا تعتقد أن المويس وأمثاله أجل وأورع من أولئك الذين كفروا الشيخ وأتباعه. وعد ابن عبد الهادي من كتبه كتاب "الاستغاثة" مجلد، ولفانا من الشام مع مربد. وسببه أن رجلاً من فقهاء الشافعية يقال له ابن البكري عثر على جواب للشيخ في الاستغاثة بالموتى، فأنكر ذلك، وصنف مصنفاً في جواز الاستغاثة بالنبي صلى الله عليه وسلم في كل ما يستغاث الله فيه، وصرح بتكفير الشيخ في ذلك الكتاب، وجعله مستنقصا للأنبياء، وأورد فيه آيات وأحاديث. فصنف الشيخ كتاب "الاستغاثة" رداً على ابن البكري، وقرر فيه مذهب الرسل وأتباعهم، وذكر أن الكفار لم يبلغ شركهم هذا، بل ذكر الله عنهم أنهم إذا مسهم الضر أخلصوا ونسوا ما يشركون. والمقصود أن في زمن الشيخ ممن يدعي العلم والتصنيف مَن أنكر التوحيد، وجعله سباً للأنبياء والأولياء، وكفّر من ذهب إليه، فكيف تزعم أن عبدة قبة الكواز وأمثالها ما أنكروه؟ بل تزعم أنهم قبلوه ودانوا به وتبرؤوا من الشرك، ولا أنكروا إلا تكفير من لا يكفر. وأعظم وأطم: أنكم تعرفون أن البادية قد كفروا بالكتاب كله، وتبرؤوا من الدين كله، واستهزؤوا بالحضر الذين يصدقون بالبعث، وفضلوا حكم الطاغوت على شريعة الله، واستهزؤوا بها مع إقرارهم بأن محمداً رسول الله، وأن كتاب الله عند الحضر؛ لكن كذبوا وكفروا واستهزؤوا عناداً، ومع هذا تنكرون علينا كفرهم، وتصرحون بأن من قال: "لا إله إلا الله" لا يكفر.

ثم تذكر في كتابك أنك تشهد بكفر العالم العابد الذي ينكر التوحيد، ولا يكفّر المشركين، ويقول: هؤلاء السواد الأعظم ما يتيهون. فإن قلتم: إن الأولين وإن كانوا علماء فلم يقصدوا مخالفة الرسول، بل جهلوا، وأنتم وأمثالكم تشهدون ليلاً ونهاراً أن هذا الذي أخرجنا

للناس من التوحيد وإنكار الشرك أنه دين الله ورسوله، وأن الخلاف منا، والتكفير والقتال، ولو قدرنا أن غيركم يعذر بالجهل فأنتم مصرحون بالعلم. والله أعلم»[1]

نموذج آخر:

قوله لأحد المختلفين معه في تكفير بعض المعينين: «ثم ورد منك مراسلة تذكر أنك عثرت على كلام للشيخ أزال عنك الإشكال، فنسأل الله أن يهديك لدين الإسلام. وعلى أي شيء يدل كلامه؟ على أن من عبد الأوثان عبادة أكبر من عبادة اللات والعزى، **وسب دين الرسول بعد ما شهد به**، مثل سب أبي جهل، أنه لا يكفر بعينه؟! **بل العبارة صريحة واضحة في تكفير مثل ابن فيروز وصالح بن عبد الله وأمثالهما، كفراً ظاهراً ينقل عن الملة فضلاً عن غيرهما.**

هذا صريح واضح في كلام ابن القيم الذي ذكرت، وفي كلام الشيخ الذي أزال عنك الإشكال، في كفر من عبد الوثن الذي على قبر يوسف وأمثاله، ودعاهم في الشدائد والرخاء، وسب دين الرسل بعد ما أقر به، ودان بعبادة الأوثان بعد ما أقر بها. وليس في كلامي هذا مجازفة، بل أنت تشهد به عليهم، ولكن إذا أعمى الله القلب فلا حيلة فيه.....

فتفكر في نفسك: هل أكرهوك وعرضوك على السيف مثل عمار أم لا؟ وتفكر هل هذا بسبب أن عقيدته تغيرت أم بسبب إيثار الدنيا؟ ولم يبق عليك إلا رتبة واحدة وهي: أنك تصرح مثل ابن رفيع تصريحاً بمسبة دين الأنبياء، وترجع إلى عبادة العيدروس وأبي حديدة وأمثالهما. ولكن الأمر بيد مقلب القلوب...

فأول ما أنصحك به: أنك تفكر هل هذا الشرك الذي عندكم هو الشرك الذي ظهر نبيك صلى الله عليه وسلم ينهى عنه أهل مكة؟ أم شرك أهل مكة نوع آخر أغلظ منه؟ أم هذا أغلظ؟ فإذا أحكمت المسألة، وعرفت أن **غالب من عندكم سمع الآيات، وسمع كلام أهل**

---

[1] «الرسائل الشخصية» (ص204-210).

العلم من المتقدمين والمتأخرين، وأقر به وقال: أشهد أن هذا هو الحق، ونعرفه قبل ابن عبد الوهاب، ثم بعد ذلك يصرح بمسبة ما شهد أنه الحق، ويصرح بحسن الشرك وأتباعه، وعدم البراءة من أهله. فتفكر هل هذه مسألة أو مسألة الردة الصريحة التي ذكرها أهل العلم في الردة؟ ولكن العجب من دلائلك التي ذكرت كأنها أتت ممن لا يسمع ولا يبصر...

فإن كنت تزعم أن الذين عندكم أظهروا اتباع الدين الذي تشهد أنه دين الرسول صلى الله عليه وسلم، وتبرؤوا من الشرك بالقول والفعل، ولم يبق إلا أشياء خفيه تظهر على صفحات الوجه، أو فلتة لسان في السر، وقد تابوا من دينهم الأول، وقتلوا الطواغيت، وهدموا البيوت المعبودة، فقل لي. وإن كنت تزعم أن الشرك الذي خرج عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أكبر من هذا، فقل لي. **وإن كنت تزعم أن الإنسان إذا أظهر الإسلام، لا يكفر إذا أظهر عبادة الأوثان، وزعم أنها الدين، وأظهر سب دين الأنبياء، وسماه دين أهل العارض، وأفتى بقتل من أخلص لله الدين وإحراقه وحل ماله، فهذه مسألتك ...**

ولو ذهبنا نعدد من كفّره العلماء مع ادعائه الإسلام وأفتوا بردته وقتله لطال الكلام، لكن من آخر ما جرى: قصة بني عبيد ملوك مصر وطائفتهم، وهم يدّعون أنهم من أهل البيت، ويصلّون الجمعة والجماعة، ونصبوا القضاة والمفتين، أجمع العلماء على كفرهم وردّتهم وقتالهم، وأن بلادهم بلاد حرب، يجب قتالهم ولو كانوا مكرهين مبغضين لهم. واذكر كلامه في الإقناع وشرحه في الردة، كيف ذكروا أنواعاً كثيرة موجودة عندكم...[إلى أن قال]:

وأنا أذكر لك من كلامه ما يصدق هذا، لعلك تنتفع إن هداك الله، وتقوم عليك الحجة قياماً بعد قيام، وإلا فقد قامت عليك وعلى غيرك قبل هذا. وقال [ابن تيمية] رحمه الله في اقتضاء الصراط المستقيم في الكلام على قوله: {وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ}: ظاهره: أنه ما ذبح لغير الله حرم، سواء لفظ به أو لم يلفظ، وهذا أظهر من تحريم ما ذبح للحم وقال فيه: باسم

المسيح ونحوه؛ فإن عبادة الله والنسك له أعظم من الاستعانة باسمه في فواتح الأمور، فكذلك الشرك بالنسك لغيره أعظم من الاستعانة باسمه. وعلى هذا لو ذبح لغير الله متقرباً إليه، وإن قال فيه: بسم الله، كما قد يفعله طائفة من منافقي هذه الأمة، وإن كان هؤلاء مرتدين لا تباح ذبيحتهم بحال، لكن يجتمع في الذبيحة مانعان؛ ومن هذا الباب ما قد يفعله الجاهلون بمكة وغيرها من الذبح للجن. انتهى كلامه بحروفه. فانظر كلامه لمن ذبح لغير الله، وسمى الله عليه عند الذبح، أنه مرتد تحرم ذبيحته، ولو ذبحها للأكل؛ لكن هذه الذبيحة تحرم من جهتين: من جهة أنها مما أُهل به لغير الله، وتحرم أيضاً لأنها ذبيحة مرتد، يوضح ذلك ما ذكرته أن المنافقين إذا أظهروا نفاقهم صاروا مرتدين. فأين هذا من نسبتك عنه أنه لا يكفر أحد بعينه؟

وقال أيضاً في أثناء كلامه على المتكلمين ومن شاكلهم، لما ذكر عن أئمتهم شيئاً من أنواع الردة والكفر، وقال، رحمه الله: وهذا إذا كان في المقالات الخفية، فقد يقال: إنه فيها مخطئ ضال لم تقم عليه الحجة التي يكفر صاحبها، لكن ذلك يقع في طوائف منهم في الأمور الظاهرة التي يعلم المشركون واليهود والنصارى أن محمداً صلى الله عليه وسلم بُعث بها وكفّر من خالفها، مثل أمره بعبادة الله وحده لا شريك له، ونهيه عن عبادة أحد سواه من النبيين والملائكة وغيرهم، فإن هذا أظهر شرائع الإسلام، ثم تجد كثيراً من رؤوسهم وقعوا في هذه الأنواع فكانوا مرتدين...»[1].

نموذج آخر:

ومنها رسالة كتبها الشيخ، رحمه الله، إلى سليمان بن سحيم، وقد كان كتب رسالة شنع بها على الشيخ، وكان الشيخ، رحمه الله، قد أرسل له وتلطف له قبل ذلك، فلما تبين للشيخ أنه معاند للحق كتب له هذه الرسالة. وهذا نص الرسالة:

---

[1] «الرسائل الشخصية» (ص217-220،218-222).

«بسم الله الرحمن الرحيم:

الذي يعلم به سليمان بن سحيم أنك زعجت قرطاسة فيها عجائب؛ فإن كان هذا قدر فهمك، فهذا من أفسد الأفهام، وإن كنت تلبس به على الجهال فما أنت برابح. وقبل الجواب، نذكر لك أنك أنت وأباك مصرحون بالكفر والشرك والنفاق، ولكن صائر لكم عند جماعة في معكال قصاصيب وأشباههم يعتقدون أنكم علماء، ونداريكم، ودّنا أن الله يهديكم ويهديهم. وأنت إلى الآن أنت وأبوك لا تفهمون شهادة أن لا إله إلا الله؛ أنا أشهد بهذا، شهادة يسألني الله عنها يوم القيامة: أنك لا تعرفها إلى الآن ولا أبوك. ونكشف لك هذا كشفاً بيناً لعلك تتوب إلى الله، وتدخل في دين الإسلام إن هداك الله، وإلا تبين لكل من يؤمن بالله واليوم الآخر حالُكما، والصلاة وراءكما وقبول شهادتكما وخطّكما، ووجوب عداوتكما، كما قال تعالى: {لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} . وأكشف عن ذلك بوجوه:

الأول: **أنكم تقرون أن الذي يأتيكم من عندنا هو الحق، وأنت تشهد به ليلاً ونهاراً، وإن جحدت هذا شهد عليك الرجال والنساء، ثم مع هذه الشهادة أن هذا دين الله، وأنت وأبوك مجتهدان في عداوة هذا الدين ليلاً ونهاراً ومن أطاعكما، وتبهتون وترمون المؤمنين بالبهتان العظيم، وتصورون على الناس الأكاذيب الكبار. فكيف تشهد أن هذا دين الله ثم تتبين في عداوة من تبعه؟**

الوجه الثاني: أنك تقول: إني أعرف التوحيد، وتقر أن من جعل الصالحين وسائط فهو كافر، **والناس يشهدون عليك أنك تروح للمولد وتقرأه لهم، وتحضرهم، وهم ينخون ويندبون مشايخهم، ويطلبون منهم الغوث والمدد، وتأكل اللقم من الطعام المعَدّ لذلك.**

فإذا كنت تعرف أن هذا كفر، فكيف تروح لهم وتعاونهم عليه وتحضر كفرهم؟

الوجه الثالث: أن تعليقهم التمائم من الشرك بنص رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد ذكر تعليق التمائم صاحب الإقناع، في أول الجنائز، **وأنت تكتب الحجب وتأخذ عليها شرطاً، حتى إنك كتبت لامرأة حجاباً لعلها تحبل، وشرطت لك أحمرين وطالبتها تريد الأحمرين**. فكيف تقول: إني أعرف التوحيد، وأنت تفعل هذه الأفاعيل؟ وإن أنكرت، فالناس يشهدون عليك بهذا.

الوجه الرابع: **أنك تكتب في حجبك طلاسم، وقد ذكر في الإقناع أنها من السحر**، والسحر يكفر صاحبه. فكيف تفهم التوحيد، وأنت تكتب الطلاسم؟ وإن جحدت، فهذا خط يدك موجود.

الوجه الخامس: أن الناس فيما مضى عبدوا الطواغيت عبادة ملأت الأرض، بهذا الذي تقر أنه من الشرك: ينخونهم ويندبونهم، ويجعلونها وسائط، وأنت وأبوك تقولان: نُعَرِّف هذا لكن ما سألونا. **فإذا كنتم تُعَرِّفُونَه، كيف يحل لكم أن تتركا الناس يكفرون، ما تنصحانهم، ولو لم يسألوكم؟**

الوجه السادس: أنا لما أنكرنا عبادة غير الله **بالغتم في عداوة هذا الأمر وإنكاره، وزعمتم أنه مذهب خامس، وأنه باطل، وإن أنكرتما فالناس يشهدون بذلك وأنتم مجاهرون** به، فكيف تقولون: هذا كفر، ولكن ما سألونا عنه؟ فإذا قام من يبين للناس التوحيد، قلتم: إنه غير الدين، وآت بمذهب خامس. فإذا كنت تعرف التوحيد، وتقر أن كلامي هذا حق، فكيف تجعله تغييراً لدين الله، وتشكونا عند أهل الحرمين؟

والأمور التي تدل على أنك أنت وأباك لا تعرفان شهادة أن لا إله إلا الله لا تحصر، لكن ذكرنا الأمور التي لا تقدر تنكرها، وليتك تفعل فعل المنافقين الذين قال الله فيهم: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ} ، لأنهم يخفون نفاقهم، وأنت وأبوك تظهران للخاص والعام.

وأما الدليل على أنك **رجل معاند، ضال على علم، مختار الكفر على الإسلام**، فمن وجوه:

الأول: أني كتبت ورقة لابن صالح من سنتين، فيها تكفير الطواغيت شمسان وأمثاله، وذكرت فيها كلام الله ورسوله، وبينت الأدلة، **فلما جاءتك نسختها بيدك لموسى بن سليم، ثم سجلت عليها وقلت: ما ينكر هذا إلا أعمى القلب**. وقرأها موسى في البلدان وفي منفوحة وفي الدرعية وعندنا، ثم راح بها للقبلة. فإذا كنت من أول موافقاً لنا على كفرهم، وتقول: ما ينكر هذا إلا من أعمى الله بصيرته، فالعلم الذي جاءك بعد هذا يبين لك أنهم ليسوا بكفار، بيِّنْه لنا.

الوجه الثاني: أني أرسلت لك رسالة الشيخ تقي الدين، التي يذكر فيها أن من دعا نبياً أو صحابياً أو ولياً مثل: أن يقول يا سيدي فلان انصرني وأغثني! أنه كافر بالإجماع، **فلما أتتك استحسنتها وشهدت أنها حق، وأنت تشهد به الآن، فما الموجب لهذه العداوة؟**

الوجه الثالث: أنه إذا أتاك أحد من أهل المعرفة، أقررت أن هذا دين الله، وأنه الحق، وقلته على رؤوس الأشهاد، **وإذا خلوت مع شياطينك وقصاصيبك، فلك كلام آخر**.

الوجه الرابع: أن عبد الرحمن الشنيفي ومن معه لما أتوك وذاكروك، أقررت بحضرة شياطينك أن هذا هو الحق، وشهدت أن الطواغيت كفار، وتبرأت من طالب الحمضي، وعبد الكريم، وموسى بن نوح، فأي شيء بان لك بأن هذا باطل، وأن الذي تبرأت منهم وعاديتهم أنهم على حق؟

الوجه الخامس: أنك لما خرجت من عند الشيوخ وأتيت عند الشنيفي، جحدت الكلام الذي قلتَ في المجلس. فإن كان الكلام حقاً فلأي شيء تجحده؟

وأنت وأبوك مقران أنكما لا تعرفان كلام الله ورسوله، لكن تقولان: نعرف كلام صاحب الإقناع وأمثاله؟ وأنا أذكر لك كلام صاحب الإقناع: أنه مكفّرك ومكفّر أباك في غير موضع من كتابه:

الأول: أنه ذكر في أول سطر من أحكام المرتد: أن الهازل بالدين يكفر؛ وهذا مشهور عنك، وعن ابن أحمد بن نوح، الاستهزاء بكلام الله ورسوله. وهذا كتابكم كفّركم.

الثاني: أنه ذكر في أوله: أن المبغض لما جاء به الرسول كافر بالإجماع، ولو عمل به. وأنت مقر أن هذا الذي أقول في التوحيد أمر الله ورسوله، والنساء والرجال يشهدون عليكم أنكم مبغضون لهذا الدين، مجتهدون في تنفير الناس عنه، والكذب والبهتان على أهله. فهذا كتابكم كفّركم.

الثالث: أنه ذكر من أنواع الردة: إسقاط حرمة القرآن، وأنتم كذلك تستهزئون بمن يعمل به، وتزعمون أنهم جهال وأنكم علماء.

الرابع: أنه ذكر أن من ادعى في علي بن أبي طالب ألوهية، أنه كافر، ومن شك في كفره فهو كافر. وهذه مسألتك التي جادلت بها في مجلس الشيوخ، وقد صرح في الإقناع بأن من شك في كفرهم فهو كافر، فكيف بمن جادل عنهم وادعى أنهم مسلمون، وجعلنا كفاراً لما أنكرنا عليهم؟

الخامس: أنه ذكر أن السحر يكفر بتعلمه وتعليمه، والطلاسم من جملة السحر.

فهذه ستة مواضع في الإقناع، في باب واحد، أن من فعلها فقد كفر، وهي دينك ودين أبيك. فإما أن تبرؤوا من دينكم هذا، وإلا فأجيبوا عن كلام صاحب الإقناع، وكلامنا هذا لغيرك الذين عليهم الشرهة مثل الشيوخ، أو من يصلي وراءك كادوا أنّ الله يهديهم ويعزلونك أنت وأبوك عن الصلاة بالناس لئلا تفسد عليهم دينهم، وإلا فأنا أظنك لا تقبل، ولا يزيدك هذا الكلام إلا جهالة وكفراً.

وأما الكلام الذي لبست به على الناس، فأنا أبينه إن شاء الله، كلمة كلمة؛ وذلك أن جملة المسائل التي ذكرت أربعاً:

الأولى: النذر لغير الله، تقول إنه حرام ليس بشرك.

الثانية: أن من جعل بينه وبين الله وسائط كفر، أما الوسائط بأنفسهم فلا يكفرون.

الثالثة: عبارة العلماء: أن المسلم لا يجوز تكفيره بالذنوب.

الرابعة: التذكير ليلة الجمعة لا ينبغي الأمر بتركه.

هذه المسائل التي ذكرت.

فأما المسألة الأولى: فدليلك: قولهم: إن النذر لغير الله حرام بالإجماع، فاستدللت بقولهم: حرام، على أنه ليس بشرك. فإن كان هذا قدر عقلك فكيف تدعي المعرفة؟ يا ويلك! ما تصنع بقول الله تعالى: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً} ، فهذا يدل على أن الشرك حرام ليس بكفر؟ يا هذا الجاهل الجهل المركب! ما تصنع بقول الله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ} إلى قوله: {وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً} ، هل يدل هذا التحريم على أنه لا يكفر صاحبه؟ يا ويلك! في أي كتاب وجدته إذا قيل لك: هذا حرام، إنه ليس بكفر؟

فقولك: إن ظاهر كلامهم أنه ليس بكفر، كذب وافتراء على أهل العلم. بل يقال: ذكر أنه حرام، وأما كونه كفر فيحتاج إلى دليل آخر؛ والدليل عليه: أنه صرح في الإقناع أن النذر عبادة، ومعلوم أن لا إله إلا الله معناها: لا يعبد إلا الله، فإذا كان النذر عبادة وجعلتها لغيره، كيف لا يكون شركاً؟ وأيضاً، مسألة الوسائط تدل على ذلك، والناس يشهدون أن هؤلاء الناذرين يجعلونهم وسائط، وهم مقرون بذلك.

وأما استدلالك بقوله: من قال: انذروا لي، وأنه إذا رضي وسكت لا يكفر، فبأي دليل؟ غاية ما يقال: إنه سكت عن الآخذ الراضي. وعلم من دليل آخر، والدليل الآخر: أن الرضى بالكفر كفر، صرح به العلماء، وموالاة الكفار كفر، وغير ذلك. هذا إذا قدر أنهم لا يقولونه، فكيف وأنت وغيرك تشهد عليهم أنهم يقولون ويبالغون فيه؟ ويقصون على الناس الحكايات التي ترسخ الشرك في قلوبهم، ويبغض إليهم التوحيد، ويكفرون أهل العارض

لما قالوا: لا يعبد إلا الله. وأما قولك: ما رأينا للترشيح معنى في كلام العلماء، فمن أنت حتى تعرف كلام العلماء؟

وأما الثانية: وهي أن الذي يجعل الوسائط هو الكافر، وأما المجعول فلا يكفر، فهذا كلام تلبيس وجهالة. ومن قال إن عيسى وعزيراً وعلي بن أبي طالب وزيد بن الخطاب وغيرهم من الصالحين، يلحقهم نقص بجعل المشركين إياهم وسائط؟ حاشا وكلا!: {وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} ، وإنما كفّرنا هؤلاء الطواغيت، أهل الخرج وغيرهم، بالأمور التي يفعلونها هم؛ منها: أنهم يجعلون آباءهم وأجدادهم وسائط. ومنها: أنهم يدعون الناس إلى الكفر. ومنها: أنهم يبغضون عند الناس دين محمد صلى الله عليه وسلم، ويزعمون أن أهل العارض كفروا لما قالوا: لا يعبد إلا الله، وغير ذلك من أنواع الكفر.

وهذا أمر أوضح من الشمس، لا يحتاج إلى تقرير؛ ولكن أنت رجل جاهل مشرك، مبغض لدين الله، وتلبس على الجهال الذين يكرهون دين الإسلام، ويحبون الشرك ودين آباءهم. وإلا فهؤلاء الجهال، لو أن مرادهم اتباع الحق، عرفوا أن كلامك من أفسد ما يكون.

وأما المسألة الثالثة: وهي من أكبر تلبيسك الذي تلبس به على العوام، أن أهل العلم قالوا: لا يجوز تكفير المسلم بالذنب، وهذا حق، ولكن ليس هذا ما نحن فيه؛ وذلك أن الخوارج يكفّرون مَن زنى أو مَن سرق أو سفك الدم، بل كل كبيرة إذا فعلها المسلم كفر. وأما أهل السنة فمذهبهم: أن المسلم لا يكفر إلا بالشرك. ونحن ما كفّرنا الطواغيت وأتباعهم إلا بالشرك. وأنت رجل من أجهل الناس، تظن أن من صلى وادعى أنه مسلم لا يكفر. فإذا كنت تعتقد ذلك، فما تقول في المنافقين الذين يصلّون ويصومون ويجاهدون؟ قال الله تعالى فيهم: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ}. وما تقول في الخوارج الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لئن أدركتهم لأقتلنّهم قتل عاد. أينما لقيتموهم فاقتلوهم ". أتظنهم ليسوا من أهل القبلة؟ ما تقول في الذين اعتقدوا في علي بن أبي طالب

رضي الله عنه مثل اعتقاد كثير من الناس في عبد القادر وغيره، " فأضرم لهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه ناراً فأحرقهم بها، وأجمعت الصحابة على قتلهم، لكن ابن عباس أنكر تحريقهم بالنار، وقال: يقتلون بالسيف ". أتظن هؤلاء ليسوا من أهل القبلة؟ أم أنت تفهم الشرع وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يفهمونه؟ أرأيت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قاتلوا مَن منع الزكاة، فلما أرادوا التوبة، قال أبو بكر: لا نقبل توبتكم حتى تشهدوا أن قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار، أتظن أن أبا بكر وأصحابه لا يفهمون، وأنت وأبوك الذين تفهمون؟ يا ويلك أيها الجاهل الجهل المركب! إذا كنت تعتقد هذا، وأن مَن أمّ القبلة لا يكفر، فما معنى هذه المسائل العظيمة الكثيرة التي ذكرها العلماء في باب حكم المرتد، التي كثير منها في أناس أهل زهد وعبادة عظيمة؟ ومنها طوائف ذكر العلماء أن من شك في كفرهم فهو كافر. ولو كان الأمر على زعمك، لبطل كلام العلماء في حكم المرتد، إلا مسألة واحدة؛ وهي: الذي يصرح بتكذيب الرسول وينتقل يهودياً، أو نصرانياً أو مجوسياً ونحوهم، هذا هو الكفر عندك. يا ويلك! ما تصنع بقوله صلى الله عليه وسلم: " لا تقوم الساعة حتى تعبد فئام من أمتي الأوثان ". وكيف تقول هذا وأنت تقرّ أن من جعل الوسائط كفر؟ فإذا كان أهل العلم في زمانهم حكموا على كثير من أهل زمانهم بالكفر والشرك، أتظن أنكم صلحتم بعدهم؟ يا ويلك!

وأما استدلالك بالأحاديث التي فيها إجماع الأمة والسواد الأعظم، وقوله: " من شذ، شذ في النار " ، و" يد الله على الجماعة " ، وأمثال هذا، فهذا أيضاً من أعظم ما تلبس به على الجهال، وليس هذا معنى الأحاديث بإجماع أهل العلم كلهم؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر أن الإسلام سيعود غريباً، فكيف يأمرنا باتباع غالب الناس؟ وكذلك الأحاديث الكثيرة، منها قوله: " يأتي على الناس زمان، لا يبقى من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه "، وأحاديث عظيمة كثيرة، يبين صلى الله عليه وسلم أن الباطل يصير أكثر من

الحق، وأن الدين يصير غريباً. ولو لم يكن في ذلك إلا قوله صلى الله عليه وسلم: " ستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار، إلا واحدة " 4، هل بعد هذا البيان بيان؟ يا ويلك! كيف تأمر بعد هذا باتباع أكثر الناس؟

ومعلوم أن أهل أرضنا وأرض الحجاز، الذي ينكر البعث منهم أكثر ممن يقر به، وأن الذي يعرف الدين أقل ممن لا يعرفه، والذي يضيع الصلوات أكثر من الذي يحافظ عليها، والذي يمنع الزكاة أكثر ممن يؤديها، فإن كان الصواب عندك اتباع هؤلاء، فبيّن لنا! وإن كان عنْزة وآل ظفير وأشباههم من البوادي هو السواد الأعظم، ولقيت في علمك وعلم أبيك أن اتّباعهم حسن، فاذكر لنا! ونحن نذكر كلام أهل العلم في معنى تلك الأحاديث ليتبين للجهال الذين موَّهت عليهم.

قال ابن القيم، رحمه الله، في إعلام الموقعين: واعلم أن الإجماع والحجة والسواد الأعظم هو: العالم صاحب الحق، وإن كان وحده، وإن خالفه أهل الأرض..»[1] إلخ الرسالة الهامة.

نموذج آخر:

«وقد منّ الله عليكم بإقرار علماء المشركين بهذا كله، سمعتم إقرارهم أن هذا الذي يُفعل في الحرمين والبصرة والعراق واليمن، أن هذا شرك بالله، فأقروا لكم أن هذا الدين الذي ينصرون أهله، ويزعمون أنهم السواد الأعظم، أقروا لكم أن دينهم هو الشرك، وأقروا لكم أيضاً أن التوحيد الذي يسعون في إطفائه، وفي قتل أهله وحبسهم، أنه دين الله ورسوله، وهذا الإقرار منهم على أنفسهم من أعظم آيات الله، ومن أعظم نعم الله عليكم، ولا يبقى شبهة مع هذا إلا للقلب الميت الذي طبع الله عليه، وذلك لا حيلة فيه»[2].

---

[1] الرسائل الشخصية (ص226-237).

[2] «الرسائل الشخصية» (ص272).

تنبيه

أهل السنة لا يوالون و يعادون على حكم عالِم في حق معين

ينبغي أن يُعلم أننا في سياق نقدنا لمنهج إمام من الأئمة أو عالم من العلماء أو قاض من القضاة في هذا الباب، إنما يكفينا انضباط أصوله التقريرية واتزان تطبيقاته العملية بما يناسب ذلكم الانضباط، أما التوقف عند كل حكم حكم له فلا معنى لذلك، وليس له كبير ثمرة.

فلو قيل لنا ما رأيكم في منهجية القاضي الفلاني في باب التكفير، يكفينا أن ننظر في أصوله العلمية هل هي منضبطة أم لا ثم إلى تنزيله للأحكام هل هي متزنة أم لا، فإن كان ذلك كله منضبط عنده، فلا معنى بعد ذلك للخوض في كل حالة حالة ممن نزل عليها أحكامه **لأن هذا الباب يقع فيه اختلاف تصورات وتنوع مدارك ومن الوارد أن تخالفه في حالة أو اثنتين أو ثلاثة حكم عليها بالتكفير ولا تراها كذلك، وتخالفه في حالات أخرى فترى أنه تورع عن تكفيرها وهي مستحقة للتكفير.**

ومن نفس هذا الباب خوض من يخوض في بعض هذه الأسماء التي رأى الشيخ كفرها، لإثبات أنه كان لا يستحق التكفير، ليس له كبير معنى ولا ثمرة في باب تقييم منهج الشيخ، لأنه لا إشكال أصلا أن يخالف الشيخَ عالمٌ آخر عاش في زمانه واطلع على أحوال المذكورين فيري أن لهم حكما آخر وأن الشيخ أخطأ في حكمه، كما أنه لا إشكال في أن يختلف بعض علماء السلف في معين يكفره

أحدهم ويتوقف آخر، ولا إشكال في أن يختلف عالم مع ابن تيمية مثلا في حال شخص أو قوم فيرى فيهم حكما مخالفا، وهكذا، والشيخ نفسه كما تراه في النقول كان يناقش من يخالفه في حال هؤلاء المعينين نقاشا علميا يوضح فيه وجهة نظره فحسب.

فهذا كله لا إشكال فيه ما دام أن المختلفين ينطلقون من أصول علمية منضبطة، إلا أن عامة الخائضين في آراء الشيخ وأحكامه إنما ينطلقون من أصول لا تمت لأصول أهل السنة بصلة، فيحاكمونه لأصولهم هم، وهذا خلل منهجي بيِّن.

منهج الشيخ مَع من لم يقاتل الدعوة ولم يتبيّن في معاداة التوحيد وأهله

ولو كان من الواقعين في الشرك الأكبر

سواء كان من أهل الجهات التي تقاتله أو خارج دائرة الصراع تماما

«وأخاف أن يطول الكلام فيجري فيه شيء يزعلكم!»

الشيخ لبعض المخالفين

حددنا الدائرة الضيقة التي تناولتها أحكام التكفير التطبيقي على الأرض في أدبيات الشيخ وأئمة الدعوة، وبينَّا أن عامة هذه الأدبيات كانت تدور في دائرة القتال والصراع الديني فحسب وكانت موجهة بالدرجة الأولى إلى رؤوس المقاتلين، وقد سُقْت فيما سبق بعض أدلتي على هذا الكلام، ووعدت بطرح أدلة أخرى تدعم تقريري هذا.

وهنا يأتي ما وعدنا به، فهذا الفصل خصصته لإيضاح منهج الشيخ وطريقته في التعامل مع كل **مَن لم يقتحم الصراع الديني** سواء كان من أبناء الجهات التي تقاتل الشيخ ، أو كان خارج دائرة الصراع كلها، وسواء كان من أفراد أو أُسَر أو جهات أو بلدان مجاورة، وهو المنهج العام للشيخ وأئمة الدعوة الذي أرى أنه كان سيطبقه مع الجهات التي قاتلته لو لا أنها هي التي اختارت طريق السيف.

فنقول: لقد بدأت كثير من الجهات داخل دائرة الصراع وخارجها بعد وقوع القتال بمراسلة الشيخ تطلب منه بيان ما هو عليه وتستفسره عن الإشاعات حوله، فبعض العقلاء لم ينجر للصراع والتأليب على الشيخ ودعوته ابتداءً بل رأى أن يستوضح حقيقة ما عليه الشيخ وما يدعو له ولم ينجر خلف الشائعات والأكاذيب، ومنهم مَن عرف ما عليه الشيخ لكن كانت لديه شبه وإشكالات، وسنجد من الشيخ فرحًا أولًا بمثل هذا الصنف، ثم أدبًا جمًّا في الحديث معهم، مع أن عامتهم لم يعرفوا حقيقة التوحيد بعد، ونلاحظ أن الشيخ يحرص كل الحرص على التجاوب معهم سواء كانوا من العامة أو كانوا من الرؤساء الذين يُمَثِّل انقيادهم للحق إضافة كبيرة للدعوة في بيئة تتبع رؤوسها، بل يحرص على دعوة بعضهم والقدوم عليهم واستضافتهم لمعرفة حقيقة ما يدعو إليه، بل ترى في بعضها تأثُّر الشيخ وحزنه مِن انطلاء الشائعات على بعض من يحبهم ممن كانت تجمعه به أواصر مودة وأخوة ، ونلاحظ مع هؤلاء حرصه التام على إعادة صلة المودة والحب التي كانت تجمعهم[1]، وأمثلة هذا كثيرة جدا في تراث الشيخ ثم أئمة الدعوة.

---

[1] من أكثر من أظهر هذا معهم: عبد الله بن عيسى وابنه عبد الوهاب.

ولهذا سنقوم هنا ببيان موقف الشيخ من المناطق والجهات والبلدان التي لم تعادِه ولم تشارك في الصراع ضده وضد عقيدته، **ولكنها في الوقت ذاته لا تتبنى عقيدة التوحيد منهجًا لها بل تتبنى ما هو سائد وقتها من عبادة القبور.**

لقد بقي الشيخ منشغلا بالعلم والدعوة لأكثر من ثلاثين سنة، يصنف ويؤلف ويدعو ويبين، ثم بدأ القتال واستمر سنوات طوال يجاهد تارة بالحجة والبيان وتارة بالسيف والسنان، وقد كان ذلك كله كفيلا بوصول الدعوة والحجة وبلوغ المحجة للمناطق المجاورة، كالحجاز، إلا أن دعوة الشيخ كان قد لحقها على يد أعدائه أثقال من التشويه والكذب والبهتان، فوصلت إلى تلك المناطق مغلوطة مكذوبة، وهذا هو السبب الرئيس –فيما نرى– في عُذر الشيخ لأهل المناطق والبلدان المجاورة وعدم مؤاخذتهم على عدم تبنيهم لعقيدة التوحيد، وملاطفتهم غاية الملاطفة والتأدب معهم غاية الأدب، وبيان عقيدته وما يقاتل عليه وسبب قتاله لهم، ومراسلتهم برسائل علمية للمناصحة والدعوة...

وإذا كان هذا هو موقف الشيخ مع البلاد المجاورة لنجد كالحجاز، فكيف سيكون موقفه ممن هم أبعد من ذلك، ممن وصلهم خبر دعوته على يد أعدائه مشوَّهًا مجتزءًا مبتورًا!

ولهذا كررنا مرارًا أن أدبيات التكفير في تراث الشيخ وأتباعه تعالج وضعًا داخليًّا في منطقة صغيرة جدا من العالم، ثم تكفير المعينين يتناول دائرة أضيق وأضيق، وهذه الظروف أعداء الشيخ هم الذين هيؤوا أجواءها ولم يسعَ هو لها.

ويحق لنا أن نسأل: إن أكثر الدول الإسلامية في ذلك الوقت لا تتخذ أية إجراءات لمحاربة الشرك وإقامة شعائر التوحيد بل تحارب دعاة التوحيد، وتتبنى الشرك رسميًّا، فلماذا لم يناد الشيخ بحروب دينية مقدسة في كل بلدان العالم الإسلامي، لماذا لم يوجه نداءً عامًا للخروج على الحكومات التي تتبنى الشرك وخلع ربقة الطاعة عنها وإسقاطها.

لماذا هذا الأدب الجم في مخاطبة الآخرين مما سنورده في الرسائل التالية؟

لا أجد جوابا غير ما قدمناه من أن هذه الدعوة في أصلها دعوة علمية تصحيحية تجديدية همها الرئيس هو تصحيح عقائد الناس لا غير، فمن فتح لها يده وقلبه فذاك، ومَن اعتدى عليها فلا يلومَنَّ إلا نفسه.

ونريد أن نركز تركيزًا بالغًا على أن الشيخ أرسل بعض المراسلات التالية كالرسالة الأولى وعمره سبعون سنة بل أرسل إحداها قبل موته بسنتين! أمضى أكثرها في العلم والدعوة، وجزءا كبيرا منها في القتال دفاعًا عن دعوته، ومع هذا فبقي معه منهجه في العذر بالجهل والتلطف والأدب في المناصحة وإقامة الحجج.

بل وبعض هؤلاء الذين تأدب معهم كان قد سَجَن أتباع الدعوة ومنعهم من إقامة شعائر الحج، فحاول الشيخ التلطف معهم تلطفا بالغا ليأذنوا فقط لأتباعه بالحج!

ويغلب على ظني أن كمًّا كبيرا من هذه المراسلات العلمية قد فُقِد وهذا واضح لمن تأمل في مواضيعها وحجمها، وننتقي مما وصلنا النماذج التالية مما يبين أسلوب الشيخ مع مَن أظهر الرغبة في معرفة الحق ولم يبادر إلى معاداة الشيخ ودعوته، فلا نجد تكفيرا أو تنفيرا أو ترهيبًا بل أدب جم وأسلوب في قمة الحُسن:

الأمثلة:

أولا: منهج الشيخ في التعامل مع رؤوس البلدان المجاورة:

أشراف مكة أنموذجا:

يقول ابن غنام[1] :

وفيها – أي في السنة الخامسة والثمانين بعد المائة والألف- أرسل الشيخ وعبد العزيز إلى والي مكة أحمد بن سعيد الشريف **هدايا**، وكان قد كاتبهم وراسلهم وطلب منهم أن يرسلوا فقيهًا و عالمًا من جماعتهم يبين لهم حقيقة ما يدعون إليه من الدين، ويحضر عند علماء مكة، فأرسل الشيخ وعبد العزيز إليه الشيخَ عبد العزيز الحصين، وكتب معه إلى الشريف رسالة، وهذه نسختها:

«بسم الله الرحمن الرحيم، المعروض لديك أدام الله فضل نعمه عليك، **حضرة الشريف** أحمد بن الشريف سعيد، **أعزه الله تعالى في الدارين، وأعز به دين جده سيد الثقلين**، أن الكتاب لما وصل إلى الخادم وتأمل ما فيه من الكلام الحَسَن، رفع يديه بالدعاء إلى الله تعالى **بتأييد الشريف، لما كان قصده نصر الشريعة المحمدية ومَن تبعها**، وعداوة من خرج عنها، وهذا هو الواجب على ولاة الأمور، ولما طلبتم من ناحيتنا طالب علم امتثلنا الأمر وهو واصل إليكم، ويحضر في مجلس الشريف، فإن اجتمعوا فالحمد لله على ذلك، وإن اختلفوا أحضر الشريف كتبهم وكتب الحنابلة والواجب على كل منا ومنهم أن يقصد بعلمه وجه الله...».

---

[1] (2/ 789).

وأرجو من القاريء أن يلاحظ معي أن علماء مكة وشريفها كانوا لا يرون حرمة الاستغاثة بالصالحين، بدليل ما بيّنه في الرسالة نفسها من أن مسألة دعوة الصالحين هي أحد المسائل التي دار النقاش حول حكمها، فقال لهم الشيخ عبد العزيز الحصين: أما دعوة الصالحين وطلب الشفاعة منهم والاستغاثة بهم في النوازل فقد نصّ عليه الأئمة الفواضل، وقرروه من الشرك الذي فعله الأوائل...فأحضروا من كتب الحنابلة الإقناع فرأوا عبارته في الوسائط وحكايته الإجماع، فصار لهم بتلك العبارة اقتناع ولهم إلى الإقرار إسراع وتفوّهوا بأن هذا دين الله، وانتشر فيما بينهم وشاع وقالوا هذا مذهب الإمام المعظم»[1].

كما أرجو من القاريء الكريم أن يتنبه إلى أن أشراف مكة كانوا ممثلين للدولة العثمانية في الحجاز، فنلاحظ هنا ما هو المنهج الذي اتبعته الدعوة في التعامل مع الدولة العثمانية وولاتها ووكلائها ومن الذي بدأ بالحشد والعداء، وفيما يأتي مزيد من الأمثلة.

مثال آخر:

كان الشيخ كما قدَّمنا ومَن معه حريصين على ملاطفة أشراف مكة حتى مع وقوع الظلم عليهم وعلى أتباعهم الذي بلغ لدرجة منعهم من أداء مراسم الحج:

يقول ابن غنام[2]: وفيها –السنة السابعة والتسعون بعد المائة والألف– أهدى عبد العزيز إلى سرور والي مكة **خيلا وركابا**، وكرّمه بذلك وشرّفه، وقصده بذلك

[1] ولكن كالعادة وبسبب علماء السوء انقلب الأمر عند أشراف مكة وعادوا دعوة الشيخ بعد ذلك.

[2] (2/ 849)

التشريف والإكرام..الرخصة لأهل الدين والإسلام، في أداء واجب الافتراض والتزام، خامس أركان هذا الدين..**الذي مُنِعُوه من سنين!**.

مثال ثالث:

يقول ابن غنام[1]:

وفيها – أي سنة أربع ومائتين بعد الألف- أرسل غالب الشريف [شريف مكة] إلى عبد العزيز [أي ابن محمد بن سعود] كتابا وذكر في أثنائه أنه يريد إنسانًا عارفًا من أهل الدين، حتى يعرف حقيقة هذا الأمر المبين..فأرسل إليه عبد العزيز الحصين كي يشرح له..، وكتب معه الشيخ إليه رسالة بيّن فيها دعوته ومقاله، ونصها بعد البسملة:

من محمد بن عبد الوهاب إلى **العلماء الأعلام في البلد الحرام** نصر الله بها سيد الأنام...[ثم تحدث الشيخ عن الإشاعات التي يروجها أعداؤه وتبرأ منها إلى أن قال]: وأنتم تعلمون أن في ولاية الشريف أحمد بن سعيد[2] وصل إليكم الشيخ عبد العزيز [الحصين]، وأشرفتم على ما عندنا بعدما أحضروا كتب الحنابلة التي عندنا عمدة، كالتحفة والنهاية للشافعية، فلما طلب منا الشريف غالب **أعزه الله ونصره** امتثلنا، وهو إليكم واصل، فإن كانت المسألة إجماعًا فلا كلام، وإن كانت مسألة اجتهاد فمعلومكم أنه لا إنكار في مسائل الاجتهاد، فمَن عمل بمذهبه في محل ولايته لا يُنكر عليه، وأنا أشهد الله وملائكته وأشهدكم أني على دين الله ورسوله، وأني متبع لأهل العلم، والسلام عليكم».

أقول: فتأمل أدب الشيخ الجم مع علماء مكة وأمرائها وتواضعه لهم.

---

[1] (2/ 886- 887).

[2] كما في النقل الفائت.

ثم تأمل حكمته ودقه فهمه وفقهه في السياسة الشرعية فأتى بهذا الدر المنظوم لما قال: «فإن كانت المسألة إجماعًا فلا كلام، وإن كانت مسألة اجتهاد فمعلومكم أنه لا إنكار في مسائل الاجتهاد، فمَن عمل بمذهبه في محل ولايته لا يُنكر عليه».

عندما دخل الأشراف دائرة الصراع الديني:

قضية أشراف مكة هذه من أهم القضايا التي توضح بجلاء ما أقرره في هذا البحث من أن أية طائفة في زمن الشيخ وأئمة الدعوة لم تقتحم دائرة القتال الديني ، وتعلن الحرب على الدعوة دينيًّا فإن أدبيات الدعوة معها تكون على الصورة المشروحة من الاعتذار لهم ثم الأدب والتلطف.

فإن قررت هذه الطائفة اقتحام الصراع الديني تغيرت الأدبيات معها.

فقد أدى هذا الأدب الجم والتلطف من الشيخ مع شريف مكة إلى حُسن العلاقة بينهما والاقتناع بدعوة الشيخ، إلا أن علماء السوء في مكة لم يقبلوا أن يسكتوا عن صفاء الأجواء هذا لأنك خبير أن في تقريب الأشراف لعلماء نجد إسقاط تلقائي لعلماء مكة الساكتين دهرا عن الشركيات وحكمها.

أفسد علماء السوء بين الأشراف والدعوة وقالوا للشريف: «هؤلاء الجماعة ليس عندهم بضاعة، إلا إزالة نهج آبائك وأجدادك، ورفع يدك عن معتادك، وجوائز بلادك»[1].

فقرر الأشراف للأسف الدخول في دائرة الصراع الديني، وإذ بحلقة جديدة من التحالفات ضد الشيخ ودعوته تظهر على السطح، تحالف حجازي غربي (غرب

---

[1] «ابن غنام» (2/ 887).

نجد)، حيث يقوم الشريف غالب هذه المرة بقيادة الجيوش والأحزاب من حضر وبدو وأعراب، ما لا يكاد يحصر رقمه، مع حشد البدوان من كل شعب وفج..ووسع دائرة تحالفاته «فلم يدع بلدا ولا قرية له ولا حوله يظن منها الإعانة إلا أرسل لها فورًا»[1] وبهذه الجيوش الجرارة تحرك لغزو نجد، وإطفاء نور الدعوة، ولكن الله متم نوره.

ومع هذا كله فقد كان من عادة الشيخ ومَن تربوا على يده ألا يترددوا في مد يد السلام والصفح والعفو لمَن مد إليهم يده، ولو كان مضى منه ما مضى من جناية في حق الدعوة، ففي سنة إحدى عشرة ومائتين بعد الألف، جنح الشريف غالب للسلم، فجنح لها عبد العزيز بن محمد بن سعود، وطلب الشريف الصلح وأبدى رغبته في قيام مناظرات علمية بين أبناء الدعوة النجدية وخصومهم لعله ينجلي له الحق من تحت ركام الإشاعات، فرحب عبد العزيز بذلك وأرسل له مجموعة من نوابغ أبناء الدعوة، وكان كبيرهم حمد بن ناصر بن معمر[2]، إلا أن علماء السوء كالعادة حالوا دون تمام هذا الصلح[3].

ثانيًا: مراسلات الشيخ مع بعض رؤوس الأسر والجهات في نجد.

نسوق هنا أنموذجا لمنهج الشيخ مع رؤوس الأسر والمناطق والجهات في نجد ممن لم يقتحم دائرة الصراع الديني المسلح:

---

[1] «ابن غنام» (2/ 887-890).

[2] في «تاريخ ابن غنام» (2/ 972 وما بعدها) وقائع تلك المناظرة وما جرى فيها من كلام حمد بن ناصر، وهي من أنفس رسائل أئمة الدعوة النجدية على الإطلاق، سنوردها بإذن الله في كتابنا «الحجة البالغة» من سلسلة «الانتصار للدعوة النجدية».

[3] «ابن غنام» (2/ 966-972).

«من محمد بن عبد الوهاب، إلى الشيخ فاضل آل مزيد، زاده الله من الإيمان، وأعاذه من نزعات الشيطان.

أما بعد، فالسبب في المكاتبة: أن راشد بن عربان ذكر لنا عنك كلاماً حسناً سرّ الخاطر، وذكر عنك أنك طالب مني المكاتبة بسبب ما يجيك عنا من كلام العدوان، من الكذب والبهتان؛ وهذا هو الواجب من مثلك: أنه لا يقبل كلاماً إلا إذا تحققه»[1].

ثالثًا: مراسلات الشيخ مع بعض علماء الجهات الأخرى.

نسوق هنا بعض النماذج لمنهج الشيخ مع العلماء الذين يرفضون رأيه أو يختلفون معه أو يستشكلون ما يطرح أو يختلفون معه في بعض المسائل الأخرى من الأسر والمناطق والجهات في نجد ممن لم يقتحم دائرة الصراع الديني المسلح:

المثال الأول:

(رسالة أرسلها إلى السويدي، عالم من أهل العراق، وكان قد أرسل له كتاباً وسأله عما يقول الناس فيه، فأجابه بهذه الرسالة، ومطلعها):

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الوهاب، إلى عبد الرحمن بن عبد الله، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد، فقد وصل كتابك وسر الخاطر، جعلك الله من أئمة المتقين، ومن الدعاة إلى دين سيد المرسلين»[2].

المثال الثاني:

---

[1] (ص32).

[2] (ص33).

«من محمد بن عبد الوهاب، إلى عبد الوهاب بن عبد الله بن عيسى، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد، إن تفضلتم بالسؤال، فنحمد الله إليكم الذي لا إله إلا هو، ونحن بخير وعافية، جعلكم الله كذلك وأحسن من ذلك. وأبلغوا لنا الوالد السلام، سلمه الله من خزي الدنيا وعذاب الآخرة. وغير ذلك، في نفسي عليه بعض الشيء، من جهة المكاتيب لما حبسها عنا، هجسنا فيه الظن الجميل، ثم بعد ذلك سمعنا بعض الناس يذكر أنه معطيها بعض السفهاء يقرؤونها على الناس. وأنا أعتقد فيه المحبة، وأعتقد أيضاً أن له غاية وعقلاً، **وهو صاحب إحسان علينا وعلى أهلنا**، فلا ودي يعقبه بالأذى، ويكدر هذه المحبة بلا منفعة في العاجل والآجل. وأنا إلى الآن ما تحققت ذلك وهوجس فيه بالهاجوس الجيد. وذكر أيضاً عنه بعض الناس بعض الكلام الذي يشوش الخاطر. فإن كان يرى أن هذا ديانة، ويعتقده من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأنا، ولله الحمد، لم آت الذي أتيت بجهالة، وأشهد الله وملائكته أنه إن أتاني منه أو ممن دونه، في هذا الأمر كلمة من الحق، لأقبلنّها على الرأس والعين، وأترك قول كل إمام اقتديت به، حاشا رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فإنه لا يفارق الحق.... ومن أدلة شيخ الإسلام: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ} الآية، فقد

فسرها رسول الله صلى الله عليه وسلم والأئمة بعده، بهذا الذي تسمونه: الفقه...»[1]

مثال ثالث:

من رسالة لعبد الوهاب بن عبد الله بن عيسى: «وإن كنت تظن في خاطرك أنا نبغي أن نداهنك في دين الله، ولو كنت أجل عندنا مما كنت، فأنت مخالف؛ فإن كنت تتهمني بشيء من أمور الدنيا فلك الشرهة فإن كان إني أدعو لك في سجودي، **وأنت وأبوك أجل الناس إلي وأحبهم عندي**، وأمرك هذا أشق علي من أمر أهل الحسا، خصوصاً بعد ما استركبت أباك وخربته. فعسى الله أن يهدينا وإياك لدينه القيم، ويطرد عنا الشيطان ويعيذنا من طريق المغضوب عليهم والضالين»[2].

مثال رابع:

«من محمد بن عبد الوهاب، إلى عبد الله بن عيسى وعبد الوهاب، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد، فقد ذكر لي أنكم زعلانين علي في هذه الأيام بعض الزعل، ولا يخفاكم أني زعلان زعلاً كبيراً، وناقد عليكم نقوداً أكبر من الزعل، ولكن وابطناه! واظهراه! ومعي في هذه الأيام بعض تنغص المعيشة والكدر، مما يبلغني عنكم.

---

[1] «الرسائل الشخصية» (ص276).

[2] «الرسائل الشخصية» (ص280-281).

والله سبحانه إذا أراد أمراً فلا راد له، وإلا ما خطر على البال أنكم ترضون لأنفسكم بهذا. ثم من العجب كفكم عن نفع المسلمين في المسائل الصحيحة، وتقولون: لا يتعين علينا الفتيا، ثم تبالغون في مثل هذه الأمور، مثل التذكير الذي صرحت الأدلة والإجماع وكلام الإقناع بإنكاره، ولا ودي أنكم بعد ما أنزلكم الله هذه المنْزلة، وأنعم عليكم بما تعلمون وما لا تعلمون، وجعلكم من أكبر أسباب قبول الناس لدين ربكم وسنة نبيكم، وجهادكم في ذلك وصبركم على مخالفة دين الآباء، أنكم ترتدون على أعقابكم.

وسبب هذا، أنه ذكر لي عنكم: أنكم ظننتم أني أعنيكم ببعض الكلام الذي أجبت به من اعتقد حل الرشوة، وأنه مزعلكم. فيا سبحان الله! كيف أعنيكم به، وأنا كاتب لكم تسجلون عليه، وتكونون معي أنصاراً لدين الله؟ وقيل لي: إنكم ناقدون علي بعض الغلظة فيه على ملفاه، والأمر أغلظ مما ذكرنا...

وأنتم من قديم لا تشكّون فيّ، والآن غايتكم قريبة وداخلتكم الريبة، **وأخاف أن يطول الكلام فيجري فيه شيء يزعلكم، وأنا فيّ بعض الحدة**، فأنا أشير عليكم وألزم أن عبد الوهاب **يزورنا** سواء كان يومين وإلا ثلاثة، وإن كان أكثر يصير قطعاً لهذه الفتنة، ويخاطبني وأخاطبه من الرأس. وإن كان كبر عليه الأمر، فيوصي لي وأعني له؛ **فإن الأمر الذي يزيل زعلكم ويؤلف الكلمة ويهديكم الله بسببه نحرص عليه**، ولو هو أشق من هذا، اللهم إلا أن تكونوا ناظرين شيئاً من

أمر الله، فالواجب عليكم اتباعه، والواجب علينا طاعتكم والانقياد لكم، وإن أبينا كان الله معكم وخلقه.

ولا يخفاكم أنه وصلني أمس رسالة في صفة مذاكرتكم في التذكير، وتطلبون مني جواباً عن أدلتكم، وأنتم ضحكتم على ابن فيروز، وتسافهتموه وتساخفتم عقله في جوابه، وانحرفتم تعدلون عداله؛ لكن ما أنا بكاتب لهم جواباً لأن الأمر معروف أنه منكم، وأخاف أن أكتب لهم جواباً فينشرونه فيزعلكم، وأشوف غايتكم قريبة، وتحملون الأمر على غير محمله»[1].

وأعجبني في هذا النقل قول الشيخ: «وأخاف أن يطول الكلام فيجري فيه شيء يزعلكم، وأنا فيّ بعض الحدة!»

الذي يبين مدى حرصه على الإبقاء على مودة أحبابه ولو انجرّوا خلف الشائعات والأكاذيب.

مثال خامس:

«من محمد بن عبد الوهاب، إلى عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف، حفظه الله تعالى ؛ سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد، فقد وصل إلينا من ناحيتكم مكاتيب، فيها إنكار وتغليظ عليّ، ولما قيل: إنك كتبت معهم، وقع في الخاطر بعض الشيء، لأن الله سبحانه نشر لك

---

[1] «الرسائل الشخصية» (ص314-315).

من الذكر الجميل، وأنزل في قلوب عباده لك من المحبة ما لم يؤته كثيراً من الناس، لما يذكر عنك من مخالفة من قبلك من حكام السوء، وأيضاً لما أعلم منك من محبة الله ورسوله، وحسن الفهم، واتباع الحق ولو خالفك فيه كبار أئمتكم، لأني اجتمعت بك من نحو عشرين ، وتذاكرت أنا وإياك في شيء من التفسير والحديث، وأخرجت لي كراريس من البخاري كتبتها ونقلت على هوامشها من الشروح، وقلت في مسألة الإيمان التي ذكر البخاري في أول الصحيح: هذا هو الحق الذي أدين الله به، فأعجبني هذا الكلام، لأنه خلاف مذهب أئمتكم المتكلمين. وذاكرتني أيضاً في بعض المسائل، فكنت أحكي لمن يتعلم مني ما منّ الله به عليك من حسن الفهم، ومحبة الله والدار الآخرة. فلأجل هذا، لم أظن فيك المسارعة في هذا الأمر، لأن الذين قاموا فيه مخطئون على كل تقدير، لأن الحق إن كان مع خصمهم فواضح، وإن كان معهم فينبغي للداعي إلى الله أن يدعو بالتي هي أحسن، إلا الذين ظلموا منهم.

وقد أمر الله رسوليه موسى وهارون أن يقولا لفرعون قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى.

وينبغي للقاضي، أعزه الله بطاعته، لما ابتلاه الله بهذا المنصب، أن يتأدب بالآداب التي ذكرها الله في كتابه الذي أنزل ليبين للناس ما اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يوقنون...»[1].

---

[1] «الرسائل الشخصية» (251-252).

رابعًا: مراسلات الشيخ لأفراد وجهات شتى يستفهمون عن حقيقة ما يدعو إليه وسبب القتال فيجيبهم الشيخ بكل أدب وود:

المثال الأول:

«الحمد لله الذي نزل الحق في الكتاب، وجعله تذكرة لأولي الألباب، ووفق مَنْ مَنَّ عليه من عباده للصواب، لعنوان الجواب، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه ورسوله، وخيرته من خلقه، محمد وعلى آله وشيعته وجميع الأصحاب، ما طلع نجم وغاب، وانهل وابل من سحاب.

من عبد العزيز بن محمد بن سعود ومحمد بن عبد الوهاب، إلى الأخ في الله: أحمد بن محمد العديلي البكبلي، سلمه الله من جميع الآفات، واستعمله بالباقيات الصالحات، وحفظه من جميع البليات، وضاعف له الحسنات، ومحا عنه السيئات؛ سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد، لقانا كتابكم، وسر الخاطر بما ذكرتم فيه من سؤالكم، وما بلغنا على البعد من أخباركم، وسؤالكم عما نحن عليه، وما دعونا الناس إليه؛ فأردنا أن نكشف عنكم الشبهة بالتفصيل، ونوضح لكم القول الراجح بالدليل، ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يسلك بنا وبكم أحسن منهج وسبيل»[1].

مثال ثاني:

ووردت للشيخ رسالة جاء فيها:

---

[1] «الرسائل الشخصية» (ص94).

«من إسماعيل الجراعي إلى من وفقه الله: محمد بن عبد الوهاب، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...

أما بعد، بلغني على ألسن الناس عنك، ممن أصدق علمه وما لا أصدق؛ والناس اقتسموا فيكم بين قادح ومادح. فالذي سرني عنك: الإقامة على الشريعة في آخر هذا الزمان، وفي غربة الإسلام، أنك تدعو به، وتقوم أركانه. فوالله الذي لا إله غيره، مع ما نحن فيه عند قومنا، ما نقدر على ما تقدر عليه من بيان الحق والإعلان بالدعوة.

وأما قول من لا أصدق: أنك تكفّر بالعموم، ولا تبغي الصالحين، ولا تعمل بكتب المتأخرين. فأنت أخبرني واصدقني بما أنت عليه، وما تدعو الناس إليه، ليستقر عندنا خبرك ومحبتك».

فأجابه الشيخ:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الوهاب، إلى إسماعيل الجراعي، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...

أما بعد، فما تسأل عنه، فنحمد الله الذي لا إله غيره، ولا رب لنا سواه، فلنا أسوة، وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام أجمعين. وأما ما جرى لهم مع قومهم، وما جرى لقومهم معهم، فهم قدوة وأسوة لمن اتبعهم.

وأما القول: إنا نكفّر بالعموم، فذلك من بهتان الأعداء الذين يصدون به عن هذا الدين؛ ونقول: سبحانك هذا بهتان عظيم! وأما الصالحون، فهم على

صلاحهم، رضي الله عنهم، ولكن نقول: ليس لهم شيء من الدعوة، قال الله: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُو مَعَ اللَّهِ أَحَداً}.

وأما المتأخرون، رحمهم الله، فكتبهم عندنا، فنعمل بما وافق النص منها، وما لا يوافق النص لا نعمل به...»[1]

مثال ثالث:

«إلى الأخ حسن، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد، سرني ما ذكرت من الإشكال..»[2]

مثال رابع:

«الذي يعلم من وقف عليه من الإخوان المتبعين محمداً صلى الله عليه وسلم أن ابن صياح سألني عما ينسب إليَّ، فطلب مني أن أكتب الجواب، فكتبته..»[3]

مثال خامس:

«من محمد بن عبد الوهاب، إلى عبد الله بن سحيم، حفظه الله تعالى؛ سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد، فقد وصل كتابك، تطلب شيئاً من معنى كتاب المويس الذي أرسل لأهل الوشم؛ وأنا أجيبك عن الكتاب جملة؛ فإن كان الصواب فيه فنبهني

---

[1] «الرسائل الشخصية» (ص100-101).

[2] «الرسائل الشخصية» (ص121).

[3] «الرسائل الشخصية» (ص52).

وأرجع إلى الحق، وإن كان الأمر كما ذكرت لك من غير مجازفة بل أنا مقتصر، فالواجب على المؤمن أن يدور مع الحق حيث دار»[1].

مثال سادس:

«من محمد بن عبد الوهاب، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، إلى محمد بن سلطان، سلمه الله تعالى.

وبعد، لا يخفاك أنه ذكر لنا عنك كلام حسن، ويذكر أيضاً كلام ما هو بزين. **وننتظر قدومك إلينا ونبين لك**، عسى الله أن يهدينا وإياك الصراط المستقيم. وجاءنا عنك أنك تقول: أبغيكم تكتبون لي الدليل من قول الله وقول رسوله وكلام العلماء، على كفر الذين ينصبون أنفسهم للنذور، والنخي في الشدائد، ويرضون بذلك، وينكرون على من زعم أنه شرك. ويذكرون عنك أنك تقول: أبغي أعرضه على العلماء في الخرج وفي الأحساء؛ ولكم عليّ أني ما أقبل منهم الطفايس والكلام الفاسد. فإن بينوا حجة صحيحة من الله ورسوله أو عن العلماء تفسد كلامكم، وإلا اتبعت أمر الله ورسوله، واعتقدت كفر الطاغوت ومَن عبدهم، وتبرأت منهم.

فإن كنت قلت هذا، فهو كلام حسن، وفقك الله لطاعته. ولا يخفاك أني أعرض هذا من سنين على أهل الأحساء وغيرهم، وأقول: كل إنسان أجادله بمذهبه: إن كان شافعياً فبكلام الشافعية، وإن كان مالكياً فبكلام المالكية، أو حنبلياً أو

---

[1] «الرسائل الشخصية» (ص130).

حنفياً، فكذلك، فإذا أرسلت إليهم ذلك عدلوا عن الجواب، لأنهم يعرفون أني على الحق وهم على الباطل؛ وإنما يمنعهم من الانقياد التكبر والعناد على أهل نجد..

وأوصيك بالبحث عنه والحرص عليه. وأحذرك عن الهوى والتعصب؛ بل اقصد وجه الله، واطلب منه، وتضرع إليه أن يهديك للحق. وكن على حذر من أهل الأحساء، أن يلبسوا عليك بأشياء لا ترد على المسألة، أو يشبّهوا عليك بكلام باطل، كما قال تعالى: {وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}. وأنا أُشهد الله وملائكته، إن أتاني منهم حق لأقبلنّه على الرأس والعين. ولكن هيهات أن يقدر أحد أن يدفع حجج الله وبيّناته»[1].

مثال سابع:

رسالة أرسلها إلى عبد الرحمن بن ربيعة، مطوع أهل ثادق، وهي هذه:

«من محمد بن عبد الوهاب، إلى عبد الرحمن بن ربيعة، سلَّمه الله تعالى.

وبعد، فقد وصل كتابك، تسأل عن مسائل كثيرة، وتذكر أن مرادك اتباع الحق؛ منها مسألة التوحيد»[2].

---

[1] «الرسائل الشخصية» (ص144، 145).

[2] «الرسائل الشخصية» (ص166).

مثال ثامن:

«وبعد، الخط وصل، أوصلك الله إلى رضوانه، وسر الخاطر حيث أَخبر بطيبكم»[1].

مثال تاسع:

«من محمد بن عبد الوهاب، إلى الأخ حمد التويجري، ألهمه الله رشده؛ سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد، وصل الخط، أوصلك الله ما يرضيه»[2].

مثال عاشر:

ومنها رسالة أرسلها جواباً لرجل من أهل الحسا، يقال له: أحمد بن عبد الكريم، وكان قد عرف التوحيد، وكفر المشركين. ثم إنه حصل له شبهة في ذلك، بسبب عبارات رآها في كلام الشيخ تقي الدين، ففهم منها غير مراد الشيخ، رحمه الله، قال فيها:

«من محمد بن عبد الوهاب، إلى أحمد بن عبد الكريم؛ سلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

أما بعد، فقد وصل مكتوبك تقرر المسألة التي ذكرت، وتذكر أن عليك إشكالاً تطلب إزالته..»[1]

---

[1] «الرسائل الشخصية» (ص44).

[2] «الرسائل الشخصية» (ص60).

المثال الحادي عشر:

وقد يخاطب الشيخ الناس بلغة عامية نجدية ليكون أقرب للفهم كما تجده في رسائله الشخصية[2].

المثال الثاني عشر:

بل يستسمح ممن قد يكون أحد أتباعه غلظ الكلام معه:

«من محمد بن عبد الوهاب، إلى أحمد بن يحيى، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد، ما ذكرت من طرف مراسلة سليمان، فلا ينبغي أنها تزعلك:

الأولى: أنه لو خالف، فمثلك يحلم ولا يأتي بغايته هذا ولا أكثر منه.

وثانيا: إنك إذا عرفت أن كلامه ما له فيه قصد إلا الجهد في الدين ولو صار مخطئاً، فالأعمال بالنيات؛ والذي هذا مقصده، يغتفر له، ولو جهل عليك. ونحن ملزمون عليك لزمة جيدة، وربك ونبيك ودينك لزمتهم لزمة تتلاشى فيها كل لزمة»[3].

---

[1] «الرسائل الشخصية» (ص216).

[2] «الرسائل الشخصية» (ص322،292).

[3] «الرسائل الشخصية» (ص300).

المثال الثالث عشر:

قوله في بعض لرسائله لبعض الأشخاص: «فتأمل هذا الكلام بشراشر قلبك، ثم نزله على أحوال الناس وحالك، وتفكر في نفسك وحاسبها، بأي شيء تدفع هذا الكلام؟ وبأي حجة تحتج يوم القيامة على ما أنت عليه؟ فإن كان عندك شبهة، فاذكرها فأنا أبينها، إن شاء الله تعالى.

والمسألة مثل الشمس، ولكن من يهدِ الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وإن لم يتسع عقلك لهذا، فتضرع إلى الله بقلب حاضر، خصوصاً في الأسحار أن يهديك للحق ويريك الباطل باطلاً. وفر بدينك، فإن الجنة والنار قدامك؛ والله المستعان. ولا تستهجن هذا الكلام، فوالله ما أردت به إلا الخير»[1].

المثال الرابع عشر:

ومن الرسائل ذات الأسلوب الحسن رسالته إلى مطوع ثرمداء[2].

---

[1] «الرسائل الشخصية» (ص305).

[2] «الرسائل الشخصية» (ص16).

ما الذي استثنى هؤلاء المذكورين؟

وهنا أسأل القاريء الكريم في ضوء ما تقدم، لو أن أعداء الشيخ لم يختاروا خيار القتال ولم يلجؤوا للسيف، فما هو المنهج الذي كان سيطبقه معهم؟

وأنا لا أجد جوابا على هذا سوى أنه سيستمر بنفس منهجه المذكور هذا من المناصحة والملاطفة والدعوة بالحكمة والتلطف ونشر التوحيد.

فقد كان هذا هو المنهج الذي يسلكه الشيخ مع الجميع فلما اختار البعض السيف وقطعوا كل السبل أمام الدعوة واختاروا الموت في سبيل شركهم وتأليب الناس عليه أغلظ الشيخ القول لهم.

ولا بأس أن أورد لك دليلا على ذلك ، أعنى أن الرؤوس الذين قاتلوا الشيخ وألبوا عليه بقي الشيخ زمنا يتلطف لهم ويصبر على ضلالهم، مع أنه ولو لم يرد نقل في خصوص الأمر لكنَّا نجزم به من مجمل منهج الشيخ الذي قررناه:

فمن ذلك أن الشيخ تكلم في بعض رسائله بحدة على أحد ألد أعداء الدعوة (المويس) ثم قال للمرسَل له:

«وأنت لا تلمني على هذا الكلام؛ **تراني استدعيته أولاً بالملاطفة، وصبرت منه على أشياء عظيمة، والآن أشرفت منه على أمور ما ظننتها لا في عقله ولا في دينه**. منها: أنه كاتب إلى أهل الحساء[1] يعاونهم على سب دين الله ورسوله»[2].

---

(1) أي عندما قرروا غزو الدعوة.

(2) «الرسائل الشخصية» (ص140).

تواضع الشيخ للمخالفين وللعلم في سياق المحاجة العلمية

لدي نيّة لكتابة بحث خاص في هذه السلسلة إن يسر الله ذلك، أسميه «الحجة البالغة»، أتحدث فيه عن مفهوم الحجة وضوابطها وأركانها عند الشيخ وأئمة الدعوة.

وأهم الخطوط العريضة التي أريد طرقها في مثل ذلك البحث هي:

أ: التقرير، وأريد به الجواب عن سؤال: هل لدى الشيخ وأئمة الدعوة قاعدة تقريرية صلبة للمسألة التي يناضلون عنها (الشرك الأكبر)، بحُسن تصويرها وضبطها وإخراج كل ما يشتبه بها من مناطات التوصيف بالشرك الأكبر، ثم سوق الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة، ثم كلام السلف، ثم إجماعات الفقهاء، ثم تقريرات أهل العلم وشروحهم..إلخ، أم لا؟

ب: الردود وكشف الشبهات، وأريد به الجواب عن سؤال: هل لديهم عُمق في أدبياتهم في الردود وكشف الشبهات حول الموضوع أم لا.

ج: الأهلية، وأريد به الحديث عن أهليتهم لإقامة الحجج من ثلاث جهات:

الأول: أهليتهم العلمية وهذا يبنى على السابق.

الثاني: أهليتهم الوظيفية. المقصود به إثبات أنهم لا يخوضون في تنزيل العقوبات إلا من خلال منصب قضائي أو ما في حكمه.

الثالث: أهليتهم الأسلوبية، أي توضيح أسلوبهم الحَسَن في المحاججة والنقاش مما يُرَغِّب المستمع في الحق.

وإلى أن يتيسر لي كتابة مثل هذا البحث، أردت في هذا السياق أن أذكر بالجانب الأسلوبي من منهج الشيخ خاصة في إقامة الحجج لأنه مهم فيما نحن فيه، فأقول:

لم يكن الشيخ في نقاشاته ومحاججته للمخالفين يتقمَّص دور صاحب الحق المطلق، ولا كان يدعي عصمة، ولا كان يزعم وجوب اتباعه اتباعا أعمى ، بل كانت مناقشاته ومحاججاته تدور حول أهمية تجرُّد جميع الأطراف في سبيل الوصول إلى الحق، فنترك ما عليه أهل الزمان، وما أطبق عليه أكثر الناس، ونتجاوز أَسْرَ العُرف والعادة، ونحتكم جميعاً للكتاب والسنة، فإن كان ما أقوله حق وجب عليكم الانقياد للحق، وإن كان ما أنتم عليه هو الحق وجب عليّ متابعتكم...ويطلب الشيخ في هذا السياق من مخالفيه أن يبينوا له خطأه بالدليل، ويدلوه على باطله بالحجة، ويحثهم على ذلك، ويلزم نفسه بالرجوع عن آرائه إن ظهر له أن كلامهم حق.

وننتقي بعض النقول في هذا السياق من كلام الشيخ:

المثال الأول:

«من محمد بن عبد الوهاب، إلى عبد الله بن سحيم، حفظه الله تعالى؛ سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد، فقد وصل كتابك، تطلب شيئاً من معنى كتاب المويس الذي أرسل لأهل الوشم؛ وأنا أجيبك عن الكتاب جملة؛ **فإن كان الصواب فيه فنبهني وأرجع إلى الحق**، وإن كان الأمر كما ذكرت لك من غير مجازفة بل أنا مقتصر، فالواجب على المؤمن أن يدور مع الحق حيث دار»[1].

مثال ثاني:

قوله في رسالة لبعض مخالفيه: «دين الله تعالى **ليس لي دونكم، فإذا أفتيت أو عملت بشيء وعلمتم أني مخطئ، وجب عليكم تبيين الحق لأخيكم المسلم**...

ومتى لم تتبين لكم المسألة لم يحل لكم الإنكار على من أفتى أو عمل حتى يتبين لكم خطؤه، بل الواجب السكوت والتوقف. فإذا تحققتم الخطأ بينتموه ولم تهدروا جميع المحاسن لأجل مسألة أو مائة أو مائتين أخطأت فيهن، فإني لا أدعي العصمة... **وأنا إلى الآن أطلب الدليل مِن كل مَن خالفني**، فإذا قيل له: استدل، أو اكتب، أو اذكر، حاد عن ذلك وتبين عجزه، لكن يجتهدون الليل والنهار في صد الجهال عن سبيل الله، ويبغونها عوجاً....

---

[1] «الرسائل الشخصية»(ص130).

وما ذكر في التشنيع عليَّ من الأصدقاء، عرفتم شيئا من مذاهب الآباء وفتنة الأهواء، إذا تحققتم ذلك وطالعتم الشروح والحواشي، فإذا إني لم أفهمه وله معنى آخر، فأرشدوني. وعسى الله أن يهدينا وإياكم وإخواننا لما يحب ويرضى، **ولا يدخل خواطركم غلظة هذا الكلام**، فالله سبحانه يعلم قصدي به، والسلام»[1].

مثال ثالث:

قوله في رسالة لبعض مخالفيه: «فإن كان الصواب معنا، فالواجب عليك الدعوة إلى الله، وعداوة من صرح بسبٍّ دين الله ورسوله. **وإن كان الصواب معهم، أو معنا شيء من الحق وشيء من الباطل، أو معنا غلو في بعض الأمور، فالواجب منك مذاكرتنا ونصيحتنا، وتورينا عبارات أهل العلم لعل الله أن يردنا بك إلى الحق..**»[2].

مثال رابع:

قول الشيخ: «يا عباد الله، لا تطيعوني..واسألوا أهل العلم من كل مذهب عما قال الله ورسوله»[3].

---

[1] «الرسائل الشخصية» (ص240-241).

[2] «الرسائل الشخصية» (ص301).

[3] «الرسائل الشخصية» (ص55).

مثال خامس:

قول الشيخ لأحد مخالفيه: «فلعله إن أشكل عليك تواجهني؛ هذا إن عرفت أنه حق وإن كنت إذا نقلت لك عبارات العلماء، عرفتَ أني لم أفهم معناها، وأن الذي نقلتُ لك كلامهم أخطؤوا، وأنهم خالفهم أحد من أهل العلم، فنبهني على الحق، وأرجع إليه إن شاء الله تعالى»[1].

مثال سادس:

قوله معترفا بقصوره:

«إن أكابر أهل العلم يتعلمون هذا ويغلطون فيه، فضلاً عنا وعن أمثالنا»[2].

مثال سابع:

«والجهال إذا تنازعوا، ومثلي ومثلكم إذا اختلفنا في مسألة، هل الواجب اتباع أمر الله ورسوله وأهل العلم؟ أو الواجب اتباع عادة الزمان التي أدركنا الناس عليها، ولو خالفت ما ذكره العلماء في جميع كتبهم؟»[3].

مثال ثامن:

قوله لأحد مخالفيه: «وأنت ذكرت في كتابك تقول: يا أخي، ما لنا والله دليل إلا من كلام أهل العلم؛ وأنا أقول: كلام أهل العلم رضى، وأنا أنقله لك،

---

(1) «الرسائل الشخصية» (ص66).

(2) «الرسائل الشخصية» (ص66).

(3) «الرسائل الشخصية» (ص62).

وأنبهك عليه؛ فتفكرْ فيه، وقم لله ساعة ناظراً ومناظراً، مع نفسك ومع غيرك. فإن عرفت أن الصواب معي، وأن دين الإسلام اليوم من أغرب الأشياء، أعني دين الإسلام الصرف، الذي لا يمزج بالشرك والبدع، وأما الإسلام الذي ضده الكفر، فلا شك أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم آخر الأمم، وعليها تقوم الساعة، فإن فهمت أن كلامي هو الحق فاعمل لنفسك»[1].

مثال تاسع:

قوله لأحد مخالفيه: «واعلم أن هذه المسألة مسألة عظيمة جداً، وهي التي خلق الله الجن والإنس لأجلها، ولكن أكثر الناس لا يعلمون. **فأنت، اعرضْ هذا الكلام على كل من يدعي العلم**، وأنا أعيذك بالله وجميع المسلمين من التكبر والعناد، الذي يرد صاحبه الحق بعد ما تبين. واعلم أن أكثر القرآن في هذه المسألة وتقريرها، وضرب الأمثال لها»[2].

المثال العاشر:

«من محمد بن عبد الوهاب إلى محمد بن فارس، سلام عليكم.

وبعد، الواصل إليكم: مسألة التكفير من كلام العلماء، وذكر في الإقناع إجماع المذاهب كلها على ذلك؛ فإن كان عند أحد كلمة تخالف ما ذكروه في مذهب من المذاهب، فيذكرها وجزاه الله خيراً، وإن كان يبغي يعاند كلام الله وكلام

---

[1] «الرسائل الشخصية» (ص66).

[2] «الرسائل الشخصية» (ص148).

رسوله، وكلام العلماء، ولا يصغي لهذا أبداً، فاعرفوا أن هذا الرجل معاند ما هو بطلاب حق..»[1].

المثال الحادي عشر:«إن أتانا منكم كلمة من الحق لأقبلنّها على الرأس والعين، ولأضربن الجدار بكل ما خالفها، من أقوال أئمتي، حاشا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه لا يقول إلا الحق»[2].

شهادات من أعداء الدعوة والمؤرخين المحايدين توثق البادىء بالتكفير والقتال

قبل أن أغادر هذه المحطة (مرحلة التكفير والقتال) أردت هنا أن أثبت شهادة تاريخية لأحد أعداء الدعوة تشهد لرواية أئمة الدعوة التي تقضي بأن أعداء الدعوة هم من بدأ بالتكفير والقتال والتنكيل بأبناء الدعوة.

وأنهم من ولج في باب التكفير بلا ضوابط ولا قيود، بل كفّروا الناس بدعوتهم للتوحيد.

كما تبين الفرق الكبير بين معاملة الدعوة لمخالفيها ومعاملة المخالفين لأبنائها حيث أرجو من القاريء أن يتأمل في الفارق الكبير بين الأسلوب الذي كان يتحدث به الشيخ مع أشراف مكة، ويقارن بما يأتي بإنصاف.

---

[1] «الرسائل الشخصية» (ص212).

[2] « الرسائل الشخصية» (ص253).

وهذا الباب أي شهادات أعداء الدعوة والمؤرخين المحايدين لصحة رواية الدعوة التاريخية لمن بدأ التكفير والقتال سنفرده بإذن الله بمبحث مستقل، ولكنني رأيت أن أثبت هنا شهادة لأحد أعداء الدعوة وأخرى لأحد المؤرخين المصريين للتذكرة.

أما الشهادة الأولى فهي للمؤرخ المخالف للدعوة الكاره لرسالتها أحمد زيني دحلان في كتابه «خلاصة الكلام في أمراء البلد الحرام» والتي رمى فيها الشيخ وأبناء الدعوة بالكفر والإلحاد والزندقة وقرر فيها بدء الأشراف والعثمانيين بقتال الدعوة وأبنائها بدعوى كف شرهم وزندقتهم .

يقول دحلان[1] مؤرِّخًا لحادثة إرسال الدعوة النجدية لبعض علمائها إلى مكة لمناقشة ومدارسة ومناظرة علماء البلد الحرام حول بعض المسائل العلمية وعلى رأسها مسائل الشرك: «وأرسلوا قبل ذلك ثلاثين من علمائهم ظنًّا منهم أنهم يفسدون عقائد علماء الحرمين ويدخلون عليهم الكذب والمين، وطلبوا الإذن في الحج ولو بمقرر يدفعونه كل عام، وكان أهل الحرمين يسمعون بظهورهم في الشرق وفساد عقائدهم ولم يعرفوا حقيقة ذلك فأمر مولانا الشريف مسعود أن يناظر علماء الحرمين العلماء الذين أرسلوهم فناظروهم **فوجدوهم ضحكة ومسخرة كحمر مستنفرة فرت من قسورة، ونظروا إلى عقائدهم فإذا هي مشتملة على كثير من المكفرات فبعد أن قاموا عليهم بالبرهان والدليل أمر الشريف مسعود قاضي الشرع أن يكتب حجة بكفرهم الظاهر ليعلم به الأول والآخر وأمر بسجن أولئك الملاحدة الأنذال ووضعهم في السلاسل والأغلال فسجن منهم جانبا**

---

[1] «خلاصة الكلام» (ص 300).

وفرّ الباقون ووصلوا إلى الدرعية...فلما مضت دولة الشريف مساعد وتقلد الأمر أخوه الشريف أحمد بن سعيد أرسل أمير الدرعية جماعة من علمائه كما أرسل في المدة السابقة فلما اختبرهم علماء مكة **وجدوهم لا يتدينون إلا بدين الزنادقة** فأبى أن يقر لهم في حمى البيت الحرام قرار ولم يأذن لهم في الحج **بعد أن ثبت عند العلماء أنهم كفار** كما ثبت في دولة الشريف مسعود، فلما أن وصل الشريف سرور أرسلوا أيضا يستأذنونه في زيارة البيت المعمور فأجابهم بأنكم إن أردتم الوصول آخذ منكم في كل سنة وعام صرمة مثل ما نأخذها من الأعاجم وآخذ منكم زيادة على ذلك مائة من الخيل الجياد فعظم عليهم تسليم هذا المقدار **وأن يكونوا مثل العجم،** فامتنعوا عن الحج في مدته كلها فلما توفي وتولى سيدنا الشريف غالب أرسلوا أيضا يستأذنونه في الحج فمنعهم وتهددهم بالركوب عليهم وجعل ذلك القول فعلا فجهز عليهم جيشا في سنة ألف ومائتين وخمسة واتصلت بينهم المحاربات والغزوات..وسيأتي شرح تلك المحاربات والغزوات بعد توضيح ما كانوا عليه من **العقائد الزائغة التي أتى تأسيسها من محمد بن عبد الوهاب**..وأرخ بعضهم وفاته بقوله: (بها هلاك **الخبيث**)..وخلف أولاد أخبث».

وقال عن الإمام محمد بن عبد الوهاب[1]:

«وكان الشيخان المذكوران –أي السندي والكردي من شيوخ الإمام- يتفرسون فيه **الإلحاد والضلال** ويقولون سيضل هذا ويضل الله به من أبعده وأشقاه..وما أخطأت فراستهم فيه

(1) السابق (ص302-303).

وكذا والده عبد الوهاب فإنه كان من العلماء الصالحين فكان يتفرّس فيه **الإلحاد** ويذمه كثيرا ويحذر الناس منه...

وكان في أول أمره مولعا بمطالعة أخبار من ادعى النبوة كاذبا كمسيلمة الكذاب وسجاح والأسود العنسي وطليحة الأسدي، وأضرابهم، **فكان يضمر في نفسه دعوة النبوة، ولو أمكنه إظهار هذه الدعوى لأظهرها..**

وإذا أراد أحد أن يدخل في دينه يقول له بعد الاتيان بالشهادتين: أشهد على نفسك أنك كنت كافرا وأشهد على والديك أنهما ماتا كافرين، واشهد على فلان وفلان ويسمى لهم جماعة من أكابر العلماء الماضين أنهم كانوا كفارا فإن شهدوا قبلهم وإلا أمر بقتلهم...».

وقال عن أبناء الدعوة[1]:

«حتى إن بعض أتباعه كان يقول: عصاي هذه خير من محمد لأنها ينتفع بها في قتل الحية ونحوها ومحمد قد مات..».

وقال[2]:

«ومما يدعيه محمد بن عبد الوهاب أنه أتى بدين جديد كما يظهر من أقواله وأفعاله وأحواله ولهذا لم يقبل من دين نبينا صلى الله عليه وسلم إلا القرآن، مع أنه إنما قبله ظاهرا فقط لئلا يعلم الناس حقيقة أمره فينكشفوا عليه».

وسمى عبد العزيز بن سعود القائم بدين ابن عبد الوهاب فقال:

«وأمر – أي الشيخ – القائمَ بدينه عبد العزيز بن سعود أن يخاطب المشرق والمغرب»[1].

---

(1) السابق (ص303).

(2) السابق (ص304).

ونقل عن علوي الحداد قوله: «والحاصل إن المحقق عندنا من أقواله وأفعاله **ما يوجب خروجه عن القواعد الإسلامية** لاستحلاله أمورا مجمعا على تحريمها معلومة من الدين بالضرورة بلا تأويل سائغ مع تنقيصه الأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين وتنقيصهم **تعمدا كفر بالإجماع عند الأئمة الأربع**»[2]. وبيَّن[3] مبدأ القتال بين أشراف مكة والنجديين وأن الشريف غالب هو من منعهم من الحج وأراد دفعهم عن الوصول إلى الحرم فكان أن قرر غزوهم وأرخ للغزوات[4] التي قادها الأشراف لقتال النجديين فذكر ستا وخمسين غزوة[5]!

وقرر[6] بدء العثمانيين بقتال النجديين من خلال الأوامر التي صدرت من السلطان لمحمد علي باشا صاحب مصر، وسيأتي الحديث عن ذلك.

شهادة المؤرخ الجبرتي بتكفير الأتراك والمصريين للدعوة وأبنائها

---

(1) السابق (ص304).

(2) السابق (ص312).

(3) السابق(ص347).

(4) وهكذا سماها في كتابه، وقد رأيت لبعض أعداء الدعوة المعاصرين إنكارا على ابن غنام الذي أكثر من استخدام هذا المصطلح في توصيف قتال الدعوة لأعدائها ولم يذكر لنا المنتقِد أن المصطلح نفسه مستخدم في أطروحات الأعداء، كما تجده هنا، وكما سيأتي بعد قليل من تسمية المصريين لحربهم مع النجديين بالمغازي!

ويظن المنتقد لعجمته أن استخدام الدعوة لهذا المصطلح يلزم منه تكفير الدعوة لأعدائها، وهذه عجمة لسانية فالغزو في اللغة هو السير لقتال الأعداء، فيصح لغة استخدام المصطلح بهذا المعنى سواء من الدعوة أو من أعدائها سواء من المسلمين أو الكافرين سواء من الشرق أو من الغرب، ولا يلزم منه تكفير معينين من قريب أو بعيد.

(5) السابق (ص347-378).

(6) السابق (ص382).

وقتالهم على أنهم يقاتلون الكفار

أما الشهادة الثانية فلمؤرخ مصري شهير عاصر جزءًا مهمًّا من الأحداث التي جرت على الدعوة وأبنائها وعلى رأسها غزو الأتراك والمصريين لهم.

وسيأتي معنا الحديث عن جانب مهم من هذه الأحداث إلا أننا سنتوقف هنا عند تقريرات مهمة من الجبرتي رحمه الله يُبيِّن فيها تكفير الأتراك والمصريين لأبناء الدعوة ومحاربتهم على أنهم كفار.

يقرر الجبرتي في كتابه «عجائب الآثار»[1]: بأن مفتي الدولة العثمانية أفتى **بأن الوهابية كفار!..وأن من قاتلهم يكون مغازيا مجاهدا وشهيد إذا قُتل.**

ويقول[2] عن بعض العساكر المصرية والتركية التي عادت من الحجاز أثناء قتال النجديين: «وصلت عساكر إلى السويس وحضروا إلى مصر وعلى رؤوسهم شلنجات فضة إعلاما وإشارة إلى أنهم مجاهدون **وعائدون من غزو الكفار، وأنهم افتتحوا بلاد الحرمين، وطردوا المخالفين لديانتهم** حتى إن طوسون باشا وحسن باشا كتبا في إمضائهما على المراسلات بعد اسمهما لفظة **(المغازي)**».

ويقول[3] عن هذه العساكر أيضا: «وفي اعتقادهم الخروج –أي لقتال النجديين- بقصد الجهاد وغزو **الكفار** المخالفين لدين الإسلام».

---

(1) (4/ 282).

(2) (4/ 346).

(3) (4/ 449).

السجالات العلمية الرئيسية التي خاضها الشيخ ثم أئمة الدعوة مع

أصناف من أعداء الدعوة ومخالفيها

وبيان مقالاتهم الرئيسية في أبواب التكفير والقتال

مما ينبغي العناية به لمن يقرأ تقريرات أئمة الدعوة النجدية أن يضبط أولاً المواضيع العلمية المختلفة التي تكلموا فيها خاصة ما له تعلق بأبواب التكفير والقتال منها، ثم يُصَنِّف تلك المواضيع على الأبواب المتنوعة التي تندرج تحتها، ويستوعبها استيعابًا جيدًا، وإن وفقه الله لذلك -وقليل ما هم- سيسهل عليه بعد ذلك فهم تقريراتهم ومناهجهم فهمًا دقيقًا موفقًا بإذن الله.

وكثير من الرسائل و الأطروحات و المؤلفات تقع في مزلق الخلط بين المواضيع العلمية المطروقة في كتب أئمة الدعوة، فتأخذ تقريراً من هنا تستدل به في موضع لا

علاقة له به، وآخر من هناك وتضعه في موضع آخر لا علاقة له به، وهكذا، وهذا شائع في أكثر الأبحاث التي تتناول هذه القضايا.

وسأعرض هنا باختصار أهم المسائل المطروقة في كتب أئمة الدعوة والتي خاضوا سجالات علمية مختلفة حولها مما له علاقة بأبواب التكفير والقتال والتي أنصح إخواني طلبة العلم بضبطها واستيعابها حتى لا يخلطوا تقريرات أئمة الدعوة العلمية بعضها ببعض.

ولما كانت هذه السجالات قد خاضها أئمة الدعوة مع أعدائهم ومخالفيهم كان من الجيد أن أعرض مقالات أعدائهم الرئيسية وأنواعهم، حتى إذا قرأتَ تقريرات لأئمة الدعوة في سجالاتهم هذه استطعت أن تَرُدَّها إلى السياق الموضوعي الصحيح الذي وردت فيه، فتعرف تحت أي موضوع وردت، وفي أي صنف منهم قيلت.

النوع الأول من مخالفي الدعوة: (مَن أنكر باب التوحيد والشرك من الشريعة رأسا)

من أعداء الشيخ مَن كان ينكر صحة ما دعا إليه رأسًا، ويرى أن توحيد الألوهية وترك الشرك بكل صوره دين ابن تيمية أو مذهب خامس أو دين خراساني كما قدمناه في قائمة الافتراءات والاتهامات...وكان بعضهم يرى أن الموحدين هم الكفار المشركون، ومنهم من صنف التصانيف في نقض توحيد الألوهية.

وطريقة مناقشة هؤلاء هو تقرير المسألة من رأسها وسرد أدلة الكتاب والسنة عليها.

النوع الثاني من مخالفي الدعوة: (أقوام يصرحون بألسنتهم أنهم مقرون بالتوحيد، وحالهم يناقض ذلك)

من أعداء الدعوة من كان يقر أحيانا بأن ما عليه الشيخ هو التوحيد، ولكن حاله يخالف مقاله فيبين الشيخ أنهم يتداولون الكتب التي تقرر الرأي الأول (إنكار توحيد الألوهية) ويستدلون ببعض ما فيها على الشيخ، بدلا من رد باطلها بناء على صحة دعواهم، ومن النصوص التي نستفيد منها النوعين السابقين قول الشيخ:

«وكذلك أحمد بن يحيى راعي رغبة عداوته لتوحيد الألوهية والاستهزاء بأهل العارض لما عرفوه، وإن كان يقرُّ به أحياناً عداوة ظاهرة لا يمكن أنها لا تبلغك. وكذلك ابن إسماعيل، إنه نقض ما أبرمت في التوحيد، وتعرف أن عنده الكتاب الذي صنفه رجل من أهل البصرة، كله من أوله إلى آخره في إنكار توحيد الألوهية، وأتاكم به ولد محمد بن سليمان راعي وثيثية، وقرأه عندكم وجادل به جماعتنا؛ وهذا الكتاب مشهور عند المويس وأتباعه، مثل ابن سحيم وابن عبيد، يحتجون به علينا ويدعون الناس إليه، ويقولون: هذا كلام العلماء...

وكذلك لما أتاهم كتاب ابن عفالق الذي أرسله المويس لابن إسماعيل، وقدم به عليكم العام، وقرأه على جماعتكم؛ يزعم فيه أن التوحيد دين ابن تيمية، وأنه لما أفتى به كفّره العلماء وقامت عليه القيامة، إن كنت تقول ما جرى من هذا شيء فهذا مكابرة. وإن كنت تعرف أن هذا هو الكفر الصراح، والردة الواضحة، ولكن تقول: أخشى الناس، فالله أحق أن تخشاه»[1].

---

[1] «الرسائل الشخصية» (ص20).

النوع الثالث: (من أنكر أن التوجه بالعبادة للقبور شرك أكبر، وجعله من الشرك الأصغر أو المعاصي).

فمن أعداء الدعوة مَن خالف في أن التوجه بالعبادة للوسائط شرك أكبر! بل صنفه من جنس الشرك الأصغر والمعاصي.

وهؤلاء كان الشيخ يناقشهم في مقامين:

الأول: تقرير الأدلة من القرآن والسنة و كلام أهل العلم وأنهم مجمعون على أن هذا هو الشرك الأكبر.

الثاني: أن يُقال لهم تنزلنا جدلا : قلنا معكم أن اتخاذ الوسائط شرك أصغر أو معصية، السؤال: ما حكم استحلال الشرك الأصغر أو المعصية فعامة من يتوجه بالعبادة لغير الله هو مستحل لهذا؟!! **وهذا من المواضع التي تبيّن ذكاء الشيخ وحدة فهمه في مقام المناظرة.**

وفي سياق الرد على هؤلاء يقول الشيخ :

«على سبيل التنزل، أن الشرك لا يكفر من فعله، أو أنه شرك أصغر، أو أنه معصية غير الكفر، مع أن جميع ما ذكرتم لا يدل على ذلك، فإن أردت بينت لك في غير هذه المرة معاني هذه العبارات من الأدلة من كلام كل رجل، كما بينته لك من كلام الشيخ. **لكن أنتم مسلّمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنكره ونهى عنه، فلو أن رجلاً أقر بذلك مع كونه لم يفعله، لكنه زينه للناس ورغبهم فيه، أليس هذا كافراً مرتداً؟** ولو قدّرنا أن الأمر الذي كرهه وصد الناس عنه، ما أمر به الرسول إلا أمر استحباب كركعتي الفجر، أو أن الذي نهى عنه ما نهى عنه إلا نهي تنْزيه كأكل

بالشمال، والنوم للجنب من غير وضوء، ولو أن رجلاً عرف نهي الرسول، وزعم لأجل غرض من الأغراض أن الأكل بالشمال هو الأحب المرضي عند الله، وأن الأكل باليمين يضر عند الله، وأن الوضوء للجنب إذا أراد النوم يضر عند الله، وأن النوم من غير وضوء أحب إلى الله، مع علمه بما قال الرسول صلى الله عليه وسلم، أليس هذا كلام كافر مرتد؟ فكيف بمن سب دين الله الذي بعث به جميع الأنبياء مع إقراره ومعرفته به، ومدح دين المشركين الذي بعث الله الأنبياء بإنكاره، ودعا الناس إليه مع معرفته؟ ولكن أرى لك أن تقوم في السحَر، وتدعو بقلب حاضر، بالأدعية المأثورة، وتطرح نفسك بين يدي الله أن يهديك لدينه ودين نبيه عليه السلام، وصلى الله على محمد وآله وسلم»[1].

النوع الرابع من مخالفي الدعوة، وهو من أهمها: (من أقر بالتوحيد والشرك نظريًا، وخالف الشيخ في التكفير والقتال)، ومعنى مخالفته في التكفير أنهم كانوا يرون أن أبواب التكفير في التراث الإسلامي العلمي **نظرية محض فلا تنزل على المعينين بحال**.

ومن خلال عنايتي بمقالات هذا الصنف تلخَّص لدي أنهم على قسمين مختلفين في المقدمة ولكنهم يتفقون في النتيجة، وقد تقدمت الإشارة إلى هذا.

فالقسم الأول: من يرى أن أبواب التكفيرتختص بمن صرح بالانتقال من الملة ، أما كل من انتسب للملة فلا يكفر بحال، ولو فعل ما فعل.

[1] «الرسائل الشخصية» (ص 29-30).

والقسم الثاني: لديه مقدمة أخرى وهو أن أحكام التكفير ولو قلنا أنها تتناول أهل الإسلام إلا أنه مادام أن المخالف لم يقتنع بالحجة فلا يكفر بل يعذر بجهله أبدًا.

ولهذا قلنا أن المقدمتين مختلفتين أما النتيجة فواحدة، فالأول لا يكفر أبدا بدعوى أنه من أهل الشهادتين، والثاني لا يكفر أبدا بدعوى أن الجهل ملازم له فيعذر به أبداً.

والقسم **الأول** هذا خاض معهم أئمة الدعوة سجالات علمية في إثبات تنزيل الكفر على المعينين من أهل الشهادتين، وسرد أمثلة ذلك من تقريرات العلماء سلفا وخلفا ومن تطبيقات الصحابة ومن بعدهم.

و القسم **الثاني** خاض الشيخ ثم أئمة الدعوة - وأكثر في ذلك أبا بطين- سجالات علمية كثيرة في الرد عليهم.

وأنبه إلى أن تقريرات أئمة الدعوة في هذين البابين من أكثر ما يقع فيه الخلط في الفهم والتصور لنصوصهم، ومن مَيَّز تقريراتهم في هذا السياق عن غيرها فقد أوتي حظًّا وفيرا.

ثم بعد أن بينَّا تقريرات هؤلاء من الناحية العلمية نبيِّن أحوالهم، فأقول:

يظهر لي من خلال قراءتي لأكثر تراث أئمة الدعوة وما نقلوه عن هؤلاء المختلفين معهم، أنهم ينقسمون من جهة أحوالهم إلى نوعين متباينين:

النوع الأول: هم من أثار هذه المسألة من باب التشغيب فقط على موقف الشيخ وتقوية موقف خصومه وأعدائه فقد كانوا ممن يؤلب على الشيخ ودعوته وعقيدته في الواقع، ولكن لما انقطعت بهم السبل ولم يستطيعوا الرد على الشيخ في تقريراته العلمية عن التوحيد والشرك، انتقلوا للتشغيب في باب آخر فقالوا نحن نسلم بتقريرك

عن التوحيد و الشرك، أما بناء الأحكام عليه من قتال وتكفير فلا، فأهل لا إله إلا الله لا يكفرون أبدا فضلا عن أن يُقاتلوا.

وهؤلاء -لقرينة حالهم- كان الشيخ يشتد عليهم في الرد وبيان بطلان ما هم فيه، ويصرح لهم أنهم لا يقررون هذا إلا للتشغيب فقط على الموحدين وإظهارهم على ضلال، وممالأة خصومهم ومن يقاتلهم، وكان الشيخ يقول لهم إذا سلمتم معنا بأن هذه الأفعال شرك لماذا لا تنصحون الناس وتوجهونهم إلى ترك هذه الأفعال بدلا من تشجيع الناس عليها و التشغيب علينا.

وهذا معنى قول الشيخ فيما سيأتي : «ونحن ما جئناكم في التكفير والقتال» يعني نحن أصل دعوتنا أصلا لم تكن لا في تكفير ولا قتال بل في دعوة الناس للتوحيد فلو أنكم انشغلتم بتعليمه للناس بدلا من التشغيب لسقط التكفير والقتال.

النوع الثاني: ليسوا كالصنف الأول (المشغبون) بل لهم شُبهة حقيقية في باب تنزيل الأحكام على المعينين من أهل الشهادتين، وشبهتهم الرئيسية هي عدم التفريق بين بلوغ الحجة وقيامها على المعين وفهمها فهما لغويا وشرعيا، وبين الاقتناع بأنها حق وفهمها فهم هداية وتوفيق، فلهذا ظنوا أنه طالما أن الجاهل الذي أقمنا عليه الحجة لم يقتنع بأنها حق ولم يفهمها فهم هداية وتوفيق وإقرار والتزام لا نستطيع تنزيل الأحكام عليه...ونبقى نعذره بجهله أبدا ونقول: لعله لم يفهم الحجة! فعطلوا تنزيل الكفر على المعينين بهذه الشبهة.

وهؤلاء كان الشيخ وأئمة الدعوة يناقشونهم مناقشات علمية هادئة ويكشفون لهم غلطهم وشبهتهم في الباب، ويبينون لهم صنيع السلف والخلف من العلماء في تنزيل التكفير وأحكامه على المعينين.

فمن النقول التي تبين اختلاف البعض معه في القتال والتكفير قوله:

«اعلم أني عُرفت بأربع مسائل:

الأولى: بيان التوحيد، مع أنه لم يطرق آذان أكثر الناس.

الثانية: بيان الشرك، ولو كان في كلام من ينتسب إلى العلم أو عبادة،

من دعوة غير الله، أو قصده بشيء من العبادة، ولو زعم أنهم يريدون أنهم شفعاء عند الله؛ مع أن أكثر الناس يظن أن هذا من أفضل القربات، كما ذكرتم عن العلماء أنهم يذكرون أنه قد وقع في زمانهم.

الثالثة: تكفير **من بان له أن التوحيد هو دين الله ورسوله، ثم أبغضه ونفّر الناس عنه،** وجاهد من صدق الرسول فيه، ومن عرف الشرك وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بُعث بإنكاره، وأقر بذلك ليلاً ونهاراً، ثم مدحه وحسّنه للناس، وزعم أن أهله لا يخطئون لأنهم السواد الأعظم.

وأما ما ذكر الأعداء عني: أني أكفّر بالظن، وبالموالاة، أو أكفّر الجاهل الذي لم تقم عليه الحجة، فهذا بهتان عظيم، يريدون به تنفير الناس عن دين الله ورسوله.

الرابعة: الأمر بقتال هؤلاء **خاصة**، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

فلما اشتهر عني هؤلاء الأربع، صدقني من يدعي أنه من العلماء في جميع البلدان، في التوحيد وفي نفي الشرك، وردّوا عليَّ التكفير والقتال»[1].

ومن النقول التي تبين حال النوع الأول (المشغبين الممالئين للخصوم):

«إذا كانوا أكثر من عشرين سنة، يقرون ليلاً ونهارا سراً وجهاراً، أن التوحيد الذي أظهر هذا الرجل هو دين الله ورسوله، لكن الناس لا يطيعوننا، وأن الذي أنكره هو الشرك وهو صادق في إنكاره، ولكن لو يسلم من التكفير والقتال كان على حق. هذا كلامهم على رؤوس الأشهاد، **ثم مع هذا، يعادون التوحيد** ومن مال إليه، العداوة التي تعرف، ولو لم يكفِّر ويقاتل، وينصرون الشرك نصره الذي تعرف، مع إقرارهم بأنه شرك، **مثل كون المويس وخواص أصحابه ركبوا وتركوا أهليهم وأموالهم إلى أهل قبة الكواز وقبة رجب سنة ، يقولون: إنه قد أخرج من ينكر قبيكم وما أنتم عليه، وقد أحل دماءهم وأموالهم. وكذلك ابن إسماعيل وابن ربيعة والمويس أيضاً، بعدهم بسنة، رحلوا إلى أهل قبة أبي طالب، وأغروهم بمن صدق النبي صلى الله عليه وسلم، وأحلوا دماءنا وأموالنا حتى جرى على الناس ما تعرف**، مع أن كثيراً منهم لم يكفر ولم يقاتل، وقررتم أن من خالف الرسول في عشر معشار هذا، ولو بكلمة، أو عقيدة قلب، أو فعل، فهو كافر، فكيف بمن جاهد بنفسه وماله وأهله، ومن أطاعه في عداوة التوحيد وتقرير الشرك، مع إقراره بمعرفة ما جاء به الرسول؟ فإن لم تكفّروا هؤلاء ومن اتبعهم، ممن عرف أن التوحيد حق وأن ضده الشرك، فأنتم كمن أفتى بانتقاض وضوء من بزغ منه مثل رأس الإبرة من البول، وزعم أن من يتغوط ليلاً

---

[1] «الرسائل الشخصية» (ص24).

ونهاراً، وأفتى للناس أن ذلك لا ينقض، وتبعوه على ذلك حتى يموت، أنه لا ينقض وضوءه.

وتذكرون أني أكفّرهم بالموالاة، وحاشا وكلا، ولكن أقطع أن كفر من عبد قبة أبي طالب لا يبلغ عشر كفر المويس وأمثاله..»[1].

ومن أمثلة كلامه في هؤلاء المشغبين أيضا قوله:

«فإذا عرفت ذلك، فهؤلاء الشياطين من مردة الإنس، يحاجون في الله من بعد ما استجيب له، إذا رأوا من يعلم الناس ما أمرهم به محمد صلى الله عليه وسلم من شهادة أن لا إله إلا الله، وما نهاهم عنه، مثل الاعتقاد في المخلوقين الصالحين وغيرهم، **قاموا يجادلون ويلبسون على الناس، ويقولون: كيف تكفّرون المسلمين؟ كيف تسبون الأموات؟ آل فلان أهل ضيف، آل فلان أهل كذا وكذا؛ ومرادهم بهذا: لئلا يتبين معنى "لا إله إلا الله"**، ويتبين أن الاعتقاد في الصالحين النفع والضر ودعاءهم كفر ينقل عن الملة؛ فيقولون الناس لهم: إنكم قبل ذلك جهال لأي شيء لم تأمرونا بهذا»[2].

ومنها:

قوله: «وقد منّ الله عليكم بإقرار علماء المشركين بهذا كله، سمعتم إقرارهم أن هذا الذي يُفعل في الحرمين والبصرة والعراق واليمن، أن هذا شرك بالله، فأقروا لكم أن هذا الدين الذي ينصرون أهله، ويزعمون أنهم السواد الأعظم، أقروا لكم أن دينهم هو الشرك، وأقروا لكم أيضاً أن التوحيد الذي يسعون في إطفائه، وفي قتل أهله

---

[1] «الرسائل الشخصية» (ص27).

[2] «الرسائل الشخصية» (ص187).

وحبسهم، أنه دين الله ورسوله، وهذا الإقرار منهم على أنفسهم من أعظم آيات الله، ومن أعظم نعم الله عليكم، ولا يبقى شبهة مع هذا إلا للقلب الميت الذي طبع الله عليه، وذلك لا حيلة فيه.

ولكنهم يجادلونكم اليوم بشبهة واحدة، فاصغوا لجوابها. وذلك أنهم يقولون: كل هذا حق. نشهد أنه دين الله ورسوله، إلا التكفير والقتال. والعجب ممن يخفى عليه جواب هذا! إذا أقروا أن هذا دين الله ورسوله، كيف لا يكفر من أنكره، وقتل من أمر به وحبسهم؟! كيف لا يكفر من أمر بحبسهم؟! كيف لا يكفر من جاء إلى أهل الشرك يحثهم على لزوم دينهم وتزيينه لهم، ويحثهم على قتل الموحدين وأخذ مالهم؟! كيف لا يكفر وهو يشهد أن الذي يحث عليه أن الرسول صلى الله عليه وسلم أنكره ونهى عنه وسماه الشرك بالله، ويشهد أن الذي يبغضه ويبغض أهله ويأمر المشركين بقتلهم هو دين الله ورسوله؟!»[1].

ومن المواضع التي يقرر فيها أنه لم يأت أصلا بتكفير أو قتال ابتداء فمن كان حريصا على الناس لَعَلَّمَهُم التوحيد بدلا من التشغيب فترتفع أحكام التكفير والقتال تلقائيا قوله:

«وبعد، فاعلموا، رحمكم الله، أن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم إلى الناس بشيراً ونذيراً، مبشراً لمن اتبعه بالجنة ومنذراً لمن لا يتبعه بالنار. وقد علمتم إقرار كل من له معرفة أن التوحيد الذي بينا للناس هو الذي أرسل الله به رسله، حتى كل مطوع

[1] الرسائل الشخصية ص272-273.

معاند يشهد بذلك، وأن الذي عليه غالب الناس من الاعتقادات في الصالحين وفي غيرهم هو الشرك الذي قال الله فيه: {إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ}. فإذا تحققتم هذا، وعرفتم أنهم يقولون: لو يترك أهل العارض التكفير والقتال، كانوا على دين الله ورسوله، **ونحن ما جئناكم في التكفير والقتال، لكن ننصحكم** بهذا الذي قطعتم أنه دين الله ورسوله إن كنتم تعلمونه وتعملون به ، إن كنتم من أمة محمد باطناً وظاهراً»[1].

وقوله:

«**فإذا قيل: التوحيد زين، والدين حق، إلا التكفير والقتال، قيل: اعملوا بالتوحيد ودين الرسول، ويرتفع حكم التكفير والقتال.** فإن كان حق التوحيد الإقرار به، والإعراض عن أحكامه، فضلاً عن بغضه ومعاداته، فهذا والله عين الكفر وصريحه. فمن أشكل عليه من ذلك شيء، فليطالع سيرة محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه»[2].

أما النوع الثاني أصحاب الشبهة العلمية في باب إقامة الحجة، فهؤلاء حرص الشيخ ثم أئمة الدعوة معهم على توضيح الفرق بين بلوغ الحجة وقيامها وفهمها فهم نَظَر واستيعاب، وبين الالتزام بالحجة وإعلان الاقتناع بأنها حق وفهمها فهم هداية وتوفيق، فالحجة التي يجب إقامتها هي ما يندرج تحت الأول لا الثاني، لأن الالتزام وإعلان الاقتناع [انها حق وفهم الهداية والتوفيق هذا كله محض توفيق من الله سبحانه وتعالى، لا علاقة لنا به في تطبيق الأحكام الشرعية في هذا الباب.

[1] «الرسائل الشخصية» (ص196).

[2] «الرسائل الشخصية» (ص183).

وهذا النوع الثاني من (الحجة) هو الذي نجد بعض أئمة الدعوة ينفي اشتراطه في سياق الرد على هؤلاء.

وفي نفس السياق تجدهم يرفضون وصف هذا الذي لم يهتدِ بالجهل الذي يعذر صاحبه[1].

وفي هذا السياق أيضاً صنف الشيخ كتابه (**مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد**) للرد على من يرد حكم التكفير الشرعي رأسا، وخاصةً من يرتكن إلى هذه الشبهة.

وسلك الشيخ في الكتاب مسلكين رئيسين في الرد على هؤلاء:

الأول: ذكر أمثلة كثيرة عن الصحابة ومن بعدهم في تكفير معينين من أهل الشهادتين.

الثاني: ذكر نصوص العلماء في التنصيص على العقائد والأقوال والأفعال التي يرتد بها ناطق الشهادتين عن دينه.

ويريد بهذا المسلك الثاني توضيح نقطة مهمة، وهي أن رفع حكم تنزيل التكفير على المعينين من أهل الشهادتين رأسا يلزم منه تفريغ أبواب الردة في كتب التراث الإسلامي من محتواها، وجعلها أبوابا نظرية محض لا علاقة لها بالواقع العملي.

وإلى جانب هذين المسلكين حرص الشيخ في الكتاب على توضيح أن كل نص فيه توقف العلماء عن تنزيل حكم التكفير على معين ما من أهل الشهادتين -لاسيما في كلام ابن تيمية – فإنهم يردفونه باشتراط بلوغ الحجة أولا، فيبين الشيخ أن هذا في

---

[1] يراجع «الانتصار للدرر السنية» (ص69-72).

نفسه دليل على المخالفين، لأن العلماء علقوا تنزيل الحكم على هذا الشرط فلو تحقق الشرط ينزل الحكم، ولم يرفعوه رأسا كما يطالب المخالفون.

وقد أكثرالجيل الثاني والثالث من أئمة الدعوة أعني تلامذة الشيخ وتلامذتهم في مناقشة هذا الرأي بأكثر من الشيخ لأنه مع توسع الأعمال القتالية اتسع السجال حول هذه المسألة.

وسأثري هذه القضية بعد قليل لأهميتها.

النوع الخامس من أعداء الدعوة:

مَن لم تكن لديه شبهة علمية في الباب بل بقي زمنًا يقر أنه حق، ولكن بسبب سلبيته البالغة وضعف الوازع الإيماني لديه بينما رأى الشيخ وجوب القيام بصحوة علمية واقعية على الأرض وقيام أهل العلم في كل مكان بجعل التوحيد واقعًا يمشي على الأرض وتغيير الواقع السلبي في نجد، كان يرى هؤلاء أن يُترك هذا الباب وإثارته نزولا على ما عليه أهل الزمان، ورغبة الرؤساء وعادة البلاد، بل رأى بعضهم متابعتهم على ما هم عليه وتحسينه لهم وتزيينه للناس، ولما قاتل أعداءُ الشيخ الدعوةَ انضموا لصفوف الأعداء مجاراة للرؤساء والعادة والمجتمع...

ويدخل في سبب إحجامهم عن تغيير الواقع أنهم إذا بينوا للناس وأمروهم بترك الشركيات وهدم القباب والقبور، سيعرف الناس أنهم كانوا يداهنون الرؤساء والمجتمع من قبل ولم يصدعوا بالحق مثلما صدع ابن عبد الوهاب به.

وبعض أهل هذا الصنف لما لم يجد عذرا لتقاعسه عن نصرة التوحيد شغب بأنه لم يقف مع الشيخ بسبب خوضه في التكفير والقتال فدخل في الصنف الذي تقدم الحديث عليه.

وهذا الصنف من الأصناف المهمة التي أرجو أن يتذكرها القاريء لتراث أئمة الدعوة لأمرين:

أ: أنها توضح له السبب الرئيس في تغير مواقف البعض تجاه الدعوة خاصة أني وجدت البعض يستشكل السبب وراء هذا التغير، مع أن هذا الصنف من المتسببين للعلم موجود في كل زمان ومكان وحالهم قريب من علماء السلطان أو علماء المجتمعات أو علماء العادات والأعراف، ممن يعرف الحق ويقر به ولكنه يفتي حسب هوى السلطان أو المجتمع، وقريب من حال (علمانيي العلماء)- إن صح التعبير- ممن يقر بالحق في دوائر ضيقة فإن تكلم في دائرة تحكيم الدولة للشريعة الإسلامية انقلب على عقبه.

فهؤلاء لما كان الشيخ يقرر التوحيد كانوا يقرون به ولكن في صورته الجامدة داخل بطون الكتب وفي زوايا المساجد فقط، أو أثناء ضعف الدعوة، ولما تغير مسار الدعوة وتأثر بها الرؤوس وصار للتوحيد دولة وتوجهت الدعوة إلى الإصلاح الواقعي على الأرض بالمنهج الحكيم الذي رأيت بدّل هؤلاء مواقفهم للسبب المذكور وانقلبوا يزينون الشرك للناس بل وألبوا الخصوم على قتال الدعوة.

ب: السبب الثاني - وهو مهم جدا - أن البعض في زمن الشيخ أُشكل عليه حال هؤلاء، ورأوا من مجمل حالهم أنهم في باطنهم مؤمنون بالتوحيد يعلمون أنه الحق،

ولكنهم في الظاهر أظهروا في مرحلة الصراع تزيين الشرك وتحسينه للناس بل وتلبسوا هم أنفسهم بالشرك، وبغّضوا أمر التوحيد والموحدين ليس لكفرهم في الباطن بل مجاراةً للرؤساء والأهواء والمجتمعات والعادات، فظن هؤلاء أنه ينبغي استثناؤهم من تقريرات التكفير بسبب ذلك!

فحرص الشيخ على تقرير أن هذه الصورة تدخل أول ما تدخل في الموالاة الكفرية، ولا يمكن أن يتصور فيها عارض إكراه بالصورة التي كانوا عليها كما قد قدمناه.

وسليمان بن سحيم من أشهر أعداء الشيخ الذين يمثلون هذا الصنف، يقول الشيخ: «لأن بعض المسائل التي ذكرت، أنا قلتها لكن هي موافقة لما ذكره العلماء في كتبهم، الحنابلة وغيرهم، ولكن هي مخالفة لعادة الناس التي نشؤوا عليها، **فأنكرها علي لأجل مخالفة العادة، وإلا فقد رأوا تلك في كتبهم عياناً، وأقروا بها، وشهدوا أن كلامي هو الحق**؛ لكن أصابهم ما أصاب الذين قال الله فيهم: {فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ} الآية.

وهذا هو ما نحن فيه بعينه؛ فإن الذي راسلكم هو عدو الله **ابن سحيم**، وقد بينت ذلك له فأقر به، **وعندنا كتب يده في رسائل متعددة أن هذا هو الحق، وأقام على ذلك سنين**، لكن أنكر آخر الأمر لأسباب، أعظمها: البغي أن يُنْزل الله من فضله على من يشاء من عباده. وذلك أن العامة قالوا له ولأمثاله: إذا كان هذا هو الحق، فلأي شيء لم تنهوْنا عن عبادة شمسان وأمثاله؟ فتعذروا أنكم ما سألتمونا. قالوا: وإن لم نسألكم، كيف نشرك بالله عندكم ولا تنصحونا؟ وظنوا أن يأتيهم في هذا غضاضة، وأن فيه شرفاً لغيره. وأيضاً، لما أنكرنا عليهم أكل السحت والرشا، إلى غير ذلك من

الأمور، فقام يدجل عندكم وعند غيركم بالبهتان. والله ناصر دينه ولو كره المشركون. وأنت لا تستهون مخالفة العادة على العلماء، فضلاً عن العوام.

وأنا أضرب لك مثلاً بمسألة واحدة، وهي مسألة الاستجمار ثلاثاً فصاعدا، غير عظم ولا روث، وهو كاف مع وجود الماء عند الأئمة الأربعة وغيرهم، وهو إجماع الأمة لا خلاف في ذلك؛ ومع هذا، لو يفعله أحد لصار هذا عند الناس أمراً عظيماً، ولنهوا عن الصلاه خلفه، وبدّعوه، مع إقرارهم بذلك، ولكن لأجل العادة»[1].

بل بقي بعضهم يقرّ أن ما عليه الشيخ حق سنوات طويلة ولكن قبل مرحلة التغيير على الأرض وقد تقدم النقل الذي فيه:

«إذا كانوا أكثر من عشرين سنة، يقرون ليلاً ونهارا سراً وجهاراً، أن التوحيد الذي أظهر هذا الرجل هو دين الله ورسوله، لكن الناس لا يطيعوننا».

والشيخ كان كثيرا ما ينصح المتأثرين بالعادة والعرف والكثرة والزمان نصيحة مشفق بكلام بليغ مؤثر منه:

قوله: «والجهال إذا تنازعوا، ومثلي ومثلكم إذا اختلفنا في مسألة، هل الواجب اتباع أمر الله ورسوله وأهل العلم؟ أو الواجب اتباع عادة الزمان التي أدركنا الناس عليها، ولو خالفت ما ذكره العلماء في جميع كتبهم؟»[2].

وقوله: «فانظر يا رجل، حالك وحال أهل هذا الزمان، أخذوا دينهم عن آبائهم ودانوا بالعرف والعادة، وما جاز عند أهل الزمان والمكان دانوا به، وما لا فلا. فأنت وذاك! وإن كانت نفسك عليك عزيزة، ولا ترضى لها بالهلاك، فالتفتْ لما تضمنت أركان

---

[1] «الرسائل الشخصية» (ص63-64).

[2] «الرسائل الشخصية» (ص62).

الإسلام من العلم والعمل، خصوصاً الشهادتين من النفي والإثبات؛ وذلك ثابت من كلام الله وكلام رسوله»[1].

وقوله: «فيا رجل! ألق سمعك لما فرض الله عليك، خصوصاً الشهادتين، وما تضمنتاه من النفي والإثبات، **ولا تغتر بـ..ما كان عليه أهل الزمان والمكان، فتهلك**»[2].

وقوله: «فلا أعلم لكم حجة تحتجون بها، إلا وقد ذكر الله في كتابه أن الكفار استدلوا بها على تكذيب الرسل، **مثل إطباق الناس، وطاعة الكبراء**، وغير **ذلك**»[3].

النوع السادس من مخالفي الشيخ: أعداء نفسيون!:

من أعداء الشيخ من تَبَيَّن في معاداته للحسد فقط كونه أول من صدع بالحق وأجرى الله على يديه خيرا كثيرا وإذا انتصرت دعوته سيكون له شأن كبير، وهذا أمر موجود في كل زمان ومكان لا يحتاج التدليل عليه كثيرا.

ومن النصوص التي نأخذ منها هذا المعنى ما تقدم من قوله:

«لكن أنكر آخر الأمر لأسباب، أعظمها: البغي أن يُنْزِل الله من فضله على من يشاء من عباده»[4].

تسليط الضوء على السجال العلمي الذي خاضه أئمة الدعوة مع اتجاهات لديها تصورات مغايرة لهم في أبواب تكفير المعين والعذر بالجهل

---

[1] «الرسائل الشخصية» (ص171).

[2] «الرسائل الشخصية» (ص174).

[3] «الرسائل الشخصية» (ص255).

[4] «الرسائل الشخصية» (ص63).

تقدم معنا في شرح مقالة الشيخ وأئمة الدعوة في تكفير المتلبس بشرك القبور من أهل الشهادتين، أنهم يتوقفون في تكفيره في أزمنة الجهل إلى حين تبليغ الحجة على الوجه الذي يفهمه مثله، وكشف الشبهة عنه، فإن التزم بالحجة استمر معه عقد الشهادتين وجزموا بإسلامه وتوحيده، وإن أصر واستكبر انتقضت في حقه وحكموا عليه بالكفر والردة.

ظهر في زمن الشيخ رحمه الله اتجاه من داخل الصف أعني ممن ينتسب للتوحيد وأهله من يرفض هذا الحكم، ويرى أن المنتسب للملة المتلبس بالشرك لا يُحكَم على عينه بالردة بحال.

وهذا الرأي كان يمثله اتجاهان، يختلفان في المقدمة ويتشابهان في النتيجة.

أما **الاتجاه الأول** فهو من يرى أن أبواب التكفيرتختص بمن يصرح بالانتقال من ملة الإسلام، أما كل من انتسب للشهادتين فلا يكفر بحال، ولو فعل ما فعل.

وأما الثاني: فهو اتجاه يجعل الجهل صفة لازمة ومانعا مستمرا في حق المعين ، قالوا: ومادام أن المخالف لم يقتنع بالحجة فلا يكفر بل يعذر بجهله أبدًا.

ولهذا قلنا أن المقدمتين مختلفتين أما النتيجة فواحدة، فالأول لا يكفره أبدا بدعوى أنه من أهل الشهادتين، والثاني لا يكفره أبدا بدعوى أن الجهل ملازم له فيعذر به أبدا.

والشبهة التي عرضت للفريقين متقاربة، فالفريق الأول يقر بأن هذا من الشرك الأكبر، لكنه تصوّر أن الشهادة كافية في الجزم بصحة إسلام الناطق بها ولو فعل ما فعل من نواقض الإسلام كالوقوع في الشرك الأكبر!

والفريق الثاني يقر بأن هذا من الشرك الأكبر، ويقر نظريا بأنه قد يخرج ناطق الشهادة من الملة بسببه، ولكنه يوظف باب الشروط والموانع توظيفا مختلا في هذا الباب بما يجعل هذا الحكم النظري لا يكاد يطبّق على أرض الواقع، ولو قُدّر أن طُبق على معيّن لكان محتملا للأخذ والرد أيضا.

وأعظم باب يقومون بتوظيفه من أبواب الشروط والموانع، هو قيام عارض الجهل بهذا المتلبس بالشرك.

وشبهتهم مقاربة للفريق الأول حيث يتصورون أن الشهادة كافية في الجزم بأن هذا الناطق لم يصدر منه الشرك إلا عن جهل معذور، وبالتالي فالأصل عندهم الجزم بأنه مخطيء معذور في نفس الأمر، ولو علّمناه وبلغناه وشرحنا له وكشفنا شبهته فلم يقتنع أنها حق أو لم يلتزم بها ورفضها يقولون: لم يقتنع بالحجة ولم يقبل الحجة لأنه جاهل لم يفهمها فهو معذور، فيبقى عندهم معذورا أبدا، لا يتنزل عليه حكم التكفير إلا إذا أقرّ بأن ما بلغناه هو الحق الذي جاء به الرسول ولكنه لن يلتزم به، فيحصرون التكفير عمليا في المعاند فحسب، سواء أقروا بهذا نظريا أو لا، لأن كثيرا منهم عند المحاججة النظرية قد ينكر حصر التكفير في المعاند إلا أن التطبيق العملي لطرحه لا يؤدي إلا إلى هذا.

خاض أئمة الدعوة بدورهم سجالا علميا مع هذين الاتجاهين وصنفوا في هذه المسألة مصنفات هامة .

أما الفريق الأول فدار السجال العلمي معهم في إثبات أن تكفير المعين المنتسب للملة حكم ثابت نظريا وعمليا، له تأصيلاته المنتشرة في الأدلة الشرعية والتطبيقات النبوية وصنيع الصحابة والسلف، وهو مبثوث في كلام العلماء، ولا أحد يقول بأنه لا يكفر المنتسب للإسلام إلا إن صرح بالانتقال من الملة إلى ملة أخرى.

أما الفريق الثاني وشبهتهم أدق، فقد خاض الشيخ ثم أئمة الدعوة معهم سجالا علميا هامًّا في عدة مسائل، قاموا من خلالها بوضع النقاط على الحروف وتوضيح المقالة الصحيحة عندهم في هذا الباب، وبيان خطأ هذا الفريق في فهم أصول المسألة من رأسها.

تمخضت هذه السجالات العلمية– حسب قراءتنا – عن تَشَكُّل مدرسة موازية في أبواب الإعذار بالجهل في الشرك الأكبر لديها تصوراتها الخاصة لأصل مسألة الإعذار بالجهل في أبواب الشرك الأكبر، والتي تختلف مع مدرسة الشيخ وطلابه.

وتتسلسل هذه الأفكار، ويأخذ بعضها بعنق بعض ، لتتشكل مجموعة واسعة من الأفكار والتصورات والمفاهيم في هذا الباب.

مع الوقت سينسب هذا الاتجاه مقالته للشيخ موظفًا نصوصه الكثيرة في عدم المبادرة إلى تكفير المعينين من أهل الملة المتلبسين بالشرك الأكبر ويمَرِّر من

خلال نصوص الشيخ آراءه وأفكاره ومفاهيمه في الباب، فيشرحها هذا الاتجاه بناء على مفاهيمه الخاصة لا بناء على مفاهيم الشيخ رحمه الله.

فتنشأ سجالات علمية يقوم من خلالها أئمة الدعوة بتبرئة الشيخ من هذه المفاهيم، وشرح تقريراته من خلال كتبه هو وتقريراته هو.

فيلجأ بعض أرباب هذا الاتجاه إلى انتحال ابن تيمية رحمه الله، فيبريء أئمة الدعوة ساحة ابن تيمية من هذا الفهم المغلوط.

وفي مقابل هذا الاتجاه المتوسع في أبواب العذر بالجهل على غير ما كان عليه الشيخ ومدرسته، سيظهر اتجاه يضيق هذا الباب، فينكر التوقف عن تكفير أهل الملة المتلبسين بالشرك الأكبر في أزمنة الجهل والفترة، ويخطيء الحكم بعدم المبادرة إلى تكفيرهم بأعيانهم قبل تبليغ الحجة، وسيحاول أيضا الانتساب للشيخ ومدرسته، وسيوظف طائفة أخرى من نصوص الشيخ و مدرسته في محاولة تمرير هذا الرأي.

وقد شرحنا فيما تقدم منهج الشيخ ومدرسته في الباب بما لا مزيد عليه عندنا ولكننا سنستحضر هنا خلاصة هذه الأفكار ونضع بحذائها خلاصة أفكار الطائفة الأخرى (المتوسعة في أبواب العذر بالجهل)، ليتصور القاريء أصول المدرسة التي ذكرنا أنها بدأت تتشكل في طريق موازي لمدرسة الشيخ وأئمة الدعوة.

مدرسة الشيخ:

أ: الجهل الذي يكون عارضا يمنع المبادرة لتكفير المعين من أهل الملة المتلبسين بالشرك الأكبر، هو عدم بلوغ الحكم.

ب: فيشترط لتكفير المعين من هؤلاء تبليغه الحجة، مع التعريف بها وشرحها لمن احتاج، وكشف الشبهة عنه.

ج: لذا فإذا كان هذا المعين المنتسب للملة في زمان ومكان يتصور فيه عدم بلوغه الحجة يبلغ أولا ولا يبادر لتكفير عينه.

د: فإذا استنفدنا مع معين شروط قيام الحجة بتبليغها وشرحها والاستدلال عليها وكشف الشبهة عنها، أو كان يعيش في أجواء أمر التوحيد فيه على استقامة لا يزال علماء زمانه ومكانه يعلمونه الناس ويشرحونه لهم ويستدلون عليه ويكشفون الشبهات عنه، فإنه يكفر بعينه، ولا يقال لعله جاهل لعله لم يفهم لعله لم يستوعب ، فيعذر بجهله، ففرق بين قيام الحجة وبين فهمها فهم هداية وتوفيق، فالأول هو شرط تكفير المعين، أما الثاني لو قيل أنه شرط لما وُجد كافر في الدنيا إلا المعاند وهو قليل، أما عامة كفر الكافرين فهو من الأول. (السجال الذي خاضه الشيخ وسيأتي المزيد عنه)

د: إذا تقرر أن المتلبسين بالشرك الأكبر من أهل الملة ليسوا سواء بل منهم المسلم في نفس الأمر ومنهم الكافر في نفس الأمر، ونميز هذا عن هذا بتبليغ الحجة، علمنا أن معاملة الجميع قبل تبليغ الحجة في أزمنة الفترة معاملة المخطيء المعذور ليس حكما له بأنه مخطيء معذور في نفس الأمر، بل هو

حكم مؤقت بناء على ظاهر انتسابه للملة وخطورة التكفير إلى حين تمييز حاله ببلوغ الحجة.

هـ: إذا تقرر هذا فإن مات أقوام متلبسين بالشرك متسبين للملة في أزمنة كتلك فإننا لا نكفرهم ونحكم لهم بمصير الكافرين لعدم تيقن بلوغ الحجة في الظاهر، ولكننا أيضا لا نحكم لهم بمصير الموحدين، بل أمرهم إلى الله. (المسألة التي قررها حمد بن ناصر وأبناء الشيخ).

و: إذا تقرر أن الطوائف التي تموت منتسبة للملة متلبسة بالشرك فنحن وإن لم نكفرهم في الظاهر إلا أننا لا نحكم بأنهم ماتوا موحدين في نفس الأمر وأن مصيرهم مصير الموحدين فلا نجزم لظاهر عملهم وهو الشرك بأنه معفو عنه، عُلِم وجاهة القول بالتوقف عن الترحم والاستغفار بناء على ظاهر العمل الذي ماتوا عليه.(مسألة المؤاخذة التي قررها عبد الله ابن الشيخ وحمد بن ناصر).

ز: يظهر مما تقدم أن هذه المدرسة ترى أن مسألة عبادة القبور مع ظهورها في الأصل إلا أنها قد تدخل في المسائل الخفية في أزمنة الفترة والجهل، ولكنه خفاء من نوع خاص يزول بمجرد البلاغ والتعريف، وليس خفاء عميقاً يحتاج إلى مرحلة أبعد من البلاغ والتعريف كالخوض في مقدمات عقلية وجدل ذهني كما هو الحال في التعاطي مع بعض المقدمات العقلية التي بنت عليها بعض الفرق إنكار بعض صفات الله تعالى، أو غير ذلك من مسائل تلحق بهذا الباب.

وهذا ما دعا بعض أئمة الدعوة لإثارة قضية المسائل الظاهرة والخفية في الشرع والفرق بينهما في هذا الباب، ومقصودهم من هذا الباب تقرير قضية هامة وهو أن الأصل العام في المسائل الظاهرة في الشرع أنه لا يتوقف فيها في تكفير المعينين لأنها من المسائل المعلومة من الدين بالضرورة، ولو قُدِّر أن بعضها قد يخفى في أزمنة الجهل والفترة فيكفي في إزالة هذا الخفاء تبليغ الحجة فحسب، فهي إذن في الصورتين تختلف عن المسائل التي هي خفية من الأصل، وإلا لما كان لهذا التقسيم قيمة علمية.

مقالات المتوسعين في مسائل الإعذار بالجهل في أبواب الشرك الأكبر، والذين دخل الشيخ وأئمة الدعوة في سجال علمي معهم لبيان خطأ منهجهم وطريقتهم.

أ: الجهل الذي يكون عارضا يمنع من تكفير المعين المنتسب للملة المتلبس بالشرك، هو ادعاء الجهل بالبلاغ الذي يكون على الوجه الذي يفهمه مثله، فالجهل عندهم هو دعواه بأنه لم يفهم هذا البلاغ المكتمل الأركان ولم يقتنع به.

فمن تبلغه الأدلة الشرعية ويدعي عدم فهمها، أو عدم الاقتناع بها، وتبلغه التطبيقات النبوية وتقريرات الصحابة والسلف، فيدعي عدم الاقتناع بها، ويبلغه كلام العلماء فيدعي عدم استيعابه، وتكشف عنه شبهاته فيدعي أنها لم تنكشف له، هذا يبقى عند هذه المدرسة جاهلا ، يمنع عارض الجهل القائم به من تكفيره بعينه.

ب: بناء عليه فإنه عند هذه المدرسة لا يكفي لتكفير المعين المتلبس بالشرك الأكبر أن نبلغه الأدلة الشرعية ونعرفها للجاهل بها ونكشف شبهته، بل يبقى بعد ذلك كله جاهلا مادام أنه لم يفهم ولم يقتنع.

ولهذا فإن هذه المدرسة لا تكاد تكفر إلا المعاند الذي يقر بالحق ويكفر به، أما من سوى المعاند فلا تكاد تنزل عليه التكفير، ولو قدِّر أن نزل أحدهم حكم التكفير على معين غير معاند، لما كان هذا مستقيما على أصولهم ولوجد من يخالفه من نفس المدرسة، فيبقى أمر تكفير المعين عندهم عائما.

بل حتى تكفير المعاند يظهر لي من مجمل طريقتهم ومنهجهم أنهم قد يتوقفون فيه، لأنهم سيقولون لعله عاد إلى الشرك بعد اعترافه بالحق عن جهل، فيعذر بجهله.

ج: بناء عليه فإن هذه المدرسة بسبب انحراف فهمها للجهل المعذور به، لا تفرق بين بيئة يتصور فيها عدم البلوغ وبيئة يتيقن فيها البلوغ، بل تعذر المتلبس بالشرك في كل زمان ومكان، فيعذرونه بالجهل في بيئة أمر التوحيد فيها على استقامة، وأهلها من أهل التوحيد، لأنه عندهم ولو كان بلغه التوحيد الحق بأوضح صور البلاغ إلا أنه لعله جاهل لم يفهم ولم يستوعب ولم يقتنع.

د: بناء على هذا الفهم المختل للجهل الذي يعذر به، قام عند هذه المدرسة تصور خاطيء للإعذار في أبواب الشرك الأكبر، حيث يعتبرون المنتسب للملة

المتلبس بالشرك الأكبر في كل زمان ومكان مسلم مخطيء معذور في نفس الأمر، لأن ظاهر عمله الشركي لم ينتج إلا عن جهل معذور.

هـ: ينبني على السابق أن المصير الأخروي للمتسبين للملة المتلبسين بالشرك هو مصير الموحدين، لأنهم مخطؤون معذورون ، وبالتالي فالشرك القائم بهم حكمه حكم العدم فلا يرتقي حتى لحكم المعاصي والذنوب والبدع!

و: ينبني على السابق رفض تنزيل أي حكم بناء على ظاهر عملهم الشركي، لأنهم قد حكموا بأنهم مخطؤون معذورون في نفس الأمر وأن عملهم الشركي هذا في حكم العدم، فلم يتصوروا أن يربط أي حكم بهذا الظاهر، وقد يصفون من ينزل أي حكم بالخروج والغلو.

ز: ومما تقدم يُفهم أن هذه المدرسة تلحق مسألة عبادة القبور بالمسائل الخفية في نفسها في الشرع من كل وجه، وتتعامل معها تعاملها مع المسائل الخفية التي تحتاج في إزالة خفائها إلى مرحلة أبعد من مجرد التبليغ والتعريف، وتقوم هذه المدرسة بتفريغ تقسيم العلماء لمسائل الدين إلى مسائل ظاهرة وخفية من معناه، بدعوى أن هذه المسألة تخفى على الجهال ولو كانت ظاهرة في الأصل.

فعند هذه المدرسة إقامة الحجة على شخص ينكر التوحيد أو ينكر الصلاة أو الزكاة في زمن جهل، هو نفسه كإقامة الحجة في موضوع حلول الحوادث والأعراض في ذات الله تعالى، أو دليل الجسمية والتركيب، وغير ذلك من أصول بنى عليها منكروا الصفات مقالاتهم!!

بخلاف مدرسة الدعوة التي تجعل المسائل الظاهرة في الدين والتي قد يعرض لها خفاء في بعض الأزمنة والأمكنة فتجعل هذا الخفاء بابا، وتجعل خفاء المسائل الخفية في نفسها بابا آخر، وكل باب له أصول مختلفة في التعامل معه.

ونلاحظ هنا أن تقريرات هذه المدرسة آلت إلى أن: كل معين ناطق للشهادة متلبس بشرك القبور جاهل، وكل جاهل معذور، ولو بلغته الحجة ولم يفهمها فهم هداية واقتناع يبقى معذورا، إذن فحكمه والموحدين سواء بلا أدنى فرق في الدنيا والآخرة.

وهذا الاتجاه استمر حضوره في الساحة العلمية إلى اليوم، وينتسب إلى ابن تيمية تارة وإلى إمام الدعوة تارة وإلى بعض العلماء المعاصرين تارة، وهو انتساب منقوض في رأينا، وقد شرحنا وجه ذلك.

واستمرت سلسلة الأفكار التي بُنيت على تصورات خاطئة في الباب ينتج بعضها بعضا عند الباحثين المتبنين لهذا الاتجاه.

ويظهر لي أن ظهور هذا الاتجاه في العصر الحديث كان في مقابِل الغلاة الذين توسعوا في تكفير المعينين بدون ضوابط، وبدون نظر في شروط وموانع، وبدون تفريق بين إطلاق وتعيين فجعلوا كل نصوص العلماء في التكفير على التعيين، فغلا هؤلاء في المقابل في عدم تكفير المعينين، وفي اختراع شروطا وموانع تجعل تكفير المعين كالمستحيل، وفي حمل كل نصوص العلماء في التكفير على الإطلاق.

و كثير من هؤلاء من أصحاب النيات الحسنة، حيث كان خوضهم في هذه الأبواب من باب كسر غلو غلاة التكفير وتنظيراتهم المختلة، إلا أنهم زادوا الطين بلة، واخترعوا أصولا نسبوها لأهل الحديث والسنة وليست من مقالاتهم، ولو أن هؤلاء اكتفوا بالتأصيل لهذه المسائل تأصيلا علميا منضبطا على أصول أهل السنة ثم نصحوا إخوانهم بترك الخوض في مسائل التكفير وترك ذلك للعلماء لأن المصلحة تقتضي ذلك، لكان صنيعا حسنًا، الجميع متفق عليه.

فقد أفرطت جدا بعض تيارات هذه المدرسة في توسعة أبواب الإعذار بالجهل، حتى وقفت منهم على من يرى عدم تكفير أعيان المؤلهة لعلي الذين يقولون لا إله إلا حيدرة لأنهم معذورون بالجهل!، وعدم تكفير أعيان الفلاسفة الذين كانت نصوص الشريعة بين أيديهم والحجة أمام أعينهم فقاموا بتنزيل أصول الدين على أصول فلاسفة اليونان مع تعديل يسير، وبدلوا الشريعة من رأسها فالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر عندهم غير ما عند المسلمين رأساً، يقول بعض أبناء هذا التيار : لا يكفرون بأعيانهم لأنهم معذورون بالجهل!، ويرون عدم تكفير أعيان القرامطة والباطنية الذين كانت الشريعة بحججها ونصوصها بين أيديهم فجعلوا للشرع باطنا غير ما عند أهل الإسلام، قالوا: لأنهم معذورون بالجهل!، وعدم تكفير أهل وحدة الوجود من الحلولية المحضة والاتحادية بأعيانهم لأنهم معذورون بالجهل!.

والحق أن أهل العلم عامة وابن تيمية خاصة لم يتوقفوا في تكفير أعيان كل من تصوَّر حقيقة المقالات السابقة واعتقدها وقال بها، وجعلوا هذه المقالات ليست من المعلوم من الدين بالضرورة عند أهل الإسلام فحسب، بل مما هو معلوم بالضرورة حتى بين اليهود والنصارى وأهل الملل وسائر أهل البدع.

فالرافضة المتوسطة مثلا كانوا يكفرون مؤلهة علي ولا يتوقفون في ذلك، والنصارى يكفِّرون بالضرورة من يقول بالحلول في كل المخلوقات، لأنهم لا يرون الحلول الإلهي لائقا إلا في عيسى عليه السلام، والقرامطة كانت عامة الطوائف الإسلامية تكفرهم، وهكذا.

إنما قد يتوقف العلماء وابن تيمية في مثل من ينتسب إلى بعض هذه الطوائف وهو لا يتصور مقالاتهم ولا يعرف حقيقتها ، أو اغتر بغموض عباراتهم فرددها غير مستوعب لحقيقة معناها، أو انتسب لطريقة بعض هؤلاء اغترارا بشخصه وهو لا يعرف حقيقة ما يقول، أو دخل معهم في درجاتهم الاولى قبل أن ينقلوه إلى الكفر، وهو مسلك عند الباطنية في تربية أتباعهم، فمثل هذا وغيره من الجهال يُبيَّن له أولا حقيقة مقالاتهم وتقام عليه الحجة، حتى يتأكد العالم من حقيقة تصوُّره للمقالة واعتقاده بها، أما كل مَن تيقنوا مِن تصوره للمقالة بوضوح وقوله بها واعتقاده بما فيها فلا يتوقف أحد في جعله أكفر من اليهود والنصارى.

ومِن هنا تفهم لماذا كفَّر ابن تيمية أعيانهم الذين قعَّدوا للمقالة وصوروها بأبلغ تصوير واعتقدوها ودعوا إليها بما لا يدع مجالا للشك في حالهم وكل من كان على شاكلتهم، ولا يصفهم إلا بالملاحدة، ولماذا في المقابل قد يتوقف في مثل من ينتسب لابن عربي وبعض مقالاته من جهلة المتصوفة وهو لا يعرف عن ابن عربي غير أنه ولي صالح، كما حدث له عندما صرح بحال ابن عربي وأصحابه فتعصَّب ضده جملة من الفقراء والمتصوفة[1] تعصُّبًا لاسم ابن عربي وغيره دون دراية بمقالاته، ومثل هؤلاء لا يُتعرَّض لهم بتكفير بل بتعليم.

أو يتوقف في جهلة نفاة الصفات المتأخرين ممن وقع في مقالتهم تقاطع مع مقالة الحلولية فهؤلاء النفاة لما قرروا بأن القول بعلو الله أو استوائه على العرش أو الرؤية يلزم منه إثبات الجهة وهذا يلزم منه التحيُّز وهو كفر، قالوا: ولو قلنا أن الله في يمين الوجود أو في يساره! أو هنا أو هناك سنبقى على إثبات الجهة والتحيز، فخرج بعضهم بمقالة أن الله لا داخل العالم ولا خارجه وهؤلاء يسميهم ابن تيمية نفاة الحلول والمباينة جميعا..، وخرج بعضهم بمقالة أن الله هو الوجود أو أن الله في كل الوجود وهؤلاء يسميهم ابن تيمية الجهمية الحلولية النفاة!! وهؤلاء لا يبادر ابن تيمية لتكفيرهم بل يستفصل عن مرادهم فيقول ماذا تقصد بأن الله هو الوجود أو في كل الوجود هل حل فيه أم امتزج فيه أم تنسبه إليه نسبة خالق لمخلوق أم ماذا تريد، فيأتي بعضهم ليقول بل نقول

---

[1] العقود الدرية ص252 ط. المجمع.

اللاهوت في الناسوت من غير حلول فيه!! أو غير ذلك من خزعبلات، وهم دائما مضطربون كما يصفهم ابن تيمية، وقد جرت لابن تيمية محنة مع أمثال هؤلاء، ومِن تورُّع ابن تيمية أنه كان يعرف أن كثيرا من هؤلاء المتأخرين جهال يرددون كلاما لا يعرفون حقيقته ولا حقيقة ما أراده المؤصِّلون لمقالة الحلولية، وأنهم أجهل من أن يفهموا حقيقة هذه المقالات ، فأمثال هؤلاء لا يبادر ابن تيمية إلى تكفيرهم قبل أن يعرف هل هم يتصورون ما يقولون، وأكثرهم لا يتصورون!

وهؤلاء هم من أرادهم في نصه الشهير: ((ولهذا كنت أقول **للجهمية من الحلولية والنفاة الذين نفوا أن يكون الله -تعالى- فوق العرش لما وقعت محنتهم**، أن لو وافقتكم كنت كافراً؛ لأني أعلم أن قولكم كفر، وأنتم عندي لا تكفرون لأنكم جهال، وكان هذا خطاباً لعلمائهم وقضاتهم وشيوخهم وأمرائهم))[1].

ولهذا ذكر ابن تيمية نفس هذا النص ولكنه سماهم الجهمية فقط ولم يقل الحلولية وفي مقدمة كتابه المخصص لمقالات الجهمية (بيان تلبيس الجهمية) وهو يناقش ابن خطيب الري الرازي في قضية العلو المذكورة، للسبب الذي ذكرناه أن الكلام إنما هو مع جهمية وقع تقاطع في مقالاتهم مع الحلولية لما خاضوا في مسألة العلو، يقول ابن تيمية في الوضع المشار إليه[3]: ((ولهذا كنت أقول لأكابرهم: لو وافقتكم على ما تقولونه لكنت كافرًا مريدًا -لعلمي بأن هذا

---

[1] الاستغاثة ص253.

[3] بيان تلبيس الجهمية 1/ 10.

كفر مبين- وأنتم لا تكفرون لأنكم من أهل الجهل بحقائق الدين، **ولهذا كان السلف والأئمة يكفرون الجهمية في الإطلاق والتعميم، وأما المعين..))إلخ.**

وإلى جانب كونهم ليسوا من الحلولية المحضة، فهم أيضا ليسوا من الجهمية الأوائل، بل كانوا ينتسبون لطريقة أبي الحسن الأشعري، ولكن ابن تيمية كان يطلق عليهم الجهمية من جهة توسعهم في نفي الصفات بما خرجوا به حتى عن طريقة أبي الحسن سواء في طوره الأوسط أو الأخير، فصاروا ألصق بالجهمية الذين كان الأشعري نفسه يجادلهم وفي نفس المسائل، ولهذا كان يناقشهم من كلام الأشعري نفسه كما في العقود الدرية عند الحديث على هذه المحنة[1].

أما الحلولية المحضة إن صح التعبير الذين غالبا ما يقرنهم بأهل الاتحاد فلا يتوقف ابن تيمية في تكفيرهم في كل موضع يذكرهم فيه، ومثلهم الجهمية المحضة لم يتوقف فيهم السلف.

والمتخصص يعرف الفرق العميق بين مقالة نفاة الصفات بما فيهم الجهمية وبين الحلولية، فالنفاة أثبتوا خالقا ومخلوقا من خلال دليلهم الشهير في إثبات الصانع سواء من سلك طريقة الحوادث والأعراض أو من سلك طريقة التركيب والجسمية أو الهيولي والمادة، أو الجوهر الفرد أو غيره، إلا أنهم التزموا بعد ذلك بأنهم لو أثبتوا الصفات سيلزم أن الصانع حادث أو مركب...فالتزموا نفي الصفات، ولما نفوا صفة العلو دخلوا في السجال المذكور فبدأت تتقاطع

---

[1] ص250، ط. الفقي.

مقالات بعضهم بمقالات الحلولية فوقعوا فيما هو أسوأ مما شنعوا به على مثبتة العلو، كما قدمنا، ثم منهم من يبقى مضطربا ومنهم من يلتزم مقالة الحلولية المحضة فيصير حكمه حكمهم.

أما الحلولية المحضة والاتحادية فإثباتهم للصانع من رأسه مختل فهم لا يثبتون خالقا ومخلوقا بالشكل الذي يثبته المسلمون أصلا[1]، وبالتالي فلا يوجد أي ركن من أركان الإيمان والدين تصوره مستقيم عندهم، ولهذا دائما ما ينبه ابن تيمية أن هؤلاء ملاحدة في كل الملل، كافرون بما هو معلوم عند كل الملل بالضرورة.

ويُتوقَّف أيضا في مثل من قد يسمع إلى من يقول أن القرآن له ظاهر وباطن، فيردد مثل هذه الكلمة وهو لا يتصور حقيقة ما يريده الباطنية من هذا إنما ظن أن الباطن هو الذي يفهمه أهل الذكر والفقهاء من دقائق الفقه والتفسير ، فمثله يُسأل أولا ماذا تقصد.

ومن نفس الباب طُلاب ما يسمى بالفلسفة الإسلامية في الجامعات تجدهم يعظمون ابن سينا ومقالاته وهم لم يسمعوا بمقالته التي اخترعها وبنى عليها

[1] للفائدة: يحتاج الباحث الجاد الذي يريد تصور مقالات ابن عربي وابن سبعين والقونوي والتلمساني وابن الفارض وأمثالهم أن يطلع إطلاعا جيدا على مبحث (إثبات الكليات في الخارج) من مباحث الفلسفة اليونانية وما دار حوله من سجال بين المشائين والطبيعيين و ما يسمى بالفلاسفة الإسلاميين وما نتج عنه، وكل واحد من هؤلاء مقالته تختلف جزئيا عن الآخر، ولكنها تدور في نفس الفلك، ومن أراد تصور مقالات الحلاج وأمثاله عليه أن يضيف إلى ذلك مبحث النسطورية واليعقوبية في النصرانية، هذا كمدخل وإلا فهي عقائد ممزوجة من الفلسفة والنصرانية المحرفة والتراث الفارسي الغنوصي، ولهذا لم يعرفها المسلمون إلا مع قدوم التتار.

دينه وهي (الواجب بغيره الممكن بنفسه) ، والتي شنَّع بها عليه من هو أعلم بالفلسفة منه وألصق بأرسطو وتراثه وهو ابن رشد، وجعله ضُحكةً بهذه المقالة، وهي المقالة التي بنى عليها أصول دينه في تصوُّر الخلق والرب ثم الكتب والوحي والنبيين والرسل واليوم الآخر بغير ما عند المسلمين، وقد يسمع هؤلاء الطلاب بهذه المقالات ولكنها تفسر لهم على غير حقيقتها عند صاحبها.

ومن نفس الباب ما يردده المتصوفه من الفناء عن شهود السوي والاصطلام، يُحتاج أن يُعرف مقصود المتكلم منهم هل أراد أنه لا ثمَّ في الوجود إلا الله، وأن الوجود صار وجودا واحدا وهو الإله كما يقول الحلاج، أم أنه ما ثمّ سوي إلا الله ولا غير بوجه من الوجوه وأن الكائنات صارت بمنزلة أجزاء منه وأبعاض كموج البحر، وهي مقالة التلمساني، أم ماذا، وعامة جهال المتصوفة إنما يردد كلاما لا يفهمه ولا يتصور حقيقته، المهم أن يقنع نفسه أنه وصل إلى مرحلة الفناء والشهود والاصطلام وكفى!!.

ومن عرف هذا فهم عبارات ابن تيمية من نوعية : (ومن هنا دخل كلام هؤلاء الزنادقة على المتصوفة)، و(من هنا دخل كلام الملاحدة إلى النساك، وهكذا)، فالداخل في هذه المقالات منهم ملاحدة وزنادقة مفروغ منهم، وبَقي جهال يحتاج أن نستفصل عن مراداتهم وقصودهم أولا.

ومن هنا يفهم أيضا مثل قول ابن تيمية:

((وهذا موجود في منطق اليونان وإلهياتهم، وكلام أهل الكلام من هذه الأمة وغيرهم، يتكلم رأس الطائفة كأرسطو مثلا بكلام، وأمثاله من اليونان بكلام، وأبي الهذيل والنظام وأمثالهما من متكلمة أهل الإسلام بكلام، ويبقى ذلك الكلام دائراً في الأتباع، **يدرسونه كما يدرس المؤمنون كلام الله، وأكثر من يتكلم به لا يفهمه** [!].

وكلما كانت العبارة أبعد عن الفهم كانوا لها أشد تعظيماً، وهذا حال الأمم الضالة، كلما كان الشيء مجهولاً كانوا أشد له تعظيما، كما يعظم الرافضة المنتظر، الذي ليس لهم منه حس ولا خبر ولا وقعوا له على عين ولا أثر.

وكذلك تعظيم الجهال من المتصوفة ونحوهم للغوث وخاتم الأولياء، ونحو ذلك **مما لا يعرفون له حقيقة**))[1].

* ومن مقالات هذا الاتجاه أن السلف لم يكفروا أحدا من أعيان الجهمية بل تكفير الجهمية **كله** على الإطلاق! والحق أن تكفير الجهمية قسم منه كان على التعيين وقسم كان على الإطلاق.

فالجهمية المحضة الغالية الذين جعلوا إلههم والعدم سواء من منظري الجهمية ورؤوسها المنطلقين من أصلهم الباطل في إثبات الصانع المعروف بالجسمية والتركيب، لم يتوقف السلف في تكفير أعيانهم، أما من دون الغالية ممن خاض في باب الأسماء والصفات بنفي بعض الصفات الكبرى فإن كان في بيئة السنة

---

[1] درء التعارض 5/ 315.

فيها ظاهرة فلم يتوقف السلف أيضا في تكفير أعيانهم لبلوغ الحجة لهم إما بالصورة الفردية عن طريق محاجة هؤلاء العلماء المستمرة لهم، أو الطريقة الجمعية من خلال استقامة العقيدة في تلك البيئة، أما إن كانوا في بيئة طغى عليها الجهل بهذا الباب وانضاف إلى ذلك إكراه علماء السنة في تلك الناحية على القول بتلك المقالة الباطلة أو غير ذلك من عوامل تجعل المسألة تلتبس على كثير من العامة ففي مثل هذه البيئات يقتصر العلماء على تكفير من تيقنوا من إبلاغه الحجة فقط أما من سوى ذلك فلا يكفرون بأعيانهم ولو كانوا هم الأكثر، وهذا هو منهج الإمام أحمد الذي طبقه في بيئته في زمن المحنة و الذي أشار له ابن تيمية، حتى أشار ابن تيمية إلى أنه لم يكفر المأمون وشرطته ممن كان يُكره الناس على هذه المقالات لاعتقاده أنهم جهلة ملبّسٌ عليهم، ولم تتح الفرصة لأهل السنة لتبليغهم الحجة على الوجه المستقيم.

وأبعد من هؤلاء في تنزيل التكفير من خاض في باب الأسماء والصفات بالإثبات، سواء أثبت صفات خمس أو سبع أو عشرين ثم وافق الجهمية في باقي الباب بالنفي، فهؤلاء وإن كانوا يَدخلون في اصطلاح بعض العلماء تحت مسمَّى الجهمية العام باعتبار ما نفوه، إلا أن إثباتهم لجملة من الأسماء والصفات معتقدين إثبات صفات الكمال لله تعالى يُعمِّق الشبهة العلمية لديهم، وظهور مقالاتهم في زمن الانحطاط العلمي للأمة يؤكد أنه لم يتيسر مناقشتهم ومحاجتهم على الوجه المطلوب، ومقدماتهم العلمية التي بنوا عليها مقالتهم

فيها من الدقة و الخفاء ما يحتاج علماء من نوع خاص يقومون بنقضه نقلا وعقلا ولهذا لم يقم بهذا الواجب إلا أفراد، كابن تيمية رحمه الله، ولهذه العوامل كان العلماء لا يتعرضون لتكفير المعينين ممن يتبنى مثل هذه المقالات للعوامل التي ذكرناها وغيرها، ويكتفون ببيان ضلالهم وبطلان مقالاتهم.

وأبعد من هؤلاء جميعا عن تنزيل التكفير من كانت أصوله أصول المثبتة في الجملة في باب الأسماء والصفات ثم وقعت له شبهة في باب معين فقط كالصفات الخبرية فنفى متأولا النصوص الواردة فيها فمثل هؤلاء لا تجد أحدا من أهل العلم المنصفين يخوض فيهم بتكفير، بل هؤلاء يطلق عليهم مثبتة المتكلمين، بل قد يعدهم بعض أهل العلم في جملة أهل السنة فيما وافقوا فيه السنة، وفيما اجتهدوا فيه من رد أصول الجهمية والمعتزلة.

ولعل في هذا التفصيل المختصر بيان خطأ من جعل كل إطلاقات العلماء في تكفير من نفى صفة من الصفات على التعيين، فكفّر كل معين أنكر ولو صفة واحدة! وهو كلام من لم يفهم هذا الباب ومناطاته وضوابطه عند العلماء.

وفيه بيان خطأ من جعل تقريرات العلماء في هذا الباب كلها على الإطلاق ولا تعيين فيها البتَّة، ولو كان من الجهمية المحضة الذين جعلوا ربهم كالعدم وفي بيئة السنة فيها منتشرة مشهورة.

ومقتضى هذا القول أن النصوص التي وصلتنا عن السلف في تكفير الجهمية والتي هي بالمئات معناها أن كل الجهمية مسلمون موحدون مؤمنون ولكن

مقالتهم فقط هي الكافرة!! ويا لله العجب هل كان السلف عاجزين عن مثل هذا التعبير؟ أن يُسألوا عن الجهمية فيجيبوا: هم مسلمون مؤمنون لهم ما لأهل الإسلام وعليهم ما عليهم، إلا أن مقالتهم مقالة كفرية.

ليريحوا ويستريحوا ولا يُدخلوا من يأتي بعدهم في متاهة تكفير المعينين كما يظن هذا الاتجاه.

ومَن قرأ تقريرات السلف المتكاثرة عن الجهمية علم أن الأصل عندهم في وقت انتشار السنة والعلم هو تكفير أعيانهم ثم طرأت عوامل بيئية وزمانية جعلتهم يستثنون البعض، وقد يكون المستثنون في بعض الأزمنة والأمكنة هم الأقل وقد يكونون هم الأكثر.

كما يلاحظ في تقريراتهم تفعيل أبواب المؤاخذة لكل من يقول بمقالاتهم ومات على ذلك بصورة عامة ولو لم يكفروا عينه، وقد يخرجون عن هذا في بعض الصور سبق أن أشرنا لبعض أمثلتها.

*كما لاحظت أن من جملة مقالات هذا الاتجاه أنهم يظنون أن تكفير العلماء للمعينين لا يثبت إلا إذا جئنا بالاسم الثلاثي للمكفَّر، كما في البطاقة الشخصية ربما!!

فعندما نقول مثلا قد أجمع العلماء على كفر أعيان القرامطة والباطنية والإسماعيلية الذين يقولون بالمعتقدات الفلانية..هنا يبادر أبناء هذا الاتجاه بمطالبتك بكشوفات لأسماء القرامطة المكفَّرين عند هذا العالم، فهذه الطريقة

الوحيدة التي يثبت فيها تكفير هذا العالم لمعيَّن عندهم، أن ينص العالم على أن فلان بن فلان بن فلان كافر.

وهذا كله خطأ فتكفير المعين قد يصدر من العلماء على وجه فردي، وقد يصدر على وجه جماعي.

فتكفير العلماء لهذه الطوائف -على الوجه المشروح- هو من جنس تكفير اليهود والنصارى، فكما أننا لا نحتاج لكشوفات بأسماء كل فرد من اليهود والنصارى لنثبت أنهم كفار، فإن هذه الطوائف أكفر عند العلماء من اليهود والنصارى بدون كشوفات للأسماء!.

وكما أننا نعتقد أن كل مَن اعتقد أن المسيح هو الله أو ابنه أو ثالث ثلاثة ولم يؤمن بالرسالة المحمدية فليس هو من أهل ملة الإسلام ولو نطق بلسانه الشهادتين بغض النظر عن اسمه واسم أبيه وأمه، فكذلك قرر العلماء أن من اعتقد مقالات هؤلاء متصورا حقيقتها فليس هو من أهل ملة الإسلام بغض النظر عن اسمه واسم أبيه.

ومثل هؤلاء في العصر الحاضر البهائية البابية وهي طائفة باطنية معاصرة انتسبت للملة وبدأت بطابع فلسفي صوفي ثم تطور كبراؤها في إظهار معتقداتهم فلم يزيدوا على مقالات الباطنية والحلولية القدامى، فكفرتهم سائر المجامع الإسلامية ومنها دار الإفتاء المصرية ومشيخة الأزهر! وحكمت

بردتهم وفسخت أنكحتهم ..إلخ، فهؤلاء كفار بأعيانهم، ولا تحتاج تلك المجامع أن تنص على اسم كل معين منهم وترفق اسمه بتكفيره!

تماما كما كفر ابن تيمية وقبله الغزالي في (فضائح الباطنية) سائر من اعتقد بالمعتقدات التي أشاروا إليها، وكما كفر سائرُ العلماء العبيديين، ولم يحتاجوا أن يقدموا كشوفات بأسمائهم!! فهؤلاء هم أحفاد هذه الفرق.

ولما ساق الأزهر أسباب حكمه بردتهم كان السبب الأول هو قولهم بالحلول، فليعتبر من ينتسب إلى السنة اليوم ويقول أن تكفير الحلولية إنما هو تكفير للمقالة لا للقائل.

ومثلهم تكفير القاديانية الأحمدية، وهي جماعة منتسبة للملة تدعي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بشعائر الإسلام جميعها، وقد خالطتهم في الهند ورأيتهم في أندونيسيا وفي غيرها، ولا يبدو لك من الوهلة الأولى غير أنهم مسلمون، ولكنهم اعتقدوا أن النبي هو خاتم الأنبياء بمعنى أعلاهم منزلة ورتبة ولا ينفي هذا أن يأتي بعده نبي، وجعلوا نبيهم الأخير هو ميرزا غلام أحمد القادياني، فكفرتهم سائر المجامع الإسلامية ومنها الأزهر وقد أصدر فتوى في زمن الشيخ جاد الحق، وقد وجدتهم أدخلوا تعديلات على معتقداتهم ليسلموا من الحكم بردتهم فوجدتهم ينصون على أنهم لا يقصدون بنبوة ميرزا أنه نبي كسائر الأنبياء بل هو المسيح الذي بشرت الأديان

أنه سينزل آخر الزمان والمهدي الذي سيحل السلام في الأرض، ومع هذه التعديلات فقد بقيت الفتوى بكفرهم وردتهم عند سائر المجامع الإسلامية.

وقارن بين غلوهم في شخص ميرزا وفي مقام النبوة فقط، وغلو عباد القبور في مئات الأشخاص وفي مقام الألوهية.

بل ستجد مِن أبناء هذه التيارات مَن إذا أتيته بمثل هذا السياق من يقول لك: لا يلزم من قولة فلان بن فلان كافر أن يكون كفرا أكبر.

*وما ذكرته في النقاط السابقة يظهر لي أنه ناتج أيضا عن خلل عند هذا التيار في فهم تعبير العلماء بـ (التكفير على التعميم)، فهم يظنون أن التكفير على التعميم معناه أن كل أعيان الطائفة مسلمون! فمثلا عندما يقال: السلف كفروا الجهمية على التعميم لا التعيين، معنى هذا عندهم أنهم حكموا لجميع المعينين بالإسلام وكفروا المقالة! وهذا خطأ، بل التكفير على التعميم معناه أن الطائفة فيها كفار بأعيانهم وفيها من لا يُبادَر لتكفيره بعينه، مع ربط الباب بالأوصاف لا التخصيص بالأشخاص.

فمن كان من الطائفة على صفة كذا وكذا فهو كافر بعينه، ومن كان على صفة كذا فليس كافرا بعينه إلا بعد التحقق من بعض الشروط.

ولهذا الذي يفهم لفظة (التكفير على التعميم) على الوجه الصحيح عندما يقف على مقالات واضحة للسلف في تنزيل التكفير على معينين من الجهمية

كالجهمية المحضة أو من عاش منهم في وقت كانت منارات السنة فيه ظاهرة ، أو مَن حاجوه وجادلوه ،يعلم أن هؤلاء كانوا على الوصف الأول.

وعندما يقف على توقفهم عن تكفير البعض والجزم بأنهم جهال يعلم أن هؤلاء من الصنف الثاني.

أما التيار الذي يفهم أن التكفير على التعميم معناه أن الطائفة كلهم مسلمون يقف واجما أمام نصوص تكفير الأعيان فإما أن يحرفها ويفرغها عن مضمونها، فيقول مثلا قول السلف أن الجهمية ليسوا من أمة محمد معناه أنهم من أمة محمد، وقولهم الجهمية زنادقة معناه أنهم ليسوا زنادقة، وقولهم الجهمية ليسوا من الثنتين والسبعين فرقة معناه أنهم من الثنتين والسبعين فرقة!! وإما أن يُطرِد مقالته ويتهم هؤلاء العلماء بالغلو في التكفير.

وكأنه من نفس الباب استشكال هذا التيار لمقالة حمد بن ناصر وعبد الله بن الشيخ بأن الأمم الخالية ممن مات على الشرك الأكبر لا نكفر كل معين منهم وفي نفس الوقت لا نحكم على الجميع بإسلام بل يربط الباب بالاوصاف ويفوض أمرهم لله، لأن هؤلاء فهموا أن الواقعين في الشرك الأكبر مكفرون على التعميم، معناه أن كل معين معين منهم مسلم مؤمن موحد في كل زمان ومكان!

*ومما لاحظته في مقالات هذه المدرسة أنهم جعلوا المتسببين للملة قاطبةً في كل زمان ومكان حديثي عهد بإسلام، أو ناشئين في بلد بعيد كأدغال أفريقيا وأحراش تاهيتي!

ففقهاء الإسلام عندما ينصون مثلا على أن من جحد معلوماً من الدين بالضرورة كالصلاة والزكاة بين المسلمين فهو مرتد، ثم يستثنون من نشأ في بلد بعيد أو أسلم حديثا، هم يفرقون هنا تفريقا واضحا بين الأصل والاستثناء الذي ينبغي أن يُطبَّق في حدوده، لا لنجعل الصورة المستثناة هي الأصل في كل زمان ومكان وحالة.

ولو خرج بين ظهرانينا في بلادنا الإسلامية اليوم من يجحد القرآن مثلا، لن تعدم من هذا التيار من يقول لك لعله ولعله ولعله.

ولهذا تجد هذا التيار داخل السعودية ينكر فتاوى العلماء في أن الأصل حاليا هو عدم الإعذار، وهذا التيار يجعل الأصل هو الإعذار لأنهم جهال، وهذا رأي لم نفهمه، كيف يتصوَّر أن يأتي شخص يرى مائة بالمئة من الشعب السعودي موحدين وقد نشأ بينهم ثم هو منطرح وحده بين يدي قبر، خاضعا ساجدا عابدا، ألا يثير هذا في نفسه تساؤلات وشكوكا، وكيف يتصوَّر أنه لم يسمع بالتوحيد قط! هل ذهب أجداده في رحلة إلى الربع الخالي قبل ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فتاهوا ثم عادوا اليوم ولا سمعوا بتوحيد ولا بحروب ولا بابن عبد الوهاب ولا ابن سعود في حين أنهم سمعوا ولابد عن

نادي الهلال و اتحاد جدة ويشاهدون ام بي سي!، هل اختفوا في مغارة يوما من الدهر ثم تذكروا العودة للرياض الآن.

وكثير من الإخوة الذين أناقشهم يبادرني بقوله: لكن لعله أصم لعله أبكم لعله لعله، ومعلوم أننا عندنا نؤصل لهذه المسائل نتكلم على صور طبيعية واضحة، لا نتكلم عن شخص دخل في غيبوبة مثلا يوم ولادته واستيقظ الآن، أو شخص ميت موتا إكلينيكيا أو سريريا، ولو أن شخصا دخل في غيبوبة سنعذره لكن لا أظن أن الشعب كله دخل في غيبوبة.

*ولاحظت خللا عند هذه المدرسة أيضا في استيعاب معنى الحجة واختلاف صور إقامة الحجة، فهم لا يتوقفون عند هذا الحد، بل بعد عذر كل هؤلاء بالجهل، يقومون باشتراط الشروط التعجيزية في صفة الحجة ومن يقيمها.

*ومن صور الخلل أن هذه المدرسة لا تكاد تقيم لحجية القرآن وزنًا، بل أفهم من أطروحات بعضها أن القرآن ليس بحجة في نفسه أصلا! ولهذا تجدها تنكر كثيرا على من يقول إذا بلغ القرآن فقد قامت الحجة، مع أن هذه القاعدة لا يمكن أن تكون إلا حقًّا ، فالقرآن هو حجة الله على البشرية.

وتجدها **تطلق** تخطئة القول بأن عباد القبور قد بلغهم القرآن وبه قامت الحجة عليهم، لأنها ترى أن القرآن غير كاف في رفع الجهل في أية صورة، وهذا باطل.

وتطبيقات قاعدة حجية القرآن كثيرة وواضحة، فإذا وجدنا رجلا حديث عهد بإسلام أو نشأ ببلد بعيد أنكر الصلاة، ففتحنا له القرآن الكريم وتلونا له الآيات

القرآنية التي تضمنت (وأقيموا الصلاة) مثلا وهو يفهم العربية، إذا لم تكن هذه حجة فلا ندري ما هي الحجة إذن.

كل ما في الأمر أن الحجة القرآنية قد يتخلف وصولها للشخص لمانع قام به كعجمة لسانية فيحتاج أن نترجم له هذه الحجة القرآنية بلغته، أو ضعف في الفهم للآيات التي يتصور فيها ذلك ، فنشرحها له بآيات قرآنية أخرى وأدلة نبوية ونقرب له المعنى من خلال كلام العلماء، أو عارض شبهة فنكشفها له بالقرآن أيضا، **فعادت الحجية إذن للقرآن بشكل أو بآخر**.

وأصول الإسلام الكبرى قد قررها القرآن بأبلغ الألفاظ وأجزل العبارات التي لا تُشكل على أحد، وهذا من سعة رحمة الله.

والقرآن له وقع على القلوب والعقول الباحثة عن الحق، لا يضاهيه شيء.

إنما فرقنا في حال المتلقي بين من استطاع أن يتلقى القرآن كما أنزل، **وبين من حال بينه وبين فهم الآية القرآنية أثقال الشبهات والتشويه والتحريف والتأويل فاحتجنا أن نزيل عن الحجج القرآنية هذا الصدأ أولا قبل أن نقرر قيام الحجة عليه، وهذا هو منهج العلماء المحققين فيما يتصور فيه ذلك من مسائل كمسألتنا في هذا الكتاب.**

وبسبب الخلل عندهم في هذا الباب تجدهم يستشكلون كيف يقيم ابن تيمية الحجة في الشرك الأكبر، مع أن المخالفين عندهم علماء أيضا، وكيف لابن عبد الوهاب أن يقيم الحجة والآخرون عندهم علماء، وهذا كله خطأ فالحجة

في أصول الإسلام الكبرى ومسائله المعلومة من الدين بالضرورة الحجة فيها القرآن لا كلام ابن تيمية ولا كلام ابن عبد الوهاب ولا كلام النووي ولا كلام ابن حجر ولا أحد، وكيف يكون كلام البشر حجة وكلام رب البشر ليس بحجة؟!

وهبْ أن ابن تيمية لم يوجد وابن عبد الوهاب لم يخلق أكانت حجة الله على البشر تنقطع؟!

فعندما يدخل شخص الإسلام اليوم وبعد دخوله وجدناه لا يعرف الزكاة أو الحج أو الصيام أو الملائكة أو الأنبياء، مثل هذه الأصول الكبرى حجية القرآن كافية فيها تتلى عليهم الآيات وتُشرَح لهم فتمموا إسلامهم وإلا لم يكونوا من أهل الملة.

وفي باب عبادة القبور أيضا الأصل أن حجية القرآن كافية وهذا جرَّبناه في غير مكان في دعوتنا، فقط يحتاج الشخص أن يخرج عن أسرالعادات والتقاليد وضغط المجتمع ، وقد حدث معي في قرى أندونيسيا وينتشر فيها السحر والشرك الكثير من ذلك وشهِدَهُ كثير من الحضور، أن أذكِّرهم بقوله تعالى (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب..)، (وأن المساجد لله فلا تدع مع الله أحدا..)، (قل لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا..) إلخ الآيات المعروفة، وآيات التوحيد لها وقع عجيب على القلب ، مع التذكير بما ثبت في السنة من قُرب الله من العبد وهو ساجد وفي الثلث الأخير من الليل، فلماذا تترك القريب وتذهب تتمسح

بقبور الأرض في آخر البلاد، وكثير من هؤلاء تصادف هذه الآيات من قلبه رغبةً في الخير وبحثا عن الحق، وعامتهم يتوب من شرك القبور في نفس المجلس ، أما الشخص الذي يُقبل على القرآن ولكن عنده استشكالات وشبهات ويحتاج مناقشات فلا بأس مادام أنه أخذ الخطوة الأولى مع القرآن نشرح له ونفهمه ونبيِّن له في مجلس في اثنين في ثلاثة، في عشرة.

ومن عرف هذا عرف دقة ووسطية قول أئمة الدعوة: (الحجة القرآن، ولكن الجاهل يحتاج من يبيِّن له).

وعرف لماذا لما صنَّف الشيخ كتاب التوحيد ليكون منطلقه في تعليم الناس، اقتصر على الآيات والأحاديث وشيء من تفسير السلف للألفاظ وليس في الكتاب من كلامه إلا الحرف بعد الحرف، فهذا يمثل الحجة، ولماذا صنف القواعد الأربع التي ربط فيها الصورة بالأصل، أعني صورة عبادة القبور بالشرك الأكبر، فهذا يحتاجه الجاهل الذي يريد من يُبيِّن له، ولماذا صنف كشف الشبهات التي أجاب فيه على شبهات المخالفين، فهذا يحتاجه الجاهل الذي تبيَّن له وبقيت عنده نوع شبهة.

وبسبب هذا الخلل عند هذا التيار تجدهم يصنفون مثل الشوكاني بمقالته المعروفة من أن عباد القبور في زمانه قد قامت عليهم الحجة بالقرآن ولا يعذرون بجهلهم، فتجدهم يصنفونه فيمن لا يرى أن عارض الجهل عذر في هذا الباب، وهذا خطأ، فالشوكاني معنى كلامه أن عارض الجهل يرتفع ببلوغ

الآيات والأحاديث ، وفرق بين الأمرين، وبقي التدقيق هل الشوكاني في حالة ما إذا كان الشخص يشكل عليه شيء هل ينبغي أن نبيِّن له أولا أم لا.

وتجدهم يصنفون مثل الشيخ ابن باز عندما يستفتى عن رجل يعيش بين مسلمين موحدين والقرآن يتلى ، فهذا عرف التوحيد تنظيرا من القرآن وتطبيقا من الموحدين حوله، فيقول أنه لا يعذر بجهله، فيقول هذا التيار إذن فهو لا يرى العذر بالجهل ، ويصنفه بعضهم من الغلاة في الباب.

وهذا خطأ فالشيخ يرتفع عنده عارض الجهل بمجموع بلوغ القرآن وتطبيق الموحدين حوله وسهولة الوصول للحق في زمانه لمن بحث عنه.

*ومما تفرَّع على الفهم المختل لهذا الباب عند هذه التيارات أنهم يتعاملون مع الكفر بأصول الإسلام تعاملهم مع مسألة فقهية اختلفت فيها مذاهب العلماء، فإذا قام العلماء بإقامة الحجة المستوفاة على شخص ما أو طائفة ثم كفروهم بأعيانهم، نجد أبناء هذا التيار يرفضون تكفير المعينين بشبهة أنهم هم أيضا عندهم علماء يقولون بهذا الرأي!! وكأن القرآن لم ينزل وكأن الوحي لم يكن!

*ولم أقف إلى الآن على رأي هذه المدرسة في تكفير الصحابة للقسم المشهور من المرتدين، الذين لم يُشركوا في الألوهية ولا عبدوا القبور ولا عادوا لعبادة الأصنام ولا خلعوا الإسلام كله عن أعناقهم ولا كفروا بأركان الإيمان ولا تقرمطوا فضيعوا الشريعة ولا تفلسفوا فبدلوها، بل أشركوا في النبوة فحسب،

فادعى كل فريق له نبيًّا، وأدخل بعضهم تعديلا يسيرا على بعض الفرائض الإسلامية، مع الإقرار بسائرها!

ثم تكفيرهم لجاحدي الزكاة - لا التوحيد !- وقتالهم ورفع راية قتال المرتدين، هل كان أهل الردة هؤلاء أهل ردة على التعيين أم على الإطلاق!

*وكثير من أبناء هذه التيارات بعدما تشرب هذه الأفكار وظن أنه لا وجود لتكفير معينين في التراث الإسلامي، وضعوا له شبهة أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب هو الوحيد الذي كفَّر معينين في التاريخ!!

فتجده يردد السلف لم يكفروا معينين! ابن تيمية لم يكفر معينين! ابن عبد الوهاب فقط هو من كفر معينين!!

*ووضع غيرهم له استشكالا مفاده لماذا ابن تيمية لم يكفر معينين! وابن عبد الوهاب كفر معينين!

وهو استشكال غريب لأن السلف وأهل العلم ليسوا ابن تيمية وحده، فلو قدرنا جدلا – وهو باطل – أن ابن تيمية أو عالما غيره لم يمارسوا تكفيرا لمعينين ماذا سنفعل بصنيع الصحابة ومَن جاء بعدهم؟!

ثم إن الواقع أن ابن عبد الوهاب إذا كان كفَّر بعض رؤوس مقاتليه ممن لا يكاد يعرف إلا في منطقة العارض ولم يشهر بفضل ولا علم، فإن ابن تيمية كفَّر مجموعة من أشهر الأسماء ومن أوسع الناس إدراكا واطلاعا ومن المعظَّمين

عند فئات واسعة من المجتمعات الإسلامية بل وغير الإسلامية عبر القرون وعلى رأسهم ابن سينا وحزبه وابن عربي وحزبه، ولا يكاد يذكرهم إلا بوصف الملاحدة.

ومعظِّمي هؤلاء جهلا في العالم الإسلامي عبر القرون إلى اليوم لا يُحصَون، فأيهما أعظم أثرا ووقعاً.

وفي حين أن ابن عبد الوهاب لم يناضل إلا على مسألة شرك القبور، فإن ابن تيمية هو من أشهر عامة المقالات الكفرية من جهمية إلى باطنية إلى إسماعيلية إلى إمامية إلى فلاسفة ...إلخ، وألصق بهذه الطوائف من أوصاف الكفر والزندقة والإلحاد ما لا تخطئه عين، وهو أشهر من ردد عبارة يستتاب وإلا يقتل في زمانه!

والسلف كفَّروا بما هو دون الشرك الأكبر كمقالة الجهمية.

*وبعضهم يطرح استشكالا طريفا فيقول لكن ابن تيمية لم يكفر مخالفيه الذين عاصرهم، وابن عبد الوهاب كفَّر، وهو كلام فيه طرافة، لأننا نقول لو سلمنا جدلا بهذا مع بطلانه لأن الطوائف التي كفرها ابن تيمية كانت معاصرة له، لكن نقول قدِّر أن ابن سينا كان يعيش مع ابن تيمية وجرت بينهما مناظرات، وأن النقاشات التي دارت بين ابن تيمية وبين إشارات ابن سينا أو رسالته الأضحوية أو غيرها من تراث ابن سينا الذي نقل منه ابن تيمية عشرات الصفحات مبرهنا على بطلان اعتقاده وكفَّرَه بذلك، هب أن هذه النقاشات كانت وجهًا لوجه

بينهما، فهل كان ليمتنع عن تكفيره بما أنه يعيش في زمانه، ولو كان ابن عربي زوج عمته مثلا ويسكنان في بيت واحد ويتناظران ويتناقشان! هل كان سيمتنع عن تكفيره لأنه زوج عمته ويسكن معه!

ونقلب السؤال قدِّر أن ابن عبد الوهاب عاش بعد مخالفيه هؤلاء بمائة سنة واطلع على مقالاتهم وكفَّرَهم بها، هل بهذا يكون انضبط كابن تيمية؟!

فالمعاصرة لا علاقة لها بهذا الباب من قريب أو بعيد.

وابن عبد الوهاب إن كان تكلم في بعض رؤوس من أشرك بالقبور ممن كفَّر الشيخ وأصحابه والموحدين وقاتلهم واستحل دماءهم وأموالهم وأجلب عليهم بكل ما يستطيع، ومنهم من بقي يناصحه عشرين سنة، وعامتهم أقر بالحق، وكفرهم للشرك الأكبر، فإن ابن تيمية صاح ببعض مخالفيه في إحدى محنه حول مسائل في الصفات لا الشرك الأكبر لما سجنوه فقال : ((يا مبدلين، يا مرتدين عن الشريعة، يا زنادقة))[1].

وننبه أنه ليس هذا من ديدن ابن تيمية ومنهجه وانضباطه في الباب وما نقلناه عنه قبل قليل من أنه كان لا يكفر مخالفيه في محنه لجهلهم مع أنهم كفروه يُعيِّن أنه أراد بهذه الأوصاف التعميم لا التعيين.

وإن كان ابن عبد الوهاب وصف مخالفيه في نجد بأوصاف غليظة فقد قال ابن تيمية عن الحجازيين في زمانه - ولا شك أنها أقرب لمعاقل العلم من نجد-:

---

[1] التسعينية 1/ 118.

((وَأَمَّا سُكَّانُ الْحِجَازِ فَأَكْثَرُهُمْ أَوْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ خَارِجُونَ عَنْ الشَّرِيعَةِ وَفِيهِمْ مِنْ الْبِدَعِ وَالضَّلَالِ وَالْفُجُورِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ وَأَهْلُ الْإِيمَانِ وَالدِّينِ فِيهِمْ مُسْتَضْعَفُونَ عَاجِزُونَ))[1].

وإن كان ابن عبد الوهاب قاتل من اعتدى عليه في نجد وحاول غزوه في داره، فإن ابن تيمية كان يرى أن أهل إفريقية (تونس وما بعدها مما قبل المغرب اليوم) في زمانه مستحقين للغزو والجهاد ، فقال: ((وَأَمَّا بِلَادُ إفْرِيقِيَّةَ فَأَعْرَابُهَا غَالِبُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ مِنْ شَرِّ الْخَلْقِ؛ بَلْ هُمْ مُسْتَحِقُّونَ لِلْجِهَادِ وَالْغَزْوِ))[2].

وهذا الباب له فقه خاص عند ابن تيمية يسيء الكثير فهمه ليس هنا محل بحثه.

ولو استطردنا في هذا الباب لخرجنا عن موضوع البحث، لكن المقصود أن التيار الذي يسير حاليا بأسطوانة (ابن تيمية معتدل أما ابن عبد الوهاب فلا) يسلك محاولة بائسة للفصل بين منهج الرجلين.

*ومن استشكالاتهم أيضا أن يقولوا إن فلانا ممن عاصر ابن تيمية كان يقول بشرك القبور ولم يكفره ابن تيمية، فلماذا يكفِّر ابن عبد الوهاب فلانا إذن؟

وهو استشكال غريب أيضا، حيث وضعوا شرطا لمن أراد أن يكفر معينا وقع في شرك القبور من المشرق إلى المغرب أن يثبت أولا أن ابن تيمية كفر فلانا بن

1 مجموع الفتاوى 28/ 533.
2 السابق نفسه.

فلان بن فلان ممن وقع في شرك القبور بعينه، وهو شرط ما سمعنا به في آبائنا الأولين.

وهذا الاستشكال يرجع لنفس الخلل عند أبناء هذا التيار في باب تكفير المعين، الذي شرحناه من أنهم لا يثبتون تكفير المعين إلا بنص على أن فلان بن فلان بن فلان كافر كفر أكبر مخرج من الملة، أما عندما يقول قائل الباطنية كفار الإسماعيلية كفار القاديانية كفار فهذا تكفير للمقالات.

وهو نابع من تصوُّر أن ابن تيمية كلَّما اعتقد كفر شخص من عباد القبور فمن المفترض أن يعقد مؤتمرا صحفيا لذلك ويعلن بيانا خاصا في تكفير هذا المعين!

وحال هؤلاء كحال من يقف على تكفير بعض الأعلام للجهم بن صفوان، كما نقل عن أبي حنيفة من قوله: (جهم بن صفوان كافر)[1]، وقوله لما ناظر جهم: (اخرج عني يا كافر)[2]، وما روي عن يزيد بن هارون من قوله (كان الجهم جاحدا كافرا)[3]، ثم يقول مِن الواضح أن هؤلاء الأعلام ممن وقع في الغلو لأنه لم يصلنا عن فلان وفلان من العلماء الآخرين ممن عاصر الجهم نص صريح بتكفيره.

---

[1] تاريخ بغداد 15/ 502 ط. الغرب.

[2] كشف الأسرار شرح أصول البزدوي 1/ 11 ط. دار الكتاب.

[3] السنة لعبد الله بن أحمد 1/ 167.

فيظن أنه حتى يسلم تكفير شخص معين ينبغي أن يُنقل عن كل واحد واحد من علماء العصر تكفير هذا المعين.

وما أيسر أن يُقلَب السؤال فيُقال وابن عبد الوهاب لا يعرف أنه خاض في تكفير معيني الإسماعيلية والباطنية والفلاسفة وأهل وحدة الوجود بمثل ما فعل ابن تيمية ولم يحتل هؤلاء وأحكامهم وأوصافهم من تراث النجديين ما احتله في تراث ابن تيمية، إذن فابن تيمية عنده غلو في هذه الأبواب كما أن ابن عبد الوهاب عنده غلو في هذا الباب!

وهذا كله خطأ، فتكفير المعين يكون فرديا ويكون جماعيا، ثم النص على كل اسم شخص بعينه هذا لم يُكلَّف به أحد، وعندما ينص عالم على شخص باسمه يخضع هذا لعوامل مختلفة يقدرها الناظر في حاله وقد يختلف الناظرون في تقديراتهم وأحكامهم، والذي يهمنا كما قدمناه أن يكون هذا العالم أو المفتي أو القاضي ... منضبطا في أصوله متزنا في أحكامه بما يتناسب مع أصوله النظرية، أما البحث وراء كل معين معين حكم عليهم قاض في الأندلس بالردة، فنقول له ولكن قاضي بغداد لم يكفر هذا المعين، فهذا لا معنى له.

*ومع أن مثل هذا الاستشكال خطأ من أساسه، فإن الأمثلة التي يضربونها أيضا لا تستقيم لهم، وعامتهم يضرب مثاله بالسبكي والبكري والأخنائي.

وينبغي أن يقال أولا لأبناء هذا التيار وكثير منهم يدعي أنه يقول بالتكفير بعد الشروط والموانع، فيقال لهم إذا استوفينا الشروط والموانع كيف ستكفرون أنتم هذا المعين مع أن ابن تيمية لم يكفر فلانا الذي تذكرونه.

وكيف سترفعون عارض الجهل عنه بحجتكم مع أن ابن تيمية وهو ابن تيمية عجز عن رفع عارض الجهل عن فلان بحجته.

وكيف ستكفرون فلانا من الجهال بعد الشروط مع أن ابن تيمية لم يكفر فلانا وهو عالم كالسبكي وقد اطلع على حجة ابن تيمية، وإذا عذر ابن تيمية مثل السبكي بالجهل أليس الأولى أن نعذر كل عباد القبور لجهلهم فأين هم من علم السبكي؟

فما هو جواب هذا التيار إن كان يكفر بعد الشروط حقا، فهو جوابنا.

وهذا المقام لمن تأمله يعرف مصداق ما ذكره أئمة الدعوة من أن هؤلاء يذكرون الشروط والموانع في تكفير المعين تنظيرا ولكن عند التحقيق لا يرون التكفير إلا مطلقاً.

*ونعود للسبكي والبكري والأخنائي.

أما الإمام السبكي رحمه الله فمع ما وقع فيه من مخالفات وطعون في خصومه عامة وابن تيمية خاصة بلغت إلى حد التلميح بالتكفير فمن الظلم أن يقوَّل بأنه يجيز عبادة القبور ودعاء أهلها بما لا يقدر عليه إلا الله، فضلا عن الحج لأهلها

أو الذبح والنذر لها، وغير ذلك، وينبغي على أي باحث أن يتريث قبل أن ينسب له مثل هذا.

بل غاية ما وقع فيه السبكي أن يجيز بعض صور التوسل والتبرك التي لا تدخل في أبواب الشرك الأكبر وأن يغلو في أبواب زيارة القبر النبوي وشد الرحال إليه واستغفار الله عند قبره، ويطلق على ذلك كله (الاستغاثة) بالنبي صلى الله عليه وسلم، وينكر على ابن تيمية رفضه لتسمية التوسل بالاستغاثة.

ومن قرأ رد ابن عبد الهادي عليه في الصارم المنكي عرف حقيقة مقالته بجلاء، فقد نقل عنه ابن عبد الهادي إقراره لوصف ابن تيمية لمظاهر عبادة القبور يالشرك الأكبر، وعدم مخالفته ابن تيمية في ذلك، ولكنه استدرك على ابن تيمية أنه لم يذكر في الصور المشروعة من زيارة القبور صورة التبرك بزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم دون إشراك به، فهذه من الصور الجائزة عنده أعني السبكي، ويريد السبكي بذلك تحري دعاء الله تعالى عند القبر النبوي واستغفاره تعالى كونه أدعى للبركة والقبول عنده، ويسمي ذلك استغاثة غير شركية.

ولهذا فإن ابن عبد الهادي نفسه لم يقوِّلْه بأنه جوَّز الشرك الأكبر إنما دار كلامه معه في أن هذا التعظيم للقبر والذات النبوية بهذه الصورة يفضي إلى الشرك ووسيلة إليه، ونقاشه يدور حول قضية لو أن هذا الذي أجازه السبكي تعظيم مشروع للقبر، كما يقول، فما هو رده على من بلغ تعظيمه للقبر حد دعاء

الرسول بما لا يطلب إلا من الله وعبادته من دون الله، فلا مناص للسبكي إلا أن يقول هذا بيَّنت الأدلة الشرعية بطلانه وكونه شركا، فيقول ابن عبد الهادي وشد الرحل للقبر وتحري الدعاء والاستغفار عنده وغير ذلك مما أجازه السبكي عنده هو أيضا من التعظيم الذي دلت النصوص على بطلانه.

يقول ابن عبد الهادي :

((وقد ذكر المعترض [السبكي] في موضع من كتابه أنه رأى فتيا بخط شيخ الإسلام [ابن تيمية] وفيها: ولهذا كانت زيارة القبور على وجهين: زيارة شرعية، وزيارة بدعية.

فالزيارة الشرعية: مقصودها السلام على الميت والدعاء له إن كان مؤمناً وتذكر الموت ...

وأما الزيارة البدعية: فمن جنس زيارة النصارى **مقصودها الإشراك بالميت** مثل: **طلب الحوائج منه أو به، أو التمسح بقبره وتقبيله، أو السجود له ونحو ذلك،** فهذا كله لم يأمر الله به، ولا رسوله، ولا استحبه أحد من أئمة المسلمين ولا أحد من السلف يفعله لا عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم ولا غيره.

قال المعترض [السبكي]: بعد حكايته هذا الكلام عن الشيخ [ابن تيمية]: وبقي قسم لم يذكره **وهو أن تكون للتبرك به من غير إشراك به،** فهذه ثلاثة أقسام.

أولها: السلام والدعاء له، وقد سلَّم جوازه وأنه شرعي.

والقسم الثاني: **التبرك به والدعاء عنده للزائر**، وقال:وهذا القسم يظهر من فحوى كلام ابن تيمية أنه يلحقه بالقسم الثالث، ولا دليل له على ذلك...))[1].

فاعتراض السبكي متفرع عن التسليم لابن تيمية بأن هذه الأفعال هي عبادة للقبور وهي شرك بالله تعالى كالسجود للقبر أو طلب الحوائج منه، ولم يناقشه في ذلك.

وإنما استدرك عليه ما يراه داخلا في باب التوسل والتبرك مما هو لا يبلغ الشرك الأكبر.

أما باقي الصور التي يجيزها السبكي فهي واضحة في كتابه المردود عليه شفاء السقام[2] ، وخلاصة ذلك أن السبكي وضع للقبوريين ثلاثة سلالم تصِل بهم إلى هاوية الشرك الأكبر ولم يرمهم فيها، فالأولى هي غلوه في حكم شد الرحل لزيارة القبر واتهام من رفضه أنه يطعن في النبي صلى الله عليه وسلك، والثانية هي غلوه في التوسل وتحري الدعاء والاستغفار عنده وجعل ذلك كأحد أصول الدين والتلميح بكفر ابن تيمية لإنكاره، ولو أنه وقف إلى هنا لهان الأمر، ولكنه زاد السلمة أو الطامة الثالثة وهي قياس الحياة البرزخية على الحياة الدنيوية والأخروية وبنى عليه تجويز مخاطبة النبي بعد موته بما يُخاطب به حال حياته كأن تقول يا رسول الله اشفع لي يوم القيامة، وبعد أن يصل المرء للهاوية، يُقِرّ

---

[1] الصارم المنكي ص333 ط. الريان، وراجع الفصل بتمامه.

[2] ص357وما بعدها.

السبكي لابن تيمية بأن طلب الحوائج التي لا تطلب إلا من الله أو السجود للقبر أو التمسح والتقرب عبادةً أو غير ذلك فهو شرك أكبر، ومَن هذا الذي سيصل إلى هذه الهاوية ثم يرجع أدراجه مرة أخرى؟! بل لا يصل المرء إلى الدرجة الثالثة إلا وقد لفحته نار الهاوية، نسأل الله السلامة، ولهذا لا يكاد يوجد قبوري يفرق بين هذا وذاك كما يفرق السبكي بل كله عندهم باب واحد، فيخاطب يوما النبي صلى الله عليه وسلم بما يخاطبه به وهو حي، ويطلب منه في يوم آخر ما لا يُطلَب إلا من الله، بل منهم من قد يقتصر على الدرجة الثالثة معتقدا بأن مثل هذا أي طلب الشفاعة من النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته، يكفيه ويغنيه عن توحيد ربه بدعائه وحده أن يغفر له ويرزقه الجنة فيكون هذا غاية دينه، وهذا يكون من الشرك الأكبر لا وسيلة إليه، ومثله من يطلب الشفاعة منه ظنًّا أنها لا تتوقف على إذن الله تعالى والذي لا يصدر إلا لموحد، فيظن أن النبي صلى الله عليه وسلم مستقل بالشفاعة، فهذا يكون من باب الشرك الأكبر أيضا.

يقول ابن تيمية بعد تقرير الشفاعة الشرعية[1]: ((لكن ليست هي الشفاعة التي يثبتها أصناف المشركين من غير أهل الكتاب، والصابئين ومن ضاهاهم من أهل الكتاب كالنصارى ومن ضاهاهم من هذه الأمة كالمتفلسفة والملاحدة

[1] درء التعارض (5/ 149)..

والإسماعلية وكأهل المضنون به وغيرهم **فإنهم جعلوا الشفاعة تنفع بدون دعاء الشافع لله، وبدون إذن الرب له في الشفاعة**)).

وفي هذا التفصيل جواب على إشكال يطرحه بعض الطلبة حول هذه الصيغة حيث يفهم من إطلاقات ابن تيمية تارة أنها شرك أكبر وتارة أنها وسيلة إليه، وهذا حق موجود عند ابن تيمية ولا تناقض، لأنه ليس لها حكم واحد، فإذا كان القبوري يخلط بين هذه الصيغة ودعاء النبي بما لا يقدر عليه إلا الله تكون هذه الصيغة في حقه قد انتقلت إلى حكم الدعاء التعبدي لا الخطاب البدعي الذي هو وسيلة، كالحلف بغير الله إذا قُرن بأية صورة من صور العبادة لهذا المقسم به انتقل إلى الشرك الأكبر لأنه يبين أن تعظيمه للمحلوف كتعظيم الله عنده سواء، ومثله التوسل بجاه فلان هو بدعة فإن عَرَفْنا من حال المتوسل التوجه للمتوسَّل به ببعض أصناف العبادات كان في حكم الشرك الأكبر، لأنه تعيَّن بهذا أنه يعظِّم صاحب الجاه كتعظيم الله، ويدخل في الشرك الأكبر من هذه الصيغة ما شرحناه آنفا من صور وغيرها مما يلحق بها.

*وفي هذا أيضا بيان خطأ من خطَّأ أئمة الدعوة في إدخالهم هذه الصيغة في بعض نصوصهم في صور الشرك الأكبر، لظنه أنها صيغة لا تدخل في الشرك الأكبر بحال، وهو المخطيء، فأئمة الدعوة يعالجون واقعا يعيشونه، ونعيشه نحن، فعندما يكون دين القبوري هو يا حسين ويا زينب ويا فلان ويا علان اغيثوني وارزقوني واغفروا لي واكشفوا ضري ثم يأتي يوم الجمعة بصيغة يا

رسول الله اشفع لي! فما هو قيمة التفريق بين هذه الصيغة وتلك الصيغ إذن، وأين هذا القبوري في زمانهم أو في زماننا الذي يعتقد بأن كل هذه الصيغ شرك أكبر مخرج من الملة ، ويعتقد بأن تلك الصيغة على وجه الخطاب تكون وسيلة فقط إلى الشرك الأكبر، ثم ما هو حكم استحلال هذه الوسيلة الشركية.

وإلا فأئمة الدعوة في حالة ما إذا دلت القرائن على أن فعل هذا الطالب من الميت الشفاعة مجرد استشفاع فيسلمون بأنه يلحق بالبدع لا بالشرك الأكبر، وضابطهم في تكفير المستشفع بهذه الصيغة واضح بوجود القرائن التي تعيِّن أن استشفاعه إنما هو على وجه الدعاء التعبدي كما هو حال عامة عباد القبور في زمانهم وزماننا.

يقول سليمان بن سحمان في بيان الضابط الذي يلحق الاستشفاع بعد الموت بالعبادة [1]:

((وقوله [أي أحد أعداء الدعوة]: (ثم إن الوهابية عدوا الاستشفاع إلى الله تعالى بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد موته كفراً، مع أن الإجماع منعقد على جوازه).

فأقول: إن كان أراد بالاستشفاع بالنبي صلى الله عليه وسلم كأن يقول القائل: اللهم إني أسألك بجاه محمد، أو بحقه، أو حرمته. فهذا القول بدعة محدثة محرمة، ولا يكفر الوهابية أحداً بهذا. **وإن أراد بالاستشفاع بالنبي بأن يدعوه،**

---

[1] الضياء الشارق (ص353)، وولفائدة فالضياء الشارق وكشف غياهب الظلام هما أجل كتب سليمان بن سحمان في الردود.

ويستغيث به، كأن يقول: يا رسول الله أغثني، أو أدركني، وأنا في حسبك، أو يسأله أو يطلب منه ما لا يقدر عليه إلا الله، ويتوكل عليه، ويلجأ إليه في جميع مهماته وطلباته، ويجعله واسطة في جلب منفعة، أو دفع مضرة، فإن كان أراد هذا فقد ذكر في "الإقناع" من كتب الحنابلة: أن من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم، ويتوكل عليهم: كفر إجماعاً)).

ويقول في بيان أن قرائن حال المستشفعين بعد الموت تدل على أنهم لا يريدون مجرد الشفاعة[1]:

((فإن قلت: هؤلاء المستغيثون بالأموات أو الغائبين -أيضاً- يطلبون منهم أن يشفعوا لهم إلى الله تعالى، ويدعوا لهم بقضاء حاجاتهم، وهم قادرون على ذلك فتكون استغاثتهم هذه من قبيل النوع الأول.

قيل: هذا فيه خلل من وجوه:

الأول: أن فيه ذهول عن قيد الحي، والمراد بالحياة الدنيوية لا البرزخية.

والثاني: **أن ظاهر ألفاظهم مثل قولهم: يا رسول الله اشف مريضي، واكشف عني، وهب لي ولداً ورزقاً واسعاً، ونحو ذلك، دال على أنهم لا يطلبون منهم الشفاعة، بل يطلبون شفاء المريض، وكشف الكربة، وإعطاء الولد، والرزق، وهم غير قادرين على تلك الأمور.**

[1] الضياء الشارق (ص485- 486).

الثالث: أن هؤلاء المستغيثين بالأموات والغائبين يدعونهم، ويستغيثون بهم، من أماكن مختلفة، ومواضع بعيدة، معتقدين أن الأموات والغائبين يعلمون استغاثتهم، ويسمعون دعاءهم، من كل مكان، وفي كل زمان، ولا ريب أن هذا إثبات لعلم الغيب لهم، الذي هو من الصفات المختصة بالله تعالى، فيكون شركاً، وبهذا وبما تقدم يندفع تأويل الحديث على تأوله عليه من المحال الباطل، والله أعلم)).

وذكر في أحد وجوه تخريج حديث الضرير فقال[1]: ((ثم قال: "يا محمد يا رسول الله إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي ليقضيها، اللهم فشفعه في" **فطلب من الله** أن يشفع فيه نبيه. وقوله: "يا محمد يا نبي الله" هذا وأمثاله نداء يطلب به استحضار المنادي في القلب، فيخاطب المشهود في القلب، كما يقول المصلي: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، والإنسان يفعل مثل هذا كثيراً، يخاطب من يتصوره في نفسه، وإن لم يكن الخارج من يسمع الخطاب)). يريد أن دعاء الضرير بصيغة ((اللهم)) تعين أن قوله يا محمد يكون لا على وجه الدعاء ولا النداء ولا الاستشفاع الخطابي، بل على الوجه المذكور.

ومثل هذا التقرير من سليمان بن سحمان متفرع عن أننا إذا وجدنا مستشفعا بهذه الصيغة وعقيدته سليمة من كل ما يعلق بهذا الباب والقرائن ، فلا يختلف

[1] الضياء الشارق (541).

في أن هذا يلحق بالبدع والوسائل، بل قد يكون دون ذلك إذا دلت قرينة الحال والمقال عليه، لكن أين هذا القبوري المنضبط عقديًّا في هذه التفاصيل.

وهذا المقام يبين لك الفرق بين المستدرشد والمشغِّب.

ولحمد بن ناصر نقل نافع في هذا المقام علق في ذهني ونسيت موضعه للأسف، يدور حول المعنى المذكور أذكر أنه كان في سياق الرد على بعض الآثار التي يوردها المخالفون في هذه الصيغة.

وأئمة الدعوة عندهم في مثل هذه الأبواب دقة متناهية ونظرات ثاقبة.

ومثل هذا هو مأخذ ابن تيمية في إطلاقه أحيانا بأن الدعاء الطلبي من الميت شرك أكبر بدون استثناء، مع تنصيصه في مواضع أخرى إلى أن هذه الصيغ هي الوسيلة المفضية إلى عبادة الأصنام صراحةً، لأن حكم الصيغة يختلف باختلاف الأحوال.

والمقصود هنا – وإن أطلنا للفائدة – أن السبكي رحمه الله لا يجوِّز الصورة التي أجمع أهل العلم على أنها شرك أكبر بل يقر بأنها شرك.

*أما البكري، فكان رجلا مغمورا جاهلا لا يعرف ما يقول ولا يدري ما يريد، ولم يُعرف إلا برد ابن تيمية عليه، حتى أعلن ابن تيمية حيرته في أمره، فهو يقول تارة ما يقتضي أن التوسل جائز ويسميه استغاثة مشروعة، وفي موضع آخر كلامه يقتضي تجويز مخاطبة الأموات بعد موتهم بما يقدرون عليه، وفي

موضع ثالث طرْد تأصيلاته يقتضي فتح باب طلب الحوائج التي لا يقدر عليها إلا الله من الأموات ، ومن هنا غلَّظ ابن تيمية تارة فيه العبارة فقال مثلا:

((وأنت تريد أن تجعل المخلوق عدل الخالق، يضاف إليه جميع ما يضاف إلى الرب -عز وجل- **مضاهاة للحلولية والنصارى والمشركين، الذين أنت وأمثالك من طلائع جيوشهم، وأبواب مدائنهم**))[1]

وتارة يخوفه من باطله في مثل قوله:

((لكن اعتقادك كفر من هم أعظم الناس إيماناً بالله ورسوله لا يضرهم، قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: "إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر فقد باء بها أحدهما" ، **لذلك كنت أحق بالكفر إلا أن تعتذر بالتأويل**))[2].

وتارة يعلن ابن تيميته حيرته في حقيقة ما يريد هذا الرجل الذي يخلط كل شيء فيقول:

((وبالجملة **فكلام هذا الرجل كثير منه نزاع لفظي**، مع كونه لفظياً فهو يعبر عن المعنى بلفظ لم يعبر به غيره، وينكر على غيره أن يعبر عن المعنى بالعبارة المستعملة فيه، ففيه جهل وظلم..))[3]

---

[1] الاستغاثة (ص302).

[2] الاستغاثة (ص609).

[3] الاستغاثة (ص527).

فمثل هؤلاء إنما يحتاج العالم أن يبيِّن مقالاتهم وضلالها وما قد يلحق بها وما تُوصِل إليه أما الكشف عن حقيقة مقالاتهم ومقاصدهم للحكم عليهم فلا فائدة فيه.

وهذا التيارالذي يوهم بأن ابن تيمية أصوله غير أصول ابن عبد الوهاب في الباب هل لو اقتصر ابن عبد الوهاب على وصف مخالفيه بأنهم طلائع المشركين كما وصف ابن تيمية البكري، سيكون انضبط بهذا؟!

هل هذا التيار وهو يستدل بكتاب الرد على البكري على منهجه يقول بتنزيل وصف المشركين على عباد القبور كما هو مبثوث في الاستغاثة، وللقاريء أن يبحث الكترونيا في الكتاب عن كلمة (مشركين) و (مشركون) وما إلى ذلك، وينظر سياق الوصف ليعلم أن ابن تيمية يتحدث عن عباد القبور من المتسبين للملة، ناهيك عن وصفهم بعبدة الأصنام وعبدة الأوثان، فهل لو توقف ابن عبد الوهاب عن تكفير أحد معيني مخالفيه واقتصر على مثل هذه الأوصاف في حق مخالفيه سيكون منضبطا عندهم.

هل لو كان عبَّر عن القتال بأنه قتال بين الموحدين وعبدة الأصنام يكون منضبطا بهذا.

وهل وقف هذا التيار الذي ينكر أن ابن تيمية كفَّر معينين على مثل قوله في الرد على البكري:

((حتى آل الأمر إلى دولة العُبيديين؛ **وهم ملاحدة في الباطن** أخذوا من مذاهب الفلاسفة والمجوس ما خلطوا به أقوال الرافضة، فصار خيار ما يظهرونه من الإسلام دين الرافضة، **وأما في الباطن فملاحدة شر من اليهود والنصارى**؛ وإلا من لم يصل منهم إلى منتهى دعوتهم فإنه يبقى رافضياً داخل الإسلام، ولهذا قال فيهم العلماء: **"ظاهر مذهبهم الرفض وباطنه الكفر المحض"**، وهم من أشد الناس تعظيماً للمشاهد ودعوة الكواكب ونحو ذلك من دين المشركين، وأبعد الناس عن تعظيم المساجد التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، وآثارهم في القاهرة تدل على ذلك .

ولقد كنت لما رأيت آثارهم أبين للناس أصل ذلك وحقيقة دينهم، وأنهم من أبرأ الناس في رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ديناً ونسباً، وقد صنف العلماء فيهم وفي أصولهم كتباً نظرية وخبرية.

ومنهم **الإسماعيلية** من أصحاب دور الدعوة، وأما **النصيرية** فهم من الغلاة الذين **يعتقدون إلهية علي، والغلاة مع أنهم أكفر من اليهود والنصارى؛ فأولئك الإسماعيلية في الباطن أعظم كفراً وإلحاداً منهم**، وهذا باب واسع ليس هذا موضعه))[1].

فهل المعين الذي يعتقد مثل هذه المعتقدات يتوقف ابن تيمية في تكفير عينه؟**!**

---

[1] الاستغاثة (ص324 - 325).

*أما الإخنائي قاضي المالكية فلا أدري وجه إدخاله هنا من بعض الباحثين، فالإخنائي إنما كان يقول بجواز شد الرحل بنية زيارة القبر النبوي، وهذا هو ما ناقشه فيه ابن تيمية، ونقل عبارة مخالفه وهي واضحة في موضوع النقاش، وصنف في ذلك لما وقعت محنته الأخيرة التي مات فيها وهي في هذه المسألة، ولا يقول لا ابن تيمية ولا ابن عبد الوهاب ولا أئمة الدعوة ولا أحد أن هذا شرك! بل هو مُحدَث عند ابن تيمية، ويرى أنه لا يُعرف في القرون المفضلة ولم يقُل به إلا بعض من تأخَّر عنهم.

إنما استطرد ابن تيمية في رده على الإخنائي كعادته في الإتيان على الموضوع من جوانبه، فتكلم على مسألة الحج للقبر النبوي أو قبور الأنبياء، والزيارة باب والحج باب، فالحج هو السفر لعبادة القبر، كما يسافر البهرة الإسماعيلية من شتى أنحاء العالم إلى الهند في موسم وإلى اليمن في موسم آخر لعبادة قبور معظَّميهم، أما الزيارة فهي زيارة من جنس زيارة أي قبر من قبور الأموات، إنما وقع الخلاف في حكم شد الرحل بنية الزيارة لا المسجد، فهذا باب لا علاقة له بذاك.

ويظهر لي أن كثيرا من الباحثين هو نفسه عنده خلط في الباب لا يدري ما الشرك وما البدعة وما المحرم وما المكروه، ويظن أن كل شيء عند القبور شرك وكل مسألة أثارها ابن تيمية تحوم حول القبور فهي شرك فوجب تكفير مخالفيه.

ثم هل يقول هذا التيار بتنزيل التوصيف التعميمي على كل من عبد القبور وحج لها بأنهم كفار كما هو مبثوث في الإخنائية؟!

وهذا موضع آخر يبيِّن الفرق بين المشغب والمسترشد.

*ومما وجدته عند أبناء هذا التيار أنهم عندما يُلْزَمون بأنهم بناء على طريقتهم في الإعذار يلزمهم ألاَّ يكفروا اليهود والنصارى بأعيانهم، فيجيب أبناء هذا التيار: نحن إنما نتكلم عن المسلمين وهؤلاء ليسوا بمسلمين!!

وهذا عجب، وما معنى قوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)، وما معنى قوله تعالى : (مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ، يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ).

فأهل الكتاب في الأصل مسلمون مؤمنون موحدون، ثم طرأ عليهم الكفر، لا يخفى هذا على أحد، فيقال: بماذا كفروا وخرجوا عن ملة الإسلام العام؟ الجواب: بدعائهم المسيح عليه السلام من دون الله، فهم ينادونه إلى الآن في المدلهمات فيقولون (**jesus**) أو (**christ**)، والسؤال هنا كيف يكفرون بدعاء المسيح فقط، ولا يكفر من دعا محمدا صلى الله عليه وسلم والحسين

وعليا وزينب وعشرات الأولياء والصالحين ومئات الأضرحة، وبينَّا له وعرَّفْنَاه، تحت دعوى لعله جاهل معذور؟!

والنصارى ونحن نشاهدهم إلى الآن يكاد يكون تذللهم للمسيح عليه السلام منحصر في الدعاء والاستغاثة بذكر اسمه، فكيف بمن ذبح ونذر وحج وشد الرحل وبكي وخشع وتذلل وخضع لقبور الأرض.

وما الفرق بين قولهم بحلول اللاهوت في الناسوت، وبين اعتقاد القبوريين في الأولياء أنهم يعرفون الغيب ويكشفون الضر ويجلبون الرزق..وهل اللاهوت إلا هذا؟!!

وماذا يغير إن سموه بعد حلول اللاهوت في الناسوت ابن الله أو ولي الله أو القطب أو الغوث.

وكيف يكفر اليهود وكثير منهم موحدون إلى الآن لأنهم أخلوا بالركن الثاني من الشهادتين، ولا يكفر من أخل بالركن الأول من الشهادتين، ولو بينا له وعرفناه، تحت دعوى العذر بالجهل.

بل من أهل الكتاب من هو مقر بالرسالة المحمدية أيضا ولكن على وجه تخصيصها بالعرب وحدهم وهي الطائفة التي رد عليها ابن تيمية في الجواب الصحيح، وهي موجودة إلى الآن لقيت بعضهم في بريطانيا ولكنهم قلة ولهم اسم خاص بهم وعندهم حب للرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين –أو هكذا أظهروا أمامي!!– ولديهم اطلاع على القرآن لاسيما الآيات التي تتحدث

عن مؤمني اهل الكتاب، لكنهم يعتقدون أنه رسول لنا نحن فحسب، وكان هذا كافيا في كفرهم، فأين مقالتهم من مقالة عباد القبور؟

هذا هو المقصود بالإيراد على هذا التيار، وهو وارد عليهم بلا ريب.

ونزيد وأين من وحَّد وصلى وصام وحج وأحل الحلال وحرَّم الحرام وصلى بالليل والناس نيام، ولكنه جحد ركن الزكاة، فجرَّد له الصحابة وأهل الإسلام السيوف والرماح، وحكموا عليهم بالردة وأذاقوهم سوء العذاب ممن صلى للقبر وصام للضريح ونذر للولي وأحل ما حلله الأقطاب وحرم ما حرمه الأغواث.

وأين من وحد الله في صلاته ودعائه وصيامه وحجه مع نفيه للصفات العلى، كالجهم، ممن أشرك بالله رأسًا.

وأين وأين وأين؟

بل الوثنيون من أهل الجاهلية الذين أرسل لهم النبي صلى الله عليه وسلم إذا نقبنا عن جذورهم سنجدهم في الأصل هم من أهل ملة إبراهيم عليه السلام ، وكانوا ينسبون أنفسهم لملته، وبقيت عندهم بعض البقايا من ملته عليه السلام كتعظيم البيت، وما كان يجري لأحدهم من يقظة الضمير وصحوة المشاعر في الشدائد فيدعو الله وحده مخلصا له الدين، هو يستجيب بهذا إلى فطرته الأولى المتصلة بملة إبراهيم، ولكن فرّط الجيل الأول وانحرف عن ملة إبراهيم ، ثم

تضاعف التفريط جيلا فجيل إلى أن جاء الجيل الذي عاصره النبي صلى الله عليه وسلم وكانت ملة إبراهيم قد اندرست.

وكثير ممن يكتبون عن العذر بالجهل في الواقع السعودي اليوم لا أظن في أطروحاتهم إلا أنها سترجع القهقرى بالتوحيد وأهله بطريقتهم هذه في التوسع الزائد في مسائل الإعذار.

لأنك عندما تعذر عباد القبور بهذا الشكل المختل وتحكم لهم بأنهم مسلمون جهلة وإنما فعلهم فقط هو الشرك، سيأتي جيل وبدلا من أن يُتعب نفسه بالذهاب للضريح سيأخذ قطعة حجارة منه أو من الأرض الذي دفن فيها الولي، ويصطحبها معه في السفر والحضر يطلب منها النفع ودفع الضر، ومثل هذا موجود الآن ورأيناه، ويأتي جيل ويصوِّر وليه الصالح هذا على صورة تمثال وقد رأينا هذا في العراق حاليا، فإذا لم يكن هذا هو دين الجاهلية فلا ندري ما هو إذن.

القتال

هذه بعض رؤوس أقلام الخلل عند هذه التيارات في مسائل التكفير وهي التي أوقعتهم في الاستطالة على ابن عبد الوهاب ومدرسته وابن تيمية ومدرسته وأهل الحديث ومدرستهم.

* أما القتال فقد حدث فيه ما حدث في التكفير من ظهور تيارات غالية في مسائل القتال تكاد ترى أن القتال هو أول واجب وآخر واجب على كل مسلم

في كل زمان وفي كل مكان ولأي أحد ، فجاءت تيارات تناقشهم فجعلت القتال كله (رجس من عمل الشيطان).

وليس الأمر كذلك، فالقتال كالتكفير حكم شرعي، له ضوابطه ومناطاته ومن القتال ما هو شرعي ومنه ما ليس بشرعي.

وأهل السنة عبر التاريخ كما امتنعو عن القتال المحرم بغير حق، فإنهم خاضوا في القتال الشرعي بحق.

ومهما يكن من ضوابط القتال الشرعي ، فإن الذي يهمنا أن هناك نوعا من القتال لا يُتَّفق عليه بين أهل السنة فحسب ولا بين أهل الملة بل هو متفق عليه في كل الملل والشرائع ومجمع عليه بين الإنسانية، وهو القتال في سبيل دفع المعتدين الصائلين على الدين والبلاد والأوطان، كائنا من كان المعتدي.

فمثل هذا النوع لا يحتاج إلى كثير نظر وتأمل ومحاولات لتخريجه على أصول السنة أو أصول الشيعة حتى، بل هو أمر مجمع عليه بين الإنسانية.

والاطلاع على فتاوى ابن تيمية في حادثة التتار الذين غزوهم في عقر دارهم وبلادهم، وقد عاصر الجيل الذي انتسب فيه كبراؤهم للإسلام ، وكانت من أعظم امبراطوريات زمانهم، بل من أعظم امبراطوريات التاريخ على الإطلاق، وكان عسكرهم فيه المصلون والعباد والزهاد، وقد زرت عددا من المدن التي بنوها وهي زاخرة بالمعمار الإسلامي، ولكن كان في تلك الفئة الغازية من العقائد والمخالفات التي شرحها ابن تيمية ما لم يتردد بسببه في إعلان جهادهم

وقتالهم لما غزوهم، ولو كان فيهم ما فيهم من شعائر الإسلام، بل أفتى أن قتالهم لا كقتال الخوارج ولا البغاة ولا حتى الممتنعين عن الشرائع، بل الراية راية قتال الخارجين عن الشريعة كلها، ووقائع ابن تيمية القتالية معهم ومع من انحاز لهم من الرافضة والنصيرية مشهورة، ولو وقفت على وصفه وقيادته للمعارك وهيئته لتعجبت.

والتتار هؤلاء أيضا ممن أخطأ فيهم طرف فنسب لابن تيمية تكفير كل معينيهم بعد أن نطقوا الشهادة وهو خطأ، ولا يمكن لمثل ابن تيمية أن يحكم على كل معيني أمة مترامية الأطراف تكاد تغطي ثلاثة أرباع قارة آسيا اليوم بالكفر، وقابل هذا الفريق فريق آخر فنسب لابن تيمية أنه لم يكفر أحدا منهم!! وهذا خطأ محض، بل عسكر التتار الذي غزا الشام كان أخلاطا، والتتار كأمة كانوا على أقسام كثيرة.

واعتبر قبل عصر ابن تيمية بفتوى ردة العبيديين ووجوب قتالهم وشُكر العلماء لسعي صلاح الدين في إسقاطهم وإزالة شعائرهم، والعبيديون هؤلاء كانت تقام في ديارهم الجمع والجماعات والأعياد ، والمعمار الإسلامي الذي خلَّفوه يشهد لهم إلى اليوم، وهم من بنى الجامع الأزهر، ومع ذلك لم يتوقف العلماء في رأيهم.

ثم اعتبر قبل ذلك بسعي السلف عند الولاة في قتل رؤوس الجهمية، وتساءل لو أن الجهمية صارت لهم قوة ومنعة وجيشوا الجيوش لغزو أهل الحديث هل

كان أهل الحديث سيتوقفون عن قتالهم أم سيسعون عند الأمراء لإعلان جهادهم.

وإن قاتلوهم ما هي الراية التي سترفع في القتال؟ إذا كانوا بدون قتال يقولون الجهمية كفار، فكيف إذا رُفِعَت الرايات؟

يقول الدارمي في الرد على الجهمية: ((فلم يَظْهَرْ جَهْمٌ وأَصحَابُ جَهْمٍ في زمنِ أصحابِ رسولِ اللهِ – صلى الله عليه وسلم – وكِبَارِ التَّابعين..، **ولو كانوا بَيْن أَظْهُرِهِم مظهرين آرَاءَهُم لَقُتِلُوا كما قَتَلَ عَلِيٌّ – رضي الله عنه – الزنادقة التِي ظَهَرتْ في عصره، ولَقُتِلوا كما قُتِلَ أَهلُ الرِّدَّة**، ألا ترى أَنَّ الجَعْدَ بنَ دِرْهَم أظهرَ بعضَ رأيِهِ في زَمنِ خَالد القَسْرِي، فزعم أن الله تبارك وتعالى لم يَتَّخِذْ إِبراهيمَ خَليلاً، ولم يُكَلِّم موسى تكليمًا، فَذَبحهُ خالدٌ بِوَاسِط يَومَ الأَضْحَى على رُؤوسِ مَن حَضَرهُ من المسلمين، لم يَعِبْه به عَائِبٌ، ولم يَطْعَنْ عَليه طَاعِنٌ، بل استحسنوا ذلك مِنْ فِعْلِهِ وصَوَّبُوه، **وكذلك لو ظَهَر هؤلاءِ في زَمَنِ أصحابِ رسولِ الله – صلى الله عليه وسلم –، وكبارِ التابعين، ما كان سَبِيلُهُم عند القَوْمِ إِلا القَتْل، كسبيل أهلِ الزندقة، وكما قَتَلَ عليٌّ – رضي الله عنه – مَنْ ظَهَرَ مِنْهُم في عَصْرِهِ..**))[1].

ثم اعتبر قبل ذلك بقتال المرتدين وإدخال حتى من منع الزكاة بُخلا في سوادهم وقتال الجميع قتال ردة.

---

[1] (ص184، ط. المكتبة الإسلامية).

أما القتال في العصر الحاضر فاعتبر بالقتال في أفغانستان وقد كان قتالا أهليًّا أول أمره بين الشيوعيين والاتجاهات المخالفة للفكر اليساري، ثم دخل الروس القتال إلى جانب حلفائهم، وعلماء أهل السنة المعتبرين كالألباني وابن باز، لم يتوقفوا عن الفتوى بالجهاد والدفاع عن الأفغان ، ومع المفاسد التي وجدت أثناء وبعد تلك الأحداث سواء من جهة تصارع المقاتلين فيما بينهم، أو على الجانب الفكري حيث تشرب كثير ممن ذهب معتدلا كثيرا من الأفكار الباطلة، ومهما تطرح من آراء حول مشاركة الاجانب في مثل هذه الأحداث والتي تكون مفاسدها في الأغلب أكثر من مصالحها، إلا أن المقصود أنه لم يتوقف أحد في مشروعية دفاع الأفغان على الأقل عن أنفسهم، وانتهت الأحداث وبقيت بلاد الأفغان دار إسلام يرفع فيها الأذان وشعائر الإسلام فيها ظاهرة، وقد كان هذا هو مأخذ العلماء في رأيهم، فقد كانوا يقرون المفاسد الموجودة لكنهم رأوا أن مفسدة إزالة الإسلام ومظاهره في أفغانستان كما فعل السوفييت في سائر الدول المسلمة التي احتلوها أعظم.

ثم اعتبر بحرب الخليج الثانية حيث لم يتوقف أحد من العلماء المعتبرين في وجوب الدفاع عن الكويت أمام بغي الجيش العراقي ووجوب قتاله وردِّه، وقد كان القتال بين مسلمين آمنين في الكويت ومسلمين بُغاة معتدين من العراق، ولم يختلف أحد في وجوب قتالهم ودفعهم، إنما اختلفوا في جزئية مشاركة

الغرب، وانتهت الأحداث على كل حال وبقيت الكويت وأهلها آمنين مطمئنين أدام الله عليهم عافيته.

واعتبر بما جرى في اليمن من بغي الحوثيين وخروجهم من أقصى الشمال وإعمالهم في مخالفيهم قتلا وتشريدا واختطافا واعتقالا واجتياحهم لبعض المدن بقوة السلاح، وما رآه اهل اليمن – وعامة أهل اليمن أهل سنة بفضل الله- من صدهم وقتالهم ودفعهم ، فرفعت رايات القتال في عدن تاج اليمن وذخر الإسلام، ووقفوا يومها للإسلام والسنة أيَّ موقف ، كما رفعت أرض ملوك سبأ (مأرب) رايات القتال، وانقلبت الموازين والحوثيون حال كتابة هذه السطور محاصرون في كهوفهم المظلمة في مناطقهم التاريخية أما عامة المناطق التي حاولوا إخضاعها فقد رُدَّت إلى أهلها ردًّا جميلا، وأمنت واطمأنت، وبقيت اليمن دار إسلام وسنة، وبقي أهلها مدد الإسلام وأهله، أدام الله علينا أمنه.

*وقتال المرء دفاعا عن دياره ووطنه وعرضه هذا شيء أجمعت عليه الإنسانية، ولا تخلو القصص الشعبية الصينية واليابانية والروسية والأوروبية واللاتينية من أبطال عظام في التراث الثقافي لكل شعب ارتبطت بطولاتهم بدفاعهم عن أوطانهم، فقط النجديون هم مَن لا يحق لهم القتال دفاعا عن أنفسهم!!

***هذا وقد أطنبت في الحديث عن هذا التيار لعموم البلوى به، فكما عانت الساحة العلمية وتعاني من تنظيرات الغلو في التكفير والقتال فإنها تعاني من**

تنظيرات الغلو في تضييع حكم التكفير في الشرع، وتغييب مواطن القتال الشرعي في الإسلام، وقد تفاقمت البلوى بهذا التيار في الوقت الحالي لأسباب أهمها:

أ: أن هذا التيار المغالي في التفريط يُعزِّز التيار المقابل له المغالي في الإفراط، فتهافت أصول هذا التيار في أبواب التكفير تُظهر أصول غلاة التكفير على أنها أضبط وأقرب للحق عند من لا دراية له بحقيقة آراء العلماء المتوسطين في هذا الباب.

ب: أن طلاب العلم الذين يتشربون هذه الأصول في بداية طلبهم للعلم يصطدمون بعد ذلك بنصوص المدارس العلمية التي ينتسبون إليها والواضحة في إبطال هذه التأصيلات، ولهذا كثير من أبناء هذا التيار انتهى به الأمر إلى اتهام شيخ الإسلام ابن تيمية ومدرسته والشيخ محمد بن عبد الوهاب ومدرسته بالغلو بالتكفير!

ج: أن أصول هذا التيار هي هي أصول التيارات المصادمة للإسلام الموجودة في الساحة اليوم كغلاة المنتسبين لليبرالية أو العلمانية الذين يتهمون التراث الإسلامي أو الكتب الصفراء حسب تعبيرهم بأنها هي التي فرّخت أفكار التكفير، ورفضت حرية التعبير، والحق عندهم أن يترك أي إنسان يقول ما يشاء ويطعن في الدين بما يشاء، ولا مجال لتكفيره لأنه يقول لا إله إلا الله.

غير أن هذه التيارات كانت أكثر صراحة مع نفسها وجمهورها حيث لم تقتصر على اتهام الدعوة النجدية وابن تيمية فحسب بالغلو في التكفير بل واتهمت أئمة المذاهب الأربعة والسلف وعامة التراث الإسلامي، بل وقفت على مقال لرجل اسمه من أسماء المسلمين، يتحدث فيه عن أن الصحابة لمَّا كفَّروا أهل الردة وقاتلوهم إنما استخدموا أداة التكفير للتخلص من خصومهم السياسيين في الجزيرة، وأنهم أخطؤوا في تكفير هؤلاء بأعيانهم لأنهم لم ينقضوا الشهادة مطلقا!!

*وكان يكفي هذا التيار وكثير منهم من المخلصين المشفقين على الشباب من الوقوع في براثين التكفير غير المنضبط أن يؤصلوا المسائل نظريا تأصيلا منضبطا ثم أن ينصحوا طلاب العلم بعدم الخوض في هذا الباب الخطير بآرائهم وترك هذا لأهل العلم المعتبرين في بلادهم، لا أن يخترعوا أصولا من عندهم ويشطبوا التكفير والقتال من الشرع الإسلامي كله تحت ضغط النقاشات مع الغلاة، وكثير من الغلاة حاليا يستحل دماء الأوروبيين المعصومة من المدنيين لأن القرآن كفَّر أهل الكتاب، ولهذا شنّ الإعلام المصري حملة على حكم تكفير اليهود والنصارى!! تحت ذريعة هذه الأحداث أو بعض الأحداث التي قد تحدث في مصر بين المسلمين والأقباط مما يسمى بالفتن الطائفية، فماذا سيفعل هذا التيار حينها ؟ يؤصِّل لعذر اليهود والنصارى بالجهل؟! الذي يكفيك أن تؤصل المسألة كما هي في دينك وتحفَّها بجميع

الضوابط والرؤى المصلحية التي ينبغي أن يفهم من خلالها النص فهما صحيحا، ثم بعد ذلك ، لست أنت بمسيطر على الناس فيما يفعلون أويفهمون، وقديما خرج الخوارج من بين ظهراني الصحابة.

وكما ضيع هذا التيار باب التكفير والقتال ضيع معه مصطلحات العلماء المتعلقة بالباب.

كيف بدأ انتحال ابن عبد الوهاب
ومتى بدأ الخلل في التعاطي مع هذه المسائل

أصل ذلك أن تيار غلاة التكفير لما ظهر في العصر الحاضر في أواخر الستينات ووضع فكرة (الجماعة المسلمة)، فجعلوا مناط وصف الإسلام وأحكامه هو الانضمام لجماعتهم المسلمة، وكفروا أهل الأرض كلهم، وجعلوا ديارهم ديار حرب وردة وكفر، وأرادوا بذلك أن كل شخص في العالم سواء كان منتسبا للشهادة أو لا مباح الدم والمال حلال قتله وأخذ ماله، سواء طبقوا ذلك كبعضهم، أو رأوا مفاصلة المجتمع أولا ثم التطبيق لاحقا كبعضهم الآخر، وسواء رأوا المباشرة إلى الجزم بكفر الجميع، أو التوقف في إسلامهم والتبين في حالهم بدعوتهم أولا للدخول في الجماعة المسلمة.

وفكرة (الجماعة المسلمة) هذه مصاحبة لهذه الجماعات والتيارات إلى اليوم، وإن كانوا مع ضغط الاتجاهات السلفية عليهم بمناقشتهم وبيان ضلالهم وأنهم على نهج الخوارج الأول، قاموا بإدخال تعديلات شكلية على الفكرة، وإلا

فأصل الفكرة كما هي، ولو ربطتَ فكرة الجماعة المسلمة في أواخر الستينات هذه بما سمي بالخلافة الإسلامية في السنوات الأخيرة ستجد الفكرة واحدة من كل جهة، فهذه الجماعات إلى الآن مناط التكفير عندهم هو الجماعة المسلمة أو الخلافة المسلمة أو سمها ما شئت، وكل من دخل في دائرتهم وبايع فهو المسلم، وكل من كان خارج الدائرة فهو كافر ولو صحح دينه وتوحيده ولو حكم بما أنزل الله في كل صغيرة وكبيرة يبقى كافرا إلى أن يبايع، وحقن الدماء في المناطق التي قد يسيطرون عليها ليس هو من جهة كونهم من أهل الملة بل لأنهم دخلوا في دائرتهم، وتصريحهم بتكفير الحكام وأذرعهم وعدم تكفير الشعوب ليس لأن الشعوب تنطق الشهادتين بل من باب التوقف والتبين في حقيقة حال هذه الشعوب إلى وقت الصدام، وعند الصدام من دخل من هذه الشعوب في دائرتهم وبايع فهو المسلم، ومَن لا فحكمه حكم أذرع الحكام، وما تجده من محاولات لإقناعك بأنهم لا يكفرون وأنهم على طريقة العلماء إنما المقصود به كسب بيعتك لهم، وإلا فإن لم تبايع فأنت كافر، فقط سيؤجل أمرك إلى وقت الصدام.

ولهذا تكفر هذه الفصائل بعضها بعضا وتقاتل بعضها بعضا عندما تسيطر على بعض المناطق إذا لم تخضع الفصائل الأخرى لها، مع أنهم ينطلقون من نفس الفكر فكيف بالشعوب.

ولهذا أيضا حكم الجيل الثاني (ما بعد أفغانستان) على بعض فصائل الجيل الثالث (ما بعد احتلال العراق) بأنهم خوارج لما لم يبايعوا لهم، فليس معنى هذا التوصيف أنهم خرجوا على أهل الملة، بل معناه أنهم خرجوا عن بيعة الجماعة.

ولا يوجد عندهم أصلا ربط أي حكم من أحكام الكفر والإيمان أو غير ذلك من أحكام وأوصاف شرعية بعقد الملة (الشهادتين) بل بـ (عقد الجماعة).

وقد لاحظت أن كثيرا من الباحثين يواجه إشكالا في تصنيف الأجيال الأخيرة من هذه الجماعات، لأنهم يصرحون بأنهم لا يكفرون بالكبائر!! وهذا غاية في تسطيح حقيقة مقالة هذه الجماعات.

كما أن إثارة مسائل علمية معهم، من نوعية هل خرج بعض السلف على الحاكم الجائر أم لا، هل التكفير بتبديل الشريعة يشترط فيه الاستحلال القلبي أم لا، هل ترك الشرائع الكبرى كفر أم لا، هذا كله لا يقدم أو يؤخر مع هذه الجماعات إنما يعزفون على هذا الوتر لكسب أتباع جهلة فقط، وإلا فأنت لو خرجت ألف مرة على الحاكم الجائر ووُلِّيْت حاكما عدلا، ستبقى كافرا عندهم ما لم يبايع حاكمك للجماعة، ولو طبقت دولتك شرع الله في كل صغيرة وكبيرة ستبقى كافرة ما لم تدخل في دائرة الجماعة.

هذا هو قانون هذه الجماعات الوضعي في كل أجيالهم الذي يحتكمون إليه وياسقهم الذي يوالون ويعادون عليه، لا عقد الملة ولا الشهادتين ولا الشرك

الأكبر ولا الشرائع الكبرى ولا شيء من ذلك له أثر في أصل الدين هذا الذي اخترعوه بل كل هذه قشور وفروع.

وكثير من الشباب المتحمس ينضم لهذه الجماعات المختَرَقة من الدول الغربية التي أوجدت البيئة الدموية في العراق والتي فرّخت كل هذا البلاء، فيلعبون بهم كالدُّمى ويوظفونهم فيما أرادوا من تشويه الإسلام، والمظهر الإسلامي، وإبادة المناطق السنية، والتضييق على مسلمي العالم، ثم يُرمَون، فيستيقظ أحدهم يوما وإذ قد ساد السكون، وإذا بالخلافة المزعومة قد انتهى وقت دوامها، وخليفته المنتظر قد دخل السرداب، واختفى فجأة كما ظهر فجأة.

في السجون المصرية التي نشأت فيها فكرة الجماعة المسلمة في أواخر الستينات وحقبة السبعينيات، كردة فعل للمعاملة اللا إنسانية التي لقوها في السجون، اصطدم هذا الفكر بمجموعة من الشباب السلفي ممن أودع السجون في أواخر السبعينات في أحداث الاعتقالات الشهيرة التي شملت عامة التيارات في مصر إسلامية ويسارية، هناك جرت مناقشات علمية بين المجموعتين وكان المستند الرئيس الذي يرجع إليه الشباب السلفي هو تراث ابن تيمية في بيان ضلال عقيدة أصحاب الجماعة المسلمة هذه، وكانوا وقتها لا يدرون ما ابن تيمية ولا أحمد ولا مالك ولا الشافعي.

وعامة هؤلاء الشباب السلفي هم من حمل منارات الدعوة السلفية في مصر بعد ذلك فصارت مصر غير التي كانت، وعامتهم من المجرحين اليوم عند غلاة

التبديع المنهجي لأنهم ليسوا على الجادة وعند غلاة التبديع السياسي لأنهم لم يشاركوا في لا أدري ماذا ، وغلاة التجريح العلمي لأنهم جهال، وهذا من صور البؤس الذي نعيشه في الساحة العلمية اليوم.

تمخضت هذه السجالات عن توبة كثير من أبناء هذه الجماعات ، وبقي بعضهم على فكرة جماعته المسلمة، ولكن بقي ابن تيمية وثِقَله وتقريراته عالقة في أذهانهم، فرأى الجيل التالي أهمية توظيف فكر ابن تيمية هذا في خدمة فكرة (الجماعة المسلمة) ومادام الشباب السلفي اتهمهم بأنهم بلا علماء فليكن ابن تيمية هو عالمهم إذن.

دخل منظرو هذه الجماعات في مرحلة (انتحال ابن تيمية وتراثه)، في هذه المرحلة ستكون تقريرات ابن تيمية والسلف في تكفير الجهمية مثلا واضحة في كفر أهل الأرض إلا من دخل الجماعة، وفتواهم بردة العبيدين واضحة في تكفير الطواغيت، وستكون فتوى ابن تيمية في التترس جليَّة في استحلال دماء المجتمعات ممن هو خارج الجماعة، أما فتواه في دفع التتار الذين غزوه في داره وقاتلهم مع دولته ، فهي غاية في الوضوح في أن كل من عادى الجماعة المسلمة فهو كافر حلال الدم والمال، وكل لفظ عند ابن تيمية أو السلف فيه شرك كفر كفار زنادقة ملاحدة دار كفر دار شرك دار ردة، كل هذا سيكون نصًّا لا يقبل التأويل في أن كل من خارج الجماعة المسلمة فهو كافر.

في هذه الأثناء ستقطع عامة الاتجاهات التذاكر إلى أفغانستان للدفاع عن الأفغان، هناك ستلتقي هذه التيارات بالشباب السعودي، وهناك سيسمعون بشيء اسمه محمد بن عبد الوهاب وشيء آخر اسمه أئمة الدعوة، وسيلاحظون كثافة الشباب السعودي مع انضباطهم علميا وفكريا امتدادا لانضباط مدرستهم بالإضافة إلى الولاء لدولتهم، ويشاركهم في ذلك عامة المتأثرين بالدعوة النجدية من خارج السعودية.

ستدخل هذه التيارات في سجالات علمية سيثبت من خلالها النجديون أن منهج محمد بن عبد الوهاب ومدرسته واضح في ضلال هذا الفكر.

سيعود الشباب المنضبط عقديا ويبقى مَن تأثَّر جزئيا بفكر أصحاب (الجماعة المسلمة) إلا أنه سيتم التوافق على صيغة توافقية ترضي الأطراف، أما (الجماعة المسلمة) فستأخذ من السعوديين ومن معهم أصول اعتقاد أهل السنة في الألوهية، والأسماء والصفات، والصحابة وغيرها، وأما السعوديون ومن معهم فسيأخذون منهم أصل فكرة الجماعة المسلمة بعد أن يُعاد تشكيلها مع بقاء مضمونها.

سيستمر انتحال ابن تيمية والسلف عند هذه الجماعات، ولما كان لابن عبد الوهاب ومدرسته مكانة وثقل عند الوافدين الجدد للجماعة ولما كان الكثيرون يرون ضلال هذه الجماعة من خلال تقريرات المدرسة النجدية، سينتقل منظرو الجماعة إلى مرحلة (انتحال ابن عبد الوهاب والدعوة النجدية) وكما دخل

الشيعة تحت غطاء آل البيت لما لهم من مكانة في نفوس المسلمين لتمرير أفكارهم، ستدخل الجماعة هذه المرة تحت غطاء آل النجديين!، بعد أن كانت دخلت تحت غطاء آل تيمية، وستبدأ مرحلة إعادة تشكيل تراث النجديين بما يخدم فكرة الجماعة، فسيصير فجأة الشرك الأكبر واضحا في تكفير الطواغيت والمرتدين وأذرع الحكام وكل من لم يدين للجماعة المسلمة بالولاء والبيعة، وسيصير الدفاع عن الدرعية واضحا في قتال أهل الأرض إلى أن يبايعوا الجماعة المسلمة.

ولم يكتف منظرو هذه الجماعات بانتحال ابن تيمية وابن عبد الوهاب والسلف بل بدأ انتحالهم من ملة إبراهيم عليه السلام، فحملوا ملة إبراهيم على الجماعة المسلمة هذه، والأصنام على الطواغيت والمرتدين وكل من لم يبايع للجماعة المسلمة، وتم تفسير التاريخ الإسلامي والقرآن والسنة وكلام السلف وأهل العلم على هذا المنوال.

سيحدث هنا تقاطع مصالح مع اتجاهات تحرص على إسقاط علمية ومرجعية ابن تيمية وابن عبد الوهاب كمعامل الفكر الغربي والاتجاهات التغريبية في العالم الإسلامي، ومعهم الاتجاهات الشيعية، فتقوم هذه الاتجاهات بتأكيد وتعزيز ربط صورة الشيخين بهذه المناهج.

فصوروا منطقة نجد هذه في القرن الثاني عشر و كأنها دولة مركزية لها سفاراتها ووزاراتها وجيشها وشرطتها وشرطة مرورها، ونشيد وطني، والأمن مستتب،

وكله تمام! وفجأة يتناول رجل اسمه محمد بن عبد الوهاب كتب شخص اسمه ابن تيمية، فيعتنق أفكاره، ويبدأ بسرية في تجهيز بعض الفدائيين، ثم يوزعهم على مناطق نجد، لانتظار الساعة الحاسمة لقلب نظام الحكم والانقلاب على الجيش وقتال الطواغيت والمرتدين.

وعندما تكالبت عليه القبائل من حوله فدافع عن نفسه ، قاموا بتصوير ذلك على أنه هو وأتباعه برماحهم وجمالهم وبساطتهم إنما كانوا يخططون بسرية لإخضاع الجزيرة ثم الانطلاق لقلب العالم الإسلامي وإخضاعه، ثم لغزو القسطنطينية وإسقاط الدولة العثمانية في عقر دارها، ثم إخضاع العالم بعد ذلك، ثم الكرة الأرضية، ثم الانتقال إلى كوكب آخر، وإزالة الأوضاع والقوانين الجاهلية من كل المجرات، وإقامة حكم الله في الأرض أو غير ذلك من قصص الأكشن هذه.

في جملة الشباب والعلماء السلفيين الذين خاضوا نقاشات وسجالات مع هذه الجماعات وكما هي المتلازمة التاريخية في صراع الأفكار ستظهر بعض الاتجاهات الشبابية داخل السلفية التي ستغالي في تضييع باب التكفير والقتال و مصطلحات العلماء المتعلقة بذلك، ظنًّا منها أن إقرار مثل هذه المصطلحات يلزم منه إقرار فكر (الجماعة المسلمة) تلك.

ففي مقابل مقالة (جماعات التكفير) في تكفير كل معيني أهل الأرض أو تكفير بعضهم والتوقف في بعضهم إلا من بايع الجماعة، ستظهر عند هذا التيار فكرة أنه لا يوجد شيء اسمه تكفير معين في الإسلام، بل تكفير مقالة وعمل فقط.

وفي مقابل إناطة الجماعة لحكم التكفير بقانونهم الوضعي المختَرَع، ستظهر عند هذا التيار فكرة أن الشرك الأكبر نفسه لا يناط به تكفير المعينين!!

وفي مقابل تنزيل هذه الاتجاهات وصف المشرك والكافر على كل من لم يبايع جماعتهم، ستظهر مقالة أنه حتى الواقع في شرك الألوهية ليس بمشرك ولو بينّا له وعرفناه وحاججناه مائة سنة، بل المشرك هي مقالته المسكينة!

وفي مقابل استحلال دماء من لم ينضم للجماعة ووجوب قتالهم سواء طُبِّق القرار أو لم يطبق، ستظهر مقالة أنه لا يوجد شيء اسمه قتال في الإسلام ولو غزاك المعتدي في دارك وبيتك ونزل بساحتك فينبغي أن تكون بين يديه كالميت في يد مُغسِّلِه.

وفي مقابل إطلاق وصف دار الكفر على كل من لم ينضوِ تحت الجماعة، ستظهر مقالة أنه لا وجود لشيء اسمه دار كفر في الإسلام، ولو رفعت الدار راية الشرك الأكبر أو مقالة الزنادقة وقاتلت الموحدين على ذلك.

وفي مقابل مقالة التوقف والتبين عند هذه الجماعات ومعناها أن المسلم الموحد المؤمن الطائع العدل يتوقف في الحكم بإسلامه إلى أن يبايع الجماعة المسلمة، سيأتي هذا التيار بمقالة أنه حتى الواقعين في الشرك الأكبر لا يُقال

فيهم نتوقف في تكفيرهم إلى حين تبليغ الحجة بل نقول هم مسلمون قطعا ومقالتهم شركية.

وهذا التيار هو الذي يواجه حاليا في الساحة أزمة انتساب إن صح التعبير، لأن المخالفين أخرجوا له من نصوص المدارس التي ينتسب إليها ما كان ينكره.

وهو الذي يكثر بين أتباعه استشكالات حول الدعوة النجدية ومصطلحات علمائها وتقريراتهم.

ويواجه نفس الأزمة مع ابن تيمية، وسيواجه نفسها مع أهل الحديث، بل مع صنيع الصحابة في حروب المرتدين، وإن كان قد لا يجرؤ على إظهار هذا الآن.

ولو أن هذا التيار انطلق من البداية بوضع ضوابط التكفير الشرعية في الشريعة الإسلامية، ثم ضوابط القتال، ثم ضوابط الأوصاف والأحكام، ثم حاكم أفكار هذه الجماعات إلى هذه الضوابط لاستقام له الأمر، ولكنه دخل بالعكس.

ولو أنه فرق بين التنظير التأصيلي للمسائل الذي به يسلم دين المرء، والتنظير التطبيقي أو المصلحي الذي يدور مع المصلحة أو العلاجي الذي ينطلق من علاج وضع معين، لاستقام له الأمر.

فيجعل التنظير والتأصيل باب، أما الخوض ومن يخوض ومن يستخدم المصطلحات هذه، ومتى تستخدم، وغير ذلك باب آخر، يخضع لضوابط وعوامل عديدة.

ولو أنه فرَّق بين سياقات كلام العلماء ومصطلحاتهم وبحث داخل كل مدرسة عن المراد بمصطلحات أهلها لاستقام له الأمر.

ففهم أن إدراج مانعي الزكاة تحت راية قتال المرتدين ليس من جهة التكفير بل من جهة اندراجهم في القتال تحت راية المرتدين.

وفهم أن وصف الدولة العبيدية بالكفر والردة إنما هو باعتبار حال حكامها الذين ادعوا الألوهية أو اعتقدوا العقائد الباطنية، لا من جهة أهلها وعوامها، فليس حتى وصفا عاما للدار فتكون دار مباحة.

وفهم أن رفع راية قتال الخارجين عن الشريعة في حالة ابن تيمية وامبراطورية التتار التي أعلنت الشهادتين، ليس على جهة تكفير كل معيَّن معيَّن، ومَن هذا الذي سيكفر كل معيني امبراطورية كامبراطورية المغول مترامية الأطراف ممن نطق بالشهادة!! بل هو توصيف شرعي لنوع القتال والصراع، وبعض ما سيترتب عليه من أحكام القتال.

ومثل ذلك أوصاف وأحكام النجديين، بما شرحناه في هذا البحث.

والخطاب السياسي العالمي يفرق إلى الآن بين ما يسميه بصراع المصالح، وصراع الحدود، وصراع الثروات، وغير ذلك من أنواع الصراع، ولكنه يوهمنا أنه لا وجود لشيء اسمه صراع ديني، مع أنهم إذا حميَ الوطيس رفعوا الصلبان! وتضرعوا للرهبان!

فأهل العلم أكثر صدقا وواقعية ويوصفون الصراعات على حقيقتها فيفرقون بين الرايات الدنيوية التي ترفع في الصراعات وبين الرايات العقدية والشرعية التي ترفع كما في حالة العبيديين والتتار وعباد القبور في نجد، فيتم توصيف كل صراع بما يستحقه.

المضيقون لباب تكفير المعين المنتسب للملة الواقع في عبادة القبور

عندما خاضت مدرسة الدعوة النجدية سجالات علمية مع طائفة المتوسعين هذه في خصوص مقالتهم في الشرك الاكبر، ظهرت مدرسة أخرى في مقابل مدرسة المتوسعين والتي أطلقنا عليها من قبل مدرسة المضيقين، وهي تلك التي رفضت التوقف في تكفير المعين المنتسب للملة المتلبس بالشرك الأكبر في صورة (عبادة القبور) في كل زمان ومكان بلا فرق بين زمان جهل وفترة وزمان ظهور أمر التوحيد، وبلا فرق بين معين بلغته الحجة وآخر لم يخطر بباله أن ما هو عليه من الشرك الأكبر، وبين شخص يظهر من مجمل حاله حب الله ورسوله وبحثه عن الحق، وبين رجل قامت به قرائن التهاون والتفريط، فبمجرد وقوع المعين في الشرك في أية صورة يكون عندهم كافرا الكفر الأكبر المخرج من الملة يستحق صاحبه الخلود في النار، وقد سبق الحديث عن ذلك.

وإذا كانت مدرسة المتوسعين حاولت الانتساب لدعوة الشيخ وتوظيف نصوصه في التوقف في تكفير المعينين في زمانه ابتداءً واشتراط تبليغه الحجة

لتصحيح هذا الانتساب، فإن المضيقين أيضا قاموا بتوظيف جملة من تقريرات الشيخ وأئمة الدعوة والتي وردت في خصوص سجالهم العلمي مع المتوسعين فقاموا بإخراجها من سياقها الخاص وإعادة قولبتها بما يتناسق مع مقالتهم.

فمدرسة الشيخ مثلا وهي تناقش المتوسعين ستنفي أن يكون الجهل بالصورة التي يطرحها المتوسعون مانعا من تكفير المعين، هنا سيأخذ المضيقون مثل هذه التقريرات ويقررون من خلالها أن الشيخ ومدرسته لا يقولون بالعذر بالجهل مطلقا في هذا الباب فلا يستثنون الجهل الذي بمعنى عدم بلاغ الحكم، والحق أن هذا الثاني مانع من المبادرة للتكفير عند الشيخ ومدرسته بضوابط أطنبنا في شرحها.

وعندما تناقش مدرسة الشيخ المتوسعين ستنكر اشتراط الحجة بالصورة التي يقررها المتوسعون من فهم الحجة فهم هداية وتوفيق واقتناع والتزام، هنا سيأخذ المضيقون مثل هذه التقريرات ويقررون من خلالها أن الشيخ ومدرسته لا يشترطون إقامة الحجة في هذا الباب مطلقا بأي صورة، وهو خلاف حقيقة مقالة الشيخ ومدرسته.

وعندما تناقش مدرسة الشيخ المنكرين لحكم تكفير المعين رأسا سيذكرون تقريرات العلماء ونصوصهم في تكفير المعينين ولن يتعرضوا لضوابط التكفير في هذا السياق، لأن النقاش هو مع من ينكر حكم تكفير المعين من رأسه، فلا معنى للخوض معه في ضوابط، هنا سيوظف المضيقون هذه النصوص في

تقرير أن الشيخ ومدرسته ليس لديهم ضوابط وشروط وموانع في التكفير في هذا الباب بدلالة تلك الإطلاقات.

إذا اتضحت صورة المسألة فإننا سنخصص الحديث في الفصل التالي عن ثلاثة كتب مهمة أحدها لإمام الدعوة والآخرَين لغيره، هذه الكتب صُنِّفت في الرد على المتوسعين في الباب، ولهذا قام المتوسعون بالطعن فيها، وفي نفس الوقت تم توظيفها من جهة المضيقين للباب توظيفا مختلا، وهو ما نريد توضيحه في الفصول التالية.

وخلاصة ما سأطرحه فيما يلي أن هذه الكتب ليست فيها كلمة واحدة تعارض ما قررناه من تبني أئمة الدعوة كلهم لشرط بلوغ الحجة قبل التكفير بالضوابط التي أطنبنا في شرحها، إنما تعالج قضايا أخرى كما قدمناه.

والكتب هي:

أ: مفيد المستفيد لإمام الدعوة.

ب: الانتصار لحزب الله الموحدين. لـ "أبا بطين".

ج: حكم تكفير المعين، لإسحاق بن عبد الرحمن.

توضيح بعض الخلل العلمي في قراءة بعض أطروحات أئمة الدعوة في الموضوع بسبب قراءتها خارج سياقها الموضوعي

(1)

أولا تسليط الضوء على كتاب مفيد المستفيد وبيان موضوعه

موضوع هذا الكتاب هو مناقشة القول القائل بأن المنتسب للملة لا يكفر أبدا إلا إن أنكر الإسلام أو صرح بالانتقال من الملة، أما تكفير المعينين من أهل الملة فلا.

والشيخ نفسه نص على أن المسألة التي يناقشها في كتابه أن من الناس من أقر بأن بعض الأفعال من الشرك الأكبر ولكنه رد حكم تكفير المعين رأسا وادعى أنه لا تكفير إلا لمن صرح بالانتقال من الملة.

يقول الشيخ:

«المسألة الثانية: الإقرار بأن هذا هو الشرك الأكبر، ولكن لا يكفر به إلا من أنكر الإسلام جملة، وكذب الرسول والقرآن، واتبع يهودية أو نصرانية أو غيرهما، وهذا هو الذي يجادل به أهل الشرك والعناد في هذه الأوقات »[1].

وقد تعرض الشيخ لنفس الشبهة في كتابه الآخر كشف الشبهات[2] لما قال:

---

[1] «مفيد المستفيد» -المطبوع ضمن مجموع عقيدة الموحدين عن دار الطرفين- (ص80).

[2] (ص37) ط. وزارة الشؤون الإسلامية.

«فاعلم أن لهؤلاء (شبهة) يوردونها على ما ذكرنا، وهي من أعظم شبههم، فأصغ سمعك لجوابها. وهي أنهم يقولون: إن الذين نزل فيهم القرآن لا يشهدون أن (لا إله إلا الله) ، ويكذبون الرسول - صلى الله عليه وسلم - وينكرون البعث، ويكذبون القرآن ويجعلونه سحرا. ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ونصدق القرآن، ونؤمن بالبعث، ونصلي، ونصوم. فكيف تجعلوننا مثل أولئك. فالجواب أنه لا خلاف بين العلماء كلهم أن الرجل إذا صدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في شيء وكذبه في شيء أنه كافر لم يدخل في الإسلام، وكذلك إذا آمن ببعض القرآن وجحد بعضه، كمن أقر بالتوحيد وجحد وجوب الصلاة، أو أقر بالتوحيد والصلاة وجحد وجوب الزكاة، أو أقر بهذا كله وجحد الصوم، أو أقر بهذا كله وجحد الحج.. »إلى آخر رده للشبهة.

وكان بعض هؤلاء المخالفين ينسب هذا الرأي لابن تيمية.

وسلك الشيخ في كتابه مفيد المستفيد عدة مسالك في رد هذه المقالة:

المسلك الأول: النقل عن ابن تيمية أن من فعل كذا من أهل الملة يستتاب وإلا فيقتل ردةً، وهذا كثير في كتبه، ليبين الشيخ أن مثل هذه العبارات لا يفهم منها إلا تنزيل الحكم على المعين بشروط، ولهذا يقول بعد النقل عن ابن تيمية:

«انتهى كلام الشيخ، وهو الذي ينسب إليه بعض أعداء الدين أنه لا يكفر المعين؛ فانظر أرشدك الله إلى تكفيره من ذبح لغير الله من هذه الأمة وتصريحه أن المنافق يصير مرتدا بذلك. وهذا في المعين إذ لا يتصور أن تحرم إلا ذبيحة معين»[1].

---

[1] «مفيد المستفيد» (ص63).

المسلك الثاني: بيان مراد ابن تيمية مما هو مبثوث في كتبه من التورع عن تكفير المعينين من أن المقصود التورع عن التكفير غير المنضبط بالشرع.

يقول الشيخ:

«وأنا أذكر لفظه الذي احتجوا به على زيغهم.

قال رحمه الله تعالى [يريد ابن تيمية] أنا من أعظم الناس نهيا عن أن ينسب معين إلى تكفير أو تبديع أو تفسيق أو معصية، إلا إذا علم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافرا تارة وفاسقا أخرى وعاصيا أخرى. انتهى كلامه. وهذا صفة كلامه في المسألة في كل موضع وقفنا عليه من كلامه، لا يذكر عدم تكفير المعين إلا ويصله بما يزيل الإشكال **أن المراد بالتوقف عن تكفيره قبل أن تبلغه الحجة، وإذا بلغته حكم عليه بما تقتضيه تلك المسألة من تكفير أو تفسيق أو معصية**»[1].

ثالثا: بيان أن المسائل التي قد يُتورّع فيها عن التكفير هي المسائل الخفية الدقيقة، أما المسائل الظاهرة التي يعرفها القاصي والداني والمسلم وغيره فلا مجال للتورع في التكفير بها بعد البلوغ، يقول الشيخ عن ابن تيمية:

«وصرح رضي الله عنه أيضا أن كلامه في غير المسائل الظاهرة فقال في الرد على المتكلمين، لما ذكر أن بعض أئمتهم توجد منه الردة عن الإسلام كثيرا. قال: وهذا إن كان في المقالات الخفية، فقد يقال إنه فيها مخطئ ضال، لم تقم عليه الحجة التي يكفر تاركها، لكن هذا يصدر عنهم في أمور يعلم الخاصة والعامة من المسلمين أن

---

[1] «مفيد المستفيد» (ص65).

رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث بها وكفر من خالفها، مثل أمره بعبادة الله وحده لا شريك له، ونهيه عن عبادة أحد سواه من الملائكة والنبيين وغيرهم؛ فإن هذا أظهر شعائر الإسلام، ومثل إيجاب الصلوات الخمس وتعظيم شأنها، ومثل تحريم الفواحش والربا والخمر والميسر، ثم تجد كثيرا من رؤوسهم وقعوا فيها فكانوا مرتدين»[1].

رابعا: نقل عن ابن تيمية بعض أسباب المروق من الدين كالغلو في الأنبياء والصالحين، ثم قال:

«فتأمل أول الكلام وآخره، وتأمل كلامه فيمن دعا نبيا أو وليا، مثل أن يقول: يا سيدي فلان أغثني! ونحوه، أنه يستتاب؛ فإن تاب وإلا قتل. هل يكون هذا إلا في المعين»[2].

خامسا: بيان أن كل من شارك في القتال تحت راية شركية فإنه تعمه أحكام المشركين في القتال ولو كان باعثه للقتال مختلفا، يريد الشيخ بهذا بيان صحة ما تبنته الدعوة من إجراء أحكام المشركين في القتال على أعدائهم الدينيين الذي قاتلوا تحت راية الانتصار للشرك الأكبر مع عدم لزوم تكفيرهم واحدا واحدا، يقول الشيخ:

«وقال أبو العباس أيضا في الكلام على كفر مانعي الزكاة: والصحابة لم يقولوا: هل أنت مقر بوجوبها أو جاحد لها؟ هذا لم يعهد عن الخلفاء والصحابة. بل قال الصديق لعمر رضي الله عنهما: "والله لو منعوني عقالا أو عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه" فجعل المبيح للقتال مجرد المنع، لا جحد

---

[1] «مفيد المستفيد» (ص65).

[2] «مفيد المستفيد» (ص66).

الوجوب. وقد روى أن طوائف منهم كانوا يقرون بالوجوب، لكن بخلوا بها، ومع هذا فسيرة الخلفاء فيهم جميعهم سيرة واحدة...»[1]

سادسا: ثم انتقل الشيخ إلى النقل عن المذاهب الأربعة وما قرروه فيما يرتد به المنتسب للملة من أقوال أو أفعال أو معتقدات، وأنه يستتاب وإلا يقتل، وأن مثل هذه التقريرات لا تكون إلا في المعينين[2].

سابعا: ثم اعتنى ببيان التحققات العملية في الزمن النبوي وأزمنة السلف لتكفير المعينين من المنتسبين للإسلام، فقال:

«فمن أحسن ما يزيل الإشكال فيها ويزيد المؤمن يقينا ما جرى من النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والعلماء بعدهم فيمن انتسب إلى الإسلام كما ذكر "أنه صلى الله عليه وسلم بعث البراء ومعه الراية إلى رجل تزوج امرأة أبيه ليقتله ويأخذ ماله"، ومثل همه بغزو بني المصطلق لما قيل إنهم منعوا الزكاة ومثل "قتال الصديق وأصحابه لمانعي الزكاة وسبي ذراريهم وغنيمة أموالهم وتسميتهم مرتدين" ومثل إجماع الصحابة في زمن عمر على تكفير قدامة بن مظعون وأصحابه إن لم يتوبوا لما فهموا من قوله تعالى: {لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا} حل الخمر لبعض الخواص، ومثل إجماع الصحابة في زمن عثمان رضي الله عنه على تكفير أهل المسجد الذين ذكروا كلمة في نبوة مسيلمة مع أنهم لم يتبعوه، وإنما اختلف الصحابة في قبول توبتهم، ومثل تحريق علي رضي الله عنه أصحابه لما غلوا فيه، ومثل إجماع التابعين مع بقية الصحابة على كفر المختار

---

[1] «مفيد المستفيد» (ص75).

[2] «مفيد المستفيد» (ص78 وما بعدها).

بن أبي عبيد ومن اتبعه مع أنه يدعي أنه يطلب بدم الحسين وأهل البيت، ومثل إجماع التابعين ومن بعدهم على قتل الجعد بن درهم وهو مشهور بالعلم والدين، وهلم جرا من وقائع لا تعد ولا تحصى. ولم يقل أحد من الأولين والآخرين لأبي بكر الصديق وغيره: كيف تقاتل بني حنيفة وهم يقولون لا إله إلا الله ويصلون ويزكون؟ وكذلك لم يستشكل أحد تكفير قدامة وأصحابه لو لم يتوبوا، وهلم جرا إلى زمن بني عبيد القداح الذين ملكوا المغرب ومصر والشام وغيرها مع تظاهرهم بالإسلام وصلاة الجمعة والجماعة ونصب القضاة والمفتين لما أظهروا من الأقوال والأفعال ما أظهروا لم يستشكل أحد من أهل العلم والدين قتالهم، ولم يتوقفوا فيه وهم في زمن ابن الجوزي والموفق. وصنف ابن الجوزي كتابا لما أخذت مصر منهم سماه النصر على مصر. ولم يسمع أحد من الأولين والآخرين أن أحدا أنكر شيئا من ذلك أو استشكله لأجل ادعائهم الملة أو لأجل قول لا إله إلا الله أو لأجل إظهار شيء من أركان الإسلام، إلا ما سمعناه من هؤلاء الملاعين في هذه الأزمان من إقرارهم أن هذا هو الشرك ولكن من فعله أو حسنه أو كان مع أهله أو ذم التوحيد أو حارب أهله لأجله أو أبغضهم لأجله أنه لا يكفر لأنه يقول لا إله إلا الله، أو لأنه يؤدي أركان الإسلام الخمسة»[1].

ثم تحدى الشيخ مخالفيه أن يأتوه بكلمة واحدة عن أهل العلم فيها أنه لا يكفر المعين من المنتسبين للملة إلا بإنكار الإسلام كله أو الانتقال من الملة فقال:

---

[1] «مفيد المستفيد» (ص82).

«فإن ظفروا بحرف واحد عن أهل العلم أو أحد منهم يستدلون به على قولهم الفاحش الأحمق فليذكروه»[1].

إذا فهمنا موضوع هذه الرسالة وسياقها العلمي والموضوعي تبين لنا خطأ ما يطرحه بعض الباحثين من أن الرسالة يستفاد منها أن الشيخ ينزل الكفر على المعين دون اشتراط إقامة الحجة، لأنه لم يذكر أية شروط لتكفير المعين في الرسالة.

وهذا تقرير خاطيء وهو من أكبر الأمثلة لما نطرحه في هذا الكتاب من جناية القراءة المفرغة من سياقها الموضوعي على الفكر والفهم، فموضوع الرسالة إنما هو مناقشة من يرد حكم التكفير رأسًا فرد الشيخ هذه المقالة بما قدمناه ولم يتعرض فيها لتفصيل شروط تنزيل التكفير على المعين إلا عَرَضا لأن هذا ليس هو موضوع رسالته، ولكل مقام مقال.

بل نجد في رسالة مفيد المستفيد نفسها نص الشيخ على عدم التكفير قبل البلوغ، يقول الشيخ:

«مسألة المسلم إذا أشرك بالله **بعد بلوغ الحجة**، أو المسلم الذي يفضل هذا على الموحدين أو يزعم أنه على حق، أو غير ذلك من الكفر الصريح الظاهر الذي بينه الله ورسوله وبينه علماء الأمة، أنا نؤمن بما جاءنا عن الله وعن رسوله من تكفيره، ولو غلط من غلط، فكيف والحمد لله ونحن لا نعلم عن واحد من العلماء خلافا في هذه المسألة»[2].

---

[1] «مفيد المستفيد» (ص83).

[2] (ص66).

فها هو الشيخ في نفس الرسالة يشترط تبليغ الحجة قبل التكفير وهو ما يتسق مع عامة النقول عنه التي قدمناها هنا وفي «الانتصار».

ثانيا : موضوع كتاب الانتصار لحزب الله الموحدين لأبا بطين

يدور موضوع هذه الرسالة حول سجال علمي مهم طرأ في الساحة النجدية في مرحلة ذيوع وانتشار دعوة التوحيد فيها، وتحديدا في أواخر حياة الشيخ ثم في الجيل التالي له وما بعده.

ونمهد لفهم هذا السجال بالتالي:

كان الشيخ والدعوة يتبنون عدم تكفير المعين من أهل الملة من المتلبسين بالشرك الأكبر قبل تبليغه الحجة في الظروف التي تقدم شرحها.

وتبليغ الحجة يشمل لديهم ثلاثة أركان رئيسة:

أ: تبليغ الأدلة الشرعية.

ب: تعريفها وشرحها لمن كان جاهلا بمواضع الخطاب اللغوي والشرعي.

ج: كشف الشبهات عنها.

كل هذا بما يتناسب مع حال المعين وبالأسلوب الذي يفهمه (مثله) .

بعد تبليغ هذا القدر من الحجة بالوصف المذكور من الوارد أن يعتذر لنا هذا الشخص –أو يُعتذَر له– بأنه جاهل ولا يفهم هذه الأدلة ولم يقتنع بها ولا يستوعب شرحها لأنه جاهل.

السؤال: هل هذا النوع من الجهل يُعذر به في أبواب الشرك الأكبر؟ وهل ادعاء (عدم الفهم) بعد إقامة الحجة المستكملة الأركان له محل من الإعراب؟

جواب الشيخ وأئمة الدعوة كلهم - بل لا نتصور أن يقول عالم بخلاف هذا - أن هذا النوع من الجهل لا يعذر به في أبواب الشرك الأكبر، ولا يمكن لمن يعذر به أن يكون متصورا لمقالته ولا يمكن له أن يطردها، لأن جهل عامة الكفار والمشركين هو من هذا النوع من الجهل، ويلزم من ذلك أن ينحصر حكم التكفير بالمعاند وهو من يقر لنا أنه فهم واستوعب الحجة واقتنع بأنها حق في نفسها ولكنه أبى الالتزام والانقياد وهذا يعز وجوده في الوجود جدا.

ففهم الحجة الواجب اشتراطه هو الفهم اللغوي والشرعي للأدلة وشرحها لا فهم الهداية والتوفيق للاقتناع بالحجة وإقرار أن ما تضمنته حقا.

وقد ظهر في الساحة النجدية وقتها فئات من المخالفين للدعوة في هذه المسألة وكانوا يرون أن هذا النوع من الجهل معذور به، وبالتالي فتنزيل أحكام التكفير على المعينين عند هؤلاء كانت شبه منعدمة، لما قدمناه.

وقد استمرت هذه المقالة حاضرة في الواقع النجدي والسعودي والسلفي إلى اليوم عند فئات من الباحثين الذين ذكرناهم قبل قليل.

وفي المقابل فإن بعض من يرفض نسبة اشتراط بلوغ الحجة قبل تكفير المتلبس بالشرك من أهل الملة في أزمنة الفترة لأئمة الدعوة وأنه هو ما طبقه الشيخ لسنوات في واقعه العملي يحاولون أن ينسبوا هذا الرفض لأبا بطين من خلال هذه الرسالة وغيرها من تقريراته، وينسبون له عدم العذر بالجهل مطلقا.

والذي نتبناه هو ما كررناه في هذه الرسالة وهو إن إريد بالجهل الجهل الذي ينشأ عن عدم البلوغ أو البلوغ المختل في زمان ومكان يشبه أزمنة الفترة وحال الجاهل أنه محب لله ورسوله مجتهد في اتباع شرعه، فهذا يعذر به عند أئمة الدعوة كلهم بما فيهم أبا بطين.

أما الجهل بالمعنى الآخر المتقدم شرحه فليس بعذر لديهم جميعا.

وكذلك اشتراط فهم الحجة، إن أريد به فهمها لغة وشرعا عن طريق توضيحها بالأسلوب الذي يفهمه مثله، فهو شرط عند عامة العلماء بما فيهم أئمة الدعوة، وإن أريد به أن يفهمها فهم هداية وتوفيق للاقتناع بالحق ويقر بأنها حق في نفسها ثم يكفر بها، فليس هذا بشرط عند عامة أهل العلم بما فيهم أئمة الدعوة في قيام الحجة، وهذه المسألة هي التي عبروا عنها بأن إقامة الحجة شيء وفهمها شيء آخر[1].

وسأنقل هنا بعض النقولات من كتاب الانتصار لحزب الله الموحدين التي تبيّن رأينا بأدنى تأمل:

يقول أبا بطين:

«فإن كان مرتكب الشرك الأكبر معذورا لجهله، فمن هو الذي لا يعذر؟

ولازم هذه الدعوى: أنه ليس لله حجة على أحد **إلا المعاند** مع أن صاحب هذه الدعوى لا يمكنه طرد أصله؛ بل لابد أن يتناقض؛ فإنه لا يمكنه أن يتوقف في تكفير من شك في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، أو شك في البعث، أو غير ذلك من أصول الدين. والشاك جاهل.

---

[1] لابن القيم كلام نفيس في تقرير هذا التفريق وشرحه بأسلوبه البليغ في مدارج السالكين (1/ 260-264 ط. الصميعي) ولولا طوله لنقلته لنفاسته.

والفقهاء رحمهم الله: يذكرون في كتب الفقه حكم المرتد: وأنه المسلم الذي يكفر بعد إسلامه : نطقاً أو فعلاً أو شكاً أو اعتقادا . وسبب الشك: الجهل.

ولازم هذا: أنا لا نكفر جهلة اليهود والنصارى ولا الذين يسجدون الشمس والقمر والأصنام لجهلهم...»[1].

ويقول:

«والعلماء يذكرون: أن من أنكر وجوب عبادة من العبادات الخمس، أو قال في واحدة منها: إنها سنة لا واجبة أو جحد حل الخبز ونحوه أو جحد تحريم الخمر أو نحوه، أو شك في ذلك ومثله لا يجهله: كفراً **وإن كان مثله يجهله: عُرِّفَ ذلك** فإن أَصَرَّ بعد التعريف كفر وقُتل ولم يقولوا: فإذا تبين له الحق وعاند: كفر.

وأيضا، فنحن لا نعرف أنه معاند حتى يقول: أنا أعلم أن ذلك حق ولا ألتزمه، أو لا أقوله، وهذا لا يكاد يوجد»[2].

ويقول:

«وقد ذكر العلماء من أهل كل مذهب: أشياء كثيرة لا يمكن حصرها من الأقوال والأفعال والاعتقادات: أنه يكفر صاحبها، ولم يقيدوا ذلك بالمعاند.

فالمدعي أن مرتكب الكفر متأولاً أو مجتهدا مخطئاً أو مقلدا، أو جاهلا: معذور . مخالف للكتاب والسنة والإجماع بلا شك، مع أنه لا بد أن ينقض أصله: فلو طرد

---

[1] « الانتصار لحزب الله الموحدين » (ص42).

[2] « الانتصار لحزب الله الموحدين » (ص46).

أصله كفر بلا ريب، كما لو توقف في تكفير من شك في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك[1].

وأما الرجل الذي أوصى أهله أن يحرقوه، وأن الله غفر له مع شكه في صفة من صفات الرب سبحان: فإنما غفر له **لعدم بلوغ الرسالة له**. كذا قال غير واحد من العلماء[2].

قال صاحب اختيارات ابن تيمية: والمرتد: من أشرك بالله، أو كان مبغضا لرسوله أو لما جاء به أو ترك إنكار كل منكر بقلبه، أو توهم أن من الصحابة من قاتل مع الكفار أو أجاز ذلك أو أنكر مجمعا عليه إجماعا قطعيا أو جعله بينه وبين الله وسائط: يتوكل عليهم ويدعوهم ويسألهم، ومن شك في صفة من صفات الله ومثله لا يجهلها: فمرتد. وإن كان مثله يجهلها: فليس بمرتد؛ ولهذا لم يكفر النبي صلى الله عليه وسلم الرجل الشاك في قدرة الله تعالى.

فأطلق فيما تقدم من المكفرات، وفرق في الصفة بين الجاهل وغيره».

ونقل عن المجد رحمه الله: «كل بدعة كفرنا فيها الداعية فإنا نفسق المقلد فيها كمن يقول بخلق القرآن أو أن علم الله مخلوق، أو أن أسماءه مخلوقة أو أنه لا يرى في الآخرة أو يسب الصحابة تدينا أو أن الإيمان مجرد الاعتقاد، وما أشبه ذلك.

فمن كان عالما في شيء من هذه البدع: يدعو إليه ويناظر عليه، فهو محكوم بكفره. نص أحمد على ذلك في مواضع. انتهى.

فانظروا! كيف حكموا بكفرهم مع جهلهم»[1].

---

[1] «الانتصار لحزب الله الموحدين» (ص25).

[2] «الانتصار لحزب الله الموحدين» (ص47).

وقال أيضا:

«فقد جزم رحمه الله في مواضع كثيرة: بكفر من فعل ما ذكره من أنواع الشرك (وحكى إجماع المسلمين على ذلك) ولم يستثن الجاهل ونحوه. وقال تعالى: {إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ} .

وقال عن المسيح إنه قال: ({إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ} .

فمن خص ذلك الوعيد) بالمعاند فقطاً وأخرج الجاهل والمتأول والمقلد: فقد شاقَّ الله ورسوله، وخرج عن سبيل المؤمنين.

والفقهاء يصدِّرون باب حكم المرتد: بمن أشرك بالله. ولم يقيِّدوا ذلك بالمعاند.

وهذا أمر واضح ولله الحمد.

وقد قال الله تعالى: {رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}[2]».

وقال مقرًّا لتفريق ابن تيمية بين التكفير المطلق والمعين في أبواب الشرك الأكبر للمنتسبين للملة:

«فقوله رحمه الله: لم يمكن تكفيرهم حتى يبين لهم ما جاء به الرسول - (لم يقل: حتى يتبين لهم ما جاء به الرسول) - أي: لم يمكن تكفيرهم بأشخاصهم وأعيانهم: بأن يقال: فلان كافر ونحوه.

---

[1] «الانتصار لحزب الله الموحدين» (ص48).

[2] «الانتصار لحزب الله الموحدين» (ص62).

بل يقال: هذا كُفر، ومن فعله كَفَر؛ كما أطلق رحمه الله الكفر على فاعل هذه الأمور ونحوها في مواضع لا تحصى وحكى إجماع المسلمين على كفر فاعل هذه الأمور الشركية.

وصرَّح بذلك رحمه الله في مواضع كما قال في أثناء جواب له في الطائفة القلندرية .

قال بعد كلام كثير: وأصل ذلك أن المقالة التي هي كفر في الكتاب والسنة والإجماع، يقال: هي كفر مطلقا ؛ كما دل على ذلك الدليل الشرعي.

فإن الإيمان والكفر من الأحكام المتلقاة عن الله ورسوله، ليس ذلك مما يحكم الناس فيه بظنونهم، ولا يجب أن يحكم في كل شخص قال ذلك: بأنه كافر، **حتى يثبت في حقه شروط التكفير، وتنتفي موانعه**. مثل من قال: إن الزنا أو الخمر حلال؛ **لقرب عهده بالإسلام أو نشوئه ببادية بعيدة .**

وقال رحمه الله في موضع آخر - في أثناء كلام له على هذه المسألة-: وحقيقة الأمر في ذلك: أن القول يكون كفراً فيطلق القول بتكفير صاحبه فيقال: من قال / كذا فهو كافر.

لكن الشخص المعين الذي قاله: لا يحكم بكفره حتى تقوم عليه الحجة التي يكفر تاركها.

فهذا كما في نصوص الوعيد فإن الله يقول: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا} . الآية.

فهذا ونحوه من نصوص الوعيد حق. لكن الشخص المعين لا يشهد عليه بالوعيد فلا نشهد لمعين من أهل القبلة بالنار؛ لجواز ألا يلحقه الوعيد لفوات شرطه أو بثبوت مانع. فقد لا يكون بلغة التحريم وقد يتوب من فعله المحرم، وقد يكون له حسنات عظيمة تمحو عقوبة ذلك المحرم وقد يبتلى بمصائب تكفر عنه»[1].

ونكرر هنا النقول التي كنا نقلناها في فصل منهج أئمة الدعوة في التكفير والتي تتعلق بهذه المسألة لترابط الأفكار:

نصوص أئمة الدعوة في مسألة إخراج الجهل الذي هو من جنس جهل المشركين (كما تقدم شرحه) مما يعذر به:

 «فإن كان المعين لا يكفر إلا إذا قامت عليه الحجة، فمن المعلوم أن قيامها ليس معناه: أن يفهم كلام الله ورسوله، مثل فهم أبي بكر رضي الله عنه، بل إذا بلغه كلام الله ورسوله، وخلا من شيء يعذر به، فهو كافر، كما كان الكفار كلهم تقوم عليهم الحجة بالقرآن، مع قول الله: (**وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أكنةأن يفقهوه**) الأنعام 25، وقوله: (**إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ**»).[10/ 69].

وسئل الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبا بطين، رحمه الله: عمن ارتكب شيئا من المكفرات جهلا، يكفر إذا كان جاهلا بكون ما ارتكبه كفر، أم لا؟

فأجاب: قال تعالى: (**إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً**).

---

[1] «الانتصار لحزب الله الموحدين» (ص67).

فلا عذر لأحد بعد بعثة محمد ﷺ في عدم الإيمان به وبما جاء به، بكونه لم يفهم حجج الله وبيناته لأن الله سبحانه أخبر عن الكفار بعدم الفهم، فقال تعالى: (**وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً**). وقال: (**إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ**) وقال: (**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ**).

والآيات في وصفهم بغاية الجهل، كثيرة معلومة، فلم يعذرهم تعالى بكونهم لم يفهموا، بل صرح بتكفير هذا الجنس، وأنهم من أهل النار، كما في قوله تعالى: (**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً**) ، وقوله: (**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**).... وأما قول الشيخ رحمه الله، لما ذكر شيئا من أنواع الشرك الحادث في هذه الأمة، قال: لكن لغلبة الجهل، وقلة العلم بآثار الرسالة في كثير من المتأخرين، لم يمكن تكفيرهم بذلك، حتى يبين لهم ما جاء به الرسول ﷺ، لم يقل: حتى يتبين، فتحقق منهم العناد بعد المعرفة». [352/10].

 « فقد بين أنه لا عذر لأحد في الجهل بهذه الأمور ونحوها [أي من المعلوم من الدين بالضرورة]، بعد بعثته ﷺ وبلوغ حجج الله وبيناته، وإن لم يفهمها من بلغته، فحجة الله قائمة على عباده ببلوغ الحجة، لا بفهمها، فبلوغ الحجة شيء وفهمها شيء آخر؛ ولهذا لم يعذر الله الكفار بعدم فهمهم، بعد أن بلغتهم حجته وبيناته، وهذا ظاهر بحمد الله». [360/10].

 «فلو كان هذا الحكم موقوفا على فهم الحجة، لم نكفر ونقتل إلا من علمنا أنه معاند خاصة، وهذا بين البطلان؛ بل آخر كلامه رحمه الله، يدل على أنه يعتبر فهم الحجة، في الأمور التي تخفى على كثير من الناس، وليس فيها مناقضة للتوحيد

والرسالة، كالجهل ببعض الصفات». [10/ 368].

 «ومما يبين أن الجهل ليس بعذر في الجملة، قوله ﷺ في الخوارج ما قال، مع عبادتهم العظيمة؛ ومن المعلوم: أنه لم يوقعهم ما وقعوا فيه إلا الجهل، وهل صار الجهل عذرا لهم؟» [10/ 391].

ومن تقريراتهم في ذلك قول حمد بن ناصر بن معمر في «النبذة الشريفة»[1]:

«وليس المراد بقيام الحجة أن يفهمها الإنسان فهما جليًّا كما يفهمها من هداه الله ووفقه وانقاد لأمره.

فإن الكفار قد قامت عليهم حجة الله مع إخباره بأنه جعل على قلوبهم أكنة أن يفقهوا كلامه.

فقال: (وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي ءاذانهم وقرا) ، وقال: (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في ءاذانهم وقر وهو عليهم عمى)، وقال تعالى: (إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون)، وقال: (هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا. الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا).

والآيات في هذا المعنى كثيرة، يخبر سبحانه أنهم لم يفهموا القرآن، ولم يفقهوه، وأنه عاقبهم بجعل الأكنة على قلوبهم والوقر في آذانهم، وأنه ختم على قلوبهم، وأسماعهم، وأبصارهم فلم يعذرهم مع هذا كله بل حكم بكفرهم وأمر بقتالهم فقاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكم بكفرهم.

فهذا يبين أن بلوغ الحجة نوع وفهمها نوع آخر».

ومن نفس الباب قول الشيخ محمد:

---

[1] (ص117 ط. العاصمة).

«ولكن أصل الإشكال، أنكم لم تفرقوا بين قيام الحجة، وبين فهم الحجة، فإن أكثر الكفار والمنافقين من المسلمين، لم يفهموا حجة الله مع قيامها عليهم، كما قال تعالى: {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً}.

وقيام الحجة نوع، وبلوغها نوع، وقد قامت عليهم، وفهمهم إياها نوع آخر; وكفرهم ببلوغها إياهم، وإن لم يفهموها. إن أشكل عليكم ذلك، فانظروا قوله صلى الله عليه وسلم في الخوارج: " أينما لقيتموهم فاقتلوهم " ،وقوله: " شر قتلى تحت أديم السماء " ، مع كونهم في عصر الصحابة، ويحقر الإنسان عمل الصحابة معهم، ومع إجماع الناس أن الذي أخرجهم من الدين هو التشدد والغلو والاجتهاد؛ وهم يظنون أنهم يطيعون الله، وقد بلغتهم الحجة، ولكن لم يفهموها.

وكذلك قتل علي رضي الله عنه الذين اعتقدوا فيه، وتحريقهم بالنار، مع كونهم تلاميذ الصحابة، ومع عبادتهم وصلاتهم وصيامهم، وهم يظنون أنهم على حق.

وكذلك إجماع السلف: على تكفير غلاة القدرية وغيرهم، مع علمهم وشدة عبادتهم، وكونهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا؛ ولم يتوقف أحد من السلف في تكفيرهم لأجل كونهم لم يفهموا، فإن هؤلاء كلهم لم يفهموا». [10/ 94].

ومنه قول عبد اللطيف آل الشيخ:

«وينبغي أن يعلم الفرق بين قيام الحجة وفهم الحجة، فإن من بلغته دعوة الرسل فقد قامت عليه الحجة؛ **إذا كان على وجه يمكن معه العلم، ولا يشترط في قيام الحجة أن يفهم عن الله ورسوله ما يفهمه أهل الإيمان والقبول والانقياد لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم**، فافهم هذا يكشف عنك شبهات كثيرة في مسألة قيام

الحجّة، قال تعالى: {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً} [الفرقان:44]، وقال تعالى: {خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ} {البقرة: من الآية7]». [منهاج التأسيس ص251-252].

وقال سليمان بن سحمان:

«وقد أخبر الله سبحانه بجهل كثير من الكفار مع تصريحه بكفرهم، ووصف النصارى بالجهل مع أنه لا يشك مسلم في كفرهم، ونقطع أن أكثر اليهود والنصارى اليوم جهال مقلدون ونعتقد كفرهم وكفر من شك في كفرهم، وقد دل القرآن على أن الشك في أصول الدين كفر، والشك هو التردد بين شيئين كالذي لا يجزم بوقوع البعث ولا عدم وقوعه، ونحو ذلك كالذي لا يعتقد وجوب الصلاة ولا عدم وجوبها أو لا يعتقد تحريم الزنا ولا عدم تحريمه، وهذا كفر بإجماع العلماء، ولا عذر لمن كان حاله هكذا لكونه لم يفهم حجج الله وبيناته لأنه لا عذر له بعد بلوغها وإن لم يفهمها، وقد أخبر الله تعالى عن الكفار أنهم لم يفهموا فقال: (وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي ءاذانهم وقرا)، وقال (إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون)، فبيَّن سبحانه أنهم لم يفقهوا، فلم يعذرهم لكونهم لم يفقهموا، بل صرح القرآن بكفر هذا الجنس من الكفار كما في قوله تعالى : (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا. الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا. أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا). [كشف غياهب الظلام ص92-93]. [وانظر الضياء الشارق له ص379 و655].

وقال أيضا وقد نقلنا بعضه فيما تقدم وننقله هنا بتمامه، وجاء كلامه تعليقا على عبارة ابن تيمية الشهيرة:

«ولكن لغلبة الجهل وقلة العلم بآثار الرسالة في كثير من المتأخرين لم يمكن

تكفيرهم بذلك حتى يبين لهم ما جاء به الرسول مما يخالفه إلى آخر كلامه رحمه الله...قال سليمان بن سحمان: ومراد شيخ الإسلام بهذا الاستدراك أن الحجة إنما تقوم على المكلفين ويترتب حكمها بعد بلوغ ما جاءت به الرسل من الهدى ودين الحق وزبدة الرسالة ومقصودها الذي هو توحيد الله وإسلام الوجه له وإنابة القلوب إليه قال الله تعالى: (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) ، وقد مثل العلماء هذا الصنف بمن نشأ ببادية أو ولد في بلاد الكفار ولم تبلغه الحجة الرسالية ولذلك قال الشيخ: لغلبة الجهل وقلة العلم بآثار الرسالة في كثير من المتأخرين.

وقد صنف رسالة مستقلة في أن الشرائع لا تلزم قبل بلوغها وأكثر العلماء يسلمون هذا في الجملة ويرتبون عليه أحكاما كثيرة في العبادات والمعاملات وغيرها فمن بلغته دعوة الرسل إلى توحيد الله ووجوب الإسلام له وفقه أن الرسل جاءت بهذا لم يكن له عذر في مخالفتهم وترك عبادة الله، وهذا هو الذي يُجزَم بتكفيره إذا عبد غير الله وجعل معه الأنداد والآلهة، والشيخ وغيره من المسلمين لا يتوقفون في هذا، وشيخنا رحمه الله قد قرر هذا وبينه وفاقا لعلماء الأمة واقتداء بهم ولم يكفر إلا بعد قيام الحجة وظهور الدليل، [و] أنه رحمه الله توقف في تكفير الجاهل من عباد القبور إذا لم يتيسر له من ينبهه، هذا هو المراد بقول الشيخ: حتى يبين لهم ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، **فإذا حصل البيان الذي يفهمه المخاطب ويعقله فقد تبين له** وليس بين بيّن وتبيّن فرق بهذا الاعتبار **لأن كل من بُيِّن له ما جاء به الرسول وأصرّ وعاند فهو غير مستجيب والحجة قائمة عليه سواء كان إصراره لشبهة عرضت كما وقع للنصارى وبعض المشركين من العرب، أو كان ذلك عن عناد وجحود واستكبار، كما جرى لفرعون وقومه وكثير من مشركي العرب، فالصنفان يحكم بكفرهم إذا قامت الحجة التي يجب اتباعها، ولا يلزم أن يعرف الحق في نفس الأمر كما عرفته اليهود وأمثالهم، بل يكفي في التكفير الحجة وعدم قبول ما جاءت به الرسل**، قال تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء

حتى إذا جاءه لم يجده شيئا) إلى قوله: (ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور)، وقال تعالى: (وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا) الآية، وقال تعالى: (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا)، وقال تعالى: (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها)، إلى قوله: (أولئك هم الغافلون)، وقال تعالى: (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا)، وقال تعالى: (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا)، وقال تعالى: (فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون) ونحو ذلك من الآيات، وإذا بلغ النصراني ما جاء به الرسول ولم ينقد له لظنه أنه الرسول الأمين فقط فهو كافر، وإن لم يتبين له الصواب في نفس الأمر، **وكذلك كل من بلغته دعوة الرسل بلوغا يعرف منه المراد والمقصود** فرد ذلك لشبهة أو نحوها فهو كافر، وإن التبس عليه الأمر وهذا لا خلاف فيه.

وهذا المعترض من أجهل الناس بأحكام الشرع وسبل الهدى وأظنه لا يحفظ كتاب الله ولا يدري ما فيه من النصوص.

قال الله تعالى: (وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون)، ولم يقل حتى يتبين، وقال تعالى (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) الآية، وقد نص شيخنا رحمه الله في جوابه لمن سأله عن هذه المسألة قال رحمه الله : أصل الإشكال أنكم لم تفرقوا بين بلوغ الحجة وفهم الحجة، وبلوغ الحجة لابد فيه من الحكم بما تقتضيه الحجة والدليل، وأما فهم الحجة فلا يشترط، قال الله تعالى (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون او يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا) انتهى معناه، وقال تعالى (وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا) فتبين بهذا أن فهم الحجة غيربلوغها وأن هذا لا يشترط في بلوغ الحجة». [الأسنة الحداد ص156- 158]

نقول عن الإمام ابن القيم في نفس الموضوع:

قال ابن القيم عن السماع الذي يحبه الله ويرضاه:

((فَهُوَ السَّمَاعُ الَّذِي مَدَحَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ، وَأَمَرَ بِهِ وَأَثْنَى عَلَى أَصْحَابِهِ، وَذَمَّ الْمُعْرِضِينَ عَنْهُ وَلَعَنَهُمْ، وَجَعَلَهُمْ أَضَلَّ مِنَ الْأَنْعَامِ سَبِيلًا، وَهُمُ الْقَائِلُونَ فِي النَّارِ {لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} [الملك: 10] وَهُوَ سَمَاعُ آيَاتِهِ الْمَتْلُوَّةِ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى رَسُولِهِ، فَهَذَا السَّمَاعُ أَسَاسُ الْإِيمَانِ الَّذِي يَقُومُ عَلَيْهِ بِنَاؤُهُ، وَهُوَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ، سَمَاعِ إِدْرَاكٍ بِحَاسَّةِ الْأُذُنِ، وَسَمَاعِ فَهْمٍ وَعَقْلٍ، وَسَمَاعِ فَهْمٍ وَإِجَابَةٍ وَقَبُولٍ، وَالثَّلَاثَةُ فِي الْقُرْآنِ.

فَأَمَّا سَمَاعُ الْإِدْرَاكِ فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ مُؤْمِنِي الْجِنِّ قَوْلَهُمْ {إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ} [الجن: 1] وَقَوْلِهِ: {يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى} [الأحقاف: 30] الْآيَةَ، فَهَذَا سَمَاعُ إِدْرَاكٍ اتَّصَلَ بِهِ الْإِيمَانُ وَالْإِجَابَةُ

وَأَمَّا سَمَاعُ الْفَهْمِ فَهُوَ الْمَنْفِيُّ عَنْ أَهْلِ الْإِعْرَاضِ وَالْغَفْلَةِ، بِقَوْلِهِ تَعَالَى {فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ} [الروم: 52] وَقَوْلِهِ: {إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ} [فاطر: 22].

فَالتَّخْصِيصُ هَاهُنَا لِإِسْمَاعِ الْفَهْمِ وَالْعَقْلِ، وَإِلَّا فَالسَّمْعُ الْعَامُّ الَّذِي قَامَتْ بِهِ الْحُجَّةُ لَا تَخْصِيصَ فِيهِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى {وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} [الأنفال: 23] أَيْ لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِي هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ قَبُولًا وَانْقِيَادًا لَأَفْهَمَهُمْ، وَإِلَّا فَهُمْ قَدْ سَمِعُوا سَمْعَ الْإِدْرَاكِ {وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} [الأنفال: 23] أَيْ وَلَوْ أَفْهَمَهُمْ لَمَا انْقَادُوا وَلَا انْتَفَعُوا بِمَا فَهِمُوا؛ لِأَنَّ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ دَاعِي التَّوَلِّي وَالْإِعْرَاضِ مَا يَمْنَعُهُمْ عَنِ الِانْتِفَاعِ بِمَا سَمِعُوهُ.

وَأَمَّا سَمَاعُ الْقَبُولِ وَالْإِجَابَةِ فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُمْ قَالُوا {سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا} [البقرة: 285] فَإِنَّ هَذَا سَمْعُ قَبُولٍ وَإِجَابَةٍ مُثْمِرٌ لِلطَّاعَةِ.

وَالتَّحْقِيقُ: أَنَّهُ مُتَضَمِّنٌ لِلْأَنْوَاعِ الثَّلَاثَةِ، وَأَنَّهُمْ أَخْبَرُوا بِأَنَّهُمْ أَدْرَكُوا الْمَسْمُوعَ وَفَهِمُوهُ، وَاسْتَجَابُوا لَهُ.

وَمِنْ سَمْعِ الْقَبُولِ: قَوْلُهُ تَعَالَى {وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ} [التوبة: 47] أَيْ قَابِلُونَ مِنْهُمْ مُسْتَجِيبُونَ لَهُمْ، هَذَا أَصَحُّ الْقَوْلَيْنِ فِي الْآيَةِ[1])).

فالفهم الذي لا يشترط في الحجة هو ما يسميه ابن القيم هنا بسماع الفهم، الذي نفاه الله عن الكفار، مع أنهم سمعوا الآيات وفهموها من جهة اللغة والمعنى، ولكنهم لم يفهموها فهم هداية وتوفيق.

وقال ابن القيم وهو يتحدث عن مراتب البيان:

---

[1] مدارج السالكين (2/ 1232-1234ط.الصميعي).

((الْمَرْتَبَةُ الثَّامِنَةُ مَرْتَبَةُ الْإِسْمَاعِ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى {وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} [الأنفال: 23] وَقَدْ قَالَ تَعَالَى {وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ} [فاطر: 19] **وَهَذَا الْإِسْمَاعُ أَخَصُّ مِنْ إِسْمَاعِ الْحُجَّةِ وَالتَّبْلِيغِ، فَإِنَّ ذَلِكَ حَاصِلٌ لَهُمْ، وَبِهِ قَامَتِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ، لَكِنَّ ذَاكَ إِسْمَاعُ الْآذَانِ، وَهَذَا إِسْمَاعُ الْقُلُوبِ**، فَإِنَّ الْكَلَامَ لَهُ لَفْظٌ وَمَعْنًى، وَلَهُ نِسْبَةٌ إِلَى الْأُذُنِ وَالْقَلْبِ وَتَعَلُّقٌ بِهِمَا، فَسَمَاعُ لَفْظِهِ حَظُّ الْأُذُنِ، وَسَمَاعُ حَقِيقَةِ مَعْنَاهُ وَمَقْصُودِهِ حَظُّ الْقَلْبِ، **فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ نَفَى عَنِ الْكُفَّارِ سَمَاعَ الْمَقْصُودِ وَالْمُرَادِ الَّذِي هُوَ حَظُّ الْقَلْبِ، وَأَثْبَتَ لَهُمْ سَمَاعَ الْأَلْفَاظِ الَّذِي هُوَ حَظُّ الْأُذُنِ** فِي قَوْلِهِ {مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ} [الأنبياء: 2] **وَهَذَا السَّمَاعُ لَا يُفِيدُ السَّامِعَ إِلَّا قِيَامَ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ، أَوْ تُمَكِّنُهُ مِنْهَا**، وَأَمَّا مَقْصُودُ السَّمَاعِ وَثَمَرَتُهُ، وَالْمَطْلُوبُ مِنْهُ فَلَا يَحْصُلُ مَعَ لَهْوِ الْقَلْبِ وَغَفْلَتِهِ وَإِعْرَاضِهِ، بَلْ يَخْرُجُ السَّامِعُ قَائِلًا لِلْحَاضِرِ مَعَهُ {مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ} [محمد: 16].

وَالْفَرْقُ بَيْنَ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ وَمَرْتَبَةِ الْإِفْهَامِ أَنَّ هَذِهِ الْمَرْتَبَةَ إِنَّمَا تَحْصُلُ بِوَاسِطَةِ الْأُذُنِ، وَمَرْتَبَةُ الْإِفْهَامِ أَعَمُّ، فَهِيَ أَخَصُّ مِنْ مَرْتَبَةِ الْفَهْمِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَمَرْتَبَةُ الْفَهْمِ أَخَصُّ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ، وَهِيَ أَنَّهَا تَتَعَلَّقُ بِالْمَعْنَى الْمُرَادِ وَلَوَازِمِهِ وَمُتَعَلَّقَاتِهِ وَإِشَارَاتِهِ، وَمَرْتَبَةُ

السَّمَاعِ مَدَارُهَا عَلَى إِيصَالِ الْمَقْصُودِ بِالْخِطَابِ إِلَى الْقَلْبِ، وَيَتَرَتَّبُ عَلَى هَذَا السَّمَاعِ **سَمَاعُ الْقَبُولِ.**

فَهُوَ إِذَنْ ثَلَاثُ مَرَاتِبَ: سَمَاعُ الْأُذُنِ، وَسَمَاعُ الْقَلْبِ، وَسَمَاعُ الْقَبُولِ وَالْإِجَابَةِ))[1].

فالمشروط في إقامة الحجة هو إسماع الأذن الحجة البالغة وكشف الشبهة وشرح ما يُشكل منها، بما يتناسب مع مثل الشخص الذي نقيم عليه الحجة، أما السماع الذي يلامس شغاف القلب فليس لنا في هذا حيلة فضلا عن السماع الذي يسميه ابن القيم سماع القبول والإجابة.

تسليط الضوء على كتاب حكم تكفير المعين لإسحاق بن عبد الرحمن آل الشيخ

لا يخرج هذا الكتاب في قراءتنا عن المحورين المتقدمين، حكم تكفير المعين من المنتسبين للملة ورد مقالة من ردّ هذا الحكم رأساً، وبيان أن النوع الثاني من الجهل المشروح سابقا لا يعذر به في مسائل الشرك الأكبر، ولهذا عنون كتابه بـ«حكم تكفير المعين **والفرق بين قيام الحجة وفهم الحجة**»، فالعنوان نفسه يحمل في طياته اشتراط بلوغ الحجة قبل التكفير عنده، لا فهمها فهم هداية وتوفيق واقتناع.

---

[1] مدارج السالكين 1/ 262-264، ويراجع البحث من أوله 1/ 260 ط. الصميعي.

يقول المؤلف واصفا حقيقة مقالة مخالفيه المردود عليهم في كتابه:

«فقد بلغنا وسمعنا من فريق ممن يدعي العلم والدين وممن هو بزعمه مؤتم بالشيخ محمد بن عبد الوهاب إن من أشرك بالله وعبد الأوثان لا يطلق عليه الكفر والشرك بعينه»[1].

ولا يمنع هذا من أن بعض هؤلاء قد يدعي أنه لا يكفر إلا بعد التعريف بالحجة، إلا أنه عند المكاشفة نجده يصرح بهذا نظريا فحسب أما عمليا وتطبيقيا فلا ينزل الحكم على المعينين:

يقول المؤلف:

«فقال -أي المخالف- نكفر النوع ولا نعين الشخص إلا بعد التعريف»[2].

ولكن الشيخ يبين أن حقيقة مقالتهم وحالهم أنهم لا يكفرون معينا بحال لا قبل لاتعريف ولا بعده فيقول:

«وعند التحقيق لا يكفرون المشرك إلا بالعموم...»[3].

والسؤال: هذا الفريق الذي يصرح نظريا باشتراط تعريف الحجة قبل تكفير المعين ولكنه عند التحقيق لا ينزل الحكم على المعينين كيف يستطيع التنصل من شرطه هذا؟

---

[1] « حكم تكفير المعين» المطبوع ضمن مجموع عقيدة الموحدين (ص169).

[2] « حكم تكفير المعين» (ص170).

[3] « حكم تكفير المعين» (ص169).

الجواب: أنهم يشترطون لقيام الحجة في أبواب الشرك الأكبر الأوصاف الثقال التي لا تكاد تتم في حجة قط، ومن أهم هذه العوائق التي يزعمونها لإيقاف مفعول الحجة وقيامها أن هذا المتلبس بالشرك لم ينقد للحجة لأنه جاهل وبالتالي فهو معذور، وهذا هو معنى التعريف بالحجة لديهم، فالتعريف لديهم هو أن نصل في شرح الحجة إلى مستوى إقناع الشخص بها وإقراره بأنها حق وإلا فلا يتم التعريف.

وهنا ينتقل السجال للمحور الثاني وهو الفرق بين قيام الحجة وفهمها فهم هداية وأن الحجة في أبواب الشرك الأكبر يكفي فيها التعريف بالأدلة وشرحها كما قدمناه، وأن جهل الجاهل بعد ذلك لا يعذر به.

ولما كان التعريف عند هؤلاء أمر زائد عن مجرد تبليغ الحجة وشرحها وكشف الشبهة عنها نجد المؤلف يرفض شرط التعريف هذا في غير موضع من كتابه، ويبين أن لا أحد يقول **باشتراط فهم الحجة فهم هداية كفهم أبي بكر**[1].

ولهذا نجد المؤلف يقرر نفس ما يقرره الشيخ من أنه لم يكفر بعض المعينين إلا بعد إقامة الحجة عليهم لكن المختلفين معه لا يفرقون بين قيام الحجة وفهمها[2].

---

[1] «حكم تكفير المعين» (ص175 الفقرة الثانية).

[2] «حكم تكفير المعين» (ص177).

ولهذا أيضا نجد أن المؤلف لا يناقش أو يرد قضية عدم تكفير الشيخ لمن عبد قبة الكواز لجهله، بل يقر بذلك[1] **إلا أن الذي يناقشه ويرده في الكتاب هو ما بناه المخالفون على نصوص الشيخ وتطبيقاته العملية من أن المعين لا يكفر بحال أو أنه يشترط لرفع العذر عنه أن يفهم الحجة كفهم أبي بكر.**

لهذا كله لا نرى أن هذا الكتاب يقدم رأيا آخر غير ما شرحناه عن أئمة الدعوة شريطة أن يفهم القاريء موضوعه ويستحضر أن زمن كتابته كان في زمن ذيوع وانتشار وقوة للتوحيد وأهله لا في زمن الفترة الذي واكب أوائل الدعوة، ولهذا نجد الحديث عما يناسب تلكم الفترة الأولى خافتا في الكتاب والجانب الذي أطنب المؤلف في الحديث عنه هو المناسب للزمن الذي عاش فيه المؤلف، وهو أنه لم يعد هناك مجال للحديث عن تبليغ الحجة في بيئة كبيئته في زمانه.

ومن أهم ما ينبغي التنبيه له أن إسحاق بن عبد الرحمن هذا تلقى العلم على أخيه عبد اللطيف بن عبد الرحمن، صاحب مصباح الظلام ومنهاج التأسيس، وهو من أكثر من أشهر شرط تبليغ الحجة قبل تكفير عباد القبور، ونسبه لكل علماء الدعوة كما تقدم معنا.

آراء علماء السلفية في العصر الحديث في مسألة تكفير عباد القبور

قبل أن أغادر محطة منهج أئمة الدعوة في التكفير في موضوع عبادة القبور، رأيت أن أتطرق لآراء علماء السلفية المعاصرين في المسألة، لكثرة اللغط الذي يدور حول

---

[1] «حكم تكفير المعين» (ص182).

ذلك من طلبة العلم، غير أنا لن نتوسع في هذا الباب لأنه ليس غرضنا من تصنيف هذا الكتاب.

ومن أهم وسائل معرفة منهج مدرسة من المدارس العلمية القديمة والحديثة ونسبة قول لها النظر في تقريرات رموزها المجمع عليهم بين أبناء هذه المدرسة أو تلك.

وهناك ثلاث شخصيات علمية تمثل رموز الاتجاه السلفي في العصر الحديث، منهم شخصيتان تمثلان امتدادا للمدرسة النجدية، وهما الشيخ عبد العزيز بن باز مفتي المملكة السعودية سابقاً وأحد العلماء المجمع على فضلهم وعلمهم وحكمتهم الدعوية بين السلفيين، والشيخ محمد بن صالح العثيمين، أحد أشهر العلماء والمربين في المملكة السعودية، وشخصية لم تنشأ في رحاب هذه المدرسة وهو الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، وهو من أشهر الشخصيات السلفية المنشغلة بعلم الحديث في عصرنا.

أصل المسألة:

وبرحلة علمية سريعة في رحاب هذه المدرسة وأقوال هؤلاء العلماء نجدهم يقررون ما قررناه عن أئمة الدعوة النجدية وعن غيرهم من العلماء من أن مسألة عبادة القبور من المسائل التي يتصور فيها اشتراط تبليغ الحجة للمعين الواقع فيها قبل الحكم بإخراجه من الملة، وأن المعين المنتسب للملة المتلبس بعبادة القبور إذا كان في زمان أو مكان أو على حال يتصوّر معه أنه لم تبلغه الحجة أو لا يوجد عنده من ينبهه ويشرحها له فإنه لا يُبادَر إلى تكفيره بل يُبَلّغ و يُنَبّه أولاً.

والتوسع في النقل عن العلماء المذكورين في هذا ليس هو موضوع بحثنا ولهذا سنقتصر على ذكر شيء مما يتناسب مع المقام.

أما الشيخ عبد العزيز بن باز واللجنة الدائمة التي كان يرأسها ففتاواه التي تدور حول أن من وقع في شرك القبور وكان ممن يُتصور أنه لم يبلغه الحكم فلا يبادر لتكفيره بل ينبغي التبيين له وإبلاغه الحكم كثيرة، فقد أفتى مع اللجنة الدائمة أكبر مؤسسة للفتيا في السعودية، وكان الشيخ رئيسا لها قائلا:

(يختلف الحكم على الإنسان بأنه يعذر بالجهل في المسائل الدينية أو لا يعذر باختلاف البلاغ وعدمه، وباختلاف المسألة نفسها وضوحا وخفاء وتفاوت مدارك الناس قوة وضعفا.

فمن استغاث بأصحاب القبور دفعا للضر أو كشفا للكرب **بُيِّن له أن ذلك شرك، وأُقيمت عليه الحجة؛ أداء لواجب البلاغ، فإن أصر بعد البيان** فهو مشرك يعامل في الدنيا معاملة الكافرين واستحق العذاب الأليم في الآخرة إذا مات على ذلك).[1]

وقال الشيخ أيضا عن عبادة القبور:

(تكفير المعين غير العمل الذي هو شرك , فالعمل شرك , ولا يكون العامل مشركاً , فقد يكون المانع من تكفيره جهله أو عدم بصيرته على حد قول العلماء...[إلى أن قال] بعض العلماء يرى أن من وقعت عنده بعض الأشياء الشركية وقد يكون ملبساً عليه وقد يكون جاهلاً , ولا يعرف الحقيقة فلا يكفره ,حتى يبين له ويرشده إلى أن هذا كفر وضلال , وأن هذا عمل المشركين الأولين , **وإذا أصر بعد البيان** يحكم عليه بكفر معين)[2].

وقال الشيخ أيضا:

---

[1] فتوى رقم 9257.
[2] كتاب الفوائد العلمية من الدروس البازية 2/ 273-274

(أما من كان بعيدا عن المسلمين في أطراف البلاد التي ليس فيها مسلمون ولم يبلغه القرآن والسنة - فهذا معذور وحكمه حكم أهل الفترة إذا مات على هذه الحالة الذين يمتحنون يوم القيامة..)[1].

وقال أيضا:

(الجهل في الجملة قد يكون عذراً، وقد لا يكون عذراً، فإذا كان الشخص المكلف بعيداً عن الإسلام وعن أهل العلم كالذي ينشأ في بلاد بعيدة عن المسلمين ولم تبلغه الرسالة ولا القرآن ولا السنة هذا يكون معذوراً بالجهل..)[2].

وأفتت اللجنة أيضا برئاسة الشيخ ابن باز:

(السائل: ما حكم طالب المدد من شخص ميت بأن يقول: مدد يا فلان، وما الحكم في طلبه أيضا من الأحياء الغير حاضرين لذلك الشخص الطالب للمدد؟

الجواب: أولا: طالب المدد من شخص ميت بأن يقول: مدد يا فلان، **يجب نصحه وتنبيهه بأن هذا أمر محرم، بل هو شرك، فإن أصر على ذلك فهو مشرك كافر**؛ لأنه طلب من غير الله ما لا يقدر عليه إلا الله، فقد صرف حق الله إلى المخلوق، قال تعالى: {إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ} الآية.

ثانيا: طلب المدد من الحي الذي ليس بحاضر لا يجوز؛ لأنه دعا غير الله وطلب منه ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى، وهو شرك أيضا، قال تعالى: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ

---

[1] مجموع فتاوى ابن باز 217/28

[2] http://www.binbaz.org.sa/mat/10638

فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} ودعاء الحي الغائب نوع من العبادة، **فمن فعل ذلك نُصِح، فإن لم يقبل فهو مشرك شركا يخرج من الملة**)[1].

وأفتت اللجنة أيضا برئاسة الشيخ ابن باز قائلة:

(السجود لغير الله شرك، والذبح لغير الله شرك أيضا، فمن سجد لغير الله أو ذبح لغير الله **بعد بيان حكم ذلك له فهو مشرك كافر** لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا وإن صلى وصام..)[2].

وأفتت اللجنة برئاسة الشيخ ابن باز أيضا:

(عبادة القبور وعبادة الطاغوت شرك بالله **فالمكلف الذي يصدر منه ذلك يبين له الحكم فإن قبل وإلا فهو مشرك، إذا مات على شركه فهو مخلد في النار ولا يكون معذورا بعد بيان الحكم له**، وهكذا من يذبح لغير الله)[3].

وأفتت اللجنة أيضا:

(وأما المجيء إلى صاحب هذا القبر ودعاؤه واعتقاد أنه يملك النفع والضر فهذا شرك أكبر، **ومن فعل ذلك فإما أن يكون جاهلا، أو عالما، فإن كان عالما – فهو مشرك شركا أكبر يخرجه عن الإسلام، وإن كان جاهلا فإنه يبين له، فإن رجع إلى الحق فالحمد لله، وإن لم يرجع إلى الحق، فإنه كالعالم في الحكم**..)[4].

وأفتت اللجنة أيضا برئاسة ابن باز:

---

[1] فتوى رقم 4259.

[2] فتوى رقم 4360.

[3] فتوى رقم 4440.

[4] فتوى رقم 315.

(السؤال: ما حكم من نشأ في بلده ولم يدرك شيئا إلا الصلاة، بل أركان الإسلام الخمسة ويعمل بكل، ولكنه يذبح للجن ويدعوهم عند حاجته، ولكنه لا يعرف أن الشريعة تمنع ذلك هل هو معذور لجهله أم لا؟ وهل يقال له: أنت مشرك، قبل البيان؟

الجواب: يجب على من عرف منه ذلك من أهل العلم بالتوحيد **أن يبين له** أن الذبح لغير الله من الجن أو غيرهم؛ كالأنبياء والملائكة والأصنام شرك أكبر يخرج من الإسلام... **وإن أصر** على الذبح للجن ودعائهم لقضاء الحاجة فهو مشرك شركا أكبر ولا عذر له؛ لقيام الحجة عليه بالكتاب والسنة ويقال له: كافر مشرك شركا أكبر)[1].

أما الشيخ العثيمين فقد أفتى قائلا:

(هذا الذي يتقرب إلى غير الله بالذبح له :(أي لهذا الغير) مشرك شركاً أكبر ، ولا ينفعه قول " لا إله إلا الله " ، ولا صلاة ، ولا غيرها ، اللهم إلا إذا كان ناشئاً في بلاد بعيدة ، لا يدرون عن هذا الحكم ، فهذا معذور بالجهل ، لكن يعلَّم.)[2]

أما الشيخ الألباني ففتاواه في الباب مشهورة متداولة ذكرت ما وقفت عليه منها في (جامع تراث الألباني في العقيدة)[3].

التفريق بين بيئة وبيئة :

---

[1] فتوى رقم 4246.

[2] لقاءات الباب المفتوح 48/ ب، وله فتوى مهمة مطولة نقل فيها نقولات عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب وفهمها بما شرحناه، وذلك في شرحه لكتاب التوحيد 21/ ب.

[3] 5/ 733 وما بعدها.

كما أننا نجد اتفاق هؤلاء العلماء على التفريق بين الصور التي يتصور فيها عدم بلوغ الحجة، والصور التي لا يتصور فيها ذلك، فيعذر في الأول دون الثاني.

ومن أشهر هذه الصور ما ذكرناه من أن الشخص إذا كان يعيش في بيئة أمر الدين فيها على استقامة فلا مجال هنا للحديث عن عذره بالجهل.

فالشيخ العثيمين إنما يقول بالعذر في بيئة يتصور فيها عدم البلاغ، أما بيئة أمر الدين فيها مستقيم كالسعودية اليوم فلا يقال فيها بهذا.

يقول الشيخ : ((هذا الذي يتقرب إلى غير الله بالذبح له :(أي لهذا الغير) مشرك شركاً أكبر ، ولا ينفعه قول " لا إله إلا الله " ، ولا صلاة ، ولا غيرها ، اللهم إلا إذا كان ناشئاً في بلاد بعيدة ، لا يدرون عن هذا الحكم ، فهذا معذور بالجهل ، لكن يعلَّم .

السائل : كيف يكون في بلاد بعيدة ؟

الشيخ : يعني ، مثلاً ، أفرض أنه عاش في بلاد بعيدة ليس بالمملكة [السعودية] في بلاد يذبحون لغير الله ، ويذبحون للقبور ، ويذبحون للأولياء ، وليس عندهم في هذا بأس ، ولا علموا أن هذا شرك أو حرام : فهذا يُعذر بالجهل ، أما إنسان يقال له : هذا كفر ، فيقول : لا ، ما يمكن أترك الذبح للولي : فهذا قامت عليه الحجة ، فيكون كافراً)).[1]

[1] لقاء الباب المفتوح شريط 48/ ب.

أما الشيخ ابن باز فيحرص دائما على تقييد الصور التي لا يعذر فيها المتسب للملة في هذا الباب بقوله (إذا كان بين المسلمين) ولا يريد بهذا كما يفهمه بعض الناس أنه يريد بالمسلمين الإسلام العام، بل يريد الموحدين المطبقين للإسلام الحق الذي جاءت به الرسل، وهو يلاحظ بهذا القيد التنبيه على هذا الباب.

يقول ابن باز:

((دعوى الجهل والعذر به فيه تفصيل , وليس كل واحد يعذر بالجهل , فالأمور التى جاء بها الإسلام وبينها الرسول صلى الله عليه وسلم للناس وأوضحها كتاب الله وانتشرت بين المسلمين لا تقبل فيها دعوى الجهل , ولا سيما ما يتعلق بالعقيدة وأصل الدين . فإن الله عز وجل بعث نبيه صلى الله عليه وسلم ليوضح للناس دينهم ويشرحه لهم وقد بلغ البلاغ المبين وأوضح للأمة حقيقة دينها وشرح لها كل شيء وتركها على المحجة البيضاء ليلها كنهارها , وفى كتاب الله الهدى والنور فإذا ادعى بعض الناس الجهل فيما هو معلوم من الدين بالضرورة , **وقد انتشر بين المسلمين** , كدعوى الجهل بالشرك وعبادة غير الله عز وجل , أو دعوى أن الصلاة غير واجبة , أو أن صيام رمضان غير واجب أو أن الزكاة غير واجبة , أو أن الحج مع الاستطاعة غير واجب فهذا وأمثاله لا تقبل فيه دعوى الجهل **ممن هو بين المسلمين لأنها أمور معلومة بين المسلمين** . وقد علمت بالضرورة من دين الإسلام **وانتشرت بين المسلمين** فلا تقبل دعوى الجهل فى ذلك , وهكذا إذا ادعى أحد بأنه يجهل ما يفعله المشركون عند القبور أو عند الأصنام من دعوة الأموات والاستغاثة بهم والذبح لهم والنذر لهم , أو الذبح للأصنام أو

الكواكب أو الأشجار أو الأحجار , أو طلب الشفاء أو النصر على الأعداء من الأموات أو الأصنام أو الجن أو الملائكة أو الأنبياء . . فكل هذا أمر معلوم من الدين بالضرورة...))[1].

وسئل الشيخ ابن باز أيضا:

((هل يعذر المسلم إذا فعل شيئا من الشرك كالذبح والنذر لغير الله جاهلا ؟

فأجاب : الأمور قسمان : قسم يعذر فيه بالجهل وقسم لا يعذر فيه بالجهل.

فإذا كان من أتى ذلك **بين المسلمين** , وأتى الشرك بالله , وعبد غير الله , فإنه لا يعذر لأنه مقصر لم يسأل , ولم يتبصر فى دينه فيكون غير معذور فى عبادته غير الله من أموات أو أشجار أو أحجار أو أصنام , لإعراضه وغفلته عن دينه كما قال الله سبحانه : { وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ } ؛ ولأن النبي صلى الله عليه وسلم لما استأذن ربه أن يستغفر لأمه لأنها ماتت في الجاهلية لم يؤذن له ليستغفر لها; لأنها ماتت على دين قومها عباد الأوثان ؛ ولأنه صلى الله عليه وسلم قال لشخص سأله عن أبيه , قال : (هو في النار فلما رأى ما في وجهه قال : إن أبي وأباك في النار)

لأنه مات على الشرك بالله , وعلى عبادة غيره سبحانه وتعالى , **فكيف بالذى بين المسلمين** وهو يعبد البدوى , أو يعبد الحسين , أو يعبد الشيخ عبد القادر الجيلانى , أو يعبد الرسول محمدا صلى الله عليه وسلم , أو يعبد عليا أو يعبد غيرهم.

فهؤلاء وأشباههم لا يعذرون من باب أولى ؛ **لأنهم أتوا الشرك الأكبر وهم بين**

---

[1] فتاوى ابن باز 7/ 132 . وعامة فتاوى الشيخ التي تتضمن عدم الإعذار في هذا الباب يعتني بتقييدها بهذا القيد.

المسلمين , والقرآن بين أيديهم . وهكذا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم موجودة بينهم , ولكنهم عن ذلك معرضون.

والقسم الثاني : **من يعذر بالجهل كالذي ينشأ في بلاد بعيدة عن الإسلام في أطراف الدنيا، أو لأسباب أخرى كأهل الفترة ونحوهم ممن لم تبلغهم الرسالة، فهؤلاء معذورون بجهلهم، وأمرهم إلى الله عز وجل، والصحيح أنهم يمتحنون يوم القيامة فيؤمرون، فإن أجابوا دخلوا الجنة، وإن عصوا دخلوا النار؛** لقوله جل وعلا : { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا } ولأحاديث صحيحة وردت فى ذلك.

وقد بسط العلامة ابن القيم رحمه الله الكلام في هذه المسألة في آخر كتابه : (طريق الهجرتين) لما ذكر طبقات المكلفين، فليراجع هناك لعظم فائدته))[1].

وقال أيضا عمّن يتلبس بالمكفرات كعبادة القبور: ((لكن إذا كان في بلاد يجهل هذا، ولا يعلم أن هذا لا يجوز؛ وأن هذا كفر إذا كان يظن أنه جائز وهذا ليس بين المسلمين، بل في بلاد الكفرة، بلاد غريبة عن الإسلام؛ يظن أنه يخفى عليه الأمر؛ يُبَيَّن له؛ فإذا عاد إلى هذا بعد ما يُبيَّن له أن هذا حرام وأن هذا لا يجوز، يكفر..يكون كفره أكبر، وهكذا لو سجد لغير الله، سجد للقبور وهو ما عنده مسلمون يرشدونه، في بلاد الكفرة، يعلم حتى يفهم أن هذا منكر وأنه لا يجوز؛ كما قال الله جل وعلا: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا}))[2].

---

[1] مجموع فتاوى ابن باز 4/ 26.

[2] فتاوى نور على الدرب 1/ 265.

وقال أيضا: (ما دام بين المسلمين: قد سمع القرآن، ورأى المسلمين، ورأى أعمالهم، هذا غير معذور، قد قامت عليه الحجة) [1].

أما الشيخ الألباني فقد أكثر من التفريق بين الصورتين، فقد سئل عن ضابط العذر بالجهل وما هي الصورة التي لا يقال فيها بالعذر فقال: (الضابط في ذلك هو أن يعيش المسلم في جو إسلامي صحيح، وتكون العقائد منتشرة في ذلك الجو..) [2]

وفرق في موضع آخر بين شخص ((يعيش في مجتمع إسلامي معروف الحكم عند هذا المجتمع وذائع وشائع مع ذلك هو ليس عنده علم بذلك فهذا غير معذور.

وبين شخص آخر يعيش في مجتمع إما غير إسلامي محض كالمجتمعات الكفرية وإما يعيش في مجتمع إسلامي اسماً حينئذ هذا يكون معذوراً بأنه لم تبلغه الحجة) [3].

وقال في موضع ثالث: ((لا يصح القول مطلقاً بأن الإنسان يعذر بالجهل مطلقاً أو لا يعذر مطلقاً كلاهما خطأ ،وإنما لابد من التفصيل، من كان يعيش في جو إسلامي، وهذا الجو الإسلامي يفهم الإسلام فهماً صحيحاً ثم وجد هناك شخصٌ يجهل العقيدة الإسلامية، وهو يحيى في هذا الجو؛ فهو غير معذور..)) [4].

وهذا الضابط المذكوركثير مبثوث في كلام الشيخ.

---

[1] فتاوى نور على الدرب 1/ 260.

[2] جامع العقيدة 5/ 735.

[3] جامع العقيدة 5/ 737

[4] جامع العقيدة 5/ 738.

عدم اشتراط فهم الحجة فهم توفيق وهداية، ولا عبرة بدعوى الجهل بعد بلوغ الحجة وبيانها وكشف الشبهة:

كما اتفق هؤلاء العلماء على أن إقامة الحجة في هذا الباب هي بلوغها على الوجه الذي يفهمه مثل هؤلاء المتلبسين بالشرك، ولا يلزم أن يعترف هو بفهمها، ولا يلزم أن يقر بأنه فهمها فهم هداية وتوفيق، وهي المسألة التي يعبر عنها علماء الدعوة بأن إقامة الحجة شيء وفهمها شيء آخر، وهم بالتالي متفقون على أن دعوى الجهل بعد بلاغ الحجة على الوجه الصحيح لا عبرة بها.

يقول الشيخ ابن باز:

(مثل عامة كفار قريش، الذين قتلوا يوم بدر وفي غيره، أو ماتوا في مكة، ومثل عامة كفار اليوم، عامة كفار النصارى، كفار اليهود كلهم جهال، لكن لما رضوا بما هم عليه ولم ينقادوا لما بعث الله به محمدا صلى الله عليه وسلم، ولم يلتفتوا إليه صاروا كفارا، نسأل الله العافية والسلامة[1].)

وقد تكلم الألباني عن مسألة هل الضابط في قيام الحجة أن يكون المعين يحسن قراءة القرآن وفهمه أم لا؟ فقال الشيخ:

((الضابط سواءً كان يحسن قراءة القرآن أو لا، ويفهمه ثانياً، أو كان يقرأه ولا يفهمه، أولا يحسن لا فهمه ولا قراءته، فالضابط في ذلك هو أن يعيش المسلم في جو إسلامي صحيح..))[2].

---

[1] فتاوى نور على الدرب 260/1

[2] جامع العقيدة 5/ 735

وهو واضح في أننا إذا تيقنا بلوغ الحجة على الوجه الصحيح لمعيّن ما فلا عبرة بعد ذلك بدعواه أنه لا يحسن فهم القرآن والخطاب الشرعي.

وقال في موضع آخر:

((إذاً: سواء من سجد لغير الله أو طاف بغير بيت الله لا حاجة بنا أن نسأله ماذا تعني.. أتعتقد أن هذا يستحق العبادة؟ سيقول لك: لا، ما أعتقد؛ لأنه لا يفهم ما هي العبادة، لكن نحن نقيم الحجة عليه ونفهمه أن هذا إشراك في قسم من التوحيد،... استجاب وذلك ما نبغي فبها ونعمت وإلا قتل كفراً ولا يدفن في مقابر المسلمين)[1].

وهو واضح في أنه بعد إقامة الحجة على الوجه الكامل إما أن يستجيب فمسلم وإما ألا يستجيب فكافر، ولا يُقال لعله لم يستجب لجهله أو لعدم فهمه إلى آخر هذه الأعذار.

مسألة المصير الأخروي، وأنه إنما يُعذَر بعدم إخراجه من الملة في الظاهر في الدنيا، أما في الآخرة فحكمه حكم أهل الفترة:

أما مسألة المصير الأخروي، فنجد أن هؤلاء العلماء متفقون أيضا على أنه لا يلزم من عدم إخراج مَن هذا حاله من الملة في الظاهر أن مصيره مصير الموحدين في الآخرة، بل يوكل حقيقة أمرهم إلى الله في الآخرة ويكون حكمهم قريب من حكم أهل الفترة.

يقول ابن باز:

(الجهل في الجملة قد يكون عذراً، وقد لا يكون عذراً، فإذا كان الشخص المكلف بعيداً عن الإسلام وعن أهل العلم كالذي ينشأ في بلاد بعيدة عن المسلمين ولم تبلغه

---

[1] جامع العقيدة 5/ 759.

الرسالة ولا القرآن ولا السنة هذا يكون معذوراً بالجهل، **فله حكم أهل الفترات يوم القيامة**، يمتحنون فإن أجاب دخل الجنة وإن عصا دخل النار..)[1]

يقول الألباني:

((بحثنا [في] هذا الجاهل [الذي] يعيش بين أناس يعتقدون أن هذه الاستغاثة بغير الله هو من باب التوسل المشروع، لسنا في هذا الصدد، نحن والحمد لله منذ نعومة أظفارنا ونحن من أهل التوحيد: ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾(يوسف:38) لكن بحثنا الآن: من وجد في مجتمع شرك، هل أقيمت حجة الله عليه؟

واضح أن الحجة لم تقم، فهذا الذي نحن ندندن حوله، ولذلك ففي سؤالك ليس فيه شيء جديد، **ونحن حين نقول: إنه معذور يمكن هذه النقطة تحتاج إلى توضيح، ماذا نعني إنه معذور بمعنى: إننا لا نحكم عليه بأنه من أهل الكفر المخلدين في النار، هذا الذي نعنيه، ولسنا نعني أنه يدخل الجنة ترانزيت، لا ما نعني هذا، لا يدخل الجنة كما قال عليه السلام إلا نفس مؤمنة، هذا أعلنه في حجة الوداع، ولكني أريد من قولي: إنه معذور، أي: لا نحكم له بالنار التي وعد بها الكفار، له معاملة يوم القيامة معروفة في بعض الأحاديث الثابتة، فإن أطاع دخل الجنة وإن عصى دخل النار))**[2].

وهو تقرير واضح كالشمس من الشيخ الألباني في أن عذر هذا المعين في الدنيا لا يلزم منه أننا نقول أنه مع الموحدين في مصيره الأخروي.

---

[1] http://www.binbaz.org.sa/mat/10638

[2] جامع العقيدة 5/ 746-747

وسئل الألباني عن حكم (الذين يُسْلِمُون على يد أصحاب الطرق الغلاة من الصوفيين وغيرهم ويعتقدون أن هذا هو الإسلام، هل هؤلاء يعتبرون من أهل الفترة أيضاً؟

فأجاب: أي نعم. ما دام أن الإسلام الصحيح ما بلغه فهم كذلك، كالأوروبيين والأمريكان وغيرهم، ممن يغترون ببعض الدعوات منها غلاة الصوفيين..)[1].

الخلاف بين هذه المدارس:

بعد اتفاق هؤلاء العلماء في أصول هذا الباب الرئيسة، فقد اختلفوا في مسألتين، مسألة تنظيرية فرعية ، ومسألة تصوُّرِيّة.

المسألة التنظيرية الفرعية:

أما الأولى فهي ترك الترحم والاستغفار وما إلى ذلك من الأحكام اللصيقة بالمصير الأخروي بناء على موت الشخص على ظاهر عمل المشركين.

أما الشيخ ابن باز والمدرسة التي تنتمي لرأيه في هذا الباب فتميل إلى إعمال هذا الباب وتغليب الظاهر مع عدم التزام تكفير كل معين منهم كما شرحناه، وتعود جذور هذا الرأي إلى ما كنا شرحناه من تقريرات حمد بن ناصر وعبد الله بن الشيخ، بخلاف الشيخ الألباني فهو مع اتفاقه معهم من الناحية التأصيلية في أنه قد يؤاخذ

---

[1] جامع تراث الألباني في العقيدة 5/ 902

المنتسب للملة بناء على ظاهره الكفري لاسيما إذا كان مقصرا[1]، كما يتفق معهم في صورة ما إذا كان هذا المنتسب للملة لا نجد من ظاهره سوى عبادة القبور[2]، إلا أن الملاحظ أن الشيخ لا يميل إلى تفعيل هذا الباب في مسألتنا في حق معينٍ غلب على ظننا أنه لم تبلغه الحجة أو لم تبلغه بالصورة الصحيحة، ومن القرائن التي ذكرها الشيخ مما يدل على ذلك أن نجد من ظاهر هذا المعين الالتزام بالقدر الذي وصله على الوجه الصحيح من الإسلام، كأن يكون ملتزما بالصلاة والصيام، بل ويقوم الليل ونحن نيام على حد تعبير الشيخ[3]، فيرى الشيخ بعد الاتفاق أن حكمه في الآخرة حكم أهل الفترة إلا أنه في الدنيا تستمر معاملته معاملة المسلمين حتى لو مات على ظاهر الشرك فيترحم عليه ويستغفر له[4] لقوة الظاهر المعارِض...

مسألة تصورية:

أما المسألة التصورية فبعد الاتفاق على أن المنقطع الذي لم تبلغه الحجة بحال ولم يخطر بباله أن ما هو عليه شرك أكبر أو كان قريبا من ذلك فإنه ينبه ولا يبادر لتكفيره كفرا أكبر بعينه وإخراجه من الملة عند جميع هؤلاء العلماء.

والاتفاق على أن من تيقنا من بلوغ الحجة إليه على الصورة الصحيحة فإنه يكون مرتدا في الدنيا من أهل النار في الآخرة.

---

[1] جامع العقيدة 5/ 556

[2] راجع المادة الصوتية المنشورة للشيخ الألباني بعنوان (مجلس مع الشيخ صالح آل الشيخ).

[3] راجع المادة السابقة.

[4] جامع العقيدة 5/ 766

وبالتالي فهم متفقون على أن من كان من المتسبين للملة في بيئة لم تبلغها دعوة التوحيد على الوجه المستقيم بحال كأن يكون شخص في أطراف الأرض أو أحراش بعيدة أو منقطعا ولو كان قريبا من العالم الإسلامي -إذا تصوِّر هذا- فإنه لا يبادر إلى تكفيره بل يُعلّم ويُنبّه.

وفي المقابل أن من كان في بيئة أمر التوحيد فيه على استقامة كالسعودية والبيئات القريبة منها فإنه لا مجال للحديث عن عذره من ناحية الأصل.

بقي أن بين هاتين الصورتين صورا كثيرة متجاذبة كالشام ومصر مثلا في أوساط هذا القرن فهذه البيئات والمجتمعات لا أنها منقطعة انقطاع الأحراش ولا بعيدة في أطراف الارض بل ولا قريب من ذلك، ولا هي في حكم نجد والعالم الإسلامي في قرون الانحطاط تلك فخفاء هذه المسألة في هذا الزمان لم يعد كخفائها في ذلك الوقت، ولا هي في حكم السعودية التي استقام أمر التوحيد فيها وانتشرعلى مستوى الدولة والمجتمع والمؤسسة الرسمية الدينية.

فهذه الصور المتجاذبة المعاصرة نلحقها بأي الطرفين؟

الملاحظ أن مجموعة من العلماء الذين يمثلون امتدادا للدعوة النجدية وعلى رأسهم الشيخ ابن باز، يرون أنه في العصر الحديث بعد ثلاثة قرون تقريبا من انتشار واشتهار دعوة التوحيد في أرجاء العالم الإسلامي واشتهار مسألة عبادة القبور وحكمها، وثورة الطباعة ونشر التراث، وانتشار الدعاة والعلماء يتعين قيام شبهة التقصير والإعراض في حق أكثر المتلبسين بالشرك الأكبر في هذه الدول الإسلامية، ويصعب -حسبهم- تصوّر وجود شخص فيها لم يبلغه قط أن عبادة القبور شرك أكبر إلا أن

يكون مقصرا متهاونا، ولا شك أنه عند هذه المدرسة مع ثورة الفضائيات والاتصالات ومواقع التواصل وغير ذلك من سُبُل انتقال المعلومة تكون مؤاخذة المقصرين أولى وأولى، لأن شبهة الإعراض والتقصير تكون أظهر في حقهم.

وبالتالي:

أ: فتتأكد عندهم تنزيل أحكام المؤاخذة التي تقدم شرحها على الجميع في المعاملات بناء على ظاهر حالهم فلا يصلى ولا يترحم ولا يستغفر لهم، وقد تتوسع الدائرة فيترك مناكحتهم ومؤاكلتهم، بناء على ظاهر حالهم، ويكون هذا الحكم – المؤاخذة– هو القاعدة العامة لمن كان ظاهره الشرك واستمر عليه ومات على ذلك.

ب: إذا ثبت يقينا قيام الحجة على المعين أو ثبت في حقه الإعراض الذي لا يختلف فيه، فهو إلى جانب ذلك عندهم مرتد بعينه عن الملة ولو مات على ذلك كان عندهم من أهل النار.

ج: إذا تُيقِّن أن معينا ما لم تبلغه الحجة ولم يقع في الإعراض أو التقصير بحال، لا يبادرون لتكفيره وإخراجه من الملة بل يشترطون تبليغ الحجة أولا كما تقدم النقل عنهم.

د: من ترجحت احتمالية بلوغ الحجة له لوجوده في مكان وزمان هو مظنة العلم والعلماء مثلا وترجحت احتمالية إعراضه وتقصيره، ولكن دخل في أمره اشتباه، لا يجزم هؤلاء العلماء في حقه بكفر ولا إسلام بل يكتفون بالفتوى بترك الترحم عليه وتفويض أمره إلى الله تعالى.

ونص هذه الفتوى للجنة برئاسة الشيخ ابن باز يُبيِّن ما نقول:

(من كان يصلي ويصوم ويأتي بأركان الإسلام إلا أنه يستغيث بالأموات والغائبين وبالملائكة ونحو ذلك **فهو مشرك، وإذا نصح ولم يقبل وأصر على ذلك حتى مات فهو مشرك شركا أكبر يخرجه من ملة الإسلام**، فلا يغسل ولا يصلى عليه صلاة الجنازة ولا يدفن في مقابر المسلمين ولا يدعى له بالمغفرة ولا يرثه أولاده ولا أبواه ولا إخوته الموحدون ولا نحوهم).

فقولهم أولا هو مشرك، وقولهم ثانيا: مشرك شركا أكبر يخرجه من ملة الإسلام، فيه بيان ما نقوله من أنه لا يلزم عندهم في إطلاق وصف (مشرك) بناء على الظاهر، الجزم بأنه خارج الملة، إنما يجزمون بعد تيقن البلاغ والبيان للمعين.

ولهذا فإن الحكم بزوال عصمة دماء وأموال هذا الصنف بيقين وغير ذلك من عقوبات في الدنيا، والحكم على معين منهم أنه يستحق الخلود في النار، فهذا الباب هو الذي يشترطون التيقن من إقامة الحجة فيه[1].

أما التنزيل الفعلي للعقوبات فتؤكد هذه المدرسة أن الجهة المخولة بهذا هي الدولة وأجهزتها وليس هذا لعامة الناس[2].

وتخطيء هذه المدرسة من يرى عدم مؤاخذة هؤلاء في المعاملات الدنيوية تحت شعار الإعذار.

وعن تقصير عامة المتلبسين بالشرك في هذا العصر يقول الشيخ ابن باز:

(هم بين أيدينا يسمعونه في الإذاعات ويسمعون في كل شيء ولا يبالون ولا يلتفتون، وإذا جاء أحد ينذرهم و ينهاهم آذوه، نسأل الله العافية)1.

---

[1] راجع فتوى اللجنة رقم 4400.

[2] راجع فتوى اللجنة رقم 5628.

وقال الشيخ عمّن يوسع –حسب نظره- دائرة عدم المؤاخذة تحت شعار الإعذار بالجهل في العصر الحالي في البلاد الإسلامية : (أصبحت بلادا إسلامية فيها مسلمون وفيها العلماء وفيها كليات الشريعة، لماذا لا يسأل حتى يتبصر في دينه؟)2.

ومن النقول عنه التي تخص الصنف الأخير الذي ترجحت احتمالية بلوغ الحجة له لكن قد يدخل في حقه اشتباه:

(ما دام بين المسلمين: قد سمع القرآن، ورأى المسلمين، ورأى أعمالهم، هذا غير معذور، قد قامت عليه الحجة؛ لأن الله سبحانه يقول: {وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ} من بلغه القرآن فقد قامت عليه الحجة، قال الله سبحانه: {هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ} ولأنه معرض، ما تعلم ولا سأل، **وأمره إلى الله لكن هذا حكمه في الدنيا)**[3].

وعن مؤاخذة المقصرين بعامة نقرأ فتوى اللجنة برئاسة الشيخ ابن باز:

السائل: يقول الله تعالى: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ}.

إن ظاهر الآية السابقة يمنع الاستغفار للمشركين ولو كانوا من ذوي القرابة، والكثير منا نحن أعراب البادية من له والدان وأقرباء وقد اعتادوا الذبح عند القبور والتوسل بأهلها، وتقديم النذور والاستعانة بتوسيط أهل القبور في فك الكربات، وشفاء المرضى وقد ماتوا على ذلك، ولم يصلهم من يعرفهم معنى التوحيد ومعنى لا إله إلا

---

1 http://ar.salafishare.com/qGU.

2 مجموع فتاوى العلامة ابن باز (28\321).

3 فتاوى نور على الدرب 1/ 260.

الله، ولم يصلهم من يعلمهم أن النذور والدعاء عبادة لا يصح صرفها إلا لله وحده، فهل يصح المشي في جنائزهم، والصلاة عليهم، والدعاء والاستغفار لهم وقضاء حجهم، والتصدق عليهم؟

ج: من مات على الحالة التي وصفت لا يجوز المشي في جنازته، ولا الصلاة عليه، ولا الدعاء ولا الاستغفار له، ولا قضاء حجه، ولا التصدق عنه؛ لأن أعماله المذكورة أعمال شركية، وقد قال سبحانه وتعالى، في الآية السابقة:

{مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى} ولما ثبت عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «استأذنت ربي في الاستغفار لأمي فلم يأذن لي، واستأذنته في زيارة قبرها فأذن لي» .

وليسوا معذورين بما يقال عنهم: أنهم لم يأتهم من يبين لهم أن هذه الأمور المذكورة التي يرتكبونها شرك؛ لأن الأدلة عليها في القرآن الكريم واضحة، وأهل العلم موجودون بين أظهرهم، ففي إمكانهم السؤال عما هم عليه من الشرك لكنهم قد أعرضوا ورضوا بما هم عليه))[1].

أما رأي الشيخ الألباني في هذه الصورة المتجاذبة فإنه لما كان لا يرى تفعيل باب المؤاخذة لمجرد الظاهر فإنه لا يميل إلى تعميم القول بمؤاخذة جميع من ظاهره الشرك بالصورة المشروحة.

كما لا يميل الشيخ الألباني إلى تعميم الحكم بالتقصير والإعراض لعامة الواقعين في شرك القبور في زمانه، ولهذا فإنه يرى أن الصور المتجاذبة هذه لا يستقيم إطلاق

---

[1] فتاوى اللجنة 9/ 12-13

حكم عام فيها بل كل بحسبه، فإذا وجدنا معينا تيقنا بلوغ الحجة له أو تيقنا إعراضه، بصورة فردية أو بصورة مجتمعية كأن يوجد في بيئة أمر التوحيد فيها على استقامة، أو بغير ذلك من صور فهذا هو الذي نخرجه من الملة ونجري عليه أحكامهم، ومَن لا فلا.

وفي تصور الشيخ الألباني -في حياته- أن كثيرا من المناطق الشامية والمصرية وغيرها من بلاد المسلمين التي ينتشر فيها الجهل لم يتيسر لكثير من المتلبسين بعبادة القبور فيها الإطلاع على حقيقة دعوة التوحيد في هذه الأبواب لأن علماء تلك الدولة الموثوقين عند أهلها قاموا بتشويه دعوة التوحيد وتصويرها في أعين الناس على غير حقيقتها.

وينبغي أن يُفهم أن الشيخ الألباني يرى أن الشخص لو وصلته الحجة في هذا الباب بيضاء نقية من أي جهة كانت فقد قامت عليه الحجة ويكفر بردها، ولو كان علماء بلده لهم رأي آخر في الباب، فالشيخ لا يختلف في هذا كما قد يتصوره البعض[1]، كما لا يختلف الألباني في أن البيئة إذا كانت متجاذبة فيها دعاة للتوحيد ودعاة للشرك ووصلت الحجة للمعين عن طريق دعاة التوحيد فقد قامت عليه الحجة[2]، كما لا يختلف الشيخ في أن إقامة الحجة لا يشترط أن تكون بالاتصال المباشر، فانتشار المعلومة والفضائيات ووسائل الاتصال له أثر كبير في هذا الباب[3]، **ولكن الشيخ يرى أن علماء تلك الدول وقادتها السياسيون في زمانه قد أغلقوا القنوات التي من الممكن**

---

[1] جامع العقيدة 5/ 817

[2] جامع العقيدة 5/ 825-826

[3] جامع العقيدة 5/ 921

أن تصل منها الحجة الناصعة هذه، وبالتالي فتستمر لهم أحكام أهل الإسلام في الدنيا ويفوض حقيقة أمرهم الأخروي لله.

وينبغي استحضار أن الألباني عاش في حقبة سوداوية بائسة من تاريخ الشام التي تتابع على حكمها العثمانيون ثم محمد علي ثم الغرب من إنجليز وفرنسيين ثم أحزاب يسارية كالبعثيين وهؤلاء جميعا كانت دعوة التوحيد مجرمة لديهم وكان أعدى أعدائهم الموحدون، وتمالؤوا على تشويه الدعوة للتوحيد عند العامة لعقود من الزمن بل لقرون وصوروها لهم على غير حقيقتها بل على أنها دعوة تكفير وقتل، ولم تصل للعامة على أنها دعوة لترك عبادة القبور بل دعوة لتكفير الأولياء والصالحين والتعدي على مقام النبوة إلخ.

كما ينبغي التنبه إلى أن الشيخ الألباني وهو يؤصل لهذا الرأي كان يتمثَّل نفسه هو**!** فقد ذكر الشيخ أنه لولا أن الله جعل أباه سببا في انتقاله للشام وتعلم العربية لما عرف التوحيد الصحيح**!!** فكان الألباني يجزم أن الذين مثله ممن يتمنى أن لو أتيحت له فرصة تعلم التوحيد كُثُر، ولولا الظروف التي منعتهم من ذلك لعلموا والتزموا مثله.

ولهذا فأنا لا أرى أن هناك خلافا أصليا حقيقيا بين الشيخين الفاضلين، أو بين المدرستين، والخلاف إنما هو في التفريع والتصوُّر.

ومسألة المؤاخذة مسألة فيها سعة، وأميل الآن إلى قوة رأي المدرسة النجدية في حق رؤوس هؤلاء ومَن ظهر لنا من مجمل حاله تفريطه وإعراضه في أمر دينه أو كانت له نكاية في التوحيد وأهله، فنحن نرى كثيرا من هذه الحالات في المجتمعات، وقد نتورع عن تكفير المعين منهم لعدم أهليتنا ولشبهة عدم تبليغه

الحجة بصورة مستقيمة، ولكن لا أقل من معاملتهم على ظاهر حالهم، فنترك مؤاكلتهم ومناكحتهم والصلاة عليهم ونفوض حالهم إلى الله إلخ.

أما في حالة شخص يعيش في بيئة جاهلة ويقع في شيء من الاستغاثة مما جرى عليه قومه وعرفنا من مجمل حاله أنه يبحث عن الحق ويتفاعل معنا ومع الحجة ولكن بقيت له شبهات علمية أو احتاج لبعض الوقت لإزالة أثقال التشويه عن كاهله تلك التي لحقت دعوة التوحيد وعلمائها وهذا أيضا موجود فلعل رأي الشيخ الألباني أقرب في حق هذا في الدنيا ولو مات على ذلك فأمره إلى الله.

أما مسألة تصوُّر الحالات المتجاذبة **فالخلاف في التصورات هيِّن بعد الاتفاق في الأصول، فالصور التي يكفر فيها باتفاق واضحة وما لا يبادر فيه بالتكفير فواضح وما كان بين ذلك فيرجع في هذا لعلماء البلد الربانيين العارفين بحقيقة الحال ويترك الأمر لهم، وهذه الدائرة تحتمل اختلاف الآراء والأحكام** .

وينبغي في هذا السياق التركيز على صدور فتاوى الشيخ ابن باز ومن يرى رأيه من السعودية وهو البلد الذي أنجز منجزا عقديا تاريخيا على الأرض في هذا الباب وترى هذه المدرسة أن التوسع غير المنضبط في مثل هذه الأبواب بإطلاقات الإعذار بالجهل وإطلاقات عدم مؤاخذة المعين وغير ذلك ستكون له مآلات خطيرة على الأرض، مع ما فيه الناس من تضييع لأمور الدين، وقد نجحت هذه المدرسة لقرون الآن في الحفاظ على منجزها العقدي على الأرض بهذه المنهجية العلمية المنضبطة.

أما الشيخ الألباني فأطلق رؤاه وفتاواه من أرضية أخرى لها ظروف أخرى، ويميل الشيخ في منهجه إلى السعي في تصحيح الوعي المجتمعي أولا في البيئات الجاهلة

التي عاش فيها ثم ليهلك من هلك عن بينة، وهي أيضا منهجية منضبطة في مكانها، سلكتها الدعوات الإصلاحية الحديثة في الدول الإسلامية التي كان يطغى فيها الجهل فصححت الوعي المجتمعي ونشرت التوحيد والسنة وأجَّلت الانشغال بمسائل تكفير المعينين .

إطلاق وصف الشرك على المعينين قبل البيان :

تكلمنا في باب الأسماء والأحكام عن منهج العلماء في جواز تنزيل الوصف التعميمي في هذا الباب بناء على الظاهر ولو لم تبلغ الحجة ولو لم يخرجوه من الملة بضوابط شرحناها.

والمدرسة النجدية إلى الآن تستخدم هذا الاصطلاح في هذا المعنى كما نقلنا عنهم آنفا.

والشيخ الألباني أيضا يُطلق هذا ، في مثل قوله عن عباد القبور المنتسبين للملة:

(اليوم كثير من **المشركين** الذين نراهم في ضلال مبين، ويشركون ويجعلون لله أنداداً وهم لا يعلمون، المشركين الأولين هم يعلمون...

إذاً: لا نستطيع أن نحكم لهم بنار؛ لأن الذي يقيم الحجة عليهم المشايخ الذين يحيطون بهم هم سبب بلاغهم، يسموا الاستغاثة كما تعلم توسلاً، ونحو ذلك من الضلالات، والانحرافات، فهؤلاء ما بلغتهم الدعوة)[1].

وقد شرحنا في الكتاب أن هذا توصيف تعميمي لا يلزم منه أن كل معين معين مشرك شركا أكبر.

---

[1] جامع العقيدة 5/ 842

الضوابط المصلحية :

ومع الاتفاق في أصول الباب فإن هذه المدارس متفقة أيضا في النظرة المصلحية للتعاطي مع هذا الباب.

فتتفق هذه المدارس على أنه إذا كان عامة طلاب العلم في زمان ما وفي مكان ما ليست لديهم الأهلية العلمية والتأصيل الكافي للخوض في تنزيل أحكام التكفير على المعينين فينبغي سد هذا الباب من الناحية المصلحية ، ويكتفي هؤلاء الطلاب بضبط الأصول والقواعد والتصورات في هذه الأبواب فهذا هو ما يسلم به دينهم، أما تنزيل الأحكام على المعينين فيترك للجهات المختصة.

أما المدرسة النجدية فهذا كثير في كلامها، ونقتصر على ذكر نقلين لشخصيتين لها ثِقَل علمي بين المنتسبين للسلفية اليوم.

يقول الشيخ صالح الفوزان: (مسائل التكفير أمرها خطير مزلة أقدام ومضلة أفهام، يُرجع فيها إلى أهل العلم، فلا يحكم على أحد بالكفر إلا إذا قُدِّمَ للمحكمة الشرعية، ونَظَرَت فيما يقتضي كفره من القول والعمل فيُكفَّر، أما كل واحد يبغي يكفِّر، هذا الأمر لا يجوز)[1].

وقال الشيخ صالح آل الشيخ في سياق آخر :

(أنا قلت لك اسأل عن التنظير أما الحكام فما نسأل، ليش؟! لأن هذا حكم عليهم بالكفر أو بالاسلام، وهذا يترك لأهل العلم الراسخين، ومن الأخطاء الموجودة بين الشباب أنهم أهَّلوا أنفسهم لأحكام التكفير الذي هو أصعب أبواب الفقه، يعني الآن

---

[1] www.youtube/7t8k6f5t0kE

تسأله عن أحكام الطهارة والحيض ما يدري عنه ، لكن يجي إلى الحكم بالكفر فتجده يتجرأ، لا ، الحكم على المعين غير التنظير، الحكم على المعين يحتاج أنك تسأل أهل العلم فيه، أما الاعتقاد الذي يسلم به دينك ...هو التأصيل، أما الحكم فمسألة ثانية ترجع إلى أهل العلم)[1].

أما الشيخ الألباني فهو من أشهر من نبّه على هذه القضية وأكثر من تقريرها وإثارتها.

التراشق الحالي:

ولعله بعد هذا العرض السريع يُعرَف رأينا عن التراشق الموجود في الساحة اليوم بين من يتهم الشيخ ابن باز ومن يتبنى آراءه هذه من المدرسة النجدية في العصر الحاضر بالغلو في هذا الباب، فنحن لا نرى أن تأصيلات رموز المدرسة وتقريراتهم لها علاقة بالغلو بالتكفير ، فالمسألة المكفّر بها مجمع على التكفير بها عند كل علماء الإسلام، وضوابط التنزيل حاضرة عندهم بكثرة، وتأصيلاتهم في قضية المؤاخذة لها أصل عند أهل العلم، وضوابطهم في الحكم بالتقصير أوالإعراض في هذا الزمن لها قوة ، والنظرة المصلحية في تعيين الجهة التي يخوّل لها تنزيل الأحكام حاضرة.

وبين من يتهم في الجانب الآخر الشيخ الألباني بالغلو في التفريط في هذا الباب، والذي نعتقده أن أصول الشيخ في الباب هي هي أصول أهل العلم المعتبرين بل هي هي أصول الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

أما الخلاف في الفروع وفي التصورات وفي الإلحاقات أعني إلحاق الصور المتجاذبة، فهذا يناقش كرأي ورأي آخر، والأمر فيه هيّن.

---

[1] www.youtube/8spEuaMwkEo

وأكبر دليل على هذا أن آراء الشيخ الألباني المذكورة كانت منتشرة بين علماء المدرسة النجدية كابن باز والعثيمين والعكس، ولم يحدث بينهم أي تراشق وتهم متبادلة، إنما قد يقع مناقشات علمية تثري الموضوع.

الجهة المخوّل إليها تنزيل العقوبات على الأفراد والطوائف
والحديث عن تنزيل التكفير بين التنظير والمصلحة

يحسن بنا أن نستطرد قليلا في الحديث عمّا أسميناه بالضوابط المصلحية قبل قليل فنقول:

إن من محاسن هذه الشريعة الغراء وهذا الدين القويم، أن الشارع ضبط الوظائف الشرعية المناطة بالراعي والرعية ، بالحاكم والمحكومين، بالرؤوس والمجتمعات، ومن تأمل هذا الباب في الشريعة بفهم وعقل، وترك الحماس المفرط جانبًا فهِم ما نقول.

عندما بدأ المجتمع المسلم نشأته الأولى في مكة في صورة الأفراد المستضعفين كان الخطاب الرباني منصبًّا على تصحيح العقائد والإيمانيات

وأعمال القلوب وبث الثقة في الله وحده وصدق الالتجاء إليه وتفريغ القلب من كل ند وكل شريك لله سبحانه في حب أو خوف أو رجاء أو توكل...

وبعد أن صار التوحيد في قلوبهم وعقولهم خالصًا لا شائبة فيه، وتعلقت قلوبهم تعلقا تامًا بالسماء، وصار الإيمان في قلوبهم كجبال راسيات، ناسب أن يبدأ بناء الشرائع التعبدية على هذه القاعدة الصلبة من العقيدة الخالصة.

ولما وصل المجتمع لمرحلة الخضوع التام والانقياد للشريعة الربانية، و صار للمسلمين كيان ودولة، وتوسعت الدولة المسلمة وكثر أهلها مقارنة بصورتها الأولى وبقيت في توسع مستمر، وكان من الطبيعي أن تتسع قاعدة الوظائف والواجبات الشرعية والدنيوية المناطة بالمسلمين، بالتالي كان من حِكمة الشارع أن يتم تقسيم هذه الوظائف والواجبات بين الفرد والأسرة والمجتمع والدولة، ولم يكن هذا التقسيم –حاشا الشريعة– عشوائيا بل تقسيما فذًّا هو في نفسه من الدلائل الباهرة على عظمة التشريع.

ولا نجد المجال متاحًا هنا للحديث عن هذا الباب إلا بالقدر الذي يهمنا في هذا البحث فنقول: من جملة هذا التقسيم والتوزيع الحكيم للوظائف والواجبات أن الشريعة أوكلت تنفيذ العقوبات الشرعية لاسيما في الأنفس والأموال وما يتصل بالباب، لولاة الأمور في البلد المسلم ووكلائهم، وإذا كانت سلطة تنفيذ العقوبات في البلد المسلم مناطة بالحاكم فبالتالي يكون من واجبهم التحقق من قيام أسباب هذه العقوبات في حق الفرد أو الطائفة ، فلا

يتصور عاقل أن يوكل الشرع لهم تنزيل العقوبات على عمًى وبدون تحقق من جهتهم هم لقيام مقتضى العقوبة في الفرد أو الطائفة من عدمه.

وإذا كانت عقوبات الزنا والسرقة وشرب الخمر وغيرها مناطة بالحاكم تحقيقا ثم تنزيلا فكيف بما هو أعظم من ذلك كله وهو العقوبة المترتبة على إخراج مسلم من ملة الإسلام إلى ملة الكفر وأهله!

ثم يعرض السؤال هنا، ولكن إذا كانت الدار خالية من ولي أمر يقوم بهذه الوظائف فما الواجب؟ والواجب قد شرحته لك الشريعة من الطاعة في القدر الذي تراه من المعروف، ثم تكتفي بأداء الوظائف الشرعية المناطة بك أنت كفرد، أما هم فموقوفون مسؤولون بين يديه تعالى.

ثم يعرض سؤال آخر ولماذا لا نقيم نحن كأفراد أو مجتمعات هذه العقوبات بأنفسنا ونطبق هذه الجوانب من الشريعة بأيدينا عند خلو الديار من سلطة؟

وقد شَرَحَت لك الشريعةُ أيضًا الحكمةَ من ذلك وهو أن هذه الأبواب إذا أُوكِلَت للأفراد والمجتمعات لا يمكن عقلاً قبل أن يكون شرعًا أن يستقيم أمرٌ لأي بلد أودارأو منطقة أو جهة، ويستحيل عقلاً في هذه الصورة أن يتم لدولة بنيان أو أن يظهر فيها العمران فضلا عن استقرار الصنائع والحرف أو أية وسيلة من وسائل الحياة فيها.

أرأيت لو أنك خرجت بصفة فردية أو مع مجموعة من الناس لتنفيذ عقوبات من هذا النوع على فرد آخر أو مجموعة أخرى في بلادك ولو ثبت عليهم أنهم فعلوا

ما يستحقون به العقوبة في الشرع، هل هناك أي مانع من أن يخرجوا هم غدًا لإنزال عقوباتهم هم عليك تحت أي عذر مخترع؟! بل هذا هو النتيجة الطبيعية لعملك.

خذ أمثلة ذلك:

رأيت من يزني فأقمت عليه الحد، سيأتيك غدا من يتهمك بالزنا ويجلدك.

أمسكت سارقًا فقطعت يده بنفسك، سيأتيك غدا من يتهمك بالسرقة ويقطع يدك ورجلك!

رأيت رجلا يشرك بالله فذهبت تقيم عليه الحجة فلم يلتزم فقتلته، سيأتيك من غد ابنه فيكفرك لأي سبب ويقتلك.

فلا يمكن أن يؤول مثل هذا الإجراء أعنى الانفراد بتنفيذ العقوبات الشرعية عن أي سلطة سياسية إلا إلى أنهار من الدماء، و سيول من الفساد، وقطيع من القتلى، وستغدو ديار الإسلام كغابات موحشة لا موطيء فيها لأمنٍ ولا سلام.

ولهذا قلنا بتأمل عقلي بسيط قبل أن نتأمل في كم الأدلة الشرعية الكبير التي ضبط بها الشارع هذا الباب، لعلمنا لماذا أوكل الشارع باب إنزال العقوبات وغيرها من الأحكام الشرعية التي هي من جنس ما شرحنا لسلطة الدولة لا للأفراد، فالجهة القضائية فيها تكون مسؤولة عن التحقيق وما يدخل فيه من تبيُّن وإقامة حجج واستيفاء لشروط إنزال العقوبات وزوال الموانع، ثم تقدم

نتائجها القضائية للجهة التنفيذية في الدولة فتباشر إنزال العقوبات..إلى آخر ما هو معروف في السياسة الشرعية.

والانضباط في هذا الباب كان ولا يزال مما يميز الدعوات السلفية الإصلاحية عبر التاريخ.

أما تنزيل حكم الكفر على طائفة بعينها أو شخص بعينه لا العقوبة، بمعنى اعتقاد كون الشخص كافرا بعينه أو الطائفة كافرة، فنقول إن الأصل أن هذا الباب مُتاح في الشريعة للعلماء الربانيين وطلبة العلم المتخصصين والدعاة المتأهلين بل والعامة المتبصرين وطالما خاض فيه علماء الإسلام للتحذير من الطوائف التي فارقت الملة بمعتقداتها أو الأشخاص الذين ارتدوا عن الدين، إلا أنه في بعض الأزمنة والأمكنة قد يرى أهل العلم من جهة المصلحة لا من جهة الأصل، أن يترك هذا الباب للعلماء الكبار فقط، بل وللمحاكم الشرعية أحيانا فقط إذا كانت المحاكم منضبطة في الباب، وهذا في حالة ما إذا ترتب على الخوض فيه وقوع في منكرات كبار ومفاسد عظام كالتكفير بغير حق، أو عشوائية التنزيل، أو التراشق التكفيري بين الجماعات.

وهذا أمر لاحظه العلماء في العصر الحديث لاسيما في حقبة السبعينات والثمانينات التي كثُرت فيها جماعات التكفير غير المنضبط في الساحة، والتي مارست تكفيرا عشوائيا غير منضبط بأصول أهل العلم، فرأى كثير من العلماء أن

المصلحة تقتضي إغلاق باب خوض طلاب العلم في مسائل تكفير المعينين وأن ينشغلوا بالطلب والتقعيد والتأصيل.

وقد لاحظت أيضا في رحلاتي العلمية أن كثيرا من طلاب العلم لا يضبط أصول باب شرك القبور وصوره وأنواعه، ويخلط ما يُكَفَّر به بما لا يُكفّر به، فقد لاحظت أن بعضهم يظن أن كل ما يفعله القبوريون عند القبور شرك أكبر مخرج من الملة، وهذا باطل.

فالشرك الأكبر هو التوجه لها بصنف من أصناف العبادات، أما التوسل مثلا وهو دعاء الله بجاه فلان فليس من الشرك الأكبر، بل ذريعة إليه عند عامة العلماء، وكذلك تحري **دعاء الله وحده لا شريك له** عند قبور الصالحين فليس هذا من الشرك الأكبر، وهذا التحري لا يُعرف في صنيع السلف والقرون الخيرية سدًّا للذريعة وهو ما نعتقده حقًّا، لكن فَعَلَه بعض من جاء بعد هذه القرون، ومنهم من العلماء الذين لهم إسهامات علمية كبيرة بل أحدهم مِن كبار المصنفين في جمع الحديث النبوي، حيث رأوا أن قبور الصالحين من جملة البقاع المباركة التي تستجاب فيها الدعوة، ومثل هذه المسألة تناقش ويُبيَّن فيها الحق من الخطأ، ويحرر فيها الصواب، لكن المقصود أنها لا مدخل لها بالشرك الأكبر، وهكذا.

فالمقصود أنني لاحظت أن بعض طلاب العلم يظن أن كل من يتواجد حول القبور فهو واقع في الشرك الأكبر دون تفرقة بين معتقداتهم.

وهذا أيضا مما يُبيِّن أهمية إعمال النظرة المصلحية في إغلاق باب الانشغال بتكفير المعينين بين أمثال هؤلاء.

ومِن الأبواب التي يجب إعمال النظرة المصلحية فيها أيضا باب المصطلحات العلمية، فكثير من الإطلاقات الاصطلاحية قد تكون منضبطة من الناحية التأصيلية إلا أنها قد تُحدِث إشكالات عند المتلقي لضعف حصيلته، فينبغي مراعاة البيئة التي يقل فيها العلم أيضا في مثل هذا، كما ينبغي مراعاة انتشار أفكار التكفير غير المنضبط في بيئة من البيئات والتي تُوَظِّف هذه المصطلحات توظيفا مختلاً بل عامة مصطلحات العلماء في هذه الأبواب توظفها هذه الاتجاهات توظيفا خاطئا لنشر أفكارها.

وهذا مثل ما قدمناه من صحة تنزيل وصف الكفر أو الشرك في بعض الصور على الأفراد أو الدور أو الطوائف، التي لا تستلزم الكفر الأكبر والإخراج من الملة، أو تكفير كل معين في الطائفة، أو إعطاء الدار وصفا عاما بأنها دار كفر، إلا أن مثل هذه الاصطلاحات قد تُحدث التباسا وإشكالا في البيئة التي يقل فيها التأصيل العلمي، وقد تحدث لغطًا في البيئات التي توظف هذه المصطلحات توظيفا مختلاً يدعم بعض رؤاهم الباطلة في التكفير.

ومثل هذه الاصطلاحات تشكل على كثير من المتخصصين فكيف بالعامة، ولهذا فالأولى الابتعاد عن الإكثار من استخدامها، أو إرفاقها دائما بما يزيل عنها الإشكال في مثل هذه البيئات مراعاة للمصلحة.

ومدرسة الشيخ محمد بن عبد الوهاب نستطيع أن نستنتج الانضباط لديهم في هذه الأبواب بالتالي:

أ: في كل مراحل الاستضعاف للشيخ في حياته العلمية والدعوية لا نجده ينشغل بإنزال أحكام على الناس فضلا عن أن يأمر أو يوجه بإنزال أي عقوبات على أحد .

ب: عندما قامت للشيخ دولة في العيينة ثم في الدرعية وصار ممثلا للقضاء الشرعي فيها توجه عبر السلطة السياسية الحاكمة لإعلان تطبيق الشريعة ثم الحدود.

ج: عندما زالت عنه صفة رجل الدولة فيما بين مرحلتي العيينة والدرعية ترك هذا الباب.

د: كان الشيخ ثم أتباعه منضبطين وحريصين على إجراء الأحكام الشرعية وتطبيق الشرع فيما تحت أيديهم فقط ، أي المناطق التي لهم عليها سلطة زمانية ومكانية، أما كل ما هو خارج عنها فلم يتوجهوا لذلك فضلا عن أن يأمروا أتباعهم بالانفراد بذلك في بلادهم تحت عذر عدم تطبيق السلطات للشرع في تلك البلدان.

د: عندما تحرك الشيخ لرد الاعتداء وأعلن الجهاد والقتال تحرك كرجل دولة ذات كيان سياسي مستقل متكامل الأركان.

هـ: لن تجد في تراث أئمة الدعوة خوضا عشوائيا في أبواب التكفير عامة والتنزيلي خاصة، فيتحدث فيها كل أحد وينزل الأحكام كل أحد بل يقتصر الأمر في الأحكام التنزيلية على الشيخ ثم خلفائه ممن تولى القضاء الشرعي في دولة التوحيد أو مَن في حكمهم من العلماء المقدمين من جهة السلطة السياسية، ولما بدأ بعض المتنسبين للدعوة في الخوض العشوائي في هذا الباب دفعهم أئمة الدعوة وردوا عليهم وحذروهم من الخوض في هذا الباب بغير علم.

و: أكثر أئمة الدعوة من التحذير من تطاول الجهال وتسوّر الأغمار وخوضهم في مسائل التكفير، والتأكيد على أن هذا الباب لا يحق الولوج فيه إلا لأهل العلم والفقه في الدين. وقد نقلت بعض تقريراتهم الخاصة بهذا المسلك في «الانتصار» [1].

و: وقد كنا نقلنا في الانتصار أبواب عدم الافتيات على ولاة الأمور والسمع والطاعة في المعروف وعدم إزالة المنكر بمنكر أعظم.

نصيحة للباحثين وطلبة العلم

---

[1] (ص93)

لا أحب أن أغادر المقام إلا بتوجيه نصيحة تطبيقية عملية للباحث والدارس وطالب العلم لكثرة اللغط في هذه الأبواب، ولأننا لا نريد الانشغال بسجالات كلامية دون أن يصل الطالب لخلاصة تطبيقية واضحة، وألخصها في نقاط:

أ: فكرة (تكفير المقالة دون القائل) في أبواب الشرك الأكبر ، سواء قيل لأنه ينتسب للملة، أو قيل لأنه جاهل إلا أن يصرح بأنه اقتنع، هذا التقرير ليس من مقالات أهل السنة، ولا تسلم عقيدة المرء بمثل هذا.

ب: تسلم عقيدة المرء باعتقاد أن المعين المنتسب للملة يكفر بعينه وشحمه ولحمه ويكون مرتدا خارج الملة وتقام عليه أحكام الردة بضوابط مبثوثة في كلام العلماء.

ج: ثم تكفير المعينين على قسمين: تكفير مربوط بالأوصاف، وتكفير مربوط بالأشخاص.

د: فالأول كقول العلماء (الجهمية كفار) مع ذكرهم للأوصاف والضوابط التي يكفر بها المعينين، فهذا معناه أن كل من كان على هذا الوصف من الطائفة كافر كفر أكبر مخرج من الملة، فإن كانت الطائفة كلها على هذا الوصف فكلهم خارج الملة بأعيانهم، وإن كان بعضها فالبعض، وهكذا.

وهكذا عندما يقول العلماء عباد القبور مشركون، ليس معنى هذا أن كلهم مسلمون! وفعلهم كفر، كما تقرره المدرسة المشار إليها، وهذا لا تسلم عقيدة المرء به.

هـ: والثاني: تكفير مرتبط بأشخاص كقولهم (فلان بن فلان كافر).

و: هذا القسم الأخير الأصل أنه مكفول لكل مسلم متبصِّر، فعندما تجد شخصا بين ظهرانينا يجحد القرآن أو الملائكة أو النبيين يجب عليك اعتقاد أنه بعينه وشخصه ليس من أهل الملة، عندما تلتقي بقادياني يجب أن تعتقد أنه بعينه خارج الملة ولو كان يصلي وينطق الشهادة، عندما تلتقي برجل يعبد القبور بين ظهراني الموحدين يجب أن تعتقد أنه بعينه خارج الملة.

ز: في العصر الحديث ظهرت تيارات ضالة استخدمت باب التكفير والردة في الشريعة استخداما غير مرشد ووظفته توظيفا ضالا، وغلُب الجهل والاضطراب والخلط في هذه الأبواب، **وفي هذه الصورة ينبغي ترشيد الخوض في هذا الباب الأخير من الشريعة لا إلغاؤه فهو جزء لا يتجزأ منها.**

ح: من وجوه الترشيد أن الصور المشكلة عندك بسبب كثرة اللغط ومنها هذه المسألة التي نبحثها في كتابنا الأسلم لك أن تترك الخوض في حكم المعينين فيها للمؤسسة الدينية المنضبطة في بلدك إن وُجِدت.

ط: في حالة عدم وجود مؤسسة منضبطة في بلدك فالشريعة لم تكلفك بالخوض والقطع على كل صورة صورة، بل كلفتك بالاعتقاد المجمل الذي تسلم به عقيدتك وتطبيقه في الصور التي لا تشكل عليك.

ولم يكلفك أحد أن تذهب إلى عُبَّاد القبور وتمسكهم واحدا واحدا وتقول لهم نويت أن أكفركم بأعيانكم لوجه الله تعالى !!

ك: من صور الترشيد التفريق بين بيئة علمية وبين بيئة جاهلة، ففي بيئات الجهل الانشغال بتصحيح عقائد الناس وتعليمهم وتبليغهم الحجج هو الذي له ثمرة واقعية على الأرض، أما الانشغال بالأشخاص فليس له كبير ثمرة.

ل: باب تنزيل العقوبات لاسيما في الدماء والأموال لا علاقة للشخص به بل هو مناط بالدولة وأجهزتها في الشريعة، ولا يُفتات عليهم ولو قصروا وضيَّعوا للمفاسد المترتبة على ذلك.

ل: بهذه الطريقة تسلم عقيدتك، ويصح دينك، وتسلم من الخوض في الباب بغير بصيرة، وعندما تتدرج في الطلب وتطلع على إطلاقات العلماء المعتبرين في تكفير الطوائف تفهم وجهه، وعندما تطلع على كلام العلماء من كل مذهب وهم يكفرون بعض الأشخاص بأسمائهم وأعيانهم تعرف وجهه.

جهود أئمة الدعوة في محاربة ظاهرة الغلو في التكفير

ذكرت فيما سبق ملامح المنهج المنضبط الذي كان يسير عليه ويقرره أئمة الدعوة النجدية في مسائل التكفير، وتقريراتهم الرائقة المتعلقة بالموضوع.

وكما حرص أئمة الدعوة على وضع الأمور في مواضعها الصحيحة، وإعادة المسائل إلى نصابها الحقيقي، بتعيين أصل الدين ورأس الإسلام الذي يخرج تاركه من الملة

وهو توحيد العبادة، والتحذير من الشرك الأكبر وبيان أنه الشرك الذي يستحق صاحبه الخلود في النار.

فقد حرصوا أيضا على صيانة هذا الباب (باب التكفير الشرعي) من أسباب الخلط والخبط، حتى لا يصير هذا الباب عكازة يتكيء عليها كل من أراد أن يمارس التكفير غير المنضبط، وذلك عن طريق محاربة فكر الغلو في التكفير، ومناقشة الغلاة، ولهم في هذا المضمار مسالك عدة، من أهمها:

أ: التأكيد على خطورة تكفير المسلم بغير حق، وأنه من أكبر أبواب الضلال والمروق من الحق[1].

ب: التأكيد دائما على أنهم لا يكفرون إلا بما وجدوا أهل العلم قد أجمعوا على التكفير به كالتوجه بالعبادة لغير الله، وتكاد تكون هي المسألة الوحيدة التي اشتهر عنهم التكفير بها من الناحية التنزيلية.

ج: التأكيد على أن كل ما تنازع فيه العلماء من جهة كونه مكفرا أم لا فإن الأحوط والأسلم عدم التكفير به[2].

د: **تقريرهم الخلاف الواقع بين أهل السنة فيمن أقر بأركان الإسلام الأربعة ثم تركها تهاونا**، وبيان إمام الدعوة لاختياره عدم التكفير، كما في نصه الشهير:

«أركان الإسلام الخمسة، أولها الشهادتان، ثم الأركان الأربعة، فالأربعة إذا أقر بها، وتركها تهاونا، **فنحن وإن قاتلناه على فعلها، فلا نكفره بتركها. والعلماء اختلفوا في كفر التارك لها كسلاً من غير جحود، ولا نكفر إلا ما أجمع عليه العلماء كلهم**»[1].

---

[1] «الانتصار» (ص93).

[2] «الانتصار» (ص93).

هـ: ويقرر عبد اللطيف آل الشيخ **الضابط الذي يفرِّق به بين مقالات أهل السنة ومقالات المرجئة في علاقة أعمال الجوارح بالإيمان** فيقول:

«الأصل الثالث: أن الإيمان مركب، من قول وعمل، والقول قسمان: قول القلب، وهو: اعتقاده; وقول اللسان، وهو: التكلم بكلمة الإسلام; والعمل قسمان: عمل القلب، وهو: قصده، واختياره، ومحبته، ورضاه، وتصديقه; وعمل الجوارح، كالصلاة، والزكاة، والحج، والجهاد، ونحو ذلك من الأعمال الظاهرة; فإذا زال تصديق القلب، ورضاه، ومحبته لله، وصدقه، زال الإيمان بالكلية; **وإذا زال شيء من الأعمال، كالصلاة، والحج، والجهاد، مع بقاء تصديق القلب، وقبوله، فهذا محل خلاف**، هل يزول الإيمان بالكلية، إذا ترك أحد الأركان الإسلامية، كالصلاة، والحج، والزكاة، والصيام، أو لا يزول؟ وهل يكفر تاركه أو لا يكفر؟ وهل يفرق بين الصلاة، وغيرها، أو لا يفرق؟

فأهل السنة مجمعون على أنه لا بد من عمل القلب، الذي هو: محبته، ورضاه، وانقياده; والمرجئة، تقول: يكفي التصديق فقط، ويكون به مؤمنا; **والخلاف، في أعمال الجوارح، هل يكفر، أو لا يكفر؟ واقع بين أهل السنة**; والمعروف عند السلف: تكفير من ترك أحد المباني الإسلامية، كالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج; والقول الثاني: أنه لا يكفر إلا من جحدها.

والثالث: الفرق بين الصلاة، وغيرها; وهذه الأقوال، معروفة»[2].

---

[1] «الدرر السنية» (1/ 102).

[2] «الدرر السنية» (1/ 480).

كما حرص أئمة الدعوة **على بيان الخلاف في مسألة حكم تارك الصلاة** حتى لو تبنى أحدهم القول بالتكفير ليُعلم أن المسألة خلافية فيكون فيها سعة[1].

ز: تضليل الفكر القائم على إقحام ما ليس بمكفر في دائرة المكفرات، كفكر الخوارج ، وأكثر أئمة الدعوة اجتهدوا في رد مقالتهم وبيان ضلالها، وقد جمعت طائفة من تقريراتهم تلك في كتاب «الانتصار»[2].

ح: تحرير الأبواب التي قد تشتبه بعبادة القبور وليست منه فلا تدخل في الشرك الأكبر، وأهمها مسألة التوسل، وبيان أن التوسل إنما هو من البدع التي قد تؤدي إلى الشرك، بل وحكاية الخلاف في بعض صوره، وهذا مبثوث بكثرة في كتبهم[4].

ط: الحرص على تحرير الأبواب التي تدخل في دائرة التكفير من وجه وتخرج عن دائرته من وجه، حتى لا يعطى الباب حكما واحدا كما في تقريراتهم عن مسألة الموالاة، وقد قدمنا الحديث عنها هنا.

ك: ضبط مسائل أهل البدع وأحكامهم المتعلقة بأبواب التكفير[5]، وتقرير كلام السلف وأهل العلم فيهم بلا زيادة ولا نقص.

ل: التحذير من تطاول الجهال وتسوّر الأغمار وخوضهم في مسائل التكفير، والتأكيد على أن هذا الباب لا يحق الولوج فيه إلا لأهل العلم والفقه في الدين. وقد نقلت بعض تقريراتهم الخاصة بهذا المسلك في «الانتصار» [4].

---

[1] الدرر السنية 10/ 348

[2] (ص151-156).

[4] راجع مثلا الدرر السنية (1/ 232)، (2/160-166)، (2/ 198)، (5/ 163).

[5] «الانتصار» (ص120).

م: التبرؤ من كل من انتسب للدعوة النجدية وبدرت منه أخطاء وتجاوزات في هذا الباب لا يقول بها إمام الدعوة، وقد حدث مع توسع الدعوة النجدية الكبير ودخول الناس في رحابها من كل أنحاء نجد وغيرها، ووصول خبرها إلى الخارج، أن انتسب أقوام ممن لم يضبطوا مسائل التكفير للدعوة وإمامها، فتبرأت منهم الدعوة وأئمتها، وناقشوهم، وبينوا ضلال رأيهم، وأنهم لا يعرفون حقيقة الدعوة، وقرروا أن الواجب على أهل الإنصاف عدم ربط هذه التجاوزات بهم، وقد نقلت في هذه المسالك تقريرات عدة في «الانتصار»[2].

ن: الإنكار على الأفراد أو الطوائف التي ظهر منها غلو وتنطع في أمور الدين خاصة فيما يتعلق باعتزال المسلمين وجماعاتهم وإمامهم، لأن هذا التنطع والانفصال عن المجتمع المسلم من أهم الأسباب التي تؤدي فيما بعد إلى السقوط في فخ الغلو في التكفير، ومن أهم تجليات هذا المسلك نقدهم لفكر **بعض** إخوان الهجر، وقد نقلت تقريراتهم في هذا الصدد في «الانتصار»[3].

بل انتقد بعض أئمة الدعوة[4] حرص بعض المتنسبين للدين من أبناء الدعوة على التميز بشعار خاص في اللباس يخالف ما عليه عامة الناس بلا مبرر شرعي، حيث لم تكن ألبسة الناس في نجد تخرج عن الحدود الشرعية والعرفية، ولم تكن متأثرة بثقافات أخرى، فلم يعُد هناك مبرر للتميز عنهم.

---

[1] (ص93)

[2] (ص95-112) وينظر أيضا «مجموعة الرسائل والمسائل النجدية» (4/ 371) .

[3] (ص183)

[4] سليمان بن سحمان في كشف غياهب الظلام (ص330وما بعدها).

وعالج بعضهم قضية التهاجر بين المتدينين لأتفه الأسباب وبيّن ضوابط هذا الباب[1].

مسألة الحكم بغير ما انزل الله

من المسائل المهمة التي طرقها أئمة الدعوة النجدية مسألة تحكيم العادات والقوانين التي تعارفت القبائل النجدية على تحكيمها فيما بينها، وقد كانت صورة تحكيم العادات والقوانين قاتمة في نجد ، يقول عنها الشيخ عبد الرحمن بن حسن:

«اعلم وفقك الله أن أهل نجد، كانوا قبل ظهور هذه الدعوة الإسلامية فيهم، بأسوأ حال; أما الأعراب: فلا يلتفت أحد منهم لشريعة الإسلام، لا في العبادات ولا في غيرها من الأحكام، ولا في الدماء ولا في الأموال، ولا في النكاح ولا في الطلاق، والمواريث وغير ذلك; وكانوا في شر عظيم فيما بينهم من الحروب، كل طائفة تقاتل الأخرى وتستحل دماءها وأموالها، والحضر عندهم في غاية الذل، يأخذون المال منهم كرها»[2].

ومع قتامة هذه الصورة فقد اعتنى علماء الدعوة بالحديث عن مسألتين مهمتين تتعلق بالموضوع:

---

[1] سليمان بن سحمان في كشف غياهب الظلام (ص323 وما بعدها).

[2] «الدرر السنية» (6/ 422).

الأولى: أن مسألة الحكم بغير ما أنزل الله والخوض فيها وإطلاق الأحكام وتنزيلها إنما يكون للعلماء، والثانية: هو التفصيل العلمي في المسألة.

يقول عبد اللطيف آل الشيخ عن رجلين فارسيين وهو يخاطب من يتبنى آراءهم:

(وقد رأيت سنة أربع وستين، رجلين من أشباهكم، المارقين، بالأحساء، قد اعتزلا الجمعة والجماعة، وكفرا من في تلك البلاد من المسلمين..)[1]

وكان من جملة مقالاتهم إطلاق التكفير بالحكم بغير ما أنزل الله عند البوادي فقال:

(والحكم بغير ما أنزل الله عند البوادي، ونحوهم من الجفاة، لا يتكلم فيها إلا العلماء من ذوي الألباب، ومن رزق الفهم عن الله، وأوتي الحكمة وفصل الخطاب) .[2]

ثم ناقش جملة من آرائهم إلى أن قال:

❍ «وأما الحكم بغير ما أنزل الله، وترك الصلاة، فهذا كفر عمل، لا كفر اعتقاد، وكذلك قوله ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفاراً، يضرب بعضكم رقاب بعض» وقوله: «من أتى كاهناً فصدقه، أو امرأة في دبرها، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ» فهذا من الكفر العملي; وليس كالسجود للصنم، والاستهانة بالمصحف، وقتل النبي ﷺ وسبه، وإن كان الكل، يطلق عليه الكفر.

وقد سمى الله سبحانه من عمل ببعض كتابه، وترك العمل ببعضه، مؤمنا بما عمل به، وكافرا بما ترك العمل به، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ [سورة البقرة آية: 84] إلى قوله:

---

1 الدرر 1/ 467.
2 الدرر 1/ 468.

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [سورة البقرة آية: 85] الآية، فأخبر تعالى: أنهم أقروا بميثاقه الذي أمرهم به، والتزموه، وهذا يدل على تصديقهم به; وأخبر أنهم عصوا أمره، وقتل فريق منهم فريقا آخرين، وأخرجوهم من ديارهم، وهذا كفر بما أخذ عليهم; ثم أخبر أنهم يفدون من أسر من ذلك الفريق، وهذا إيمان منهم بما أخذ عليهم في الكتاب، وكانوا مؤمنين بما عملوا به من الميثاق، كافرين بما تركوه منه.

فالإيمان العملي يضاده الكفر العملي; والإيمان الاعتقادي يضاده الكفر الاعتقادي; وفي الحديث الصحيح: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر» ففرق بين سبابه، وقتاله، وجعل أحدهما فسوقا لا يكفر به، والآخر كفرا; ومعلوم: أنه إنما أراد الكفر العملي، لا الاعتقادي، وهذا الكفر لا يخرجه من الدائرة الإسلامية، والملة بالكلية، كما لم يخرج الزاني، والسارق، والشارب، من الملة، وإن زال عنه اسم الإيمان.

وهذا التفصيل، قول الصحابة الذين هم أعلم الأمة بكتاب الله، وبالإسلام، والكفر، ولوازمهما; فلا تتلقى هذه المسائل إلا عنهم; والمتأخرون لم يفهموا مرادهم، فانقسموا فريقين; فريق أخرجوا من الملة بالكبائر، وقضوا على أصحابها بالخلود في النار; وفريق جعلوهم مؤمنين،كاملي الإيمان; فأولئك غلوا، وهؤلاء جفوا; وهدى الله أهل السنة للطريقة المثلى، والقول الوسط، الذي هو في المذاهب، كالإسلام في الملل; فها هنا كفر دون كفر، ونفاق دون نفاق، وشرك دون شرك، وظلم دون ظلم; فعن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال: «ليس هو الكفر الذي تذهبون إليه» رواه عنه سفيان، وعبد الرزاق; وفي رواية أخرى: «كفر لا ينقل عن الملة» وعن عطاء: «كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق».

وهذا بين في القرآن لمن تأمله; فإن الله سبحانه سمى الحاكم بغير ما أنزل الله كافراً، وسمى الجاحد لما أنزل الله على رسوله كافراً، وليس الكفران على حد سواء؛ وسمى الكافر ظالماً، في قوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [سورة البقرة آية: 254] ، وسمى من يتعدى حدوده، في النكاح، والطلاق، والرجعة، والخلع، ظالما، وقال: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [سورة الطلاق آية: 1] وقال يونس عليه السلام: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة الأنبياء آية: 87] وقال آدم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ [سورة الأعراف آية: 23] وقال موسى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ [سورة النمل آية: 44] وليس هذا الظلم، مثل ذلك الظلم; وسمى الكافر فاسقا، في قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾ [سورة البقرة آية: 26] وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ﴾ [سورة البقرة آية: 99] وسمى العاصي فاسقا، في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [سورة الحجرات آية: 6] وقال في الذين يرمون المحصنات: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [سورة النور آية: 4] وقال: ﴿فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [سورة البقرة آية: 197] وليس الفسوق كالفسوق..». الدرر[1/ 480-483].

❍ «وسئل الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد: هل يجوز التحاكم إلى غير كتاب الله؟

فأجاب: لا يجوز ذلك، **ومن اعتقد حله فقد كفر**، وهو من أعظم المنكرات، ويجب على كل مسلم الإنكار على من فعل ذلك؛ ولا يستريب في هذا من له أدنى علم». [10/ 252].

❍ وقال الشيخ عبد اللطيف أيضا: «وأما ما ذكرته..**من الفرق بين من استحل الحكم بغير ما أنزل الله، ومن لم يستحل، فهذا هو الذي عليه العمل**، وإليه المرجع عند أهل العلم».الدرر[1/ 497].

ويحرص إمام الدعوة دائما على بيان ضوابط التكفير بالتحاكم للطاغوت من قوانين وأعراف هذه البوادي فقال:

((من **اعتقد** أن غير هدي النبي صلى الله عليه وسلم أكمل من هديه، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه، كالذين **يفضلون** حكم الطاغوت على حكمه، فهو كافر)) [1].

وقال الشيخ:

((من أنكر البعث، أو شك فيه، أو سب الشرع، أو سب الأذان إذا سمعه، أو **فضل** فراضة الطاغوت على حكم الله..أنه كافر مرتد)) [2].

وقد يُطلق الشيخ الطاغوت على الأشخاص الذين يأمرون الناس بالنذر لهم ويطلب الناس تفريج الكربات منهم، وهو ما يسمونه بـ (السيد)، وهذا الصنف لا شك في إطلاق تكفيره.

قال الشيخ: ((والطاغوت هو الذي يسمى السيد، الذي ينخى وينذر له، ويطلب منه تفريج الكربات، غير الله تعالى)) [3]

ومن هذه التقريرات نلاحظ أن مسألة الحكم بغير ما أنزل الله أخذت حقها العلمي في تراث الشيخ رحمه الله وتراث أئمة الدعوة، ببيان خطورته وعظم هذا الجرم في الإسلام، تماما كما أخذت حقها في تقريرات السلف وأئمة الإسلام في كل عصر ومصر.

ومن الناحية التطبيقية كان تحكيم شرع الله سبحانه وتعالى في كل صغيرة وكبيرة من الأهداف الرئيسة عند الإمامين محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود، ونجحا في تطبيق ذلك في دولتهم في مدة وجيزة.

أما البُعْد الأيديولوجي الحادث لهذه الكلمة الذي يُخرج المسألة من بُعدها العقدي والعلمي وينزعها من منظومة السلف الفكرية في طرق معالجة المسألة، ويضعها في دائرة

---

[1] الدرر 10/ 91.
[2] الدرر 10/ 111.
[3] الدرر 10/ 97.

غير تلك الدائرة ويلبسها ثوبا غير ذلك الثوب، فيخرجها في قالب أن الواجب الأول على كل مسلم في كل زمان ومكان ليس هو البراءة من الشرك وعبودية الله وحده، بل السعي في قلب أنظمة الحكم والدساتير والقوانين والأوضاع..إلخ هذه العبارات ثم إنشاء أحزاب أو جماعات تتكتل وتوالي وتعادي بناء على هذا الأصل، فهذا شيء لا وجود له في تراث أئمة الدعوة، إنما كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب داعية للتوحيد، عندما منعه أبوه امتنع، وعندما أخرجه أمير العيينة خرج، ولم يكن عنده مانع أن يعيش وحده موحدا ويموت موحدا، وهذا هو حقيقة مشروعه، ولكن الله سخَّر محمد بن سعود لحراسة الموحدين ونشر التوحيد، أما أنظمة ودساتير وقوانين وأوضاع إلخ، فلا، وقد بينَّا هذا فيما سبق من قصة إمام الدعوة، والباب التالي فيه مزيد توضيح.

تقريرات أئمة الدعوة في أبواب السمع والطاعة

لولاة الأمور الشرعيين ومن في حكمهم

الذي يتابع تاريخ فكر الخوارج منذ نشأ في زمن الصحابة، ثم يتتبع تحققات هذا الفكر عبر التاريخ، إلى زماننا، سواء كان هذا التحقق تامًّا من كل وجه، أو كان تحققا جزئيا يَرْبِطُهُ بفكر الخوارج التوسعُ في التكفير غير المنضبط من جهة المسائل المكفَّر بها أو من جهة نوعية الخائضين في الباب، ثم ما ينبني على ذلك من التوسع في استحلال الدماء المعصومة...الذي يتتبع تاريخ هذه الفكرة يعلم أن مردّها إلى عُقدة (الحكم).

فعُقدة الحكم هذه هي التي دفعت الخوارج الأُوَل إلى تكفير جملة من أكابر الصحابة بدعوى أنهم لم يحكموا بما أنزل الله، ثم ما ترتب على تكفيرهم من خلع اليد عن طاعتهم، وقتالهم واستحلال دمائهم وأموالهم، والسعي لتنصيب إمامهم.

استمرت عقدة الحكم عند هذه الطوائف إلى زماننا مع تعديلات شكلية طفيفة لا تؤثر في حقيقتها.

الغلاة المعاصرون تجمعهم فكرة أن جميع الحكام في الديار الإسلامية مرتدون يجب قتالهم وتنصيب إمام منهم هم.

لماذا كلهم مرتدون؟ لأنهم يحكمون بغير ما أنزل الله.

سلمنا بهذا، ولكن تلك الدولة تحكم بالشرع؟

جوابهم: هذه الدولة كافرة لموالاتها للكفار في الواقعة الفلانية، ويجب قتالها وتنصيب إمام منا.

سلمنا بذلك، لكن تلك الدولة الأخرى تحكم الشرع ولم توال دولة كافرة؟

جوابهم: هي دولة كافرة لأنها منضمة للأمم المتحدة، ويجب قتالها وتنصيب إمام منا.

ستخرج غدا من الأمم المتحدة؟

جوابهم: ستبقى كافرة لأنها وأنها وأنها..ويجب قتالها وتنصيب إمام منا.

لا أقول هذا من باب الطرفة بل مَن تتبع تنظيرات وأطروحات هذه الجماعات علم أنها تعاني من عقدة الحكم هذه ، والتكفير إنما هو أداة تستخدمها هذه الجماعات لإثبات أحقيتها بتنصيب إمامها، ولهذا ما أن تتوسع هذه الجماعات على رقعة صغيرة من الأرض إلا وتطفو عقدة الحكم وتعيين الأولى بالبيعة بينهم من جديد فيكفر بعضهم بعضا ويقاتل بعضهم بعضا، وهكذا يعيشون في دوائر مظلمة لا نهايه لها، وهي العقدة التي ألقت بظلالها على كل تقريراتهم وتنظيراتهم، فلا تكاد تسد عليهم باباً ولجوا منه إلى ممارسة هذا

التكفير العابر للقارات لجميع الحكام وأدواتهم وأذرعهم ومنهم من يوسع الدائرة ليتناول المشاركين في المجالس السياسية والبرلمانية ثم المنتخِبين ثم ثم ..، ومنهم من يضيق ، إلا وفتحوا لك بابا آخر لممارسة هذا التكفير بعينه تحت لافتة جديدة وهكذا دواليك، ولو أن إشكالية هذه الجماعات كانت علمية بالأساس لهان الأمر جدا، ولتقاربت وجهات النظر منذ أمد، لكن هذه الجماعات لديها عقدة أبدية لا تنتهي وهي عقدة منازعة الحكام وتنصيب إمامهم هم.

أما أهل السنة والجماعة فقد حسموا أمر هذه العقدة، وقاموا بفكها منذ أمد بعيد، فأصلوا لأبواب التكفير الشرعي المنضبط، وأصلوا لأبواب السياسة الشرعية وشروط الولاية الشرعية ومؤهلات مستحقيها ومسوغات عزلهم عن الولاية إلى غير ذلك من الأبواب التأصيلية، ولكنهم **لواقعيتهم** عالجوا عند حديثهم على هذا الباب ما هو واقع من استيلاء وتغلب بعض الحكام ممن لا تتوفر فيهم شروط الولاية الشرعية على ديار المسلمين أو بعضها، فهذه الصورة تكاد تكون هي الصورة الغالبة على العالم الإسلامي من قرون خلت، فهل نبقى ننازع هؤلاء الحكام المتغلبين أبدًا ، هل نسعى في طلب الإمامة والولاية أبدا، وبالتالي ندخل في صراعات دموية لا تنتهي أبدا وهل وهل...

من خلال الاستناد إلى أدلة شرعية أولا، ثم إلى واقع دموي أليم عاشته الديار الإسلامية في القرون الأولى بسبب التنازع على الحُكم وإن صدر عن حسن نية وإرادة الإصلاح وإعلاء شرع الله جزمًا في كثير من الصور، كان هذا الواقع الدموي وهذه الأحداث السوداوية من أهم العوامل التي ساعدت على تعيين الفهم الصحيح للأدلة الشرعية في الباب والتي قد تختلف الأفهام في استيعاب بعض أبعادها، وقد تختلف في تعيين صور ما يندرج تحتها و ما لا يندرج، أما بعد هذه الأحداث فلم يَعُد هناك فسحة لتأويل تلك النصوص، وكانت الأحداث نفسها خير مُعين لفهمها، وخير معيِّن للصور المندرجة تحتها.

فهي نصوص شرحها واقع دماءٍ أسيلت، وفُرقة لم تنتهي، وجرح في جسد الأمة لا يزال ينزف.

تمخض هذا كله عن أدبيات أهل السنة المعروفة بالسمع والطاعة في المعروف، والصبر على أئمة الجور.

وخلاصتها أن من استقر له الحكم واشتد، وامتلك زمام السلطة، وسيطر على مراكز القوى، وبايعه أهل الشوكة وبالتالي مَن تحتهم من عامة، فالواجب مع مثله السمع والطاعة في غير معصية، والصبر على جوره، ولو لم تتوفر فيه شروط الولاية الشرعية.

ولا يراد بالسمع والطاعة في غير معصية التطبيل لمنكره أو التلميع لجرائمه أو نفي قبائحه، وهل ثمة قبيحة أعظم من إلصاق وصف (الجَوْر) به حيًّا وميتًا؟! إنما المقصود عدم اعتزال المعروف الموجود في دائرته التي تغلَّب عليها كحضور الجمع والجماعات والأعياد والحج والانضواء تحت الأنظمة التي ترتب حياة الناس وغير ذلك مما يندرج تحت تعزيز المصالح الموجودة في دائرته والإبقاء على الخير الحاضر ومحاولة إثرائه وتكثيره..وعدم السعي إلى اعتزال المجتمع أوتكوين كيان موازي (دولة داخل دولة) ينازعه على الحكم والتي ينتج منها في الأغلب الأعم الدخول في صراعات دموية لا تنتهي.

وليس المقصود بالصبر على الجور إقرار هذا الجور لأن جور الجائرين يؤدي ولو بعد حين إلى نفس نتائج المنازعة المسلحة للحكام أي سفك الدماء المعصومة والاعتداء على الأموال والفرقة والقتال..هذه سنة كونية لا تتبدل..بل المقصود بأدبيات الصبر على الجور معالجة هذا الجور بطرق حكيمة فعالة تحافظ على الخير المتيقّن الحاضر الموجود ومحاولة تكثيره على حساب تقليل المنكرات والظلم بحكمة، ولا تؤدي إلى ضياع الخير المتيقّن و مضاعفة البلاء.

وبمثل هذه الأدبيات فكّ أهل السنة عقدة الحكم تلك حرصا على تجنيب ديار الإسلام دوامات لا تنتهي من الصراعات الدموية مع السعي في إصلاح الواقع بحكمة وعبر الوسائل المتاحة.

وبقيت هذه الأدبيات (أدبيات السمع والطاعة في المعروف والصبر على أئمة الجور وعدم منازعتهم) وحضورها في تراث اتجاهٍ ما أو مدرسةٍ ما عبر التاريخ من أهم الأدبيات الفارقة بين الاتجاهين (أهل السنة واتجاهات التكفير والقتال غير المنضبط).

ومن هذا المنطلق حرصتُ في كتاب «الانتصار»[1] على إبراز هذه الأدبيات للباحثين والقراء، كما أثبتُّ تقريرات شيخ الدعوة وأئمتها المتصلة بالباب كحرمة الافتئات على الولاة، وأن الجهة الحاكمة هي المخول لها تنزيل العقوبات في الردة وما هو دونها، وليس هذا لآحاد الرعية ولو قصر الحاكم فيها، والعلاقة المرجوة بين الأمراء والرعية وغير ذلك، وترجع أهمية هذه التقريرات التي أوردتها في الانتصار إلى واقعيتها ومعالجتها لأحداث جرت في زمن أئمة الدعوة، كما قمت بالربط بين هذه الأدبيات وبين قصة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وتعامله مع الواقع الذي عايشه في هذا الكتاب.

ورأيت أن أورد هنا نصوص أئمة الدعوة التي كنت أوردتها في (الانتصار للدرر السنية) مع عناوينها التي تبيّن موضوعها، لترابط الأفكار وتسلسلها، ونلاحظ أن هذه النصوص تعالج جوانب كثيرة في أبواب السمع والطاعة في المعروف.

السمع والطاعة لولاة الأمور المسلمين في غير معصية:

❍ «وأرى وجوب السمع والطاعة لأئمة المسلمين برهم وفاجرهم، ما لم يأمروا بمعصية الله». [1/ 33 الإمام].

---

[1] (ص157-171).

❍ «من تمام الاجتماع، السمع والطاعة لمن تأمر علينا، ولو كان عبدا حبشياً». [1/ 173 و9/ 6 الإمام].

❍ «والجهاد ماض قائم مع الأئمة بروا أو فجروا، ولا يبطله جور جائر ولا عدل عادل. والجمعة والعيدان والحج مع السلاطين وإن لم يكونوا بررة عدولا أتقياء. ودفع الصدقات والخراج والأعشار والفيء والغنائم إليهم، عدلوا فيها أو جاروا. والانقياد لمن ولاه الله عز وجل أمركم، لا تنْزع يدا من طاعته، ولا تخرج عليه بسيف حتى يجعل الله لك فرجا ومخرجا؛ ولا تخرج على السلطان، وتسمع وتطيع، ولا تنكث بيعته؛ فمن فعل ذلك فهو مبتدع، مخالف، مفارق للجماعة. وإن أمرك السلطان بأمر فيه لله معصية؛ فليس لك أن تطيعه البتة، وليس لك أن تخرج عليه؛ ولا تمنعه حقه. والإمساك في الفتنة سنة ماضية، واجب لزومها». [1/ 348].

❍ «وبعد ذلك يرون الدعاء لأئمة المسلمين بالصلاح، ولا يخرج عليهم بالسيف». [1/ 534].

❍ «المسألة الثالثة [من مسائل الجاهلية]: أن مخالفة ولي الأمر عندهم، وعدم الانقياد له، فضيلة، والسمع والطاعة ذل ومهانة; فخالفهم رسول الله ﷺ وأمر بالصبر على جور الولاة، وأمر بالسمع والطاعة لهم، والنصيحة، وغلظ في ذلك، وأبدى فيه وأعاد. وهذه الثلاث التي جمع بينها فيما ذكر عنه، في الصحيحين أنه قال: «إن الله يرضى لكم ثلاثا، أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم» ولم يقع خلل في دين الناس، ودنياهم، إلا بسبب الإخلال بهذه الثلاث، أو بعضها». [2/ 133].

❍ «قد أوجب الله تعالى جهادهم [أي الذين خرجوا على الإمام] دفعاً لعنادهم وخروجهم عن جماعة المسلمين، والسمع والطاعة لمن ولاه الله أمرهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ

عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [سورة البقرة آية: 251]». [8/ 9].

❍ «وعليكم بلزوم الطاعة وملازمة الجماعة، وامتثال أمر من ولاه الله أمركم، وعدم الاختلاف عليه والتخلف عن طاعته».[8/ 37].

❍ «ولا تحصل الجماعة إلا بالسمع والطاعة لمن ولاه الله أمر المسلمين».[9/ 11].

❍ «ثم خرج من خرج بشق العصا ومفارقة الجماعة، طلبا للفساد في الأرض وفلًّا لجمع المسلمين عن مجاهدة أعداء الله المشركين، ومن انتظم في سلكهم، من الطغاة والبغاة المفسدين، ثم كان عاقبة ذلك، حدثان عظيم، وضلال مستبين، مضادة لأمر الله ورسوله، ورفضا لفرضية الجماعة، وإقامة لشعار أهل الجاهلية، لأن دينهم الفرقة، ويرون السمع والطاعة مهانة ورذالة.

فأتاهم النبي ﷺ بقوله: **﴿وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا﴾** [سورة آل عمران آية: 102-103] وقوله: **﴿وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾** [سورة التغابن آية: 16] ومن شعارهم: أن مخالفة ولي الأمر، وعدم الانقياد له فضيلة، وبعضهم يجعله دينا، فخالفهم النبي ﷺ في ذلك، وأمر بالصبر على جور الولاة، والسمع والطاعة، والنصيحة لهم، وغلظ في ذلك، وأبدى وأعاد».[9/ 78].

❍ «ولا يجوز لآحاد الناس، أن يتكلم في الأمور العامة، التي هي متعلقة بالإمامة، لأن الرسول ﷺ جاء بفرضية السمع والطاعة، ولزوم البيعة وعدم الخروج على الأئمة، وأخبر ﷺ أن من فارق الجماعة قيد شبر، فمات، فميتته جاهلية، وحض على السمع والطاعة، في قوله ﷺ: «عليكم بالسمع والطاعة، وإن تأمر عليكم عبد حبشي» .[9/ 84].

❍ «وقد بلغني عن بعض من غره الغرور، من الطعن في العلماء، ورميهم بالمداهنة، وأشباه هذه الأقاويل، التي صدت أكثر الخلق عن دين الله، وزين لهم الشيطان بسبب ذلك، الطعن في الولاية بأمور، حقيقتها البهتان، والطعن بالباطل؛

وقد علمتم ما جاء به رسول الله ﷺ وفرضه من السمع والطاعة.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [سورة النساء آية: 59] ولم يستثن سبحانه وتعالى برا من فاجر، ونهى ﷺ عن إنكار المنكر، إذا أفضى إلى الخروج عن طاعة أولي الأمر، ونهى عن قتالهم، لما فيه من الفساد؛ عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه «قال: دعانا رسول الله ﷺ فبايعنا، وكان فيما أخذ علينا: أن بايعنا على السمع والطاعة، في مكرهنا ومنشطنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، قال: إلا أن تروا كفرا بواحاً، عندكم فيه من الله برهان» أخرجاه في الصحيحين.

وقوله: «أن لا ننازع الأمر أهله» دليل على المنع من قتال الأئمة، إلا أن يروا كفرا بواحا، وهو الظاهر الذي قد باح به صاحبه، فطاعة ولي الأمر، وترك منازعته، طريقة أهل السنة والجماعة، وهذا هو فصل النّزاع بين أهل السنة، وبين الخوارج والرافضة.

وعن حذيفة بن اليمان: قال: إن رسول الله ﷺ قال: «اسمع وأطع للأمير، وإن أخذ مالك وضرب ظهرك» وعن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ «من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر، فإنه ليس أحد خرج من السلطان شبرا فمات، مات ميتة جاهلية» وعن عبد الله بن عمر، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من خلع يداً من طاعة، لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة، مات ميتة جاهلية» فذكر في هذا الحديث: البيعة والطاعة؛ فالخروج عليهم نقض للعهد والبيعة، وترك طاعتهم ترك للطاعة، وبهذه الأحاديث وأمثالها، عمل أصحاب رسول الله ﷺ بها، وعرفوا أنها من الأصول التي لا يقوم الإسلام إلا بها، وشاهدوا من يزيد بن معاوية، والحجاج، ومن بعدهم خلا الخليفة الراشد، عمر بن عبد العزيز، أموراً ظاهرة ليست خفية، ونهوا عن الخروج عليهم، والطعن فيهم، ورأوا أن الخارج عليهم خارج عن دعوة المسلمين، إلى طريقة الخوارج.

ولهذا لما حج ابن عمر رضي الله عنهما مع الحجاج، وطعن في رجله، قيل له أنبايعك على الخروج على الحجاج وعزله؟ وهو أمير من أمراء عبد الملك بن مروان، غلظ الإنكار عليهم، وقال: (لا أنزع يداً من طاعة) واحتج عليهم بالحديث الذي تقدم ذكره». [9/ 91-93].

❍ «لا دين إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمامة، ولا إمامة إلا بسمع وطاعة، وأن الخروج عن طاعة ولي الأمر، والافتيات عليه، من أعظم أسباب الفساد في البلاد والعباد، والعدول عن سبيل الهدى والرشاد». [9/ 114].

❍ «ومما أدخل الشيطان أيضا: إساءة الظن بولي الأمر وعدم الطاعة له، فإن هذا من أعظم المعاصي، وهو من دين الجاهلية، الذين لا يرون السمع والطاعة دينا، بل كل منهم يستبد برأيه، وقد تظاهرت الأدلة من الكتاب والسنة، في وجوب السمع والطاعة لولي الأمر في العسر واليسر، والمنشط والمكره، حتى قال: «اسمع وأطع وإن أخذ مالك وضرب ظهرك».

فتحرم معصيته والاعتراض عليه في ولايته، وفي معاملته وفي معاقدته ومعاهدته، لأنه نائب المسلمين والناظر في مصالحهم، ونظره لهم خير من نظرهم لأنفسهم، لأن بولايته يستقيم نظام الدين، وتتفق كلمة المسلمين، لا سيما وقد من الله عليكم بإمام ولايته ولاية دينية، وقد بذل النصح لعامة رعيته من المسلمين، خصوصا المتدينين، بالإحسان إليهم ونفعهم، وبناء مساجدهم وبث الدعاة فيهم، والإغضاء عن زلاتهم وجهالاتهم.

ووجود هذا في آخر هذا الزمان، من أعظم ما أنعم الله به على أهل هذه الجزيرة، فيجب عليهم شكر هذه النعمة ومراعاتها، والقيام بنصرته والنصح له باطنا وظاهرا. فلا يجوز لأحد الافتيات عليه، ولا المضي في شيء من الأمور إلا بإذنه؛ ومن افتات عليه فقد سعى في شق عصا المسلمين، وفارق جماعتهم». [9/ 135-136].

❍ «فانظروا وفقكم الله، في كلام هؤلاء الأئمة[1]، في حق ولاة الأمر، وحثهم على عدم منازعتهم للأمراء، وتقرير وجوب السمع والطاعة لهم، وإن كان فيهم ما فيهم من الأمور التي ينكرها الشرع، ما لم يظهر منهم كفر بواح». [9/165].

❍ «وأما ما قد يقع من ولاة الأمور، من المعاصي والمخالفات، التي لا توجب الكفر والخروج من الإسلام، فالواجب فيها: مناصحتهم على الوجه الشرعي، برفق، واتباع ما كان عليه السلف الصالح، من عدم التشنيع عليهم في المجالس ومجامع الناس، واعتقاد أن ذلك من إنكار المنكر الواجب إنكاره على العباد؛ وهذا غلط فاحش، وجهل ظاهر، لا يعلم صاحبه ما يترتب عليه، من المفاسد العظام في الدين والدنيا، كما يعرف ذلك من نور الله قلبه، وعرف طريقة السلف الصالح. هذا الذي نعتقده وندين الله به، ونبرأ إلى الله ممن خالفه، واتبع هواه». [9/193].

السمع والطاعة في المعروف واجبة حتى فيمن ارتكب العظائم من ولاة الأمور:

❍ «ثم هنا مسألة أخرى، وداهية كبرى، دها بها الشيطان كثيراً من الناس، فصاروا يسعون فيما يفرق جماعة المسلمين، ويوجب الاختلاف في الدين، وما ذمه الكتاب المبين، ويقضي بالإخلاد إلى الأرض وترك الجهاد، ونصرة رب العالمين، ويفضي إلى منع الزكاة، ويشب نار الفتنة والضلالات؛ فتلطف الشيطان في إدخال هذه المكيدة، ونصب لها حججاً ومقدمات، وأوهمهم أن طاعة بعض المتغلبين، فيما أمر الله به ورسوله، من واجبات الإيمان، وفيما فيه دفع عن الإسلام وحماية لحوزته، لا تجب والحالة هذه، ولا تشرع.

ولم يدر هؤلاء المفتونون، أن أكثر ولاة أهل الإسلام، من عهد يزيد بن معاوية - حاشا عمر بن عبد العزيز، ومن شاء الله من بني أمية - قد وقع منهم ما وقع من

(1) يقصد الإمام أحمد وشيخ الإسلام ابن تيمية وغيرهم.

الجراءة، والحوادث العظام، والخروج والفساد في ولاية أهل الإسلام؛ ومع ذلك فسيرة الأئمة الأعلام، والسادة العظام معهم، معروفة مشهورة، لا ينزعون يداً من طاعة، فيما أمر الله به ورسوله، من شرائع الإسلام وواجبات الدين.

وأضرب لك مثلاً بالحجاج بن يوسف الثقفي، وقد اشتهر أمره في الأمة بالظلم والغشم، والإسراف في سفك الدماء، وانتهاك حرمات الله، وقتل من قتل من سادات الأمة، كسعيد بن جبير، وحاصر ابن الزبير وقد عاذ بالحرم الشريف، واستباح الحرمة، وقتل ابن الزبير، مع أن ابن الزبير قد أعطاه الطاعة، وبايعه عامة أهل مكة والمدينة واليمن، وأكثر سواد العراق.

والحجاج نائب عن مروان، ثم عن ولده عبد الملك، ولم يعهد أحد من الخلفاء إلى مروان، ولم يبايعه أهل الحل والعقد، ومع ذلك لم يتوقف أحد من أهل العلم في طاعته، والانقياد له فيما تسوغ طاعته فيه، من أركان الإسلام وواجباته. وكان ابن عمر ومن أدرك الحجاج من أصحاب رسول الله ﷺ لا ينازعونه، ولا يمتنعون من طاعته، فيما يقوم به الإسلام، ويكمل به الإيمان. وكذلك من في زمنه من التابعين، كابن المسيب، والحسن البصري، وابن سيرين، وإبراهيم التيمي، وأشباههم ونظرائهم من سادات الأمة. واستمر العمل على هذا بين علماء الأمة، من سادات الأمة وأئمتها، يأمرون بطاعة الله ورسوله، والجهاد في سبيله مع كل إمام بر أو فاجر، كما هو معروف في كتب أصول الدين والعقائد.

وكذلك بنو العباس، استولوا على بلاد المسلمين قهراً بالسيف، لم يساعدهم أحد من أهل العلم والدين، وقتلوا خلقاً كثيراً، وجماً غفيراً من بني أمية وأمرائهم ونوابهم، وقتلوا ابن هبيرة أمير العراق، وقتلوا الخليفة مروان؛ حتى نقل أن السفاح قتل في يوم واحد نحو الثمانين من بني أمية، ووضع الفرش على جثثهم، وجلس عليها، ودعا بالمطاعم والمشارب؛ ومع ذلك فسيرة الأئمة، كالأوزاعي، ومالك،

والزهري، والليث بن سعد، وعطاء بن أبي رباح، مع هؤلاء الملوك، لا تخفى على من له مشاركة في العلم واطلاع.

والطبقة الثانية من أهل العلم، كأحمد بن حنبل، ومحمد بن إسماعيل، ومحمد بن إدريس، وأحمد بن نصر، وإسحاق بن راهويه، وإخوانهم، وقع في عصرهم من الملوك ما وقع، من البدع العظام، وإنكار الصفات، ودعوا إلى ذلك، وامتحنوا فيه، وقتل من قتل، كأحمد بن نصر؛ ومع ذلك فلا يعلم أن أحداً منهم نزع يداً من طاعة، ولا رأى الخروج عليهم». [8/377-380].

❍ «وإذا صدر منه شيء من المحرمات، التي لا تسوغها الشريعة، فحسب طالب الحق الدعاء له بالهداية، وبذل النصيحة على الوجه المشروع.

وأما الخروج، ونزع اليد من طاعته، فهذا لا يجوز. وأنتم تزعمون أنكم على طريقة مشائخكم، وأنكم ما تخالفونهم في شيء يرونه لكم؛ ولا ندري من هؤلاء المشائخ، أهم مشائخ المسلمين؟ أم غيرهم، ممن سلك غير سبيلهم، ويريد فتح باب الفتن على الإسلام والمسلمين؟» [9/183-184].

❍ «وأما المكوس: فأفتينا الإمام بأنها من المحرمات الظاهرة، فإن تركها فهو الواجب عليه، فإن امتنع فلا يجوز شق عصا المسلمين، والخروج عن طاعته من أجلها..»[9/310].

باب إذا وقع من ولاة الأمور، من المعاصي والمخالفات، التي لا توجب الكفر، والخروج من الإسلام:

❍ «وأما ما قد يقع من ولاة الأمور، من المعاصي والمخالفات، التي لا توجب الكفر، والخروج من الإسلام، فالواجب فيها مناصحتهم على الوجه الشرعي برفق، واتباع ما كان عليه السلف الصالح، من عدم التشنيع عليهم في المجالس، ومجامع

الناس، واعتقاد أن ذلك من إنكار المنكر، الواجب إنكاره على العباد، وهذا غلط فاحش، وجهل ظاهر، لا يعلم صاحبه ما يترتب عليه، من المفاسد العظام في الدين والدنيا، كما يعرف ذلك من نور الله قلبه، وعرف طريقة السلف الصالح، وأئمة الدين». [9/ 119].

❍ «فإن قصر عن القيام ببعض الواجب، فليس لأحد من الرعية أن ينازعه الأمر من أجل ذلك، كما ثبتت بذلك الأخبار عنه ﷺ بوجوب السمع والطاعة، والوفاء بالبيعة، إلا أن تروا كفرا بواحا، عندكم فيه من الله برهان». [9/ 123].

السمع والطاعة للحاكم المسلم المتغلب:

❍ «ومن ولي الخلافة، واجتمع عليه الناس، ورضوا به، وغلبهم بسيفه حتى صار خليفة وجبت طاعته، وحرم الخروج عليه». [1/ 33 الإمام].

❍ «ونرى الجهاد مع كل إمام، برا كان أو فاجرا، منذ بعث الله محمدا ﷺ إلى أن يقاتل آخر هذه الأمة الدجال؛ ونرى وجوب السمع والطاعة لأئمة المسلمين، برهم وفاجرهم، ما لم يأمروا بمعصية». [1/ 575].

❍ «قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، رحمه الله تعالى: الأئمة مجمعون من كل مذهب، على أن من تغلب على بلد أو بلدان له حكم الإمام في جميع الأشياء، ولولا هذا ما استقامت الدنيا، لأن الناس من زمن طويل قبل الإمام أحمد إلى يومنا هذا، ما اجتمعوا على إمام واحد، ولا يعرفون أحدا من العلماء ذكر أن شيئا من الأحكام، لا يصح إلا بالإمام الأعظم». [9/ 5].

❍ «وأما إذا قهر الناس واجتمع عليه أهل الحل والعقد، وجبت طاعته وحرمت مخالفته». [9/ 8].

❍ «وقد تغلب سعود على جميع البلاد النجدية، وبايعه الجمهور، وسموه باسم

الإمامة، وقد عرفتم: أن أمر المسلمين لايصلح إلا بإمام، وأنه لا إسلام إلا بذلك، ولا تتم المقاصد الدينية، ولا تحصل الأركان الإسلامية، وتظهر الأحكام القرآنية إلا مع الجماعة والإمامة، والفرقة عذاب وذهاب في الدين والدنيا، ولا تأتي شريعة بذلك قط.

ومن عرف القواعد الشرعية، عرف ضرورة الناس وحاجتهم، في أمر دينهم ودنياهم إلى الإمامة والجماعة، وقد تغلب من تغلب في آخر عهد أصحاب رسول الله ﷺ وأعطوه حكم الإمامة، ولم ينازعوه كما فعل ابن عمر وغيره، مع أنها أخذت بالقهر والغلبة، وكذلك بعدهم في عصر الطبقة الثالثة، تغلب من تغلب، وجرت أحكام الإمامة والجماعة، ولم يختلف أحد في ذلك، وعالب الأئمة بعدهم على هذا القبيل وهذا النمط.

ومع ذلك: فأهل العلم والدين: يأتمرون بما أمروا به من المعروف، وينتهون عما نهوا عنه من المنكر، ويجاهدون مع كل إمام، كما هو منصوص عليه في عقائد أهل السنة، ولم يقل أحد منهم بجواز قتال المتغلب والخروج عليه، وترك الأمة تموج في دمائها، وتستبيح الأموال والحرمات، ويجوس العدو الحربي خلال ديارهم، وينزل بحماهم، هذا لا يقول بجوازه وإباحته إلا مصاب في عقله، موتور في دينه وفهمه، وقد قيل:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة ... ولاسراة إذا جهالهم سادوا

بل هذا الحكم الديني، يؤخذ من قوله تعالى: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا**﴾ [سورة آل عمران آية: 103] لأنه لا يحصل القيام بهذا الواجب إلا بما ذكرنا، وتركه مفسدة محضة ومخالفة صريحة، قال الله تعالى: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الأِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾ [سورة المائدة آية: 2] وفي الحديث «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شئ فاجتنبوه». [9/ 19-20].

❍ «وقد عرفتم مبدأ هذه الفتنة وأولها، والحكم في أهلها وجندها، ثم صار لهم دولة بالغلبة والسيف، واستولوا على أكثر بلاد المسلمين وديارهم، وصارت الإمامة لهم بهذا الوجه ومن هذا الطريق، كما عليه العمل عند كافة أهل العلم من أهل الأمصار في أعصار متطاولة.

وأول ذلك: ولاية آل مروان، لم تصدر لا عن بيعة ولا عن رأي، ولا عن رضى من أهل العلم والدين، بل بالغلبة حتى صار على ابن الزبير ما صار، وانقاد لهم سائر أهل القرى والأمصار. وكذلك مبدأ الدولة العباسية، ومخرجها من خراسان، وزعيمها رجل فارسي، يدعى أبا مسلم، صال على من يليه، ودعا إلى الدولة العباسية، وشهر السيف وقتل من امتنع عن ذلك، وقاتل عليه، وقتل ابن هبيرة أمير العراق، وقتل خلقا كثيرا لا يحصيهم إلا الله.

وظهرت الرايات السود العباسية، وجاسوا خلال الديار قتلا ونهبا في أواخر القرن الأول؛ وشاهد ذلك أهل القرن الثاني، والثالث، من أهل العلم والدين، وأئمة الإسلام، كما لا يخفى على من شم رائحة العلم، وصار على نصيب من معرفة التاريخ وأيام الناس.

وأهل العلم مع هذه الحوادث متفقون على طاعة من تغلب عليهم في المعروف، يرون نفوذ أحكامه وصحة إمامته، لا يختلف في ذلك اثنان، ويرون المنع من الخروج عليهم بالسيف، وتفريق الأمة، وإن كان الأئمة ظلمة فسقة، ما لم يروا كفرا بواحا؛ ونصوصهم في ذلك موجودة عن الأئمة الأربعة وغيرهم، وأمثالهم ونظرائهم.

إذا عرفت هذا: فالحاصل في هذا العصر بين أهل نجد، له حكم أمثاله من الحوادث السابقة، في زمن أكابر الأئمة كما قدمنا، وصارت ولاية المتغلب ثابتة كما إليه أشرنا، ووقع اتفاق من ينتسب إلى العلم لديكم على هذا، كالشيخ إبراهيم،

والشثري في الحوطة، وحسين وزيد في الحريق؛ وخطوطهم عندنا محفوظة معروفة، فيها تقرير إمامة سعود، ووجوب طاعته ودفع الزكاة إليه، والجهاد معه، وترك الاختلاف عليه، كل هذا موجود بخطوطهم؛ فلا جرم قد صار العمل على هذا والاتفاق.

ثم توفى الله سعود واضطرب أمر الناس، وخشينا الفتنة واستباحة المحرمات من باد وحاضر، وتوقعنا حصول ذلك، وانسلاخ أمر المسلمين، فاستصحبنا ما ذكر، وبنينا عليه، واختار أهل الحل والعقد من حمولة آل سعود؛ ومن عندهم ومن يليهم، نصب عبد الرحمن بن فيصل، وذلك صريح في عدم الالتفات منهم إلى ولاية غير آل سعود، ولهذا كتبنا من الرسائل التي فيها الإخبار بالبيعة، والنهي عن سلوك طريق الفتن والاختلاف، وأن يكون المسلمون يدا واحدة، ذكرناهم قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا﴾ [سورة آل عمران آية: 103] ونحو ذلك من الآيات، وبعضا مما ورد من الأحاديث الصحيحات.

وترك بعض من لديكم هذا المنهج، وسلكوا طريقا وعرة، تفضي إلى سفك الدماء، واختلاف الكلمة، وتضليل من خالفهم، ودعا بعضهم إلى ذلك واستحسنه، من غير مشورة ولا بينة، ولم ينصحوا إخوانهم ويوضحوا لهم وجه الإصابة فيما اختاروه وما ارتضوه؛ وكان الواجب على من عنده علم، أن ينصح الأمة، بل وينصح أولا لله ولكتابه ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم، ويكرر الحجة، وينظر في الدليل، ويرشد الجاهل، ويهدي الضال، بحسن البيان وتقرير صواب المقال، لكنهم أحجموا عن ذلك كله، ولم يلتفتوا إلى المحاقة؛ والله هو ولي الهداية، الحافظ الواقي من موجبات الجهل والغواية». [9/ 28-30].

باب الجهاد مع كل بر وفاجر

❍ «وأرى الجهاد ماضياً مع كل إمام: برا كان، أوفاجرا، وصلاة الجماعة

خلفهم جائزة؛ والجهاد ماض منذ بعث الله محمدا ﷺ إلى أن يقاتل آخر هذه الأمة الدجال، لا يبطله جور جائر، ولا عدل عادل».[الإمام 1/32-33].

❍ «ويحصل بالجهاد مع الفاجر، من مصالح الدين ما لا يحصى، كما قال ﷺ: «إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر، وبأقوام لا خلاق لهم» ولو ترك الجهاد معه لفجوره لضعف الجهاد، وحصلت الفرقة والتخاذل، فيقوى بذلك أهل الشرك والباطل، الذين غرضهم الفساد وذهاب الدين. فإذا ابتلي الناس بمن لا بصيرة له ولا علم ولا حلم، ونزل المشركين وأهل الفساد من قلبه منزلة أهل الإسلام، لطمع يرجوه منهم أو من أعوانهم، وأعانهم على ظلمهم، وصدقهم في كذبهم، فإنه لا يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئاً».[8/201].

❍ «ومن عقيدة أهل السنة: أن الجهاد ماض مع كل إمام بر أو فاجر إلى يوم القيامة».[8/409].

باب الجهاد تحت راية ولي الأمر

❍ «فإذا دعاكم أيها المسلمون إلى الجهاد والنفير، فاسمعوا وأطيعوا، واحذروا أن تكونوا كالذين قالوا: سمعنا وعصينا؛ فإن القيام معه ونصرته من الواجبات الدينية، لأنا لا نعلم أحداً على وجه الأرض اليوم، شرقاً وغرباً، جنوباً وشمالاً تجب طاعته، ويجب الجهاد معه، أولى منه».[8/29].

❍ «وإذا استنفر الإمام الرعية، كان الجهاد فرض عين على كل من أقدره الله عليه، إلا من عذره الله في كتابه».[8/30].

❍ «قد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا استُنفرتم فانفروا» يعني: استنفر الإمام رعيته، وجب عليهم النفير إلى الجهاد معه بأموالهم وأنفسهم، لأنه يجاهد عن حوزة الدين، وعورات المسلمين، ويحوطهم من كل من رامهم بسوء من الكفار

والمعتدين». [8/ 48].

مناصحة الأمير إنما تكون برفق وخفية

❍ «والجامع لهذا كله: أنه إذا صدر المنكر من أمير أو غيره، أن ينصح برفق خفية ما يشرف عليه أحد، فإن وافق وإلا استلحق عليه رجال يقبل منهم بخفية، فإن ما فعل، فيمكن الإنكار ظاهراً إلا إن كان على أمير ونصحه ولا وافق، واستلحق عليه ولا وافق، فيرفع الأمر إلينا خفية». [8/ 48-49].

باب الحكمة في ترك منابزة الحكام، وبيان الطريقة الصحيحة في الإنكار عليهم

❍ «وقد ذكر أهل العلم أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح؛ فدرء مفسدة قمع أهل الحق، وعدم إظهار دينهم واجتماعهم عليه، والدعوة إلى ذلك، وعدم تشتيتهم وتشريدهم في كل مكان، مقدم على جلب مصلحة الإنكار على ولاة الأمور، مع قوتهم وتغلبهم وقهرهم، وعجز أهل الحق عن منابذتهم، وإظهار عداوتهم والهجرة عن بلادهم، بمجرد الدخول في طاعتهم في غير معصية الله ورسوله.

فإذا كان لأهل الدين حوزة، واجتماع على الحق، وليس لهم معارض فيما يظهرون به دينهم، ولا مانع يمنعهم من ذلك، وكون الولاة مرتدين عن الدين، بتوليهم الكفار، وهم مع ذلك لا يجرون أحكام الكفر في بلادهم، ولا يمنعون من إظهار شعائر الإسلام، فالبلد حينئذ بلد إسلام، لعدم إجراء أحكام الكفر، كما ذكر ذلك شيخنا الشيخ عبد اللطيف، رحمه الله، عن الحنابلة وغيرهم من العلماء.

وإذا كان الحال على ما وصفنا، فمراعاة درء مفسدة قمع أهل الحق، وتشريدهم وتشتيتهم وإذلالهم، وإظهار أهل الباطل باطلهم، وإعلاء كلمتهم على أهل الحق،

وكذلك مراعاة جلب المصالح، في إعزاز أهل الحق، واحترامهم وعدم معارضتهم، مقدم والحالة هذه على مصلحة الإنكار على ولاة الأمور من غير قدرة على ذلك، لأجل تغلب أهل الباطل وقوتهم، وعجز أهل الحق عن منابذتهم، وعدم تنفيذ الأمور التي يحبها الله ويرضاها؛ فدرء المفسدة المترتبة على الإنكار على الولاة، أرجح من المصلحة المترتبة على منابذتهم بأضعاف مضاعفة. وإذا استلزم الأمر المحبوب إلى الله، أمراً مبغوضاً مكروهاً إلى الله، وتفويت أمر هو أحب إلى الله منه، لم يكن ذلك مما يحبه الله ويقرب إليه، لما ينبني على ذلك من المفاسد، وتفويت المصالح.

وقد ذكر أهل العلم قاعدة تنبني عليها أحكام الشريعة، وهي: ارتكاب أدنى المفسدتين، لتفويت أعلاهما، وتفويت أدنى المصلحتين، لتحصيل أعلاهما.

وقال الإمام الحافظ ابن عبد الهادي، في رده على السبكي، كلاماً يحسن أن نذكره في هذا الموضع. قال رحمه الله:

الوجه الثالث: أنه لا يكفي مجرد كون الفعل محبوباً له، في كونه قربة، وإنما يكون قربة إذا لم يستلزم أمراً مبغوضاً مكروهاً، أو تفويت أمر هو أحب إليه من ذلك الفعل؛ وأما إذا استلزم ذلك، فلا يكون قربة، وهذا كما أن إعطاء غير المؤلفة من فقراء المسلمين وذوي الحاجات منهم، وإن كان محبوباً لله، فإنه لا يكون قربة إذا تضمن فوات ما هو أحب إليه، من إعطاء من يحصل بعطيته قوة في الإسلام وأهله، وإن كان قوياً غنياً غير مستحق». [8/ 491-493].

❍ «إذا فهمتم ذلك، وتحققتم أنه لا يجوز إنكار المنكر ظاهرا، فالواجب على المسلم: أن ينكر المنكر على من أتى به بخفية، خصوصا إن كان على أمير، فإن إنكار المنكر على الولاة ظاهرا، مما يوجب الفرقة والاختلاف بين الإمام ورعيته، فإن لم يقبل المناصحة خفية، فليرد الأمر إلى العلماء، وقد برئت ذمته.

وإنكار المنكر على الولاة ظاهرا من إشاعة الفاحشة، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ

﴿الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ [سورة النور آية: 19] وإطلاق الفاحشة لفظ عام، يدخل فيه كل ما كان منكرا، وإعمال المطي بين الإخوان، واجتماعاتهم لأجل إنكار المنكر ظاهرا، مخالف لما كان عليه أهل السنة والجماعة من العلماء، ولما كان عليه شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في هذه الرسالة؛ وهذا منا إعذار وإنذار، لئلا يحتج أحد علينا أنا لم نناصحهم في ذلك، ولم نبين لهم ما عندنا.

وقد سمعنا في الأيام الماضية، ما أجمع عليه الإخوان في هذا الأمر، ولم يمنع المشائخ مناصحتهم في ذلك، إلا ما ذكروه في مراسلاتهم للمشائخ: أنهم على عقيدتهم، وأنه ليس لهم رأي يخالف رأيهم، وأنهم لا يبدرون في شيء إلا بمراجعتهم، فلما مضوا فيما مضوا فيه، ولم يرفعوا للمشائخ خبرا بذلك، تحققنا أنهم يقولون ما لا يفعلون، وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [سورة الصف آية: 2-3]». [9/ 153].

باب ليس لعامة الناس أن يفتاتوا على ولي الأمر حتى ولو لم يهتم بالحدود والتعزيرات

❍ «عامة الناس ليس لهم أن يفتاتوا على ولي الأمر في الحدود والتعزيرات، إلا بإذنه. وقد عرفتم حال أكثر الولاة، في عدم الاهتمام بهذا الأصل، فالافتيات عليهم بالحبس والضرب، ونحو ذلك، مفسدة، تمنعها الشريعة ولا تقرها، ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح; فهذا يوجب للشيخ وأمثاله مراعاة المصلحة الشرعية في الفتوى الجزئية، لا سيما في مخاطبة العامة».[8/ 343].

❍ «رأينا أمرا يوجب الخلل على أهل الإسلام، ودخول التفرق في دولتهم، وهو الاستبداد من دون إمامهم، بزعمهم أنه بنية الجهاد، ولم يعلموا أن حقيقة الجهاد ومصالحة العدو، وبذل الذمة للعامة، وإقامة الحدود، أنها مختصة بالإمام، ومتعلقة

به، ولا لأحد من الرعية دخل في ذلك إلا بولايته...والذي يعقد له راية، ويمضي في أمر من دون إذن الإمام ونيابته، فلا هو من أهل الجهاد في سبيل الله». [9/ 95].

❍ «فالواجب عليك[1]: حفظ ثغر الإسلام عن التلاعب به، وأنه لا يغزو أحد من أهل الهجر إلا بإذن منك، وأمير منك لو صاحب مطية، وتسد الباب عنهم جملة، لئلا يتمادوا في الأمر، ويقع بسبب تماديهم وتغافلكم خلل كبير».[9/ 96].

❍ «لا دين إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمامة، ولا إمامة إلا بسمع وطاعة، وأن الخروج عن طاعة ولي الأمر، والافتيات عليه، من أعظم أسباب الفساد في البلاد والعباد، والعدول عن سبيل الهدى والرشاد». [9/ 114].

❍ «فلا يجوز لأحد الافتيات عليه، ولا المضي في شيء من الأمور إلا بإذنه؛ ومن افتات عليه فقد سعى في شق عصا المسلمين، وفارق جماعتهم». [9/ 136].

❍ «ومما انتحله بعض هؤلاء الجهلة المغرورين: الاستخفاف بولاية المسلمين، والتساهل بمخالفة إمام المسلمين، والخروج عن طاعته، والافتيات عليه بالغزو، وغيره، وهذا من الجهل والسعي في الأرض بالفساد بمكان، يعرف ذلك كل ذي عقل وإيمان». [9/ 142].

العلاقة المرجوة بين أهل الدين والأمراء

❍ «يجيئنا من العلوم، أنه يقع بين أهل الدين والأمير بعض الحرشة، وهذا شيء ما يستقيم عليه دين، والدين هو الحب في الله والبغض فيه، فإن كان الأمير ما يجعل بطانته أهل الدين، صار بطانته أهل الشر؛ وأهل الدين عليهم جمع الناس على أميرهم، والتغاضي عن زلته؛ وهذا أمر لا بد منه من أهل الدين، يتغاضون عن أميرهم، وكذلك الأمير يتغاضى عنهم، ويجعلهم مشورته وأهل مجلسه، ولا يسمع

---

(1) النصيحة موجهة للملك عبد العزيز.

فيهم كلام العدوان، وترى الكل: من أهل الدين والأمير، ما يعبد الله أحد منهم إلا برفيقه، فأنتم توكلوا على الله، واستعينوا بالله على الائتلاف والمحبة واجتماع الكلمة، فإن العدو يفرح إذا رأى أن الكل ناقم على رفيقه، والسبب يرجو عود الباطل». [9/ 6 الإمام].

الإمام الغائب!

❍ «صار من ينتظر غائباً.. فيه شبه ممن يقول بوجوب طاعة المنتظر، وأنه لا إمامة إلا به[1]». [9/ 35].

إضافة هامة في الموضوع

وأريد هنا أن أطرح إضافة هامة في هذا الموضوع، وذلك أن بعض زيدية اليمن من مخالفي الدعوة قام في وقت مبكر من حياة الدعوة في زمن أبناء الشيخ بتوجيه جملة من الانتقادات والاتهامات للدعوة النجدية وأئمتها، وكان من جملة هذه الاتهامات أن الدعوة النجدية لا تتبنى الخروج على الولاة والسعي في طلب الحكم وإسقاط ولاة الجور، بخلاف ما يتبناه الزيدية فيما يسمونه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الخروج في طلب الولاية ونزعها من حكام الجور[2]، ووصف الزيدي أئمة الدعوة بسبب هذا الأمر بأنهم يتولون الدول الجائرة.

(1) يقصد بهم من لا يرون السمع والطاعة إلا لمن استكمل شروط الولاية الشرعية، وهذا التشبيه من أجمل ما قرأت في توصيف حال هذه الفئة.

[2] يقول الأشعري: «والزيدية بأجمعها ترى السيف والعرض على أئمة الجور وإزالة الظلم وإقامة الحق، وهي بأجمعها لا ترى الصلاة خلف الفاجر».(مقالات الإسلاميين ص74 تحقيق ريتر). أقول: ومَن قرأ تاريخ حكم الأئمة الزيدية علم أنهم يعانون من نفس عقدة الحكم هذه، إنما يستخدمون تلك الشعارات الرنانة لشرعنة جورهم وظلمهم الذي ادعوا الخروج عليه.

فأجاب أحد أئمة الدعوة وهو عبد الله ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب عن هذه التهمة بقوله:

«إنهم –أي أئمة الدعوة– لم يتولوا الدول الجائرة كما ذكره هذا المعترض، **بل هم يبغضونهم ويكرهونهم ويسمونهم ظلمة وأئمة جور، وإنما أوجبوا طاعتهم إذا أمروا بطاعة الله ورسوله** ويستدلون على ذلك بأحاديث ثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم منها أنه قال: «على المرء السمع والطاعة ما لم يؤمر بعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»، وثبت في الصحيحين من حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر، وإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبرا فيموت ميتة جاهلية». والأحاديث في هذا المعنى كثيرة من رواية أهل البيت[1] وغيرهم، من الصحابة رضي الله عنهم بأسانيد ثابتة بنقل العدول من أهل الحديث.

(و) أهل السنة والجماعة **لم يصححوا ولايتهم إلا إذا تولوا على الناس وبايعهم على ذلك أهل الشوكة وأهل الحل والعقد**، فإذا كان كذلك صحت ولايته، ووجبت طاعته في طاعة الله، وحرمت طاعته في المعصية، **ولكن لا يجوزون الخروج عليه، ومحاربته بالسيف لأن ذلك يئول إلى الفتن العظيمة**، وسفك الدماء والهرج الكثير، هذا الذي عليه أهل السنة والجماعة، وهذا القول الذي تدل عليه النصوص وعليه كثير من أهل البيت.

(ثم) إن قول (الزيدي) في الأحاديث التي يستدل بها أهل السنة على السمع والطاعة لولي الأمر "فلما سمعها أهل البيت وجدوها مخالفة لكتاب الله" كذب ظاهر على أهل البيت عليهم السلام، فإن كثيرا من أهل البيت مذهبهم مذهب أهل السنة والجماعة في هذه المسألة، **هذا الحسن بن علي رضي الله عنه انخلع لمعاوية رضي الله عنه وبايعه، وأمر كل من بايعه وبايع أباه بمبايعة معاوية، والسمع والطاعة له**، وهو عند المعترض وأمثاله من أئمة

---

[1] اعتنى الشيخ بهذه النقطة ردا على الزيدية الذين ينتسبون لآل البيت زورا.

الجور، وأما عند أهل السنة فهو من خيار ملوك الإسلام، وأعدلهم، وأحسنهم سيرة، ونهى أخاه الحسين عند موته عن طاعة سفهاء الكوفة.

وهذا ابن عباس وهو من أئمة أهل البيت نهى عمه الحسين رضي الله عنه عن الخروج وكذلك محمد بن الحنفية وعبد الله بن جعفر رضي الله عنهم، وهؤلاء من أئمة أهل البيت وقد تقدم النقل عنهم بذلك، وذكرنا من رواه من الأئمة.

(و) أهل السنة رحمهم الله بينوا هذه الأحاديث المروية عنهم في السمع والطاعة لولي الأمر هي الموافقة لكتاب الله حقا لا تخالفه بل القرآن يصدقها ويدل على ما دلت عليه، لأن الجميع من عند الله، والرسول أعلم بكتاب الله من أهل البدع وكذلك أصحابه وأهل بيته، قال العلماء: كان جبريل ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم بالسُّنَّة كما ينزل بالقرآن وقد أمر الله بطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم في القرآن أكثر من سبعين موضعًا وأخبر أن من يطع الرسول فقد أطاع الله، وقد أمر الله بطاعة أولى الأمر في القرآن، فقال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) الآية، قال أئمة التفسير هم العلماء والأمراء.

[ثم ذكر الشيخ بعض الآيات التي استدل بها الزيدي على وجوب منازعة ولاة الجور ثم قال]: احتجاجه بهذه الآيات على معارضة الأحاديث الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في السمع والطاعة لولي الأمر ومناصحته **من جنس احتجاج الخوارج وأشباههم** على بطلان ولاية علي وإمامته، بقوله تعالى: (لئن أشركت ليحبطن عملك) وقوله: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) وإنما اتوا من قلة معرفتهم بتفسير كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم...» انتهى المقصود منه[1].

وأرى أهمية هذا التقرير أهمية بالغة للأسباب التالية:

---

[1] «مجموعة الرسائل والمسائل النجدية» (4/ 79-83).

أ: نسبة الزيدي وهو من مخالفي الدعوة النجدية لها بأنها لا تتبنى الخروج على حكام الجور ومنازعتهم، شهادة من أعداء الدعوة بأن هذا هو المشهور من منهجهم في الباب، وأن مقالتهم هذه طارت كل مطار حتى عرفها الموافق والمخالف، فأراحنا من عناء نسبة هذا المنهج لهم.

ب: إنكار الزيدي على أئمة الدعوة أنهم لم ينازعوا أو يهيجوا أتباعهم لمنازعة الحكام الظلمة في زمانهم فيه تقرير واضح أن هذه الأدبيات لم تكن أدبيات نظرية بل كانت حاضرة على أرض الواقع في صورة المنع والنهي عن منازعة حكام الجور.

ج: هذا النقاش دار بين الزيدي وبين الشيخ عبد الله ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب، إذن فنحن نتحدث هنا عن مرحلة مبكرة جدا من حياة الدعوة ونتحدث أيضا عن الجيل الثاني لأئمة الدعوة، وهذا الجيل شهد التوسع الضخم الذي شهدته الدعوة النجدية على الأرض مع توسع المعارك والقتال، ولا نفهم من هذا إلا أن كل هذه المعارك التي دارت في زمانهم مع جهات مجاورة لا يصنفها الزيدي على أنها منازعة لحكام المناطق المجاورة، وهذه شهادة من أعداء الدعوة بأن المعارك كانت دفاعا عن النفس من أولها ولا علاقة لها بباب منازعة الحكام.

د: رد الشيخ عبد الله ودفاعه عن منهج الدعوة في هذا الباب واضح في إقراره للمنهج الذي نسبه الزيدي لهم، وتوضيحه أنه ليس بتهمة بل هو منهج أهل السنة في الباب.

هـ : إطلاق الزيدي للتهمة، ثم إطلاق الشيخ الإقرار بهذا المنهج حيث لم يستثن دارا أو بلدا أو منطقة من تقريره، واضح في أن الدعوة النجدية لم تكن تتبنى هذا المنهج مع سائر الديار الإسلامية في زمانهم، وإلا لكان جواب الشيخ مثلا: كيف لم ننازع أئمة الجور وقد قررنا أن أهل المغرب مثلا يجب عليهم منازعة ولاتهم لكذا وكذا، وأهل مصر مثلا لكذا وكذا..

وقد صدر هذا الجواب في زمن عزة وغلبة وتوسُّع للنجديين ودولتهم، وما أيسر أن يتبنوا في لحظات القوة هذه منهج إسقاط باقي حكومات الدول الإسلامية تحت شعار كفرهم أو جَوْرِهم على أقل الأحوال ليتوسعوا سياسيا على حسابهم.

و: من وضع هذا التقرير إلى جانب التقريرات الكثيرة التي أثبتناها في هذا الباب، ثم نظر في الحالة التي كانت عليها الدول الإسلامية في ذلك الوقت من تقريرات أئمة الدعوة أنفسهم، وأهم ذلك أن عامة تلك الدول **كانت تجرّم أمر الدعوة للتوحيد والنهي عن عبادة القبور، وتحارب من يدعو إلى التوحيد**، ومع هذا فلم يكن أئمة الدعوة يتبنون أدبيات الخروج أو التحميس أو التهييج عليهم، لعلم ما نريد تقريره من الانفصال التام بين أدبيات الدعوة النجدية وبين مناهج جماعات (عقدة الحكم) التي صدرت بها هذا الباب.

لفتة:

أعجبتني جدا عبارة الشيخ عبد الله في قوله عن أئمة الجور:

((**بل أهل السنة يبغضونهم ويكرهونهم ويسمونهم ظلمة وأئمة جور، وإنما أوجبوا طاعتهم إذا أمروا بطاعة الله ورسوله**... (و) أهل السنة والجماعة **لم يصححوا ولايتهم إلا إذا تولوا على الناس وبايعهم على ذلك أهل الشوكة وأهل الحل والعقد**، فإذا كان كذلك صحت ولايته، ووجبت طاعته في طاعة الله، وحرمت طاعته في المعصية، **ولكن لا يجوزون الخروج عليه، ومحاربته بالسيف لأن ذلك يئول إلى الفتن العظيمة**، وسفك الدماء والهرج الكثير...)).

أعجبني التوازن في عبارته، وطرحه، فقد انقسمت التيارات التي تعاطت مع هذه المسألة في العصر الحالي إلى قسمين:

فالتيار الأول خرج عن طريقة أهل السنة في أبواب السمع والطاعة لولاة الأمور وأخذ يُحمِّس ويشوِّه ويبالغ وأقحم الشباب في صدامات هم في غنى عنها، وفتح الباب لدخول

الشباب في ما لا تحمد عقباه بتحميسه غير المنضبط تحت شعار قضايا الأمة، وفرَّغ مضمون هذا الأصل عند أهل السنة من محتواه بالتحريف والتأويل، ولم يعُد علينا صنيعهم لاسيما في ثوراتهم الأخيرة بخير لا في دين ولا في دنيا، بل قضوا بحماسهم الفارغ على كل شيء، وأدخلوا بلادهم وأوطانهم في دوامات من الفتن والدماء.

فجاء تيار مقابل ونزَّل ولاة الأمور منزلة الأولياء والصالحين والأقطاب والأغواث! وقدموا خطابا ليس هو بخطاب أهل السنة والجماعة، فأهل السنة لا يرون منازعة ولي الأمر إذا اشتدت سلطته وبايعته مراكز القوى لخطورة الصدام داخل مجتمع مسلم ودار عصمة، لا لأنه من الأولياء والصالحين، بل قد يكون عدلا صالحا وقد يكون من أفجر الفجار ولهذا هم يلقبون أقواما منهم بحكام الجَور أحياء وأمواتا، ثم تعامُل السلف مع الولاة بعد الاتفاق على ترك منازعتهم، يرجع إلى تصور العالم، فمنهم من يرى أن الأصلح إعانة السلطان وأن يكون من بطانته وهذا يكون فيمن رأى العالِم أنه ممن يرتجى منه الخير، وكثير منهم يرى عدم الدخول على السلاطين والولاة واعتزالهم وعدم تولي القضاء لهم بل وكان نقاد الجرح والتعديل يجرحون المحدثين بالدخول على السلاطين، وهذا يغلب فيمن رأوه من السلاطين ساقط العدالة ظالما جائرا، ولا يرتجى من الدخول عليه إلا فتنة العالِم.

أما منهج التطبيل المطلق والتلميع المبالغ في كل بلد وكل زمان لكل الحكام ولكل ولاة الأمور، وتوظيف خطاب أهل السنة للتسبيح بحمد الحكام مع أذكار الصباح والمساء، فهذا شيء اخترعه هذا التيار.

والإمام أحمد بن حنبل إمام أهل السنة نفسه في هذا الباب، أمر بتجنب الصدام مع المأمون ومن بعده مع أنه كان قادرا على تحريك المسلمين من عند تلميذه بقي بن مخلد في الأندلس إلى تلامذته في العراق، لكنه لم ير السيف داخل دار الإسلام، ولكن في نفس الوقت لا نجد في تراثه العلمي ما نجده من هذا التيار حيث رأينا بعضهم عند الاستيقاظ

يصبح عليك قائلا : صباح الخير أنا أحب أبلغك إني بايعت فلانا ويسمي رئيس بلده، وقبل النوم يمسي عليك قائلا: أنا أحب أبلغك إني جددت البيعة لفلان ويسمي رئيس بلده، فهذه البيعة التي تتجدد مع كل وضوء لا نعرفها إلا عند هذا التيار، كونك وطنت نفسك على ترك منازعة من استقر له الأمر هذا يكفي، كما أن العادة أن البيعة تطلب من مراكز القوى ممن لهم أثر على الأرض، وكثير من هؤلاء الإخوة غير معترف بهم أصلا كمواطنين رسميين داخل بلادهم، وأقصى أمنيات أحدهم أن يكونوا مراكز قوى داخل بيوتهم على زوجاتهم.

تماما كما تجد في التيار المقابل من يرمقك بنظرة مغضب كلما رآك ثم انتفخت أوداجه وحملقت عيناه ليصيح في وجهك قائلا: فلان ذاك ولي أمرك مش ولي أمري. مع أن توصيف ولاية الأمر في الفقه الإسلامي توصيف لواقع وليست شتيمة كما يتصور هؤلاء، يوصف به من خضعت له مراكز القوى العسكرية وبالتالي الاقتصادية والسياسية فآلت إليه أمور ذلك كله بالقهر والغلبة أو بغيرها، بغض النظر عن حاله، فقد يكون عدلا وقد يكون فاجرا ، قد يكون إنسيًّا وقد يكون جنيًّا وقد يكون عفريتاً حتى! فهذا لا يغير من الواقع شيئا.

والحق هو التوازن الموجود في عبارة الشيخ عبد الله، لله دره.

حصاد وثمار

تكلمنا في الفصول السابقة عن نشأة هذه الدعوة المباركة وعقيدة إمامها وآرائه وأفكاره في إقامة الدول، وتكلمنا عن منهجيات وخطط التطبيق الفعلي على الأرض لهذه الأفكار، بقي أن ننظر في الثمار والنتائج الدينية والدنيوية على سواء لهذه التجربة التاريخية التي قدمها الإمام محمد بن عبد الوهاب.

فلا شك أن الثمرة الواقعية على الأرض لأية فكرة لها أثر كبير في الحكم على الفكرة، بل لها أثر أبعد من مجرد الحكم وهو تقويم التصورات القائمة في الذهن عن هذه الفكرة وروّادها.

من أكثر ما نأخذه على جماعات الغلو في التكفير قديمًا وحديثًا أنها جماعات لا تقدم منتجًا دينيًّا أو أنموذجًا فكريًّا متكاملاً، ولا تقدم تصوّرًا ناضجًا لإقامة الدول فضلا عن إدارتها، لا من الناحية التنظيرية، ولا من الناحية التطبيقية، بل تبقى هذه الجماعات مختلفة على المستوى التنظيري أبدًا وفي المسائل التي يزعمون تخصصهم فيها وتحريرهم لأصولها (مسائل التكفير)، فضلا عمّا دونها من مسائل، ويُنتج هذا التخبط الفكري والعلمي والتنظيري واقعًا سوداويًّا على الأرض يتمثل في تكفير هذه الجماعات لبعضها البعض، ثم استحلال دماء بعضها، وتطاحنها فيما بينها كما تكرر قديما ونراه رأي العين حديثا بين آن وآخر.

وإذا كان هذا هو واقع غلاة التكفير مع بعضهم البعض وهم ممن تجمعهم أصول وآراء متقاربة، فكيف سيكون حالهم مع المختلف معهم في تلك الآراء اختلافًا جذريًّا!

لا عجب إذن من أن هذه الجماعات لا يستقر لها أمر عبر التاريخ، ولا تقام لها دولة إلا أن يكون شيئا على هامش التاريخ ثم لا تلبث أن تتآكل من داخلها.

على النقيض من ذلك، نجد أن دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب على المستوى الديني قدمت أنموذجا دينيًّا متكاملا، على المستوى التنظيري العقدي، والفقهي،

والتفسيري والأصولي والحديثي، وإن أَثْرَت المدرسة النجدية بعض هذه الجوانب بأكثر من بعض بحكم الواقع على الأرض.

وبسبب وضوح الرؤية في مسائل التكفير لا نجد لدى أئمة الدعوة في تاريخهم بغيا على بعضهم في مسائل كتلك فضلا عن انشقاقات ناتجة عن مثل تلك التنظيرات.

وكانوا كلما نبتت نابتة من الغلاة ممن لم يتربوا على أصول إمام الدعوة بادروا إلى تعليمهم وتقويمهم والرد على أفكارهم.

وعلى المستوى التطبيقي قدمت أيضا أنموذجًا متكاملا لرؤيتها في آليات تطبيق الشريعة على الأرض، من البدء بأصل الإسلام أولا (التوحيد والشرك) والانشغال بالإصلاح والتعليم في أزمنة الجهل، ثم في مراحل معينة الانتقال إلى التغيير باليد عبر السلطة، مع التركيز أولا على تغيير ما له تعلق بأصل الإسلام..إلخ ما لا مجال لذكره هنا.

وعلى المستوى التنظيري لإقامة الدول نجد أن الأمام محمد بن عبد الوهاب كانت له نظرياته الخاصة في بناء الدول ووحدتها وظهور العمران[1] فيها، وقد أشرنا إلى بعض أطراف ذلك أثناء حديثنا على عقد الدرعية.

وقد أنتجت هذه الرؤية وهذا الجهد الدؤوب من الإمام ثمرة واقعية على الأرض وفي غضون سنوات معدودة من عقد الدرعية تمثلت في دولة لم تشهد نجد مثلها بشهادات المؤرخين المحايدين، وبشهادات الرحالة الأجانب التي سنستعرضها في أبحاث مستقلة بإذن الله، لم تشهد مثلها في اجتماع أهلها بعد سنوات الحروب

---

[1] ظهورالعمران تعبير عن نجاح الدولة على المستوى الاجتماعي والاقتصادي وغيره، ويكثر ابن خلدون من استخدامه في مقدمته.

والفتن، ولم تشهد مثلها في انتشار الأمن والأمان بين أبنائها، ولم تشهد مثلها في الرخاء التجاري، إلى غير ذلك من أسباب قوة الدول وظهور العمران.

وإلى أن نفرد شهادات المؤرخين والرحالة الأجانب عن تلك الدولة، نكتفي هنا على شرطنا في هذا البحث بتقديم تصوير ابن بشر لشيء من الحالة الدينية والدنيوية التي كانت ثمرة مباشرة لدعوة الإمام وتَعَهُّد أئمة الدعوة.

النتائج الدينية:

يقول «ابن بشر»[1] مؤرخًا لبعض النتائج الدينية لدعوة الشيخ:

«نَصَرَ السنة وعظمت به من الله المنة بعد أن كان الإسلام غريبًا فقام بهذا الدين ولم يكن في البلاد إلا اسمه، فانتشر في الآفاق .. وبعث العمال لقبض الزكوات..ونشرت راية الجهاد بعد أن كانت فتنًا وقتالا، وعرف التوحيد الصغير والكبير بعد أن كان لا يعرفه إلا الخواص، واجتمع الناس على الصلوات والدروس والسؤال عن معنى لا إله إلا الله وفقه معناها، والسؤال عن أركان الإسلام وشروط الصلاة وأركانها وواجباتها ومعاني قراءتها وأذكارها، فتعلم ذلك الصغير والكبير والقاريء والأمي بعد أن كان لا يعرفه إلا الخصائص، وانتفع بعلمه أهل الآفاق..فانتهي أناس كثير من أهل الآفاق بسبب ما سمعوا من أوامره ونواهيه، وهدم المسلمون ببركة علمه جميع القباب والمشاهد التي بنيت على القبور وغيرها من جميع المواضع المضاهية لأوثان المشركين في أقاصي الأقطار من اليمن وتهامة

---

[1] (1/ 182 – 184).

وعمان والأحساء ونجد وغير ذلك من البلاد، حتى لا تجد في جميع من شملته ولايته الشرك الأصغر فضلا عن غيره حاشا الرياء..وأمر الشيخ جميع أهل البلدان من اهل النواحي يسألون الناس في كل مسجد كل يوم بعد صلاة الصبح أو بين العشائين عن معرفة ثلاثة الأصول..وما يتبع ذلك من تحقيق التوحيد...وكفى بفضله شرفًا ما حصل بسببه من إزالة البدع واجتماع المسلمين وإقامة الجماعات والجمع وتجديد الدين بعد دروسه وقلع أصل الشرك بعد غروسه، وكان رحمه الله هو الذي يجهز الجيوش ويبعث السرايا على يد محمد بن سعود ويكاتب أهل البلدان ويكاتبونهم والوفود إليهما والضيوف عنده، وصدور الأوامر من عنده حتى أذعن أهل نجد وتابعوا على العمل بالحق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبايعوا، فعمرت نجد بعد خرابها، وصلحت بعد فسادها واجتمعت بعد افتراقها، وحقنت الدماء بعد إهراقها.. ».

النتائج الدنيوية:

أما جانب الدولة وحالها فنأخذ مثالا من حالة دولة النجديين في عهد عبد العزيز بن محمد بن سعود الذي تولى الحكم في حياة الشيخ رحمه الله.

يقول ابن بشر[1]:

«وكانت البلاد من جميع الأقطار في زمنه آمنة مطمئنة في عيشة هنيئة..لأن الشخص الواحد يسافر بالأموال العظيمة أي وقت شاء شتاء وصيفا يمينا وشمالا شرقا وغربا

[1] (1/ 266- 277).

في نجد والحجاز واليمن وتهامة وعمان وغير ذلك، لا يخشى أحدا إلا الله، لا سارق ولا مكابر، وكانت جميع بلدان نجد من العارض والخرج والقصيم والجنوب وغير ذلك من النواحي في أيام الربيع يسيبون جميع مواشيهم في البراري والمفالي من الإبل والخيل والجياد والبقر والأغنام وغير ذلك ليس لها راع ولا مراع...وكانت إبل أهل سدير ونجائبهم وخيلهم مسيبات أيام الربيع..وكان رحمه الله مع رأفته بالرعية شديدا على من جنى جناية من الأعراب أو قطع سبلاً أو سرق شيئا من مسافر أو غيره...وكانت للحجاج والقوافل وجبات الغنائم والزكوات والأخماس وجميع أهل الأسفار يأتون من البصرة وعمان وبلدان العجم والعراق وغير ذلك إلى الدرعية، ويحجون ويرجعون إلى أوطانهم لا يخشون أحدا من جميع البوادي..يخرج الراكب وحده من اليمن وتهامة والحجاز والبحرين والبصرة والبحرين وعمان ونقرة الشام لا يحمل سلاحا بل سلاحه عصاه، لا يخشى كيد عدو ولا يريده أحد بسوء».

ثم يقدم ابن بشر تفسيره لهذا التغير الجذري في الواقع النجدي فيقول:

«وهذا الأمر في هذه المملكة شيء وضعه الله تعالى في قلوب العباد من البادي والحاضر في كل ما احتوت عليه هذه المملكة مع الرعب العظيم في قلوب من عادى أهلها..وذلك والله أعلم من سببين: أحدهما أن الراعي إذا عف عفت رعيته فإذا عمل الإمام بطاعة الله وبذل العدل في الرعية وصار القريب والبعيد والغني والفقير والجليل والحقير في الحق سواء، وكان متواضعا يحب العلماء وطلبة العلم وحملة القرآن ويعظمهم ويحب الفقراء والمساكين ويعطيهم حقهم..عل الله له الهيبة في

القلوب وتداعى له كل مطلوب، والسبب الثاني أن الله جعل لكل شيء ضدا ومخالفا له منافيا ومعاديا، فجعل الشرك ضد التوحيد والعلم ضد الجهل وغير ذلك من الأضداد المنافية بعضها لبعض، وأما الأضداد المعادية بعضها لبعض كعداوة الحية لبني آدم وعداوة إبليس لهم وعداوة السباع لأضدادها وعداوة البادي لأهل القرى عداوات قديمة طبيعية فلا يصلح هذه العداوة بين أهل القرى وبينهم بذل المال فإنه إذا بذل لهم أصلح عداوتهم الظاهرة نحو أسبوع أو شهر، وأما عداوتهم الباطنة كالسرق ونحوه فإنه لا يصلحها ولا يصلحها ويصلح الظاهرة معها إلا السيف، ولما عرف عبد العزيز هذا الداء عرف الدواء فاستعمل لمن عاداه منهم السيف، ولمن والاه منهم قوة الجانب والغلظة والشدة، فكان يأخذ الأموال الكثيرة على السرقة وقطع السبل، ويجعل رؤساءهم في السجن وأغلال الحديد..وإذا أرسل عماله لقبض الزكاة من الأعراب أمرهم أن لا يأخذوا من الزكاة عقالا، حتى يأخذوا لصاحب الدين حقه ولمن سرق له شيء قيمة ماله والنكال فقويت البلاد واشتدت وطأتهم على عدوهم، فصار الأعرابي يرفع يده ولا يحفظها على شيء من مال أهل القرى ولا من مال البوادي..وصار هذا مطردا سائغا في زمنه وزمن ابنه سعود...

وكان مع ذلك كثير العطاء والصدقات للرعية والوفود والأمراء والقضاة وأهل العلم وطلبة ومعلمة القرآن والمؤذنين وأئمة المساجد حتى أئمة مساجد.. ويرسل قهوة لأهل القيام في رمضان، وكان الصبيان في الدرعية إذا خرجوا من عند المعلم يصعدون إليه بألواحهم ويعرضون عليه خطوطهم فمن تحاسن خطه منهم أعطاه جزيلا وأعطى الباقين دونه، وكان عطاؤه للضعفاء والمساكين غاية..وكان كثيرا ما

يفرق على أهل النواحي والبلدان كثيرا من الصدقات في كل وقت وكل سنة يعطي أهل كل بلد وكل أهل ناحية ألف ريال وأقل وأكثر ويسأل الضعفاء والأيتام في الدرعية وغيرها ويأمر بإعطائهم وكثيرا ما يفرق على بيوت الدرعية وضعفائها، وكان كثيرا ما يكتب لأهل النواحي بالحض على تعليم القرآن وتعليم العلم وتعليمه، ويجعل لهم راتبا في الديوان ومن كان منهم ضعيفا يأمره أن يأتي إلى الدرعية ويقوم بجميع نوائبه».

ونردف شهادة ابن بشر بشهادة أحد المخالفين العلميين للدعوة ومنهجها، على أن نجمع هذه الشهادات الصادرة من خارج دائرة النجديين في بحث خاص بإذن الله، يقول العالم المعاصر لمرحلة مبكرة من تاريخ الدعوة النجدية عثمان بن سند البصري (ت1250هـ)[1]: «ومن محاسن الوهابيين أنهم أماتوا البدع ومحوها، ومن محاسنهم أنهم **أمّنوا البلاد التي ملكوها وصار كل ما كان تحت أيديهم من هذه البراري والقفار يسلكها الرجل وحده على حمار بلا خفر خصوصا بين الحرمين الشريفين، ومنعوا من غزو الأعراب بعضهم على بعض، وصار جميع العرب على اختلاف قبائلهم من حضرموت إلى الشام كأنهم أولاد رجل واحد،** وهذا بسبب قسوتهم في تأديب القاتل[2] والسارق والناهب **إلى أن عُدِم هذا الشر في زمان ابن سعود، وانتقلت أخلاق الأعراب من التوحش إلى الإنسانية، فكأنهم جعلوا تأمين**

---

[1] مطالع السعود باختصار الحلواني (ص81-82).

[2] نرى أن العامل الأهم هو الوازع الديني الذي بثّته الدعوة وذرية محمد بن سعود في رعيتها حيث حرصوا على تعليم الصغير والكبير ما فيه خير الدنيا والآخرة، ثم القسوة الشديدة مع من شذ عن ذلك، أما القسوة وحدها فلا تقام بها الأمم.

الطرقات ركنا من أركان الدين، ويُفهم عقلا من سياستهم أنه إذا فُقد القاتل والسارق والناهب فأي سبب يمنع الناس من الاشتغال بالزراعة أو التجارة[1] أو اقتناء المواشي في البادية المخصبة للتكسب من ألبانها وأصوافها وجلودها، وإذا انشغلوا بالكسب الحلال فلا يسرقون ولا ينهبون ولا يقتلون[2]، فكأن المسألة شبيهة بالدورية، أي متى وجد الأمان ارتفع السارق والقاتل لاشتغالهم بمعاشهم الحلال، ومتى اشتغلوا بالحلال وجد الأمان...».

أقول: ومَن عاش في زماننا علم أن هذا الأمن والأمان الذي عمَّ المناطق التي وصلها حكم النجديين قبل 300 سنة تقريبا لا يزال مستمرًا إلى اليوم لم ينقطع، فالمملكة السعودية في عصرنا الحاضر مصنفة بناء على تقارير غربية في قائمة أكثر الدول أمانا في العالم، نسأل الله أن يديم على إخواننا الأمن والأمان وسائر بلاد المسلمين.

فقُل لي بربك هل يستقيم في عقل عاقل أن يسود الأمن والأمان في رقعة من الأرض قرابة ثلاثة قرون ثم يأتي منتسب لشرع أو لعقل فيقول أن هؤلاء الذين أقاموا هذا العدل والأمان لقرون والذي شهد له العدو قبل الصديق **تكفيريون!**

وقد لاحَظَت الكاتبة الأمريكية ناتانا ديلونج هذه القضية وهي تكتب كتابها عن الدعوة النجدية الذي نوّهتُ به في مقدمة كتابي الانتصار ونقلتُ عنها تقريرها الرائق

---

[1] يشير إلى تلازم انتشار الأمن بالرخاء الاقتصادي، وهو ما نعبر عنه بلغة اليوم بالبيئة الآمنة لجلب رؤوس أموال المستثمرين.

[2] إشارة ثالثة لأحد أهم عوامل تقليل معدلات الجريمة والانحراف في المجتمعات المسلمة بالقضاء على البطالة واشغال الشباب وغيرهم بالكسب الحلال، وكما ذكرت في الكتاب فِكر إقامة الدول وبنائها عند الإمام محمد بن عبد الوهاب على بساطة عبارته وعبارة أتباعه إلا أن فيها عمقا لا تجده في غيره، وهو مما تجدر العناية به بدراسات مستقلة.

الذي قررت فيه أن جماعات التكفير والعنف لا تجرّ على أممها وبلادها إلا الخراب والدمار، فكيف يتصوّر أن تكون دولة استمر فيها الأمن والأمان لقرون ثم يكون مَن أقامها وشارك في إدارتها وحكمها عبر القرون جماعات تكفير وعنف!!

ومع هذا المنجز الضخم على المستويين الديني والدنيوي لهذه الدولة الفتية لم يكن قادتها ممن يهتمون بأُبَّهة الملك ولا بمراسيم الأمراء أو زينة الوزراء، بل كانوا يحكمون هذه المساحات الواسعة في بساطةٍ وبُعْدٍ عن التكلف، ونترك أحد أعداء الدعوة يتحدث مستهزئًا برسول دولة النجديين لما أرسله سعود بن عبد العزيز لعقد صلح مع أعدائهم في بغداد، أما نحن فيملؤنا الفخر لعزة النجديين بتوحيدهم وعقيدتهم، فهذا ما يقاس به الرجال أما الأبهة بلا عقيدة أو هوية فهي بأشباه الرجال أليق، يقول:

«وهنا حدثت المهزلة التي ضحكت لها بغداد، فقد زُيِّن السَّرَاي وزُخرِفت جدرانه من أجل استقبال الممثل السعودي، ولبس الوالي وحرسه أزهى ما عندهم من ملابس رسمية مزركشة، واصطفّ الجُند استعدادا للاستقبال، **ولكنهم فوجئوا بظهور رجل بدوي ذي أسمال يمشي بخطىً سريعة**، وعندما دخل هذا الرجل لم يلتفت إلى الباشوات الذين حضروا للاحتفاء به بل تركهم جانبا وجلس القرفصاء بين يدي الوالي ثم قدم وريقة وسخة [أي ورقة شروط الصلح]...»[1] إلخ.

لهذا كله كان بعض من يسمع عن الدعوة النجدية من بعيد ومن خلال شائعات أعدائها يقع في قلبه بغضها وبغض أهلها فإذا نزل ساحتهم ورأى بعينه منجزهم

---

[1] أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص214

الديني والدنيوي على أرض الواقع وخالطهم خالطت بشاشة التوحيد قلبه وتأثر بهم، ومن أطرف ما حفظه لنا التاريخ في هذا السياق ما ذكره عثمان بن سند البصري أيضا أن والي العراق أثناء المناوشات بينهم وبين النجديين أرسل لسعود بن عبد العزيز أحد البكوات لتهديده بالحرب واسمه عبد العزيز بك الشاوي، فإذ بعبد العزيز هذا يتأثر بالنجديين ويميل إلى عقيدتهم ودعوتهم[1]!

الأعداء يحشدون مرة أخرى

تحالفات أوسع لغزو الدعوة وإسقاط دولتها

ونعود لقصة الدولة..

توسعت دولة النجديين في مدة يسيرة، وكتب الله لهم الغلبة على عامة أعدائهم الذين حشدوا من كل جهات نجد لإسقاط الدرعية في مهدها.

وباتت نجد دولة قوية فتية وكانت هي عاصمة التوحيد في العالم الإسلامي وقبلته.

هذا على المستوى الداخلي النجدي، أما على المستوى الخارجي فقد سعى النجديون بكل طريقة لتحسين العلاقات مع جيرانهم، والقيام بواجب النصح والتعليم بإرسال سفرائهم وعلمائهم لمناصحة العلماء في المناطق المجاورة، ودعوتهم إلى نشر التوحيد الصحيح بين المسلمين.

---

[1] مطالع السعود باختصار الحلواني ص78.

العراق وغزو الدعوة:

بعد أن غزا أهل الأحساء الدعوة النجدية واستطاع النجديون الانتصار عليهم وردّهم وإخضاع مناطقهم، لجأ أهل الأحساء هذه المرة للتحالف مع العراق البلد الذي يكثر فيه المكونات الشيعية الرافضية وإيغار صدورهم على الدعوة النجدية وتخويف والي العراق وقتها سليمان باشا من أن الدعوة ستسعى لغزو العراق وضياع ولايته، فقرر العراقيون غزو الدعوة في دارها.

واقتحموا دائرة الصراع بصورة مباشرة بعد وفاة الشيخ محمد رحمه الله ، ففي سنة إحدى عشرة بعد المائتين والألف، أرسل أعداء الدعوة من أهل الشرق المنهزمين إلى سليمان باشا[1] والي على العراق يخوّفونه من الدعوة وأطماعها وزوال ملكه إن لم يبادر إلى غزوها في عقر دارها، وأن أحق الناس وأجدرهم بقيادة هجمات العراق تلك هو (ثويني بن عبد الله) شيخ قبيلة المنتفق -إحدى العشائر العراقية-، وقد كان ثويني حاول الاستقلال بالبصرة عن سليمان باشا ، ضمن حركات الاستقلال الكثيرة في العراق التي كانت تنجح تارة وتفشل أخرى وقد تكلمنا عليها، فخرج الوالي إليه وهزمه هذه المرة وحكم عليه بالإقامة الجبرية في بغداد[2] ، فاستعفى أعداء الدعوة من الوالي أن يأذن لثويني بالتحرك لقتال جيوش الدعوة، فأمر الباشا بإحضار ثويني عنده وخلع عليه ورأسوه وكبروه ، وحشد له الجيوش والعدة والعتاد، وتحرك صوب نجد لقتال جيوش الموحدين.

الحجاز:

---

[1] ترجمته في (دوحة الوزراء) للكركوكلي (ص218-219)، بواسطة حاشية «ابن غنام» .

[2] مقدمة في تاريخ العرب الحديث لغرابية (1/ 37) بواسطة تاريخ الدولة السعودية، د. مديحة أحمد (ص36).

أما الحجاز فكانت تمنع الحجيج النجديين من دخول مكة وإقامة شعائر الحج لمدة ستين سنة! وكأنهم من أبناء ملة أخرى، وقد حاول علماء نجد تحسين العلاقات مع الحجاز عبر المناصحة والمراسلات وإرسال العلماء الذين يوضحون العقيدة الصحيحة وجرت مناقشات ومباحثات بين علماء نجد وعلماء مكة، وقد كانت العلاقات بدأت بالتحسن بين نجد والحجاز وبين النجديين والأشراف أمراء الحجاز.

إلا أن علماء السوء لما رأوا أن كيانهم الديني سيتآكل وينسحب البساط من تحت أقدامهم لصالح علماء نجد، وشوا بالنجديين عند ولاة الحجاز، وخوفوهم من دولتهم.

فطرأ على الأحداث تحالف عدائي جديد.. وهو تحالفات مكة والحجاز وكان بقيادة الشريف غالب، وبدؤوا في غزو الدولة النجدية على أنهم يغزون الكفار الزنادقة مدعي النبوة كما تقدم عنهم.

إلا أن دولة النجديين ، ردّت هؤلاء وهؤلاء إلى ديارهم خاسئين، وهزمتهم في معارك عدة، وأخذت منهم التعهدات على عدم محاولة غزو دولتهم مرة أخرى، إلا أنهم كانوا لا يفتؤون ينقضون المواثيق والعهود لاسيما الحلف العراقي فقامت الدعوة بغزو المناطق العراقية التي كانت تجهز المحاربين وغالبهم رافضة لا عهد لهم ولا ذمة، وهذا هو سبب النكاية الشديدة التي أحدثها النجديون في بعض الجهات العراقية في حروبها زمن سعود بن عبد العزيز.

كما جرت محاولات من أطراف الشام وأطراف اليمن لتهديد دولة النجديين، فردوهم.

وتمخضت هذه الحروب الجديدة عن إخضاع النجديين لمناطق أعدائهم في الحجاز وأطراف العراق ، والمناطق التي هاجمتهم من أطراف اليمن والشام.

وبهذا انقلب السحر على الساحر وتوسعت دولة النجديين فحكمت مساحات واسعة من الجزيرة واليمن وأطراف العراق والشام.

ومع النجاح الباهر الذي قدمته هذه الدولة الفتية على المستوى الديني والسياسي، والإنجاز الضخم الذي حققته في مدة قصيرة، وفي ناحية من النواحي التي لم تستقر قط كنجد، ثم ولايتها لمكة قبلة العالم الإسلامي ووجهة المسلمين المقدسة، وما لمسه الحجيج في ظلها من أمن واستقرار، ليعودوا إلى أوطانهم متأثرين بأجواء التوحيد تلك، وبتجربة النجديين هذه.

لم تكن مراكز القوى المجاورة بمعزل عن هذا الذي يحدث، ولم تكن لتسمح لأمر هذه الدولة الجديدة التي قدّمت أنموذجًا فريدًا على المستوى الديني والسياسي أن يمر مرور الكرام.

وكانت أهم المراكز المجاورة في ذلك الوقت هي **مصر** التي كانت تمر على يد واليها محمد علي باشا بنهضة شاملة على المستوى العسكري والسياسي والإداري للدولة.

مصر:

ففي نفس هذه الأثناء كان محمد علي في مصر يجهِّز نفسه للاستقلال بمصر عن الدولة العثمانية استقلالا تاما، وكان يطمع في ضم الشام والحجاز لدولته، وكان يرى في وجود الدولة النجدية التي تأثر بها العامة في عامة مناطق العالم الإسلامي خطرا على مشروعه هذا، فرأى أن يوظف سمعة الدولة العثمانية في تمرير مشروعه، بإزاحة

دولة النجديين أولا من الطريق تحت اسم الدولة، ثم التفرغ للاستقلال التام عن الدولة العثمانية نفسها وضم الحجاز والشام له هو.

الدولة العثمانية:

أما الدولة العثمانية فقد كانت ولايتهم تشمل جارتهم الحجاز منذ أسقطت سلطنة المماليك على الوجه الذي شرحناه أول الكتاب، وحاولوا عبر المراسلات العلمية الهادئة التي تقدم ذكرها لعلماء الدولة وممثليها في كل مكان لاسيما في الحجاز أن يقنعوا الدولة عبر هؤلاء بأن تتبنى مشروعهم الديني الإصلاحي في العالم الإسلامي وتفتح القنوات لنشر الدعوة وتصحيح الدين.

ويبدو لنا أن أصحاب الرأي والقرار من داخل الدولة العثمانية ومن ممثليها وحلفائها في الخارج كانوا على قسمين، قِسْم يعرف حقيقة الدعوة النجدية وأنها دعوة عقدية دينية تصحيحية شاملة في المقام الأول لا دعوة سلطان وملك، فغرضها الأول هو نشر العقيدة الصحيحة وكل ما تتمناه أن تفتح لها القنوات في العالم الإسلامي لتيسير حركتها الدعوية، ومن الوثائق العثمانية التي تمثل أصحاب هذا الرأي التقرير المهم الذي وُجد بخط أحد الأمناء بالقصر الحاكم العثماني وكان قد أوكلت إليه الدولة العثمانية كتابة تقرير عن حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد، فكتب في ذلك التقرير ما نصه:

((ضاعت ناقة بدوي فبحث عنها ولم يجدها، لجأ إلى قبر معروف في البادية، وأخذ يبكي ويصرخ ويصيح ثلاثة أيام متوالية من الصباح حتى المساء، وهو يردد قائلا: يا سعد، يا سعد، هات لي ناقتي، وهكذا كان يطلب المدد من سعد،

وكان هناك شخص عربي في عشيرة عربية تقيم بالقرب من هذا القبر، يتألم لما وصلت إليه حال البدوي الذي يندب حظه، ويطلب من الميت في القبر أن يوجد له ضالته، وفي اليوم الثالث جاء هذا الشخص وهو محمد بن عبد الوهاب وسأل البدوي قائلا: ما هي مشكلتك ؟ فقال له البدوي: لقد فقدت ناقتي، فجئت إلى قبر شيخي، وإن الشيخ سعد لابد وأن يجدها لي، فسأله محمد بن عبد الوهاب قائلا : ومَن هو شيخك ؟ فقال البدوي: هذا الذي يرقد في القبر، قال له محمد بن عبد الوهاب: يا شيخ إنك أنت وأنت حي تعجر أن تجد ناقتك ، فما بالك بشيخك وهو ميت، كيف يستطيع الخروج من قبره ليجد لك ما تعجز أنت عن العثور عليه، دعك من هذا الميت واطلب العون والمدد من الله بدلا من أن تطلب المدد من هذا المدفون تحت الحجارة، وقد أصبح مجموعة عظام، لا تطلب ناقتك من سعد بل اطلبها من رب سعد، لا تقل: يا سعد، بل قل : يا رب سعد، فإن القادر على أن يجد لك ناقتك ليس سعدا وإنما رب سعد، ذلك لأن الله عز وجل هو القادر على كل شيء.

إلى أن قال صاحب التقرير:

أحدثت مواعظ الشيخ محمد عبد الوهاب بين العشائر قبولا حسنا وقوة تأثير وانتشرت أقواله في كل جزيرة العرب، من أولها إلى آخرها وشملت الحرمين الشريفين والعراق والحجاز وسائر البلاد والأمصار))[1].

---

[1] ص31 و32 من مخطوط التقرير، بواسطة (العثمانيون في التاريخ والحضارة) لمحمد حرب ص190 .

إن هذا التقرير بهذا الأسلوب والنَّفَس الذي كُتب به نميل إلى أنه يمثِّل اتجاها داخل الدولة العثمانية، وهو اتجاه يرى أهمية تصوير هذه الدعوة التصحيحية على حقيقتها الناصعة، والاعتراف بالإصلاح العقدي والقبول الذي كُتب لها ليس في نجد فحسب بل في الجزيرة كلها والعراق والشام، ووافق هذا ما كان يراه علماء الدولة العثمانية أنفسهم من ضياع الدين وعدل الدنيا في الدولة كما ستأتي شهادتهم، فرأوا في دعم تلك الدعوة التصحيحية خير فرصة لتصحيح الوضع الديني في الدولة.

أما الاتجاه الآخر داخل الدولة العثمانية فيمثله علماء الدين الذين رأوا في هذه الصحوة العقدية فضحًا لتحريفهم للشريعة وإحداثهم في الدين وبيعه بثمن بخس وإخفائهم لحقيقته، وما نتج وسينتج عن هذا من فضحهم على رؤوس الخلائق وسقوطهم من أعين العامة والخاصة، وتوقف الأموال الهائلة التي تُدَر عليهم من جيوب البسطاء بُغية أن يرضى عنهم الأولياء والصالحون!

ويمثله معهم أمراء المناطق المختلفة الذين كانوا يُخدِّرون رعاياهم بهذه البدع والخرافات ويقتاتون على الإتاوات والضرائب التي تُدر عليهم تحت غطاء الاهتمام بالقبور والقباب، وكانوا يرون أن انسحاب البساط الديني من تحت أقدامهم سينتج عنه سقوطهم سياسيًّا ولابد.

ومعهم الولاة السياسيون الذين يمتلكون خططا مستقلة في الحكم وأهمهم محمد علي،

تمالأ هؤلاء على الوشاية بالدعوة النجدية عند السلاطين العثمانيين وأمراء المناطق والجهات وشوهوا الدعوة دينيا وعقديا وخوفوا العثمانيين وولاتهم من سقوط دولتهم!!

وكان أمام الدولة العثمانية في هذه اللحظة التاريخية الفارقة أن تحدد الطريق وتختار السبيل، إما أن تتجه إلى إعادة حيويتها الأولى ومجدها الذي ضاع بتبنِّي هذه الحركة العقدية الإصلاحية ووضع يدها في أيدي النجديين ليقوموا بواجب التصحيح الأخلاقي والعقدي الذي هو العامل الأكبر في بقاء دول الإسلام عبر التاريخ، وتعود الدولة لسابق عهدها في جهاد الكفار تحت راية الدين لا السلطان والملك.

ونعتقد أن مثل هذا الاتفاق لو قُدِّر أن يحدث لتغيرت خارطة العصر الحديث..

وإما أن تستمر في سُلَّم الانحطاط الذي كانت تسير فيه مهرولةً بمحاربة التوحيد باسم الخلافة!! وهذا ما قد كان..ولله الأمر من قبل ومن بعد.

الترتيب بين محمد علي والدولة العثمانية لإسقاط دولة النجديين:

كانت الدولة العثمانية في ذلك الوقت تتآكل أطرافها شيئا فشيئا، ويعمل الخور والضعف بأعضائها وجهاتها عمله، وتعاني من التحارب الداخلي، والتطاحن على الكرسي، وكانت أضعف من المواجهة في قلب الجزيرة.

ولم تكن الدولة العثمانية بمعزل عمّا يخطط له محمد علي في مصر فاستقر قرارها في أن تشغله بحرب النجديين لإزالة دولتهم الفتية، ولإشغاله في حربهم من جهة أخرى، وإلهائه عن مشروعه الاستقلالي عن الدولة ومشروعه النهضوي الذي قد يسحب به البساط من تحت أقدام الدولة.

ورأى محمد علي في خوض هذه الحرب مكاسب سياسية له حال انتصاره على النجديين حيث ستضفي عليه هالات النصر ويرتفع اسمه كقائد منتصر، وستيسر له خطواته الحثيثة نحو خلع العباءة العثمانية والاستقلال بدولته الجديدة، بعد أن يستغل سمعة الدولة في إسقاط النجديين الذين سيمثل وجودهم عقبة أمام دولته المستقلة.

بريطانيا:

إلى جانب البريطانيين الذين كانوا ينتظرون موت الرجل المريض (الدولة العثمانية) ويخشون قيامة الرجل الصحيح في العالم الإسلامي! لاسيما وقد أرهقهم القواسم على السواحل الشرقية الجنوبية للجزيرة (رأس الخيمة والشارقة حاليا) وكانوا من أبناء الدعوة النجدية والمتأثرين بها الموالين للدرعية وكانوا يجاهدون بريطانيا في سواحل الخليج العربي وأحدثوا نكاية كبيرة في أساطيلها المتجهة إلى الشرق[1]. وقد تخوفت بريطانيا من الاصطدام بهم وتعطيل مصالحها في الشرق.

اتفاق المصالح وبدء غزو النجديين:

وهكذا اتفقت مصالح محمد علي والغرب مع العثمانيين على حرب دولة النجديين. بعد وفاة محمد بن سعود الذي عاهد الشيخ في الدرعية، تولى ابنه عبد العزيز وسار في الناس سيرة حسنة قدمنا شيئا منها، ثم قُتِل عبد العزيز في المسجد أثناء صلاة العصر سنة 1218هـ، قتله رجل يقال أنه كردي دسه أعداء الدعوة بين أبنائها فأكرمه

[1] بريطانيا والخليج، جون كيلي، 1/ 170 وما بعدها.

النجديون وأكرمه عبد العزيز فما كان منه إلا أن رد هذه المكرمة بطعنة في خصر عبد العزيز وهو ساجد[1].

فبايع جميع أهل النواحي ابنه سعود ولم يختلف منهم اثنان[2]. وكانت سيرته في الناس كخلفه، في اللين مع أهل اللين والشدة مع من يستحقها، وفي زمانه فشا الأمر بالمعروف في مكة المكرمة، وسار في أهلها سيرة حسنة كما قدمناه.

أثناء ولاية سعود وفي سنة 1226هـ حدث أن ردّ سعود بعض حجيج الشام (وكانت تحت ولاية العثمانيين) عن الحج لاصطحابهم للطبول ولشعائر بدعية وشركية[3]، فوجدت الدولة العثمانية في التذرع بهذه الحادثة فرصة سانحة لإعلان الحرب على نجد، وأشاعوا أن سعودا منع حجيج الشام من الحج وأن هذا اعتداء على رعايا الدولة العثمانية! وبهذا شرعنوا لغزو النجديين وقتالهم.

---

[1] «ابن بشر» (1/ 266)، وقد رأيت لأحد منتقدي الدعوة من المعاصرين عندما حدثت حادثة تفجير في أحد مساجد السعودية حرسها الله، أن سلف هؤلاء المفجِّرين هم أبناء الدعوة حيث قتلوا عثمان بن معمر في المسجد، وأقول:

أ: مَن قرأ حادثة وملابسات مقتل عثمان بن معمر عرف أن الشيخ وأبناء الدعوة لم يكن لهم علاقة بها بل خاف بعض أقاربه أن يغدر بهم فقاموا بقتله، مع التنبيه على حرمة وعظم جُرم من جعل المساجد ساحة لمثل ذلك.

ب: أعداء الدعوة قتلوا أحد أئمتها في المسجد كما ذكرناه هنا فلماذا لا يكونون هم سلف المفجِّرين؟!

ج: للإنصاف من قرأ صفة القتال والحروب بين الدعوة النجدية وأعدائها من النجديين علم أنها كانت تخضع لأعراف الحروب عرفا وشرعا في الجملة ولا يوجد فيها تجاوزات من الجهتين في الأغلب، وأن ما حدث من القتل في المسجد من الجهتين لا يعدو كونه حادثة فردية لا ينبغي أن تعمم في المعسكرين.

[2] السابق (1/ 267).

[3] «الدرر السنية» (12/ 26).

ويقف المؤرخ **المصري** الجبرتي شاهدا على كذب هذه الإشاعة والفرية التي افترتها الدولة العثمانية لتجعلها عذرا لقتال النجديين فيقول[1]:

«ومنها انقطاع الحج الشامي والمصري معتلين بمنع الوهابي [أي سعود] الناس عن الحج ، **والحال ليس كذلك** فإنه لم يمنع أحدا يأتي الحج على الطريق المشروعة وإنما يمنع من يأتي بخلاف ذلك من البدع التي لا يجيزها الشرع، مثل المحمل والطبل والزمر وحمل الأسلحة، وقد وصل طائفة من حجاج المغاربة وحجوا ورجعوا في هذا العام وما قبله ولم يتعرض لهم أحد بشيء».

قامت الدولة العثمانية بالدعاية للحرب وتجهيز الجيوش وحشدها بجميع آلات الحرب من سفن ومدافع وبنادق وغيرها من آلات الحرب ، وكانت أضعف من أن تخوض الحرب بنفسها كما قدمناه قبل قليل فأوكلت إلى محمد علي باشا والي مصر المهمة، فسير الجيوش برا وبحرا نحو دولة النجديين، وكانت الغلبة في المعارك الأولى للنجديين، ثم ضاعفت الجيوش من عدتها وعتادها حتى قال أحد أعداء الدعوة[(2)]: «وإذا نظرت إلى..ما أنفقه محمد علي باشا من ابتداء التجهيز إلى الحجاز إلى آخره تعلم **أن ذلك شيء لا يعد ولا يحصى ولا يمكن فيه الاستقصاء**».

وقد أدى ذلك إلى قتل آلاف النجديين حتى إنه قُتِل من جيوش النجديين في واقعة واحدة أربعة آلاف رجل[3].

---

[1] عجائب الآثار (3/ 247).

(2) دحلان في «خلاصة الكلام» (ص391).

(3) «ابن بشر» (1/ 330).

في سنة 1228هـ استولت العساكر المصرية والتركية على مكة بقيادة طوسون ابن محمد علي، فنزل محمد علي في مكة، وقام بإدارة الحرب من هناك.

في سنة 1229هـ توفي سعود بن عبد العزيز وتولى ابنه عبد الله[1]، إلا أنه كان رجل علم أكثر من كونه رجل حروب وبأس كأبيه، فنشطت العساكر المصرية والتركية في حربها للنجديين وبدأت بابتلاع دولتهم شيئا فشيئا مع التنكيل بمن يقع في أيديهم من النجديين وحلفائهم، فهذا أحدهم يرسله محمد علي إلى مصر **فيصلب** فيها[2].

وبحلول سنة 1230 هـ كانت العساكر المصرية والتركية قد استولت على عامة الحجاز وتجهزوا لغزو نجد، ومع شدة مقاومة النجديين عقد طوسون عهدا مع عبد الله بن سعود على أن تخلى نجد للنجديين ليقيموا فيها التوحيد[3]، إلا أن محمد علي ما لبث أن نقض الصلح، وحرك الجيوش سنة 1231هـ لغزو نجد بقيادة إبراهيم باشا حيث كان طوسون قد توفي.

استمرت العساكر المصرية والتركية في ابتلاع نجد، وكانت لهم نكاية في كثير من المناطق التي يستولون عليها حتى إنهم أخذوا منطقة (ضرما) عنوة وقتلوا أهلها في الأسواق والسكك والبيوت..ونهبوا جميع ما احتوت عليه البلد من أموال ومتاع وسلاح[4].

---

[1] «ابن بشر» (1/ 365).

[2] (1/ 375).

[3] «ابن بشر» (1/ 378).

[4] «ابن بشر» (1/ 395).

وبحلول سنة 1233هـ كانت العساكر المصرية والتركية بقيادة إبراهيم باشا قد وصلت **للدرعية** معقل الدعوة والدولة.

معركة الدرعية الأخيرة:

ولم يكن للنجديين أن يتخلوا عن الدرعية ، تلك المنطقة التي لها في قلوبهم مكانة، ولهم في هوائها شوق وذكرى..

فمن هنا انطلقت دعوتهم، وعلى هذا التراب تربوا، وبين تلك الجنبات نشؤوا..

هنا عرفوا التوحيد، وعلى هذا التراب سجدوا لله وحده، وفي تلك المساجد وجهوا وجوههم لربهم الواحد القهار ..

هنا في هذا المكان تخرج حفظة القرآن، ومن هنا عرفوا البخاري ومسلم، وعاشوا مع أحمد والشافعي..

من هنا انطلقت رايات التوحيد خفاقة تتلألأ في سماء نجد، ومن هنا أضاءت مصابيح الظلام..

في نجد..كانوا هم الحياة..فكيف يغدون اليوم في هامشها..

اجتمع النجديون في الدرعية وتكاتفوا على أن يدافعوا عنها إلى آخرِ رجل منهم.. أمطرتهم العساكر المصرية والتركية بوابل من مدافعهم وآلاتهم الحربية التي لا يعرفها النجديون.

تعاهد النجديون على أن يرووا أرضهم بدمائهم وأن يموتوا بشرف وعز في سبيل عقيدتهم.

يومها صدع الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب وهو في مقدمة الصفوف بكلمته الشهيرة (**بطن الأرض على عز، خير من ظهر الأرض على ذل**).

التحمت الجيوش ، واضطرمت نيران الحرب، وطار في السماء شرها وشرارها، وحمي الوطيس.

استبسل النجديون في الدفاع عن الدرعية وأسوارها، واستعصت على العساكر التركية والمصرية ستة أشهر أو تزيد، وكانت الأمداد تأتي من مصر تباعًا في محاولاتهم المستميتة لإسقاط الدرعية.

امتلأت شوارع الدرعية بجثث قتلى النجديين الموحدين، حتى قال بعض من حضر تلك الوقائع: لو حلفت أني من الموضع الفلاني إلى الموضع الفلاني لم أطأ إلا على رجل مقتول لم أحنث[1].

بقي عبد الله بن سعود ومن معه يدافعون عن ما تبقى معهم، ولما اشتدت النكاية فيهم والقتل العشوائي لأبناء الدرعية، رأى أن يفدي بنفسه مَن تبقى من نساء وولدان في الدرعية فبذل نفسه للجيوش التركية والمصرية، وقرروا نقله إلى السلطان يقرر مصيره.

وبه سقطت الدرعية المعقل التاريخي للدعوة وأبنائها.

أرخ بعضهم أعداد قتلى الجيوش المصرية والتركية وهي المنتصرة في مجمل معاركها التي خاضتها مع النجديين باثني عشر ألف قتيل، فلك أن تتصور أعداد قتلى النجديين في تلك المعارك التي عجز بعض المؤرخين كابن بشر عن حصرها، وقد

---

[1] ابن بشر (1/ 416).

قتل منهم في معركة إسقاط الدرعية فقط ألف وثلاثمئة قتيل[1]، كما قتل فيها عدد كبير من ذرية محمد بن سعود الذين باشروا الدفاع عن الدرعية بأنفسهم.

بعد أن دخل إبراهيم باشا الدرعية نكّل بأهلها ووجهائها وكبرائها ممن بقي على قيد الحياة، وقام بتصفية كثير منهم بصورة مستبشعة، وبطريقة لم يعرفها النجديون في حروبهم، فالمتابع لوصف حروب النجديين مع أعدائهم في محيط الصراع داخل نجد والحجاز يلاحظ أن طرفي الصراع كانوا يتخلقون بأخلاق الحروب في الجملة، فلا نعرف أن النجديين تجاوزوا ذلك، والحق يقال أن أعداءهم أيضا حسب ما وصلنا لم يتجاوزوا أخلاق الحروب مع النجديين في الجملة، إلا أن تحدث تجاوزات فردية من هذا الفريق أو ذاك.

أما إبراهيم باشا فكان يتفنن! في تصفية من تبقى من أهل الدرعية، ومن صور ذلك أنه كان يضع الواحد منهم في فوهة مدفع ويتم إطلاقه بالبارود ليطيح من الجو أشلاء ممزقة، وقد حفظ لنا بعض المؤرخين أسماء من مات بهذه الطريقة، ومنهم من قاموا بضربه وتعذيبه ثم اقتلاع أسنانه، وتمت تصفية عامتهم رمياً بالرصاص[2].

ومن أشهر من تمت تصفيته من العلماء في تلك الأحداث الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب صاحب الشرح الشهير على كتاب التوحيد المسمى بتيسير العزيز الحميد، حيث قاموا بالاستهزاء به أولا فأمر الباشا بآلات اللهو أن تضرب عند

---

[1] السابق(1/ 418).

[2] ابن بشر (1/ 421).

رأسه، ثم قاموا بتصفيته رمياً بالرصاص، فانهال الرصاص على جسده من أفواه البنادق حتى إنه جُمع أشلاءً بعد ذلك لدفنه[1].

أما قائدهم عبد الله بن سعود فقاموا بإرساله إلى مصر ومن هناك إلى اسطنبول وهناك تجاوزوا مرة أخرى أخلاق الحروب التي عرف بها حتى كثير من غير المسلمين في حروبهم، فَنَكَّلُوا به وعاملوه بطريقة مشينة وتعمَّدوا إهانته والإعلان بذلك، وذلك أنهم طافوا به في شوارع اسطنبول وحواريها، ثم قاموا بقتله عند أحد أبوابها الشهيرة، كما قتلوا أتباعه في نواحي متفرقة[2].

أما حصون نجد وأسوارها فأمر الباشا الجنود بهدم ذلك كله.

وأما الدرعية فصدرت الأوامر من محمد علي إلى إبراهيم باشا وهو في الدرعية يأمره فيها بهدم الدرعية وتدميرها فأمر على أهلها أن يرحلوا عنها، ثم أمر على العساكر أن يهدموا دورها وقصورها وأن يقطعوا نخيلها وأشجارها ولا يرحموا صغيرها ولا كبيرها، فابتدر العساكر إلى هدمها مسرعين وهدموها وبعض أهلها فيها مقيمين، فقطعوا الحدائق منها وهدموا الدور والقصور وأشعلوا في بيوتها النيران وأخرجوا جميع من كان فيها من السكان فتركوها خالية المساكن كأن لم يكن بها من قديم ساكن، وتفرق أهلها في النواحي والبلدان، وذلك بتقدير الذي كل يوم هو في شان[3].

أما عامة الناس ممن ليسوا من أهل القتال والنزال فكانوا «يجمعون الرجال من الأسواق ويخرجونهم من الدور ويحملون على ظهورهم ما تحمله الحيوانات

---

[1] ابن بشر (1/ 424).

[2] تاريخ الجبرتي (4/ 467 أحداث جمادى الأولى سنة 1234هـ).

[3] (1/ 434).

فيسخرونهم يهدمون البيوت والدكاكين ويحملون خشبها ويكسرونه ويردون لهم الماء ويحملونه فلا يعرفون لفاضل فضله ولا لعالم قدره»[1].

بل وصل الأمر إلى إرسال بعض نساء وأطفال النجديين إلى مصر وبيعهم في الأسواق بشهادة مؤرخي مصر[2].

لم يقتصر هذا الدمار والاستبداد على جهة دون جهة، فقد أُرسلت العساكر أيضا إلى جميع النواحي والبلدان تفرض على أهلها الضرائب والجبابات والأموال الثقال، وأخذوا ما في البلدان من ذهب وفضة، وحتى حلي النساء، وما فيها من طعام وسلاح ومواشي، وحبسوا الرجال والأطفال والنساء، وعذبوهم بأصناف العذاب، وأخذوا جميع ما في أيديهم فمنهم من مات بالضرب ومنهم من أصابته العاهات الدائمة، ولما رأى الناس أن العساكر لم يكتفوا بما نهبوا فروا للقفار والبراري، وقطعوا نخيل كثير من البلدان[3].

وقد يقول قائل إن هذه الرواية التاريخية القاتمة التي تعرضها لسقوط الدرعية مبالغ فيها، كونها رواية النجديين أنفسهم، فلا شك أنهم بالغوا في الحط من أعدائهم.

إلا أن المفاجأة التي لا يعرفها مثل هذا القائل أن شهادة النجديين هذه لا مقارنة بينها وبين ما كتبه غير النجديين سواء من خصومهم أو من المحايدين من جهة وصف بشاعة ما حدث في تلك الحادثة وفظاعة ما جرى في تلك الواقعة، فما كتبه الخصوم

---

[1] (1/ 429).

[2] تاريخ الجبرتي (3/ 606 ط.الجيل).

[3] ابن بشر (1/ 454-455).

والمحايدون عن هذه الحادثة يفوق وصف النجديين بشاعة وفظاعة، وسنقوم بإفراد هذه الشهادات بإذن الله في بحث مستقل ولكننا نكتفي هنا بشهادتين.

أما الأولى فللمؤرخ فيلكس مانجان في كتابه «تاريخ مصر في عهد محمد علي»، يقول مؤرخا لاقتحام العساكر المصرية والتركية لمدينة ضرما: «وما كاد الأتراك المتلهفون للسلب والنهب، يهزمون آخر المدافعين عن المدينة حتى دخلوا المدينة ونفذوا إرادة قائدهم بسرعة تفوق سرعتهم لو طلب منهم القيام بالهجوم، **فانقضوا على الأهالي يطلقون النار عليهم بغزارة ودخلوا المنازل وقضوا على أهلها**، وقد أنجزوا ذلك خلال أقل من ساعتين، ولم يبق إلا بضع مئات من النساء، والبنات والأطفال الذين أبقت رأفة الجنود بهم على حياتهم، **كان هؤلاء الضحايا المساكين يرون أمام أعينهم جثث آبائهم وأخواتهم وأزواجهم وقد اختلط بعضها ببعض..كانت الدماء تسيل في الطرقات التي كانت تغص بالموتى...**».

ويقول مانجان عن ملاحقة من فرّ من الدرعية بعد إسقاطها: «فقام جنود المشاة الأتراك بملاحقة الفارين ..وأسروا منهم خلقا كثيرا، كان مصيرهم الموت سريعا، **وحملوا إلى قائدهم رؤوس القتلى وآذانهم للحصول على الجائزة المرصودة لذلك**».

وذكر المؤرخ بيير كربتيس في كتابه عن إبراهيم باشا أنه عقد بعد إسقاط الدرعية مجالس للمناظرة بين النجديين ومخالفيهم ولما انتهت المناظرات بانقطاع حجج النجديين أمر جنوده **بقطع رقابهم** جميعا[1].

---

[1] إبراهيم باشا، ترجمة محمد بدران، (ص40)، بواسطة «الوهابية في تقررات القنصلية الفرنسية» (ص47).

ويقول الرحالة ج. فوستر سادلير في رحلته عبر الجزيرة، وهو ممن عايش الأحداث وزار منطقة الصراع بعد سقوط الدرعية مباشرة وشاهد الدمار والخراب الذي لحق بنجد، يقول عن حادثة ضرما أيضا: «استخدم الجنود سبعة أيام كاملة في تذبيح سكان البلد ، وقدمت لهم المكافأة المعتادة ومقدراها أربعة كروانات ألمانية لكل زوج من الأذان».

بل ذكر (اليكسي فاسيليت) في تأريخه للسعودية أن سياسة تقطيع الآذان هذه كانت عادة الجنود الأتراك[1].

وبهذا نرى أن المخالفين والمحايدين للدعوة النجدية يقررون أن غزو العساكر المصرية والتركية لنجد كان غزوا **للكفار** من خلال تقريرات علمائهم! كما نرى إجماع من أرخ لهذه الحرب على بشاعة وفظاعة ما مورس على النجديين من تقتيل وتنكيل، حتى إن سياسة الذبح وتقطيع الرؤوس والآذان تكاد تكون متواترة عند من أرخ لهذه الحادثة من الرحالة الأجانب.

فقُل لي بربك واستفت عقلك وقلبك، أي الفريقين أحق بالأمن! وأي الفريقين أحق أن يكون سلفا للمتوسعين في التكفير واستباحة الدماء بغير حق اليوم.

حال نجد بعد إسقاط الدرعية :

[1] تراجع النقولات وعزوها ونقلها من مصادرها الأصلية في بحثنا: (الإرهاب المسكوت عنه: فصل إسقاط الدرعية).

يبدو لنا من سياق هذا الحدث التاريخي الجلل والمصاب الأعظم ومن النظر في عاقبته أن الجيوش التركية والمصرية التي تحركت بأوامر الدولة العثمانية لم يكن لديها مشروع بناء بل مشروع هدم.

لم يكن لديهم مشروع يقدمونه للنجديين في مرحلة ما بعد الحرب، لا على المستوى الديني، ولا العقدي، ولا الدنيوي ، ولا الوحدوي، ولا شيء.

فبعد إسقاط الدرعية عادت نجد لما كانت عليه من فوضى وفتن وحروب داخلية بين الأسر والقبايل وكثر فيها الاختلاف والاضطراب ونهب الأموال[1].

ويروي لنا ابن بشر حال نجد بعد إسقاطها من قبل الجيوش المصرية والتركية فيقول: وانحل فيها نظام الجماعة والسمع والطاعة وعدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى لا يستطيع أحد أن ينهى عن منكر أو يأمر بطاعة، وعمل بالمحرمات والمكروهات جهرا..وجر الرباب والغناء في المجالس..وعمرت المجالس بعد الأذان للصلاة، واندرس معرفة الأصول وأنواع العبادات، وسل سيف الفتنة بين الأنام..وتعذرت الأسفار بين البلدان، وتطاير شرر الفتن في الأوطان، وظهرت دعوى الجاهلية بين العباد، وتنادوا بها على رؤوس الأشهاد، فلم تزل هذه المحن على الناس متتابعة وأجنحة ظلامها بينهم خاضعة..[2]

---

[1] ابن بشر (1/ 425).

[2] ابن بشر (1/ 426-427)

وانتشر نظام الإسلام، وشتت أنصاره وأعوانه، وارتحلت الدولة الإسلامية; وأعلن أهل النفاق بنفاقهم، فرجع من رجع إلى دين آبائه، وإلى ما كان عليه سابقا من الشرك والكفر[1].

أما الحروب والفتن فعادت إلى ما كانت عليه، وذلك أن أمراء البلدان التي عادت الدعوة كان ابن سعود قد أجلاهم عن نجد، فعادوا مرة أخرى بعد هذه الأحداث، فعادت الحروب بينهم مرة أخرى والقتل وتقاطعوا الأرحام وتذكروا الضغائن القديمة من البغي والآثام فتوثبوا بينهم وقتل بعضهم بعضا في وسط الأسواق ونواحي البلدان، وكان أهل كل سوق وأهل كل بلد يمشون بجمعهم وسلاحهم دائما بالليل والنهار[2].

غادرت أكثر القوات التركية الديار النجدية بحلول سنة 1236هـ، بعد أن تركتها خرابا، وبحلول سنة 1237هـ كانت الحروب قد اشتعلت في أقطار نجد وأطرافها، وتقاتل الناس في وسط البيوت والأسواق[3].

ونسدل الستار..

وقد أظلمت سماء نجد كأشد ما يكون الظلام ..

وانطفأت المصابيح..وساد السكون ..

---

[1] «الدرر السنية» (10/ 451)

[2] ابن بشر (1/ 440).

[3] السابق (1/ 460).

كتب يومها داوتي الأديب والرحالة البريطاني معلّقا على بدء سقوط دولة النجديين:

«لقد أوشكت الحكومة الوهابية على الهلاك، ولا يمكن أن تعاد إليها الروح من جديد..هذا هو الرأي السائد في نجد»[1].

إذن فقد سقطت الدرعية وتهاوى بنيانها وتداعت أركانها..

وقُتل شيوخها وأمراؤها... ووؤدت دعوتها ورسالتها...

سقطت سقوطا لا قيام بعده..

أو .. هكذا كان يظن أعداؤها!!

يا خيل الله اركبي..

مرةً أخرى!!

نسي أعداء الدعوة أن الإمام محمد بن عبد الوهاب يوم بنى دولته لم يبن هياكل وقصورا، تزول بزوال أهلها..

ولم يُقِم مراسم وطقوسا تضيع مع موت رؤسائها..

لا مكان هنا لكيانات سياسية هزيلة تترنح ساقطة مع أول بادرة..

ليست الدولة هنا برلمانات ومجالس شعبية وشورية ووزارات وسفارات..تسقط الدولة بتعطيلها..

الدولة التي أقامها الإمام محمد بن عبد الوهاب كانت أبعد وأعمق من ذلك كله..

---

[1] «رحلات في الصحراء العربية» (2/ 452)، بواسطة الكتاب الفذ «محمد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم مفترى عليه» (ص232).

فقد أقامها أول ما أقامها في قلوب الرجال..وأجراها يوم أجراها في دمائهم..

دولة الشيخ كانت هي الهواء الذي تتنفسه نجد في سمائها..

وهي قطرات الماء الذي يتساقط مع أمطارها..

بل كانت هي الروح التي تدب في جسد ميت فتحييه..

فقد كانت الدولة هي التوحيد..وكان التوحيد هو الدولة..

وأنت إن أسقطت دولةً بمفهومها الشكلي..

فأنى لك أن تطفيء نور التوحيد في قلوب الرجال..

قصة نهاية أعداء الدعوة ومن تكالب عليها

أين الأكاسرة الجبابرةُ الألى

كنزوا الكنوز فما بقينَ ولا بقوا!

من كل من ضاق الفضاء بجيشه

حتى ثوى فحواه لحدٌ ضيِّقُ

(المتنبي)

أما أعداء الدعوة النجدية فقد أودعتهم نجد على هامش الحياة، ثم طواهم التاريخ إلى غير رجعة.

وأما الشريف غالب شريف مكة الذي كان من أهم الشخصيات التي ألّبت العثمانيين والمصريين على قتال النجديين وعاونهم ومالأهم ، فقد أمر الباشا –حليفه بالأمس – بخلعه من ولاية مكة وإحضاره إلى مصر وجردوه من كل ما يملك وضربوا عليه وعلى أهل بيته ذلة عظيمة، حتى قال الجبرتي مؤرخا لهذه الحادثة[1]: «واستولى الباشا على

[1] «عجائب الآثار» (4/ 318 حوادث صفر سنة 1229هـ).

موجودات الشريف غالب من نقود وأمتعة وودائع ومخبآت..ونقود..شيء لا يعلم قدره إلا الله، وأخرجوا حريمه وجواريه من سرايته بما عليهن من الثياب بعدما فتشوهن تفتيشا فاحشا وهتك حرمته، قل اللهم مالك الملك!، هذا الشريف غالب انتزع من مملكته وخرج من دولته وسيادته وأمواله وذخائره، وانسل من ذلك كله كالشعرة من العجين، حتى إنه لما ركب وخرج مع العسكر وهم متوجهون إلى جدة، أخذوا ما في جيوبه **فليعتبر من يعتبر!!**
».

وأما محمد علي والعثمانيون فقد دخلوا بعد إسقاط الدرعية في حروب دموية بينهم فأعاد الله سيوفهم في رقاب بعض..

فسقطت الدولة العثمانية في قلب العالم الإسلامي واستولى محمد علي على ما كان تحتها من الشام والحجاز ومصر وأضاف لها السودان..

ثم طوى التاريخ دولته و الدولة التركية إلى غير رجعة.

وأما إبراهيم باشا فقد أصيب في آخر حياته بالسل .. فكان يتذوق كل يوم مرارة الدم الذي سفكه على أرض نجد الزكية!

وأما محمد علي فقد أصيب بالخرف والجنون في آخر حياته، ولا تدري لعلها دعوة موحِّد مظلوم..

أما الموحدون:

فقد اعترفوا أن ما جرى عليهم كان أولا وأخيرا بسبب ذنوبهم وتقصيرهم..فاستغفروا وأنابوا..

ثم رتبوا صفوفهم مرة أخرى..واستجمعوا قواهم كرةً ثانية..

ومرة أخرى..

ترفع رايات التوحيد.. وتخفق ألوية الإسلام..

ومرةً أخرى نادى المنادي:

يا خيل الله اركبي...**!**

وأضحت دعوة عالمية ..طارت في نواحي المعمورة..

فلو وليت نظرك اليوم قِبَلَ الشرق إلى أقصاه أو قبل الغرب في مداه.. لن تعدم هناك موحِّدا .. لهذه الدعوة وإمامها عليه منَّة**!**

وبعد..فهذه قصة هذه الدعوة المباركة..تستمر عبر القرون ومع تعاقب الزمن..

ويأبى التاريخ أن يسطر لها نهاية إلى اليوم..

كتب: شادي النعمان

تتمات علمية هامة

(1)

ما بعد سقوط الدرعية

اصطلح المؤرخون على تسمية دولة النجديين التي ضمت نجد والحجاز وأطراف العراق والشام واليمن وغيرها، والتي سقطت بسقوط الدرعية (الدولة السعودية الأولى).

والتي حكمها محمد بن سعود، ثم عبد العزيز بن محمد بن سعود، ثم سعود بن عبد العزيز والذي بلغت الدولة أكبر توسع لها في تاريخها في زمانه، ثم عبد الله بن سعود والذي سقطت الدولة في عهده.

أما الشيخ محمد فقد ورث مكانته أبناؤه ومعهم حمد بن ناصر بن معمر **وعندي إعجاب شديد بشخصية هذا الرجل العلمية**، فقد كان بارعًا في مناقشة المخالفين، وأطروحاته متينة غاية، وأعتقد أن شخصيته العلمية لم تأخذ حقها بعد من الدراسة.

ثم ظهرت طبقة أبا بطين التي واكبت حكم سعود بن عبد العزيز أقوى مراحل الدولة، ومن هذه الطبقة سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب صاحب تيسير العزيز الحميد الذي قتله الأتراك في الدرعية، والمطالع لكتابه يعرف أنه من الشخصيات التي برَّزت في علم الحديث، فلديه دراية جيدة بمصادر السنة والمسانيد والمعاجم وأسماء الرجال، وكان هذا العلم شبه معدوم في

الأطروحات العلمية قبل هذه الحقبة، ويبدو أن النجديين كان لديهم نشاط في جمع أصول كتب الحديث والرجال، وهذه الجزئية أيضا مما لم يأخذ حقه إلى الآن من الدراسة.

ومنهم عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب صاحب فتح المجيد الذي قاتل مع جيوش عبد الله بن سعود وكان ممن رُحِّل إلى مصر بعد سقوط الدرعية.

وفي الجملة فقد كانت هذه الدولة نسيجة وحدها من جهة مكانة علمائها وأثرهم في تشييدها ثم توسيعها ثم الدفاع عنها، وقد أعطى محمد بن سعود الشيخَ محمد بن عبد الوهاب عامة الصلاحيات فكان رجل الدولة الأول، وسيرة عبد العزيز بن محمد بن سعود وسعود بن عبد العزيز، تعيد للذاكرة سِيَر قادة الإسلام الكبار، فقد كانوا طلاب علم مجيدين، وكانوا سياسيين محنكين، ومجاهدين شجعان، وكانت لهم دروس علمية يشرحون فيها كتب العقيدة والسنة، وقد أبدى الجبرتي تعجبه من القوة العلمية التي لاحظها في حُكَّام نجد الذين رُحِّلوا إلى مصر بعد سقوط الدرعية وانشغالهم بالعلم وجمع الكتب ومعرفتهم بالفقه ومذاهبه، وغير ذلك مما لم يكن معهودا في باشوات وأمراء زمانه.

الدولة السعودية الثانية:

بعد سقوط الدرعية عادت نجد لسابق عهدها من القتال والفتن بين القبائل، إلى أن استطاع تركي بن عبد الله[1] بن محمد بن سعود إعادة توحيد نجد 1818م، فأنشأ الدولة السعودية الثانية ، ولم تتوسع حدودها خارج منطقة نجد إلا في بعض الجهات الشرقية، ثم حكمها ابنه فيصل بن تركي، ثم عبد الله بن فيصل.

وقد طرأ طاريء جديد في هذه الدولة وهو الصراع السياسي الذي ظهر بين أبناء فيصل بن تركي، وذلك أن سعود بن فيصل خَرَج على أخيه عبد الله، وقد أدى هذا الصراع إلى سقوط الدولة السعودية الثانية 1891م، ومنازعة آل رشيد مؤقتا على سلطة نجد، ليهرب أبناء فيصل بن تركي وينفوا من نجد.

وهذه المرحلة من المراحل التي تستحق التركيز، بدراسة موقف أئمة الدعوة من هذا الصراع، الذي أسمَوه بالفتنة ، وكيفية تعاملهم مع هذه الفتنة، والأدبيات التي طغت على تقريراتهم في هذه المرحلة، وموقفهم من استعانة أحد أطراف الصراع بالعثمانيين وبالقوات الأجنبية، وغير ذلك من مسائل علمية هامة.

أما علماء الدعوة النجدية الذين عاصروا هذه المرحلة فمن أهمهم أبا بطين أيضا وعبد الرحمن بن حسن الذين عادوا للواجهة العلمية بعد قيام الدولة الثانية.

ومن أهمهم عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن، صاحب مصباح الظلام ومنهاج التأسيس، **وعندي إعجاب شخصي بأطروحاته الخاصة بمسائل**

---

[1] يلاحظ انتقال الحكم في ذرية عبد الله بن محمد بن سعود، بعد أن كان في ذرية عبد العزيز، واستمر في ذريته إلى اليوم.

التكفير، وأسلوبه في مناقشة المخالفين، وكان له أثر كبير في التعاطي العلمي مع الفتنة التي حصلت بين ذرية فيصل.

وقد كُتِب لذرية عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب هذا من الحضور العلمي إلى اليوم ما لم يكتب لغيره.

الدولة السعودية الثالثة:

من بَين أبناء فيصل الذين نفوا من نجد: عبد الرحمن بن فيصل، الذي استقر به المقام بالكويت، فبدأ بالترتيب لإعادة دولة أجداده في حدود 1901م، من خلال ابنه عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل الذي نجح في إعادة توحيد نجد ثم ضم الأحساء والحجاز وسائر المناطق التي تقع داخل حدود الدولة السعودية إلى اليوم، واصطلح المؤرخون على تسمية هذه الدولة المستمرة إلى اليوم بالدولة السعودية الثالثة، والتي حكمها أبناء عبد العزيز المذكور.

وهذه الدولة أيضا تستحق الدراسة، والوقوف على ملابسات وظروف قيامها، حيث نشأت في ظروف أكثر تعقيدا من سابقتيها، من جهة الأوضاع الإقليمية والدولية.

كما ظهرت في هذه الحقبة حركة إخوان الأرطاوية ويسمون أيضا بإخوان الهجر، وإخوان من طاع الله، وهي من الظواهر التي تستحق الإفراد بالدراسة أيضا، ونقدها نقدا موضوعيا، وبيان موقف أئمة الدعوة من أفكارهم وآرائهم.

وإخوان من طاع الله هؤلاء من خلال أخبارهم القليلة التي وصلت إلينا لا يستطيع المرء أن يدفع عن نفسه الإعجاب بهم، كيف وقد أعجب بهم حتى الرحالة الأجانب أنفسهم، وقد كانوا على أقسام، وكانت لهم محاسن كثيرة، من أهمها أنهم كانوا قوام جيش الملك عبد العزيز مؤسس الدولة الثالثة والحالية ، ووحَّد بهم نجد والحجاز على أصول العقيدة والتوحيد، وكانوا طلبة علم، ومحبين للتوحيد والخير، إلا أنه وقع لدى بعضهم وليس كلهم حسب أئمة الدعوة الذين عاصروهم خلل في جانبين رئيسين:

الأول: شيء من التنطع والغلو باعتزال الناس ومصالحهم، والبقاء في الهجر، مع الحرص على التميز عن باقي أهل البلاد في زيهم من خلال ربط العمامة بطريقة معينة وهو ما أنكره عليهم أحد أئمة الدعوة كون النجديين في ذلك الوقت وإلى الآن ثيابهم من الثياب العربية وليست أجنبية حتى يتقصدوا المخالفة، مع غلو وشدة في الاختيارات الفقهية وغير ذلك **مما هو ناتج عن إخلاص وحب الخير مع ضعف الحصيلة العلمية.**

الثاني وهو الأهم: بعد أن وحَّد الملك عبد العزيز البلاد النجدية والحجازية، كان هناك تغيرات إقليمية ودولية وحقبة تاريخية جديدة يشهدها العالم والمنطقة في وقتها.

والذي يهمنا منها أن الصراعات بين النجديين وجيرانهم والذي بدأ من أول زمن الدعوة لم يتوقف، وكان على رأس هؤلاء الجبهة العراقية، بسبب الخلاف العقدي العميق، في نفس الوقت كانت بريطانيا قد حضرت في المنطقة العربية عامة والعراقية

خاصة، فعرضت بريطانيا وقف القتال بين العشائر العراقية والنجدية على ألا تتدخل العراق وبريطانيا في شؤون البلاد النجدية والحجازية والعكس، في هذه المرحلة انقسم الداخل النجدي فيما يبدو إلى اتجاهين:

الأول: اتجاه يستحضر ما حصل للدولة السعودية الأولى من تكالب الأعداء من أتراك ومصريين وعراقيين وحجازيين وبريطانيين وفرنسيين، والذي نتج عنه ما شرحناه من سقوط الدرعية بشكل مأساوي، فرأى أن استمرار الصدام مع القوى الأخرى لن يؤدي إلى شيء، وقد يتكرر ما هو أسوأ، فليس من حولهم صديق ولا حليف، والأولى القبول بالعهد والصلح في مثل هذه الظروف وهم في موضع قوة.

الثاني: اتجاه يرى استمرار الأعمال القتالية لإخضاع الجبهة العراقية، ويبدو لي من مجمل الحال أنه كان لا يرى مانعا من الصدام مع بريطانيا وقتالها بل اصطدم حقًّا في حدود اطلاعي، وهذا الثاني هو ما أراده بعض إخوان من طاع الله. وهنا حدث الاختلاف بين الاتجاهين.

أما علماء الدعوة النجدية في هذه الحقبة، فكانوا يرون أن المصلحة هي استمرار الترابط بين الكيانين السياسي والديني الذي بدأ على يد الشيخين محمد بن سعود ومحمد بن عبد الوهاب، ورؤوا أنه في حالة أن الملك عبد العزيز يرى أن الأصلح هو الصلح، فلا ينبغي الافتئات على قراره السياسي، ودخلوا في سجال علمي مع إخوان من طاع الله حول هذا.

والترابط بين الكيان الديني في الدولة المسلمة والكيان السياسي يرجع جذوره في النسخة النجدية إلى الترابط التاريخي الذي بدأت به الدولة.

ويرجع في جذوره العلمية والتاريخية إلى الإمام أحمد بن حنبل وموقفه من الصدام مع الكيان السياسي القائم في العالم الإسلامي وقتها، وقولته الشهيرة (السيف لا أحبه).

ويعود هذا الأمر كله في جذوره الفكرية عند أهل السنة والجماعة إلى فكرة المكونات التي تقوم عليها الدولة، فيرى أهل السنة في تصورهم للدولة خطورة التصادم بين المكون الديني (العلماء وطلبة العلم والدعاة) والمكون السياسي، وخطورة أن ينفرد مكون واحد منها بصدام ما وقد تخلت عنه المكونات الأخرى.

فعندما نتحدث عن نشأة الدولة السعودية مثلا نحن نتحدث عن مكونين رئيسين قامت عليها الدولة (المكون العقدي متمثلا في الشيخ، والمكون السياسي متمثلا في محمد بن سعود)، وعندما نتحدث عن خضوع مراكز القوى في نجد، سنجد ان منها من هو خاضع للمكون الديني لا السياسي أصالة وولاؤه على الحقيقة له، وسنجد من هو خاضع للمكون السياسي ولا يلتفت للمكون الديني وولاؤه في الحقيقة متمحض لذرية محمد بن سعود.

في هذه الصورة عندما تنفرد جماعة دينية كإخوان من طاع الله بصدامٍ ما دون أن يكون لها مكون سياسي يسندها ويحمي ظهرها ويوفر لها نصيبه من مراكز القوى الخاضعة له ويؤمن لها قاعدة تنطلق منها، فقرارا لصدام المنفرد في هذه الحال يكون كالانتحار.

وهذا يفسر أدبيات أهل السنة والجماعة عبر التاريخ، من نوعية الجهاد تحت راية ولي الأمر برا كان أو فاجرا، فمثل هذا يعود في فقهه إلى هذه النقطة، حيث لا يرى أهل السنة الإنفراد براية جهاد الطلب دون كيانهم السياسي ودولتهم.

والناظر لكل التحققات التاريخية لقتال أهل السنة لا يجدهم يقاتلون بدون كيانهم السياسي، فعندما قاتل الصحابة المرتدين كانوا يقاتلون تحت راية أبي بكر، وعندما قاتل المسلمون الخوارج كانوا يقاتلون تحت راية علي بن أبي طالب، وأهل الحديث مع كثرة فتاويهم بحكم الجهمية وأنهم كفار مستوجبين للسيف لم ينفردوا بقتالهم دون ولي أمر، بل لما استطاع الجهمية الوصول لقمة الكيان السياسي العباسي باستمالة المأمون امتنع الإمام أحمد ومن معه عن الصدام مع الكيان السياسي وفضلوا السجن، وأهل العلم لما كفروا الدولة العبيدية وأوجبوا إسقاطها لم يسعوا بأنفسهم لذلك فلا يعرف أن العلماء كونوا جماعات من داخل مصر والمغرب أو من خارج حدود الدولة لإسقاط العبيديين، بل أفتوا بوجوب إسقاطها ثم تولى ذلك صلاح الدين جزاه الله عن الإسلام خيرا فاستوزر لهم ثم خلخل الكيان السياسي للفاطميين وأسقطه من داخله ومحا شعائرهم وكفرهم، وابن تيمية قاتل التتار والرافضة والنصيرية وغيرهم، لكن هذا كله كان تحت راية دولته ولم ينفرد عنها بشيء، ومحمد بن عبد الوهاب لما طرد من العيينة خرج ولم ينصدم مع كيان العيينة السياسي ، ثم لما قامت له إمارة الدرعية دافع عن دولته تحت راية الدولة والأمير محمد بن سعود، وهكذا.

وقرأت بعض المشاركات المعاصرة لبعض المتحمسين المتحاملين على الملك عبد العزيز لرفضه استمرار قتال إخوان من طاع الله مع العراق وبريطانيا، وأظن أن هذا الطرح يكون له وجه لو أن العالم الإسلامي وقتها وضع يده في يد النجديين لتحمسنا كلنا وقتها ولقلنا نعم لَيْتَهُم استمروا ووحدوا الأمة الإسلامية على أصول التوحيد وطردوا الغرب من المنطقة ، لكن هذا خيال، فرافضة العراق مع الشام وزيدية اليمن ومصر محمد علي وأحفاده الفكريون والعثمانيون هؤلاء جميعا هم من شارك في إسقاط الدرعية وسعوا في إبادة الدعوة النجدية فكيف سيحارب إخوان من طاع الله بالنيابة عنهم؟!

والخطاب الحماسي المعاصر أحيانا يفقد البوصلة فلا تعرف ما الذي يريده، ستقاتل بريطانيا في العراق ومن سيحمي ظهرك؟ رافضة العراق؟ الاتجاهات اليسارية في الشام ومصر؟ زيدية اليمن؟

كما اشتهر خطاب حماسي آخر يتحدث عن أن الدعوة النجدية كانت خنجرا في ظهر الدولة العثمانية!! ولم أفهم هذا الطرح، فإيالة تونس وإيالة الجزائر وإيالة ليبيا وإيالة الإحساء خلعت عباءة الدولة العثمانية في وقت مبكر من التاريخ، وإيالة العراق حاولت مرارا خلع عباءة الدولة وكانت تنجح تارة وتفشل تارة، والحجاز حاول أشرافها مرارا خلع عباءة الدولة العثمانية لكنهم فشلوا بسبب التنازع بينهم الذي كانت تستغله الدولة لصالحها فبقيت ولاية شكلية، ثم مؤخرا استقلوا عن الدولة ونسقوا مع الانجليز لإسقاطها وأعلنوا الشريف حسين خليفة العرب فيما عرف بالثورة العربية الكبرى، ومصر محمد علي بعد أن أسقطت الدرعية استقلت عن

الدولة العثمانية وحاربتها في عقر دارها وأخذت منها الشام، والحجاز ونجد وزادت السودان، وعامة المصلحين الكبار الذين ظهروا في رأس القرن يئسوا من الدولة العثمانية وبحثوا لهم عن كيان آخر ومن أشهرهم محمد رشيد رضا، فكيف تغافل هذا الطرح عن ذلك كله ، واتهم النجدي المسكين في الصحراء بأنه خنجر!
الذي ينبغي أن تسأله لنفسها هذه التيارات ما الذي دفع الجميع لخلع العباءة العثمانية بهذا الشكل، لماذا الجميع لم يرَ معها مصلحة لا في دين ولا في دنيا! هذا السؤال الذي لا تحب هذه التيارات الجواب عنه، لأنه يسقط كثيرا من أطروحاتها الخيالية، مما ليس هنا مجال شرحه.

على كل حال من علماء الدعوة النجدية الذين برزوا في هذه الحقبة (الدولة السعودية الثالثة)، أبناء الشيخ عبد اللطيف ومنهم محمد وعبد الله، ومنهم سليمان بن سحمان واشتهر بالردود، وسعد بن حمد بن عتيق ، وعبد الله العنقزي وغيرهم.

ولدراسة تقريرات محمد وعبد الله ابني عبد اللطيف عن إخوان الأرطاوية أهمية خاصة.

واستمر الحضور العلمي لذرية الشيخ عبد اللطيف حيث برّز منهم محمد بن إبراهيم شيخ الشيخ عبد العزيز بن باز أحد أشهر رموز السلفية في العصر الحديث، فهو محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب، فهو حفيد الشيخ عبد اللطيف المذكور.

ومن ذريته مفتي المملكة السعودية اليوم فهو الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف...

ومن ذريته الشيخ صالح آل الشيخ وزير الأوقاف حاليا.

والمقصود:

أن من أراد دراسة تقريرات أو أدبيات أو تراث شخصية من شخصيات الدعوة النجدية يجب عليه أن يكون ملمًّا بالأوضاع الاجتماعية والسياسية المحيطة بزمانه ومكانه، لأن هذا له أكبر الأثر في فهم أطروحاتهم وتقريراتهم، كما قدمناه في مقدمة الكتاب.

(2)

بين النجديين والدولة العثمانية

قدمنا فيما سبق رواية النجديين لتلك الأحداث المؤسفة التي عايشها بعض الجيل الأول وغالب الجيل الثاني من أئمة الدعوة النجدية في غزو نجد وإسقاط الدرعية.

ويحسن بنا هنا أن نسلط الضوء على بعض النقاط الهامة في هذه الأحداث لنصل من خلالها إلى بعض النتائج الهامة.

أ: عندما بدأ الإمام محمد بن عبد الوهاب دعوته للتوحيد كانت نجد تخضع لسلطة الأسر والقبائل المتفرقة، وكان جانبا كبيرا من العالم الإسلامي يخضع لولاية العثمانيين.

ب: كانت المناطق الخاضعة للعثمانيين يُمنع فيها الدعوة للتوحيد ويعد جريمة منكرة!، ولهذا لم يستطع من عرف التوحيد في تلك المناطق أن يدعو إليه، وقد تجلت هذه النقطة الهامة في المراسلات التي جرت بين الشيخ وبعض العلماء في الجهات الأخرى الذين أقروا للشيخ أنه على حق إلا أنهم لا يستطيعون التصريح بذلك لبطش الدولة العثمانية، بخلاف ابن عبد الوهاب الذي صدع بالحق وقيض الله له من الحكام من أعانه.

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب مخاطبا بعض مخالفيه: «أن هذا الذي أنكروا عليّ، وأبغضوني وعادوني من أجله، إذا سألوا عنه كل عالم في الشام واليمن أو غيرهم، يقول: هذا هو الحق، وهو دين الله ورسوله، ولكن ما أقدر أن أظهره في مكاني، لأجل أن **الدولة**[1] ما يرضون وابن عبد الوهاب أظهره لأن الحاكم في بلده ما أنكره، بل لما عرف الحق اتبعه»[2].

وقال : «والذي يصدق كلامي هذا أن العالم ما يقدر أن يظهره، حتى من علماء الشام من يقول: هذا هو الحق، ولكن لا يظهره إلا من يحارب **الدولة**، وأنت ولله الحمد ما تخاف إلا الله»[3].

مع هذا الموقف الحاد الصريح الذي كان يعرفه الشيخ وكل أحد عن الدولة العثمانية لا نجد في تقريرات الشيخ وأدبياته هجوما عليها أو تنقصا من شأنها أو تهييجا وتحميسا ضدها، بل نلاحظ عكس ذلك، فقد كانت ولاية مكة في زمن الشيخ تحت

---

[1] أي التركية.

[2] «الرسائل الشخصية» (ص 32).

[3] «الرسائل الشخصية» (ص33).

إدارة الدولة العثمانية، وكان أشراف مكة خاضعين لولايتهم، ونجد فيما قدمناه من مراسلات الشيخ للأشراف أدبا جما وتقديرا لهم ولعلمائهم وطلب المناظرة والنقاش حول مسائل التوحيد والشرك، وكان هذا هو منهج عامة أئمة الدعوة وموقفهم من الدولة.

ج: أول ما بدأ الاحتكاك بين الدولة التركية والنجديين كانوا هم من بدأ به عن طريق حلفائهم في العراق وقد قدمنا الحديث عن الحلف العراقي، الذي شارك في محاولات وأد دولة التوحيد في مهدها، ثم حاول العثمانيون مرة أخرى عن طريق واليهم على الشام، ثم أخيرا عن طريق مصر وجيوش محمد علي.

وقد قدمنا مرارا أن الشيخ حرص كثيرا على بيان أن عامة الجهات التي اندلع القتال معها الأعداء هم من بدؤوه وليس هم.

د: نقلنا في الكتاب منهج أئمة الدعوة على الأرض في باب السمع والطاعة لولاة الأمور وذلك في تقرير عبد الله بن الشيخ في رده على الزيدي الذي أنكر عليهم عدم الخروج على أئمة الجور، وهنا ملحظ مهم غاية أوجه النظر إليه، وهو أن العثمانيين كانوا يحكمون سيطرتهم على قطاع واسع من العالم الإسلامي في ذلك الوقت، وكانت تلك المناطق يحكمها الولاة العثمانيون أو نوابهم، وكانت الزيدية تطبق عقيدتها في وجوب منابزة حكام الجور والخروج بالسيف على الولاة العثمانيين في مناطقهم كما هو مشهور تاريخيا من الحروب بين الأتراك والزيدية، فهذا الإنكار من هذا الزيدي لا نرى إلا أنه يتوجه إصالةً من الجهة التطبيقية على الأرض إلى الموقف السلبي – في نظره هو– لأئمة الدعوة من الولاة العثمانيين وعدم منابزتهم بالسيف

والتهييج ضدهم مع جورهم وبعدهم عن الشريعة، ومع هذا فقد ردّ عبد الله بن الشيخ على هذه المقالة وبيّن ما قدمناه.

د: عندما بدأت الجيوش بغزو دولة النجديين وبدأ القتال واشتد من الجانبين، لجأ الجانبان إلى الصلح، وفي أثناء الصلح أرسل النجديون رسلهم إلى مصر وألانوا القول لمحمد علي باشا، وذكروه بأن دولتهم من أول أمرها موادعة للدولة العثمانية، وأن عبد الله بن سعود مثلهم، واعتذروا عن سعود بأنه كان يريد من حادثة منع حجيج الشام نصرة الدين لا معاداة الدولة، وأن السبب في تفاقم الأمور هو الشريف غالب حيث قدم معلومات خاطئة لتحريض العثمانيين على النجديين، وذكروه ببعض وزراء الدولة العثمانية الذين زاروا النجديين فأحسنوا ضيافتهم ولم يقع بينهم خلاف[1].

هـ : مع كل ما بذله النجديون من وسائل لتجنب هذا الصراع لما قد يترتب عليه من مفاسد، ومسالمة الدولة العثمانية وموادعتهم كما ترى، نقض محمد علي الصلح وضاعف العدة والعتاد في غزو النجديين، ثم جرت الحوادث العظام التي قصصنا عليك.

و: عندما وصلت الجيوش إلى نجد طلب النجديون الصلح على أن يخلوا لهم ديارهم لإقامة شعائر التوحيد فيها حيث تعد هي المنطقة الوحيدة في العالم الإسلامي آنذاك التي تعلن شعائر التوحيد وتحارب الشرك، إلا أن العثمانيين رفضوا، وأصروا على غزو نجد، ثم إسقاط الدرعية.

---

[1] «تاريخ الجبرتي» (ص244 أحداث 1230هـ).

ز: نكلت الجيوش بعلماء النجديين ورؤوسهم بله عامتهم بالصورة المستبشعة التي رأيت.

ح: كانت تلك الجيوش المصرية التركية التي نكلت بالموحدين هذا النكال على درجة عجيبة من قلة الدين وسوء الأخلاق بشهادة مؤرخي المصريين بل وقادة جيوشهم.

ومن الأهمية بمكان أن ننقل هنا شهادة من المعسكر المصري عن حال الجيوش التركية المصرية التي قاتلت النجديين، وهي شهادة المؤرخ المصري الجبرتي في كتابه «عجائب الآثار»، حيث يقول[1]:

«وفي يوم الأربعاء..برز دبوس أوغلي..ليسافر بعساكره إلى الحجاز وكذلك حسن أغا..ونصبوا خيامهم واستمروا يخرجون من المدينة ويدخلون غدوا وعشيا وهم يأكلون ويشربون جهارا في نهار رمضان ويقولون : نحن مسافرون ومجاهدون، ويمرون بالأسواق ويجلسون على المساطب، وبأيديهم الأقصاب والشبكات التي يشربون فيها الدخان من غير احتشام ولا حياء، ويجوزون بحارات الحسينية على القهاوي في الضحوة، فيجدونها مغلوقة، فيسألون عن القهوجي ويطلبونه ليفتح لهم القهوة ويوقد لهم النار، ويغلي لهم القهوة ويسقيهم، فربما هرب القهوجي واختفى منهم فيكسرون الباب ويعبثون بآلاته وأوانيه، فما يسعه إلا المجيء وإيقاد النار، وأشنع من ذلك أنه اجتمع بناحية عرضيهم وخيامهم الجم الكثير من النساء الخواطي والبغايا، ونصبوا لهم خياما وأخصاصا وانضم إليهم بياع البوظة والعرقي

[1] «تاريخ الجبرتي» (4/ 335-336 أحداث شهر رمضان سنة 1229هـ).

والحشاشون والغوازي والرقاصون وأمثال ذلك، وانحشر معهم الكثير من الفساق وأهل الأهواء والعياق من أولاد البلد، فكانوا جمعا عظيما يأكلون الحشيش ويشربون المسكرات ويزنون ويلوطون ويشربون الجوزة ويلعبون القمار جهارا في رمضان ولياليه، مختلطين مع العساكر كأنما سقط عن الجميع التكاليف، وخلصوا من الحساب، وسمعت ممن شاهد بعينه محمود بيك المهردار الذي هو أعظم أعيانهم .. وهو جالس في ديوانهم المخصوص بالقرب من سويقة اللالا وهو يشرب في النارجيلة التنباك، ويأتونه بالغداء جهارا!! ».

وقال الجبرتي في موضع آخر واصفا أحوال العساكر المصرية والتركية[1]: «وأكثر أتباعهم مفطرون في نهار رمضان ومتجاهرون بذلك من غير احتشام ولا مبالاة بانتهاك حرمة شهر الصوم ويجلسون على الحوانيت والمساطب يأكلون ويشربون الدخان، ويأتي أخدهم وبيده شبك الدخان فيدني مجمرته من أنف ابن البلد على غفلة منه وينفخ فيه على سبيل السخرية والهزيان بالصائم، وزادوا في الغي والتعدي وخطف النساء نهارا جهارا حتى اتفق أن شخصا منهم أدخل امرأة إلى جامع الأشرفية وزنى بها في المسجد بعد صلاة الظهر في نهار رمضان».

وقال في موضع ثالث[2] واصفا تلك العساكر أثناء حربهم للنجديين: «واستباحوا الفطر في رمضان بحجة السفر، فيجلس الكثير منهم بالأسواق يأكلون ويشربون ويمرون بالشوارع وبأيديهم أقصاب الدخان والتتن من غير احتشام ولا احترام لشهر الصوم».

---

[1] «تاريخ الجبرتي» (4/ 357-358 أحداث رمضان 1230هـ).

[2] «تاريخ الجبرتي» (4/ 449).

ويظهر أن هذا لم يكن رأي الجبرتي بل هو رأي عامة أهل الصلاح بمصر، فقد نقل لنا الجبرتي شهادة أحد أكابر حاشية الباشا من العسكر، يقول الجبرتي[1]:

«ولقد قال لي: بعض أكابرهم من الذين يدعون الصلاح والتورع اين لنا بالنصر **وأكثر عساكرنا على غير الملة وفيهم من لا يتدين بدين ولا ينتحل مذهبا** وصحبتنا صناديق المسكرات ولا يسمع في عرضينا أذان ولا تقام به فريضة ولا يخطر في بالهم ولا خاطرهم شعائر الدين ، والقوم [يعني النجديين] إذا دخل الوقت اذن المؤذنون وينتظمون صفوفا خلف إمام واحد بخشوع وخضوع وإذا حان وقت الصلاة والحرب قائمة اذن المؤذن وصلوا صلاة الخوف فتتقدم طائفة للحرب وتتأخر الأخرى للصلاة وعسكرنا يتعجبون من ذلك لأنهم لم يسمعوا به فضلا عن رؤيته».

وفي مقابل هذا التوصيف من مؤرخ مصري ثقة لحال الجيوش التركية والمصرية، نقف على توصيف آخر لنفس المؤرخ ولكن هذه المرة لسفيرين أرسلهما النجديون إلى مصر لطرح مبادرة للصلح بين المعسكرين، قال الجبرتي[2] في وصفهما:

«ودخلا إلى الجامع الأزهر في وقت لم يكن به أحد من المتصدرين للإقراء والتدريس وسألوا عن أهل مذهب أحمد بن حنبل، وعن الكتب الفقهية المصنفة في مذهبه فقيل انقرضوا من أرض مصر بالكلية ، **واشتريا نسخا من كتب التفسير والحديث مثل الخازن والكشاف والبغوي، والكتب الستة المجمع على صحتها، وغير ذلك، وقد اجتمعت بهما مرتين فوجدت منهما منهما أنسا وطلاقة لسان وإطلاعا وتضلعا ومعرفة بالأخبار والنوادرولهما من التواضع وتهذيب الأخلاق**

[1] «تاريخ الجبرتي» (3/ 341).

[2] «عجائب الآثار» (4/ 361).

وحسن الأدب في الخطاب والتفقه في الدين واستحضار الفروع الفقهية واختلاف المذاهب فيها ما يفوق الوصف واسم أحدهما عبد الله والآخر عبد العزيز وهو الأكبر حسا ومعنى».

ولهذا نلاحظ أن الجبرتي في كتابه يصف النجديين بالوهابية جريًا على الاصطلاح السائد في مصر وقتها و الذي وضعه أعداء الدعوة تنفيرا منها، ويؤرخ لمواضع وصول بشائر النصر على الوهابية جرياً على ما يتناقله الإخباريون المصريون.

إلا أن هذه الأجواء القاتمة الظالمة التي عاش فيها الجبرتي لم تغيب عن عينه صورة الحقيقة ولهذا أكثر من نقد أحوال الجيوش المصرية والتركية، والحط عليهم، ويكفيك قوله وهو يؤرخ لمقتل عبد الله بن سعود وأتباعه: **فذهبوا مع الشهداء**[1]**!!**

ط: تركت الدولة العثمانية نجدا بعد تدميرها لحروبها وفتنها فلم يقدموا لهم أي مشروع بديل.

ك: كل هذه القرائن والسياقات التاريخية لما حدث أعطت تصورا وانطباعا لدى بعض أئمة الدعوة بأن ما فعله النظام العثماني الذي كان قائما في فترة الصراع الدموي هذا وتلك الجيوش لا علاقة له بخلاف سياسي أو دنيوي بل هي حرب عقدية صريحة يراد بها إسقاط التوحيد متمثلا في الدولة الوحيدة التي تتبناه، وإعلاء راية الشرك وأهله.

---

[1] «عجائب الآثار» (4/ 467).

ل: مع كل هذا الذي حدث نجد أئمة الدعوة إذا تحدثوا عن الدولة العثمانية في سياق الإيجابيات تصدر منهم تقريرات فيها قدر كبير من التقدير وحفظ مكانتها في قلوب المسلمين، فتأمل في النقل التالي علما بأنه صدر بعد أحداث الدرعية الدموية بمدة:

«والمعهود عن الدولة العثمانية من عهد السلطان سليم ابن السلطان بايزيد من وقت ولايتهم على الحرمين الشريفين من أوائل القرن العاشر إلى وقتنا وأوائل عصرنا هو المبالغة في تعظيم الحرمين الشريفين زادهما الله تشريفا وتكريما ومهابة وتعظيما فلعل هذه الحوادث عن بعض النواب والوزراء الذين لا خبرة لهم بسبيل الرشد والهدى ولا علم لهم بأسباب السعادة والتقى»[1].

م: بقي سياق آخر مهم وقع لبعض أئمة الدعوة، ففي أثناء الدولة السعودية الثانية وقع نزاع على السلطة بين أبناء فيصل بن تركي آل سعود، فكان أن لجأ أحد المتنازعَين إلى الجهة الشرقية وقرر الاستعانة بالعثمانيين على الآخر، في هذا السياق التاريخي المهم وقع نزاع علمي بين بعض علماء الدعوة في حكم هذه الاستعانة فبينما توقف بعضهم، ورأى البعض أنه استعانة سياسية فقط، ورأى آخرون أنه استعانة ببغاة فيقاتَلون وتجرى عليهم أحكام البغاة ، كان من رأي عدد من أئمة الدعوة أنها استعانة محرمة لا تؤول في حالة غلبة الطرف المستعين بهم إلا لإعلاء راية الشرك مرة أخرى ونشر عقائد الشرك وأعماله بين الناس، مستحضرا ما فعلوه بعد إسقاط الدرعية وحال عساكرهم ومؤكدا على رأيه باستعانة الدولة العثمانية بدورها بالغربيين في هذه الأحداث واستعانة محمد علي قبلهم بالنصارى تحت رايتهم، وقتالهم في صف

[1] «مجموع الرسائل والمسائل النجدية» (5/ 294).

واحد، وبنى على ذلك وجوب الاصطفاف مع الطرف المعادي لهم وقتالهم ودفعهم.

ويستحضر القاريء حديثنا في هذا الكتاب عن أوصاف الدور عند أئمة الدعوة وذكرنا أنهم قد يطلقون على بلد ما بلد شرك بمعنى انتصار البلد للشرك وانتشار الشرك فيه، وليس هو بوصف عام للدار ولا وصف لمعيني الدار، فعندما وقعت تلك الواقعة بين ذرية محمد بن سعود واستعان أحدهم بالعثمانيين ، ووُجد من المتنسبين للعلم من أيّد هذه الاستعانة بدعوى أن الاستعانة بالعثمانيين استعانة ببلد مسلم، ظهر في المقابل علماء يُذكِّرون بما صنعه العثمانيون وحلفاؤهم بالتوحيد والموحدين في الدرعية بالأمس كما قلنا، وما يفعلونه اليوم من استعانتهم بالغرب والتجهز لغزو نجد، ليخرِّج على ذلك أن الاستعانة بالدولة في هذه الصورة من جنس الاستعانة بالدول المشركة لا المسلمة، لأن الأمور ينظر لها من جهة الحقائق لا المسميات، ثم التفريع الفقهي على ذلك، وهو حرمة الاستعانة بالدول المشركة فيما تحقق فيه المفسدة.

ومن أهم أئمة الدعوة الذين حضرت هذه الأوصاف في أدبياتهم والذي واكب هذه الأحداث هو عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن ثم ابنه عبد الله رحمهما الله، فالشيخ عبد اللطيف من أشهر من أعلن حرمة الاستعانة بهم، ووجوب قتالهم مع الطرف الآخر، وبيّن مستنداته في موقفه هذا.

ونادى صراحة بالجهاد في سبيل الله بقتالهم.

ومن تقريرات عبد الله في هذا السياق قوله:

«فالواجب عليكم: معشر الرؤساء والقادة من أهل السواحل والبلدان، اتفاق الكلمة بلزوم دينكم، ومجاهدة عدوكم، والتشمير للجهاد عن ساق الاجتهاد، والنفير إلى ذوي العناد، وتجهيز الجيوش والسرايا، وبذل الصلات والعطايا، وإقراض الأموال لمن يضاعفها وينميها، ودفع سلع النفوس من غير مماطلة لمشتريها، وأن تنفروا في سبيل الله خفافاً وثقالاً، وتقوموا بالدعوة لجهاد أعداء الله ركباناً ورجالاً... وهذه الدولة التي تنتسب إلى الإسلام، هم الذين أفسدوا على الناس دينهم ودنياهم، استسلموا للنصرانية، واتحدت كلمتهم معهم، وصار ضررهم وشرهم على أهل الإسلام والأمة المستجيبة لنبيها والمخلصة لربها»[1]

وقال عبد اللطيف منكرا على من وادعهم:

«فأهل الأحساء قد اشتهر حالهم، وأنهم ألقوا السلم إلى عساكر الدولة، واختاروا ولايتهم، وصرحوا بطاعتهم، ونصروهم بالقول، وعاملوهم معاملة الأخ مع أخيه؛ بل جاءت خطوط التجار المترفين أولي النعمة، بتزكيتهم والثناء عليهم»[2].

ويعبر عن رأيه في الاستعانة بهم بقوله:

«إن هذا هدم لأصول الإسلام، وقلع لقواعده..ولا حاجة لنا بعساكر الدولة»[3].

ويذكر باستعانتهم بالغرب المعطلين لنفس وجود الباري[4].

ويقول منكرا لعلماء الطرف الآخر:

---

[1] «الدرر» (8/ 18، 22).

[2] «الدرر» (8/ 376).

[3] «الدرر » (8/ 391).

[4] «مجموعة الرسائل والمسائل النجدية» (3/ 278).

«فلما صدر من عبد الله ما صدر، من جلب الدولة إلى البلاد الإسلامية، والجزيرة العربية، وإعطائهم الأحساء والقطيف، والخط؛ تبرأنا مما تبرأ الله منه ورسوله، واشتد النكير عليه شفاها، ومراسلة لمن يقبل مني ويأخذ عني، وذكرت لكم أن بعض الناس جعله ترسا، تدفع به النصوص والأحاديث والآثار، وما جاء من وجوب جهادهم، والبراءة منهم، وتحريم موادتهم ومواخاتهم، من النصوص القرآنية، والأحاديث الصحيحة الصريحة النبوية.

والقول: بأنهم جاؤوا لنصر إمام أو دين، قول يدل على ضعف دين قائله، وعدم بصيرته وضعف عقله، وانقياده لداعي الهوى، وعدم معرفته بالدول والناس، وذلك لا يروج إلا على سوتسية الأعراب، ومن نكب عن طريق الحق والصواب؛ وأعجب من هذا: نسبة جوازه إلى أهل العلم، والجزم بإباحة ذلك؛ والصورة المختلف فيها مع ضعف القول بجوازها وإباحتها، والدفع في صدرها كما هو مبسوط في حديث " إنا لا نستعين بمشرك " هي صورة غير هذه، ومسألة أخرى.

وهذه الصورة، حقيقتها: تولية وتخلية، وخيانة...»[1].

ويقول: «ثم بلغنا أن الدولة **ومن والاهم من النصارى** وأشباههم، نزلوا على القطيف، يزعمون نصرة عبد الله، وهم يريدون الإسلام وأهله، وحضينا سعودا على جهادهم وغبناه في قتالهم، وكتبنا لبلدان المسلمين بذلك»[2].

وأنكر عبد الله بن عبد اللطيف على الطرف الآخر رأيه بأنهم تجرى عليهم أحكام البغاة فقط[1].

---

[1] (9/ 18).

[2] «الدرر» (9/ 23).

ولما حاول الطرف الآخر تصوير رأيه وأوصافه بأنها مبالغ فيها لأن الدولة العثمانية لها إيجابيات حرص على بيان السياق الذي يتحدث فيه، ومقصوده بهذه الأوصاف وهو أنه يتحدث عن البراءة والجهاد لصنف معين وهم «المشركين من الدولة التركية»[2].

ومن خلال هذا العرض العلمي لما ارتكبه العثمانيون في حق النجديين ودولتهم، ثم السياق التاريخي والاختلاف داخل الدعوة حول الأحداث التي حدثت في الدولة الثانية، ثم محدودية هذه التقريرات الخاصة بأحداث معينة وعن أئمة معينين، يظهر للقاريء أن ما يتهم به البعض أئمة الدعوة من (تكفير الدولة العثمانية)، هذه الدعوى العريضة التي تصور لمن يسمعها أنهم كفروا دولة امتدت زمانيا لقرون وجغرافيا لمساحات هائلة وجعلوها ومن تحت يدها ديار حرب وكفروا أهلها إلى آخر الخيالات هذه! هذا كله كذب لا حقيقة له، بل الذي حدث ما قد صورناه هنا، وهذه الأوصاف التي صدرت من بعض أئمة الدعوة هي أوصاف علمية يبنى عليها أحكام شرعية من جهة الاستعانة وحكم الجهاد ثم أحكام القتال في تلك الحروب، تُصَوِّر رأيه لمن يفهم سياق الكلام الشرعي ومواضع الخطاب.

ومن أراد الاطلاع على انضباط الشيخ عبد اللطيف في أبواب التكفير وسعة علمه فيها فلينظر في كتابه «مصباح الظلام».

ويعجبني جدا تعليق أحد المصلحين الكبار خارج دائرة النجديين، رائد حركة الإصلاح الحديثة في مصر، وهو السيد محمد رشيد رضا رحمه الله، في تعليقه على

---

[1] «الدرر» (10/ 429).

[2] «الدرر» (9/ 291).

هذه التقريرات المذكورة، مشددا على أهمية قراءتها في سياقها التاريخي، يقول[1]: «قد يظن بعض من يطلع على هذا من غير أهل نجد أنه من عدوانهم على الترك بغير حق، **ولكن الواقع أن الترك كانوا هم المعتدين** بسوق عساكرهم إلى نجد وقتال أهلها وتكفيرهم ، وبماذا كفروهم؟! ولماذا قاتلوهم؟! كفروهم بما أحيوه في بلادهم من دعوة الإسلام بالتوحيد الخالص، وإقامة أركان الإسلام كلها وإزالة البدع والخرافات، وإزالة الشرك وجميع المنكرات..وكان النجديون يرون قوادهم يشربون الخمور ويستبيحون الفواحش...» إلخ.

ثم انظر إلى هذا العقل والاتزان من السيد محمد رشيد وهو يكتب خاتمة المجلد الثالث من الفتاوى النجدية التي تضمنت أكثر تقريرات الشيخ عبد اللطيف الخاصة بهذه القضية فقال متمنيا أن لو كان جامع هذه الرسائل من أئمة الدعوة كتب رسالة مستقلة في جناية الأتراك التي ارتكبوها في حق النجديين وفي سياق هذه الأحداث لأن لها أثرا في تصور القاريء المتأخر: «لكانت الفائدة أتم ولاسيما لو كتب لهذا الباب مقدمة تاريخية لخص بها حوادث تلك الفتنة، وانتهاز الترك لها للتدخل في شؤون نجد من باب مساعدة أحد الأميرين على الآخر، ولعله يؤلف لنا رسالة خاصة في ذلك يشرح فيها المفاسد التي حدثت من قبل الترك وأهل البدع والقبائل الهمجية التي سخروها لمساعدتهم فكانت هي السبب لما ألم به الشيخ من الطعن فيهم ليعلم الناس كافة أي الفريقين كان المعتدي وأيهما السابق للطعن في دين الآخر...[ثم أخذ يثني على النجديين وما أقاموه من توحيد وسنة إلى أن قال]: **امتحن الله النجديين**

---

[1] في تعليقاته على «مجموعة الرسائل النجدية» (3/ 180) وهي تعليقات رائقة تستحق الإفراد والدراسة.

بتصدي الترك لعداوتهم وتأليب العرب وشرفاء الحجاز والمصريين عليهم..فحاربوهم باسم الإسلام ونشروا الكتب والفتاوى في رميهم بالكفر والابتداع، وقد اغتر كثيرون بما فعلوه باسم الإسلام وشايعهم عليه أفراد وجماعات هم دون الخوارج الذين خرجوا على الإمام الحق الخليفة الرابع وكفروه أو تبرؤوا منه، ودون الذين بغوا عليه وحاربوه..نعم هم دونهم علما بالدين وعملا به، بل كفرهم وقاتلهم أخلاط منهم المسلم والكافر والزنديق والمنافق وعسكر لا يقيم الصلاة ولا يؤدي الزكاة ولا يحرم ما حرم الله ورسوله من الخمر والزنا واللواط وأكل أموال الناس بالباطل..**بهذا كله كان علماؤهم وأمراؤهم [أي النجديين] في حال تشبه حال مسلمي الصدر الأول في مقاومة المشركين الذين يدعون غير الله ويجعلون لله أندادا** كالذين جاهدهم النبي صلى الله عليه وسلم وفي مقارعة تاركي الصلاة ومانعي الزكاة كالذين قاتلهم أبو بكر، وفي مجالدة البغاة المعتدين كالذين قاتلهم الخليفة الرابع علي، وفي مجادلة المبتدعين من الروافض والجهمية كالذين ناضلهم الإمام أحمد وإخوانه أئمة السنة بالحجة فأعادوا نشأة الإسلام العملية سيرتها الأولى في الصدر الأول من ولاية وبراءة وهجرة وجهاد بالسيف والسنان والحجة والبرهان على حين كانت النصوص الخاصة بهذه الأحوال منسية أو كالمنسية عند غيرهم من شعوب الإسلام ودوله، لا يتعلق بها عمل من الأعمال ولا حكم من الأحكام.

واتفق في زمن العلامة الشيخ عبد اللطيف أن وقعت فتنة وشقاق في شأن الإمارة بين أميرين من آل سعود لكل منهما أنصار وتطلع في عهده ما كان قد قبع من رؤوس

شياطين النفاق، **فبمجموع هذه الحوادث يعلم الشعور الذي كان غالبا عليه أثناء كتابة رسائله هذه.**

فإن كان قد أقام الحجج على وجوب معاداة العساكر التي أرسلتها الدولة لإبطال دعوة التوحيد والتجديد التي قام بها جده الأعلى وأيدها جده الأدنى وأبوه وأعمامه وسائر علماء نجد وأمرائها ووجوب البراءة منهم ومجاهدتهم والهجرة من ديارهم وتحريم موالاتهم ومساكنتهم ومساكنة أنصارهم، فما ذاك بجهاد هجوم ولكنه جهاد دفاع وما هو إلا الاتباع يجاهد الابتداع **وعلى أنه فرّق في عدة من رسائله بين معاملة المشركين المحاربين للمسلمين والمعادين لهم في الدين، وبين غيرهم، وبين البلاد التي يفتن فيها المسلم الموحد ويهان الدين والسنة من حيث يعظم الكفر والبدعة ولا يستطيع المؤمن أن يقيم فيها دينه والبلاد التي ليست كذلك**، وقد حقق هذه المسائل بما لم يحققها غيره فقيد ما أطلقه بعض علمائهم من هذه المسائل ووضع كل حكم في موضعه»، انتهى كلامه.

أقول: ثم ألقت هذه الظلال السوداء بثقلها مرة أخرى على علاقة العثمانيين بالنجديين الذين كانوا يرون تدخلاتهم في الشأن النجدي مجرد سعي لإذكاء الفتن بين العرب في نجد لإضعاف شوكتهم ومنع قيام دولة قوية لهم، ومجرد سعي لإطفاء رسالة التوحيد ودعوته في نجد، وذلك عند تدخلهم لدعم آل رشيد الذين نازعوا ذرية محمد بن سعود في حكم نجد وكانت لهم غلبة مؤقتة إلى أن سعي عبد الرحمن بن فيصل (أبو عبد العزيز مؤسس الدولة السعودية الثالثة) لاستعادة حكم آبائه مرة أخرى، فدخل في صراع مع آل رشيد ودعم العثمانيون هذه المرة آل رشيد

لإسقاط مشروع عبد الرحمن بن فيصل في استعادة دولة آبائه، وكان للنجديين وعلمائهم نظرة سلبية مرة أخرى لهذا التدخل العثماني.

ونستطيع من خلال هذا العرض المختصر لتاريخ العلاقات العثمانية النجدية معرفة سبب الاحتقان الذي ظلل تاريخ علاقاتهم، في أكثر مراحله، حيث كانت تدخلات العثمانيين في نظر النجديين لا يراد منها تقوية شوكة الخلافة الإسلامية العثمانية مثلا، حيث كانت الدولة في أضعف مراحلها التاريخية وكانت أطرافها قد تآكلت، وكثير من المناطق التي كانت خاضعة لسلطانها كانت قد استقلت فعلا وأبقى بعضها على الولاء الاسمي فقط للدولة، ثم إن منطقة نجد لا تمثل إضافة حقيقية لها ولهذا تجاهلتها لزمن طويل، ولا أن التدخل العثماني كان غرضه تقديم مشروع بناء للمنطقة النجدية مثلا، فلو كان لديهم مشروع كهذا لقاموا به بعد إسقاط الدرعية، بل كانت كل تدخلاتهم تهدف لتحطيم الكيان النجدي وضمان عدم قيام دولة قوية في نجد، بإشعال نيران الفتن بين أبنائها، ومن جهة أخرى لإسقاط دعوة الموحدين وشعائر التوحيد والدعوة إليه.

ولا ينفي هذا كله أن أبناء الدعوة النجدية كانوا يحفظون للدولة العثمانية مقامها ويثنون على إيجابياتها لاسيما في عهود قوتها ونصرتها للإسلام كما تقدم في النقولات عنهم في ذلك، إلا أن العثمانيين كانوا هم من اختار هذا الصدام الدموي مع النجديين، ويتحملون في نقدنا تبعاته السلبية على علاقات الدولتين.

وإلا فلو كانت الدولة العثمانية مدت يدها للدعوة وأبنائها ليتولوا واجب تجديد الإسلام ونشر العقيدة الصحيحة تحت لوائها وتنشغل الدولة بحماية الديار

الإسلامية ومقارعة المعتدين لكان الشأن اليوم غير الشأن والحال غير الحال ولله الأمر من قبل ومن بعد.

كما نذكر في هذا السياق ما ذكرناه في فصل تنزيل الأحكام على الأعيان، من أنه بعد تقرير انضباط إمام ما أو مدرسة ما، يكون الخلاف معه في معين أو أكثر وارد ولا إشكال فيه، ومثله يقال في هذه الأوصاف التي أطلقها هؤلاء العلماء في زمانهم في هذه الحادثة، لو أن بعض العلماء المعتبرين المعاصرين لما حدث، المحيطين بجوانب الأحداث كان له رأي آخر، وخطَّأ هذه الأوصاف والتصور التي بُنيَت عليه، فهذا لا إشكال فيه، والأمر فيه واسع، وقد حدث انقسام في الآراء فعلا في هذه الحقبة كما قدمناه، وإن كان رموز المدرسة النجدية من خلال اطلاعي كانوا على حرمة الاستعانة بالعثمانيين، ولعل الطائفة المجوِّزة كانت ترى أن الدولة العثمانية غيرت من سياستها تجاه الموحدين، أو تجاه نجد، أو أنها قطعت وعودا بعدم التدخل في شعائرهم الدينية، أو غير ذلك، وتحقيق هذا ليس له ثمرة كبيرة، لاسيما وأننا لم نعايش تلك الأحداث، ولم نذق ما ذاقه النجديون على يد العثمانيين!
ولا يظهر لي أن هناك فرقا كبيرا بين رأي هذا العالم النجدي وغيره وبين رأي الجبرتي نفسه في توصيفه لعساكر الدولة المصرية والتركية، وقد قدمنا أنه نقله عن بعض خواص العسكر أنفسهم بأنهم كانوا على غير الملة ولا يتدينون بدين ولا يعرفون ما الصلاة !

وهؤلاء العسكروما فعلوه في نجد هم من ربط المذكورون تصوراتهم عن الدولة التركية بأحوالهم.

وأرى أن كل ذلك لا فائدة من استحضاره اليوم، ولا يوجد مصلحة في إثارته، فتلك أمة قد خلت، واستحضار مثل هذا اليوم ليس وراؤه كثير شيء غير إثارة أشجان قد ماتت، فقد جنت الدولة العثمانية على النجديين جناية عظيمة في طريقة إسقاط الدرعية الوحشية وعاملوهم معاملة لا تليق بالإنسان فضلا عن المسلم، وطريقة معاملة عبد الله بن سعود الذي طافوا به في الشوارع ثم علقوه، وهل مثل هذا يُصنع بكافر فضلا عن مسلم؟! ، إلا أن هذا تاريخ مضى وانقضى وتركيا اليوم بلد مسلم آمن أدام الله عليهم خيره، فإن كان حدثت ردة فعل من بعض النجديين فتوسعوا في توصيف حال الدولة فغفر الله له خطأه، وهذا أيضا تاريخ مضى وانقضى.، والمهم الآن أن تتجاوز الدول هذه الأحداث وتطوي تلك الصفحة.

(3)

الحالة الدينية في الدولة العثمانية في زمن الشيخ محمد بن عبد الوهاب بشهادة علمائها

أو

الصحوة (الوهابية !) في السراي العثمانية

أردت أن أُثبِت هنا وثيقة عثمانية غاية في الأهمية، هذه الوثيقة كتبها علماء الدولة العثمانية في زمن الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وأرسلوها إلى سلطان الدولة الغازي عبد الحميد خان الأول، والمولود بعد ولادة الشيخ محمد بسنوات قليلة، والمتوفى سنة 1203هـ، وأثبت عدد كبير من علماء الدولة العثمانية أختامهم على الوثيقة.

تتحدث هذه الوثيقة عن أهم صور الانحرافات الدينية المنتشرة في الدولة والتي كانت –حسب علماء الدولة– السبب الأكبر في انحطاط الدولة وتآكلها ودخولها في دور الضعف والانهيار، والتي ستتسبب في سقوطها إن لم يتم تداركها.

حتى لا يظن القاريء أن ثمة مبالغة في توصيف هذا الجانب من الجهات التي اصطدمت بالدولة العثمانية، ومنها دولة النجديين.

والحق أن الدولة العثمانية وتاريخها قد تناوله فئات من الناس، فمنهم من بالغ في الحط من تاريخها، وبالغ في تشويهه كله، وكان على رأس هؤلاء الاتجاهات العلمانية التي تمثل الفكر الاستعماري داخل المنطقة الإسلامية، لتقوم بشرعنة سعيها في إسقاط فكرة الدولة أو الخلافة الدينية، لأنها شر لا خير فيه.

وقوبلت هذه الفئة بفئة بالغت جدا في تلميع تاريخ الدولة العثمانية كله، فأبرزته على أنه خير لا شر فيه، ويغلب هذا على طرح قطاعات واسعة من أبناء ما يسمى بالإسلام السياسي، لأنها رأت في الاعتراف بسلبيات الدولة العثمانية وهي دولة ترفع شعارا إسلاميا نوعا من الهزيمة الفكرية لمشروعها أو إضعافه على الأقل، ويغلب في أطروحات هذه الاتجاهات لَعِب دور الضحية، وتصوير الدولة العثمانية على أنها الشاة التي تمالأ عليها ذئاب الشرق والغرب.

والذي أعتقده أن النظرة الموضوعية المركبة يجب أن تكون حاضرة في نقد هذه الدولة التي استمرت لقرون من الزمان، عن طريق فرز الجوانب المضيئة في تاريخها وهي كثيرة خاصة في أول أمرها، فهي الدولة التي أعلت رايات الجهاد، وغزت الغرب في ديارهم، وفتحت القسطنطينية ووحدت مناطق واسعة من العالم الإسلامي، وكان لها دور كبير في صد المد الشيعي في حروبهم للصفويين...إلخ

فتفرز هذه الجوانب عن الجوانب السلبية المظلمة وهي كثيرة خاصة في طورها الثاني وازدادت الظلمة في أواخرها، فقد أعطت الدولة العثمانية بعض الدول الغربية الصلاحيات الكاملة داخل أراضيها، وكوّنت هذه القوى الغربية كيانات مستقلة داخل الدولة، فما يُقال من أن أعدائها العرب هم من تحالف مع القوى الغربية ضدها ليس بدقيق، بل تحالف الدولة التركية مع بعض الدول الغربية كان هو الأسبق.

ويكاد يتفق المؤرخون على أن سياسة الدولة العثمانية في طورها الثاني في كثير من دول العالم الإسلامي كانت سياسة ظالمة مجحفة منحازة للعنصر التركي أرهقت الشعوب والمجتمعات في أكثر أطوارها.

وعلى أن الجوانب الاقتصادية كانت متردية في عامة تلك البلدان.

كما أن استيراد بعض القوانين الغربية والحكم بها كان بعض الخلفاء العثمانيين هو مَن سَنَّهُ وخطا الخطوات الأولى نحوه، وما يقال من أن هذه الظاهرة بدأت بعد سقوط الخلافة مغالطة تاريخية.

وأصول الفكر العلماني والليبرالي في العالم الإسلامي نشأ داخل سرايا الخلافة العثمانية تنظيرا وتطبيقا وما يُظَنّ من أنه ظهر أول ما ظهر على يد أتاتورك مغالطة

تاريخية أيضا، كل ما فعله أتاتورك أنه انتقل به إلى مرحلة جديدة أكثر تطرفا، وأحاطت مشروعه عوامل عدة لم تجتمع قبله.

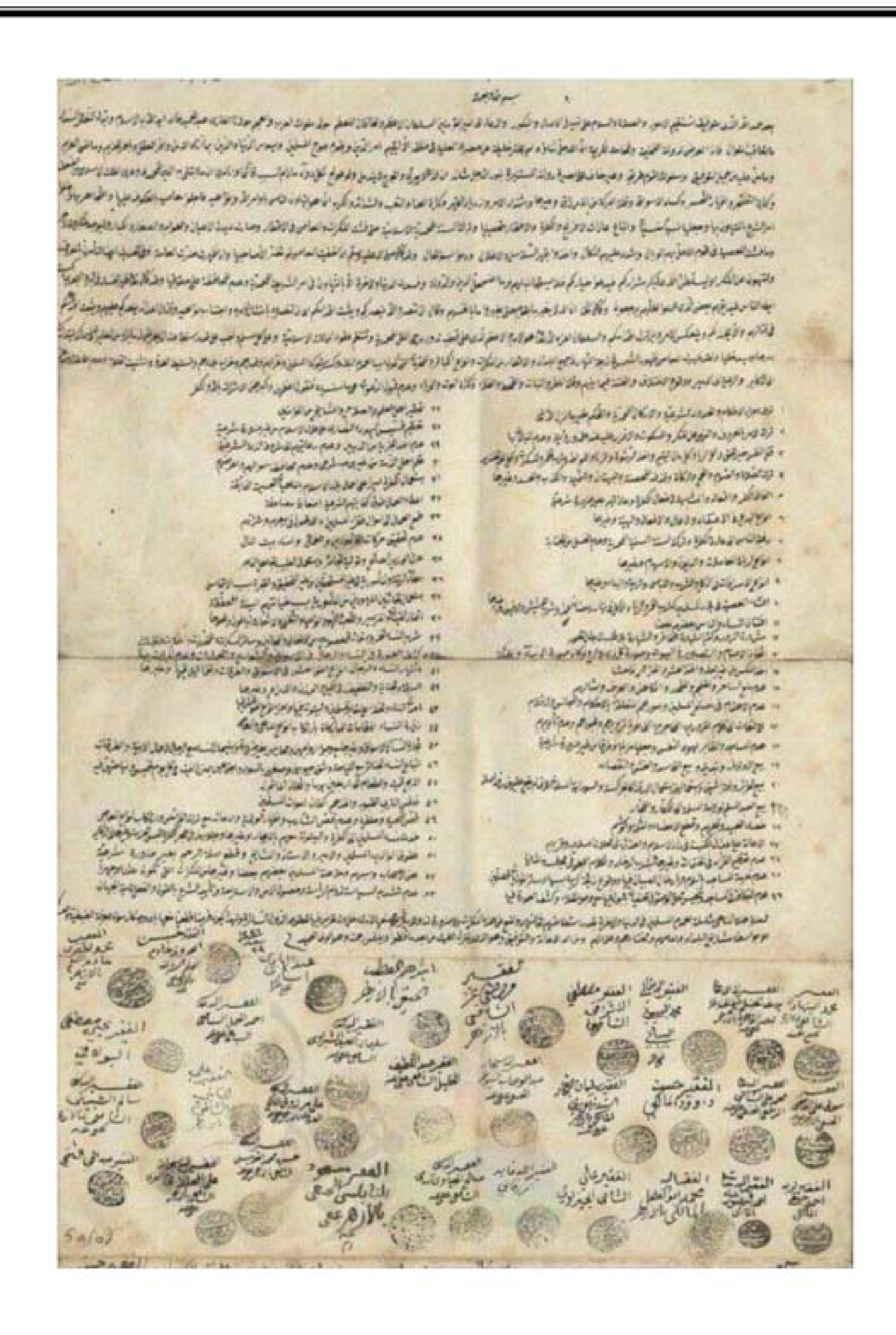
أما الجانب الديني فقد رأينا أن الخلافة العثمانية الإسلامية! كانت في طورها الأخير تُجرِّم الدعوة للإسلام! وسيأتي في الوثيقة التالية صور من الانحطاط الديني داخل الدولة بشهادة علمائها.

وهذه العوامل وغيرها تفسر سبب قيام كثير من المناطق بالاستقلال عن الدولة كما شرحناه، وتفسر لماذا كانت هناك حالة عارمة من السخط الشعبي على الدولة، ولماذا كان عامة رواد الإصلاح في المنطقة العربية قد بلغ بهم اليأس من الدولة العثمانية مداه، ولماذا اتحدت كثير من الرؤى داخل العالم الإسلامي على أن وجود الدولة وعدمه سواء، ولماذا تُحمِّل كثير من الآراء الدولة العثمانية نفسها مسؤولية سقوطها وضياع الخلافة الإسلامية بل وتشويه فكرة الدولة الدينية الإسلامية في العصر الحديث.

من جهة أخرى فإن هذه الوثيقة لولا الأدلة الثبوتية الكثيرة التي تَرَصَّعت بها، لقيل أنها وثيقة وهابية كتبها الوهابية الأشرار!! فهي وثيقة تتحدث عن انتشار الشرك والكفر وألفاظه وأفعاله وعامة الفواحش والكبائر في الدولة.

ولولا هذه الأدلة الثبوتية أيضا لقيل أن السلفية (السعودية)! هي التي كتبتها، كما يعبر من يرى أن السلفية المنتشرة حاليا هي سلفية سعودية وليست سلفية حقة.

فهذه الوثيقة يتحدث فيها علماء الدولة العثمانية قبل قرون عن حرمة الشركيات، والبدع ، والاختلاط، والتصاوير، والغناء والملاهي، وقص اللحية وحلقها، ووجوب الأخذ على أيدي هؤلاء في المجتمع العثماني...إلخ



التعليق على الوثيقة :

تتحدث هذه الوثيقة العثمانية التي أثبت جمع غفير من علماء الدولة أختامهم عليها عن مظاهر الانحاطاط الديني في الدولة العثمانية في زمانهم – وزمن محمد بن عبد الوهاب–، ونذكر هنا باختصار بعض النقاط المهمة:

ترك إجراء الأحكام والحدود الشرعية والأركان المحمدية والحكم بغير ما أنزل الله.

ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..

قتل النفس بغير حق وأكل الربا وأكل مال اليتيم وأخذ الرشوة والزنا واللواط وشرب الخمر والمسكرات وأكل لحم الخنزير.

ترك الصلاة والصوم والحج والزكاة وقذف المحصنة ...

ألفاظ الكفر وأفعاله ومشابهة أفعال الكفرة وعاداتهم بغير ضرورة شرعية.

أنواع البدع في الاعتقاد والأعمال والأفعال والهيئة وغيرها.

رغبة الناس إلى عادة الكفرة.

إفشاء المعصية في بلاد المسلمين كشرب الخمر والزنا والأكل في نهار رمضان ..وشرب الحشيش..وغيرها.

اتخاذ الأصنام والتصاوير في البيوت وصورة كل ذي روح ..

أخذ المكس من غير محله وأخذ العشر والخراج فاحشا.

عدم منع الساحر والمنجم والملحد والكاهن والعراف وأشباههم.

إحداث كنيسة في دار الإسلام.

تحقير أهل العلم والصلاح والمشائخ من المؤمنين.

ظلم أهل الذمة من غير وجه شرعي.

استعمال الكفرة على بلاد المسلمين.

اتخاذ القينات والمزامير واللعب و اللهو والتغني ..

شرب النساء الخمر وسقائه المعصومين من الأطفال والمجانين وسائر المسكرات والمخدرات..

كشف العورة في النساء..

اشتهار النساء والرجال بأنواع الفواحش..

تجارة النساء في الأسواق وغيرها مع وجود أزواجهن ومحارمهن بغير ضرورة، واستئجار النساء مع الرجال بالأعمال..والطرقات.

اتباع النساء الجنائز مع النياحة وشق جيوبهن ..واجتماعهن بمنزل الميت في كل يوم خميس ونياحتهن فيه.

الذبح للميت والطعام إلى أربعين يوما.

قص اللحية وحلقها

خدمة نساء المسلمين إلى الكفرة والبيتوتة معهم بالإيجار وغيرها وجلوسهن في هجر الكفر والفسق..

لعن الأصحاب وسبهم..

إذن فقد كان هناك سعي حثيث داخل الدولة العثمانية من جهة علمائها للقيام بحركة إصلاحية تجديدية دينية، تشابه تماما الحركة النجدية من جهة المباديء والأصول والأفكار بل عامة التفاصيل واحدة، تعيد للدولة سابق مجدها، وهي وثيقة تؤكد ما

ذكرناه في البحث من أنه من الواضح أن تيارا داخل الدولة العثمانية تأثر بالدعوة النجدية، وكان يرى تفعيل دور النجديين في الإصلاح الديني والتكامل معهم ومعاونتهم، إلا أن الدولة اختارت تجاهل نداءات الإصلاح من داخلها بل اختارت خنق هذا الصوت ومحاربة أبنائه وقتل كل أمل للإصلاح.

وقد كررنا قبل أن الدولة العثمانية لو أنها انحازت لهذا الصوت النابع من داخلها ووضعت يدها في أيدي المصلحين من خارجها لتغيرت خارطة العالم الحديث، ولكن لله في خلقه شؤون وحكمة، وله الأمر من قبل ومن بعد.

سؤال مشروع!

من الأسئلة الجيدة التي تطرح في هذا السياق، ما ثبت من آراء بعض العلماء من أهل الاعتقاد الصحيح أو ممن قاربه خارج نجد، ممن عاصر شيئا من العصور الأولى للدعوة، من موافقة الدعوة في الأصول التنظيرية مع اختلافهم معها في حركتها على الأرض وموقفها مع مخالفيها.

وليس هنا موضع رأيي المفصل في هذا ولكن أضع هنا رأيا مجملا.

ورأيي المجمل في هذا السياق هو أهمية ملاحظة القناة التي كانت تصل أخبار الدعوة من خلالها لمن هو خارج نجد، تكاد تنحصر هذه القنوات في رافضة العراق وزيدية اليمن والعثمانيين ومصر محمد علي، فهؤلاء طارت أبواقهم تتحدث في كل مكان عن الكفار الملاحدة الزنادقة مدعي النبوة ، ومن جملة ما ادعوه عليهم أنهم هم من خرج على المسلمين، ومارسوا شيئا مما يمارسه الإعلام الغربي مما يسمى بالإسلاموفوبيا، فمارسوا هم وهّابوفوبيا!، وفي وقت متأخر عندما هدأ الغبار وساد

السكون، وبدأت الرواية الحقيقية لما حدث وكيف حدث تجد طريقها إلى خارج نجد، بدأ الوعي يتصحح شيئا فشيئا ولكن بقيت أبواق المخالفين هي الأعلى، إلى أن أخضع سعود مكة في الدولة الأولى، ثم أخضعها عبد العزيز بن عبد الرحمن في الدولة الثالثة ، في هذه الحقب التي كانت الدعوة تسيطر فيها على قلب العالم الإسلامي، وبدأ الناس يحجون في زمانهم، اكتشفوا أنه لا وجود لمصاصي الدماء الذين كان يتحدث عنهم العثمانيون، ولا مكان للمذؤوبين، الذين كان يتحدث عنهم المصريون والعراقيون، وليس هناك أي أثر لآكلي لحوم البشر، بل وجدوا النجديين بشرا كسائر البشر، يوحدون ويصلون ويضحكون ويمرحون، بل ويحتسون النسكافيه كما يحتسيه سائر البشر!

وبدأت الرواية الحقيقية لما حدث تظهر وتنتشر بين الناس، ولهذا نجد أن المفكرين والمثقفين والعلماء والدعاة الذين خالطو االنجديين في تلك الحقب صدرت منهم ثناءات جليلة جمعها بعض الكتّاب والمؤلفين على النجديين ودولتهم.

ثم أنصح الباحث دائما أن يتأمل في الثمرة، عندما نتحدث عن مصلحين كبار في وقت قريب من الدعوة سنجد أنه كان لهم أثر كبير في سماء الأفكار ولا شك، ولكن في بيئاتهم على الأرض..لا شيء.

علامة ديارنا الشوكاني مثلا لاشك أن أطروحاته الفقهية أحدثت هزًّا عنيفا في سماء الوعي الفقهي، ولكن ما أثر الشوكاني وتراثه ومؤلفاته وتقريراته داخل بيئته الزيدية؟!

لا شيء..صفر..قد لا يكون أثره تجاوز بيته..إلا أن يكون أثَّر في الشخص بعد الشخص..

الصنعاني في نفس البيئة..أحدث هزة عنيفة مثله في سماء الوعي..ولكن داخل بيئته على الأرض.. لا شيء.

ومعهما ابن الوزير والمقبلي صاحب العلم الشامخ والأخير اعتزل بيئته الزيدية ومات كمدًا!!

وهانحن نعاني من غلاة الزيدية في اليمن من حرب إلى حرب ومن فتنة إلى فتنة ومن دماء إلى دماء وصراع لا ينتهي من أكثر من ألف سنة.

صديق خان..له أثر كبير في سماء الأفكار في الهند..ولكن على الأرض..لا نقول أين أهل الحديث في الهند..بل أين المسلمون..لا شيء.

نأتي إلى ابن سعود جزاه الله عن الإسلام خيرا هو وزوجه وعشيرته..وكانت بيئته أسوء من بيئات غيرهم..أحدث ابن عبد الوهاب هزة عنيفة في سماء العقيدة والفكر..وقف إلى جانبه ابن سعود يحمي التوحيد والموحدين..وانظر إلى منجزهم الآن..ثلاثة قرون من التوحيد والأمن داخل بلادهم..وثلاثة قرون من انتشار التوحيد في العالم من أستراليا إلى أمريكا ترجع إلى كتاب التوحيد والقواعد الأربع..

فيحتاج الناظر شيئا من الإنصاف في محاكمة حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وابن سعود على الأرض.

(4)

صراع الأيديولوجيات والموقف من الدعوة النجدية

إن الدارس لأكثر المواقف المعادية للدعوة النجدية في الساحة اليوم، يلاحظ عدم اتزانها وواقعيتها فيما تطرح، من جهة أن عامة المنتقدين للدعوة النجدية وأئمتها ينتمون لمدارس فكرية في الساحة هي نفسها واقعة في أضعاف ما ينتقدون!

من المضحك أن تتهم الزيدية في ديارنا اليمنية وغلاتهم الجارودية الدعوةَ النجديةَ الوهابية! -حد زعمهم- بأنها دعوة سفك دماء! والمناطق اليمنية التي حكمتها الزيدية من أواخر القرن الثالث تعيش منذ ذلك الوقت إلى الآن في بحارمن الدماء التي لا تنتهي، بل الآن وبعد مرور أكثر من ألف سنة واليمن لا يزال يقطر دمًا من أفعال هؤلاء.

من المضحك أن يتحدث هؤلاء عن توسع الدعوة النجدية جغرافيا، وهم قد استحلوا عبر التاريخ مناطق الشافعية وهي عامة مناطق اليمن بدمائها وأموالها بل وأعراضها أحيانا[1].

من المضحك أن يتحدث ليبرالي على شاشات الإعلام المصري عن أن الدعوة النجدية تصادمت مع الخلافة (العصمانية!) -حد تعبيرهم بالعامية الدارجة- مع أن جدهم أتاتورك هو من اقتلع الدولة (العصمانية) هذه من عقر دارها، فلمَ التباكي على الدولة العصمانية إذن!

[1] عن دموية التاريخ الزيدي راجع كتاب عصر الإمامة الزيدية في اليمن لعبد الفتاح البتول.

ومن المضحك أن يتحدثوا عن خروج النجديين على الدولة العثمانية، في حين أن رمزهم التاريخي محمد علي باشا ويسمونه باني مصر الحديثة حارب الدولة العثمانية في عقر دارها وانتزع منها أكثر أراضيها.

من المضحك أن يتحدث الغرب عن الدعوة النجدية ودمويتها، مع أن الحروب التي خاضها النجديون كانت تنتهي بخمسة قتلى أو سبعة أو عشرة وبقيت على هذا سنوات طوال، وبعد توسع الحروب كان القتلى يصلون إلى بضعة عشر، والمتتبع لإحصاءات قتلى الحروب في تاريخ ابن غنام يستطيع أن يحصي ذلك بنفسه.

أما هم فقد قتلوا سبعين مليون إنسان في حرب واحدة وفي سنوات معدودة، ولمصالح تافهة.

من المضحك أن يتحدث بعض جهلة المنتسبين للسنة اليوم عن مراجعات فكرية عرجاء أوصلتهم إلى أن الدعوة النجدية هي المؤسسة لجماعات التكفير، وأهمية نشر هذه النتيجة العوجاء! حتى لا يكون سكوتهم سببا في سفك الدماء المعصومة حسبما يزعم وَرَعُهُم البارد، فما كان إلا أن تلقَّف دعوتهم هذه غلاة الزيدية في اليمن وغلاة العلوية في سوريا وغلاة الليبرالية في غيرهما والأجهزة السيادية في الدول الكبرى فأعملوا في أهل السنة تقتيلا وتشريدا وسجنا تحت غطاء حرب الوهابية التكفيريين الأشرار!، فإن نوقشوا قالوا قد (شهد شاهد من أهلها)، فأنعم به من وَرَع بارد.

الدعوة النجدية وفلسفة التشكيك

((إننا نرفع عقيرتنا بالشكوى

من أننا لا نرى شيئا

مع أننا لو تعمقنا الحقيقة

لوجدنا أننا نحن الذين أثرنا الغبار

ومن ثم أصبحنا عاجزين عن رؤية شيء ما!))

باركلي

ظهر في السنوات الأخيرة في الساحة العلمية، أو بالأحرى الساحة الفيسبوكية، بين الشباب الفيسبوكي المنتسب للسلفية اتجاه يمثله مجموعة من الإخوة الفيسبوكيين المعاصرين، بدأ هذا الاتجاه أطروحاته بنقد بعض الأخطاء الموجودة عند المنتسبين للسلفية، وهو باب نافع يستحق التفعيل، وقد كتبنا فيه بعض الأطروحات، ثم انتقلوا لتضخيم هذه الأخطاء والمبالغة الزائدة في تعميمها، ثم انتهوا إلى تشكيك المنتسبين للسلفية في المدارس التي تمثل مرجعيات علمية عندهم ومنها مدرسة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ثم انتقلوا للتشكيك في أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة نفسه، **دون أن يقدموا هم أية منظومة عقدية متماسكة متكاملة، فقد عجز هذا التيار عن تقديم أي تصوّر مفهوم وواضح عن العقيدة الإسلامية التي يراها صحيحة، فضلا عن بيان**

روّاد هذا الاتجاه عبر العصور إلى الآن ممن وقف على هذا الحق الضائع وبينه للناس.

وكثير من أبناء الاتجاه التشكيكي هذا يعمدون إلى اجترار مصطلحات فكرية أو فلسفية، وهي طريقة نسميها تفخيم الألفاظ وخواء المعاني.

وقد رأيت لقاءً مع أحد مدراء المراكز البحثية الجديدة في السعودية التي تسلك هذا المسلك، حيث سئل عن الجديد الذي يريد المركز تقديمه، فأجاب: أن نضع علامات استفهام؟؟؟

ثم ... ثم لا شيء، فلم أجده زاد شيئا!

ووضع الاستفهامات ثم لا شيء هذا مسلك طفولي وليس بمسلك فلسفي، وكل من رُزِقَ طفلا مرَّ ولابد بهذا النوع من الاستفهامات: بابا لماذا السماء زرقاء وليس العكس، بابا لماذا الصباح نور والليل ظلام وليس العكس، بابا لماذا أنت بابا وهي ماما وليس العكس...

ولما كان هذا الاتجاه داخل السعودية وضع علامة استفهام أمام الدعوة النجدية من جملة علامات الاستفهامات التي وزعها في كل مكان وفي كل شيء، فوضع سؤال : بابا لماذا النجديون طيبون وأعداؤهم هم الأشرار، وليس العكس؟

ناسب أن أنبه على شيء مهم حول طريقة الاستفهام والتشكيك التي يمارسها هذا الاتجاه، وبيان فساد هذه الطريقة ليس على أصول الشرع فحسب بل وأصول الفكر الغربي ومناهج الفلسفة الغربية على سواء.

الذي أريد التركيز عليه في هذا السياق هو خطورة الهجوم غير المرشد على الفلسفة الغربية أوالفكر الغربي واستنساخه في نقد الأفكار الإسلامية، دون فهم للفكرة الغربية أولا، ودون وعي ثانيا بالقدر الذي قد يستفاد منه في إثراء الفكرة الإسلامية إذا سلّمنا أصلا أننا بحاجة له.

اعلم أخي القاريء أن الفارق الذي وضعه الفلاسفة من أقدم العصور بين الشخص العامي و الفيلسوف أو المفكر، أن العامي يُسَلِّم بأفكاره ومعتقداته كما هي، وينظر لما حوله من أشخاص وأشياء نظرة ظاهرية، ويتعامل مع الكون تعاملا سطحيًّا...

أما الفيلسوف فهو مَن (تُقلقه) كل تلك الأشياء...فليس هو كالعامي يُسلم بصورة مباشرة بكل ما يجده في نفسه من أفكار أو معتقدات، بل تقلقه هذه الأفكار ويضع علامات استفهام كثيرة في طريقها، لا ينظر للأشخاص والأشياء من حوله نظرة سطحية بل نظرة انبهار واندهاش تدفعه للتحليل والاستفهام..وهكذا..

بعد هذه المقدمة (عدم التسليم المباشر للأفكار والآراء والمعتقدات..إلخ) يبدأ الفيلسوف بالبحث عن أسس نظرية تدعم أو ترفض تلك الأفكار وو..، ويفتش عن مقدمات نظرية يستدل بها للفكرة أو عليها، وبهذا ينتقل الإنسان إلى مرحلة التفكير الفلسفي..

إنه التفكير من أجل الوصول إلى(معرفة) تلك الأشياء (المعرفة التي شرحناها التي تختلف عن النظرة السطحية للعوام)..

إلا أن هذه المعرفة نفسها يكتنفها غموض وتحوم حولها استفهامات فهل هي ممكنة أم لا، هل لها حدود أم لا، هل هناك طرق يقينية نحوها أم لا، وإذا كان هناك طرق موصلة للمعرفة فما هي تلك الطرق، وهل لهذه المعرفة طبيعة معينة أو صفات تميزها أم لا، إلى استفهامات أخرى كثيرة..

مثل هذه الاستفهامات هو ما دفع الفلاسفة عبر القرون إلى تشييد صرح فلسفي كبير ، يبالغ بعض الفلاسفة في اختزال الفلسفة كلها فيه، وهو صرح (نظرية المعرفة: الابستمولوجيا).

المهم:

أن رأس مباحث (نظرية المعرفة) هذه، وأولها، والقاعدة التي يبنى عليها كل ما يأتي بعدها، و لو سقطت أو تخلخلت فقد سقطت نظرية المعرفة كلها بفصولها وأجزائها، هو مبحث (إمكانية المعرفة)، أو سؤال هل المعرفة ممكنة أو لا؟

انقسم الناس تجاه الإجابة على هذا السؤال إلى قسمين رئيسين ينتظمان مذاهب ومدارس شتى، أما القسم الأول فكان جوابه (لا، المعرفة ليست ممكنة)، والقسم الثاني كان جوابه (نعم المعرفة ممكنة إنما الشأن كل الشأن في طريقة الوصول إليها).

القسم الذي قال (لا ، لا يمكن الوصول لمعرفة أي شيء) هؤلاء عرفوا بالشكاك (scaptiques) نسبة لنزعة الشك (scapticisme) .

ثم كسائر مدارس الفلسفة انقسم هذا الاتجاه إلى عدة مدارس كالفارونية نسبة إلى pyrrhon ومدرسة الأكاديمية الجديدة .

ويتلخص فكر هذه المدرسة في أن الإنسان لا يستطيع الوصول إلى معرفة أي شيء أو أي حكم، مما سيدخله في مرحلة من اللامبالاة لأنه لا يعرف أي شيء عن أي شيء، وهذه قمة السعادة عندهم لأنه علامة على راحة البال حيث لا تحتاج أن تفكر في أي شيء لأنك تعرف مبدئيا أنك لن تصل إلى شيء.

بل هاجم كبار منظريهم ك anesidimus دعوى صدق الإدراكات الحسية، وشكك فيها في حججه المشهورة.

فهو إذن مبدأ **يبدأ من الشك وينتهي إلى الشك**...

وهذا الاتجاه عند أرباب الفلسفة وأرباب العقول من أي ملة ومن أي دين كان وبقي اتجاها مرفوضًا عبر تاريخ البشرية لأنه إنكار لبدهيات وضرب من السفسطة بل هو عينها...بل أصل تدوين علم المنطق على يد أرسطو جاء كإثبات تهافت هذا الاتجاه، فقد دوّن علم المنطق لإثبات أننا قادرين على الوصول إلى المعرفة...**إلى أن جاء فلاسفة الفيسبوك فأحيوا هذا الاتجاه .**

أما الاتجاه الآخر فهو الذي أجاب عن سؤال (هل المعرفة ممكنة) بالإيجاب، فقال نعم المعرفة ممكنة، ولكن الشأن كل الشأن إنما يكون في الطرق التي

توصلنا إلى هذه المعرفة، فهذا هو مجال البحث وساحة النزال، لا إمكانية المعرفة من عدمها فهذا أمر لا يناقش فيه عاقل.

وبناء على ذلك بدأ الفلاسفة في تقعيد طرق المعرفة واختلفوا في هذا إلى مذاهب شتى ولا يكاد يمر عصر من عصور الفلسفة إلا ويثور رواد العصر التالي على بعض ما قعده السابقون، إلا أن كل هذه المذاهب عبر التاريخ مجمعة على أمر واضح، وهو أن غاية هذه الطرق هو (الوصول إلى المعرفة) وإلا لَما كان ما قدموه فلسفة من قريب ولا من بعيد.

من بين عشرات أو مئات الطرق والمذاهب والمدارس أريد أن أنبهك على مدرستين هامتين في هذا الباب:

الأولى: المدرسة التوكيدية اليقينية، ومنتسبها يلقب بالدوجماطيقي (dogmatique) نسبة إلى النزعة التوكيدية (dogmatism

في هذه المدرسة يبدأ الفيلسوف فلسفته منطلقًا من أن آراءه وأفكاره ومعتقداته صحيحة لا يتداخلها شك وخطأ، ودون دليل كافي -عند الآخر-على صحة هذه الأفكار والمعتقدات، وتكون دائرة تفكيره ونقده وتحليله خارج دائرة أفكاره ومعتقداته هذه، لأنها ليست عرضة للنقد عنده.

المدرسة الثانية: هي مدرسة (الشك).

وهنا ستستوقفني فتقول لقد ذكرنا مدرسة الشك قبل قليل في الاتجاه الأول؟

سأقول لك:

اعلم أخي أن الشك عند الفلاسفة له أقسام وأصول هذه الأقسام ترجع إلى قسمين رئيسين كبيرين، أما القسم الأول فهو المرفوض من أهل العقل والفكر والفلسفة على مر التاريخ وفي كل العصور ومن كل الملل والأديان، وهو ما شرحناه سابقًا في الاتجاه الأول، وهو الاتجاه الذي يتمي إليه الشكاك قديما.

هذا المذهب يسمى باختصار: (البدء بالشك والانتهاء إليه) ولهذا يطلق على هذا المذهب من مذاهب الشك عند الفلاسفة بـ(الشك المذهبي) لأن الشك يكون مذهبا لازمًا للشاك، مهما طرحت عليه من أصناف المعرفة فهو شاك فيها أبدا.

أما النوع الآخر من الشك، وهو المعتمد عند بعض المدارس الفلسفية العريقة والحديثة (وهي طريقة سقراط التهكمية الشهيرة) فهو (الشك المنهجي) ، ووصفه بإيجاز (أن نبدأ بالشك لكي نتهي إلى الحقيقة..إلى المعرفة..إلى النظرية) لا أن نتهي إلى شك آخر.

فهذا المذهب يجعل الشك مجرّد منهج عقلي منطقي يتوصل من خلاله إلى (المعرفة)..فهو مجرد وسيلة مؤقتة وليس غاية في نفسه.

ولهذا فقد حرصت المذاهب الفلسفية التي جددت روح الشك المنهجي هذا على التفريق بين الشك والأوهام المجردة ، فحذر فرانسيس بيكون مما يسميه بـ (أوهام المسرح idoles theatri) ويصفها بأنها مجرد أوهام تضلل عقل

الفيلسوف، ثم جاء ديكارت فوضع أسسا لهذا الشك، كل هذه الجهود حتى لا يفقد الشاك البوصلة فيخرج عن دائرة الشك المنهجي إلى دائرة الحيرة والتيه.

إذن فالفيلسوف اليقيني (الدوجماطيكي) والشاك (الشك المنهجي) كلاهما متفق على أن ثمة منظومة معرفية يقينية هو ما يجب أن يقدمه الفيلسوف وإلا لما كان ما يمارسه فلسفة أو فكرًا، إنما الخلاف في منهجية إثبات تلك المعرفة، فبينما الدوجماطيكي يكتفي بكون هذه المنظومة المعرفية هجمت مسبقا على عقله وقلبه وهذا يكفي في كونها معرفة عنده فيبدأ مباشرة بالتفكير فيما هو خارج عن هذه المنظومة، يخالف الشاك في هذا فيقول يجب أولا أن نقوم بالبرهنة على صحة معتقداتنا وأفكارنا، فيمرر أفكاره على أصول الشك المنهجي ليخرج في النهاية بمنتَج معرفي أيضا..ولكنه (مبرهن)..في نظره.

ولهذا فإنك تجد أن أرباب مدرسة الشك المنهجي هذه قدموا نظريات معرفية كبرى للفلسفة بعد أن مرروا أفكارهم بمرحلة الشك، ولولا هذا كما قلت لك لما كان ما يمارسونه فكرا بإجماع العقول.

الذي يحدث عند المدارس المنتسبة للعقل والفكر والتنوير زورًا كبعض الفيسبوكيين المذكورين وبعض المراكز البحثية السعودية الجديدة، أنهم يهجمون هجوما غير مرشد على الفكر الغربي أو الفلسفة الغربية ليجتروا مصطلحات يبهروا بها القاريء العادي، وشعارات يظن أحدهم أنه صار من خلالها فيلسوفا مفكرا كشعار ديكارت الشهير (أنا أشك إذن فأنا موجود) وقد

أشرت لك قبل قليل مراد ديكارت بالشك وكيف أنه وضع له أسسا منهجية، أقول يأتي أبناء هذه التيارات قبل حتى أن يستوعب أحدهم هذه المصطلحات أو تلكم الشعارات على أصول أصحابها، ثم يعود إلى عالم الفيسبوك وجماهيره بتلكم المصطلحات والشعارات ليخبط خبط عشواء باسم التفكير والفلسفة، فلا أنه وظفها حسب أصول البحث الشرعي، ولا حتى على أصول أرباب العقل والفلسفة .

والشك والتشكيك هو أهم ساحات هذا الخبط عند أبناء هذا الاتجاه، فبينما رد العقل البشري عبر القرون منهج (الشك المذهبي) ورفضه ووصفه بكل أوصاف النقص والهرطقة، تستيقظ في أطروحات هؤلاء على ممارسة متكاملة الأركان للشك المذهبي ، لا في فروع فقهية بل في العقائد الإسلامية الكبرى.

لذا ينبغي لمن أراد أن يمارس التشكيك، أن يتذكر دائما أمرين:

أ: أن الشك مجرد مدرسة من عشرات المدارس في طرق المعرفة عند الفلاسفة وقد حدث خلال تاريخ الفلسفة عدة ثورات على هذا الطريق، ولكن عامة ما يسمى بالمفكرين العرب أو المثقفين لا يعرف إلا طريق الشك فحسب فهو ملازم لوصف الفكر والفلسفة لديه لما يحدثه هذا الطريق من اندهاش وانبهار عند القاريء العادي، والاتجاه الفيسبوكي المذكور لا يختلف عن ذلك، ولكن هنا تأتي النقطة الثانية.

ب: إذا كنت مصرا على اختيار طريق الشك، يجب عليك أن تعرف أولا ما هو نوع الشك الذي قبله الفلاسفة وصححوا ممارسته في طريق المعرفة (الشك المنهجي)، وتحذف من ذهنك الشك المرفوض عند عامة العقلاء (الشك المذهبي) .

النقطة الثانية التي أود التنبيه إليها أنه لا يستقيم في أصول الشرع والعقل الشرقي والغربي أن يقفز الشخص للتشكيك في عقائد الآخرين وأفكارهم ورؤاهم قبل أن يكوّن هو قاعدة من العقائد والأفكار والرؤى المبرهنة لديه القادر على إثباتها، لأنه إنما يشكك الآخرين في معتقداتهم ليردهم إلى معتقده هو الذي يعتقده حقا.

وكان هذا الأمر واضحا عند سائر المدارس الشرقية والغربية.

إلى أن ظهر اتجاه الفيسبوكيين المعاصرين فعمد في تشكيك المتسب للسلفية في السلفية وأصولها وفي أهل الحديث ومدرستهم وفي ابن تيمية وفكره وفي ابن عبد الوهاب وتراثه وفي كل شيء، ولا نجد إشكالا في ذلك كله إلى هنا، إنما الإشكال هو : إذا كان كل ذلك خطأ فما هو الصواب إذن، هنا يتوقف الفيسبوكي المعاصر ليرميك في صحراء التيه والحيرة ثم لا شيء.

وقد لاحظ ابن تيمية هذا الخلل الفكري لما قال عن الآمدي: (وأبو الحسن الأمدي في عامة كتبه هو واقف في المسائل الكبار، **يزيِّف حجج الطوائف ويبقي حائراً واقفاً!!**)[1].

ولما قال : (ولهذا تجد أبا حامد في مناظرته للفلاسفة **إنما يبطل طرقهم ولا يثبت طريقة معينة**)[2].

ولما قال أيضا: (وحكي لي أن بعض الأذكياء.وكان قد قرأ علي شخص هو إمام بلده ومن أفضل أهل زمانه في الكلام والفلسفة، وهو ابن واصل الحموي. أنه قال: **أضطجع علي فراشي، وأضع الملحفة علي وجهي، وأقابل بين أدلة هؤلاء وأدله هؤلاء حتى يطلع الفجر، ولم يترجح عندي شيء..**)[3].

التوحيد والتعصب المذهبي

مما ينبغي التنبيه إليه أيضا ظهور اتجاه في الساحة العلمية الحالية يُريد إعادة طلبة الفقه الإسلامي إلى نقطة الصفر التي انطلقوا منها قبل مائة سنة تقريبا، وهي التعصب للمذاهب الفقهية.

وينبغي التفريق بين اتباع مذهب من المذاهب فهذا شيء لا نعرف من ينكره، بأن يتبع الرجل مذهب قومه أو بلده في الفروع الفقهية اتباع المتبصر المسترشد، مع توطين النفس

---

[1] درء التعارض (1/ 162).

[2] درء التعارض (1/ 163).

[3] درء التعارض (1/ 165).

على الخروج عن رأي المذهب في حق نفسه إذا ظهر له قوة رأي آخر من الآراء الفقهية، وتوطين نفسه على سعة الأمر فإن كان مفتي البلاد الموثوق مثلا أو المؤسسة الدينية الرسمية في بلده لها آراء تخرج بها عن المذهب فلا إشكال في الأخذ بذلك، وهكذا.

أما التعصب المذهبي فهو تنزيل المذهب منزلة الدين الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وعلامة ذلك هو تحريم الخروج عنه قيد أنملة، فيكون المذهب كسجن لا مجال لك أن تبرحه مادمت حيًّا لأنك لست أهلا لتركه.

على كل حال دعوة التعصب المذهبي هذه ولَّت من غير رجعة، وزهد الناس فيها، وانحسر التفقه في العالم الإسلامي بالاتباع المذهبي الواسع دون إنكار على متبعي المذاهب الأخرى، ودون إشكال في الخروج عن المذهب في مسألة واثنتين وعشرة، إلى جانب طريقة الاختيار التي كانت سائدة في القرون الأولى وعُرف بها ثلة من أهل الحديث قديما وأحياها الشوكاني حديثا.

ثم ظهر في الساحة حاليا اتجاه ينتسب لعقيدة السلف ولكنه يرى تقديس المذاهب على وجه التعصب المشروح، وأراد إحياء التعصب المذهبي ولكن بطريقة جديدة ولفَّة طويلة يتصالح بها مع سلفيته، فقرر أنه يرى حرمة التعصب المذهبي مثلنا، ويقرر أن الأمر واسع كنحن!، ولكن هناك شروط وضوابط للخروج عن المذهب.

فلا يجوز الخروج عن المذهب البتة إلا بعد أن تأتي بهذه الشروط، وخلاصتها أن تتقن أولا أربعة متون في المذهب حفظا ودراسة وإتقانا على شيخ معتمد ثم شيخ ثم شيخ.. ثم تتقن خمس حواشي على هذه المتون دراسة تدبر وتفكر وتمعن على شيخ عمدة ثم شيخ ثم شيخ.. ثم تدرس على كل حاشية حاشية أخرى ثم حاشية ثم حاشية.. ثم تنتقل إلى الكتب المتوسطة في المذهب فتتقنها.. ثم تجرد مطولات المذهب جردا علميا متقنا.. ثم تنتقل إلى إتقان الأصول الفقهية على طريقة العراقيين ثم على طريقة الخراسانيين ثم على

طريقة الفلانيين.. ثم تنتقل إلى علم الأشباه والنظائر الفقهية فتستوعبه وتتقنه إتقانا بالغا..ثم تنتقل إلى القواعد الفقهية فتتقنها قاعدة قاعدة.. ثم تنتقل إلى علوم النحو فتتقنها على طريقة البصريين وعلى طريقة الكوفيين.. ثم تنتقل إلى علوم اللغة فتتحوَّل إلى سيبويه عصرك..ثم تنتقل إلى تفسير الأحكام.. فتتحول إلى طبري زمانك.. ثم تنتقل إلى أشياء كثيرة لا أذكرها ، ثم تختبر نفسك عند شيخ عمدة ثم شيخ ثم شيخ ، فإن لم يجيزوك -وهو ما سيحدث- فعليك أن تعيد دراسة خمسة متون فقهية مع حواشيها وتبدأ اللغة من أول وجديد، فإذا ما نجحت في تجاوز هذه الشروط تستطيع وقتها أن تخرج عن مذهبك في سُنة من سنن الوضوء! أو في هيئة من هيئات الصلاة!!.

وغالبا ما سيكون هذا على فراش الموت أو ستسجله في وصيتك قبل أن تفارق الحياة بأنك وانت تنازع ظهر لك قوة رأي الحنابلة أو المالكية في طريقة تكفينك وترى رجحان مذهبهم على مذهب قومك.

الشاهد الذي يهمنا في هذا البحث أن هؤلاء الإخوة وهم ينتسبون للمعتقد الصحيح، طُرِح عليهم استشكال حاصله أن عمدة المذهب الفلاني جوَّز الاستغاثة، ومتأخري المذهب الفلاني جوزوا كذا وكذا من المخالفات الشركية، فما الذي أعطاك أحقية الخروج عن معتمد المذهب في الاستغاثة وغيرها وأنت لم تنجز بعد هذا البرنامج العلمي الفذّ الذي حرمت الخروج عن معتمد المذهب إلا بعد الانتهاء منه وهو ما قد يستغرق سبعين سنة، وأنت لاتزال في ريعان الشباب والفتوَّة.

هنا أسقط في أيديهم ووقعوا في حيص وبيص وضربوا أخماسا في أسداس، واعتزلوا الفيسبوك كما اعتزل جهم الناس بعد مناظرة السمنية، وبعد تمام الأربعين يوما أو الخمسين، رجعوا إلى الفيسبوك بفتح عظيم مؤدَّاه أن القول بحرمة الاستغاثة قول وجيه في المذهب وإن لم يكن هو معتمد المذهب، لكن يسعهم الخروج عن هذا إلى هذا!

فانبرى لهم بعض المتخصصين في المذهب وبيَّن لهم أن الخروج عن معتمد المذهب هذا ليس نزهة! بل له شروط أيّ شروط وضوابط أيّ ضوابط ودونه عقبات أيّ عقبات.

وكيف يسمحون لأنفسهم بالخروج عن معتمد المذهب في أصل الدين وهو أظهر شيء في الوجود مع أنهم يحرمون الخروج عن معتمد المذهب في أخفى الفروع الفقهية إلا بعد إنجاز ذلك البرنامج؟!

وكيف يتصور أن يكون العالم الفلاني الذي هو معتمد المذهب ضابطا لفهم فروع المذهب الفلاني ولا يعرف عقيدة إمام المذهب نفسه، وهل هناك أظهر من نصوص الاعتقاد، فمن لم يضبطها فمن باب أولى أنه لن يضبط فهم الفروع فكيف يكون عمدة إذن؟!

فدخلوا في حيص بيص جديد، واعتزلوا وجاؤوا بفتح جديد مؤداه أنهم بعد النظر في طرق الترجيح بين تخريجات الأصحاب وسادة المذهب وبعد أن استعرضوا الطريقة الخراسانية ونزلوها على الطريقة العراقية وطرحوا منها الطريقة البغدادية وأعملوا علم الأشباه والنظائر الفقهية، ومحصوا القواعد تحصل لديهم أن الخروج عن معتمد المذهب وجيه في مسألة الاستغاثة.

ولعمري إن الفريق الذي ألزمهم بالمكوث بين أسوار سجنهم الذي ألزموا الناس به والبقاء بين هالات القداسة والعصمة التي صنعوها لمعتمدي المذهب والسادة الفلانيين لمحق، ولعمري إن هذه مهزلة جديدة أن يناقش دين رب العالمين وتوحيد الأنبياء والرسل بهذه الطريقة، ولعمري أن الطحاوي لما قال: المقلد دابة تقاد، لم يبرح الحق قيد شعرة!

وما ضرهم لو علموا الناس من أول الأمر اتباع المذهب اتباع العاقل المتبصر الباحث عن الحق وتركوا عنهم تقديس الأحبار والرهبان ذاك.

هب أن سادتك لم يُخلقوا ، وهب أن مذهبك بكله لم يوجد، أكانت تتوقف دورة الأفلاك، ولا يعرف التوحيد إلى قلوب الناس سبيلا؟

أكان يتعطل نوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف والأسباط وموسى وعيسى عن دعوة الناس لدعاء الله وحده إلى أن يُخرِّج لهم السادة التوحيد وحرمة الشرك على معتمد المذهب أو يخرجونه على آراء الأصحاب؟!

ومن فهم هذا فهم لماذا كانت مدارس التجديد العقدي على مرّ التاريخ لا تقرر في هذا الباب إلا الاتباع المتبصر لمذهب بلا تعصب ولا قداسة ولا عصمة وتربط الناس بالكتاب والسنة ابتداء أما أقوال فلان وعلان فتبقى وسائل للفهم ويجب أن تبقى وسائل حيث هي، كما نجد ذلك في حالة ابن تيمية وابن القيم والمدرسة النجدية، ولهذه الأخيرة تقريرات رائقة غاية في هذا الباب، لعلي أتفرغ لجمعها وشرحها.

ويفهم أيضا لماذا تواكبت حركة التصحيح الفقهي في العصور المتأخرة مع حركة التصحيح العقدي لما خلعوا عباءة تقديس المذاهب الفقهية والتعصب لها بدءا بالمقبلي صاحب العلم الشامخ، ثم ابن الوزير صاحب العواصم، ثم الصنعاني صاحب السبل، ثم الشوكاني صاحب النيل، فهؤلاء جميعا عندما قرروا تصحيح وعيهم الفقهي تصحح وعيهم العقدي تلقائيا وبدؤوا يحسنون عقائدهم شيئا فشيئا ، والعكس من صحح وعيه العقدي منهم تصحح وعيه الفقهي تلقائيا، ولهذا رمى هؤلاء جميعا ربقة الضلال العقدي الذي نشؤوا عليه والتعصب المذهبي الذي تربوا فيه كلًّا على السواء، ولن يستطيع الإنسان تصحيح عقيدته وهو يقدس أقوال الرجال.

التعليق على مقال الأستاذ الدكتور حاتم العوني (توحيد العبادة)

ينبغي أولا التنبيه على أن مناقشة الأستاذ الدكتور لا يلزم منه التنقص أو ما إلى ذلك، ومشاركات الدكتور العلمية والحديثية غنيَّة عن التعريف، وله كتاب مشهور سلك فيه مسلكا فريدا في سبر أحاديث الراوي للترجيح في حاله أو سماعاته، وهو مسلك كان قد خُتم بالحافظ ابن عدي في كتابه العجاب الكامل في ضعفاء الرجال، وله أطروحة مميزة في تثبيت الاسم الصحيح للكتاب التراثي استفدت منه كثيرا في أعمالي، وغير ذلك من أعمال انتفعنا بها وتلمذنا عليها.

إذا تمهَّد هذا فقد كنَّا عتبنا على الأستاذ الدكتور وصفه لكل من يقدر الدعوة النجدية وأئمتها ويحترمهم بالدواعش الساكتين عن الحق، ومن أظلم الظلم أن يدعشن! المرء خلقاً لا يحصون كثرة، لرأي ارتآه قد لا يكون غيره رآه من نفس الزاوية، أو لفهم فهمه هو أو لتصور ارتسم في ذهنه لا يلزم أن يكون شاركه فيه الآخرون.

نعم لا يحصون كثرة فالدعوة النجدية دعوة عالمية تجاوزت الحدود والبحار، وكتب الله لإمام الدعوة من الحب والقبول عند الخلق ما لم يكتب لغيره، وكتب لكتابه التوحيد على سهولة عبارته ما لم يكتب لغيره من الانتشار، ولطلبة العلم في مشارق الأرض ومغاربها تقدير للعلماء المعاصرين الذين يمثلون امتدادا للدعوة النجدية، ولا يحصى هؤلاء كثرة، وقد كنت قبل سنتين أو ثلاث في رحلة إلى جاكرتا عاصمة أندونيسيا، وأقيمت محاضرة للشيخ الفاضل عبد الرزاق البدر في أكبر مساجد الدولة وكنت هناك وحضر هذه المحاضرة حسب الاحصاءات الرسمية قرابة ربع مليون شخص، وكان حديثا لمحطات الأخبار المحلية والدولية التي تَعَجَّبَت من أين خرج هؤلاء! هذا عدد من استطاع تغطية نفقة السفر للعاصمة وإلا فأضعاف هذا العدد كانوا يتمنون الحضور لولا ضيق ذات اليد.

وقد ظهر هذا الحدث في أندونيسيا كونها دولة تتمتع بحرية سياسية كبيرة، وإلا فباقي الدول لو سُمِح فيها بمحاضرات علماء السعودية وسمح للناس بالحضور لظهر من هؤلاء أضعاف.

في هذه الحالة ينبغي للعالم أن يتريث ويتعقَّل في طريقة هجومه لمخالفيه فيصحح الخطأ إن وجد دون أن يقطع الطريق أمام الحق الكبير والخير العميم الذي يستفاد من هذه المدرسة.

وقد كان من جملة مسالك الإمام ابن القيم في كتابه المدارج التلطف بالعبارة جدا مع أبي إسماعيل الهروي مع خوضه في كثير من أبواب التصوف بغير طريقة أهل السنة، ومن جملة الأسباب التي ذكرها ابن القيم لاختياره هذا الأسلوب هو القبول الواسع لأبي إسماعيل وتَقَدُّمه وتقديره عند جماهير الصوفية بل جماهير الناس في زمانه.

وابن تيمية أيضا مَن تتبع المواضع التي يتعرض فيها لشخص الإمام أبي الحسن الأشعري لا يجده إلا مقدرا محترما له لجملة أسباب من أهمها القبول الواسع الذي كُتِب لشخص أبي الحسن، أما عند مناقشة الأفكار فيحق له أن يبدي ما يراه.

إلا أن هذا كله قد هان عندما اطلعتُ بعد ذلك على مقال للأستاذ الدكتور بعنوان (توحيد العبادة) خلُص فيها إلى أن عبادة القبور ليست من الشرك الأكبر بل هي بدعة، ولا تكون شركا إلا إذا اقترنت عقيدة المرء باعتقاد شيء من خصائص الربوبية في معبوده وعلى وجه الاستقلال.

وأثار في نفس المقال أو غيره – أكتب من ذاكرتي لأني في سفر- مسألة أن المرء يقوم احتراما لأبيه ويذبح للضيوف وغير ذلك من هيئات مشتركة تُصنَع عند القبور وبين الناس، فكيف يناط الشرك بمثل هذا الظاهر المشترك، وكيف نميز بين هذا وهذا بمجرد الظاهر.

ومثل هذا يحتاج مصنفًا مستقلا للإجابة عنه، ولم أصنف كتابي لمثل ذلك، بل أكتبه لمن يتفق معنا في الانتساب لأصول أهل السنة والجماعة والانتساب للمدارس الحديثية عبر التاريخ.

لكن ينبغي أن يعلم المسترشد شيئا هنا يكون كالمدخل له وباختصار:

أولا: ينبغي أن يُعلَم أن الله أوجد الخلق يوم أوجدهم موحدين، وفطرهم يوم فطرهم على فطرة التوحيد، ونطقت قلوبهم مذ نطقت بحب الله وحده وخشيته وحده ورهبته وحده ورجائه وحده ودعائه وحده...

ثم بدأ الانحراف يدب بعد ذلك في الأمم ، ومع ذلكم الانحراف فقد بقيت جميع الأمم وبقي كل البشر تنازعهم نوازع تعود بهم إلى فطرتهم الأولى وتذكرهم بما كانوا عليهم يومَ كانوا.

ولهذا مع كل الانحراف الذي أدخلته البشرية على تصوراتها إلا أنها بقيت على شيء واحد لم تستطع أن تغيِّره من عقولها أو تزيله من قلوبها وهو فكرة أن الكون وُجِدَ عن مُوجِدٍ واحد، هو الذي أوجده وحده لا غيره.

عند فلاسفة اليونان كانوا يسمونه (العلة الأولى) وقد يسميه بعضهم العقل الفعال -بناء على اختلاف في تفسير نصوص أرسطو-، وعند الهنود جعلوه (براهما)، ويسميه المجوس النور، وعند النصارى بعد التحريف جعلوه الأب، وهو هو عندنا الله الواحد الأحد.

أجمعت البشرية على الموجِد الأول ولم يخرج عن إجماع البشرية هذا إلا نفر قليل من الفلاسفة الطبيعيين، وكانوا مرفوضين حتى بين الفلاسفة المشهورين الكبار وعلى رأسهم المشائين أصحاب أرسطو والسجالات بينهم كثيرة، وبقي هذا الرأي مندثرا وسيبقى مندثرا ولو حاول بعض المعاصرين إحياؤه وعلى رأسهم ستيفن هوكينج عالم الفيزياء الشهير،

وريتشارد دوكنز عالم البيولوجي المعروف، بالإضافة إلى المجوس الثنوية الذين قالوا بإلهين، ولكن إله الخير عندهم أيضا واحد ويسمونه النور، أما إله الشر ويسمونه الظلام فمنهم من يجعله مخلوقا للأول ويقولون بأنه حدث من فكرة رديئة للنور! فرجعوا لفكرة الإله الواحد، ومنهم من يقول أنه إله مع النور.

لكن بقي هؤلاء ندرة في البشرية، وعموم الخلق من قديم على أن الكون وُجِد عن موجد واحد.

بعد أن اتفقت البشرية على ذلك اختلفت تصوراتها في مسائل نذكر منها مسألتين رئيسيتين:

أ: هل الأفلاك وُجِدت في الأزل مع الإله الواحد الذي أوجدها وهو قول الفلاسفة المشائين ومعهم الفلاسفة المنتسبين للملة كابن سينا مع إدخال تعديل شكلي، جعل ابن رُشْد يهزأ به، وهو ما يعرف بمسألة قدم العالم[1] عند المشائين، ويعرف بالواجب بغيره الممكن بنفسه في دين ابن سينا، أم أنها حادثة.

ب: التدبير، بمعنى هل تدبير الأفلاك وما فيها يقوم به هذا الموجد الأول أم أنه أوكل التدبير لغيره.

فبينما رأت بعض طوائف البشرية أن التدبير أوكله الموجد الأول لغيره، كما هو مقالة عامة الفلاسفة الذين قرروا أن الموجد الأول لا يمكن إسناد التدبير له، بل أسند ذلك لشيء انبثق منه ويسمونه العقل الأول وجعلوا العقل الأول هو المدبر للخليقة، ومنهم من جعل المدبر هو العقل الثاني واختلفوا على هذا النسق إلى العقل العاشر.

---

[1] تنبيه للمتخصص: مسألة قدم العالم وقدم الأفلاك تختلف اختلافا جذريا عن مسألة تسلسل الحوادث بالنوع (لا بالعين) في الأزل، فقد وجدت من يخلط بينهما وهو خلط فاحش.

ودين الهندوس حسب بعض تفسيرات الفيدا -كتابهم المقدس - قد يرجع لنفس الفكرة حيث تصوروا الإله براهما مفكرا وانبثق عن تفكيره براهما ثان والثاني هذا هو الذي أوكل إليه التدبير.

إلا أن طوائف أخرى من البشرية رأت إسناد تدبير كل شيء للموجد الأول فكونه أوجد كل شيء لازمه أن كل شيء من أمر التدبير بيده.

هذا المبحث مبحث الإيجاد والخلق والتدبير هو مبحث موجود في كل أطروحات الفلاسفة الإلهيين والهندوس والمجوس وكل الخليقة وليس هو بدعة وهابية كما قيل لك، ولكن الوهابية هؤلاء وشيخهم ابن تيمية يسمونه بـ(مبحث الربوبية) وهو مصطلح علمي يقرب الباب، أخذه العلماء من اسم (الرب) لأن هذا هو الاسم الثابت للموجِد الأول.

ومبحث تسمية هذا الموجِد الأوحد هل هو العلة الأولى كما عند الفلاسفة أم هو واجب الوجود كما في دين ابن سينا أم هو براهما كما عند الهندوس أم هو الأب كما عند النصارى بعد التحريف، أم هو الرحمن الرحيم الملك القدوس، هذا المبحث أيضا ليس مبحثا وهابيا تيميا بل هو مبحث موجود في كل الفلسفات والملل واصطلح العلماء بتسميته بمبحث الأسماء والصفات.

ثانيا: إذا تمهَّد ذلك فإن البشرية بعد اتفاقها على موجِد واحد، واختلافها في باب التدبير، عندما قررت أن تتخذ إلها لرغبتها ورهبتها وحبها وتعظيمها وخضوعها وذلها ودعائها وتوكلها ورجائها، اختلفت في أشياء كثيرة ولكنها اتفقت على أمر واحد، وهو أنه لا الموجد الأول ولا المدبِّر على الحقيقة سيكون إله رغبتها ورهبتها هذا ، والسبب في ذلك أن هذه كلها غير محسوسة لا تُرَى، قالوا: وغير المحسوس لا يتوصَّل إليه إلا من خلال عالم المحسوس.

فاتجهت طوائف من البشرية إلى صناعة أوثان بيدها تكون رموزا لأعظم المخلوقات كالأفلاك، والتي هي عندهم رموز لعظمة العقول من العقل الأول إلى العاشر حسب اختلافهم في المدبِّر، والتي هي بدورها رموز للموجد الأول، وآلهة اليونان تعود إلى هذه الفكرة.

واتجهت طوائف أخرى لاختيار مخلوق عظيم كالشمس يجعلونه رمزا لعظمة الموجد الأول لأنها أعظم الأدلة عليه، أو رمزا للمدبر عند بعضهم.

وفضَّل آخرون الكواكب، وآخرون القمر، وهذا كان منتشرا في القوم الذين أرسل إليهم إبراهيم عليه السلام.

ومنهم من عبد الشمس والقمر معا وجعل الأولى رمزا للمدبر العلوي، والثاني للمدبر السفلي.

واختار غيرهم الأرض التي خلق منها كل شيء، وغيرهم الشجر ومنهم الحجر.

كما وقع اختيار أقوام على الصالحين فرأوا أن الصالحين من ذرية آدم عليه السلام هم اولى شيء بالتعظيم والحب والرغبة والرهبة والدعاء لا الشمس ولا القمر، كونهم أقرب للموجد الأول منهم، فهم قادرون على إيصال مطلوباتهم، ولكونهم يسمعونهم بعد الموت لا كالشمس والقمر والحجارة والشجر، واتخذوا أوثانا لهؤلاء الصالحين ترمز لهم.

كما يحدثنا القرآن عن قوم نوح الذين يمثلون الطلائع الأولى في انحراف البشرية و يحدثنا القرآن أنه وقع اختيارهم على التوجه للصالحين بالعبادة كما تواتر في تفسير قوله تعالى (وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا).

إذن فقد أجمعت البشرية على اتخاذ وسائط محسوسة تتوجه لها بالحب والخضوع والذل والرغبة والرهبة والخشية ترمز هذه الوسائط لمخلوقات عظيمة وهذه بدورها هي التي

ستتولى المطلوب في عالم الغيب مع العقل الأول أو الموجد الأول أو المدبر على الحقيقة أو سمه ما شئت.

عندما انحرفت البشرية في تصوراتها هذه أرسل الله تعالى الرسل بالإسلام ليوقظوا الفطرة الأولى ويدعوا الناس إلى تصحيح تصوراتهم ومفاهيمهم في أربعة مرتكزات رئيسة:

أ: التوجه إلى الموجِد الأول بالعبادة وحده لا شريك له وأنه هو وحده المستحق للتأله والخضوع والعبادة والحب ..إلخ، فخاطب البشرية من خلال الرسل بـ(اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) لأن البشرية كما قدمنا كانت مقرة بوجوده ولكنها انحرفت بالدرجة الأولى في التوجه له وحده بالعبادة بل كان هو سبحانه غايتهم الأخيرة ومعبودهم على الحقيقة لولا أنها رأت أنها لا تصل إليه إلا عبروسائط محسوسة، ولهذا احتل هذا الأمر بعبادته وحده المساحة الأوسع في دعوة الرسل، بل هو الأصل الثابت فيها لأن الخلل في التوجه للموجد الأول (الرب) هو الخلل المشترك بين جميع المشركين في كل زمان ومكان، أما ما دون ذلك فقد اختلفت فيه تصوراتهم ما لا يحصى.

ب: كما قام الرسل بتقويم خلل من وقع في خلل في تصوراته عن الربوبية والتدبير ببيان أن الكون خلق بعد عدم، وأن أمر الخلق والإيجاد والتدبير كله بيد الله سبحانه وحده، واحتل هذا الأمر مساحة تأتي بعد الأمر الأول لأن مساحة الخلل فيه كانت أضيق من الخلل في الباب الأول.

ج: وصحح الإسلام مفاهيم الناس حول اسم هذا الموجد الأول، فعلمهم أنه الله الرحمن الرحيم الملك القدوس العزيز الجبار..إلخ.

د: كما صحح تصورات البشرية عن الغيب، وجعله الركن الأصل في حياة المؤمن، وذلكم لأن نسيان البشرية لعبادة ربها والتوجه للوسائط المحسوسة لم يأت إلا من جهة ضعف إيمانهم بالغيب الذي لا يُرى فتعلقوا بما يرونه من حولهم.

هـ: ثم بين الإسلام للناس كيف يعبدون الله وحده لا شريك له.

ولهذا كانت هذه هي مرتكزات إيمان المرء ودخوله في ملة الإسلام: أن يصحح تصوره في باب العبادة والتألُّه والخضوع، وأن يصحح تصوره في باب الخلق والتدبير، وأن يصحح تصوره في باب الإسماء والصفات، وأن يصحح تصوَّره في الإيمان بالغيبيات (أركان الإيمان)، وأن يقر ويلتزم بوجوب العمل عليه (أركان الإسلام العملية) وأن إيمانه مرتبط بعمله وجودا وعدما وزيادة ونقصا.

ولهذا أيضا كانت هذه مرتكزات الخروج من الملة عند المسلمين، والخلل في أي مرتكز منها يأتي على الإيمان كله بالنقض.

فمن لم يعتقد وجوب التوجه والتأله لله وحده (خارج الملة) ولو لم يختل عنده إلا هذا الباب.

ومن لم يعتقد بأن المخلوقات وجدت بعد عدم، وأن الله هو الخالق الرازق المدبر وهو خالق الأسباب والمسببات وكل شيء تحت مشيئته وإرادته (خارج الملة) ولو لم يختل عنده إلا هذا الباب.

ومن لم يعتقد ثبوت شيء من الأسماء الحسنى والصفات العلى لله تعالى (خارج الملة= كالجهمية المحضة).

ومن لم يعتقد بالملائكة..بالنبيين..بالبعث..بالقرآن..سواء الركن بكامله أو بعضه (خارج الملة) ولو كانت باقي التصورات في العبادة والخلق مستقيمة عنده.

وهكذا...

صحَّح الرسل التصورات والمفاهيم وعبدوا الناس لربهم وحده، ومن جملة الخلق الذين أرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين العرب، الذين تصححت تصوراتهم ومفاهيمهم في

باب الألوهية والربوبية والأسماء والصفات والأعمال ، على يد إبراهيم عليه السلام ثم ابنه إسماعيل.

ثم عندما بدأت العرب الانحراف مرة أخرى مع جملة البشرية التي انحرفت مرة ثانية عن أمر ربها بقي عندها تصوراتها في الربوبية على الاستقامة التي تلقتها من الأنبياء الكرام وهو ما يحدثنا عنه صريح القرآن في قوله تعالى: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ.اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) .

ولا يستغرب المرء من استقامة أمر الربوبية لديهم فقد تلقوا هذا من جملة ما تلقوه عن ملة إبراهيم عليه السلام.

كما بقي عندهم بقايا من الأسماء والصفات كما يحدثنا المؤرخون عن اشتقاق اسم (العُزَّى) من اسم الله تعالى (العزيز).

كما بقي عندهم بقايا من باب الأعمال أهمها تعظيم البيت الحرام وبقايا من شعائر الحج.

بل يرى بعض رواة تاريخ الأصنام أن كثيرا من أوثان العرب إنما أُخذت من تعظيم البيت الحرام في الأساس!

يقول الكلبي في كتابه الشهير الأصنام[1]:

((وحدثنى أبى وغيره "أن إسماعيل عليه السلام لما سكن مكة وولد بها أولاده، فكثروا، حتى ملؤوا مكة، ونفوا من كان بها من العماليق ضاقت عليهم مكة، ووقعت بينهم الحروب والعداوات، وأخرج بعضهم بعضا، فتفسحوا فى البلاد والتماس المعاش، **فكان الذى حملهم على عبادة الأوثان والحجارة: أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجرا**

[1] كتاب الاصنام مشهور مطبوع ولكنه ليس بين يدي الآن فنقلت النص بواسطة إغاثة اللهفان لابن القيم 2/ 963 ط.المجمع.

من حجارة الحرم، تعظيما للحرم، وصبابة بمكة. فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالبيت، حبا للبيت وصبابة به، وهم على ذلك يعظمون البيت ومكة، ويحجون ويعتمرون، على إرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. ثم عبدوا ما استحسنوا ونسوا ما كانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم غيره، فعبدوا الأوثان، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم، واستخرجوا ما كان يعبد قوم نوح عليه السلام منها على إرث ما بقى من ذكرها فيهم وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل، يتنسكون بها من تعظيم البيت والطواف به، والحج والعمرة والوقوف على عرفة والمزدلفة. وإهداء البدن مع إدخالهم فيه ما ليس منه وكانت نزار تقول في إهلالها:

لَبَّيْكَ الّلهُمَّ لَبَّيْكْ ... لَبَّيْكَ لاَ شَرِيكَ لَكْ

إلا شَرِيكٌ هُوَ لَكْ ... تَمْلكُهُ وَمَا مَلَكْ..

ويوحدونه بالتلبية، ويدخلون معه آلهتهم، ويجعلون ملكها بيده))

إذن فقد كانت العرب باقية على شيء ليس باليسير مما تلقته من ملة إبراهيم، إنما دخل الانحراف عليهم في باب الدعاء والرغبة والرهبة والخشية فاختارت أن تعلق قلبها بالصالحين تارة وبالأحجار تارة وبالأشجار تارة، وجاء القرآن يدعوهم إلى عبادة الرب الذي يعترفون بأنه الخالق لكل شيء الرازق لكل دابة .

ومع انحراف العرب في هذا الباب إلا أنها كانت تمر بلحظات يقظة توقظ داخلها فطرتها الأولى وتذكرها بملة إبراهيم وعهده الذي تركه فيهم، تنفض كل شائبة عن قلوبهم، وتهز ضمائرهم هزًّا عنيفا، فإذ بقلوبها تتعلق بخالقها وحده تدعوه وحده ترجوه وحده تخافه وحده ، وهو ما يحدثنا عنه صريح القرآن في مثل قوله تعالى: (حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ).

ولكن الموج يهدأ ، والعاصفة تطمئن، والأقدام تستقر على اليابسة ، والقلوب تنسى، والفطرة تدخل في سبات عميق :

(فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ)

من خلال هذا العرض المختصر لشيء من تاريخ انحراف البشرية وتصوراتها يفهم إن شاء الله مجوِّزو عبادة القبور في القديم والحديث، لماذا يستحيل ويمتنع أن يُثبِتوا أن البشرية التي انحرفت في باب الدعاء والعبادة كلها واحدا واحدا كان لديه خلل في باب الربوبية لأن الخلل المشترك بين البشرية كلها في هذا الباب إنما كان الإعراض عن التوجه للموجد الأول (الرب) بالعبادة.

ولو قيل هذا في البشرية بعامة فإن مشركي العرب الذين أرسل لهم الرسول صلى الله عليه وسلم بخاصة لا يمكن أن يثبت هذا في حق كل واحد منهم، لأنه لو كان لديهم خلل حقيقي في الربوبية لما وحدوا الله في الفلك في ربوبيته وفي إلهيته جميعا وفي كل شيء!

وعرفوا أيضا لماذا يستحيل ويمتنع أن ينيط الأنبياء والرسل ضابط الشرك والإشراك والمشركين بمثل هذا، في هذه الحالة كان من المفترض أن يستفصل الأنبياء من أقوامهم الذين يتوجهون للشمس والقمر والحجر والبشر بالدعاء والتألُّه ويطلبون من كل واحد واحد أن يُبيِّن خفايا قلبه وما وراء معتقده هذا، فإن صرّح بأن عنده خللا في الربوبية وضعوه في خانة المشركين، وإن ثبت أن خلله في العبادة فقط وضعوه في خانة المبتدعة! ثم توجهوا للقسم الأول بأن يعبدوا الله وحده، وتوجهوا للقسم الثاني بأن يتركوا عنهم البدع والحوادث.

ومن خلال العرض المختصر لشيء من المعتقدات الفلسفية والغنوصية[1] المتعلقة بالموجِد الأول، يعرف القاريء إن شاء الله أن هذه المباحث الدقيقة الخفية إنما تقتصر على منظري

[1] الغنوصية أو العرفانية تطلق على مجموعة الأفكار والمعارف والتصورات التي قامت عليها الديانات القديمة أو ما اقتبس منها.

الشرك والكفر في كل ملة، وهم قلة، أما عامة المشركين الجهلة وهم القاعدة الأكبر فلا يعرفون شيئا من هذا، إنما نشأ أحدهم يوم نشأ والناس متواطئون على أن من توجه للشمس أو الحجر أو الشجر أو القبر أو الضريح بطلب كشف الضر أو جلب النفع فإن المجرَّب المتواتر أن هذا ينفعهم، أما كيف ينكشف الضر أو يأتي النفع أو يُرزق الولد فهذا تذهب تسأل عنه عند المنظرين.

وإلى الآن عامة الوثنيين من الهندوس والأفارقة والصينيين وغيرهم لو سألتهم عن الأصنام والأحجار التي يتوجهون لها بالدعاء لن تسمع جوابا واضحا ولن يشتركوا في جواب واحد،

ولن تصل معهم إلا إلى نفس الفكرة، أن هذه الآلهة وقفت إلى جانبهم في السراء والضراء وما سألوها إلا أجابتهم، أما كيف ومتى وأين ولماذا، فهذا تذهب تسأل عنه عند شيخ المعبد!

وهكذا عبدة القبور والأضرحة لن تسمع منهم إلا مثل هذا، وهذا هو الجهل الذي كان عليه عامة المشركين في كل زمان ومكان والذي لا يعذر فيه ولا يمكن أن يعذر فيه وإلا لما وجد مشرك على وجه الأرض إلا ثلة قليلة من المتفلسفين، بخلاف ما يقرره المتوسعون في مسائل الإعذار.

أما ما ذكره الأستاذ الدكتور من تشابه قيام عباد القبور مع قيامك لأبيك احتراما!

فهذا لا أدري ماذا أقول فيه:

هل يختلط على عقل عاقل أو في نظر ناظر وهو يرى بالمخالطة أو بالفضائيات الهندوس والبوذيون والكنفشيوس والصينيون بمختلف مللهم ونحلهم ووثنيو الأفارقة والبهرة الإسماعيلية وعباد القبور وهم قائمون خاشعون خاضعون باكون منتحبون ساجدون

أمام شيفا وغانيشا وكريشنا وفيشنو وغيرها من أوثان الهنود أوأمام شانج دي وغيره من أصنام الصينيين والفيتناميين وشرق آسيا وأمام أصنام أهورامازدا الزرداشتية ، وبنفس قيامهم وانتحابهم وخشوعهم وخضوعهم وانحنائهم يقف عباد الأضرحة يعرف هذا من ابتلي برؤيتهم، هل يختلط شيء من هذا بصورة قيامك احتراما لأبيك؟!

هل تختلط صورة الذبح والذابح يصيح بأعلى صوته هذا لله وهذا لابن علوان أو للبدوي، هل تختلط هذه الصورة بصورة استضافتك لأحد أصدقائك على خروف مندي أو حنيذ؟!

هل تختلط صورة دعاء الحسن والحسين وفاطمة وزينب والبدوي وابن علوان في السراء والضراء وعند الخوف وعند طلب الولد..هل يختلط هذا بما لو قلت لابنك : يا حسين ناولني الغترة!!

وتأمل في تعاقب هاتين الآيتين:

((وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ . **أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ** قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ))

تأمل في طريقة التصوير القرآني لمشهد ذلك الموحد وهو قائم لله وحده قانت لله وحده ساجد لربه وحده في جوف الليل البهيم يرجو رحمة ربه وحده ويخاف عذابه وحده ويناجيه وحده، وتسترسل دمعات عينه على خده راجيا عفوه وحده.

إي والله لا يمكن أن يستوي هذا لا في هيئته ولا في صورته ولا في ظاهره ولا في مناجاته ولا في خشوعه ولا في خضوعه مع من هو منطرح على أعتاب ضريح أو بين يدي وَثَن.

ولا ندري ماذا نقول:

(ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور)

أطروحات معاصرة

أُسأل عن كثير من الأطروحات المعاصرة في موضوع البحث، ولا أجد في نفسي ميلا للخوض في مثل هذا، فأنا قد وضعت تصوري وفهمي هنا، قد أكون مصيبا وقد أكون مخطئًا، لكن هذا هو فهمي، فيستطيع أي أخ أن يعرف رأيي في الكتب المصنفة في الموضوع من خلال بحثي هنا.

ولا بأس أن أذكر كتابين يكثر السؤال عنهما:

الأول : كتاب (**عارض الجهل وأثره في الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة**)، ورأيي أنه كتاب جيد نافع يستفاد منه نفع الله بمؤلفه الكريم، مع تنبيه مهم، وهو أن طرح الكتاب يُمثِّل مرحلة ما بعد استقامة التصورات والعقائد في البيئات المسلمة، فلو أردت أن تعرف منهج علماء الدعوة وغيرهم في مرحلة انتشار العلم والتي بدأت في آخر حياة الشيخ ثم حياة أبنائه، وهو حال الدولة السعودية اليوم، وهي المرحلة التي قلنا أنه لم يعُد يتصوَّر قيام الجهل الذي يعذر به في أفراد المجتمع إلا أن يكون شيئا هامشيا، فالكتاب نافع في هذا السياق، أما صورة بيئة الشيخ في أول الأمر في زمن الفترة وإندراس الرسالة وكل ما قد يُقاس بذلك، فلم يُعطَ هذا الجانب حقه في الكتاب، وقد بينتُ وجهة نظري من أن الشيخ يلحق المجتمع ككل في هذه الحالة بصورة حديث العهد بشرك، ولا ينشغل بتنزيل أحكام بل بالتعليم والارشاد والتنبيه وقد استمر على هذا النهج لعقود من تاريخ دعوته.

وللباحث الفاضل كتاب آخر أثار في بعض فصوله قضية الحكم بغير ما أنزل الله وذكر أنها أخذت جانبا كبيرا من التراث النجدي، وقد بينت رأيي في داخل الكتاب عن نوعين من الخوض في المسألة وفرقت بينهما فيراجع.

الكتاب الثاني: **إشكالية العذر بالجهل في البحث العقدي المعاصر**، لبعض أفاضل الباحثين المجتهدين في نفع إخوانهم، المتميزين بأسلوب مهذب في الطرح والنقاش، وهو كتاب

جيد فيه جهد مبذول، ومباحث نافعة واستفدت منه وأنا أقرؤه، إلا أن مجمل أطروحة الكتاب تصُب في طرح الاتجاهات المتوسعة توسعا غير منضبط في الباب، والتي نقدناها داخل الكتاب.

فالذي فهمته من الكتاب أن الشخص المتلبس بالشرك اليوم في قلب الرياض أو مكة أو غيرها ممن نشأ بينهم حاله كحال من يعيش في أزمنة الانقطاع عن العلم كما في أوائل دعوة الشيخ، ولا نتفق مع هذا الطرح، وقد بينت وجهة نظري فيما سبق، وقلنا هناك كيف يتصور لشخص نشأ في السعودية بين ظهراني السعوديين ويجهل التوحيد، كيف يعرف اتحاد جدة والهلال، ولم يسمع بابن عبد الوهاب وابن سعود ، كيف وصله بث ام بي سي، و لم يصله بث التوحيد، وقد رأينا في السعودية لو جاء شخص يتمسح بشيء هنا أو هناك منعه الحراس وإلا حملوه جزاهم الله خيرا على أكتافهم ومنعوه بالقوة.

وقلنا لو قدرنا أن هناك شخصا دخل في غيبوبة يوم ولد واستيقظ اليوم، أو تاه أجداده في مغارة في الربع الخالي ثم ظهروا اليوم، فنعم يكون له حكم مستقل لكن لا يكون هذا هو الأصل في السعودية وما كان مثلها من بيئات استقام فيها التوحيد.

والحقيقة أن تفريق علماء السعودية بين بيئة العلم وبيئة الجهل هو الذي جعلهم يحافظون على منجزهم التاريخي وحراسة التوحيد في المملكة، وإلا لو طبقنا أطروحات المتوسعين في الإعذار التي تصدر في بلد كالسعودية، لضاع هذا المنجز.

كما يتبادر إلى فهمي أن الجهل الذي يقصده الأستاذ المؤلف وجعله عذرا في الشرك هو الجهل بمعنى عدم التخصص العلمي، كما نقول الآن طلاب علم وعوام، ولا نوافقه على هذا بل الجهل الذي يكون عذرا هو الجهل بمعنى عدم بلوغ الحكم أو بلوغه مع عدم وجود من يُبيِّن ويكشف الشبهة.

وهذه النقطة لها تعلق بسابقتها لأن هذه المدرسة لما كانت ترى أن بلوغ الحكم مع تبيين الحجة وكشف الشبهة لا يكفي في رفع عارض الجهل، بَنَت على ذلك تصوُّر وجود شخص مشرك بالقبور بين ظهراني الموحدين وهو جاهل، وهذا لا أتبناه، بل رؤية الشخص للموحدين حوله وهو يسمع القرآن والسنة ويخالط الموحدين ووو..لازمه أنه بلغه التوحيد الصحيح بيقين، وارتفع عنه عارض الجهل المعذور، ولو وجدنا خلاف هذا في حالة أو حالتين لن يأتي على القاعدة الأصلية بالنقض.

وبسبب سوء تصور هاتين النقطتين بنى الأستاذ الفاضل الكتاب كله على قسمة لا نوافقه عليها، فجعل العلماء قسمين، عاذرين وغير عاذرين.

وهذا كله بناء على فهمه وتصوُّرِه لا على ما في نفس الأمر.

فمثلا وضع العثيمين في الذين يعذرون بإطلاق، وابن عثيمين إنما يعذر في حق من لم يخطر بباله أن ما هو عليه شرك، أما في السعودية بنص كلامه وقد نقلناه فلا عذر، وطبعا ذكره السعودية المقصود منه ضرب مثال لا الحصر، إذن الشيخ يفصل ولا يطلق.

ووضع ابن باز في الذين لا يعذرون بإطلاق، ولا نوافقه على هذا، بل ابن باز من الناحية التنظيرية يشترط الحجة وقد نقلنا عنه وعن اللجنة برئاسته، ولكنه يرى في هذا العصر لاسيما في السعودية أن التوحيد دخل كل دار ودعوة التوحيد انتشرت في كل مكان، فلا مجال لإطلاق العذر حاليا، ولهذا يكثر ابن باز في فتاويه من عبارة لا يعذر (بين المسلمين)، يريد (بين الموحدين) ، لأنه يكون قد رفع عنه عارض الجهل بمجموع بلوغ القرآن ورؤية الموحدين حوله وسهولة البحث والاسترشاد لمن أشكل عليه شيء، ولهذا صاح في أحد المستفتين ممن قال له أن بعض الناس جاهل، فقال له الشيخ (كيف يجهل يا فلان ارزقني يا فلان أغثني، هذا أظهر شيء في الوجود)، ومثله الفوزان لما قال: (إلى متى

سنعذر ماذا نصنع نذهب ندخل لهم الحجة في قلوبهم)، أو شيئا قريبا من هذا أكتب من ذاركتي.

ولو تصورنا أن أحدا وقع في شيء من هذا الباب فهم ينبهونه فقط ويذكرونه فإن التزم وإلا انتهى الأمر، بخلاف المدرسة التي ينتسب لها الأستاذ.

ووَضَعَ محمد بن عبد الوهاب في الذين يعذرون بإطلاق، وبعض أئمة الدعوة في الذين لا يعذرون بإطلاق، ولا نوافقه على هذا، فالإمام عذر في زمانه زمن الفترة واندراس الرسالة ويدأ بتصحيح المفاهيم، وهذا لم يخالفه فيه أحد ممن جاء بعده من أئمة الدعوة إلى اليوم ولم يخطؤوه فيه، أما في آخر حياة الشيخ وفي الطبقة التالية في زمن حمد بن ناصر والطبقة التالية كأبا بطين، فقد كانت السعودية أكبر من السعودية حاليا والحركة العلمية أنشط من الحركة العلمية حاليا ، بل كان عبد العزيز بن محمد بن سعود نفسه يلقي دروسا علمية في هذه الحقبة وهو رئيس الدولة فكيف بالخطباء والوعاظ الذين دخلوا كل بيت، وهنا صار الأصل عندهم كعلماء السعودية اليوم أنه لا يتصور العذر إلا الشيء بعد الشيء.

ووضع الألباني في الذين يعذرون بإطلاق، والألباني كما نقلنا عنه كسائر أهل العلم إذا استقام أمر التوحيد في البيئة وعم وانتشر فلا عُذر وقد نقلنا ذلك، أما بيئته الشامية في حياته ففي تصوره أنها أقرب لبيئة الشيخ أول الأمر فينبغي التعليم والإرشاد أولا وعدم الانشغال بغير ذلك.

وهكذا قسَّم الأستاذ الآراء بناء على فهم غير موفق لأصل المسألة التي بنى عليها الكتاب ثم ذكر أدلة هؤلاء وأدلة هؤلاء وجعلهم يتناقشون ويتحاججون ثم رجح والواقع أنهم غير مختلفين أصلا!

ولو أن الأستاذ ترك فكرة (العذر بالجهل) ، وجعل الكتاب يقوم على فكرة (شرط بلوغ الحجة وتبيينها وكشف الشبهة)، لوجد بإذن الله أن كل محققي أهل السنة لا يختلفون في

اشتراط هذا، ولكن بعد الاتفاق على الشرط هنا قد يكون من أهل السنة من يُضيِّق قليلا، ومنهم من يوسِّع قليلا ، ولكن على كل حال ليس توسعا كتوسع الأستاذ.

وعندما يقوم بإثراء أسباب التضييق وأسباب التوسع سيجدهم متقاربين جدا.

فالشوكاني مثلا فتواه المشهورة بأنه لا يعذر مشركي القبور بالجهل لأن الرسول قد بُعِث والقرآن يتلى، هذا واضح في أنه اشترط بلوغ الحجة وإلا لماذا يشترط القرآن والرسول في السياق، ولكن لماذا أطلق عدم الإعذار؟ لماذا لا يقول يُبيَّن لهم ويشرح لهم؟ المتابع لسيرة الشوكاني سيجده بيَّن وبيَّن وبيَّن في بيئته الزيدية ولا أثر فلا مجيب ولا مستمع، فوصل إلى نتيجة أن جهل هؤلاء ليس هو بمعذور وإلا فالشوكاني في موضع آخر في النيل له كلام يستفاد منه أنه من الناحية النظرية إذا وقع أحد المعينين في عمل يتصور فيه عدم بلوغ الحجة فينبه ويعلَّم أولا، ولا تناقض، والصنعاني في بيئته حاله كالشوكاني.

كما فهمت من طرح الكتاب أن خفاء التوحيد في حق الجاهل كخفاء المسائل الخفية في نفسها من الدين، وهذا لا أتبناه، وقد بينت وجهة نظري ، من أنه في البيئة التي استقام فيها أمر التوحيد لا يتصوَّر فيها خفاء التوحيد.

و في بيئات الجهل يتصور الخفاء ولكن قلنا خفاء أصل الدين والمسائل المعلومة من الدين بالضرورة في حق الشخص هذه تزول بتبليغ الحجة والتبيين والتعاطي مع الشبهة فقط، لا أكثر من ذلك، بخلاف المسائل الخفية في نفسها فهذه قد تحتاج مناقشات علمية عميقة كما مثلناه بمقالات حلول الحوادث والتركيب والجسمية والهيولي والصورة، والجوهر الفرد، وهذه الخفايا.

مثاله : شخص دخل حديثا في الإسلام وأنكر وجود الملائكة ، مثل هذا ننبهه فقط نقول له الإيمان بالملائكة ركن، فقد قال تعالى كذا، فإن التزم فالحمد لله وإلا فليس هو من أهل الملة.

على نفس المنوال شخص دخل الإسلام حديثا في السعودية واتجه إلى قبر أو ضريح يعبده ينبهه القضاء الشرعي فقط وفإن تجاوب أو استشكل وإلا انتهى الأمر.

فإن كان المجتمع كله عنده خلل في الباب (شرك القبور) حملنا الجميع على الحديث عهد بشرك ونشرنا العلم وأقمنا الحجج وصححنا التصورات وأجلنا الخوض في الأحكام.

كما أن خفاء الأصل لا يكون كخفاء الفرع، فمثلا لا نتصور اليوم أن أحد المسلمين لا يعرف الملائكة، ولكن نتصور أن يكون كثير منهم لا يعرف من منهم أوكل بالقطر ومن منهم أوكل بالنفخة وهكذا، فهذا باب وذاك باب.

كما نختلف مع طرح الكتاب حول مسألة الأوصاف والأحكام والتي رفض تنزيلها من أي وجه ومن أي صورة، لا على وجه التعميم ولا غيره، وهذا لا نتبناه وقد بينت وجهة نظري داخل الكتاب، وكأن بعض الإخوة نبه الأستاذ المؤلف أن تنزيل الوصف موجود في كلام العلماء فحمل ذلك على (المشرك اللغوي) وهذا المشرك اللغوي لم أفهمه، هل هو مستفاد من شعر العرب ومعلّقاتهم أم ما المقصود، فالذي أفهمه من كلام العلماء أنه وصف شرعي، معناه إذا أطلق على وجه التعميم أو مع الصلة والتقييد قيام مقتضى العذاب (الكفر أو الشرك) بالشخص، أما شرط العذاب (بلوغ الرسالة) فإذا تحقق ثبت عليه الوصف الشرعي من كل وجه وأطلق على عينه، وقد بينت ذلك في فصل الأسماء والأحكام.

ولهذا البحث ارتباط ببحث التحسين والتقبيح العقلي في الكتاب، حيث أنكر الأستاذ أن يكون الله سبحانه وتعالى ركز التوحيد في عقول البشر حتى لا يلتزم تنزيل الوصف في أية حاله بناء على هذا الربط، وهذا البحث لعله أغرب مباحث الكتاب في نظري، حيث وصف مخالفيه بأنهم لم يفهموا كلام العلماء وجاء الأستاذ بفهم لا علاقة له بهم ، وإن كان بعض مخالفيه قد يكون أخطأ وتوسع في الأحكام التي رتّبها على هذا الأصل إلا أن نقضه من

رأسه من جهة الأستاذ خطأ، لأن هناك حقا من الناس من يتعارض في ظاهرهم مقتضى الفطرة الأولى (التوحيد) ، ومقتضى مخالفة الفطرة والعقل (الشرك) كأهل الفترة، فتغلب الشريعة في حقهم من جهة الأحكام الثاني لا الأول وتؤاخذهم بترك الترحم والاستغفار والصلاة عليهم إلخ، مع أنهم لم تصلهم الرسالة، و لو خضنا في هذا بالآراء لقلنا أليس الأولى لما كان شركهم ليس نابعا من مخالفة الرسول أن يكون الشرك في حقهم كالعدم ونعاملهم بمقتضى الفطرة الأولى التي فطر الله الناس عليها، فنترحم ونستغفر..ولكن الشريعة غلبت جانب مخالفة الفطرة والعقل في أحكامهم.

وتقدم معنا في باب الأسماء والأحكام أن الشريعة ترتب أوصافا وأحكاما بناء على مخالفة ما ركزه الله تعالى في الفطرة والعقل، ولكن مساحة هذه الأحكام هي التي قد يتوسع فيها بعض مخالفيه، أو يستدل بها في غير محلها.

وقد لاحظت أيضا أن الأستاذ يفهم كلام كثير من مخالفيه فهما مختلا ويبني عليه سجالا ، ويكون المخالف يتحدث في سياق آخر.

وبسبب هذه الآراء وغيرها لاحظت أن الأستاذ لديه استشكالات على التراث النجدي، مع أدبه جزاه الله خيرا في العبارة عند النقد، وقد ذكرت في صلب بحثي هنا أن هذه الاتجاهات المتوسعة في الباب ومنهم الأستاذ دخلت في سجال مع الدعوة من وقت مبكر لأن الأصول مختلفة.

وعامة ما يستشكله الأستاذ في التراث النجدي في الأحكام والأوصاف والأفعال والقتال موجود أضعافه في التراث التيمي وأضعاف ما في التراث التيمي موجود في تراث أهل الحديث.

وقد كنت بدأت في كتابة مذكرة مفصلة حول الكتاب لكن يلاحظ القاريء أني أختلف معه في فهمه للمصطلحات التي عنون بها الكتاب (العذر) و(الجهل) ففهمنا للعذر غير فهمه،

وفهمنا للجهل غير فهمه، ثم نختلف معه فيما بناه على فهمه من تقسيم آراء العلماء إلى فريقين، فالخلاف هنا في الكتاب من رأسه، ولا فائدة في تتبع مسائله بالتفصيل إن كنا لا نتفق حتى في العنوان.

وعلى كل حال الكتاب قد يحدث توازنا في الساحة مع أطروحات المضيقين للباب الذين يبادرون بالحكم بالردة بمجرد الوقوع في الشرك أو إلغاء عقد الملة قبل التعليم والبيان ونشر الوعي في أي زمان وفي كل مكان، وهم كثر أيضا في الساحة.

ولم أكن أميل أبدا إلى طرح رأيي في الكتاب لأن الأستاذ له جهود مشكورة في مناقشة الغلاة وهو مجتهد في إفادة الطلبة، ومثل هؤلاء الأفاضل الأفضل تركهم فيما هم فيه من خير، لولا أن الأستاذ المؤلف كتب نظرات نقدية على كتابي الأول الانتصار للدرر السنية، وقد فرحت بها كونها صادرة من متخصص في العقيدة مثله، وانتفعت بها وشكرته، وغلب على ظني أنه قد يكتب نقدات أخرى على هذا البحث، فرأيت أهمية التنبيه على أن تصوراتي وأصولي التي أنطلق منها في فهم الباب تختلف جذريا عنه، فيعفيني هذا من التعاطي مع سجال لن يفيد.

نصيحة ختامية

في الختام: في القلب نصيحة لإخواننا في السعودية..

استحضار التاريخ القديم لأية دولة من الدول سلاح ذو حدَّين، قد يوظَّف توظيفا مرشَّدا إيجابيا، وقد يوظَّف توظيفا سلبيا مختلاً، لا يستفاد منه كثير شيء بل ينعكس على الواقع والمستقبل بالسلب، وهذا الكتاب كتبناه لإزالة اللبس والإشكال عن كثير مما يتعلق بالدعوة النجدية وأئمتها، وانتصارا لما نعتقد أنه الحق في بعض

المسائل العلمية، ولست من السعودية ولم أزرها إلا في الحج ولا أعرف المكونات القبلية والأسرية فيها، إلا أن الذي رأيناه في التاريخ ونراه إلى اليوم أن الخوض الزائد في صراعات قد طوى التاريخ زمانها ومكانها ، وجعلها حديث الساعة، قد يثير نعرات ويوقظ فتنًا كانت قد نامت واسترسلت في نومها، والعالم الإسلامي إلى اليوم يعاني مما حدث في زمن سحيق بعيد في صدر الإسلام ولا تزال بعض الدول في العالم الإسلامي تدفع ثمن ما حدث إلى اليوم..للخلل المذكور في توظيف التاريخ والاستفادة منه.

الشيخ محمد بن عبد الوهاب و محمد بن سعود بعد سنوات من الفتن وأزمنة من الدماء وقرون من الضياع في نجد من القرن الثالث إلى الثاني عشر، كانا سببا في توحيد أهل الإسلام في قلب العالم الإسلامي وفي أن يبقى هذا البلد آمنًا مطمئنا لقرون من الزمان إلى اليوم لم يعرف تاريخ هذه المنطقة مثلها، وتوحيد البيئات التي تقوم على العصبيات الأسرية والقبلية في العالم الإسلامي هو شيء كالمستحيل فضلا عن أن يستمر طوال هذه القرون..

والشيخ محمد وذريته جمعوا قلوب المسلمين في العالم الإسلامي من شرقه إلى غربه على توحيد رب العالمين ، وصار هو ودعوته رمزًا للموحدين في كل أنحاء الدنيا إلى اليوم..وهذا هو المهم الآن..

بل هو رمز لحرية المعتقد .. الذي ينادي به العالم اليوم..فقد دافع عن حريته وحرية عقيدته إلى آخر لحظة في حياته..

ذرية محمد بن سعود هي الذرية الوحيدة التي اجتمع عليها أبناء ذلك البلد لقرون من الزمان..هذا هو المهم الآن..

كل خلل علمي يُصحَّح .. وكل قرار سياسي لم يكن موفقا يعالَج..

ما الذي حدث وكيف حدث ولماذا حدث..لم يعد مهما الآن .. المهم أن البلد آمن مطمئن طيب رغيد..

كان الشيخ محمد وأئمة الدعوة وكانوا وكانوا..لا بأس.. اجعلهم كما تشاء..المهم أنك تعيش اليوم آمنا مطمئنا..واجعل كانوا عند ذلك الكوكب..

كان محمد بن سعود يفعل ويفعل..لا يهم..المهم أن الجميع قد تجاوزوا ما حدث..واجتمعوا بعد فرقة..

مدرسة علمية استمرت لقرون كمدرسة الشيخ محمد لا يمكن أن تسلم من أخطاء .. ولكن هذه الأخطاء تعالج وتقوَّم وتصحح بحكمة..لا بما يهدم المدرسة وإنجازاتها العلمية التاريخية التي قامت بها..على المستوي الديني والدنيوي..وهل في الدين منجز أعظم من تعليق القلوب بربها ..وهل في الدنيا منجز أعظم من الوحدة والأمن!

وليس هذا ما نرجوه للسعودية فقط بل لعامة بلاد المسلمين الآمنة المطمئنة..

كل داء يعالج..وكل معوج يستقيم..إلا الفتن والعصبيات والنعرات فهذه أعيت من يداويها...

وعجيب – حقًّا – أمر قطاعات واسعة في السعودية اليوم..

كل الشعوب تفتخر بتاريخها..

وليت شعري إذا لم يفتخروا بتاريخٍ كهذا ..

وإذا لم يفتخروا بهذين الرجلين ..

فبأي شيء يُفتخَر إذن!!

آخر الكتاب[1]

فهرس الموضوعات:

---

1 أسعد بتلقي الآراء حول الكتاب والاعتراضات والاقتراحات والنقد، على إيميلي:
Shady_alnoaman@hotmail.com
أو على الواتساب: 00601136673065 (وهو رقم مؤقت).

الحرب سجال بين الدرعية والرياض

وإن جنحوا للسلم

إخضاع الرياض وتوحيد نجد على التوحيد!

تقريرات علمية هامة عن الواقع السياسي والمجتمعي في نجد تعين على فهم هذه المرحلة الخطيرة من قصة الدعوة

في ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة ومنهجهم

واقع نجد في تصور الشيخ محمد بن عبد الوهاب

تصور العلماء الذين يمثلون امتدادا للدعوة النجدية في العصر الحديث

حول مرحلة القتال في نجد

تصور رموز الدعوة السلفية خارج الدائرة النجدية في العصر الحديث

عن مرحلة القتال

حرص الشيخ وأئمة الدعوة على توثيق أسباب ظهور أدبيات القتال

لديهم وأنه كان دفاعا عن النفس والأهل والمال

وأنهم لم يبدؤوا أحدًا بقتال

الخرائط

مرحلة ظهور أدبيات التكفير التطبيقي في تراث الدعوة

الحرب الإعلامية على الشيخ والدعوة

قائمة الاتهامات والافتراءات التي بثّها أعداؤه في نجد

الطليعة الأولى من أدبيات التكفير: أدبيات تدفع تهم التكفير!

هل في ظهور أدبيات التكفير عيب؟

بتكفير الأتراك والمصريين للدعوة وأبنائها

وقتالهم على أنهم يقاتلون الكفار

السجالات العلمية الرئيسية التي خاضها الشيخ ثم أئمة الدعوة مع أصناف من أعداء الدعوة ومخالفيها

تسليط الضوء على السجال العلمي الذي خاضه أئمة الدعوة مع اتجاهات لديها تصورات مغايرة لهم في أبواب تكفير المعين والعذر بالجهل

توضيح بعض الخلل العلمي في قراءة بعض أطروحات أئمة الدعوة في الموضوع بسبب قراءتها خارج سياقها الموضوعي

أولا تسليط الضوء على كتاب مفيد المستفيد وبيان موضوعه

ثانيا: موضوع كتاب الانتصار لحزب الله الموحدين لأبا بطين

تسليط الضوء على كتاب حكم تكفير المعين لإسحاق بن عبد الرحمن آل الشيخ

آراء علماء السلفية في العصر الحديث في مسألة تكفير عباد القبور

الجهة المخوّل إليها تنزيل العقوبات على الأفراد والطوائف

والحديث عن تنزيل التكفير بين التنظير والمصلحة

جهود أئمة الدعوة في محاربة ظاهرة الغلو في التكفير

مسألة الحكم بغير ما انزل الله

تقريرات أئمة الدعوة في أبواب السمع والطاعة

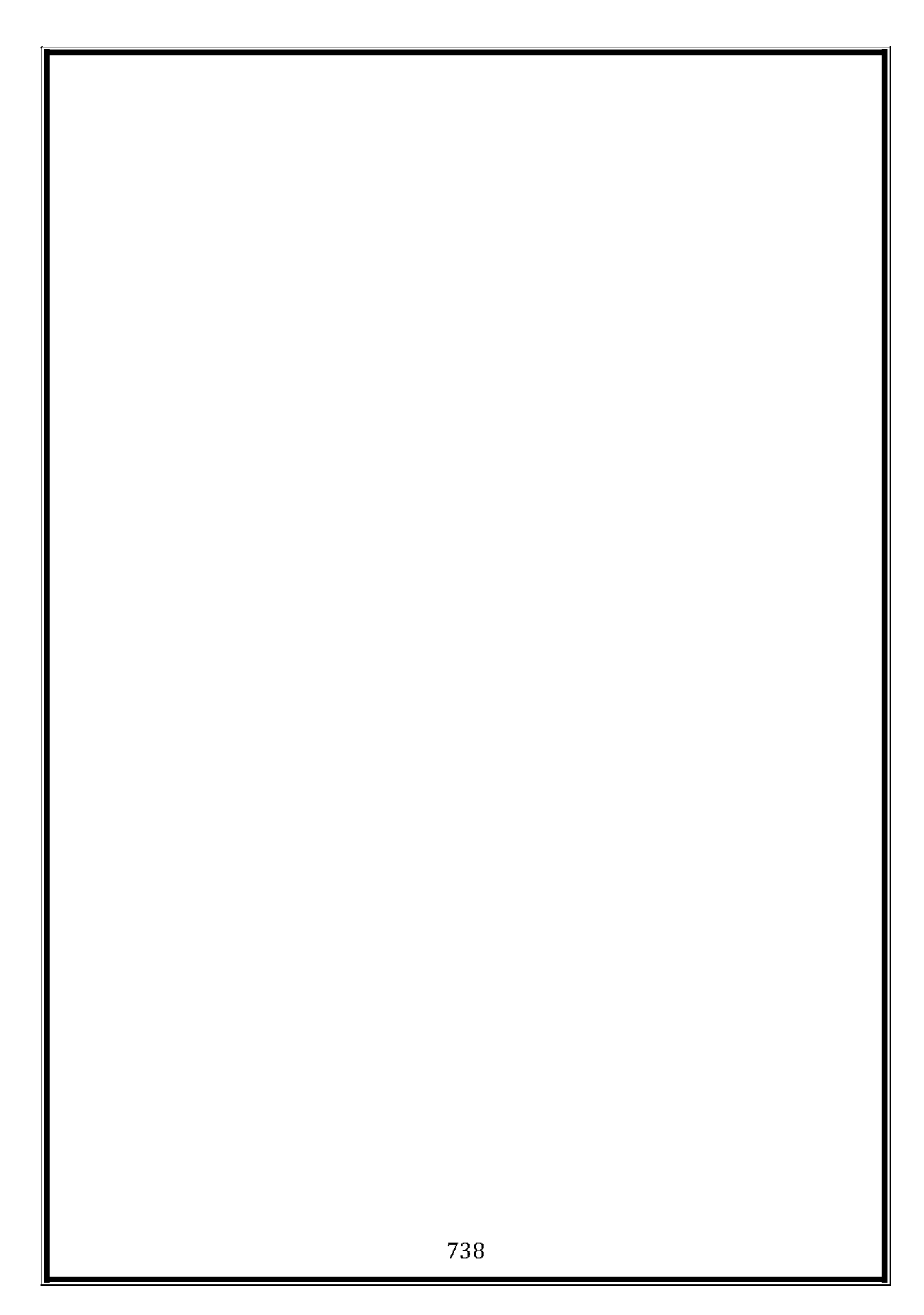
لولاة الأمور الشرعيين ومن في حكمهم

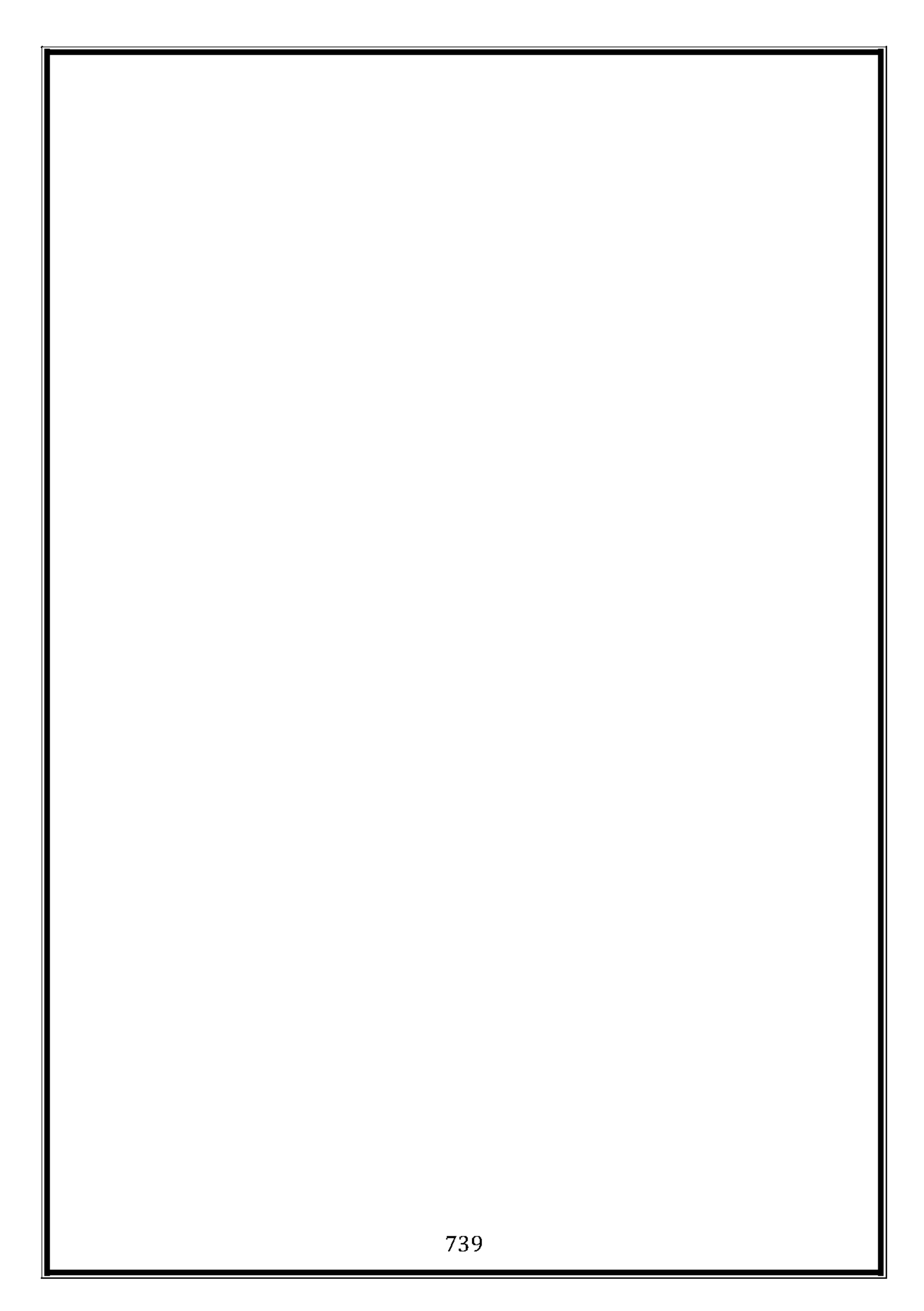
حصاد وثمار

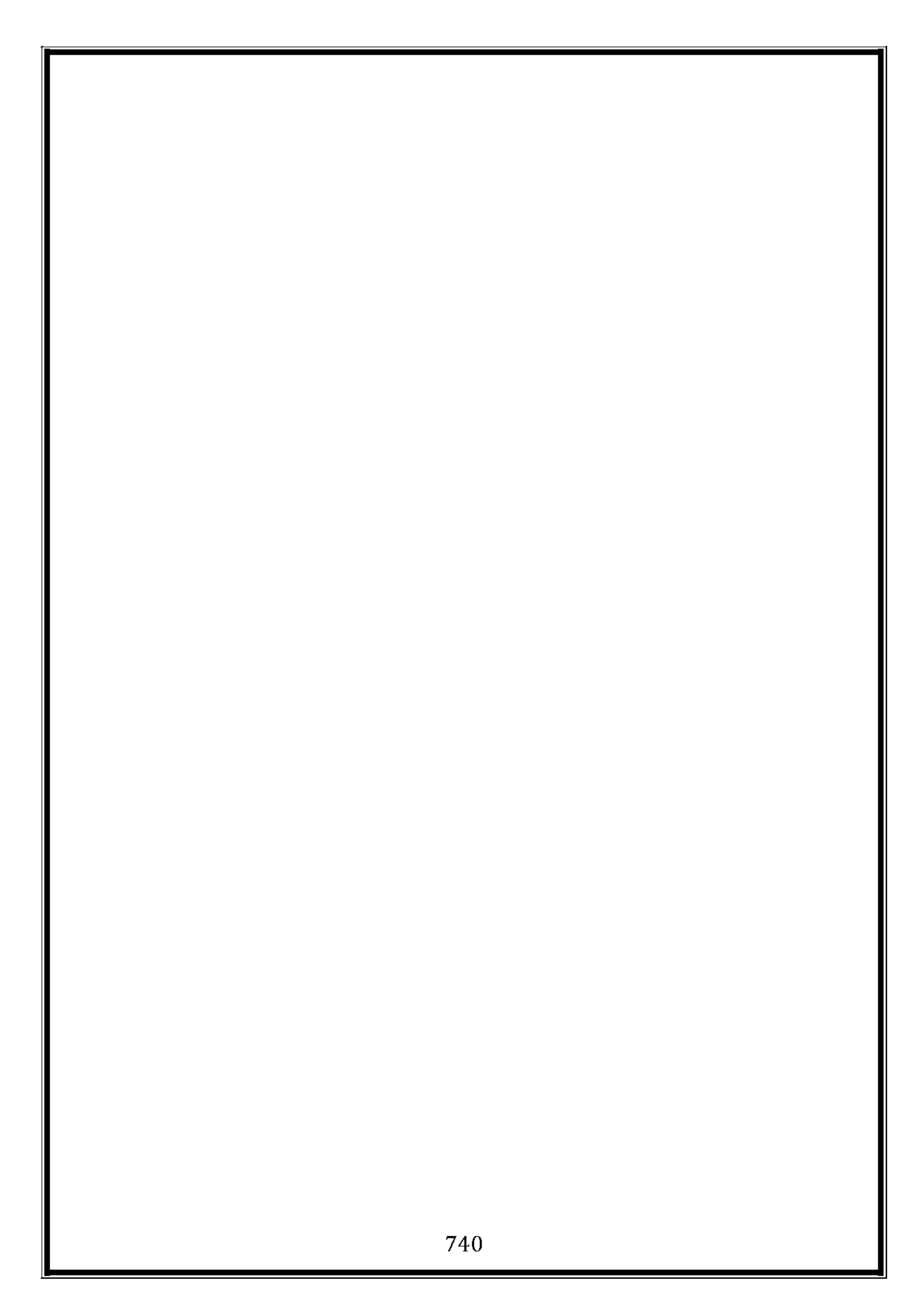
عودة لقصتنا.. الأعداء يحشدون مرة أخرى

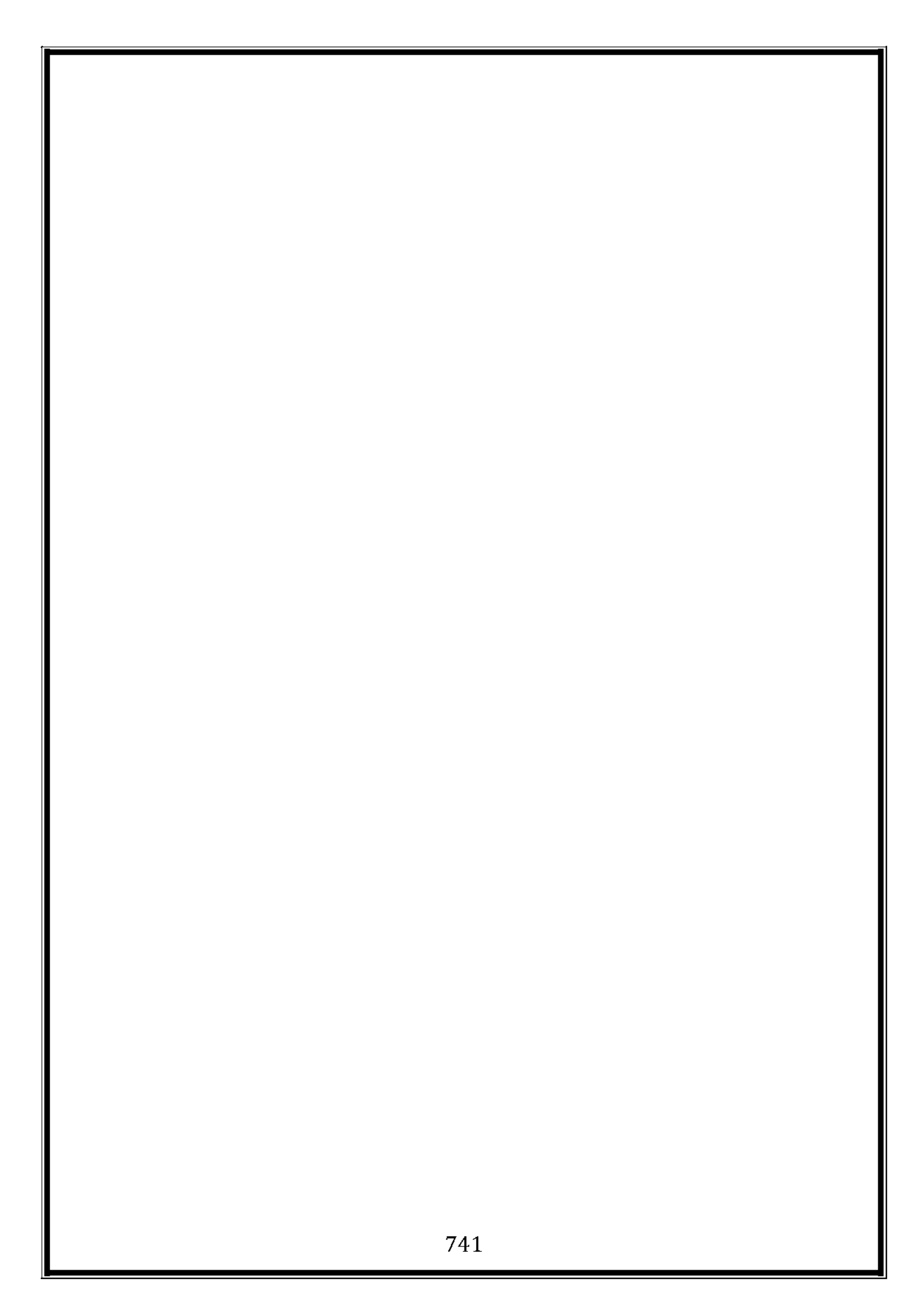
معركة الدرعية الأخيرة:

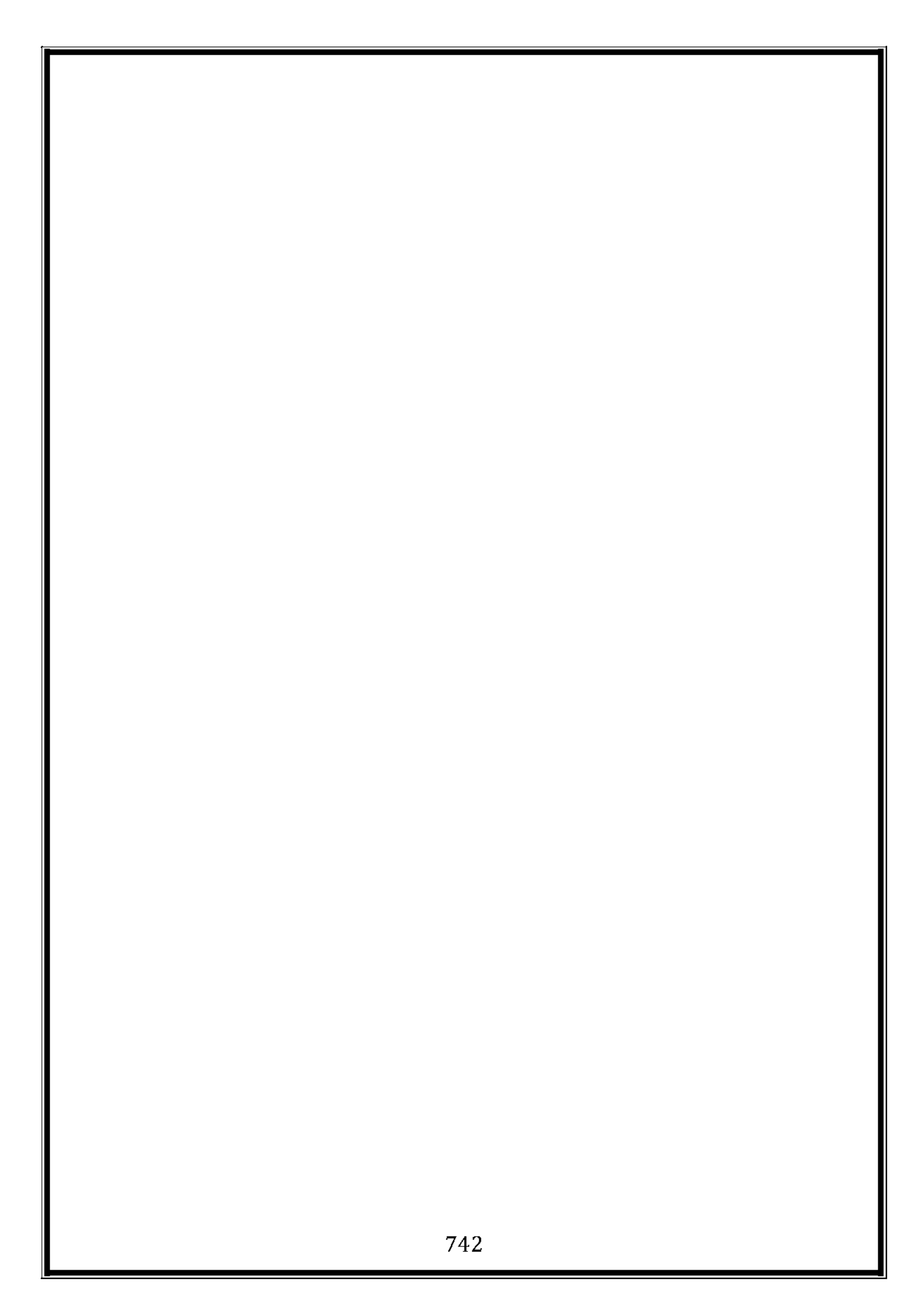
حال نجد بعد إسقاط الدرعية:

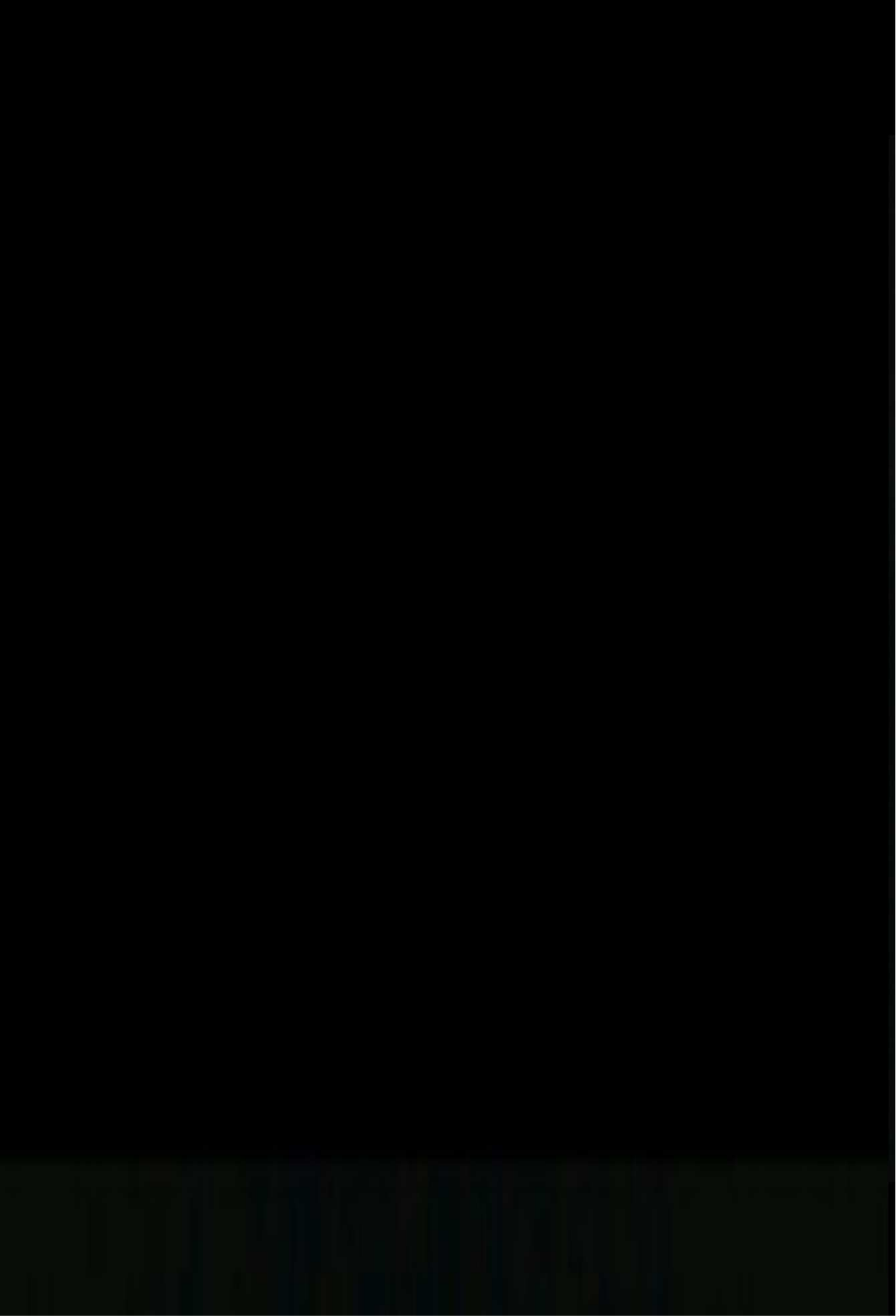












مصابيح الظلام

